

# السلامة

فصلية ثقافية



66

شباط 2001



رئيس التحرير

محمود درويش

مدير التحرير

حسن خضر

تصدر عن : مؤسسة الكرمل الثقافية

مركز خليل السكاكيني الثقافي - ص ب ١٨٧ - رام الله - فلسطين

هاتف : ٢٩٦٥٩٣٤ (٠٢) - هاتف/ فاكس : ٢٩٨٧٣٧٤/٥ (٠٢)

E-mail : editor@alkarmel.org

الكرمل على الانترنت : <http://www.alkarmel.org>

تصدر طبعة الاردن عن : دار الشروق للنشر والتوزيع، ص ب ٩٢٦٤٦٣

الرمز البريدي ١١١١٠ - عمان - الاردن - هاتف : ٤٦١٨١٩٠/١ - فاكس : ٦١٠٠٦٥

باريس : Mr. S. Hadidi

17, avenue Georges Duhamel

94000 Cretell

France

الاشتراكات السنوية : ٦٠ دولاراً للأفراد ١٢٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة

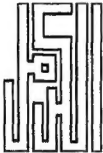
Al-Carmel Cultural Foundation

Arab Bank - Manara branch - Routing number : 49852

Ramallah - Palestine

العدد 66

شتاء 2001



فصلية ثقافية

الغلاف : خالد حوراني  
لوحة الغلاف: رسوم أطفال - خليل بركات (8 سنوات)  
التنضيد والانتاج والطباعة: مؤسسة "الايام" - رام الله

ستزقظنا شروط السلام المعلنة من حلم جميل يتحوّل كابوساً. فلا تعدنا هذه الشروط بنهاية الاحتلال، بل تطالبنا بالإعلان عن انتهاء مطالبنا الوطنية وزياتها الصراخ من أجلها، قبل أن نتعرف على خارطة بلادنا الجديدة... مقابل حقّ غامض في إضفاء صفة الدولة على شبه دولة محرومة من الاستقلال والسيادة، حيث تنبؤ الاستعمارة مكانة الجغرافيا، وحيث يتفصل النأى عن المدلول والدلالة، ولا تشرّ الرمز على أرضها. سيرتفع الغمّ الوطني، بانتضاب صارم، هنا. ثم يختفي بعد قليل هناك، ليظهر ثانية على بقعة ما في خارطة مليئة بالتقريب الملونة، وسيحتاج دائماً إلى دليل أمني أو سياحي. وسيصعب على عالم الجغرافيا الشكي أن يحفظ حدود بلاده المتعرجة، المتفرّجة، المتمرّجة، محاشياً للاصطدام بمجال المستوطنة التي تحتلّ مكانة المركز وبئر الماء.

سيحلّ تعريف الدولة المتحرك محل الوطن الثابت، مع كل ما في هذه العملية من تداعيات ثقافية وتروية، مستحسب الذائكة الجمعية من تاريخها ومكانتها لتبحث عن رواية جديدة، أو تتشظى إلى روايات فردية. سيغيّر مكان الولادة، فلم يولد فلسطيني، منذ الآن، في فلسطين الأولى. إذ تقتضي الواقعية السياسية ألاّ يذكر أحد طفولته إلاّ في الأدب. وسيُتهم الحالمون بعودة ما إلى أرض الماضي القريب بالإفراط في الخيال والحماقة. فكيف يفكر عاقل بأن يعود خمسين عاماً إلى الوراء إذا لم يكن يهودياً؟ إن الهدنة الصهيونية، وحدها، هي التي تمجدّ حق العودة إلى ألفي سنة خلت، فتكون الهدنة بلت الحرافة الشرعية، ويكون التاريخ نتاج الأسطورة المسلحة.

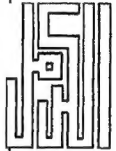
سنجرّ إلى مناقشة أكاديمية لا تنتهي حول تعريف «من هم اللاجئون؟». يقول لنا الإسرائيليون إن اليهود المهاجرين من البلاد دائماً بالنفسي أو الشتات؟ سيتوقف الجواب على انتقائية مفهومية لا ترمي إلى أكثر من حرمان اللاجئين الفلسطينيين من واحتكار هذه الصفة. وإذا قبل لهم: طالبوا بحكم في العودة، قال العقائدي: هنا وطننا التاريخي. وقال الليبرالي: لن نخرج من واحة الديمقراطية إلى صحراء الاستبداد. وقال المثقف المنفتح على الآخر: لاجئون أنتجوا لاجئين، وتلك هي إحدى مفارقات المصير الإنساني. أمّا عاموس عزّز فيقد ناقوس الخطر قائلاً: إن حق العودة معناه القضاء على حق إسرائيل في الوجود. ولذلك فإن الشعب الفلسطيني ليس مستعداً لصنع السلام.

لن نسأل من يحتلّ أرض من؟ لفضل الجواب ليس واضحاً بعد في المجتمع الإسرائيلي المناهض لانتخاب رئيس حكومة أكثر يمينية. ولكن الشعب الفلسطيني ليس مستعداً لاختيار العودة حتى لو سطاها عزّز «سلاماً». لقد أثبت الشعب الفلسطيني، بدعمه وبخطابه السياسي، أنه مستعدّ للدفع أيّ ثمن حرّيته التي تؤدي إلى السلام. أو لدفع أيّ ثمن لسلام مشروط بالتحزّب ونسبة معقولة من العدالة.

وعلى الرغم من الحصار المتعشّد الجنسيات والأشكال، فقد استطاعت الانتفاضة، وهي وسيلة من وسائل الربط المحكّم بين مفهومَي التحرّر والسلام، أن تكسر بعض المعرّكات في الديانة السياسية الإسرائيلية، مثل النقاش الجارّي حول تقسيم القدس التي لم تعد، على مستوى الوعي، «عاصمة إسرائيل الموحدة إلى الأبد»، ومثل النقاش الدائر حول ضرورة التخلّي عن والمستوطنات السياسية. لكن نضع هذه المناقشات وانتقالها من المجال النظري إلى السياسة، رويط سؤال الأمن والمقتضى بمسألة العدالة المقتضى هي أيضاً. يحتاج إلى وقت يتحمل فيه القدر الفلسطيني المزيد من المعاناة لاختراق قلعة الوعي الإسرائيلي بأن العدالة هي التي تؤدي إلى تسوية، قد تؤدي إلى سلام قد يؤدي إلى مصالحة... بينما لن يؤدي أيّ سلام مفروض إلاّ إلى اغتراب فكرة السلام، وإلى تصعيد وتيرة الصراع.

إن أية تسوية تستند إلى وضع الشرط الإسرائيلي في مكانة القدس الذي لا خساس به، ويخسّها فيها توازن القوى - وحده - جميع الحقوق، وتستبدل فيها الشرعية الدولية بتشريعات الكنيست الإسرائيلي أو الكونغرس الأمريكي، ستكون تسوية مفروضة لا يستطيع لقبها الواقعية وصفها إلاّ بالقول: هنا هو الممكن...

وهذا يعني أن السلام الحقيقي غير ممكن



# الفهرست

القربان

محمود درويش

٩-٧

## الملف

- الانتفاضة: فعل وكتابة  
عبد الرحمن منيف، سعدي يوسف، جمال ١٠-١٠٧  
الغيطاني، يوسف القعيد، الياس  
خوري، عباس بيضون، نزيه ابو  
عفش، مدوح عدوان، وليد اخلاصي، محمد  
برادة، محمد لطفي اليوسفي، منصف  
الوهايبي، جهاد هديب، طاهر رياض،  
خيرى منصور، حسين يرغوثي، احمد  
دحيور، ليانة بدر، علي الخليلي، جميل  
هلال، انطوان شلحت، حسن خضر

## الملف

الانتفاضة: في كتابة الآخر

- الركض في ساحة خراتيت  
اسحق لاوور ١٠٨-١٢٨  
إعادة انتاج حكاية مستهلكة  
محمد حمزة غنايم ١٢٩-١٤٢  
حيث يكون الجنود تكون الحجارة  
عميرة هس ١٤٣-١٤٩



للواء للنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي «الكركم»

---

### من الذاكرة الثقافية الفلسطينية

نجيب نصار: فيصل دراج ١٦٨-١٥٠  
الصحفي المقاتل الذي انتظر هزيمته

---

### نوبل 2000

قوة الحياة، هشاشة الأدب غاو شينغجيان ١٩١-١٦٩  
محاضرة نوبل-فصول من «جبل الروح»  
الأدب الصيني في التسعينات لي ميبل ٢٠٢-١٩٢

---

### مختارات

كتاب اللاطمأنينة فورتاندو بيسوا ٢٢٧-٢٠٣

---

### رواية

كبوتاه (بزوغ اللون) سليم بركات ٢٦٢-٢٢٨

---

### مكتبة الكركم ٢٨٨-٢٦٣

بيير بورديو وآخرون: يؤس العالم كاظم جهاد  
أحمد ابو دهمان: الحزام كدج  
أورنداتي روي: ثمن العيش فخري صالح



# القربان

محمود درويش

هيا... تتقدم أنت وحدك، أنت وحدك،  
حولك الكهان ينتظرون أمر الله، فاصعد  
أيها القربان نحو الذبح الحجري يا كبش  
الفداء - فدائنا ... واصعد قويا

للك حبنا، وغناؤنا المبحوح في  
الصحراء: مات الماء من غبش السراب،  
وأيقظ الموتى! ففي دمك الجواب، ونحن  
لم نقتلك... لم نقتل نبيا /

/ إلا لنمتحن القيامة، فامتحنا أنت  
في هذا الهناء المعدني. وميت لتعرف  
كم نحبك... كم نحبك! ميت لتعرف  
كيف يسقط قلبك الآن، فوق دعائنا،  
رطباً جدياً.

للك صورة العني. فلا ترجع إلى  
أعضاء جسمك. واترك اسمك في المصلى  
صبغة لشيء ما: وكن أيقونة للحائرين،  
وزينة للسامرين، وكن شهيداً شامداً،  
مطلق المخيا

فبأي آلاء نكذب؟ من يظهرنا

سوالك؟ ومن يحررنا سوالك؟ وقد  
ولدت نياحة عناً هناك . ولدت من نور  
ومن نار . وكنا نحن نجارين مؤفبين في  
صنع الصليب ، فخذ صليبك وارقع  
فوق الثريا

سنقول : لم تخطئ ، ولم تخطئ . إذا  
لم يهطل المطر انتظرناه ، وضحيًا بجسمك  
مرة أخرى . فلا قربان غيرك ، يا حبيب  
الله ، يا ابن شقائق النعمان . كم من  
مرة ستعود حياً !

هيا ، تقدم أنت وحدك ، يا استعارتنا  
الوحيدة فوق هاوية الغنائين . نحن الفارغين  
النائمين على ظهور الخيل ... نسألك الوفاء ،  
فكن وفيًا للسلالة والرسالة . كن وفيًا  
للأساطير الجميلة ، كن وفيًا !

وبأي آلاء نكذب؟ والكواكب في  
يديك . فكن إشارتنا الأخيرة . كن عبارتنا  
الأخيرة في حطام الأبجدية « لم نزل  
نحيا ، ولو موتى » . على دمك أنكلنا .  
دلنا ، وأضئ لنا دمك الزكي !

لم يعتذر أحد لجرحك . كلنا قلنا  
لروما : « لم تكن معة » . وأسلمناك للجلاد .  
فاصفح عن خيانتنا الصغيرة ، يا أخانا  
في الرضاعة . لم تكن ندري بما يجري .  
فكن سمحاً رضيعاً

ستصدق الرؤيا ونؤمن بالزواج الغد  
بين الروح والجسد المقدس . كل ورد  
الأرض لا يكفي لعرشك ، خفت الأرض ،  
استدارت ، ثم طارت كالحمامة في سماءك -

يا ذبيحتنا الأنيقة . فاحترق لتضيينا ، ولتنبيق  
نحباً قصياً

أعلى وأعلى . لست مناً إن نزلت  
وقلت : « لي جسدي يُعَذِّبني على خشب  
الصليب » . فإن نطقت ... أفتت ، وانكشفت  
حقيقتنا . فكُن حليماً لنحلم . لا تكن بشراً  
ولا شجراً . وكن لغزاً عصياً

كُن همزة الوصل الحنيئة بين آلهة  
السماء وبيننا . قد تملح السحب العقيمة  
من نوافذ حرفك العالي . وكن نور البشارة ،  
واكتب الرؤيا على باب المغارة ، واهبنا  
درباً سوياً

وليحتفل بك كل ما يخضر ، من  
شجر ومن حجر ، ومن أشياء تنساها  
الفراشة فوق قارعة الزمان قصيدة ...  
وليحتفل بك كل من لم يملك ذكرى ،  
ولا قمر بهياً

لا تنكسر ! لا تنتصر . كن بين -  
بين مغلماً . فإذا انكسرت كسرتنا . وإذا  
انتصرت كسرتنا ، وهنمت ميكلنا . إذن ،  
كن ميتاً - حياً ، وحياً - ميتاً ، ليواصل  
الكهان مهنتهم . وكن طيفاً خفياً

ولتبقي وحدك عالياً . لا يلمس الزمن  
الثقل مجالك الحيوي . فاصبدا ما استطعت ،  
فأنت أجملنا شهيداً . كن بعيداً ما استطعت  
لكي نرى في الوحي ظيلك أرواني الخريطة .  
فالسلاام عليك يوم ولدت في بلد السلام ،  
ويوم مت ، ويوم تبغت من ظلام الموت  
حيّاً !



## المعنى والمعنى

عبد الرحمن هنيئ

بسبب التراجع في الموقف العربي والفلسطيني، في مواجهة إسرائيل والضغط الأمريكي، كان لا بد من وقفة للمراجعة، وخلق مناخ جديد، ثم شروط مختلفة، لعملية التفاوض التي بدأت منذ أواسل ولم تصل بعد إلى نتيجة فعلية، رغم مرور ما يزيد على سبع سنوات، خاصة وأن الاستيطان الإسرائيلي قد اتسع وزاد، وتحديدًا في ظل حكومة حزب العمل التي تتظاهر أنها أكثر استعدادًا للوصول إلى نتائج من الليكود واليمين الديني!

في ظل وضع مثل هذا كان يفترض ظهور عوامل جديدة لتغيير المعادلة، فكانت الانتفاضة، صحيح أن زيارة شارون إلى المسجد الأقصى كانت السبب المباشر في اشتعال الانتفاضة، لكن الدواعي العميقة لمثل هذه الانتفاضة كانت موجودة وقوية، وبالتالي كان يفترض أن تنفجر لهذا السبب أو لسبب آخر، وإن اختلف التوقيت قليلًا.

إن انفجار الانتفاضة تعبير عن صحوة، وإشارة إلى تكوين وعي جديد، كما يمثل استعدادًا للتضحية من ناحية، ورفضًا للصيغ المقترحة، المذلة والمجحفة من ناحية ثانية، وهذا الذي يفسر اتساعها وامتدادها، والذي يفسر أيضاً الضراوة التي تتسم بها، كما تظهر ردود الفعل، على أكثر من مستوى.

فالجماهير الفلسطينية العريضة التي اندفعت، ولا تزال، للمشاركة في الانتفاضة، تجاوزت الحدود التي تضعها السلطة عادة أو تحتملها، وهذا دليل أكيد على عدم الرضى الذي يسود الشارع الفلسطيني من الشروط التي تريد إسرائيل فرضها، ودليل أكيد على مدى الاحتقان، الذي تمتلئ بهما النفوس وتنتظر اللحظة المناسبة للتعبير واتخاذ مواقف جديدة، لتغيير المعادلات السائدة.

أما عن مدى شمول الانتفاضة والقوى التي شاركت فيها فقد امتدت إلى كل أنحاء فلسطين، دون استثناء أو تسيير، وشارك فيها الجميع: عرب ١٩٤٨؛ سكان المدن والقرى التي تغيرت أسمائها أو أزيلت عن الخريطة؛ المسلمون والمسيحيون بتفاعل وتآخر قليل نظيره، خاصة بعد محاولات الفتنة التي

جرت في أكثر من مكان خلال السنين الأخيرة، وتحديداً في الناصرة. سكان الضفة وغزة، حتى البدو الذين يراد عزلهم وتحييدهم، كل هؤلاء كان لهم وجود ومشاركة في الانتفاضة الجارية الآن، بحيث أعيد رسم الخارطة الفلسطينية وفقاً لمنطق جديد لم يكن مألوفاً خلال السنوات السابقة. لقد توحدت فلسطين من جديد والانتفاضة هي التي وحدتها، وخلقت الإمكانية كي يتم التعامل مع القضية تبعاً لنظرة حاولت إسرائيل ومعها أميركا تغييبها، إذ بعد أن عزل الاحتلال عرب فلسطين ١٩٤٨ واعتبر أن لهم وضعاً خاصاً عادوا للاندماج من جديد في الجسد الفلسطيني العربي، وأثبتوا جدارة كنا ننكرها عليهم طوال السنين الماضية، الأمر الذي يستدعي نظرة جديدة وموقفاً جديداً.

كما أن المطالب التي كان يحاول تأجيلها، خاصة مطلب عودة النازحين، أصبح الآن مطروحاً وملحاً. يقابله الحزم المتزايد المعبر عن الرفض المطلق لوجود المستوطنات، والرفض المطلق لتجزئة الأرض الفلسطينية التي تحولت إلى ما يشبه أقفاص الطيور المزعزعة، حسب تعبير محمود درويش.

إن النتائج المباشرة للانتفاضة أنها خلقت وضعاً جديداً، بمعنى أن الصيغ التي كان يجري الحديث عنها أو التفاوض عليها لم تعد صالحة أو ممكنة الآن، وهذا ما يفسر الاضطراب والاختلاف والصراع الذي يجتاح القوى والحياة السياسية في إسرائيل، بما في ذلك إعادة التحالفات، والدعوة لإجراء انتخابات جديدة، وما يفسر أيضاً العنف الأعمى الذي يميز السلوك والتصرفات للقوى السياسية، والجيش، والمستوطنين.

يقابل ذلك على الجانب الفلسطيني : اضطراب القيادات من سلطة وتنظيمات سياسية إلى الإصغاء لنداء الشارع، والاستجابة لمطالبه. وما يلفت النظر في هذه الانتفاضة أيضاً أن أصبح الشارع هو القائد، وهو الذي يملئ المواقف. كما أن الجماهير التي دفعت بقادة جدد ورموز جديدة أصبح لها الناطقون باسمها، خلافاً لفترات سابقة، حيث كان هناك صوت بمفرده هو الذي يفرض نفسه ولا يسمح للأصوات الأخرى إلا أن تكون صدى أو امتداداً له.

من خلال الانتفاضة أصبحت قوى أي مسؤول فلسطيني مستمدة من اعتراف الشارع وتأييده، لا من المنظمة التي ينتسب إليها أو الموقع الرسمي الذي يحتله، وهذا يدل على قوة الشارع ومدى قدرته على فرض مواقف وصيغ تتجاوز ما كان يراد فرضه وتأييده، وهذا يستوجب إعادة النظر بالصيغ التنظيمية ومحاولة تلافي النواقص والاختلاف التي ميزت المرحلة السابقة.

لقد استطاع الشارع الفلسطيني، وإلى حد ما الشارع العربي، أن يستعيد دوره وأهميته، وتراجعت، في ذات الوقت، رابطة العصوية أو التقسيمات السابقة، إذ مثلما ارتفعت الانتفاضة عن الانقسامات والتقسيمات الدينية والمذهبية والمناطقية، فإن جدارة التنظيمات والأحزاب والأفراد تتحمل وتقاس بمدى المشاركة وبمقدار التضحية، وليس اعتماداً على الأطر التنظيمية الضيقة وحدها.

ومن جملة الانعكاسات للانتفاضة : آثارها في المحيط العربي، إذ لأول مرة، ومنذ سنين طويلة، يُرد الاعتبار، ولو جزئياً، للشارع العربي، والذي أثبت وجوده وجدارته على أكثر من مستوى، وفي أمكنة جديدة، فقد تحرك هذا الشارع، معبراً عن التضامن من ناحية، وعن موقف من سلطاته الحاكمة

من ناحية ثانية، ولعلها من المواقف القليلة في التاريخ العربي المعاصر التي تمتلئ شوارع المدن العربية من المغرب حتى عُمان بهذا المقدار من الغضب والرفض، وأيضاً في إدانة سياسات قائمة، وإدانة تحالفات الأنظمة الحاكمة مع دول خارجية، خاصة أميركا.

وإذا استطاعت الأنظمة الحاكمة أن تلتفت على الغضبة الشعبية، وإن تستجيب لبعض المطالب، من خلال مؤتمر القمة العربي أولاً ثم الإسلامي بعده، وأن تشتري سكوت الجماهير عن طريق التفاوض عن المظاهرات والمسيرات، وأن تعلن تبرعاً بمبالغ معينة لدعم الانتفاضة، فإن ما كسبه الشارع من تجاوز لحاجز الخوف، ومن التعبير عن الإدانة، يمكن أن يعتبر رصيماً للمستقبل: إذ مجرد أن يكون الشارع موجوداً ومشاركاً، وأن تكون الجماهير جاهزة وغير خائفة، فإن أموراً كثيرة يمكن أن تتحقق غداً ثم في اليوم الذي يليه، خاصة وأن الأنظمة العربية حجرت على الجماهير منذ مدة طويلة، وحرمتها من أية مشاركة أو تعبير، والآن جاءت الإنتفاضة لتكسر هذا الحرم، ولتخلق مناخاً نفسياً جديداً ومختلفاً عن السابق، الأمر الذي يساعد على تطوير هذه الحالة وإلى دفعها للأمام.

يضاف إلى ذلك، ونتيجة استمرار الانتفاضة واتساعها، تزايد عدد الضحايا، فإن انعكاسات ذلك على الرأي العام الدولي في زيادة مضطربة، إذ علاوة على المظاهرات التي قامت في أنحاء متعددة من العالم تأييداً للانتفاضة، وإدانة للعنف الإسرائيلي الموجه ضدها، فقد أعلنت اللجان الخاصة بحقوق الإنسان، بما فيها المنبثقة عن الأمم المتحدة، استنكارها وإدانتها لمواقف إسرائيل.

ورغم الضغط الأميركي والنفوذ الصهيوني المسيطر على وسائل الإعلام العالمية، فإن التملل تجاه ما يجري، والإدانة المتزايدة لإسرائيل وسياساتها وعنفها، يعم أوساطاً واسعة في أوروبا وآسيا، الأمر الذي يطرح القضية الفلسطينية برمتها تحت أضواء جديدة، ويساعد على كسب الرأي العام، وتجاوز الحصار الصهيوني.

هذا التحول في نظرة الرأي العام، تجاه القضية الفلسطينية ما كان ليحصل لولا الإنتفاضة، وما ولدته من نتائج وآثار، الأمر الذي يسهل لاحقاً إعادة طرح القضية باعتبارها قضية تحرر وطني ومقاومة للاحتلال ومطالبة بحقوق مشروعة، وبالتالي كسب رأي عام دولي متعاطف، كما حصل تجاه قضايا مشابهة، مثل قضية فيتنام وقضية جنوب إفريقيا، فقد كان الرأي العام في هاتين القضيتين ذا تأثير واضح.

لهذا يمكن وصف الإنتفاضة بأنها كسر للقفص الذي يراد سجن القضية الفلسطينية داخله وفقاً لإرادة إسرائيل وضغط أميركا وعجز الأنظمة العربية؛ كما تعتبر تطلعاً نحو أفق جديد قد استطاع الوصول إليه من خلال تمتين العناصر الإيجابية في هذه الإنتفاضة، وقدرتها على الاستمرار، وتحمل الصدمات وإمكانية خلق وحدة وطنية أكثر صلابة، دون الانجرار إلى تحقيق مكاسب فئوية أو تنظيمية. وإذا كانت إسرائيل قد استفادت من دروس الإنتفاضة السابقة، ولجأت إلى اعتماد وسائل جديدة لمواجهة الإنتفاضة الحالية، فيفترض بالفلسطينيين أيضاً الاستفادة من دروس تلك الإنتفاضة، وأن يحارلوا الآن تجاوز النواقص والأخطاء، والانتباه للخطط والأساليب الجديدة التي تحاول إسرائيل اتباعها.

إن أساليب العنف التي تجاوزت كل الحدود، والتي يتبعها الجيش الإسرائيلي والمستوطنون حالياً، وهذا الصمت والغياب لما يسمى اليسار الإسرائيلي، خلافاً لما حصل في أوقات سابقة، حيث كان اليسار حاضراً ومشاركاً في فضح وإدانة العنف، هذه المرة نلاحظ أن صوتاً واحداً، أو متقارباً، يسرل إسرائيل بيسارها وبمخبتها، بعلمانيها ومتدينها، وربما أحست أكثر من أية فترة سابقة أن الجميع أمام مفترق خطير وأمام خيارات مصيرية.

لقد جرت العادة في السابق أن يكون المستوطنون النسق الثاني في أية مواجهة تقع بين الفلسطينيين والقوات الإسرائيلية، في هذه الانتفاضة أصبح المستوطنون، في المقدمة، وكانت مهمة الجيش التغطية والحماية، ليس ذلك فقط، عبر المستوطنون عن حقد أسود، وأبدوا صنوفاً غير عادية من العنف، هذا مع الإشارة أن جزءاً غير قليل من هؤلاء المستوطنين، نتيجة موجات الهجرة الأخيرة، خاصة من الاتحاد السوفياتي السابق، ليسوا من اليهود، حسب بيانات الجهات الإسرائيلية المسؤولة، فكيف نفسر هذا العنف؟.

لا بد أن نلاحظ في التحول الجديد أن الأمر لم يعد مجرد اقتطاع أجزاء إضافية من الأرض الفلسطينية والصاقها، وإنما يتجاوز ذلك إلى الإعلان أن الأرض لم تعد تتسع لاثنتين، وبالتالي على الفلسطينيين أن يغادروا وأن يجدوا لهم مكاناً آخر، أي أن إمكانية العيش المشترك لم تعد واردة، وهذا يفسر، جزئياً، المبالغة في استعمال القوة، واللجوء إلى أساليب قاسية إلى أبعد الحدود في التعامل، سواء في هدم البيوت أو اقتلاع الأشجار، أو اللجوء إلى تغيير المعالم الجغرافية إضافة إلى جعل الحياة لا تطاق للفلسطينيين المجاورين للمستوطنات من حيث تضييق سبل الرزق والحركة الحرمان من المقومات الأساسية للحياة والاستمرار.

إن السياسة التي تتبعها إسرائيل في مواجهة الانتفاضة لا تقتصر على اتباع أقصى أنواع العنف، وبالتالي إيقاع خسائر كبيرة بالمواطنين الفلسطينيين من حيث عدد الإصابات، سواء بالقتل أو بالإعاقات الدائمة، بل ولجأت، ولا تزال تلجأ، إلى إيقاع أكبر أذى مادي ونفسي بالمواطنين الفلسطينيين، من حيث تضييق الحصار، ومنع وصول المستلزمات الأساسية للحياة كالكهرباء والوقود والمواد التموينية، وحتى المياه في أحيان كثيرة، عدا عن منع الحركة والانتقال بين المدن، وبين الضفة وغزة وبين هذه جميعاً والخارج، بما في ذلك سد المعابر البرية والبحرية وإغلاق المطار، وحتى منع وصول سيارات الإسعاف من أجل إخلاء الجرحى. كل ذلك لإرغام الفلسطينيين على التسليم، وجعل الحياة بالغة الصعوبة فيما لو قالوا لا أو حاولوا الاعتراض على ما تخطط إسرائيل، يجري ذلك جهاراً نهاراً، تحت سمع العالم وبصره، وأيضاً بحماية أميركا ودعمها الكامل والعلمي. حتى فكرة إيقاد مراقبين، ليس لوضع حد للعنف، وإنما لتقصي الحقائق، تقابل بالرفض المطلق من قبل إسرائيل وتؤيدها أميركا في ذلك، وبالتالي تفشل المحاولات العربية والإسلامية والأوروبية لوضع حد لما يجري، وتعجز الأمم المتحدة عن اتخاذ أي إجراء، لأن الفيتو الأميركي جاهز في مواجهة أي قرار للإدانة أو التدخل.

سياسة إسرائيل المدعومة من أميركا لا تهدف الوصول إلى تسوية، وإنما فرض واقع، وهذا الأمر

الواقع ذاته متحرك، متغير، تبعاً لموازين القوى وما يمكن أن تفرضه في مرحلة معينة، لذلك من الخطأ، وتالياً من الوهم. التصور أن إسرائيل تريد السلام أو تبحث عنه، خاصة في ظل وضع عربي يزداد انقساماً وشرذمة، وضعفاً، مما يمكن إسرائيل من تحقيق مكاسب إضافية، وعليه فإن أي حل لا يعدو كونه محطة في طريق طويل، ونقطة انطلاق جديدة في هذا الصراع.

الانتفاضة إذن ومعناها الجوهري، رد على حالة التراجع والاستسلام، صحيح أنها ليست حلاً كاملاً ولكنها بداية الحل، أي أنها تنبيه ورفض للمصيغة السياسية التي كان يراد فرضها من قبل إسرائيل وأميركا خلال الفترة الماضية، صيغة مدانة وغير مقبولة، الأمر الذي يستوجب حشد جميع القوى لمقاومتها وتهيفة الظروف من أجل الوصول إلى حل يضمن الحقوق الأساسية. ومهمة من هذا النوع تعني الجميع مساحة وعمقاً، أي أنه ليس من حق فئة أو مرحلة زمنية محددة أن تفرض صيغة أو ما تعتبره حلاً، لأن الأمر أكبر من ذلك وأخطر. فالقضية الفلسطينية لا تعني الفلسطينيين وحدهم وإنما تعني المنطقة العربية بأسرها، وتعني العرب جميعاً. وإذا كان الاتجاه الذي ساد خلال فترة معينة استهداف تغييب الفلسطينيين، وأن ينوب عنهم الآخرون في التعامل بهذه القضية، وبالتالي تعالت الدعرة إلى ضرورة أن يكون أصحاب القضية من يتفاوض من أجل الوصول إلى حل، فإن القيادات الحالية ليست قادرة بمفردها أن تفرض حلاً. لأن النتائج التي ستترتب على أي حل ستعكس على الجميع وستؤثر على المنطقة بأسرها، مما يستوجب أن يشارك الجميع وأن يكون لهم دور وراي. وبالتالي إعادة رسم وتحديد العلاقة ثم الأدوار، بين ما هو قطري وبين ما هو قومي، ومن له حق التصرف ومن يحق له الاعتراض.

ثم إن القضية الفلسطينية لا تقتصر بآثارها ونتائجها على المرحلة الحالية والجيل الحالي، بل تمتد إلى الأجيال القادمة، وترتك تأثيرها لفترات طويلة قادمة، مما يستوجب أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار في أي حل يراد الوصول إليه لكي تتجنب مستقبل التباطؤ والصراع الدموي، وكي لا تورث التراكبات السلبية التي تتولد الآن من أخطاء المتنفيذين إلى الأجيال اللاحقة.

اعتماداً على هذا المناخ الذي ولدته الانتفاضة يجب التوقف وإعادة النظر، ومحاولة الوصول إلى معادلة جديدة، ومن شأن مثل هذه المعادلة إذا تم تحديدها أن تمنع الانفلاق أو التسيب، وتحدد الصيغ والعلاقات بين ما هو خاص وقطري، وما هو عام وقومي، وكيف يجب التصرف في هذه الحالة أو تلك.

إن هذه الاشكالية طبعاً العمل العربي طوال القرن العشرين وخلفت سلبيات لم يُستطع حلها أو تجاوزها حتى الآن، وبالتالي لا بد من الوصول إلى حلول لهذه الإشكالية الكبرى، إذ بدون ذلك سيبقى التدخل والارتباك، وسوف تتكرر الأخطاء أيضاً.

لقد هيأت الانتفاضة الفرصة والإمكانية لإعادة ترتيب العلاقات والصيغ والأولويات، ولا بد أن يجري ذلك وفقاً للأهداف الأساسية والقضايا الكبرى، تماماً كما تفعل إسرائيل، إذ مهما بلغ الاختلاف بين الأحزاب والأفراد فإن هناك ثوابت أساسية لا يتنازل عنها أحد، وليست موضع اجتهد أو مساومة،

وهذا ما يجب أن يشكل قواسم مشتركة للنضال العربي في المرحلة الراهنة. الانتفاضة ليست وحدها حلاً. لكنها إمكانية ومناخ ملائم للحل، شرط أن يُعمل على توفير الشروط المناسبة، بمعنى: إنها تهيئ الظروف لعلاقات فلسطينية - فلسطينية من نمط جديد. نمط يتجاوز التعصب القوي، ويؤكد على القضايا المشتركة، ويخلق مناخاً لنضال أكثر صلابة وأكثر جرأة، لأن الأطراف المقابلة لا تفهم إلا لغة القوة، لغة المصالح، أما لغة التسامح واللين والحلول الوسط فإنها تعبير أكيد عن العجز والضعف، وهذا ما أكدته هذه الفترة، وبأمثلة حية ولمحوسة.

ولأن الانتفاضة هي مناخ أكثر مما هي حل، فإنها تلقي بمسؤولية الصيغ وطبيعة العلاقات على عاتق القوى المنظمة، والتي يجب أن تمثل لرأي الشارع وقناعاته، وأن تكون ونية لتضحياته، ومعنى ذلك أن تتخلى عن النظرة القفوية، وأن تعتمد القواسم المشتركة.

وباعتبار أن الانتفاضة امتدت إلى الشارع العربي من أقصاه إلى أقصاه، وتركت آثاراً هامة، فيجب أن تبقى عربية بتوجهها وعلاقاتها، أي أن لا تقتصر على الضفة وغزة، وقد تأخذ اشكالا، لا حصر لها من حيث ترتيب الصيغ والعلاقات، كي تبقى فعالة ومؤثرة، خاصة وأن الوضع العربي الآن أكثر استعداداً من أية فترة سابقة.

لأن قوة الانتفاضة تتمثل في استمرارها أولاً، وفي مداها العربي بعد ذلك، ثم العالمي. بمعنى أن المجال الحيوي وعناصر الإمداد لحركة مثل هذه، بعد أن ازداد الحصار وتزايد ثقل المواجهة والعبء، لا بد أن يُستمد أولاً من المحيط العربي ثم من التأييد العالمي، وهذا يقتضي أن يتم التفكير باستمرار لتوفير عناصر الدعم من المحيط، بالدرجة الأولى.

ولا بد أيضاً أن يتم التفكير بوسائل جديدة وإبداعية من أجل مواجهة الحصار والعنف، عن طريق الاستعانة بالإعلام، بالفضح، بالكشف، ولعل في قضية محمد الدرة درساً كبيراً، فهذا الطفل الشهيد حرك ضمير العالم كله، وترك تأثيراً يوازي، ربما عدد الشهداء مجتمعين، الأمر الذي يجعلنا نفكر بتوظيف الصورة، للملصق، الأغنية، الوثيقة، بحيث تلعب دوراً في إيصال فكرة، في لعب دور، في خلق مناخ ضاغط، وهذا يقتضي أن يفكر ثم يشارك، كل مبدع. كل صاحب موهبة في توظيف طاقاته من أجل التعبئة وتحجيد كل الطاقات. وفي هذا يكمن أحد عناصر التحدي من أجل الاستمرار، إذ مهما كانت طاقات المقاومة، ومهما تزايد شهداء الانتفاضة وضحاياها، فإن قوة الخصم ومدى ما يملك من وسائل وإمكانات تمكنه في النهاية من التغلب على هذا التحدي، ومن هنا على الانتفاضة أن تمتلك وأن تبتدع وسائل إضافية وجديدة من أجل المقاومة.

الصورة في المرحلة الراهنة تلعب دوراً مهماً، وهذا ما يجب الانتباه إليه وتوظيفه. وبرز في هذا المجال عنصران أساسيان: الصدق والسرعة، ثم تأتي طريقة التوظيف والمتابعة والابتكار، خاصة إذا اعتبرنا أن المعركة طويلة، وأن الخصم شديد المكر، ويملك وسائل كثيرة من أجل إخفاء الحقيقة أو تويهها، أو على الأقل تأجيل ظهورها.

## الهدف المطلق

سعدى يوسف

في الثامن والعشرين من تشرين ثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠، وغر رسالة هاتف مسجلة، أخبرتني رسامة نمساوية الأصل، صديقه، أنها ستمرّ عليّ في الساعة الرابعة والنصف، عصر الغداة، قالت أيضاً إنها لن تستخدم سيارتها، بل ستجيء بالمترو، لكي تصحبني إلى إعتصام في داوننغ ستريت، بمواجهة مقر رئيس الوزراء، توني بلير. الإعتصام من أجل فلسطين. من أجل شعب فلسطين.

في التاسع والعشرين، أي في الموعد المحدد، إنتقلنا بالمترو من جنوبيّ إيلنغ حيث أقيم، إلى ساحة الطرف الأغر الشهيرة، ومنها مضينا، ماشيين، تحت سماء طليقة، إلى داوننغ ستريت. من البعيد تحت العلم الفلسطيني، طويل البيرق، قصير السارية، يلوح به شابٌ للحافلات العابرة، حيث الركّاب الهادئون لا يكادون يرمشون. دخلنا بين حاجزين من القضببان، أحدهما يلاصق الشارع، وثنائهما يلاصق الرصيف، حيث وقف شرطيان مستريحان يراقبان ما يجري. ماذا يجري في الواقع؟

كُنّا بين الحاجزين، مع الحُكم الفلسطيني. وفي المساء الذي لم يزل شاحباً، أشعلنا شموعاً داخل زجاج هش، وصمنا طويلاً. العدد متواضع: عشرون بريطانيّاً. خمس بريطانيّات. طالبات وطلاب من فلسطين لا يتجاوزون أصابع اليدين. و: أنا.

بعد ثلاث ساعات (كان الطقس جيّداً بشكل غريب) قالت الرسامة إنها مضطرة للمغادرة كي تلتقي إبنتها في مكانٍ ما. عدتُ معها إلى ساحة الطرف الأغر، ودخلنا المترو، لينطلق كلٌّ إلى مبيتاه.

أنا عدتُ إلى بيتي في الطابق الثاني. البيت المطلّ على الحدائق الخلفيّة لمنازل شارع فرعيّ كامل. الحدائق الخلفيّة مهجورة في الشتاء، وشجرة الجوز الضخمة (أظنّها شجرة جوز) التي أكاد ألمس أطراف فروعها، تقدّم صورة متحركة لسنجابٍ مرحٍ (والت ديزني الطبيعيّة).

لم أكن مبتعثاً محدوديّة ما جرى في داوننغ ستريت.

فكما ضاقت بفلسطين الدنيا، ضاق أولو الشأن بفلسطين.

وهنا، في العاصمة البريطانيّة، وقفتُ مع أناسٍ يفتحون لفلسطين الأبواب، ويرفعون رايتها في الساحة.

فلسطين ليست وحيدة.



أستعيدُ الآن، في هذه اللحظات من لندن، بعض ما تحسّستُ وكتبتُ في بيروت ١٩٨٢، في

ذلك الصيف الساخن الذي تبتدئ حتى تخوم الحريف المبكرة :

« إنك لا تزال تدور، دائخاً، بين الانقراض... صداغ حادّ يمسك بك تحت الشمس الشديدة، وأنت لا تزال تدور. من هنا اخترق الصّاروخ العمارة. موجة هائلة من الهواء المندفع المضغوط تدفع بالاثاث والبشر والأبواب والنوافذ. وفي جحيم الدمار تدور مآثر أسطورية، مآثر القديسين والشهداء. ساحة ضيقة تضيق لكنها لن تضيق إلى ما لا نهاية. هذه الساحة التي أراد العدو أن يجعلها مقتلًا لنا جميعاً، هذه الساحة سوف تنتشر يوماً ما، على إمتداد الأرض الواسعة التي نعرفها ولا نعرفها أيضاً... »

نحن لم ننكفئ كي نظلّ وحيدين في « الشارع الأخير »، وإتينا لنعرف أننا والناس، كالسمك والماء، نعرف أننا الآن في ساعة الضيق الشرس، وأن المعادلة التي أحكمت عناصرها وأطرافها ضلّتنا تبلغ بدايتها أو نهايتها يوماً ما. وكنا في ساعة الضيق هذه نتمسك بـ « الشارع الأخير » ونتماسك ظهورنا إلى الجدران إلقاء الضربة الغادرة، وعيوننا إلى الآفاق الرّحية، ورئائنا تنفّس هواء عالم نحلم به، ونعمل من أجله. حتى إذا جاءت الغارة الأولى، أحسنا جميعاً بأن ما انهار، مع الملعب الرياضي، كان جدران « الغيتو » وأسواره، وأحسنا بأن الوجوه التي تشمّعت وتضوّعت بالهواء الثقيل تكتسب نصارة مبتغاة، أن ثياب المقاتل التي طويت زمناً قد آن لها أن تُنشر، وأن البندقية التي كادت تصدأ تتحرّق إلى التّار. لكننا أحسنا أكثر من هذا كله، بالماء الدافئ للثّهر العظيم، للشعب العظيم، يغسل عتاً ادواعنا، ويعيدنا من جديد، إلى ذلك التّشيد الذي غيّناه طويلاً، وافتقدناه طويلاً : حرب الشعب .



من لي، أنا المتوحّد في جنوبيّ إيلنغ، بأن أبلغ الأرض المقدّسة؟  
في ايار (مايو) ١٩٨٢ كنتُ في قبرص، وأن شرعت الأجواء تدلّهم، إلّتحقتُ بفلسطين، حتى قذفت بي آخر سفينة مغادرة، إلى شاطئ آخر، في أيلول الذي ما كانت أوراقه ذهباً ذلك العام. الأمر يختلف .

في ١٩٨٢ كان لدى الفلسطينيين مُنفذ .

أما في العام ٢٠٠٠ فلم يعد لدى الفلسطينيين سوى المنفذ المُطلق : الحرية القصوى...



في أوائل كانون أول (ديسمبر) هذا العام، عقدت منظمات وتنظيمات سياسيّة يساريّة، عربية وعراقية، إجتماعاً في إحدى القاعات بمبنى بلدية إيلنغ. أُلقيتُ كلمات من بينها كلمة لنائب عُثماليّ هو كذلك نائب في البرلمان الأوروبي. لم يكن في الإجماع ما بلغت النّظر سوى أن القاعة لم يدخلها حتى فلسطيني واحد .

كيف حدث هذا؟

أي، كيف كنت، أنا، العربيّ الوحيد، في إعتصام فلسطيني، وكيف لم يحضر حتى فلسطيني

وحيداً اجتماعاً عربياً؟

سيرورة العقود الأخيرة من تاريخنا الزاهن، وتعقيداتنا، تقدم لنا التفسير (المنطقي؟)، لكن الأمر يظلّ بالغ القسوة والوطأة على شخص مثلي تقوده الرؤيا والبراءة، ويتخبّط في رؤية الخط الفاصل بين السياسة والشعر.

هل الواقع مخيفٌ إلى هذا الحد؟

هل الوعي الفاعل غائبٌ إلى هذا الحد؟

■

أتقصّي، هذه الأيام، الصّحف، والصفحات الثقافية بخاصة، باحثاً عن الشعراء والكُتّاب الذين كانت الثورة الفلسطينية خيمتهم، عشرات السنين... وأسأله في سريّ: لم لا يكتبون. أحياناً يكون سؤالي: لم يكتبون؟  
إنّ بين إقامة حفلة في الشارع الأخير، والوقوف وراء المتاريس، فرقاً هائلاً.

■

حين أوشك ياسر عرفات أن يغادر بيروت المحاصرة، سأله أحد الصحفيين من غير العرب: إلى أين أنت ذاهب؟  
أجابه الرجل: إلى أين؟ طبعاً إلى فلسطين.

■

اليوم، وفي كل موضع من الأرض المقدسة، من البحر إلى الغور، يذهب الفلسطينيون، بطرائقهم الخاصة، وطرقهم هم، إلى فلسطين العجيبة.  
هل فُتّر لنا، نحن الأبناء، في أجيال الحيات المتراكمة، أن نشهد التحقّق الأصعب للحلم الذي كاد يمسي كابوساً؟  
لقد فُتّتنا، طويلاً، بمردفات الغياب.  
فهل آن لنا، أن نُفكّن بمردفات الحضور، بمردفات الإنتفاضة، الإنتفاضة التي لا مرادف لها؟  
نعم... لأنّ الإنتفاضة ظافرة.

عمّان

٢٠٠٠/١٢/١٢

## العودة إلى الأصل

### جمال الغيطاني

جاءت الانتفاضة لتعيد الأمور إلى أصولها، ولتذكر بالبديهيات التي كاد أن يدرکہا الطمس والتميع، ولتعيد إلى الذاكرة العربية مراكز بدت وكأنها تآكلت أو توارت عن المناطق، التي يستمد منها الكائن الصُّور والذكريات وسائر ما يسهم في تعرفه إلى نفسه وإلى ذاته وإلى ماضيه وبالتالي حاضره ومستقبله. منذ أن هبّ الشباب والكهول والنساء من أبناء الشعب الفلسطيني للدفاع عن المسجد الأقصى بعد أن دنسه السفاح ايريك شارون بزيارته المدبرة، منذ أن افتدى الفلسطينيون مقدسات المسلمين بأرواحهم، لم يتوقف نزيف الدم حتى اليوم، وما هو الشهر الثالث على وشك أن يبدأ ويومياً يتساقط شهداء برصاص العدو الموجه إلى الصدور وإلى القلوب، ولا يثن هذا آلاف آخرين ليتقدموا بجسارة إلى لقاء الموت بصدور عارية، وأيد ليس في قبضاتها سوى الحجارة، هنا نتوقف نحن الذين نتابع ما يجري لنرى ولنتأمل ولنتساءل : ماذا بعد ؟ إلى أين ؟.

بداية أعادت الإنتفاضة الأمور إلى أصولها عندما وضعت حداً لهذا التميع الذي ساد طوال السنوات الماضية، منذ عام سبعة وسبعين وتسعمائة ألف، منذ مؤتمر مدريد، منذ اتفاقيات أوسلو، منذ إعلان البعض أن جوهر المشكلة بين العرب وإسرائيل نفسي، لذلك رتبوا مؤتمراً في السبعينات من القرن المنصرم حضره عدد من أساتذة التاريخ والتحليل النفسي من الجانبين ليخرجوا على الناس بمزاعم تؤكد السعي الحثيث باتجاه تميع الأصول، وتبديد الجذور، شيئاً فشيئاً بدأ ذلك يعم ويسود، ولا ضرب مثلاً بالإعلام العربي، لقد توقفت الإشارة إلى بلد اسمه فلسطين، وأصبحنا نسمع في نشرات الاخبار عن عرب ٤٨، وعرب ٦٧، وعن الضفة والقطاع، كأنهما نبتتان، لا صلة لهما بكيان اسمه فلسطين، وبشعب يعيش فوق هذه الأرض منذ آلاف السنين، تجرى محاولة لاقتلعه تماماً وإحلال شعب آخر مكانه تأسيساً على دعاوى عنصرية، أسطورية، وذاكرة مفتعلة لا سند يؤيدها إلا الأساطير.

كُنْتُ أفكر تماماً في الأجيال الجديدة، الذين تدور أعمارهم في العشرينات، عن تأثير الجهد المنظم لحو الذاكرة الوطنية والقومية، لكن جاءت الانتفاضة لتفاجئ الجميع، سواء الحكام العرب أو الحكام الإسرائيليين، أن الذاكرة لا تزال، وأن محو الواقع مستحيل .

مع سقوط أول شهيد فلسطيني كان الشباب المصريون الذين يدرسون في الجامعة الأمريكية أول المنظرين في القاهرة مع كل ما يحمله ذلك من دلالات، انزلوا العلم الأمريكي وأحرقوه، ثم هدرت مئات الألوف من جامعات مصر، واشتعلت المساجد بعد صلاة الجمعة، ومرة أخرى يصبح الأزهر

منبراً للكفاح الوطني والقومي .

كانت المفاجأة حقاً أولئك الشباب المنتمين إلى الأجيال الجديدة والذين نما وعيمهم تحت ما سُمي في الإعلام العربي بثقافة السلام، وكان السلام يعني طمس الواقع، وتزييف الحاضر، والقبول بالواقع المؤسس على الأسطورة .

قاد هذا الجيل الجديد حركة شعبية واسعة للتعاطف مع الانتفاضة والتضامن معها، وقدم وسائل جديدة لم يعرفها جيلنا نحن، مثل انشاء المواقع على شبكة الإنترنت التي تبث المعلومات للعالم عن الإنتفاضة، أو تلك التي تدعو لمقاطعة البضائع والمنتجات الإسرائيلية والأمريكية، وبدأت دعوة واسعة لمقاطعة كل ما يرمز إلى الولايات المتحدة، ورغم أن هذه الدعوى لم تلق أية مساندة على أي مستوى رسمي، بالعكس، فقد انتشرت بشكل واسع هدد اقتصاديات هذه المنشآت وانخفض حجم التعامل معها .

بالطبع، جرى في المقابل ما يؤدي إلى تجميع الموقف، والغريب أن الإهتمام بالإنتفاضة وهي على وشك أن تدخل شهرها الثالث في الغرب، يبدو أكثر منه في العالم العربي، تراوحت ردود الأفعال في البلاد العربية، ولاح الداء القديم، كل نظام يريد أو يسعى لتوظيف قضية فلسطين لحسابه، أو للدعاية للشخصيات التي تقود الزعامة في بداية الإنتفاضة فُدر لي أن أزور فرنسا، وكان الموقف على المستوى الإعلامي سلباً بالنسبة لنا، فراكاز إسرائيل وتأثيرها القوي في وسائل الإعلام صوروا الأمر على أنه حرب دينية يشنها المسلمون ضد اليهود، وبالتالي تمجيح القضية الحقيقية، قضية وطن مغتصب وشعب تجرى محاولة إبادة بانتظام، وكان هناك نفر قليل من العرب والفرنسيين يحاولون إيصال قبس من الحقيقة إلى الرأي العام الذي كان متأثراً بالدعاية الصهيونية، إلى الحد الذي دعا ملكة السويد الرقيقة إلى اتهام الفلسطينيين باستخدام أطفالهم كدروع بشرية ! .

إلا أن الواقع في الغرب بدأ يتغير، وبدأ الرأي العام يكتشف حقيقة جرائم الصهاينة، واستهدافهم العزل بالرصاص الحي . وتوالت الصور التي تبثها الفضائيات في مشاهد بربرية دموية لا يمكن لعقل أن يصدق وقوعها في القرن العشرين .

طائرات الهليكوبتر تقذف البيوت الآمنة بأحدث أنواع الصواريخ .  
مدافع الدبابات تصوب تجاه الشقق والسيارات الخاصة .

توازن مختل، شيئاً فشيئاً بدأ الضمير يستيقظ في الغرب، في نفس الوقت الذي بدأت فيه مشاهد التظاهر والاستشهاد وإلقاء الحجارة تصبح أمراً مألوفاً أو تكاد في كثير من الاقطار العربية، ذلك أن استمرار الموقف الذي تفجر في البداية في حاجة إلى عمل سياسي مكثف ومستمر وجهد منظم، وهذا غير متوفر كما ينبغي أن يكون .

يستمر الدم في النزيف، ويستمر الشهداء في السقوط .  
العزل في مواجهة الدروع السميكة وأحدث الأسلحة .

إلى متى ؟

هذا ما أطرحه على نفسي يومياً وأنا أتابع ما يجري على أرض الواقع الملتهب، غير أن أخطر ما حققته الإنتفاضة إلى جانب تعرية الأوهام، والجهود التي بذلت على مدى سنوات إعادة الأمور إلى أصولها كما ذكرت، هنا يجب أن أكون صريحاً إلى أقصى حد، بعيداً عن تعبيرات السياسيين المنمقة، أو الإعتبارات التي تجعلنا نسكت أحياناً عن الجوهر، فمن أخطر الأمور أننا أخضعنا ما هو جوهري لما هو عابر.

أقول بصراحة والفضل في إبدائها يرجع إلى انتفاضة الشعب الفلسطيني العظيم. لو اجتمعت كافة قوى الأرض من شرق وغرب، ولو استنفرت القوى المؤثرة في عالمنا اليوم وجعلها من الغرب كافة ما تملك، ولو وقعت الاتفاقيات ولو اجتمع البعض من هنا أو هناك، فلن تترسخ لديّ أية فناعة حقيقية بدولة إسرائيل التي ارتكبتها الغرب الاستعماري منذ أن عمل المشروع الصهيوني العلماني المؤسس على الأسطورة ( ١ ) على زرعها في منطقتنا العربية كخطيئة وخطأ من أفدح ما ارتكب في التاريخ.

فناعاتي تتأسس على عدة حقائق، منها أولاً، استحالة قبول قيام دولة على أساس ديني، وهذا جوهر ما قامت عليه إسرائيل، إن قبول قيام إسرائيل على أساس ديني، على أساس أنهم شعب الله المختار، وإن أرض فلسطين أرض الميعاد بالنسبة إليهم، فيه نقي للآخرين، مسيحيين كانوا أو مسلمين، وفيه أيضاً تبرير لقيام دول أخرى على أساس ديني صرف، وعندما تقوم الدول على أساس المعتقد الديني وحده، فهذا يفتح باب الصراع اللانهائي، لأن كل طرف سيعتمد كتابه المقدس كمرجعية وحيدة، وهذا في حد ذاته مضاد للفكر الغربي الذي تكون وتأسس بعد حروب طويلة أريقت فيها دماء غزيرة، حتى توصل إلى الصيغة الحالية التي تفصل بين الدين والدولة، هذه الصيغة التي تبلورت في ثورة ١٩١٩، من خلال الشعار الذي صاغته الحركة الوطنية المصرية عبر مفهومنا وتراثنا، «الدين لله والوطن للجميع»، إذ كان جوهر الحضارة المصرية عبر تاريخها، التعايش للجميع من منطلق إنساني، وقبول الآخر رغم الخلاف.

لا أقبل فكرة دولة إسرائيل الدينية، ولا الفكرة الأخرى التي تقول بإنشاء وطن لليهود بسبب ما لاقوه من اضطهاد في الغرب، نعم.. لقد لاقى اليهود اضطهاداً مروعاً من عنصرية الغرب، خاصة من النازية، ولقد كتبت أكثر من مرة معلقاً حول الجدل الذي يثور بين الحين والآخر حول المحرقة النازية، وعدد اليهود الذين أريدوا فيها، قلت إن موت إنسان واحد فقط بالنسبة لي بسبب عقيدته أو لونه كارثة إنسانية ولا يعتني هنا العدد، الخطورة في المبدأ، لكن من ناحية أخرى، ما هي مسؤولية العرب عن الاضطهاد الذي لحق باليهود، سواء خلال العصور الوسطى أو القرن العشرين.

يقول التاريخ إن اليهود لم يجدوا الملاذ الآمن إلا في الأقطار العربية، بعد خروجهم من الأندلس مع المسلمين، استقروا في المغرب الكبير، في المغرب الأقصى وجزيرة جربة في تونس، وفي المغرب أقامت

الجاليات اليهودية بجوار القصور الملكية رمزاً للحماية الخاصة وتعرف المناطق تلك بالملاح، وفي مصر ساهموا في جميع أنشطة الحياة الاقتصادية والفنية ولم تكن هناك مناطق خاصة لإقامتهم (غيتو). لم يحدث أن تعرض اليهود لأي اضطهاد من العرب، بل كانوا جزءاً من المجتمع العربي، ولكن الغرب العنصري أراد التخلص من اليهود، ولكن ليس عن طريق المحرقة النازية والعنف، إنما بدفعهم إلى تأسيس دولة تقوم على أساس ديني، وعلى أساس اختلاق تاريخ كامل عنصره الأسطورة ومعاداة المنطق، من هنا كان دعم الغرب الاستعماري، العنصري لقيام دولة إسرائيل ليس كخطيئة وجريمة في حق العرب عامة والفلسطينيين خاصة، إنما كخطيئة أيضاً ضد اليهود بحشرهم في «غيتو» اتخذ هذه المرة شكل دولة، دولة تقوم على أساس عنصري، المتميزون فيها هم اليهود لأنهم يهود، وداخل اليهود أنفسهم تمييز آخر بين من هو غربي ومن هو شرقي، إذن.. ما الفرق بين الفكرة العنصرية والفكرة الصهيونية، كلاهما يقوم على أساس الإنتقاء العنصري، والتعصب لجنس وفكرة. هكذا جند الغرب طاقته لازاحة شعب كامل من مكانه، وإحلال اليهود مكانهم، وما نراه الآن من قصف بأحدث الأسلحة الأمريكية لمنازل ومستشفيات وسيارات مدنية ما هو إلا فصل من فصول المأساة التي أعلنت رسمياً باسم دولة إسرائيل.

هنا قد يسأل البعض، وما هو الحل ؟

الحل يجيء هذه المرة من مفكرين يهود بارزين، يدركون خطورة فكرة دولة إسرائيل على اليهود أنفسهم، وأبرز مثال على هذا الاتجاه الجديد مقال مستشار الرئيس الفرنسي السابق جاك ايتالي الذي تُرجم ونُشر في «أخبار الأدب»، هذا يمثل تياراً جديداً بين اليهود، وفي مواجهته تيار عنصري صهيوني يدعو إلى حرب مقدسة ضد العرب والمسلمين.

في رأيي، إن فلسطين كلها، وليست فلسطين أو سلو، أو فلسطين ٤٨ أو فلسطين ٦٧، كما اعتاد الإعلام العربي أن يستخدم هذه المصطلحات التي تكرر واقعاً قائماً، مفروضاً، لا توجد إلا فلسطين واحدة، والتي تقوم على جزء من أراضيها الآن خطيئة ارتكبتها الغرب اسمها دولة إسرائيل، فلسطين يمكن أن تتسع للجميع، معتنقي الأديان الثلاثة، باعتبارهم مواطنين متساوين، بحيث يمكن أن يكون رئيسها فلسطينياً مسلماً أو فلسطينياً مسيحياً أو فلسطينياً يهودياً، ولهذا تفصيل آخر.

حتى يتحقق ذلك، أنطلع بقلب بالك إلى طوابير الشهداء اليومية، وإلى الحجارة في مواجهة الطائرات والدروع، وأسأل.. إلى متى ؟.

القاهرة

## انتفاضة أولاد مصر ..

### يوسف القعيد

.. لن أستمير فذلكة المؤرخين وأقول إن مصر على مدى تاريخها، خاضت حروبها في سوريا، وإن السلطان الأشرف قانصوه الغوري استشهد في مرج دابق، وإن فكرة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، نبئت أثناء حصار الفالوجا الذي مر به جمال عبد الناصر وصحبه .

لن أكتب أن ثلاثة من أنبل وأشرف شهداء مصر في القرن العشرين استشهدوا من أجل فلسطين وهم جمال عبد الناصر وأحمد عبد العزيز وعبد المنعم رياض . وانهم يتقدمون طابوراً طويلاً من شهداء مصر الذين قدموا أرواحهم ودماءهم في الصراع العربي - الإسرائيلي .

سأتكلم فقط عن إبطال الانتفاضة الراهنة، ولا أقول الأخيرة . أولاد مصر الذين قاموا بانتفاضتهم الخاصة بهم . وقد أثبت أهل مصر أن روح الوطن لا يمكن أن تنوّه تحت ركام محاولات التوهان وقلب القيم . وتبديل الحقائق ومحو صفات التاريخ المكتوبة بدماء الشهداء .

قبل الانتفاضة الراهنة . كنت أتهم أن روح مصر قد جرى اغتيالها . وإن تحييد المصريين أوشك أن يقع . لكن الانتفاضة، انتفاضة القدس، انتفاضة تحرير الوطن، انتفاضة إعلان الدولة، أعادت تأكيد الحقائق القديمة التي ما زالت قادرة على إثارة الدهشة . رغم ما جرى وما حدث .

مفاجأة المفاجآت جاءت من هؤلاء الصبية الذين يجرون في السنوات من الخامسة عشرة حتى الخامسة والعشرين، الذين ولدوا بعد دمار الجسور وخراب الديار، جاءوا إلى الدنيا بعد أن صوّر من صوّر تعبير أن أكتوبر آخر الحروب . وقال من قال : فلنحاول بداية مشروعنا الخاص بعيداً عن الآخرين، وإعلن من أعلن أن المشروع الصهيوني لا يشكل خطراً على مصر .

أعترف أنني كنت وأهما، ولم أكن قادراً على تلمّس تضاريس روح مصر، لأن ما جرى اسقط كل أوهامي . المشهد الأول جرى عندما دعنتني إحدى المدارس الإعدادية والثانوية التي تدرس موادها بلغات أجنبية، أي أبناء المترفين الجدد في مصر، كنت أتوقع أنهم يعيشون في الضفة الغربية من نهر مصر، لا يدركون ما ندرك، ولا يعانون مما نعانين، ولا تحتك جلودهم بأشواك الواقع .

وقف صبي في آخر أيام الطفولة، وأول ليالي صباه، وطلب الكلمة، قال :

..إن كُلّ ما قمنا به في مصر خيال الانتفاضة الفلسطينية البطلة لا يكفي أبداً .

لا يعرف الصبي كلمة الحد الأدنى، حتى يقولها، لكنه لم يكن راضياً عن كل ما قدمه الشعب أو الحكومة والأحزاب . هناك ما هو أكثر، حتى نكون جديرين بأن نكون أولاد مصر، قال ما معناه إننا لا نليق بهذا البلد، وإن مصر تستحق شعباً آخر غيرنا يعيش فيها .

في اليوم التالي، كانت مفاجأة الفتى الذي هرب من أسرته، لكي يسافر إلى فلسطين، يفنديها بروحه، ومن شدة رومانسيته، ولغياب خرائط الوطن العربي واختفاؤها، ولأن بعض التلفزيونات العربية

تعرض خريطة الوطن العربي، ومكان فلسطين، تقلع العين من مكانها بكلمة اسم المختص. من شدة سذاجة الصبي تصور أن الطريق إلى العريش يمر بالاسكندرية. وسافر إليها فعلاً، وفيها عرف الحقيقة، وعاد إلى القاهرة، ليسافر إلى القناة، ومنها إلى الحدود المصرية - الفلسطينية، ولأنه يمر بمرحلة الحلم، لم يتسلل من الاسلاك الشائكة، وإنما اتجه إلى الضابط من نقطة الحدود، وقال له إنه يريد العبور إلى فلسطين، ليشترك أهلها وشعبها إنتفاضتهم ضد المحتلين.

الباقى معروف، فالضابط أبقى الفتى عنده، واتصل بوالده حتى يسافر إلى نقطة الحدود من أجل العودة به. ذلك أن سيئه لا يسمح له بالمشاركة في الانتفاضة مع أبطالها من أبناء فلسطين الذين من نفس سنه، إنه الجيل الذي نبت من وراء ظهورنا، وفاجأنا بما لم نعد قادرين حتى على الحلم به. إن كان الصبي أحمد شعراوي هو أول مصري فكر في هذه الرحلة، فلم يكن الأخير، ذلك أن وفاة من نفس سنه هربت من وراء أسرتها، وسافرت إلى حدود فلسطين من أجل أن تشارك في ما يجري هناك، كانت قد ذهبت إلى مراكز التبرع بالدم، وتبرعت بكل ما طلبوه منها، لكنها عرفت أن المحتلين منعوا سيارات الاسعاف المصرية من الدخول، وأغلقت الحدود بين مصر وفلسطين، فقررت أن تسافر بنفسها، ما دام دمها ودماء غيرها من المصريين قد منعت من الدخول.

مظاهرات طلاب جامعات مصر، كانت أكثر من مفرحة، لكن الجديد كان مظاهرات طلاب المرحلتين الثانوية والإعدادية، هذا ما لم نتعوده من طلاب العلم في مصر من قبل، بكل ما في هذه المرحلة العمرية من براءة وتصور ويتمد عن التنظير ووصول الحقائق البيديهية من أقصر الطرق وأسهل الدروب، منذ مظاهرات الطلاب في النصف الثاني من الأربعينات. وكانت فلسطين من الأسباب الجوهرية لها، أقول منذ أكثر من نصف قرن لم نشهد مظاهرات مصرية فيها هذا القدر من العفوية والصدق. ثم تنادت مصر بالمقاطعة.

استوففتني رؤية منزل، في أحد محلات خي مدينة نصر، قالت لي، بدون تعارف أو مقدمات - هو أيتكم الوحيدة هي تعذينا، تتكلمون عن المقاطعة ولا أحد منكم يفكر في أن يحدد لنا ماذا نقاطع؟ حدودنا البضائع والمخلات التي يجب مقاطعتها، ولا تنسوا أن أمريكا هي إسرائيل، وأن جميع شهداء فلسطين يستشهدون بيد قناص من النازيين الجدد، فإن السلاح آت من هناك، من أمريكا.

كان الزمان، دار دورته الكاملة، مع أن هذه الدورة جرت في أقل من شهر، من قبل كانت المحلات تتسابق في الفخر بأصولها الأجنبية. وتعلن عن أماكن صنع بضاعتها خارج مصر، كانت تلعب على عقدة الخواجة، وتراهن على سبق الجري وراء كل ما هو مستورد، وكان الناس يجرون وراءها كنوع من المباهة الاجتماعية.

بعد الانتفاضة البطلة، ورفع شعار المقاطعة كسلاح شعبي، إذ بهذه المحلات نفسها، بعد أن انصرف عنها الناس، تنشر إعلانات في الصفحات الأولى من الصحف، تقول إنها لا تبيع منتجات شركات مقاطعة وأنها تساند شعب فلسطين، وإن كانت لم تقبل إنها ضد الصهاينة.

هذه المحلات قصتي أعمالها الآن، وقد بلغت خسائر أحداها ستة عشر مليوناً من الجنيهات في أقل

من شهر واحد، رغم أن هذا المحل أعلن بياناً بعدد العاملين الذين يعملون لديه، وبالتالي عدد الأسر والعائلات التي تعيش من دخل هذا المحل، في محاولة لاستعطاف الناس، ومع هذا قاطعه المصريون. خيل إليّ أحياناً أن الزمن يعود إلى الوراء، وأن الستينات تهل علينا مرة أخرى، وأن الناس - خاصة العاديون منهم - يبدوون سعداء في كل مكان من بر مصر، ذلك أنه لا يوجد بيت في مصر، لا يعلق على جدرانه صورة شهيد من شهداء حروب الصراع العربي الإسرائيلي الخشن.

إن المصري لا ينسى عدوة أبدأ، والدماء مقدسة بالنسبة إليه، عندما تكون دماء شهداء استشهدوا في سبيل الوطن، هل أكتب ما هو أكثر؟ لديّ ما لا يمكن الانتهاء منه من الكلام الذي يمكن أن يشكل ملحمة طويلة عنوانها المصريون يحرقون كامب ديفيد.

يخطئ من يتصور أن كلمة النهاية يمكن أن تُدوّن في سجل هذا الصراع، الذي لم يكن صراع تحرير تراب محتل بقدر ما كان صراع وجود، ويخطئ من يقول إننا كنا ندافع عن فلسطين، كنا ندافع عن أنفسنا عن بلادنا وعن هويتنا، فالمحتل واحد، والخطر واحد.

لو لم تضع فلسطين، لاخترعناها.

لو لم تكن القدس، مدينة الله، وكلمة السماء لبَيَّنّاها بخفقات القلوب ونور الأعين.

ها هم أولادك يا مصر، في صورة تذكارية عند قمة الوجدان القومي العربي ..

لقد صار الكل في واحد.

وما قام به المصريون، كان رسائل مُحدّدة، ثلاث رسائل، تميزت من بين ملايين الرسائل التي خرجت من ضمير مصر مؤخراً، رسائل أهل مصر كانت متنوعة.

الحُكّام تل أبيب نقول :

نحن لم نخرج من الصراع العربي الصهيوني، ما زلنا في قلب قلبه، وفلسطين قضية كل مصري، ولا مريكا نقول :

إن هذا الانحياز الأعمى للمحتل والمفتصب ضد صاحب الحق، سيهدد مصالحها ووجودها في كافة أنحاء الوطن العربي والأمة الإسلامية.

للرب والمسلمين كافة، نقول :

من قال إن الصمت من ذهب ضحك عليكم قروناً طويلة، وصدقموه، لقد خرج صوتنا ليعلم رأينا، الصمت موت وغياب، والكلام حضور.

والفعل أقوى إنشاءً من أيّ كلام ..

فلسطين .. تكون أو لا تكون ..

ولا بد أن تكون ..

ذلك هو الممكن الوحيد.

## شرفة الانتفاضة

الياس خوري

كنّا نجلس في مقهى «الروضة» في بيروت، البحر الأزرق على يميننا، وأمامنا مدى المدينة الذي يلفه الصمت، وكنا نتحدث عنكم. أقول عنكم وأقصد عنا. فنحن الرجال الثلاثة الذين تلونت رؤوسهم بالشيب، لم نعتد بعد على الفصل بين ضميري المتكلم والغائب. فالضميران يمتزجان كأنهما ما انفصلا. الغائب يحضر والمتكلم يغيب أمام شرفة الانتفاضة التي تنزف دماً.

كنّا نجلس في مقهى «الروضة» في بيروت، حين غرق البحر في الليل. حين يفقد البحر لونه الأزرق وينغمس في الليل، يصبح غريباً. كان البحر غريباً، وكنا نستمتع إلى أمواجه تضرب صخور الشاطئ، ونحكي معكم. وأخذنا الكلام، جاء الكلام كإطار، وكنتم على شرفات الموت التي تفتح انتفاضتكم على السماء، وكنا على شرفة الليل الذي يبتلع الألوان. وفجأة التمعت قنبلة مضيفة في الأفق، ورايناكم تحملون بيروت وتغضون بها إلى هناك تحت زخات الرصاص، ودوي القنابل.

كنّا نجلس في المقهى، وكنتم معنا. عدنا فجأة أبناء هذه الحركة التي أخذتنا إلى الأردن يوماً وأعادتنا إلى لبنان أياماً. عجيب امرنا، لا نزال نحكي كالأبناء، مع أننا نستطيع أن نكون أجداداً. لا نزال حين نتحدث عنكم ومعكم نشعر أننا أمام البداية التي تبدأ كل يوم. وحدهم الأطفال من رماة الحجارة يضعون البداية، لأنهم مع كل حجر يبدؤون، لكننا نحن أيضاً، حين يأتي الكلام عن فلسطين، نصبح أبناء هذا المدى، ونستعيد نكهة البداية.

كنّا نجلس في المقهى، الأول يحمل هاتفاً خليوياً ويتصل برام الله، والثاني يعدد أسماء المستوطنات الإسرائيلية التي يجب أن تزول، والثالث أنا. كان بيروت صارت في رام الله، كان الحكاية تبدأ من جديد، كلماتها هي كلماتنا، وموتها هو موتنا، وحلمها أيضاً.

كنّا نجلس، نقبض على أصابعنا كمن يقبض على الجمر، وتحدثنا عنكم. وهذه المرة لم تكن ذاكرتنا هي التي تحكي. كنا في الماضي، حين نلتقي، نحكي مثلما يحكي قدماء المحاربين. نذهب إلى شوارع الذاكرة، نعيد بناء ما تهدم، وإحياء من قضى، ثم حين نفرق يعود كل واحد منا إلى عالمه الحقيقي الذي لا تحتل الذاكرة فيه سوى موقع ثانوي. كنا نلتقي من أجل الذاكرة، أما في الأمس، فلقد تراجعت الذاكرة القديمة أمام هذه الذاكرة الجديدة التي تصنعها الانتفاضة. وراينا كيف تتجدد الأشياء، ويولد الحى من الميت.

كنّا نجلس، ونحكي.

لم نسال أنفسنا لماذا نكتفي من الكلام بالكلام. فنحن الذين عرفنا كيف يتحول الكلام فعلاً في العروق والأغوار وشوارع بيروت، كنا نشعر أن الكلمة لا تزال مثلما تركناها وهي تغطي أجساد

رفاقنا الشهداء، تملك القدرة على الفعل، حتى وإن كان الفعل بعيداً عنا.  
وفي لحظة، شعرنا أننا في الخطأ.

تأتي بعد كلمة جميلة نقولها، أو عبارة نكتبها. الحقيقة أنني عندما ذهبت إلى الجنوب بعد تحريره في أيار الماضي، ووصلت إلى شرفة الجليل اللبناني في قرية العديسة، حيث يمتد إلى يمينك الجليل الفلسطيني في لا نهاية الأفق، أحسست وأنا أقف مع الراقفين أن قلبي يسقط هناك.  
قلت إنني أريد أن أذهب، وأنا أعرف أن علياً محق في قوله، وأنني لو ذهبت، لن أفعل شيئاً  
يختلف عما أفعله هنا في بيروت.

«لكن عيوننا تعبت»، قلت لهما. «لم أعد أستطيع النظر إلى الشاشة الصغيرة التي أصبحت تشبه الكفن. لم أعد أستطيع التفرجع على الموت»، قلت، وواقفاني، وقال حسام إنه يشعر كل ليلة بالدموع تخرج من عينيه، وأنه صار ينجعل من زوجته وأولاده.  
وهنا يكمن الخطأ.

كنا نجلس في المقهى، والخطأ يحاصرنا من كل ناحية. لم نعد نملك من الكلام سوى الكلام، تنحول الكلمة حبلاً يخنق، بدلاً من أن تكون طريقاً. الخطأ هو أننا نجلس بدل أن نفعل شيئاً، أردت أن أقول، لكنني لم أقل، فانا في الحقيقة لا أشعر أنني لا أفعل شيئاً، أشعر أن يدي ترمي مع كل رمية، وأن جسدي ينحني مع كل قذيفة أو رشقة، وأن حكايتي مستمرة هناك، فلماذا نقول إننا لا نفعل شيئاً؟.

«لا تقارنا بالشهداء»، قال حسام، «الشهداء وحدهم هناك، أما نحن... نحن لا شيء».  
كنا نحكي ونحكي، حين سأل حسام عن الفعل، «ماذا يجب أن نفعل؟» سأل الرجل الذي استعاد اسمه القديم فجأة. كنا نسميه حساماً في حركة فتح، لأنه مثلنا جميعاً كان قد اتخذ لنفسه هذا الاسم الحركي، مستبدلاً به اسمه القديم.

فجأة رأيت أحمد وقد عاد إلى حسام، وسمعت صوته القديم، واختلطت الأمور في عيني. رأيتنا في «التخطيط» أو في «القطاع الغربي»، حيث كان السؤال حين يرتفع يتحول مشروعاً أو خطة.  
كنا نجلس أمام البحر حين سأل حسام ماذا يجب أن نفعل، وبدا السؤال في التلاشي. وحين قلت «نذهب إلى هناك»، ابتسما وقال علي: «وهل تعتقد أنهم يحتاجون إلى كواثر من الكهول لتثقل عليهم بدل أن تساعدهم». وواقفه حسام، أما أنا فلا.

ربما كنت أكبرهم عمراً، لكنني لم أستسغ عبارة الكهول هذه، لا لأنني لا أسلم للزمن، ولا لأنني أكره شيبتي أو أخافة، فانا اردد دائماً مع المتنبي بيته الرائع:

«خُلقت الوفاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبتي موجع القلب باكياً»

بل لأنني كنت أشعر في تلك اللحظة، أنني أملك حيوية فتى في الخامسة عشرة، وأنني قادر أن أحمل كل حجارة العالم، وأقذفها في وجه جنود جيش الاحتلال.  
قلت إنني أريد أن أذهب فقد سقط قلبي في الجليل. وحكاية قلبي ليست خيالية، ولا علاقة لها

على الإطلاق بالمشاعر الرومنطيقية التي تصنعها كلمة نقولها أو عبارة جميلة نكتبها، الحكاية حصلت هكذا، ولم يكن في الأمر لجوءاً إلى الكناية أو الاستعارة. فبعد تحرير الجنوب في أيار ٢٠٠٠، ذهبت مع الذاهبين إلى هناك من أجل أن أقرأ التاريخ قبل أن يُكتب، وعلى مشرفة العديسة التي تطل على المدى اللامتناهي، مددت يدي في الهواء فصرت في فلسطين. هناك سقط قلبي ورايته كيف تدرج أمامي، وذهب بعيداً، من شرفة الجليل اللبناني الذي يطل على الجليل الفلسطيني، أحسست أن القلب يسقط، لا مثل صورة في الأدب، بل مثل قلب يُعصر داخل القفص الصدري ثم يهوي. أردت أن أذهب من أجل قلبي، وهنا يكمن الخطأ.

انتم ترحلون لغة القلب دون أن تدروا. فرغم أن الانتفاضة طلعت من أعماق اليأس والخيبة والشعور بالمهانة، لكنها تمتلك لغة سياسية واضحة يجب أن نتعلم قراءتها. إنها تعلمنا أن السياسة يجب أن تكون مثل السياسة. فالشعب الفلسطيني لا يذهب اليوم إلى موته، ولا يحتفي بذاكرته، بل يذهب إلى صناعة استقلاله الوطني على ٢٢٪ من أرض فلسطين.

القلب يجب أن يتأجل الآن، وبدل اللغة المليئة بالاستعارات، يجب أن تولد لغة باردة تقول الحقيقة المباشرة. هناك احتلال ومستعمرات استيطانية، وهناك ثورة شعب من أجل الاستقلال. المعادلة واضحة، يجب تأجيل كل الكلام من أجل أن يتحقق هذا الهدف. وبعد ذلك نصوغ لغة جديدة من أجل الحق والعودة.

قال علي إنه لم يعد يحتمل العجز العربي العام.

قال حسام إن الخطأ في كل مكان.

وبدل أن أجابيهما أحييت رأسي موافقاً. أردت أن أقول لهما إننا نكتشف اليوم الخطأ العربي، أي أخطاؤنا نحن، فالعالم العربي يكتفي من الانتفاضة بالتباكي على صدرها. «لكنها الأنظمة»، قال علي.

«العجز ليس في الأنظمة فقط، بل في الشعوب أيضاً، لقد كشفت الانتفاضة ما عجزت النكبة عن كشفه»، قال حسام، «النكبة أشارت إلى عجز الأنظمة، لكننا نكتشف اليوم أن العجز بنية كاملة في مجتمعاتنا، من القمع إلى التسلط إلى الرضوخ للقبول».

أردت أن أقول إننا نتحدث عن العجز، في زمن تفتح فيه الانتفاضة الأفق على الاحتمالات. وهنا الخطأ أيضاً.

الانتفاضة لا تلغي العجز العربي، لكنها توشح إلى احتمال تجاوزه. العالم العربي يبدو الآن عاجزاً لأنه فقد صورته وفكرته، لقد تحطمت المرايا العربية التي كنا نرى فيها صورنا. جاء الديكتاتور وحطم المرايا، وفرض صورته بدلاً من كل الصور. وحين تقبض فلسطين من جديد على فكرتها وصورتها، فإن هذا يوشح إلى احتمال عربي أيضاً، أليس كذلك.

قلت «اليس كذلك»، دون أن أقول مقدمتها، فابتسم صديقي، كأنهما أرادا مداراة تلعثمى بالابتسام.

كنا نجلس في «مقهى الروضة»، وكانت بيروت مثل ذاكرة لا تتذكر، كانت المدينة تنبسط أمامنا

سوداء على مرآة البحر الذي تلون بالليل .  
ولم نكن نملك كلاماً .

رأيت في مرآة هذا البحر الذي أسموه في الماضي بحر الروم، ويسميه الأتراك البحر الأبيض، ويسميه الأوروبيون البحر المتوسط، ونمّز نحن العرب بين اسميه التركي والأوروبي، رأيت في مرآة هذا البحر كل الدم الذي أريق فيه وعلى جنباته . وتساءلت، وأنا أروي لصديقي كيف انتهت الحروب الصليبية بهزيمة مزدوجة للفريجة والمغول على أيدي المماليك، عن المعركة القديمة والمغول، حين سألني حسام عن المماليك، « من سيخرج المماليك » بعد ذلك . وضحكت، لا لأن المقارنات التاريخية مضللة فقط، بل لأن الاسرائيليين وفروا على المنطقة حرباً مزدوجة لانهم مزجوا في داخلهم الفريجة بالمغول .

« نهزمهم هذه المرة حين نهزم المماليك الذين يتحكمون فينا »، قلت . وكنت على خطأ أيضاً .  
فالمسألة الآن ليست انغماساً في تاريخ مضى، حتى ولو احتلت بعض رموزه الثقافية والدينية، مكانة في وعي الانتفاضة لنفسها . المسألة الآن هي كيف يتحقق الاستقلال الفلسطيني، كمقدمة لمعالجة نظام الفصل العنصري الذي تؤسسه اسرائيل في المشرق العربي .

كنا نجلس في المقهى، وكان البحر . وكنا على مقربة من فلسطين . عكا تبعد رمية حجر عن صور وبيروت في حيفا، ورام الله تولد إلى جانب القدس، وبيت جالا تحت القصف، وأسماء المعابر وخطوط التماس . فلسطين تولد اليوم .

ونحن الذين نخبئ في عيوننا قضبان السجون، نحن من المحيط إلى الخليج، أمام البحر الأبيض، نقرأ أوجاعها، ولا نملك سوى كلمات لم نعد نعرف أن نكتبها .

بيروت

## اسم الفلسطيني ورسالته

عباس بيضون

الصورة والخبر لإيهما كل يوم . الفتیان والشبان بالحجارة والمقلاع وراء جدران أو في عبور سريع في الشارع . الجنود الإسرائيليون من بعد يرمون بكل شيء وبالنار بالطبع . عدد يومي من القتلى من المعتاد أن يشمل فتى أو أكثر، حرب غوار بالحجارة متحركة ومتنقلة . من دون تعديل أو بتعديل طفيف تتكرر الأمور ذاتها، يغدو عادياً موت الأطفال ومبادلة الحجارة بالرصاص . يغدو عادياً أن يقتل يهودي المستعمرات المسلح عربياً لأنه عربي . يغدو ذلك عادياً ومتكرراً حتى للفلسطيني نفسه .

يحدث كل يوم من دون نتائج منظورة أو متوقّعة وأحياناً من دون نتائج على الإطلاق . الإصغاء العالمي أقل ، ففجأة بدأوا يتحدثون ، في عالم مهجوس بالبيدوفيليا ، عن استغلال الأطفال العمد ، والتضحية بهم قرابين إعلامية وتحريضية . والأرجح أن فوبيا العنف في مسألة معقدة كهذه قد تدعو إلى صرف النظر . حين يمكن ذلك - عن تحديد المسؤول ومساواة الحجر بالرصاصة ، ثم إن المجتمع الإسرائيلي يزداد عدائية فهو لا يرى في الحجر إلا رصاصة مستقبلية ، وهو يعلم أن الكراهية عنوان سلوكه طيلة نصف قرن وأكثر لا ينتظر بالطبع ، ولا يصدق ، أن يقابل بالتسامح . مع كل ذلك نعرف أن الانتفاضة لا تحتاج إلى بارقة أمل ولا إلى نتيجة منظورة ، ولا إلى مطلب قريب ولا تحتاج حتى إلى مستقبل لتستمر وتستمر أشهراً وأعواماً . ليست هي المرة الأولى التي تختبر فيها قدرة الشعب الفلسطيني على المثابرة من دون أمل . لعله فريد في ذلك ونسيج وحده . تمر أشهر وأعوام من العسر الكامل ويستمر التحرك مع ذلك ولا يفقد زخمه بسبب انسداد الآفاق أو فقدان الوعود . أمر يحير وقد تدعونا الحيرة في أحيان كما دعت كثيرين إلى سيكولوجيا عدائية ، فنقول إن الفلسطينيين شعب انتحاري مهجوس بعبادة الموت كاره للحياة ، ويضحى باطفاله قرابين لديانة من هذا القبيل . كثيرون عرباً أو غير عرب تكلموا هكذا من دون أن يسألوا عن السبب في دفع الفلسطينيين إلى هذا اليأس وذلك الجدار . من جعل الفلسطيني - إذا صح التحليل - عابداً للموت ؟ .

لا ننسى أن هذا الشعب لا يزال يقاتل في دائرة غير منظورة وفي سبيل مطالب جُلّ أن تسمى كما كان يقول المتنبي . هو وحده بين الشعوب يقاتل ليكون له صوت واسم ووجود . كم هي الشعوب التي لا تزال في درجة من الوجود الاحتمالي أو ما قبل الوجود وما قبل الاسم وما قبل الوطن ؟ هُدر دم فلسطيني كثير في معركة غير منظورة هي أن يكون للفلسطيني اسم وبطاقة . أن يراه العالم ويضطر لمخاطبته . أن يجبر العالم على نطق اسمه . أن يعود لفلسطين بالقوة اسمها . من أجل ذلك يقاتل الفلسطيني الرصاصة بالحجر ، فهذه معركة لا يرجى منها نصر بالطبع ولا يؤمل أن تفضي إلى كسب . إنها معركة الاسم الفلسطيني ، لنسمها هكذا ، والسلوك الإسرائيلي لم يكن في يوم سوى انكار هذا الاسم وطمسه وإزالته وتجاهله في أحسن الأحوال . الاستيلاء على الأراضي والمنازل والأقامة على سطوح المساجد وانتهاك المقدسات الفلسطينية ليس له معنى آخر . زيارة شارون الباذخة للحرم ليست شيئاً سوى هذا . إنها مجدداً سحب الاعتراف وإعادة الاسم إلى ما قبل الوجود . الإسرائيلي يصارع أيضاً على هذه النقطة . إنها تخيفه هو الذي يعرف بخبرته أن المسألة هنا وبيردها أن تبقى دائماً في نقطة الصفر . في الاسم واللا اسم . في الاعتراف وسحب الاعتراف . يقاتل الفلسطيني بالحجر لأنه ، بخلاف ما يقال ، لا يتجاهل العالم ، فالحجر ليس سلاحاً حقيقياً بقدر ما هو إعلان ، ويقدر ما هو لفت انتباه . ويقدر ما هو في النهاية استغاثة ودعوة للاعتراف ، إنه لغة أخرى كلغة الدخان والنار ، رسالة إلى العالم .

يخاطب العالم أولاً ، وكم يحتاج الأمر إلى مثابرة وزخم ودم ليضطر العالم إلى سماع الصوت الفلسطيني الذي لا يصل إن لم يكن له هذا الثمن الفادح . لننتحدث عن الثمن . لنقل إن العالم يفرضه على الفلسطيني ، إنه لا يصغي إلا برقم ضحايا كبير ومدد طويلة . العالم هو الذي لا يعطي

اعتباراً لحياة الفلسطيني. الإسرائيلي المسلح هو الذي لا يعطي اعتباراً لحياة الفلسطيني. ننسى ذلك أحياناً، ننسى أن ثمة قاتلاً وأن الرصاصة تأتي من الجهة الأخرى. ننسى أن لا سعر لحياة الفلسطيني أو العربي في إسرائيل وأن المحاكم لا تجازي تقريباً على قتل عربي، وأن بومع يهودي المستعمرات المسلح أن يقتل رغم أن الجيش الإسرائيلي القوي لا يحتاج إلى دعم. إذا كان من حق يهودي المستعمرات أن يقتل فضلاً عن الجندي الإسرائيلي، تجلت صورته معاكسة. الفلسطيني «الثائر» لا يستعمل سلاحاً متوفراً ويكتفي بالحجر، لأنه يحترم أكثر حياة الإسرائيلي وحياة أطفاله بالأخص، ويحترم حق الحياة بوجه عام، ويحترم القانون الذي يحرم القتل. أما الإسرائيلي في دولة القانون فيبيع لنفسه أن يجازي الحجر بالقتل، وأن يستحل حياة العربي كما ينتهك ملكه. العالم لا يرى دائماً هذه المقابلة البسيطة. لا يريد أن يضع الأمور في هذه المعادلة. وكم على الفلسطيني أن يدفع ضحايا ودماء ليراهم ويفهمها. حق الحياة يتعلق غالباً بحياة الآخر ومن يقتل طفلاً هو من يقتله فعلاً، والامر أبسط من أن تفهمه سيكولوجيا عنصرية لا تريد أن تفهم.

لا أحد يسأل من الذي يدعو شعباً إلى هذا النضال الطويل من دون أمل. ما الذي يخرج فتيناً وأطفالاً إلى لعبة كهذه. حب الحياة وحق الحياة، كم نطلبهما من الذين لا يحترم حياتهم أحد ولا يري لهم أحد حقاً. ليس من الضروري أن نروي حياة الفلسطينيين في كل مكان لنرى أننا دائماً أمام الجدار ودائماً بلا أمل ودائماً في وضع معلق ودائماً في الدرجة الصفر أو أمامها. ألا نفكر أحياناً بمعجزة اليأس. ألا نفكر بأن زخماً مخيفاً وهائلاً طويلاً هو وحده الذي يمكن أن يزحزح حجراً في الجدار، أن يكسر سياج الصمت، وأن يحرك شيئاً في وضع معلق ساكن.

في الانتفاضة الأولى انتظر العالم طويلاً ليرى الفلسطيني الحقيقي طفلاً مرحوباً ومطارداً وقتيلاً. في الانتفاضة الثانية ينتظر العالم طويلاً قبل أن يعرف أن الحجارة للعب، وأن الأطفال الذين يحملون الحجارة يلعبون، وأن لعبتهم خطيرة لكنهم يلعبون، أن الجندي الإسرائيلي يطلق النار لا لأنه يتأذى من الحجر، بل لأنه لا يطيق أن يرى الفلسطيني يلعب، ولو بحياته. لأنه يريده غير موجود وميت وبلا اسم ولا صوت ولا لعبة في الأساس. لأن العالم، (وللخطابة الفلسطينية والأدبيات الفلسطينية والخطاب العشائري مسؤولية في ذلك) لم يصدق أن الفلسطيني يخاطب العالم برسالة الحجر، وأنها رسالة سلمية، وقد تكون موجهة - حتى - للإسرائيلي نفسه. لن يصدق العالم اليوم أن الديمقراطية الإسرائيلية هي استقرراطية الأكثرية وديكتاتورية الأكثرية، وأنها في عالم، قوام الديمقراطية فيه حقوق الأضعف وحقوق الأقليات، متخلفة عن العالم وعن العصر. إن الفلسطيني الذي يرمي حجراً هو بالتأكيد أكثر حضارية ومعاصرة. «كم يسيئون لذلك ويوفرون سبباً لطمس كل الألام الفلسطيني أولئك الذين يضعون متفجرات في باص للأطفال الإسرائيليين».

الطفل الفلسطيني. لا يسأل أحد من جعله قادراً على اللعب بحياته. من يجعل الفلسطينيين أمام جدار لا يخترقونه إلا بموتهم وبكلفة مرتفعة محسوسة من الدم. لماذا لا يسمع العالم أولئك الذين يجازفون بكل شيء لكي يُسمعوا. لماذا نتهم موت الطفل الفلسطيني قبل أن نسأل من هو القاتل. لماذا نقبل بسيكولوجيا عنصرية ترتاب حتى في موت الناس وتبحث عن «التخلف» حتى في رسالتهم

السلمية هذه، من يعطي انساناً حق القتل ويشتبه بحق الموت لآناس آخرين. وأي عالم هذا هو الذي يلقي على الاطفال مسؤولية موتهم، بدون أن يتساءل لحظة، عن أي ياس وأي يؤس دعاهما إلى المجازفة بالحياة.

بيروت

## إقبلونا ضيوفاً...

نزيه أبو عفت

ما علينا - بعد كل هذه السنين، وبعد كل هذا الدم - إلا أن ننأمل وننتظر.  
جرّح مفتوح، وعدالة شائخة، وضمير إنساني كسول وأعمى.. لا يفعل غير أن يخذل حصيلة الخراب ويتأفف من وفرة دماء الموتى!... وأيضاً: ينتظر.  
ضجرت ذاكرة التاريخ. ضجرت الشهود. ضجرت الأسلحة والقوانين والمذاهب والسموات، وضجرت أرواح الموتى. لكن - وحدها - شهرة القاتل إلى مزيد من الدم.. لم تضجر! الدم يشحذ شهية الدم. منذ خمسين عاماً، وعلى شاشة الملا الكوني، تفرق (لكن.. دون أن تُرى!) الدمعة الأكثر إبلاماً وسطوعاً في تاريخ صناعة العذاب؛ وتفيض (لكن.. دون أن تُسمع...) غصّات الأمهات على حافة الدمار؛ وتعلو صيحة الضمير الأعزل الحزين الكفيف، مستنكرة ومستنكرة، كأنما هي صيحة ميت طالعة من قاع التابوت: ثمة أطفال موتى.

ودائماً: ثمة أطفال موتى!..

ودائماً: ثمة الأمل.

أطفال موتى. أطفال يتطوعون للموت.

أطفال (قبل أن يصيروا موتى) كانوا أحياء كالأحياء. أحياء بسبب «تسامح» القاتل وغفلة عين الجلال: أحياء بالمصادفة!..

أطفال أطفال، منذ وروى لمجد واحد ووحيد هو الموت. يقاتلون. ليس بأكثر من الأمل - فولاذ العالم، وكسل ضمير العالم، وصمت العالم، وضجر العالم.. عالم مقسوم بين قاتل أعمى وشاهد موت أعمى!.. يقاتلهم العماء والجنون والمعدن وصلافة القوة وحيرة شهود العار!.. وتقاتلهم شهوتهم للحياة.

أما هم فبماذا يقاتلون؟!.. أما هم فبماذا يواجهون عسف العالم؟!..

بأن يكونوا ضعفاء إلى الأبد، مخذولين ووحيددين وآملين.. إلى الأبد، وبالعبء الوحيدة التي يملكون: إرادة الضحية مترجمة إلى إرادة حياة، وإرادة الحياة مترجمة إلى إرادة موت... وأيضا بالأمل.

ما علينا - بعد كل هذه السنين وكل هذا الدم - إلا أن نواصل التأمل في هذه التراخيديا الضارية، لعلنا نستطيع التقاط أسرار المعجزة التي تترجم شهوة الحياة إلى شهوة موت: (من يعرب هذه الاحجية؟..)

أطفال... أو شبهو أطفال.

أمضوا حياتهم وهم يشكرون أن ثمة من «يرى موتهم»! الآن يتوجب عليهم أن يباركوا أولئك الذين يصنعون أو يشاركون في صناعة ذلك الموت... عليهم أن يكونوا سعداء لأنهم ما زالوا يملكون من «لقمة الحياة» ما يمنحهم الفرصة لمزيد من الموت، أو... لمزيد من الموت.

وحدهم في عراء الخليقة الدامي. تقذفهم الرياح الكونية من بيت مغزوء... إلى بيت يتهدم... إلى هواء يتهدم... إلى جغرافية تتهدم... إلى عدالة تتهدم... إلى أمل يضيّق ولا يتهدم... ذلك هو العراء الخالص.

وفوقهم (فوق، في الأعالي الكونية) يترنح القتلة ماخوذون بنشوة النصر. يأخذون دمه ويعدونهم بـ «كعكة السلام».. السلام الذي من دم وآلام، ونحيب أمهات السلام الذي من رصاص وبغضاء وأعلام ملغوفة على جثث صبيان لم يتح لهم الوقت ليكبروا ويصيروا رجالاً! السلام الذي لا يعرف من أوصاف «سلامه» غير أن يكون أحبولة موت... أو موتاً مضافاً إلى لقمة موت...!

سلام يؤجل سؤال الحياة إلى ما بعدها: كرامة مؤجلة، سعادات مؤجلة، هواء مؤجل، ألعاب طفولة مؤجلة، وأعراس مؤجلة، وعيد حياة مؤجل، ويرتقال مؤجل، وقبلات شباب مؤجلة... وعلم مؤجل... وهوية مؤجلة...!

لكن، كيف يمكن أن تؤجل الحياة... إلى متى يمكن تأجيل أحلام القلب...؟

أحلام القلب؟!

لكن، بماذا يمكن أن تحلم قلوب الأطفال فيما الحياة مسروقة والموت يتربص - صاحباً ومدججاً - بين حافة قلب الضحية.. وحافة سماءات الرب...!

مع ذلك يحلمون!

يحلمون أن يموتوا «فيما بعد».. على أرض أوسع من قبر واضوا من هاوية. يحلمون بعدالة تملك القدرة على تأجيل ضربة الموت ريثما تبدأ السعة الحياة. يحلمون أن يموتوا كبشر «عاشوا». يحلمون الحياة. يحلمونها بعذاب ودم.

ربما سيأتي يوم (نشده ولا يشهدونه) تُنسى فيه عذابات الدم. لكن من سيكون بوسعه أن ينسى أن كل ذلك الدم (الدم الدم) سال على الأرض نفسها حيث كان القاتل، خلف قناع القديس، يطلق هدايا الموت. فيما الأطفال ينشدون من علياء كوابيسهم:

«تحيا الحياة... وتحيا أرض الحياة».

- لكن، ما الذي فعلوه ليموتوا...؟

- كانوا ينشدون : نريد أن يكون لنا بيت كالبيت، وهواء كالهواء. أن يكون لنا سماءً ومغذنة وشجرة وعلم وحقول وأغنيات عيد. لهذا كان لا بد من إسكات شهقة الأمل بالرصاص. رصاصٌ لذيح أغنية!..

ودائماً، خلف القاتل، كان حلفاء وقضاة وجيوش. وخلف الضحية.. العماء والصمت. وخلف العماء والصمت أطفالٌ يقيمون أعراسهم على حواف المقابر: أعراسٌ مجللة بالسواد ومبللة بالنعيب. أعراس دم.

- لكن، كيف يمكن أن تُمنح الحياة لمن لم يخرج من أرض؟ ١٩. يقول أنبياء إسرائيل الجئود. - الفلسطينيون مولودون من الهواء. إذن أعيدوهم إلى مسقط رأسهم الهواء، إلى أمهم الهواء، إلى وطنهم الهواء، إلى تاريخهم الهواء. أعيدوهم إلى نسبهم الهواء. لكن، أيها الأنبياء، حاذروا: ليس أمامكم من أمل غير أن تطردوهم خارج الخريطة الكونية كلها. أطردوهم من التراب، والمنزل، والشجرة، والريح، والقصيدة، والقبر. أطردوهم إلى زوالهم. ذلك هو الحل. إلى زوالهم، لأن كل ما قد يذكّرهم بالحياة (على أرض حياتهم) سيتحول مع الزمن إلى كمين موت. فإذن: اقتلعوا الذاكرة. ستعيشون (إلى الأبد؟) على أرض تكرهكم. إن لم تقتلكم كراهية الضحايا.. ستقتلكم كراهية الهواء. - وهل ندفعهم في الريح؟..

- اعتقد أنكم عازمون. لكن لا بد من تذكيركم بين الوقت والآخر، بين المذبحة والأخرى: إنهم يريدون أن يظلوا أحياء، فيما تريدون انتم - بدهاء القاتل وفزع الجلاذ - أن تجردوهم حتى من حقهم في أن يكونوا أحياء، حتى من حقهم في أن يولدوا، حتى من حقهم في أن يموتوا... من حقهم - إذا ماتوا - في أن يكون لهم جناحٌ متواضع في متحف التاريخ الطبيعي ١١... «هم» ليسوا بشراً. ليسوا كائنات أرض. ليسوا أحداً وليسوا شيئاً. بل مجرد «لا شيء» غامض ومريب وثقيل الوطأة، يتحرك في الفراغ الكوني؛ عبوة أمل مصنوعة من لا شيء سوى الأمل؛ مجرد «لا شيء» مُفسد وعدواني.. ويتوجب الحكم عليه بالإعدام...

لكن، فيما أنتم تقتلون، حاذروا : بذكرته الخفية، القوي يستطيع أن ينسى ما يشاء من حقائق الحياة. لكن - حتى هو الأعمى - لن يستطيع نسيان التاريخ : التاريخ مليءٌ بهزائم الجبابرة. - وبماذا يمكن أن نُهرم ؟

- الحكمة تقول : في مواجهة هذا القدر الباهظ من القوة، ولئلا نكونوا أمواتاً بلا ثمن، خيرٌ لهم أن يخضعوا لمشية العقل.. ويكفوا عن استدراج الأمل. - القوي يتكلم بجنونه.. والضعيف بأمله.

علّمنا التاريخ أنه في أحيان كثيرة يمكن للأمل الأعزل أن ينتصر على جنون القوة المدرعة. إذن سنأمل.

- وما الذي تطالبون؟..

- العدالة.

- العدالة كلمة يتلذذ بمذاقها الشعراء والحمقى. العدالة الوحيدة الممكنة على الأرض هي سلطة المنتصر.

- يا حماقة المدمنين على النصر... ما من أحد يستطيع أن يظل منتصراً إلى الأبد. أنتم الآن، إذ تواصلون نصركم الخزين، عاكفون على بناء هزيمتكم. تستطيعون إلى ما شئتم أن تواصلوا صناعة الموت. لكن بصناعة الموت وحدها - لا يستطيع القاتل أن يسوي حساباته مع العالم، إذ لا يمكن بالقوة وحدها - أن يطمس حسابات الموتى.

ما الذي تستطيعون فعله حين يهب الأموات لنجدة موتاهم؟!...  
- المزيد من الموت.

- يا حماقة المنتصر حين يبدأ بالانحدار إلى هاوية هزائمه: لا مفر أمام المنتصر التاريخي غير أن يتحول إلى سفاك تاريخي، وبعدها... إلى جثة. السفاح - بما يريقه من دم - يحدد الثمن النهائي لدمه. إذن فاسمعوا: إن لم تقتلكم الكراهية.. سيقتلكم استغراقكم في شهوة النصر واسمعوا أيضاً: الجبابرة - فقط لأنهم يحتقرون الطفولة والضعف - تقتلهم أصغر الهزائم.

واسمعوا أيضاً وأيضاً: في واحدة من حكاياته البليغة يروي «الخاندر كاسونا» عن ملك قوي ومستبد (إذ القوي لا يستطيع إلا أن يكون مستبداً) أنه شاهد في حلمه طفلاً يصارع أمداً. كان الطفل أعزل ولا سلاح له غير براءته. وبمنظرة واحدة منه جعل الأسد يتعرج في التراب! (١٠)  
أنتم الآن الأسد. أسد مدجج حتى نخاع قلبه بالكراهية والفولاذ.

- وأنتم، بماذا تستصرعون الأسد؟..

- بلا شيء. بضعف الطفولة.. وقوة الأمل.

- قوة الأمل.. أم قوة اليأس؟..

- ليس لدى اليأس إلا أن يامل. الأمل ليس نقيض اليأس: الأمل مغزاه. الأمل معجزة اليأس. لهذا - على هذه المبهمة الغامضة عن نجمة العيد - يمكننا أن نرى، خلف دخان الجنون وجلبة القوة، علم فلسطين وشمسها وأشجارها وبيوتها وأعيادها ومدارس أطفالها وحقولها وأشجارها وسماءها.. وتحت سمائها تتلألأ الرئة السخية لفرح الإنسان. نرى ونرى. ليس لأننا نشق باريحية الوحش، بل لأننا نؤمن بقدرة الطهارة على ترويضه، ولأنه لا بد لنا من الإيمان - بعد كل هذا الهول - بأن في وسعنا، ذات أمل، أن نطحن حديد الدبابات بأسمان العصفير.

.....

إذن: أيها الناس الضعفاء، الجميلون، الذاهبون بأحلامهم من حافة الموت إلى حافة الحياة... أيها الناس، هناك، على أمل القيامة، هيموا لنا المقعدة والنافذة والسماء وظل الشجرة والرغيف وأنشودة العيد ونبيذ بيت لحم المبارك...، واقبلونا ضيوفاً على مائدتكم: مائدة الأمل.

## دمشق

( \* ) هل كان «كاسونا» قبل نصف قرن من الآن يحلم بطفل اسمه: محمد ذرة؟..

## ذاب الثلج وبان ال ... هرج

مهجود عذوان

يذوب الصقيع .. ويتكسر الجليد .

يتحمل رشيم، ويعد رأسه من حبة لم تكن تحمل إلا يباسها . ناشفة كانت، وتحمل عطش الرمضاء .  
يتحمل رشيم فيتكسر الجليد . وتمد رأسها ملفونة خجلة، ولكنها عنيدة . تطلق صرختها الخضراء  
بين الصخور العارية . وتلتفت باسمه وهي ترى انسياع الجليد الذائب الخجل .

\*\*\*

يذوب الصقيع، ويتكسر الجليد .

كان ثمة ولد يلعب بشيء مثل كرة من الخرق لفها بنفسه . ويركض لاهياً، ومعه شيء يجاريه مثل  
كلب أليف يلعب صاحبه، ويتريّض . ركض اللاهيان وتمرغا على الأرض ضاحكين .

\*\*\*

يذوب الصقيع، ويتكسر الجليد .

كان ثمة ولد يلعب بالموت، أو يلعب مع الموت، كان يعرف أنه موت . أو كان يعرف أن الموت لا  
يخيف إلا العجائز . أو كان يعرف أنها لعبة الصغار . وأن الكبار باقون في الداخل حول موقد الذكريات .  
سيكمل لعبته . ولديه ما يكفي من الوقت لأن يكمل ولدته . سيبقى لديه متسع من الوقت ليرتاح  
حين يتعب . وسيظل حول الموقد متسع له حين يبرد، ويحتاج إلى دفء الذكريات .  
فتابع لعبه مع موته . وتابع الموت لعبه معه .

دبت الحرارة في عروقه، وتصيب العرق على جسده كله، وفاحت رائحته شهية، ودبت الحرارة في  
جسد الموت، أيضاً، فاستيقظ كلبه .

بدا الأمر مثل مصارعة لاهية بين ولددين، بين ولد وكلب . يتطاردان ويتمرغان  
ويضحكان .

ولكن الكلب كان قد استيقظ كلبه . وصار كلباً . فاكشف ذئبيته .

\*\*\*

ذاب الصقيع بينهما . ذاب تحتهما . وتفتت الجليد .

انتصبت القامة الخضراء من الرشيم المنسي . كانت قامته تستقبل الشمس وتشربها . وراح الاخضرار  
الوليد يخلع عثمته عنه . عرى أحلامه . وتاجج الرشيم مثل عريس يتأهب بباب غرفة دخلته . تسرب  
الولد فيه شعاعاً دافئاً حاملاً نكهة أرض الآباء، كبرياء وكرامة وموتاً زاهياً .

\*\*\*

اشتعل الحقد مع أول ضوء . وتراكض البردانون ليستدفعوا .

اشتعل الحقد وأضاء. فبدت الكراهية عارية. وكانت كلها عورة دون تعرية. فلم تصبح أقل بذاءة وقبحاً حين تعرت. خرجت من تحت ابطنها زواحف البيات، وراحت تدب مشرعة نرامسها القدرة وتقذف بسمومها في وجه الربيع.

كانما ذاب الثلج وبان المرج. وكان المرج مليعاً بالزبالة والعشب. فاحت الروائح، كما تزهزت الزهور وزهت.

كانه يوم الدينونة. يأتي الولد بموته كله. وتأتي الكراهية بجشعها كله، وقبحها كله. ويأتي العشب باخضرار كله.

هذه قيامتهم. قامت قيامتهم. رضى الموت الخريفي على أكتاف ولد يانع. وظل الولد يلعب. مات وظل يلعب.

لم يكن يعرف أنه يموت، وظن أنه ما يزال يلعب.

كان يخال أنه يستطيع في أية لحظة أن يحتمي بابيه. أو يصرخ: أمه. فيستعيد عمره كما يستعيد الدفء فور دخوله إلى البيت. ويثق أن أمه قد خبات له العروسة ليتناولها فور انتهائه من اللعب.

ولذلك ظل يلعب في العراء، بعد أن مات..

لم توقف الرصاصة لعبه. كانت أقوى من أن يقلت منها. ولكنها كانت أضعف من أن توقف حلماً. وكان الولد يمتطي حلماً نسيه أبوه، أو تغافل عنه، أو اضطر جده إلى التخلي عنه وإهماله. كان الولد، وهو لا يهتم، أو لا يدري، يشيع حياة في أرض يباب.

وكان منتشياً بدنياً جديدة تفتح حوله من موته، ولم ينتبه إلى أنه يلعبه كان يثير زواجر غبار تشيل معها أكوام زبالة الكلام والوعود والخطابات والانتماءات الخاوية.

لم تعد نشوته قادرة على الانحباس فيه. وأراد أن يصبح مغبطاً: تعالوا نفرجوا على موتي. ولكن أمه، كالعادة، ستقول له: دير بالك يا أمه. وأحد الكبار سيقول له: يكفي شيطنة.

وسيقول له شيخ حكيم: ما هذه التريبة؟ ألم تمنعك من اللعب مع هذه الكراهية البذيئة؟

\*\*\*

على غفلة ولد شعب كامل من الأولاد الذين يتقاذفون الموت بينهم وهم يضحكون كما يتقاذفون كرات الثلج.

وكانوا يعرفون أن الزحام لن يتيح لأي منهم فرصة للعب أكثر من شوطة واحدة. لكنها كانت لعبة مبهجة. وجديدة. ومدهشة.

ذلك الموت الذي يتمسك عليه الآخرون كهورة، ويخفونه عن الأعين كعرض مخدوش، ويشيحون بأوجهم التي تحملهم كما يجنبون الآخرين رائحة الثوم من أفواههم.

ذلك الموت أعاد له الفتيان سمعته العطرة.

تسللوا به من خلف المواقد. وخرجوا يلعبون. كانوا سعداء باللهو والبرودة المنعشة والموت. وكل يحمل موته فرحاً متباهياً، وكان الموت غرة تتارجح على جبينه.

كان الكبار يتلفعون بالدفع والسترة. وكانوا يتظاهرون بالاطمئنان الى ان الاولاد سيشبعون من اللعب بعد قليل. ويعودون إلى الجلوس حول الموقد. وراحوا يسربون تلك الطمأنينة إلى الأمهات. ثم يتظاهرون بأنهم لا يفهمون معنى أن ينقطع صوت أحد الاولاد وهو يتوقف عن اللعب، ولا يعود إلى البيت.

بعد الإرهاق من المكابرة، وبعد الاختناق من الدموع الحبيسة، والتظاهر بأن دخان الغلايين والحطب الاخضر هو الذي يدمع العيون، قالوا: فلتخرج لنرى وجه ربنا.

وخرجوا عراة من كلامهم. ففوجئوا بتناقص عدد الاولاد. ولكنهم وجدوا ذاكرة مزهرة أمام كل بيت. وفوجئوا بالرسيم يشق طريقه عبر الصقيع.

وبالمرج عارياً متجلياً بخضرته الزاهية.

لم يكن لعباً اذاً. كان اقتحاماً عنيداً ودامياً للزمن. واكتشف العجائز ان الاولاد المقتحمين قد زحموا الدنيا وافسحوا مجالاً لضوء صار وطناً.

دمشق

## عن الانتفاضة والملحمة

وليد إخلاصي

نخجل من الكتابة عن الانتفاضة العربية في فلسطين في زحمة الكلام. نخجل لأن الكلمات، ما زالت تحوم في الفلك المحيط بجوهر الانتفاضة، ولأنها تصبح فعلاً مجسداً خارجاً من شرايين جسدها الغاضب وأوردتها. وستكون الكتابة عن هذه الانتفاضة المدهشة فعلاً مفعماً بالصدق إذ تصبح عملاً معادلاً لعظمة اليأس الذي تجلّى فيها دون مساومة. وهكذا تحول الإنتظار الذي طال إلى ثورة ترسم المستقبل، تلك الثورة الشعبية التي هي ليست رداً على اعتداء الغرور الصهيوني وحسب، بل ثورة على الماضي المدعوم بالظلم العالمي وبالذور الظالم للسلاح المتقدم وهو يقابل الحجارة المتمردة.

هل نخجل من الكتابة لأننا بانتظار «هومير» عربي كي يسجل ملحمة التحرر الحديثة وهي تتخبط في بحر التآمر الدولي، أو لأن الملحمة التي سكتب بالكلمات ستكون المعادل الحقيقي لعظمة هذه الانتفاضة؟

المقهرون وحدهم يمهّدون الأرض أمام من سيكتب تلك الملحمة لتدخل في سجل التاريخ كعمل عظيم يوازي الملاحم الكبرى في حياة الإنسانية.

الغاضبون هم الذين يصنعون أسس عمارة الملحمة التي ستنصب في مسيرة التاريخ شاهداً على أن الكتابة فعلٌ يوازي عظمة الغضب.

لذا فنحن نخجل من الكتابة عن الانتفاضة التي ما زالت انشأً لغوياً يبرر هزيمة قدراتنا على الدوران خارج التبل التاريخي المتمثل في غضب الانتفاضة.

قدر الفلسطيني المعاصر أن يحمل وطنه معه في هجرته، وقدر الفلسطيني أيضاً أن يحمل لوعة الانتماء إلى التراب الذي أنبته، وقدر الفلسطيني كذلك أنه يُقايض رصاص الأعداء الغادر بحجارة الألم الغاضب، وقدر الفلسطيني أن يُساند بالنحيب العربي ويُمطر بوابل الخطب المتعاطفة وباللغة المنسوجة على نول البلاغة.

وقدر الأطفال في فلسطين ألا يبلغوا الحلم، بينما قدر النساء أن يُصن بلوعة الحزن على الأحباب، وقدر العائلة هناك أن تُمرّق أطرافها المتماسكة جوارح التعسف الظالم.

ألا نخجل من تسطير الحروف وحسب، بينما يخجل الفلسطيني من الاستسلام فيحوّل مسيرة الحياة إلى نقمة لا يملك فيها سوى الرفض والحجارة؟

لهذا ولذا نتطّلع جميعاً إلى ملحمة البطولة التي تمثّلت على الأرض بالمقاومة، والتي ستتجلّى في تصحيح التاريخ بامثولة تكتب لكل الشعوب ملحمة خالدة تُقاوم الموت المتعسف وتكشف زيف قوة الذراع والسلاح، لتمجد ألق الروح الشعبية التي تكتب الشعر بإيقاع الانفتاح على الخلود.

لا أقول إن الرأس تطاّط أمام الموت من أجل الوطن، بل أن الرأس لتظل مرفوعةً فخراً بشعبٍ أعزل يؤمن بأن الشجرة إذا ما اقتلعت تفجرت جذورها حياةً جديدة، وتلك هي ملحمة الإنبعث من رماد القهر وهي بانتظار من يُدخلها ذاكرة التاريخ عملاً عظيماً يشع منارةً في المسيرة الظالمة التي تنشر ظلمتها قوى الشر في هذا العالم.

حلب

## على حافة الليل

## بلا فجر ولا قياحة

محمد برادة

مثل مُستترّثٍ أمير وسط ظلمة مُطَيقة وأنا أهذي مُردداً ما سمعته وشاهدته منذ هزيمة ١٩٦٧... لكن تجدّد الانتفاضة، هذه المرة، حمل آملاً ونُبّه السائرين نياماً مثلي: لعبة التخبيّة لم تعد تجدي مع إسرائيل. سبع سنوات من التسويات والمفاوضات والانتظار، وشعب فلسطين ينتزى في قيوده، ونحن نتابع من بعيد، صامتين أو معلقين على تصريحات المتفاوضين. ولعلنا عوّدنا النفس على تلك

المرسحية - اللعبة التي تهدئ بال العالم كله، إذ نوهنا بان السلام آت ولو دامت المفاوضات خمسين سنة أخرى!.

تفجّر الانتفاضة ورشقات الحجارة، ودماء الاطفال والشباب أيقظت الجميع من الغفوة المريحة لانها ذكرتنا بالبديهيات: إسرائيل في حقيقتها العارية دولة محتلة لها ممارسة المستعمر، وترفض الاعتراف بحرية ووجود من سلبت أرضهم... سقطت الاقنعة، وتوارت رموز الديمقراطية والاشتراكية والعلمانية التي تدثر بها مؤسسو الصهيونية والمصدقون لها في الغرب.

من ثم فإن هذه الانتفاضة هي حدث - قطيعة لانها تطمح إلى ان تُخرجنا من الواقع القائم لنُحايِلَ واقعاً مُمكننا يتحرر فيه الوطن والمواطن. والحدث ليس مجرد أحداث تتطاير أنباءها وسائل الإعلام؛ إنه هزة عميقة شُخلِخِلَة للوعي المخدّر، المستلب. الانتفاضة هي حدث مُمهور بالدم، محفور بالأسئلة الجوهرية، أسئلة الحرية والسيادة والتحرر: شعب يرفض الاستمرار في العبودية والتهميش. شعب فلسطين جزء منا يأخذ الكلمة باسمنا جميعاً ليُنَبِّه المسؤولين المزعومين عن السلام في العالم...

رسالة الانتفاضة - الحدث هذه، قوية في بساطتها، مقنعة بشجاعة أطفالها وطلاتها وقُدرة شعبها على المقاومة. لكن الامور ليست، للأسف، بمثل هذه البساطة والوضوح لدى الجميع. ذلك ان السياق العربي - ماضياً وحاضراً - ينتصب مثل حاجبة الوميض ليمتصّ اللهب ويعزل شرارات الانتفاضة عن مجالاتها الطبيعية. ولا يقتصر الامر على ظلم ذوي القُرْبى، بل هناك أيضاً عَمَى الالوان الذي اصاب امريكا وأوروبا بما فيها فرنسا، بلد الثورة المناصرة لحقوق الإنسان.

خلال هذه الانتفاضة التي تختم شهرها الثاني، عشت أحداثها من مواقع ثلاثة: لبنان، سورية، فرنسا.

### فكيف كانت تبدو الصورة؟

في بيروت، كانت الانتفاضة حاضرة بقوة ومعها كل الآمال، لان حركة المقاومة اللبنانية، وبخاصة حزب الله، كانت تُدغم الانتفاضة من خلال الفعل المقاوم المتمثل في أسر ثلاثة ضباط إسرائيليين واستدراج عضو في المخابرات الصهيونية إلى شرك الاعتقال... أتى ذكاء الفعل والتخطيط المحكم لينهزم أسطورة إسرائيل التي لا تُقهرُا ويعيداً عن الخلفيات الإيديولوجية، كانت تدخلات حزب الله تكتسي طابعاً سياسياً يُثبت على أرض الواقع، ما تستطيعه القوى العربية المنظمة إذا تَرَجَّمت المقاومة إلى عمل دائم، مُستمر...

وفي سوريا، كان هناك حماس وتجاوب فتدقق المواطنون على المظاهرات لمساندة الانتفاضة ومهاجمة امريكا... لكن الخطاب الرسمي كان عالياً يَحْتَصُّ الغضب العالم الذي يجب ألا يغلو على موقف الدولة الرافض للتفاوض مع إسرائيل وفق شروطها... إلا أن حادثة بسيطة أثارت انتباهي حين أمضيت ليلة واحدة يَحَلُبُ الجميلة. فقد تَنَادى عشرات من كُتّاب وفتاني هذه المدينة ليَقِفُوا في ساحة الشهداء مُعبرين عن مساندتهم للانتفاضة. والجديد في المبادرة، هو أنهم لم يطلبوا إِيذاناً بالتظاهر كما

تقتضي ذلك أجهزة الأمن منذ ثلاثين سنة. وفي الساعة الحادية عشرة امتلأت الساحة بالادباء والفنانين ومعهم أطفالهم وبناتهم وهم يرفعون اللافتات ويطلقون بالساحة هاتفين ومنددين... بعد نصف ساعة، توافدت على الساحة جماعة من أعضاء حزب البعث يرفعون لافتات ويهتفون ضد إسرائيل؛ ذلك أن مكتب الحزب لم يكن بعيداً عن الساحة، ففوجئ المسؤولون بمبادرة الكتاب وقرروا هم أيضاً التظاهر بسرعة.

وفي باريس، تبدو صورة الانتفاضة وأصدائها متلوثة، متباينة تبحث عتياً عن توازن لا يُنضب الإسرائيليين وأنصارهم المستعملين دوماً لمسألة معاداة السامية حتى يلجأوا للتعبيرات المتضامنة مع قضية فلسطين. والذي كان فاضحاً، هذه المرة، هو موقف لوكريف Le korif، هذا المجلس الذي يضم مجموعة كبيرة من اليهود الفرنسيين ويخول لنفسه الدفاع عن الديانة اليهودية ومن ينتمون إليها، مع التحيز لوجهة النظر الإسرائيلية... وبمجرد انطلاق الانتفاضة، كشف المسؤولون عن «لوكريف» موقفهم المتحيز بل وانتقاداتهم الوقحة تجاه الدولة التي يحملون جنسيتها، فخلال حفل العشاء المقام كل سنة والذي يحضره رئيس الحكومة والشخصيات البارزة، لم يتروك رئيس المجلس في أن ينتقد السياسة الفرنسية المناصرة، في نظره، للفلسطينيين وإعلان أن فرنسا هي «خارج اللعبة» الدولية بسبب هذه المناصرة! وفي نفس الاتجاه، يتنادى اليهود المنتمون لهذا التيار إلى تنظيم سفريات عاجلة إلى إسرائيل تضامناً مع الدولة العبرية المهذبة بالزوال على يد أطفال الحجارة.

أما الذين «يصنعون» الرأي العام الفرنسي، عبر وسائط الإعلام والتداعيات الرنانة، فإنهم يُغمضون العين أو يقولون كلاماً يُساوي بين الضحية والجلاّد، والعشرات، من الشهداء الفلسطينيين الذين يسقطون كل يوم، يُشار إليهم بكلمات معدودة في التلفزيون وكان هذا القتل الذي تُمارسه إسرائيل مُبرّر ومقبولاً.

لقد كنتُ، عند انطلاق هذه الانتفاضة وما عجزتُ من حماس لدى كل الشعوب العربية بدون استثناء، ميلاً إلى أن أقرأ الظاهرة على أنها تعبير مُشترك عن رفض استمرار الاستعمار الإسرائيلي، وعن رفض أوضاع القهر واللامعراطية المفروضة، منذ عقود، على المجتمعات العربية. كانت تلك المظاهرات الحاشدة تُذكرنا بشيءٍ بيديهي كاستثناء منذ هزيمة ١٩٦٧ وهو: كيف لم يفكر العرب وأنظمة حكمهم، طوال خمسين سنة من الوجود الإسرائيلي، في الأسس الناجعة التي تسمح بالحد من سطوة إسرائيل وتتيح للكفاح الفلسطيني أن يُحقق أهدافه العادلة، وللجماهير العربية أن تتخلص من التخلف والتبعية والحكم الفردي؟

هذا هو الجرح الذي لا تنفع معه الكلمات.

كل شيء في عالمنا العربي، يفصل المواطن عن القضية الأساسية التي تُكوّن فلسطين حلقة جوهريّة داخلها: تحرير الأرض وتحرير الذات من تسلط الحاكمين. ومن هنا يبدأ الليل الشاسع الذي يكتُم أنفاسي فأحسني كالمسرّم اغتتم الحيلة الأشعورية لأهذي بالكلمات التي لا تُطابِعني في حالة

الصحو، حيث أُنحَل إلى متفرج عبر الشاشات الصغيرة وعبر التصريحات والتحقيقات الصحفية... وضعية متناهية لا يمكن أن أُحسب لها برأس خيط يُعقَل هذه الأحداث المتناقضة التي تُشعِرني بالعجز المطلق.

الفلسطينيون وحدهم يستطيعون أن يتحدثوا عن أمل مُمكن يُثبِق من دفقات الدُم ووضوح الموت. المواجهة عندهم تُعني الفعل الذي لا يقف عند حدود الكلام والنوايا، وإِثما هي فعلٌ وُجود يصرخ أمام كل العالم بأن الاستعمار غير مقبول وبأن الحرية والسيادة مُبدَأَن لا يمكن التخلي عنهما مهما كانت مطوَّة الجيش الإسرائيلي وعُتَاء الدول الكبرى المتفرجة على إسرائيل وهي تستعرض عضلاتها...

في مثل هذه الوضعية، كيف أُنقُ النفس بأن عدالة القضية ستحميها من وحشية الذين يمارسون سياسة البُذ الطوَلَى ولا يحترمون قوانين المنظمات العالمية؟ اكتفي بأن أتابع المشهد. انام واصحو لأُخصي عدد المستشهدين، وأتابع مواكب الدُفن وحركات الأذرع الفتية الملوَّحة بالحجارة. كيف يستعيد المنطق قُدْرته على إقناعي بأن هذه المواجهة غير المتكافئة لَن تُعرض جزءاً كبيراً من شعبي هناك، للإبادة؟

لماذا تبدو الظلمة عائدة بنفس القوة بعد أن نجحت الانظمة في ضَبط الشارع العربي، وإصدار قرارات قسمة لا تغيّر شيئاً؟

لماذا الماسكُون بزمam العالم يُعْتَبرون عن تخوفاتهم من زَعْوَة دولة إسرائيل ولا يُنادون بتصفية الاستعمار في فلسطين؟

مِنْ أيِّ موقع، إذن، أتكلّم ويكون لي كلامي معنى أو ثقل؟ أحس كأن حاجبات الوميض تُنتصب من جديد، وقوى التغيير تُحبس داخل قُمُخ السلطنة وتحايلاتها التي لا تبغي سوى الاستمرار مهما كانت التنازلات... ودفقات الدُم الفلسطيني، عبر التلفزيون، تذكُرني أكثر فأكثر، بهذا العجز الخائق. تُذكُرني بالحصار المضروب على غزة والضفة الغربية والقدس فيما القذائف والصواريخ تواصل هجماتِها، وليس هناك فعل عربي يساند باللموس انتفاضة التحرير...

لا أكون صادقاً أقول إنني الآن، وأنا غارق في عجزِي، أحسني على حافة ليل طويل، بهيم، ولا أستطيع أن أعزّي النفس بانني أنتظر فجرًا أو قِيامة.

باريس

## فلسطين المكان الذي غدر به الزمان

محمد لطفي اليوسفي

### الهبوط إلى العالم السفلي

سأحدث عن المكان.

لأنني كنت هناك في أريحا ورام الله وبيت لحم ومخيم الأمعري والبيرة وبيتونيا ومشارف القدس؛ لأنني ذهبت للمشاركة في مهرجان فلسطين الشعري الأول، لكن الشعب الفلسطيني العظيم أبى إلا أن يجعلنا نعيش فلسطين متوهجة غضباً ودماً وناراً، فشهدنا انتفاضة الأقصى تسطر أمجادها؛ ولأنه من الصعب على من يدخل فلسطين أن يشفى منها تماماً، فحالما يطأ ترابها ينسلل شيء ما قدسي، شيء سحري، هش، مشتبه، شيء يخترق الجسد ويستبد بالروح، سأحدث عن المكان.

لأنني رأيت كيف يتخفف المكان من ماديته وصلابته ويستعير من الحلم شفافيته وفتنته؛ لأنني رأيت الحلم يشهد من التكثيف ما يحوله إلى مكان صلب قاس مهيب يريك الجسد ويدوخ الحواس سأحدث عن المكان. عن الهبوط الجحيمي إلى أرض أريحا الصابرة تحت شمس قزرت أن تحرق كبد العالم؛ عن جبال الرواسي وخطوات المسيح على جبل التجربة؛ عن رام الله الناضرة صوب القدس المحاصرة؛ عن وادي النار؛ عن بيت لحم؛ عن كنيسة المهد؛ عن فلسطين المكان الذي غدر به الزمان. سأحدث عن أب مثقل بالهم مكدود نتقدم إليه بالعزاء فيغالب الوجع مزدهياً بأنه قدّم ابنه الطفل محمد نبيل علي حامد البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة قداً لفلسطين وكرامة الأمة العربية. عن المكان عدوانياً ووحشياً؛ عن المكان واقعاً أرضياً مضرّجاً بدم الأبرياء؛ عن الفعل رسولياً؛ عن الوجع ربّانياً؛ عن قطّة هذها الإعياء رأيتها تهبط مدرجاً يتفرّع عن شارع النجمة طريق المطارنة المتلفت صوب كنيسة المهد. سأحدث عن الدمع مكتوماً وسرياً؛ عن الأرض أمّاً تتغذى بلحم بنيتها؛ عن عرب الجهالين يحيطون بالقدس خياماً وقطعان ماعز تبحث بين الصخر عن أعشاب وهمية لا ترى وتعلك الضمجر؛ عن طفلة تلبس مريلة صفراء وقفت في الساعة التاسعة صباحاً قدام بيت متداع في مدخل البيرة تراقب أطفالاً في سنّها لم يتجاوزوا السابعة، يجمعون حجارة وإطارات سيارات استعداداً لمواجهات يعد الظهر.

عن الزغاريد ماهولة بالنوح مكتوماً سأحدث؛ عن معركة سرّية تجري في المكان بين الألوان، الأصفر والأزرق والأبيض وما بينها من صراع رمزيّ إشاريّ مدوّخ؛ عن المغارة التي سجد فيها الجوس قدام المسيح وطحوا كنوزهم ذهباً ولبناً ومرّاً؛ عن المساجد تبكي مسجد عبد الله بن عمرو بن العاص في الرملة وقد صار مرقصاً ليلياً، عن الكنعانيين يسرق حلمهم وتراثهم ومدائنهم وطريقة مقامهم على الأرض؛ عن جبل أبو غنيم؛ عن قمم الجبال والهضاب مزروعة بالمستوطنات؛ عن المكان حين يصبح جنّداً ويصير عسكرياً وخسرناً لبني البشر أجمعين، عن الصبر فلسطينياً، عن الرعب صهيونياً، عن اتفاقات أوسلو يذروها مكر الصهانية هباءً ومرارات، زبداً وطواحين ربح.



توجهنا إلى فلسطين بعد يوم واحد من استشهاده محمد الدرة في حضن والده يوم الأحد ١ تشرين الأول ٢٠٠٠، قتل الطفل على مرأى من الدنيا قاطبة. الأرض لم تصب بقشعريرة ولا الشمس أفلت. وحده الدم ظلّ صارخاً في العراء. قتل الطفل البارحة وما نحن نتوجه صوب فلسطين، صوب جسر الملك حسين. صباح يوم الاثنين ٢ تشرين الأول أي بعد مضي ٥٢ سنة لا غير على وقوع فلسطين في قبضة اليهود، وبعد مضي ١٠ سنوات فحسب على محرقة العامرية واللحم العربي مشويّاً حتى التفحّم، وبعد مضي سبعة قرون لا أكثر على رحيل القائد الأعظم صلاح الدين الأيوبي. صار عمر الولايات المتحدة الأمريكية قرنين من الزمان لا غير.



هبوط مدوّخ باتجاه الغور حيث نهر الأردن. مكدودة تنزل الحافلة على الطريق الملتوية باتجاه المكان الأشدّ انخفاضاً في العالم حوالي ٣٥٠ متراً تحت سطح البحر. الضغط يصمّ الآذان. هناك بعيداً في الأفق تبدأ جبال أريحا بالظهور جرداء لا نبت ولا شجر، شهباء مشوبة بصفرة باهتة حتى لكانها غيوم هائلة تجمّدت على الأرض. هكذا يبدو المشهد للوهلة الأولى. مشهد قيامي لا يمكن أن يجري إلا في حلم. لكان المكان نفسه يفقد صلابته كلما اقتربنا منه ويتخفّف من ماذيته فتفقد الموجودات ألفتها لتتشحّ بغلالة من القسوة والفظافة.

في غور الأردن لا شيء يدلّ على وجود حياة سوى بعض مزارع الموز التي تبدو مثل بقع خضراء محاصرة بالقحط والسخط في آن معاً. مزارع الموز تبدو مصابة بالدعر. شجيرات متلاصقة مترصّة بعضها متداخلة ببعض الآخر كأنه يبحث عن حضن أو عن بعض من دفء. بالقرب من تلك المزارع حدثت في ذات يوم تلك المعركة التي سيستيقظ العرب تبركاً معركة الكرامة.

على الطرف الآخر من الجسر الفاصل بين الأردن وأرض فلسطين التي صارت تستسى حتى لدى العرب أنفسهم إسرائيل، بعض من حياة توحى به أشجار أريحا الصابرة ومزارعها التي تبدو مثل بقع خضراء رميت في المكان صدفة واثفاً. كنا نتقدّم باتجاه فلسطين، الحلم العربي الذي ما يفتأ يعاود الظهور في كلّ مرة تصبح فيها الكرامة العربية مجرد ذكرى، وتصبح الشعوب العربية مثل الهوام لا أمل ولا فرح ولا نسمة من حياة.

فلسطين لم تعد موجودة على خارطة العالم. لقد تمّ محو الاسم. حدث فعل استبداله. ونحن لا نتقدّم باتجاه بلد بل نمضي إلى حلم شرس مروع أو باتجاه وهم. المكان لا يملك تحت الشمس غير اسمه. واسم فلسطين قد تمّ محوه من خارطة العالم، تمّ محوه من المعاجم ودروس الجغرافيا حتى لدى بعض المؤسسات الحكومية العربية المحيدة. لكن الاسم احتسّى بالوجدان العربي حزناً صامتاً عميقاً منظره تنوارته جيلاً بعد جيل. وطوبى للحزائي.



مشهد خلفي يشبه المهزلة : عندما ذهب إلى السفارة طلباً لتأشيرة العبور إلى الأشجار المهرّرة من أرض فلسطين كانت نبيلة معي. على شباك مكتب الاستقبال وضعت ورقة تحمل البشارة للمواطنين

العرب بان سعر التاشيرة قد تضاعف مرّات . أشارت نبيلة إلى الخارطة وهمست : إنك تذهب إلى بلد غير موجود على الخارطة ، إذا وضعت كيف أبحت عنك في مكان لا يوجد على خارطة الدنيا ؟ لم أفهم ما قصدت ، فأشارت إلى الجهة اليسرى . على الجدار علقت خارطة ترسم حدود بلدان المنطقة : العراق الأردن سوريا لبنان إسرائيل مصر .

قلت لها مداعباً : هذا خطأ مطبعي . فغضبت . قلت : اسمعي نحن أمة ذات رسالة عظيمة حتماً سنسترد أمجادنا في نهايات الزمان ، وسنسود العالم من جديد . إن غداً لناظره ... هكذا جاءني الإجابة . قاطعتها قائلاً : عندما يحين الحين ويأتي زماننا سنسعي أمريكا أرض الرجال الحمر اسيايا الدنيا ، ونعينهم على طرد الرجل الأبيض زارع الخراب . وسنسمي المكسيك بلاد الملايا والازتيك . سنثار لأنفسنا من روما التي روّعت أطفال قرطاج ، وسنستورد من السماء حكماً عادلين يملأون بالحلوى والاقلام الملونة جيوب الأطفال ولا يأكلون اللحم العربي نيتاً .. في المساء رفضت أن تعود معي لاستلام جواز السفر وادعت أنني اخطو باتجاه خيانة ما . دخلت السفارة وحيداً بعد أن أليت على نفسي أن لا أنظر إلى الخارطة . ونجحت في تحقيق هذه البطولة التي ستنضاف إلى أمجاد العرب العاربة والعرب المستسلمة . خيّل لي أن موظف السفارة يتسم لي فابتسمت له .



الحافلة تواصل التقدم ودرجة الحرارة تزداد ارتفاعاً . كنت على يقين من أننا لا نغضي إلى مكان بل نتقدم باتجاه حلم له كلّ مواصفات الكابوس . هي ذي ... هي ذي فلسطين . الأرض المقدسة التي برعت في أكل لحم أبنائها المتسابقين إلى الموت . مكان غدر به الزمان . مكان يلتقي فيه يهوشع بن نون مع العمالق من الكنعانيين ورثه إله الجنود يستحقّه في نبرة سادية مروّعة على إراقة الدم وقتل النسل وإحراق الزرع . لحظة ويحطّ البراق على حائط المسجد الأقصى وتنفّث السموات . فيكون إسرائ . ويكون معراج والنجوم تترجّل في ساحة الأقصى . لحظة أخرى ويأتي يهود يهوزن الرؤوس بقرب الحائط الذي سيذعن أنه أعت لبيكاهم .

ريشارد قلب الأسد يعبر البحار مدججاً بالصفينة . صليبيون جاؤوا وأبادوا الناس في عكا . صلاح الدين الأيوبي العابري من جبال الأكراد على فرس صارع الريح والنوء يأتي منتقداً ومخلصاً . الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي يخرج للتوّ من مقصورة في الأقصى ويمضي باتجاه دمشق . عبد الغني النابلسي هنا أقام ، هنا درس قبل مجيء اليهود بقليل . المغاربة ببرانيهم الصوفية جاؤوا من شمال أفريقيا وخلعوا اسمهم على باب من بوابات الأقصى .

يوحنا المعمدان يكرز في البرية قائلاً توبوا لأنّه ملكوت السماء اقترب ، اليعازر ينهض من القبر ، يوسف النجار يسوق حميراً مكشوداً ينشد الوصول إلى أرض مصر كي يتمّ ما قيل من الربّ بالنبيّ القائل من مصر دعوت ابني . عمر ابن الخطاب يترجّل عن فرسه الآن وكبير مطارنة كنيسة القيامة يدعو للصلاة في كنيسة فيباده كرمياً بكرم . صوت في الرامة نوح وعويل راحيل تبكي أولادها ولا تريد أن تتعزّى لأنهم ليسوا بموجودين . هي ذي فلسطين إذن . هو ذا المكان . مكان غدر به الزمان . وللفلسطيني أن يدفع الثمن دماً ودموعاً . ولنا نحن المقيمين خارج فلسطين أن نسّمّي ذلك بطولة كي

ندراً الروع وتنخفف من تائب الضمير. وطوبى للحزانى !!!.

### عبور الصراط : جسر الملك حسين

جسر على نهر الأبدية . جسر تسيل تحته مياه ضحلة ضاربة إلى الصفرة . هو ذا نهر الأردن . جسر خشبي كانه خريشة بقلم رصاص على ورقة منزوعة من كتاب قديم نهشته الأرضه دهرأ . جسر متواضع في منتهى التواضع . طوله عشرة أمتار أو أقل . وعرضه بالكاد يتجاوز المترين . في وسطه ، في وسطه بالضبط ، رسم بالطلاء الأبيض خطّ هو الحدّ الفاصل بين الأردن وفلسطين القابعة في الأسر . والخطّ الأبيض يضعك منذ الوهلة الأولى في حضرة العدالة الصهيونية التي أعطت للأردن نصيبه من هذا الجسر وأخذت نصيبها .

على يسار هذا الجسر الخشبي الهرم الذي رأى الولايات كلّها ، وشهد وصول الانجليز والأمريكان ، ورأى وصول الإسرائيليين ، ورأى هجرات الفلسطينيين في اتجاه بقاع ستسعى مخيم اليرموك ، مخيم فلسطين ، مخيم صبرا ، مخيم شاتيلا مخيم الوحدات مخيم عين الحلوة ، ثم تصير المخيمات مدناً من إسمنت رماديّ ضارب إلى السواد ؛ تصير المخيمات أحلاماً بعودة تزداد استحالة كلما انضاف إلى الزمن العربي ليل آخر - على يسار هذا الجسر المغفل بالوجع وتائباً - ثمة أشغال حيثة .

جرفات ، شاحنات ، أعمدة حديدية ضخمة . تلك تياشير هبات السلام ، مرة أخرى تأتي التسمية محتملة بالمكائد . وطوبى لصانعي السلام . مطلوب منا أن نهلّل ونفرح نحن العرب الواقفين على شفا الهاوية . علينا أن نفرح ونهلّل فسيقع استبدال الجسر الصغير ، الجسر الخشبي الذي هدته السنون والولايات تتوالى تباعاً ، بجسر عظيم كبير ضخّم فخم يسر الناظرين ويملا بالهجة قلوب العابرين إلى أرض كانت تستسى فلسطين .

ولنا أن نتخيّل المشهد في المستقبل . ستتوالى الحيرات من هناك من تلك الأرض التي كانت تستسى فلسطين عسلاً ولبناً ومراً . سيعمّ الخير والرفاه بلاد العرب من البحرين حتى اقاصي بلاد شنقيط موريتانيا العظمى ، وستنال الصحراء الغربية نصيبها من الغنيمة أيضاً . وعلى العرب أن يفرحوا . عليهم أن يهلّلوا للصدقات الإسرائيلية هذه المرة . ولهم أن يبتهجوا بالنظام العالمي الجديد صانع المعجزات . وكافر كلّ من يردد قول المسيح ليس بالخيز وحده يحيا الإنسان .

غريب أمر هذا الشعب الفلسطيني لا يكتفي بالخيز بديلاً عن الحياة والكرامة . مدهش أمر هذا الشعب الفلسطيني الذي شهد أسلافه خطوات المسيح على جبل التجربة ، وأروا يوحنا المعمدان وعلى حقويه منطقة من جلد وهو لا يتفدّى إلا بقليل من الجراد والعسل البري . غريب ومدهش أيضاً أمر هذا الشعب الذي سمع أسلافه ذات ليلة حفيف أجنحة البراق وهو يحطّ خفيفاً على سور الأقصى والدنيا تضيء . تلك حيل المتخيّل الجماعي وذاك طابعه المقاوم . ليس بالخيز وحده يحيا الإنسان ، بل بذاكرته المنقوشة في المكان . أزمنة متراصة مكثفة . هي ذي فلسطين إذن . زمان تكثّف حتى غدا مكاناً وحكايات ، اقاصيص وملاحم ، سماء تنفتح في وجه الأرض ، أرض تتسامى وتنخفف من ماديتها حتى تصبح كالآثير . ثم يلتقيان . الأرض والسماء يغدوان واحداً .



مكانان .

بنايتان .

مدخلان .

والطريق إلى أحشاء الوحش على مرمى حجر . ومثلها الطريق إلى الحلم العظيم، الحلم الضاري الذي نسميه فلسطين .



البنية الأولى متواضعة كأنها وضعت للتو على عجل . على مدخلها كتبت لافتة : القادمون إلى السلطة الفلسطينية . البنية الثانية فخمة عالية عليها لافتة بالعبرية أعدت لاستقبال الدنيا والمطيعين العرب . منذ الوهلة الأولى تبدأ المعركة إشارية ورمزية . البنايات تحث، والمداخل تحث، والمكان يحدث بأن العدالة قد فقدت من الأرض تماماً . نتخطى العتبة فيصبح الطابع الإشاري أكثر عنفاً . شبابيك ونوافذ . ناس من الفلسطينيين ينتظرون إذناً بالدخول . نساء يرتدين السواد خفراً وحشمة أو حداً . أطفال في الزاوية واجمون لا يلعبون . ثمة دكان صغير شبه مقهى أو شبه مشرب .

ثمة شيء يطبق على الروح كالدوار . شبابيك ونوافذ . وراء كل شباك يجلس أحد رجال الشرطة من الفلسطينيين العائدين مع اتفاقيات أوسلو . يجلس الشرطي الفلسطيني الذي كان فداً محارباً داخل زيه الكحلي متعباً مكثراً . وبجانبه مجتدة صهيونية شابة تجلس مرتاحة في جسدها . مطلوب أن تسلم جواز سفره وتصريح الدخول إلى الشرطي الفلسطيني . وهو بدوره يتولى الحكمي مع المجتدة . لكان الشرطي الفلسطيني يحرص على تجنبك ويل التعامل معها . درع واق هو ، أو غلالة مضللة . ثمة في العيون غيظ مكتوم . في عينيها حقد شيطاني وفي عينيها وعيد رثائي . هنا يجلس الفلسطيني الضحية ومعه تجلس جندية من الجلادين .

« أنت من تونس الخضراء يا هلا ! » قلت : « إنها تصفر صيفاً حتى لكانها مصابة بالتهاب الكبد » . الشرطي الفلسطيني يخطو باتجاه الحلم ألوهيا ورثانياً لم يفقد الأمل تماماً . ففي عينيها المكثرتين يتراءى الأمل معجوناً بالتعب وحاجة الأطفال إلى القوت . لقد كان في تونس ، جاءها في سفينة حرص رثانها أن يضيف للاوديسيا فصلاً فاجعاً لا يمكن لهوميروس نفسه أن يتخيل عنفه . حتماً لم يكن الرثان وهو يرسى السفينة على شاطئ مدينة بنزرت التونسية يدري بأنه كان يدون في سجلات خسران العرب وتكد أيامهم يوماً آخر له مذاق النوح وطعم النحيب . الشرطي الفلسطيني الذي تسلم جوازي ، صديقي هذا الدرع الواقى ، كان قبل ذلك في عمان ورأى قمر جرش في شهر أيلول يهوي من السماء . القمر ذاته رآه في بعلبك وبيروت وتلّ الزعتر محاطاً بالدم مظلم لا ينير .

هذا الفدائي الذي ارتدى زي الشرطة ، يعلم أن الطريق التي اختارها محمد الدرة هي الطريق المؤدية . ثمة فسحة من أمل إذن . ففي اللحظة التي « استتب فيها الأمن » ، في اللحظة التي صارت فيها الكرامة العربية مجرد ذكرى بعيدة ، في اللحظة التي أيقن فيها الحاكم العربي بأمر أمريكا أن الجماهير العربية غدت مثل الهوام لا أمل ولا فرح ولا غاية ، عاود الغضب الفلسطيني الظهور ليشير

### أرض أريحا الصابرة

« هذا جوازك تفضل ومرحباً بك في فلسطين ». تحاول أن ترد على تحية الشرطي . لكن الصوت يخون . وجع اتخذ من الجسد معبراً وتسلسل إلى عروق القلب . تكتفي برد التحية بحركة باتجاه القلب . يبتسم . تبتسم . هل هذا عبور الصراط . رجفة ، رعشة ، برد يتسلل إلى المفصل ، إحساس بلا معنى الوجود أصلاً . شعور بالضلالة ، شعور بالعجز ، دمع حبيس يثقل الصدر .

في الجانب الأيسر من البناية المهالكة ثمة قبالة المدخل باب ضيق ، باب ضيق كافراحنا ينفتح فجأة ونمبر . أذرع دافقة تحضنك . تنسك للحظة أنك كنت تعبر الصراط . تكاد تنسى أنك صرت الآن في أحشاء الوحش تماماً . « يجب أن نسرع ، اصعدوا إلى الحافلة ، اطلعوا في هذه السيارة . يجب أن نسرع قبل أن تبدأ المواجهات . سنفتح المهرجان بعد قليل افتتاحاً رمزياً . يا هلا يا هلا مرحباً بكم في فلسطين شرفتم فلسطين ، سنهتتم بالحفائب ... » .

هو ذا المكان : أرض أريحا . لم تعد الجبال مجرد أشكال تتراءى في الأفق . إنها هنا جاثمة راسية كلسية رملية . ملح وطن . صفرة باهتة ضاربة إلى الرماد قليلاً . الحرارة لا تطاق . والشمس مزعة فعلاً على أن تحرق كبد العالم . جندي إسرائيلي مدجج بالسلاح أشقر على وجهه بثور وردية وعلى راسه قبعة خضراء يغلق الباب الحديدي . يصرخ السائق الفلسطيني في وجهه بالعبرية . الجندي يغضب . ينادي جندياً آخر بشرته البنية تدل على أنه قادم من أثيوبيا . يأتي شاهراً رشاشه . عصبياً متوتراً ظلي يراقبنا ، تكاد شهوة الدم تستبدل بروحه . يجري الجندي ذو الوجه الموشى بالبثور وردية قانية اتصالاً هاتفياً من جهاز معلق على حائط مخفر المراقبة . ثم يفتح لنا الباب الحديدي الأصفر . نمبر . يشرح السائق الفلسطيني في شتم العالم ودولة بني إسرائيل . سباب وشتائم وغضب : « الجبناء ، نحن نعرفهم وما نخافهم ، جلّوا عنا . هلاً هلاً بالأخوة العرب في أريحا . انظروا هنا وقعت مواجهات الامس استشهد شابان ... الملازم أيضاً قتلوه أمام بيته ، الملازم المكلف بالتنسيق الأمني ... لو تأخرت تصاريحكم إلى اليوم لما عاد بإمكانكم الدخول ... مرحباً نورتوا فلسطين هلاً » .



هي ذي أريحا . هي ذي أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً . هي ذي أرضك أريحا وقد دارت الحياة دورتها . هي ذي أرض أريحا الصابرة . حين وصل إليها يهوشع بن نون ليدمرها ارتعدت فرائصه فحدث عنها مرتعباً : « إنها تفيض لبناً وعسلاً ، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدين حصينة عظيمة جداً ، رأينا فيها أناساً طوال القامة فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم . » وللفلسطيني أن يفخر بأسلافه الذين ملأوا بالهلع قلب يهوشع بن نون القادم من التيه العائد إليه . للفلسطيني أن يفخر بأطفاله ، فان يختار طفل موته ، أن يمضي شاب للملاقاة دبابات وعسكر ولا سلاح معه غير جسده وإصراره ، فمعنى ذلك أن المقتس فيه قد تجلّى .



المكان : أرض أريحا. والشهد عيشي تماماً. مشهد يليق بشريط سينمائي غرائبي لا يقدر حتى غودار المناصر لقضية فلسطين أن يتخيله. أرض وملية كلسية صفراء. أرض أشد قسوة من صحراء. في الوسط بناية ضخمة عالية شاهقة تمتد بين السماء والأرض مثل لعنة ارتعدت لها فرائص الأرض. إنه كازينو أريحا. الفلسطينيون لا يذهبون إلى هذا الكازينو. وتأتيه الجنسيات الأخرى لتتسلى. قيل إنه يدز من الأموال ما يعين السلطة على تحمل أعباء السنوات العجاف بعد أن تراجع الدعم العربي وشح المال والماء والأمل.

بيت الشعر بأريحا : افتتاح سريع. تمجيد للشهداء. تمجيد للشعر وسُلطان الكلمة. احتفاء بنا نحن الأخوة العرب الذين عبرنا إلى فلسطين والدم يراق شلاً وأرواح تزهق والعالم يتقن الفرجة. في اللحظة التي كنّا نفتح فيها المهرجان افتتحاً رمزياً استشهد ثلاثة من شباب فلسطين على مرمى حجر من القاعة. اختزلت الكلمات. وكانت القاعة مليئة بالناس. كنت على يقين من أنهم لم يأتوا لسماع الشعر والأدب والنقد. بل جاؤوا لأنهم اعتبروا دخولنا إلى فلسطين في هذه الظروف ذا طابع رمزي إشاري. كانوا يعتبروننا جزءاً من الوجدان العربي. ولا يمكن للمرء في مثل هذه الحالة إلا أن يشعر بأنه ضئيل عاجز عن تقديم أية مساعدة عملية.

ثمة كآبة ما تخترق الجسد وتطبق على الروح. رغبة في البكاء، رغبة في التشيخ تستبذ بك حين ترى كم هو قاس قدر الفلسطيني في هذا الليل العربي الذي ما فتئ يزداد كثافة ودياجير. وكم هي مهيبة رسالته. ولا تقدر أن تفعل شيئاً عملياً.

نحن في السيارات من جديد وهي تمرق سريعة في الشوارع الخالية إلا من بعض عابري السبيل. على الجدران شعارات تدعو إلى المقاومة وتمجد الشهادة والاستشهاد. هي ذي أريحا الصابرة. رائحة بارود وصوت سيارات إسعاف. فجأة فندق فخم يقف قبالة سلسلة الجبال الراقية مثل كائن خرافي ينتظر فرصة الانتفاض على الدنيا لسحقها مزقاً وغباراً.

قرية أريحا السياحية :

فندق ومنتجع صحي .

شارع بيسان قرب قصر هشام . أريحا فلسطين.

Jericho Resort

Village

Hotel & Spa

Near Hisham Palace, Bisan St, Jericho - Palestine

فلسطيني صاحب الفندق . العمال الفلسطينيون . الترحاب فلسطيني مشوب ببعض من كرم الأنبياء. والمواجهات تجري هناك بعيداً عن الفندق. نحن في أحشاء الوحش إذن. والطريق إلى رام الله يعبر من تلك الجبال الراقية. أشد الأمكنة انخفاضاً تحت سطح البحر. المكان رحم الدنيا. لعل الحياة بدأت هنا. حتماً بدأت من هنا. كائنات بحرية خطت باتجاه اليابسة حين شرعت المياه في الانحسار. وبدأ

العنف تاريخه الدموي. كائنات بحرية كانت تحيا في هذا المكان. هنا عاشت. هنا تناسلت. هنا نفقت... المكان خرافة مدوّخة. أن تنام في فندق يقع على عمق ٣٥٠ متراً تحت سطح البحر والبحر قحط وخلاء: هي ذي أريحا المكان الشبيه بخرافة قادمة من ليل الدهور.

هي ذي أريحا بوابة فلسطين. الاسم لم يح من الأرض إذن. كما لن يحى من ذاكرة أطفالنا. لقد تمّ محوه في الخرائط والعديد من المؤسسات العربية. على يقين أنا من أن الذاكرة هبة من السماء. ليست الذاكرة مجرد ملكة تحفظ الوقائع والوجوه. إنها إدراك مقاوم لسطوة الموت وسلطانه. والنسيان صنو الموت وسميه وقناعه. علينا أن لا ننسى أبداً. ولكم هو عظيم أن يمتلك المرء ذاكرة. وهذا هو الصراع في بعده الإشاري العظيم. يافطة الفندق. كارت الفندق نفسه فعل مقاومة. وللتسمية مفعولات التميعة والبلسم. أريحا، فلسطين، قصر هشام. كان الخليفة هشام يأتي إلى أريحا شتاء وكان للعرب وقتها كرامة.



الثلاثاء ٣ تشرين الأول صباحاً. سترنا المناذ إلى رام الله. الطريق إلى القدس مغلقة هي الأخرى. عسكري ودبابات. «هناك طرق ومسالك ترابية سنسلكها. لا بد أن نغادر أريحا قبل المواجهات، يجب أن نسرع.» الفلسطينيون رفاقنا كانوا حريصين على سلامتنا وهكذا استحثّونا. لا يجب أن نصاب بأي خدش في أجسادنا. لا يجب أن يظاننا أي أذى أو أي مكروه. سنغادر أرض كنعان وأجسادنا سليمة تماماً. لكن لا أحد سأل عن الروح.

روحي صارت دياجير وظلمات. حزن صامت عميق يداخل شغاف القلب. إحساس باللاجدوى. ماذا يمكن للمرء أن يفعل. كيف يمكن أن يكون عملياً وهو لا يتقن غير الكلمات. حتى الكتابة في مثل هذه الحالة خيانة وذنس، خزي وعار. كنت أدون جميع ما أرى. جميع التفاصيل التي اجتذبتني إليها دوتتها خلسة. حملت معي من التفاصيل ما يكفي لتأليف كتاب. كيف يرتقي المرء إلى مستوى ما رأى، كيف يكتبه محاطاً بهالته الأسطورية دون أن يقع في نقل الواقع أو وصفه وصفاً إخبارياً مسطحاً يفقره ويلغي ثقافته، كيف يكتب جانبه السحري الأسطوري المروّع. الحياة أقدس من النص، والفعل المقاوم أعظم من أن تحيط به الكلمات لا سيما إذا كان الفعل أسطورياً رسولياً على النحو الذي نرى.



### الطريق إلى رام الله

الوجهة رام الله. والجلال تزداد عتوّاً عندما نتوغّل في الطريق الملتوية التي تخترقها. ليس طريقاً هذا الخيط الأسفلتي الذي يمتد بين ضلوع الجبال دوائر والتواءات بل هو ثوب حية رقطاء نسبته هنا في بدايات الزمان.



الساعة التاسعة صباحاً. الشمس ساحت في السماء ناشرة نوراً أصفر ثقيلًا. حالما تخطو خارج بهو فندق أريحا الملتقّ صوب قصر هشام تبلقّفتك الأرض طينية صفراء كلس وملح وصفرة. ويبدو

المشهد قياماً تماماً. لو صوّت في السماء بوق لسلم المرء بأن نهايات الدنيا قد حان حينها. شيء كالزفير المكتوم تحسّه في الهواء يصّاعد من الأرض التي خزّنت في ترابها الموات لهب شمس البارحة. وها هي الشمس ذاتها تعاود الظهور من جديد عاقدة العزم على الخطب العظيم ذاته: إحراق كببد العالم. ما رأيته البارحة يعد عبور الجسر-الصرّاط لم يكن مجرد وهم إذن. ها هي الشمس تطلع شاحبة نورها أصفر معجون بالرماد. وها هي أرض أريحا وجلة مأهولة بالخطوب قادمة من ليل التاريخ. والجبال، الجبال ما زالت هنا. لست مطالباً بأن تنظر إليها هي التي تأتيك، هي التي تدهمك وتقتحم جسّدك ضخمة عاتية جرداء لا نسمة ولا حياة. خلّسة تنظر إليك كأنك تسترق النظر إلى وحش مرعب تخشى أن تستفزّه فيرتدّ البصر كسيّراً.



نصعد الحافلة «مرحباً.. نوزّروا فلسطين.. هلاً! هلاً بالأخوة العرب.. الطرق مسدودة بالدبابات والعسكر.. سناخذ طرقاً ترابية.. أهلين! يا مرحباً!.. سنسلك الطرق، الطرق الترابية.. طرق وعرة قليلاً.. بعد قليل سنبدأ المواجهات...» يرتفع صوت المحرّك وتضيق كلمات السائق فتصبح كالمتممة أو الوشوشة «الـب.. هود.. استشهد.. مستوطنون...»

نحن الآن على الطريق باتجاه رام الله. بدانا نصعد من أشدّ الأمكنة انخفاضاً تحت سطح البحر باتجاه الدنيا. من العالم السفلي نصعد. الكلّ صامت. إنها مهابة المشهد. كانت الجبال تقترب. ها هي تزداد قريباً. هي ذي تزداد قسوة وشراسة. أريحا بدأت تبتعد. بقع خضراء وبعض مبان. أريحا صارت هناك. مذهلة ومدهشة تجربة الصعود هذه وأريحا هناك في الأسفل صابرة.



## أريحا ١

يا أريحا الصابرة. أحتاج قليلاً من صبرك الرّبّاني فالروح محض عذاب. جسر على نهر. كازينو في أرض موات. قصر ينوح في السرّلياً على أمجاد من سكّنه. والشمس تعاود الظهور. رجف يستبدّ بالأرض وليت نور القمر لا يضيء. طوبى لنا! لكن من أين سيجد العزاء طريقه إلى الخزاني.



ثمّة في تجربة الصعود هذه من أريحا إلى رام الله الملتقّة صوب القدس، من العالم السفلي إلى الدنيا، شيء سحريّ يريك الحواس جميعها. قسوة الجبال، عظمتها، جذبها، عراؤها، هالة المهابة التي تجلّوها، كل هذا يجعلك تكاد تسلم بأنك قفزت في العمى والكون لم يزل بعد سديماً. بعد قليل، بعد برهة قد تنحني آلهة ما، قد يأتي ملاك ما، قد يتجلّى كائن اثريّ ما ويقطع من طين الجبال قسماً، حفنة أو حفنتين، ويبدأ التكوين. من هنا، من جبال أريحا يسهل الصعود إلى السماء. يكفي أن نحلق قليلاً وسندرك أن السماء تتكئ فعلاً على هذه الجبال العارية من كلّ نسمة أو عشبّة أو حياة. وليس غريباً أن يكون للمعراج هنا من أرض فلسطين. ليس غريباً أن تنفتح السماء في وجه المسيح ويأتي روح الله نازلاً عليه مثل حمامة وتدوي السماء بالصوت قائلاً: «هذا ابني الحبيب الذي به سررت». المشهد قاس ومرّوع، فظاظة رقيقة، هشاشة صلبة، غلظة حانية، جبال صلبة مثل لعنة

أبدية، هشة كجبال من الغيم الضارب إلى الصفرة، طين تجمد : هذه هي جبال أريحا المتلقتة صوب رام الله والقدس عروس المدائن ثكلى العواصم.



الخافلة مكدودة تصعد من أشد الأماكن انخفاضاً إلى قمم الجبال، الطريق يمتد ثنية بين ضلوع الأرض. ثمة شيء خرافي، ثمة شيء إشاري مدّش في تجربة الصعود هذه، الجبال يميناً ويساراً مهيبة مجللة بالصمت والقحط، مسخوطة تبدو ومتحركة. يكفي أن يستسلم المرء قليلاً لحواسه ويتملى ما يراه دون أن يعقل المشهد وسيشعر بأنه في حضرة كائن أسطوري مرقّع، كائن خرافي يتحرك في ثقة وثؤدة وثبات باتجاه كون أزعج على أن يهلكه. غير أن هذا الشعور سرعان ما يتراجع ويتحوّل الوحش الخفيف إلى كائن خرافي مسكون بأسى لا يطفأ.

الابدئية هنا في هذا المكان متوارية خلف غلالة شقافة، غلالة في منتهى الرقة، لو خدشنا الهواء الخفاف قليلاً سنجد أنفسنا هناك في الماوراء حيث نهر الأبدية ودموع بني البشر أجمعين. جبل التجربة أحد هذه الجبال الواقفة في المهبة ما بين المادي الصلب والاثري الشفاف. على اليسار قليلاً بناء بيضاء تبدو كأنها تتشبّث بالجبل، بالكاد تتماسك ولا تسقط. إنه دير قرنطل المحتمي بجبل التجربة. دير صغير، دير معلق يجاهد الأقول متلفاً إلى الهاوية. لو هبّت نسمة من هواء لتداعى ولكان سقوطه عظيماً.

الابدئية متوارية خلف غلالة رقيقة حتى لتكاد تتراءى من خلال المكان من فجوات في الهواء. لا بد أن يكون يسوع المسيح قد عاش هذه اللحظة. لا بد أن يكون هذا المكان موطناً للأنبياء ومرتعاً لنجوم السماء. هي ذي جبال أريحا إذن: مكان محمّل بالإشارات، غابة من رموز وإيماءات. لا يمكن للمرء أن يعبر من هناك ولا يرى بعضاً من تلك الإشارات والإيماءات التي تملأ المكان بالقسوة والمهابة والهشاشة. فالمشهد يربك الجسد ويدوخ الحواس. وحيداً خاض يسوع المسيح التجربة في هذا المكان. ظلالة ما زالت في المكان مثل رفة جناح، بعد قليل سيُدقّ لحمه بالمسامير صدئة سيصعد إلى الجلجلة. وبعد قليل يوم الأربعاء ٤ تشرين الأول سنة ٢٠٠٠ حين نكون في فندق BEST EASTERN برام الله سيدخل شاب فلسطيني فزعاً ويخبرنا أن المستوطنين قد أمسكوا فلسطينياً ودقوا المسامير ذاتها في جسده.

هكذا يتخذ الحلم طابع الكابوس ويلتحف بجميع سماته. يكفي أن يحدث المرء قليلاً في الجبال الجرداء، في صقرتها الشاحبة المعجونة بالرماد، في الكيفية التي تتماس بها ويتكى البعض منها على البعض الآخر فيما هو يواصله، حتى يخيّل إليه أنها جبال متحركة، جبال تزحف باتجاه فلسطين تريد سحقها نهائياً ثم تطحن الكون بأسره. من هنا سينتهي العالم.

صرنا في الاعالي، عبرنا الهاوية. حين تلتفت باتجاه الجبال وقد صارت بعيدة تراها جبلاً متحركة تحت الخطو وراعنا وهديرها المكتوم يطبق الآفاق. يتغيّر لون الأرض. يصير التراب أحمر ضارباً إلى السواد قليلاً. شجيرات زيتون هنا. شجيرات هناك. ولا شيء يشدّ العين على الطريق المؤدية إلى رام الله التي تتفرّع عنها الطريق المؤدية إلى القدس وبيت لحم وبيسان غير الحجارة. حجارة وصخور مرمية

على الأرض مثل قطعان من الأغنام والماعز وصغار أبقار خرجت للتمرّ من شكيمتها. أحجار من كل الأحجام. حجارة تكاد تغطي أديم الأرض كلّها. لكان الأرض زلزلت زلزالها. لكان هذه الأحجار هي أثقال الأرض مقدوفة في المراء.

هي ذي أرض رام الله. على قمم الجبال المجاورة يلمع قرميد المستوطنات. على كلّ الجبال المحيطة بالقدس مستعمرات بنيت بالطول لا بالعرض فصارت عبارة عن سور أقعوانى ضخم يحيط بالقدس والقرى المجاورة.



### هي ذي فلسطين،

لا غسل ولا لبان ولا مرّ. وإنما هي حجارة منثورة وصخور تطلّ برؤوسها من الأرض لتشهد على قسوة المكان. يقال إن شمال فلسطين يشبه جنات من تحتها تجري الأنهار. لن نذهب إليها وتلك حكمة صهيون. من أين جاءت أرض رام الله بكلّ هذه الصخور، من أين أتت بكلّ هذه الحجارة. لكاننا في كوكب آخر. لكان الأرض نحتّ بنيتها على استخدام الحجر سلاحاً. حين ترى هذا الكمّ الهائل من الأحجار منثوراً على الأرض يداخلك الشكّ في أن انتفاضة الأقصى وانتفاضة يوم الأرض وكلّ الانتفاضات التي دوّخ بها الشعب الفلسطيني العالم، ليست فعلاً اختيارياً أتاه شعب محاصر بالليل، بل هي تلبية لنداءات الأرض. تكاد تسلم بأن الأرض تطرح كنوزها أحجاراً وصخوراً والفلسطيني يلبّي النداء. فالأرض هي التي ترحم الاحتلال بالحجارة. ليس الفلسطيني سوى وسيلة في معركة الأرض ضدّ غزاتها، هذه الأرض المزروعة صخوراً وحجارة، هذه الأرض المسخوفة هي نصيب الفلسطينيين من كلّ فلسطين. ولنا أن نفرح. لنا أن نهلك. وطوبى للحزاني لأنهم عند الله يتعرّضون.



شارات مرور إرشادية: أورشليم القدس بيسان- بيت شآن- رام الله. عسكر ودبابات. يتقدّم الجند. يقومون بإشارات. فوهات رشاشاتهم موجهة نحو الحافلة. يفهم السائق أن العبور ممنوع. يتراجع قليلاً ويعود ثم ينهال بالسياب والشتائم: «أوغاد.. سفلة.. سنسلك طريقاً ترابية... وحياة المصحف راح نمرق رغماً عن أبيكم... هذا طريق القدس.. يلوح في الهواء بقبضته.. رأيتكم كيف نحيا.. حياتنا معهم هيك.. كل يوم هيك..». تدخل الحافلة مسلّكاً ترابياً ملتوياً وتشرع في الصعود والسائق ما زال يلعن أم المستوطنين وخالاتهم من الرضاعة والأم المتحدة.



وصلنا إلى منطقة البيرة. بلدة متكئة على رام الله. بلدة تقع على خطّ النار. درع واق لرام الله. بيوت من طوب رماديّة. بيوت وبنائات كتلك التي تراها في مخيمات الفلسطينيين عادة، ولست تدري هل هي ككيبّة أم مقفلة بالوجع والأسرار. رفع السائق علم فلسطين، وعلقه. شرع العلم يرفرف خفيف اجتنحة وشوشات. في مدخل البيرة سيارة محروقة. «هاي سيارة أحد المستوطنين. الشباب أحرقوها أمس. جاء ليطلق عليهم ناراً قال السائق مبتسماً. حجارة مرميّة هنا وهناك على الطريق

الاسفلتي المغبر. اطفال لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم يجتمعون الحجارة بالقرب من السيارة المتفحمة. ثمانية اطفال، تسعة، لا، ما هو طفل آخر ياتي راكضاً وهو يدحرج إطار عجلة سيارة. يضع الإطار قرب كومة الاحجار. ويهمس لرفاقه شيئاً فينخرطون في ضحك طفولي عابث. أحد الاطفال استلقى على ظهره من شدة الضحك وبدأ يفحص الأرض بقدميه. في الزاوية قدام بيت متداع بابه مفتوح قليلاً هناك بنية صغيرة على عتبة الباب تلبس مريضة صفراء وقفت تراقبهم. تفرك عينيها بيد. وبالأخرى تسوي جديلتها. يطفح القلب بأسى مهلك صامت مبيد. لو أنه بإمكان المرء أن يوسع بين جدران الروح مكاناً لهذه البنية. لن أعرف اسمها أبداً. لن أراها ثانية. وهؤلاء أحفاد صلاح الدين نسل الأنبياء، والمقدس فيهم قد تجلى. الروح صارت خراباً. محمد الدرة من جديد والدمع الحبيس يحزّ شغاف القلب. بالكاد ترى البيوت المترامية على جانبي الطريق. لكنّها ترقص في بحيرات من الدمع. الدمع حبيس والروح خرقة وصداً.



الحافلة تعبر. أفهمنا السائق أنهم يعدّون لمواجهات ما بعد الظهر. دخلنا رام الله وشوارعها مقفرة إلا من بعض العابرين. الدكاكين مغلقة والإضراب عام. على الجدران شعارات تمجّد الشهداء، ملصقات نعي، ملصقات شباب خطفهم الموت فصاروا شهداء. شباب في زهرة العمر ينظرون إلينا مبتهمين. صرور بالالوان لشباب مضوا في الشوط إلى أقصاه. فجأة فندق BEST EASTERN برام الله. شباب مسبلحون من فرقة الـ ١٧ الشهيرة أمام الفندق يراقبون السيارات متحقيزين لأي طارئ. هي ذي رام الله. وغداً سيكون نهار آخر.

## درب الآلام

يوم الثلاثاء ٣ تشرين الأول ٢٠٠٠ الساعة العاشرة صباحاً. حين وصلنا قدام مشفى رام الله، كان الشجيب الفلسطيني هناك يذرع الساحة في اتجاه باب الخروج مجللاً بالغضب. كان الموكب مهيباً. فلسطينيون من كلّ الأعمار. اطفال وشيوخ وشباب يتقدمون واجمين. تنحّنا جانباً لأننا كنّا نتقدّم في الاتجاه المعاكس نريد الدخول إلى المشفى لعيادة الجرحى. الموكب مهيب ومرّوع. هو ذا العلم الفلسطيني وقد غدا كفنّاً. على الاكتاف شاب في ربيع العمر مسجّى في الاسود والأخضر والابيض والأحمر. هو ذا شهيد ثان. الكفن ذاته. الوجه مكشوف. والفتى الثاني، الفتى الذي خطفه الموت يبدو نائماً مثل الفتى الأول تماماً. الفلسطينيون يكفّنون شهداءهم هكذا. يتركون الوجه مكشوفاً يواجه السماء. كأنهم يؤلّونهم للسموات كي تراه، كي تحفظه، كي لا تنساه أبداً بعد أن ضاقت الأرض به. الموكب مهيب مرّوع. شيء في قاع الروح يتفتّت. دمع حبيس يحزّ شغاف القلب. يرقص المشفى بكّه في بحيرات من الدمع الحبيس في عينيك. ستصوّر الجنازة وستنقلها الفضائيات. هو ذا الموت فرجوا بجنون خبيث قاسياً غملاً بدائياً سادياً هنجيلاً عاتياً ضارباً فاجعاً. هو ذا القتل على مرأى من الدنيا والعرب. الأرض لم تصيب بقشعريرة ولا باندهاش. إنها تاكل بنيتها.

في أروقة المشفى ومدارجه نساء يدارين الوجع. اطفال جاؤوا لعيادة جرحاهم. رجال. شباب. المشفى مليء بالناس. كان الشعب الفلسطيني كلّهُ هنا يعود جرحاه. فيما الشعب الفلسطيني الآخر

ذهب يشتبع الشهداء القتلى. شهداء قتلوا بالرصاص. ثم قتلوا بالصمت العربي. ثم قتلوا بلامبالاة الدنيا قاطبة. أنا على يقين من أن الانتماء إلى الجنس البشري جناية لن تغفرها السماوات. ندخل إلى غرف الجرحى.. المشهد يخلع القلوب.. الطبيب الجراح فوزي سلامة راقبنا من غرفة إلى غرفة. في كل غرفة أسرة. وعلى الأسرة يردد الشعب الفلسطيني جريحا. رام الله كلها هنا. أطفال جرحى.. كهول جرحى.. شباب.. المشهد يخلع القلوب.. قوارير الأوكسجين.. خراطيم في الأفواه.. خراطيم تنتهي بإبر حادة مغروزة في عروق الأذرع.. بعض الجرحى في حالة موت سريري... الطبيب الجراح فوزي سلامة شخص نشط متفان في خدمة ناسه وشعبه. لقد أنقذ العديد من الجرحى من هلاك محقق. صارع الموت مراراً وغلبه أحياناً. كان يحدثنا بفرح طفولي مشوب ببعض من حزن الأنبياء عن كيفيات نجاحه في طرد الموت وإعلاء الحياة. ارتعش صوته حين تحدث عن تلك اللحظات التي غلبه فيها الموت وافتلك منه شاباً أو طفلاً أو قطعة من بدن.

مكتب الدكتور موسى أبو حميد مدير المستشفيات. ندخل. يرحب بنا نحن الاخوة العرب. يحدثنا عن عدد الإصابات. «إنهم يريدون ترويعنا فيقتنصون الأطفال. لقد بلغت نسبة المصابين من الأطفال ٥٢٪». هكذا حدثنا متوثراً. تدخل ممرضة شابة حسنة. خفر وجمال تجلله الحزان. تعتذر وتهمس في أذن المدير شيئاً ما. «سنخبرهم فيما بعد هاي مصيبة. لا تخبرهم الآن. إنه وحيد والديه». هكذا قال لها فخرجت مجللة بالوجع ذاته مخفورة بالبهاء ذاته. أراها ما يسمى الرصاص المطاطي. رصاص حقيقي مغلف بقشرة مطاطية لا يتعدى سمكها ملمبتر واحد. على كل رصاصة وضعت ورقة تحمل اسم المصاب الذي طاله الغدر.

حين غادرنا المشفى كانت الشمس في الاعالي قرصاً أحمر عاجزاً حتى عن القشعريرة والرجف والافول قدام كل هذا الويل. لو كان في هذا القرص الناري الأبله بعض من حنان لأنهار على الأرض وسحقها. متى ينتهي العالم؟ متى الدنيا تنتهي؟ الحياة فسدت. وهذا الكوكب الأرضي يمتلئ بالشعور والدياجير ورب الجنود يكشف عن نابه الأزرق. لا يجب أن تنتهي الحياة إكراماً للذين يتسابقون إلى الموت إعلاءً للحياة. أنا على يقين من أن أمريكا ستظل تدحرج العالم باتجاه الهاوية حيث لا شيء غير الموت وصرير الأسنان. فالصهاينة ومن ورائهم أميركا وكل قوى الخراب في هذا الكوكب الأرضي الكئيب، يريدون أن يقنعوا الناس بأن الفلسطينيين هم الذين يحملون أجسادهم ويضربون بها الرصاص الصهيوني النائم في الرشاشات. وهم الذين يستقرون للموت الغافي في الصواريخ والديابات والقلوب الحاقدة. وليس الجند المدججون بالضغينة والحقدهم الذين يقتلون الأبرياء قدام العالم. شريك في الجريمة هذا العالم الذي يكفي بالتفجّر على الدم العربي مراقاً. ثمة حرص على الإقناع بأن الفلسطيني يعاني من عقدة الحياة والجندي الإسرائيلي يخلصه من تلك العقدة عندما يطلق عليه النار ويرديه قتيلاً. وهذا هو منطق الإنسانية في مطلع الألفية الثالثة.

### اتفاقيات تذروها الرياح

قبل سقره إلى باريس بحوالي ثلاث ساعات وجه إلينا الدعوة. وما نحن في الطريق إليه. «الختيار» يسميه الفلسطينيون تحبباً. وحين يقضون أو يعتبون عليه يصبح اسمه ياسر عرفات أو عرفات فقط.

لقب ولا اسم. ينادونه أيضاً الأخ أبو عمار. ويحلو للبعض أن ينعته بالقائد الرمز أو السيد الرئيس بحسب السياق والمقام. وبعد ما ستي من قبيل السخرية السوداء بقعة كامب دايفيد الثانية جاب «الختيار» الدنيا بلداً، بلداً. زار «الختيار» ملة النصرانيين والهندوس وملة يقال لها ملة المسلمين. دخل بلاد السند والهند والصين، ووصل ذات مساء حتى أقاصي أفريقيا السوداء؛ حتى نيلسون مانديلا الذي خبر في سجنه الولايات كلها نصحه بالترث. فقفل راجعاً إلى ناسه في غزة والضفة. بناية متواضعة، خمسة طوابق. مدخل كبير قدامه بعض الشباب يحملون رشاشات ويتسمون مرتحين. باب حديدي يفتح. يدور الباب على صائره محدثاً صوتاً أصم. تمرق السيارات. الطابق الرابع. ندخل قاعة صغيرة. في الوسط مائدة في منتهى الصغر عليها منفضة سجاثر. استقبلنا مبتهجاً. جلس في وسطنا على تلك المائدة نفسها. وبهرته المتهتجة دائماً حرص على أن يشكر الجميع ويشكر الأمة العربية. تفهم من كلامه أنه متهج بالانتفاضة لاعتقاده أنها ستسقط من جديد أقنعة ابنه صهيون، فينكشف الجحيم للكتكت على نفسه في صميم فكرة دولة عنصرية، فالفكرة ذاتها مضرجة بالويلات والشرور والدم المراق. كان يحدثنا مبتهجاً وهو على يقين من أن صورة محمّد الدرة وحدها كفيّة بأن توقف في الدنيا بقايا من إنسانية. لكنه سيمضي إلى باريس. ومن باريس يشد الرحال إلى شرم الشيخ. من شرم الشيخ سيعاود الرحيل مكثوداً إلى قمة جمعت ما تبقى من العرب العاربة وأختها العرب المستسلمة. ومن هناك سيعود منكسر النفس إلى ناسه وبلده. فالعالم بأسره قرّر أن يكتفي بالتفرّج على الدم الفلسطيني مراقاً وعلى الجنائز تخبّ كل يوم في مشهد قياسي مروّع باتجاه المقابر.



انفاقات تذرّوها الرياح زبداً وطواحين ربح. وفي رفح شباب يواجهون العسكر بالحجارة ويقتلون. في الناصرة والجليل وفي بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور ورام الله والبيرة، المشهد ذاته في قلقيلية وطولكرم. حجر يواجه دبابات ومروحيات، في غزة وجنين ونابلس. غضب وحجارة في كلّ فلسطين.. دبابات وحجارة.. عساكر.. جنائز تسير خبياً باتجاه المدافن. نسمة من جنوب لبنان المثلقت باتجاه شمالك فلسطين.. نسمة ثمان ورجس:

الإمام علي ابن أبي طالب لم يدفن. على فرس أبيض ما زال يجوب الأرض حتى نهايات الزمان. وكان الإمام فارساً بطلاً صنديداً دوخ جند الأعداء. سيفه كان بتاراً. في ساحات الوغى كان الإمام علي يضرب الفارس فيشطره هو وفرسه شطرين ويتوقل السيف في الأرض يكاد يبلغ منها الرحم والاحشاء. كانت الأرض تالم وتوجّع ويصدر عنها صوت كزفير الجحيم وهي تتوعد الإمام قائلة: «ياتيك يومك يا علي». الأرض كانت قد أضمرت شراً عظيماً، وأقرت العزم على أن تثار لنفسها منه يوم يموت ويقر في ترابها. قتل الإمام وهو يصلي صلاة العشاء. قتل غيلة. فكان أن بكاه أهله والمسلمون والدنيا أصابها رجف وسمع في الآفاق كلها نوح ونحيب.

وكي لا يتم ما به توعدت الأرض الإمام. كي يدرأ الشر الذي أضمرته، كثنوه ووضعوه على سرج فرسه. فانطلق الفرس الأبيض يسابق الريح خفيفاً كفرس من أثير معجون بالنور. الفرس سيظلّ يجوب الأرض حتى نهايات الزمان. والإمام لن يترجل إلا يوم القيامة. فيكون عدل، وتبدأ الحياة الأبدية؛

والموت يموت ذبحاً. كانت الزهور والورود كلها قد خلقت في الأيام الستة الأولى التي ابتداء فيها الخلق. النرجس لم يكن من بينها. خلق النرجس بعد مقتل الإمام. أزهار النرجس صارت تنبت في مواضع حوافر فرس الإمام الشهيد. كل نرجس الدنيا هو البشارة، وهو الأمانة على أن الفرس ما زال يجوب الأرض ملتحفاً بالغياب يتراءى وبالكاد يرى.

هكذا حدثتوني عندما كنت طفلاً. وأنا رأيته، رأيت الفرس يرق في الأيام الشتائية للماطرة حين السحب تترجل على الأرض ضباباً، كثيراً ما كنت أراه. هذه حيل المتخيل الجماعي في تمجيد الحق ومن ناصروا العدل. ولكني رأيته في طفولتي يرق بين الهضاب والجبال. ويبدو أنه كان هناك في جنوب لبنان.

### بيوت العزاء

وصلنا الى البيرة بعد الظهر عبر طريق ترابية وعرة. حفر ومطبات. سيارات وشاحنات وجارات أرغمت كلها على أن تتسلل إلى حاجاتها ووجهاتها عبر هذه المسالك الترابية. وهذا جزء من حكمة الصهيونية وعدالتها. خيمة كبيرة سويت على عجل. اعمدة خشبية كسيت بالأبيض والأحمر والأسود، خيمة مستطيلة تتوسط البيوت تحتها ناس كثيرون. هو ذا الشعب الفلسطيني يتقبل التعازي. أب مثقل بالهم يداري الوجع ويصافحنا محتفياً بالأخوة العرب. أب فقد طفله البارحة وجلس اليوم هنا يتقبل التعازي. «شرف لي أنني قدمت ابني فداء لفلسطين ولكرامة الأمة العربية.» هكذا ظل يردد وهو يصافحنا ويتقبل تعازينا. عيناه زائفتان. على ملامحه مسحة من دهر. وتلك ضراوة الموت. ذاك طابعه الكاسر المتوخش. الأب لم يصدق بعد أنه لن يرى طفله ثانية أبداً. لم أرفع رأسي كي أرى المصق. لم أجرو على النظر إلى صورة الشهيد. هنيهة، برهة، رعشة في المفاصل وتستجمع بقية من صبر. ترفع عينيك إلى المصق. طفل عمره ١٣ سنة. صورة بالألوان والطفل يتسم. ألوان علم فلسطين. لم ترتجف يد قاتله. تقرا في أسفل الصورة الشهيد البطل محمد نبيل علي حامد. تدون الاسم خلسة كي لا تخدش مهابة الموقف. الذكارة ازدحمت بالتفاصيل والويل وقد أنسى الاسم لا سيما أن أغلب الأطفال الذين سقطوا يحملون اسم محمد. دوتته خلسة. قتل الطفل ولم ترتجف يد قاتله. الفتاى الذي أوداه قتيلاً برصاصة في الرأس لا يد أنه يحتفل الآن بمجاده وبطولاته. نغادر المكان في صمت. نحث الخطو كأننا نبتعد عن مكان الجريمة. كأننا شركاء فيها. كأننا مورطون. يكفي أن تكون هنا؛ يكفي أن تعيش مهابة الموقف وترى فظاعة الفقد في عيني الأب الثاقل؛ يكفي أن ترى الهالة التي تحيط بعيني الطفل القتيل الذي ظل يرقبنا من المصق مبتسماً؛ يكفي أن تتخيل روحه وهي ترفض أن تأخذ طريقها إلى مملكة الموت لأن الصبي لم يستكمل بعد ألعابه وضحكاته وشيطنته على مقاعد الدرس - يكفي أن تأتي وترى - حتى تشعر أنك مورط في هذه الجريمة.

كانت الشمس قد مالت إلى الغرب قليلاً وشرعت ترسل خيوطاً صفراء فاقع لونها حين وصلنا إلى بيت على منحدر في بيتونيا. فلسطينيون هنا أيضاً. الشعب الفلسطيني جالس على كراس يتقبل العزاء. الأب في الوسط مجلجل بحزن لا يمكن أن يطفأ. نقدّم التعازي. ثم نجلس. الكراسي بالكاد تتماسك فوق الأرض. لافتة كبيرة مثبتة على عمودين خشبيين كتب عليها: حركة فتح تمنى بكل

فخر واعتزاز شهيداً البطل محمود ابراهيم العمواسي . شاب بيده فناجين وإبريق يقدم لنا القهوة مطبّية بالهال . في مخيم الزمروك بدمشق تعلّمت من الاصدقاء الفلسطينيين أن من لا يرغب في الاستزادة من هذه القهوة المرّة يجب أن يمسك الفنجان بإصبعين، السبابة والابهام، ويحرّكه بمنة ويسره فيفهم الساقى المضيق أنك أخذت كفايتك . وإن لم تفعل فإنه سيظلّ يملأ فنجانك كلّما انتهيت من احتساؤه . فيما كنا نغادر المكان وصل شباب من قوة الـ ١٧ ليؤدوا واجب العزاء، فالشهيد محمود العمواسي رفيقهم في السلاح عمره ٢٣ سنة، وقد استشهد الليلة الماضية على الساعة الواحدة والنصف . عندما صعدنا الحافلة بدأ السائق يناور كي يديرها فكادت تهوي في المنحدر . لو فعلت لكان سقوطها عظيماً، ولا يتمسّ رب الجنود في الاعالي نكايه وشماتة بالاخوة العرب الذين قدموا إلى أرض كنعان فيما أحفاد الكنعانيين والنيبين من الفلسطينيين يتسابقون إلى الموت إعلاء للحياة وتمجيدها للحياة .



شعاع، شعاعان، قرص اصفر في غايه البلاءه يختفي سيراً سيراً وراء الهضاب . الشمس غابت تقريباً حين وصلنا إلى مخيم الأمعري الماهول بالرفض والإصرار . على الجدران شعارات تمجّد حركة فتح... شعارات وقّعها أنصار الديمقراطية والشعبية والجهاد وحماش تذكر بالكفاح المسلح طريقاً إلى فلسطين . شعارات تمجّد الشهادة والشهداء وتحقّر يهود باراك مجرماً وشارون جزّاراً وتدعو إلى تحرير كلّ فلسطين . شعارات تنذّر باتفاقيات أوسلو وبالسلطة العائدة للتوّ من تيه دام دهرًا في بلاد تسمّى المشرق العربي والمغرب العربي . شعارات تنذّر بالانظمة العربية المتخاذلة... شعارات أخرى تنوّد بالويل والانتقام من كلّ من تسوّل له نفسه أن يرّوج المخدرات .

بعد أن ترجّلنا من الحافلة في مدخل هذا المخيم المليء بالحياة صاحبة هدّارة مفتوحة على كل الاحتمالات وصلنا إلى مركز شباب الأمعري . ناد رياضي واجتماعي وثقافي للمخيم . داخل ملعب كرة سلة فسيح وواسع جدّاً حتى لكأنه على استعداد في كلّ لحظة للتحوّل إلى ملعب كرة قدم، وضعت الكراسي تحت الجدران المحيطة بالملعب . وعلى الكراسي جلس الشعب الفلسطيني واجماً . هي ذي اللافئة المحتفية بالشهيد . هو ذا الملصق وقد ذيل بالعبارة ذاتها، بالتصميم ذاتها : مخيم الأمعري ينعي الشهيد البطل عماد عبد الرحمن توفيق العناني . عائلة الشهيد، الأب والاخوة اختاروا لهم مكاناً في مدخل الملعب . تعاز . دمع حبيس . من مكبّر صوت يأتي القرآن مرثلاً . آيات تذكر بان الذين قتلوا احياء يرزقون . شاب ملتصق وسيم أوقف آلة التسجيل ورخّب بنا في لغة عربية أنيقة موقعة كالنشيد . نذّر بالصمت العربي والتواطؤ العالمي . وسّع المسافة الفاصلة بين الانظمة العربية وشعوبها، « الشعب العربي من المحيط الى الخليج معنا .. لسنا وحدنا .. الشارع العربي معنا .. نحن نعلم هذا ونحفظ الامانة .. لسنا وحدنا .. لسنا وحده .. دنا .. هكذا اختتم كلمته . عاد صوت المقرئ . بعد قليل سيتفرّق الجمع وستخلو عائلة الشهيد إلى الوجود رثاناً .

حين غادرنا مركز شباب الأمعري كان سيف الرحبي يمشي مذهولاً وبهمس : «العدم الضاري .. العدم الضاري .. أنا سمعته ورايته يجزّ الخطى مذهولاً . من خلل الغيم المتناثر طلع قمر أصفر باهت الصفرة وبدأ يتسلّق السماء متعباً مكدوها . الفلسطينيون أحفاد الكنعانيين والنيبين يعلمون علم

اليقين ان هناك من عقد العزم على اباداة الحياة وعلى إفسادها وتحويلها إلى جحيم. وهم على يقين ايضاً بأنه يستدرج الحياة الى الهاوية. وهانم يتسابقون الى الموت لأنهم مؤمنون على استمرار الحياة. من هنا تستمد المواجهة في ديارهم عنفها المدوّخ الضاري.

فلسطين يا بيت العرب. ذات ربيع رحل أوكتافيو باز. كتب شعراً ثم رحل. لست أنا القاتل بل هذا الشاعر الذي اسمه اوكتافيو باز هو القاتل: «لا يجب علينا أن نترك التماسيح الكبيرة تصنع تاريخ البشرية. إنني لا أستبعد الانهيار الأمريكي فالتاريخ لا يمكن أن يتحوّل الى ما لا نهاية هذا الالتحام الهائل بين الموت والموت. لذلك أدعو دول العالم الثالث إلى العودة إلى الجوهر، وإلى الوقوف وقفة واحدة في مواجهة الجحيم.» حتماً لم يكن اوكتافيو باز يدري ان الفلسطيني سيقف في مواجهة الجريمة وأمريكا وحيداً، ومحمود درويش، الشاعر الذي كان طفلاً يحسب ان البرتقال ينبت في الصناديق سيحرص كما شعبه على الترحاب بالأصدقاء العرب، يلغي سفره الى باريس ويستبقنا الى رام الله ليرحب بنا في فلسطين.

### وادي النار، الطريق الى بيت جالا المتلقتة صوب بيت لحم.

الإضراب في رام الله ما زال متواصلاً. والمدينة تبدو مقفرة خلاء لولا أبواق بعض سيارات الإسعاف تملاً المكان ولولة بين الحين والآخر، فيما تردد المباني صدى الطلق الناري القادم من تخوم للمدينة ومدخلها الرئيسي، حيث الحواجز والمواجهات. على الجدران ملصقات لشباب استشهدوا، بعضها قديم ألوانه باهتة، وبعضها فاقعة ألوانه كأنه ألصق هذا الصباح. وفي أسفل الملصقات كلمات تعرف بأسماء الشهداء وتمجد البطولة. على كلّ الجدران ملصقات لشهداء يتسمون ابتسامات مجلّلة بالحنن. وتلك مفعولات الموت ضارياً كاسراً. يكفي أن تحلق في العيون وستراها طافحة بهالة من سحر الموت وجاذبيته وفتنته. الكلمات التي تمجد البطولة والإستشهاد تبدو ذليلة لم تتمكن من القضاء على فجائية الموت وضراوته وطابعه الكاسر. وعبرة «الشهيد البطل» التي تذيّل بها الملصقات ليست سوى تميّة تدرأ الوجد وتدجن الموت لكنّها لا تمحو طابعه المتوخش الضاري. فواء عبارة الشهداء نفسها ثمة شباب وأطفال سقطوا في العتمة. بيوت اجتاحتها التوح. قلوب داهمها الوجد كاسراً. تشكل ودمع ولا عزاء.

وصلنا إلى البيرة عبر طريق ترابية وعرة. مطبات وحفر من جميع الأحجام. على الهضاب المجاورة يلمع قرميد المستوطنات تحت شمس باهتة. ثمة حشد من غيوم رمادية بالكاد تتحرك. يكفي أن تحلق فيها قليلاً. يكفي أن تدبّ النظر إليها، وسترى يداً خشنّة معروقة تمتد من خلال تلك الغيوم وتتوعد الحياة نفسها بالويل والخراب. إنها يد ربّ الجنود الماخوذ بالدم الفلسطيني. ليست زخات رصاص هذه التي تدوي في الجو. إنها قهقهة هذا الربّ العائد من ليل التاريخ. كانت الحافلة تعبر وادي النار. والطريق ترابية ملتوية. وربّ الجنود من هناك يراقب المشهد ممّياً النفس بمزيد من الدم الفلسطيني.

فجأة حفنة من بيوت،، حفنتان على هضبة. الهضبة تصير هضاباً والبيوت تزداد وضوحاً. بيوت

معلقة على مرتفع من الأرض. بيت جالا، بيت لحم، حيث يقيم الفلسطينيون. ومستعمرة جيلو المأهولة بالمستوطنين، على بعد عدة فراسخ تندس في المكان هزأ ورزأ

عبرنا بيت جالا. مدينة في حجم بلدة مبنية على الصخر. الشوارع مقفرة تماماً والبيوت مغلقة على نفسها. يقال إن ناس هذه المدينة يستدزون من الكروم نبيذاً يزيل الصدأ عن الروح ويظهر الجسد. ولا بد أن تكون الحمر التي قتماها المسيح لتلامذته كي يباركهم مجلوبة من هذه الديار المغلقة بالأسرار. وحتماً شهدت بيت جالا خطي يوسف النجار وهو يسوق حماره ويحث الخطو باتجاه مصر. من هنا مرّ المحوس أيضاً. ومن هنا مرّ المنجم الذي كان يتقدمهم دليلاً حتى موضع كنيسة القيامة، حيث المغارة التي شهدت مولد يسوع.

دير العبيدية : دير مقفل. جدران عالية. باب صغير مثل كوة في جدار ضخم. قدام الباب راهب يحلق في الفراغ. كأنه على يقين من أن يهوذا هو الذي قام لا المسيح. وصلنا حقل الرعاة. فجأة : بيت لحم. لافتة ترفرف كلما هبت نسمة من هواء :

### الجمعية الخيرية الوطنية ترخّب بقداسة البابا يوحنا بولس الثاني.

هذه اللقطة هي ما تبقى من إحتفالات الالفية الثانية التي حضرها البابا القادم من روما. كل ليلة تُقصف بيت لحم والبابا لا يحرك ساكناً. كبير مطارنة كنيسة القيامة الأب عطا الله المرابط في القدس يعرف كيف يحافظ على شرف الاسم وأماجد رجال عاهدوا التاريخ العربي وتواصوا بالصبر رسولنا. البابا بعد الإحتفالات لم يلتفت بصوبك بيت لحم. هي ذي كنيسة المهد. كنيسة وسط ساحة عظيمة. مدخلها كمدخل دير العبيدية مجرد كوة صغيرة مستطيلة. يجب أن نتحني حتى لتكاد تلامس الأرض بيدك كي تدلف إلى الداخل. مطران يشبه كائناً من أثير يلبس رداءً أسود استقبلنا على العتبة ونهّنا إلى ضرورة الإنحاء كي لا نصدم بالجدار هاماتنا. صوته حفنة من الوشوشات بالكاد تُسمع. داخل الكنيسة حشد من السياح الأجانب ونظرات بلهاء. قطعان من العجايز والشيوخ. والكنيسة من الداخل على شكل صليب. أيقونات في منتهى البهاء : هو ذا المسيح الرضيع يتسم لنا. هي ذي أمّه العذراء. والمحوس جاؤوا. ها هم يسجدون له ويطرحون كنوزهم قدامه. عباوات سود تسير على الأرض في تودة وسكون وتحيط بنا. داخل العباوات مطارنة بالحزن والرجل والتور طفحت وجوههم. مطارنة فلسطينيون يتسمون لنا مرحبين بالأخوة العرب الذين جاؤوا في هذه اللحظة التاريخية التي يُسلك فيها الدم الفلسطيني مسيحياً ومسلماً في بيت لحم. وروما تلزم الصمت.

أنزلونا إلى المغارة حيث شهد المسيح التور. رائحة البخور والرطوبة والشموع تملأ المكان. هنا ولدت العذراء التي حبلت به من الروح القدس. هنا المحوس سجدوا له. صوت الراهب كان خفيضاً كنسمة رقيقة تمرق بين أعشاب يابسة. «الإسرائيليون هم الذين يستفيدون من كنيستنا ويستثمرونها سياحياً. لهم ١٥٠٠ دليل مسيحي. أما نحن الفلسطينيون فلا نملك إلا ١٥٠ دليلاً. وفي دعاياتهم لاستجلاب السياح يوفعون شعار زوروا لإسرائيل فتعموا بزيارة كنيسة المهد». هكذا قال المطران فيما طفحت عيناه بحزن صامت عميق يجعلك تخجل من إنتمائك للجنس البشري.

مهد المسيح في خطر. والبابا يوحنا بولس الثاني لا يحرك ساكناً. شارع بولس السادس، شارع

النجمة، طريق المطارنة. من ساحة المهد تتفرّع الطرق جميعها والبيوت تنتشر محيطة بالكنيسة كأنها تخشى على المسيح من الصلب ثانية. طريق المطارنة شارع يمتد من ساحة كنيسة المهد حتى سوق بيت لحم. في وسطه بالضبط بالقرب من مدرسة الراهبات مدرج ينحدر متسللاً بين البيوت المقفلة. ولا شيء هناك. لا شيء. فجأة تحت قطعة رمادية منقطة بنقط سوداء تهبط المدرج الثلاثة بالجدار. تمهّلت في مشيتها. وقفت. الرأس مال. الرأس دار. جذعها لم يتحرك. عينان صفراوان تشعان في عتمة المدرج. واصلت القطعة الهيوط كسلي مخفورة بسحر سرّي. لعلها رهبة المكان. صورة محمد الدرة ثانية. والروح صارت رماداً. الكرامة العربية صارت مجرد ذكرى بعيدة. وعلى الفلسطيني أن ينهض للصراع من جديد ليجد بعضاً من نكد إيماننا. صوت صارخ في شاشة التلفزيون: مات الولد... مات الولد... مات...



مطعم بيت جالا. صاحب المطعم في عمر المسيح يوم أُسْلِمَ إلى حتفه. شاب ملتحم وسيم وقف يرحب بنا نحن الاخوة العرب الذين تمثّل جزءاً من الوجدان العربي. شاب فلسطيني كنعاني خالص، أسلافه رأوا يوسف النجار يبحث الخطي باتجاه مصر وحموا المسيح رضيعاً مهدوراً دمه، جاء يخدمنا مبتهجاً بالأخوة العرب. سألته حذراً:

— عزيزي إسمح لي، هل أنت مسيحي؟

— أنا فلسطيني مسيحي. مرحباً يا هلاً!

— قيل لي إنّ بيت جالا تستدرّ من الكروم نبيذاً فردوسياً.

— أمّي تصنع نبيذاً في البيت لو جئنا الأرض لن نجد له مثيلاً.

سألته مداعباً هل عندك أخوة، فأجابني بآه سادسهم. فاقترحت عليه مداعباً أن أصبح أخاً له، وسألته هل تقبل أمّه بأن أصبح لها إبناً سابعا. فكان أن أهداني قنينة التامت بعد شظايا من روحي التي صارت مرقاً ونفايات. بعد مغادرتنا للمطعم بعشر دقائق ابتدأت للمواجهات في بيت جالا. واختطف الموت شهيدين في مستقبل العمر.

### العشاء الأخير

غداً صباحاً سنغادر رام الله إلى الجسر. فندق *BEST EASTERN* وقت العشاء. مطعم الفندق في القبو. والنور خافت. الفوانيس المعلقة على الجدران بالكاد تطرد العتمة. والشباب في المطعم يخدموننا بتفانٍ ويكرم منقطع النظير. الإلتسامة وعبارة «هلاً، تؤمر» تسبق النادل إليك. الشباب فرحون بنا نحن الاخوة العرب القادمين من العواصم العربية التي «استتبّ فيها الأمن» تماماً. نحن القادمين من اوطان غادرها المستعمرون بدءاً بال نصف الثاني من القرن العشرين علينا أن نفرح ونهّل. فنحن نملك تحت الشمس علماً ووطناً وأشياء أخرى. لكننا جميعاً حزانى حزناً صامتاً تعودنا عليه والفناه حتى غدا جزءاً من كياننا. الجميع يائسون يدركون أن العدالة في الوطن العربي المجرد فكرة تلوذ بالكوى

المعتمة، وكثيراً ما تلتقت في السّرّ مذعورة من أحذية العسكر ورجال الأمن، وفي الليالي الشتائية الموحشة كثيراً ما تجلس مسدلة الشعر في منعطفات الشوارع وتمعن في النحيب. كبير الطباخين في مطعم فندق BEST EASTERN يتقن إعداد شوربة البصل. أنا طلبتها مراراً قبل هذا العشاء الأخير. هذه الليلة جاءني النادل بها دون أن أطلبها. سألته عن كيقية إعدادها. ودوت ذلك.



من نافذة طائرة الملكية الأردنية لحق القدس التي منعنا الجند الغزاة من زيارتها. لحق قبة الصخرة وأنا عائد إلى تونس. طائرات حربية صهيونية حلقت على بعد فراسخ من طائرتنا، ولم تقصفنا لتثبت لنا أن «للسلام» محاسن وفضائل وأشياء أخرى.

وصلت إلى بيتي ومعني شيخان : شيكلان وكيس زعتر إشتريته من رام الله. كيس من نابولون عليه ورقة خضراء كُتب عليها بالأحمر :

زعتر أبناء الريف ZATAR ABNA AL-REIF

مفروك بالزيت البلدي

المحتويات : زعتر بلدي - سمسم بلدي - سمّاق - ملح. تاريخ الإنتهاء ٢٠٠١/٣/٣٠

رام الله - المنطقة الصناعية - تلفون: ٠٢٢٩٨١٧١٣

وشيكلان : قطعتان معدنيتان مدوّرتان كعيني حية رقطاء. افتقدتهما في صباح الغد. وكان أن عاد إليني علاء ١٣ سنة من المدرسة حائقاً ووجلاً بعد الظهر. صارحني معتذراً بأنه قد تسلّل إلى مكتبي خلسة واستولى على الشكيلين. وهناك قنّام المدرسة إجتمع هو وأقرانه واقتطعوا من كراساتهم ودفاترهم أوراقاً ولقوا فيها الشكيلين وأضرموا فيهما النار وهم يرددون الإسم، كانوا يرفعون الإسم عالياً، إسم الحلم العظيم الضّاري : فلسطين. ولكم كان ذهولهم عظيماً عندما لم تأت النار على الشكيلين المعدنيين. فكان أن ازدادوا إصراراً وإنهالوا على القطعتين ممسحاً بالحجارة حتى أتلّفوهما.



أنا لطفي اليوسفي المقيم في الشمال الأفريقي، أنا الذي ذهبت ورأيت أعترف أنني هناك في فلسطين رأيت الوجة ربّانياً، ورأيت الفعل رسولياً. وأعترف أيضاً بأنّ ما رأيته في بيوت العزاء وفي المستشفيات والشوارع ليس شهادة واستشهاداً فحسب، بل هو حدث عبور للحدود الفاصلة بين السماوي والأرضي، بين ما هو بشري وما هو الهي. ثمة فسحة من أمل في دياجير هذا الليل العربي. خطوة باتجاه الطريق المؤدية، خطوة.. خطوتان ومن حقنا أن نواصل الحلم. ولتحيا الحياة.

تونس

## رحلة الأيام الستة في فلسطين

منصف الوهابي

صبيحة يوم الثلاثاء ٣ - ١٠ - ٥٥

كُنَّا نحنُ وفد الشعراء العرب المشاركين في ملتقى فلسطين الشعري الأول في الطريق من عمان إلى جسر الملك حسين.

كان زهير أبو شايب ( شاعر فلسطيني ) قد سلّمنا تصاريح السلطة الوطنية الفلسطينية وقال لنا : الإجراءات في الجسر لن تكون صعبةً هذه المرة رغم أن الإشتباكات بين الفلسطينيين والإسرائيليين من جنود ومستوطنين قد إندلعت في أكثر مناطق الضفة والقطاع .. ذلك أن لا أحد يغامر بزيارة فلسطين.

في هذا الطرف الإستثنائي ... كان الجسرُ خالياً أو يكاد على غير المعتاد، إلا من بضعة مغادرين أكثرهم كهول وعجائز ... كنتُ أوّل مَنْ نودّي على اسمه ... تقدّمت إلى المكتب الإسرائيلي .. تصفّحت الضابطة الإسرائيلية الشابة الجواز .. ودققت في التصريح ثم سألني إن كنتُ أتكلّم الإنكليزية : قلت « إلى حدّ ما . ولكن الأفضل الفرنسية » . قالت : « تتكلّم العربية ؟ » ... قلتُ مستغرباً : « أجل » . سألتني بلطفٍ عن الهدف من الزيارة . قلت : « المشاركة في ملتقى شعري برام الله » . إرسمت على وجهها الأبيض المشرب بحمرة خفيفة علامات الدهشة والاستغراب . ثم إنفتحت إلى زميلتها وتحدّثت إليها بعبرية لم أفهمها، إلا أنني التقطت منها وهي تبسم كلمة تشبه كلمة شعر أو هكذا تهيّأ لي . قلتُ في نفسي : لا بدّ أنّها قالت هذا مجنون حقاً . فمن يُقدّم على زيارة فلسطين في هذا الطرف غير المجانين . إنتقلت إلى المكتب الفلسطيني المجاور . تجاذبت مع الضابط حديثاً خاطفاً . قال إنّه لينا يحصل هذا العام على البكالوريا وهو يتمنى أن يستكمل دراسته الجامعية في تونس .

ركبنا حافلة صغيرة لتُباعَت بعد مسافة قصيرة ببوابة حديدية ضخمة وجنود إسرائيليين مدججين بالسلاح . إستوقفنا أحدهم وتكلّم إلى السائق ثم أمرَ بعد تردد يسير بفتح البوابة . أنزلنا حقائبنا وخرجنا .

في الطريق إلى أريحا القريبة بدأت الجغرافيا ترسم تضاريسها وتقلّباتها الغريبة .. جبال الملح المترامية .. صورة السراب أو وهم الماء .. أشبه في وحشتها بظلّ خياليّ رجراج لا أثر فيها إلا لبضع خيام منصوبة في العراء ولفح الشمس .. وأغنام كائها ترحف أو تنسلّ كالزواحف .. ونباتات جافة

سرى فيها الملح والرمل .. جبال بيض موحشة ربما انحفرت في بعض منحدراتها بحر أو ما يشبه البحر المعطلة التي غار ماؤها وكسّته الطحالب .. إستشعرنا ضغطاً وحرارة غير عاديتين، فأريحا ليست أقدم مدينة في العالم فحسب، إنما هي أيضاً أخفض مدينة عن سطح البحر .. ولعلها كانت في بواكير الأبدية بحراً لم يبق منه غير ماء آسن ومراب متفرق كالذي يكسو أرجاء الصحراء ويعلو حواشها .. بريق تركض به البداء .. تفرق فيه الكثبان وتنحسر .. تبدى الهضاب وتواری .. في قليل من الماء يبدو من بعيد كماء الغسل .. النبات الذي كان من عادة العرب أن يضيفوه إلى الماء عند الإغتسال أو ماء السخد الأصفر الذي يخرج مع الجنين عند الولادة .. حتى إذا وافينا أريحا بدأ المشهد يتغير .. فالأخضر سيد الألوان يصبح أشجار أريحا ونباتاتها .. والتخيل ينتصب في البساتين المحيطة بالمدينة وفي الحدائق الصغيرة التي تتخللها .. ليست أريحا صحراء لا تؤنسها سوى أسراب القطا والحمام .. أو ما تحده قوة الشعر كلما التبتت الكثبان بجسد المرأة .. وشفتها بزهرة الرمل .. وإنفاسها بأنفاس الصحراء .. إنما هي المكان الطيب الأهل حتى إن بدت شوارعها خالية أو تكاد .. تكلمنا أشجارها وبساتينها ... في سراب يرفع الشخوص المنطلقة في آفاقها التي لا يمكن اللحاق بها .. إستقبلنا جمع من الفلسطينيين في مدخل مكتب الرئيس ياسر عرفات بأريحا .. كان من بينهم الشاعر غسان زقطان .. باذرنى باسم .. ما تفعل يا تمبكتي في أريحا .. وظننته يذكرني بقصيدة لي ولكته أسر لي بأن مفاجأة بانتظاري في رام الله .. فقد أعد مسرح عشتار بالمدينة عملاً درامياً أساسه قصائد من كتابي مخطوط تمبكتو وأخرى لسيف الرحبي وتآلي حنظل ...

إنتقلنا إلى مركز أريحا للثقافة والفنون، فقد قررنا جميعاً أن نفتتح المهرجان .. أن يكون مهرجان شعر وتضامن .. فنحن لا نستغني بالشعر عن فلسطين ولا نستغني بفلسطين عن الشعر .. كما قلت في كلمة لي قلت بها أمسية محمود درويش وسميح القاسم في حفل توديع الفلسطينيين بتونس عام ٩٤ .

افتتح المتوكل طه المهرجان ليؤكد أن الحياة تستمر رغم الحصار المضروب على المدن الفلسطينية والزصاص الذي اغتال يوم وصولنا إثنين من أريحا .. ثم قطع كلمته بسبب الإعلان عن سقوط شهيد ثالث في أريحا .. وتداول الكلمة بعض أصدقائنا .. وقرأنا بعضاً من شعرنا .. أنا وجريس السماوي ويوسف عبد العزيز. غادرا المركز تحت شمس تبسط ظلالنا أبعد فأبعد .. ونحن نسلك صامتين .. دوغما خوف .. قال لنا محمود درويش عندما التقينا به في رام الله وقد سأله بعضنا إن كان هذا الحصار يشبه حصار بيروت .. الأمر مختلف ولكن الواحد منا قد يستشعر خوفاً ما في البداية ثم يتلاشى كل خوف .. وأخال أن هذا الإحساس هو ما خامرني وأنا أرى ظلي عند مدخل الفندق في أريحا هاجعاً ساكناً لا ينشد غير كفن ناعم يحويه .. حتى إذا انطلق في البهر وجدتني مجرداً من كل شيء، إلا من جسدي المشتعل موكولاً إلى نفسه، عندها فقط رأيتني في امرأة عيني فينيقاً منيعاً حتى أنني لم أتملك من الضحك عندما هاتف زوجتي في المساء، كان صوتها يأتي من القيروان متوجساً خائفاً. إستغرقت ضحككي .. قلت لها أنني أضحك من نادرة واقعية رواها لي أحد أصدقائنا الفلسطينيين

للتو... أصيب شاب فلسطيني برصاصة مطاطية في راسه. إنتابه وجعٌ شديد. تلمس جبينه. نظر في يده الملوثة بالدم ثم التفت إلى أصدقائه وقال: الله، يبدو أنني استشهدتُ يا جماعة!

ستندرن الليل الأريحي أيتها المجنون مُحتملاً بريح كريح الخزامى رشها الطلّ حتى مسّها بالقوام ونحن نجلس بعد العشاء في شرفة الفندق: يوسف وجريس وطاهر وسيف والمتوكل ولطفي ونثالي وهاشم وجهاد ورسمي وغسان وحسين ويحيى... نتجاذب أحاديث شتى ولكن صورة الطفل محمد الدرة تآبى أن تفارقني. قال بعضنا إنها صورة الصياد والفريسة، ولكنّي قاطعته وقلت الصياد لا يصيب فريسته عندما تكون لائذةً بسدره أو جذع شجرة أو شيء ما... فيما بعد في رام الله قيل لنا إن محمود درويش علّق على الصورة المروعة: هي صورة التمر والغزال. واطن أن هذا هو الوصف الأدق. أجل كان محمد المحتمي بوالده جمال الموكول إلى قدره وجه الغزال المرتعب يطارده قاتلوه وصرخته الخرساء المكتومة. والقثلة كما يقول أحد الشعراء: لصوص يجيئون في الليل كخيوط الضباب وكثيراً ما يأتون في وضّح النهار لا تراهم أبداً وجهاً لوجه... لربّون كثمرة الليتشي الصينية يشربون زمّنك ويبصقونه. غير أننا عرفنا فيما بعد إسم القاتل الذي أمر بإطلاق النار على محمد ووالده. فليحفر أطفالنا هذا الإسم «إيغور إيلاند» في ذاكرتهم، وليتسألوا عندما يكبرون وهم يكبرون في فلسطين قبل الأوان: أية إستعارة تلفّ الجسد المذبذب، الجسد الفلسطيني المقطّع المبترور الموصوم في العين أو في الوجه أو في الصدر أو في الكتف في مشهد إحتفالي يرتكب فيه القتل ببرودة ودونما ندم، حيث تعقد الجريمة مع الطبيعي الحيواني المتوحش في الكائن علاقات قرابة مشبوهة في طقس غابر يحمل في مطاويه عنفاً بدائياً، يفترض بعضنا من الماخوذين بديمقراطية الخطاب الغربي أنه لم يبق إلا مجرد ذكرى باهتة... اليهودي الصهيوني يعتقد أنه إله، ولذلك يرفض حُكّام إسرائيل إجراء أي تحقيق بشأن جرائمهم، فلا أحد يحقق مع الآلهة. يرفضون حتى إجراء العقاب العادي على المتوحشين من جنود ومستوطنين. العقاب من حيث هو إقتصاد حقوق معلقة يؤخذ فيها الجسد بنظام من الإكراه والحرمان والمخظورات، يرفضون حتى طوباوية الحياء القضائي أي الحرمان من الوجود مع تفادي الإحساس بالالم.

سأل صحافيون من معاريف موفاز رئيس الأركان، كيف تفسّر إختلاف روايات الجيش في قضية مقتل الطفل محمد في نتساريم وكان جوابه المكابر وكأته يبرّر الجريمة، بل هو يسوغها: «لم أجر تحقيقاً جذرياً في الحدث، ولكن الإنطباع لديّ أن إحتمال إصابته من نيران جنودنا عالية نسبياً، ولكن يجب أن نذكر أنه شارك في الإضطرابات ولم يشاهده أحد في مهداف سلاحه».

محمد الدرة المقتول في حضن والده ومحمد حامد الذي طلب من والده صبيحة إستشهاده أن يأتيه ببيجاما من الكويت، ثم توجه إلى مواقع الإشتباكات التي كانت تدور عند المدخل الشمالي لمدينة البيرة ولم يتركّد محمد البيجاما، إنما ألفّ بالعلم الفلسطيني.

هذان مشهدان من مشاهد كثيرة تشوي في خلفيّة المسرح، مسرح التاريخ، أو هي تروح ونجىء كظلال الأشكال السحرية ورسومها تدور حول مصباح يمسكه صاحب العرض في لحظة ما من

لحظات الابدية .. مشاهد تبين كيف أن لوم إسرائيل على الإستخدام المفرط للقوة هو من المضحكات المبكيات، فللعنف مفارقاته أيضاً، بل هو المفارقة ذاتها، مفارقة الأخلاقي يستبعد العنف تشريعاً، والسياسي يكرسه ممارسة، مفارقة المتوحش في الإنسان يغوص عميقاً في ماضٍ غابر، ومفارقة المؤسسة كما هو الشأن في الابدولوجيا الصهيونية يجري العنف في ثناياها بدءاً بالبلغة وصولاً إلى السلطة، وغير ذلك من المفارقات كثير، ولكن المفارقة الأشد إخراجاً من بينها ولعلها جماع القول في شأنها جميعاً هي مفارقة المعرفي يذيب العنف في عدمية خلو من المعنى مجردة من القيمة. ومع ذلك تكون المعرفة في أمس الحاجة إلى أن تستنبت له معنى وتجترح قيمة حتى يتمنى لها أن تحاصر العنف وتصدى له، وإله لمن اللافت أن يتصدى الفلسطينيون لهذا العنف الهجمي باللاعنف، الامر الذي يزعم المؤسسة الصهيونية ويربكهها، برغم أن إختيار الخطاب ضد العنف والمواظبة باستمرار على تنقية هذا الخطاب مما قد يعتريه منه، قد يشير أكثر من التباس مفهومي بين الحق والسلطة والقوة وحتى الضعف ...

صحيح أن فلسفة الحق في هذا الصراع الدائر على أرض فلسطين تقيم في مجملها تقابلاً منطقياً بين العنف والحق يتم علي أساسه سلب الأول من دائرة الثاني، غير أن ذلك يبقى في نهاية المطاف رهين تشريع نظري كثيراً ما تعدم وسائل إجرائه ممارسة. وصحيح أن بعض أهل الفلسفة يعقد مقايضة يخلص بموجبها إلى إثبات القوة معادلاً يتوسط الإفراط ( العنف ) والنقصان ( الضعف ) لكن إلى أي مدى يجوز تحديد العنف على أساس مقايضة كميّة ؟ إن معضلة المعرفة تخصيصاً أو إجمالاً هي ما المسافة التي يتوجب قطعها من العنف باتجاه اللاعنف . ذلك أن الإجابة عن هذا السؤال تبدو شرط إمكان خلع مشروعية على القيم التي يكتسبها الإنسان، وإلا فإن القيم التي في حوزته مكسوبة بغير وجه حق، أي بالعنف. ولا شك أن ما يدرك بالعنف يظلّ عديم القيمة ( فليس يفوز المرء بقلب امرأة إن هو اغتصبها ) .

صبيحة الثلاثاء ٣ أكتوبر كنّا في الطريق إلى مدينة رام الله. قلتُ لنفسني كان ينبغي أن أكون في بنسبة هذا اليوم للمشاركة في ملتقى شعراء المتوسط، ولكنني اخترتُ أن أسافر إلى فلسطين في هذا الظرف الإستثنائي. والحق أن اللحظة الفلسطينية هي منذ إحتلال فلسطين وإقامة دولة إسرائيل لحظة إستثنائية في تاريخ الأمة، حتى عندما ينتهي لنا في لحظات اليأس أن كل شيء قد انتهى، فاليأس من كل شيء قد يكون مفتاح الأمل في كل شيء، وبرد اليأس هو من برد اليقين أيضاً. هل ضاع كل شيء بعد حرب الخليج الثانية ؟ لا أظن. الفلسطينيون أنفسهم يقولون إن شعبيهم يفاخثهم من حيث لا يدرون ولا يتوقعون. وقد ذهب في ظن كثير أو قليل منهم بعد أولسوا أن المسألة الفلسطينية في طريقها إلى حلّ منقوص أو جزئي مبتسر .. إن الحلم الذي راودنا جميعاً سيظلّ حلماً مبهوراً .. ولكن يتأكد مرة تلو أخرى منذ ١٩٩٤ أن الحلم يتجسّد على أرض فلسطين في ظلّ قيادة تعمي خصوصية الآخر ( الإسرائيلي ) الذي تواجهه لا من خارج الوطن وإنما من داخله. وربما تجلّى ذلك كاظهراً ما يكون في ظاهرة المقاومة الفلسطينية من جهة، وفي هذا الشرخ الذي يضيّق حيناً في المجتمع

الإسرائيلي ويتسع حيناً وفي هوية فلسطينية (عرب ٤٨) لم تستطع المؤسسة الإسرائيلية خنقها أو طمسها.

فإذا كان الحلم الفلسطيني مبتوراً حتى هذه الساعة، فإن الحلم الصهيوني حلم مبتور هو أيضاً. والحلم عالم مفلق لا قبل فيه ولا بعد، لا داخل فيه ولا خارج، ولكن شقان بين حلم صهيوني وحلم فلسطيني. فماهية الأول جغرافيا لاهوتية تجعل من إسرائيل في المنظور الصهيوني (دولة الصعود والعودة والتجمع وإعادة التكوين). وهذا طرح زائف لا ينهض له سند من تاريخ فلسطين، في حين أن ماهية الثاني يعصدها التاريخ والجغرافيا. ويبدو أن هذا الحلم الإسرائيلي القائم على جغرافيا لاهوتية أخذ يتبدد عند طائفة من الإسرائيليين ليحل محله واقع آخر. فقد كتب يوسي سريد (الثابت لدينا هو أنه ليس ثمة حلم أكثر اكتمالاً من الحلم المحطم الذي تجمع خطاه).

هذا الحلم هو ما كنا نراه ونحن نقطع شوارع أريحا في صباح خريفي رطب إلى رام الله. كان هناك أطفال يجمعون الحجارة والزجاجات الفارغة ويدفعون العجلات المطاطية متحيزين لاشتباك آخر مع المستوطنين والجنود الإسرائيليين غير مباليين بأسلحتهم الفتاكة. وفي الطريق نرى المستوطنات القائمة على التلال والهضاب مسورة بالأسلاك الشائكة. ولقد راعنا وتساعها وربما تساءل أكثرنا.. أي سلام سيستتب في ظلها. وقد رأيت فيما بعد كثيراً منها في رحلتنا إلى بيت لحم بما فيها تلك التي تطوق القدس.

قد تكون هناك نبرة مختلفة عند طائفة من الإسرائيليين يبدو أنها لا تتدرج بالخيال الديني، ولكن لا يقوم لها سند من الواقع الذي رأيناه ولا مسناه طوال رحلتنا. فأيها أكثر عسى (كما كتب بعض الفلسطينيين) الجندي الإسرائيلي أم الطفل الفلسطيني المصاب في عينه اليمنى أو اليسرى.. يتذكر زياد أحمد فراح أنه كان قريباً من مسجد بلال بن رباح في بيت لحم عندما أصاب جندي عينه اليسرى بعبارة معدني مغطى بالمطاط.. ويقول تقرير المستشفى إن العين كانت قد أفرغت من محتوياتها وقت إدخاله إلى المستشفى.. وتقول إحدى الممرضات (كل ما نستطيع فعله هو تركيب عين صناعية. وسنحاول أن نختار لوناً قريباً من لون العين الأخرى).. ولا أحد يحتاج إلى عينين ليرى بشاعة الجندي الإسرائيلي ووحشية القوة والغطرسة. لقد زرنا بعض المستشفيات ورأينا بعض هؤلاء الأطفال والشبان المصابين. ولن أنسى صورة ذلك الطفل المعوق ذهنيّاً وقد أصابه جندي إسرائيلي في يده وكفته.. قال لنا المتوكل إن أهل رام الله يحبونه كثيراً ويستلطفونه وهو يتقنص بدلة شرطي ويسير حركة المرور في المدينة.. كان في سريره يتمتم بكلمات غير مفهومة، وكانت الممرضة وفاء العمراني إلى جانبي تنشج في صمت.. لا أحد سيجلبنا ثانية من الأرض والطمي.. لا أحد يبارك تراثنا.. نعم كان لدينا جميعاً حلم منذ عودة بعض الفلسطينيين إلى جزء من أرضهم، ولكن يبدو أنه يتبدد وقد لا يقدر أحد على سبكه ثانية.. خاصة أن الأغلبية من الإسرائيليين لا تزال تطرح المسألة من حيث هي حقيقة مطلقة. فلا جبل صهيون حتى بالنسبة إلى المسيحي مملكة من هذا العالم وهو لا يعني فلسطين بالتأكيد، فالجغرافيا اللاهوتية فيما يقرره فيلسوف غربي هو بول ريكور

في نصّ قديم له مرحلة ألقاها تاريخ الأنبياء اليهود الروحي . وعليه فإنّ الماهيّة المؤسسة للوجود الإسرائيلي ليست الماهيّة المؤسسة لوجود المسلم أو المسيحي، واعتبار إسرائيل نفسها إمتداداً لإسرائيل الذاكرة إنّما سنده الخيال الديني أو التاريخ.

نبغ مدينة رام الله . كانت ريحٌ جبليّة تحملنا أبعد فأبعد . نستريح قليلاً في الفندق ثمّ نرور مؤسسة عبد المحسن القطان .. يهدينا صاحبها بعض المنشورات، منها كتاب شلّتي كثيراً هو كتاب ( أزهار فلسطين ) وقد قلّم له محمود درويش بلغته النثرية المذهلة . ولقد قرأتُ هذا الكتاب عند عودتي إلى تونس . وأحسستُ أنّ الحياة يمكن أن تجري أحياناً بكلّ يسرّ .. أنّ كلّ زهرة في هذا الكتاب حديقة تحتفظ بسريرتها الحميمة .. أنّ كلّاً منها جزيرة خضراء في زحمة هذا الصّراع القاسي .. وكأني أراها من مشبكّ وأقول لعلّ الفردوس صنّع ليظلّ مسيحاً .. لا يسكنه أحد .. غير أنّ فلسطين ليست الفردوس المفقود .

نلتقي بالرئيس ياسر عرفات .. وهو يشيد بقدرة الفلسطيني على اجترار معجزة الصمود والتصدي . وأدرك أكثر من أيّ وقت مضى أنّ شرف الفعل السياسي أو الشّعري في فلسطين ليس في الواقعة المباشرة، وقد تكون غفلاً من المعنى، وإنّما في الترميز، أي في إقامة علاقة دلالة بين الأشياء والكائنات .. لأفّل في ( التلال ) أي خلق الدلالة، وهو ليس واحداً وإنّما يجريه اللسان مجرى مخصوصاً ... وهذا ما استكشفتُه طوال الأيّام الستّة التي قضيتها في فلسطين، فلا الرّمز السياسي ولا الرّمز الشعري أو الثقافي لاحق على الوجود وإنّما كلّ منهما يتنزّل في الصميم منه .. إلّاه بإمّتيان بؤرة الأنطولوجيا ..

سلام هي فلسطين .. إذ تقول وجودنا تقول وجودها الخاص حصراً .. فلا هويّة لنا خارج فضاءها .. وهي مقامنا أئني حللنا .. وهي السّفر .. تناظر فريد بيننا وبينها وهي تبتدئ الوهم وتتدبّر أمر كينونتها وتنضجها على نار أصواتها وتراكيبها ومفاصلها .. نحبّ وهي التي تحبّ .. وكلّما ارتجف متنا الجسد لهذه الصّورة أو ذاك المشهد كانت هي التي ترتجف تحت جلدتنا أصواتاً وتراكيب ومعاني .. بل كانت هي الجسد عينه .. الحقيقة عينها .. أي هذا الحشد المتدافع من الإستعارات والكنائيات ومن ضروب تشبيه الأشياء بالإنسان . فإذا حبّة الشهوة تنغلق على طرف اللسان لحظة تنغلق فلسطين في الجسد وهي التي تنبسط عندما ينبسط .. وهي التي تنقبض عندما ينقبض .. وهي التي .. عندما هو الذي ...

أعود وكأني « كريستوف كولومب الحياة الداخليّة »، يستكشف فلسطينيّة الحميمة، اعني وطنه الخاصّ . وما الشّعْر إنّ لم يكن تسمية .. إنّ لم يكن ملامسة المكان باللفّة . سلام هي فلسطين .

القيروان - تونس

# حر تهاماً.. لست سوى عبد لرغبات مؤجلة وأخرى دفينه

جهاد هديب

سأصارع.

لا أرغب بهذا الحضور الطاعني كله والمتسلط، راهناً وفي المعرفة التاريخية، لاثنين:  
\* شهداء فلسطين .. لقد احتكروا فكرة واحدة للافتداء، قرّنها بفكرة أبدية للالم. ما زالتنا  
تسيران معاً منذ اكتُشفت أول حبة من القمح في أريحا.  
\* أنبياءها، الذين ما راوا للتاريخ إلا وجهاً واحداً لا محيد عنه.  
قلت، بينما أخاف مصيراً ما، صنيع ما يمكن أن يؤول بي إليه مثل هذا الوعي.  
سأصارع.

لذلك أنا فلسطيني في معنى ما، وليس وفقاً للمعاني كلها، وربما أقيم في جهتي فلسطين:  
الجغرافيا التاريخية وسؤال المعرفة؛ الانتماء الحصيف والعدم العدم.  
لذلك ساذهب إلى حديقة بعيدة. وفي ظلّ شجرة ساقرا رواية غرامية، تخرج إليّ كائناتها التي  
تتعذب من فرط الحب، وتبكي بين يديّ.. وربما أكتب عن المرأة التي لا أعرف إسمها لها؛ المرأة التي  
من غسلت ثقتي ولم تذب، تغد، في فمي.  
سأصارع.

أكثرها، كما تشاؤون، أيها الشهداء. لكنّ أبطلوا في سيركم. لم أخلق لأحصى فحسب.  
مرة، أوقعتني القافلة سهواً عني.. سهواً عنكم.

\* \* \*

لي أن اتألم بصمت فيما أرى «محمداً» الدرة يقتل.  
لي أن اتأمل بصمت تذكاره في ماضينا؛ ماضي ذلك الجيل الذي دخل إلى مدارس وكالة الغوث  
الإبتدائية في منتصف السبعينات وما تلاها.. كان لأيّ منا نحن، أن يكونه، إنما من غير أعداء أو  
كاميرا أبو رحمة.

لقد كنّا أطفالاً نهرم في مخيمنا آنذاك. جاءت «الكوليرا»، وفي عصيفها حملت أحد عشر محمداً  
درة، عدداً وحصراً، في قرابة شهر من عام واحد.. وظلّ فارغاً في المقعد نفسه للمكان الذي جمّع  
أحدهم إليّ.

هل كان الله قريباً مني إلى هذا الحد؟ لا أعلم. لكن شهدتُ محمد «الذرة» يرتعدُ ثم يموتُ في حضن والده.. هو طائر في الجنة الآن. أنا ما زلتُ منذ ذلك الوقت ارتعدُ والجنة ما زالت هي الجنة!!  
«كُنَّا ثَوْدًا وَصَوْتُكَ غَابَ»

\* \* \*

حين عدتُ إليه، قال الذي نسيته مرةً في المرة :  
«نَحْنُ نَحْيِيْنَا مِنْ دَرْبِ الْأَعْمَارِ»

هِنْ كَيْتْرُو،

وَيَقِينَا زَغَارِ

مِشْ هِيَكْ؟ لَا تُرْدِ عَاحِدَا. وَلَا تَعْتَبْ.

\* \* \*

لا أجدُ تفسيراً لخوفٍ سرى في أوصالي وانقباض، لحظةً أن بدا ذلك الشاب العشريني أو اقل، وظلت صورته تتكرر في خاطري، مَرَّهَوًّا بِكَفَيْنِ نَعْمَتِنَا بِالْدم يُشْهَرُهُمَا عَالِيًّا فِيمَا يَرْكُضُ خَارِجًا مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ حَيْثُ قُتِلَ الْغَاضِبُونَ «مُسْتَعْرِضِينَ» أَسِيرِينَ احْتَجَزَا فِي رَامِ اللَّهِ الَّتِي كُنْتُ غَادَرْتُهَا مِنْذُ أَيَّامٍ.

حقاً، ما جاء إلى المدينة التي ودعتُ شهداءها نهاراً في نزهة ليلية ولا دخلها بسلام دون مآرب.. فهل خوفي لأنني أريد لفلسطين أن تبقى تاريخ حضارتنا الذي يُقَاسُ بِهَا لا بِالْغَزْوِ فَالْثَارَاتِ، أم لأن هذا القتل لأسيرين هو ردُّ فعلٍ جمعي لذاكرةٍ مثقلةٍ إلى حدٍّ أنها تستبدلُ القتال وإدارة المعركة بمحض الانتقام من عدوٍ شرس القلب والطباع تستجِمْعَةً - أي الذاكرة - في أسير منزوع السلاح كان من الممكن مبادلتهُ بأكثر من سواء بكثير؟ لماذا تتنازل «تراجيديا» نا عن روحها عند الإمساك بأسيرين لا يُبَلَّ فيهما مبتليين بخوفٍ من هياجٍ شعبي؟ من أجل لحظة زهوٍ عابرةٍ يتنازل «هاملت» عن قضيته التي لو ألقى خطابها في صخر سوف يدمع؟؟

أَتُوقُ بَانَنِي خَائِفٌ مِنَ الْمَقْبَلِ كُلِّهِ، وَلَا أَتُوقُ بِمَا قَلْتُ. لست ممن هناك فأعرف. لكن وددتُ لو أن للمسألة وجهاً آخر، طريقه ليس يُتَبَدَّلُ لِي.

\* \* \*

أنا

وذبابٌ عَمِيَاءُ، وَخَلَّتْ إِلَى آخِرِ هَذَا اللَّيْلِ، تَلُوبُ فِي غُرْفَةِ حَسَنَةِ الْإِضَاءَةِ وَمَكْتَبَةِ وَطَاوِلَةِ إِلَى جَوَارِهَا مَدْفَاقَةً، وَفِي الْحَاطِطِ صُورَةٌ لِلْفَتَى غِيْفَارَا فِي فَمِهِ سِجَارٌ كُوبِي، سَوْفَ تَأْتِيهِ الشَّمْسُ بَعْدَ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنَ النَّافِذَةِ، وَرَبَّمَا أَشْعَلَتْهُ.

هنا. في البعيد، يشمر المرء بالبرد.

ومن هناك، جِثَّتْ بِرَدَانَا وَارْتَعَدَ. كانت صواريخ اللار تقصف، والرشاشات تقتل في الشوارع والبيوت ليلاً ونهاراً، والشهداء على الاكتاف، والحناجر تتوعد.. والامهات، منذ الازل، يواجهن

مصائر أبنائهن المحتومة والمنتظرة برشقة ملح جُلُطَ بارز؛ بدمعة صريحة رافقت زغرودة مكتومة سواء بسواء.

كأنما لستُ من هنا

كأنما لستُ من هناك

كلُّ شيء يشي بذلك.

\* \* \*

مَنْ قَتَلَ طفلاً في الشجاعة، تُنبأ بمصير طاغية

مَنْ قَصَفَ منزلاً في بيت جالا، عبثاً طريقاً إلى المحيم

مَنْ اغتصب زيتونة، أوصى بهجرة «قبيلة» إلى الأبد

والذي صلب بحراً، يخاف من الدم أن يُفرق هاوية بين مُتَحاربين.

«لقد مرة أخرى لو استطعت.. الناس، قبل، غيرهم الآن. لقد اختلفوا» يقول وليد أبو بكر.

وتضيف إيمان عون وهي تنظرُ في عيني تماماً «تبدو قلقاً لأنك لا ترى بعينيك أنت.. سهل الاعتياد.

سهل أن ترجم بحجر، وأسهل مشيك بين حاجز ومستوطنة حيث الموت طيف يُرى في الهواء أو

يتجول في هيئة قطيع من غربان.. ألم يكن أنك ستبقى، لمْ عُدت؟

يقولان، دون القصد بالتوجه بذلك إلي، بل دون الحاجة إلى سياق أصلاً.

لا يدرك القادمون من ذلك المكان المتخيل والعميق في أي ألم تقع كلماتهم.

\* \* \*

إن بقيتُ هناك.

هل أحسنُ عهدُ الشهداء بلا خطاً أو تاخذني خطي الأنبياء إلى «يقين» لا يصلُ بي إلى «إيمان»؟

إن بقيتُ هنا.

هل أحسنُ غير الإقامة في البياض حيث لا شيء يُتذكَّر.. حيث لا شيء يُنسى؟

وعادةً المحيم؛ شبه النفس، أن تبقى بلا رجاء أو أمل.. لا يدان لك فيه فتصقُّ لأحد. مشاعرٌ

غامضة ومحتدمة.

غاضباً ومُلتبساً؛ هكذا أنت؛ حرّ تماماً.. لست سوى عبدٍ لرغبات مؤجلة وأخرى دفينّة.

عمان

## ها ثمة هجاز

طلهر رياض

كيف يمكن للغة أن تنجو من لغوها، وهي يحك بعضها بعضاً، في محاولة (ما أشد ياسها!) للتعبير (ما أسخفها كلمة!) عما انطبع وينطبع في الذات من مشاعر وخواطر، يثيرها ويركض أمامها حدث الروح الفلسطيني الأعظم : الانتفاضة !؟

وبعيداً عن التجريد المشخصن الذي آلت إليه كلمة «الانتفاضة» وعن تصدرها قائمة أسهم الخطاب في بورصة المعجز العربي الثرثار، بل بعيداً حتى عما تفجره من تداعيات معنوية وحلمية، أجدني أميل الى العودة إلى التجسيد، إلى القبض على الشيء والمعنى بالحواس المتأثثة، قبل أن تقنصهما التسمية، وتحبسهما في أقفاصها الرنانة.

وما كنت لأجرؤ على مجازفة كهذه، لولا أنني كنت هناك، على الأرض التي ينتفض لحمها البشري، فشاهدت وشهدت، وإن كانت مشاهدة لم تخرج من حيز الشهود -أسفاً- إلى فضاء الاستشهاد.

ثمة سؤال أبه يدور في خلدي، قد يصلح ليكون بداية، وإن كانت فجأة، للملامسة المقصودة هنا: لماذا يجب على الشعراء أن يكتبوا، شعراً أو نثراً، عن الانتفاضة !؟.

هو سؤال أبه كما ترون، ولكنه، ككل أبه، يلح في طلب إجابة شافية، وككل أبه لن ترضيه الإجابات الخاتلة، أو تلك المبنية على الركون إلى البدهيات والاعراف.

والوجوب المفترض من الشعراء (أو المفروض عليهم!) هو إما نابع من ضمير الشاعر نفسه، من ضيقه بما احتشد في وجدانه من مشاعر وانفعالات صاخبة، لن تهدأ حتى يخرجها كلمات على الورق؛ أو أنه نابع من إحساس الشاعر بواجبه في التعبير عن مشاعر وانفعالات الآخرين ممن حرموا القدرة على الكتابة، وفي كلتا الحالتين يراد منه أن يكون اسهاماً في الفعل الجاري على الأرض - الانتفاضة .

وكانني بالشاعر ما يزال يعتبر نفسه، ويعتبره الآخرون، صوت أمته، وضميرها الحي، الحامل لهمومها وأفراحها وآلامها، المعدد لمناقبها، الممجّد لانتصاراتها، الرائي لقتلاها، الشاتم لأعدائها... وربما هو كذلك، أو كان كذلك، في جاهلية انقضت (أو هكذا حسبناها!)، قبل أن تخرج الأمور عن مجرد نزاعات قبلية بالسيف والرمح على مرعى وكلا، وقبل أن تتعقد العلوم والاختصاصات، فيتولى آخرون فيما بينهم تلك المهام التي كانت منوطة بلسان الشاعر وفصاحته، وأعني بهم علماء الاجتماع وعلماء السياسة وعلماء الاقتصاد وعلماء التاريخ وعلماء الحرب وعلماء النفس وعلماء الإعلام.. حتى علماء الكلام!

لكن الناس ينتظرون من الشاعر، الشاعر وحده، أن يقول ويكتب! وهو في داخله يحس أنها مهمته هو، دون غيره! وكأنه راسخ في وهمه أن حركة التاريخ، وسيرورة الواقع، ورياح التغيير مرهونة

بما سيسيل به قلمه على لوح الأقدار المكشوف، هذه المرة، لا المحفوظ! وكأننا ما نزال ننظر إلى صراع وجودنا نظرة شاعرية، تستبدل الحركة والفعل الناتجين عن الدرس والتحليل والرصد الموضوعي، بانثيالات عاطفية، وتهويمات مدغدغة، وبلاغات لفظية، لا تعمل على تحويل الدم إلى حبر فحسب، بل أيضاً على تحويل الشهادة إلى رمز، والألم البشري إلى مجاز، والفجائع اليومية إلى استعارات وتوريثات.<sup>١</sup>

والسؤال الأبله السابق يلد أسئلة أخرى ليست أقل بلاهة: هل تُعد قصائد الشعراء وكتابات الكتاب وخطابات الخطباء مشاركة في الانتفاضة، أم أنها ليست سوى تعويض مرضٍ عن العجز عن المشاركة الحقيقية فيها؟ بكلمات أخرى؛ هل من شأن هذه الكتابات أن تسهم في تحرير الأرض وإنقاذ الإنسان، أم أن جدواها تقتصر على تحرير ضمير كاتبها من وطأة الإحساس بالالتفغ، وإراحة ضمائر متلقيه من الرهق الذي يرين عليها، بسبب ما تعانيه من شلل شامل؟<sup>٢</sup>

وحين يستعمل أحدهم لغته لتصوير رمية حجير أو نظرة غضب أو مصرع طفل أو نواح أم... هل يكون في روعه أن صورته أصدق وأبلغ وأبعد أثراً من صورة الحقيقة التي رآها عياناً، أو عبر ما تبثه أجهزة الإعلام صبح مساء؟<sup>٣</sup>

وحين تعلق أصواتهم بالحمد والتمجيد آنأً، والحزن والتفجع تارة، والوعيد والبشرى تارة أخرى، هل يحسبونها تبلغ علو أصوات الدم المراق على الإسفلت وحول الحواجز وفي المستشفيات؟ بل هي حين تهدأ أسيانة، هل يرونها تداني الهدوء والأسى اللذين يغلقان وجوه الشهداء المرفوعة أمام سماء عمياء؟<sup>٤</sup>

وهل في ظن أحدهم أن أولئك البسطاء الواقعيين، ولا أقول الأسطوريين، المنتفضين على القهر والظلم والاحتلال، كما ينتفض الجسد الحي تحت وخز الإبر، يقرؤون قصائده، أو يفهمونها، أو يتخذون من تكاثرها وتراكمها ذخيرة لهم في مواصلة نضالهم، وهم الذين ما انتظروها حين أشعلوا هذا النضال واشتعلوا؟<sup>٥</sup>

وإذا كانت هذه القصائد موجهة إلى بقية الشعب والجماهير والحكام وصناع القرار، أن «تنبهوا واستفيقوا أيها ال...»، فلماذا لم تصل رسالتها بعد، على الرغم من تلال القصائد التلّلة، التي تكرر الفحوى ذاتها دون هواده، بالانفاظ ذاتها دون هواده، عبر أكثر من نصف قرن من الخيبات... دون هواده؟<sup>٦</sup>

أما إذا كان يراد من هذه القصائد والكتابات أن تكون أعمالاً فنية جمالية، تسعى، بأدوات دقيقة ومحترفة، إلى استلهاهم الحدث لتخليده، وجعله عبرة وراقّة وجدانية أصيلة، تتفعل بها وتتعلم منها الأجيال القادمة، فلعمري ألا تكفي قصيدة جيدة واحدة، أو بضعة قصائد لتلبية هذا المطلب؟<sup>٧</sup>

أجل، إنها أسئلة بلهاء، لا أظنها ترد على خاطر كثير من الشعراء وغيرهم من ممتهمي الحرف، وهم ينتظرون هبوب الحدث فعلاً، لكي يندفعوا في هبويه.. قولاً<sup>٨</sup>.

ولعل هذه أن تكون إحدى شؤون الانتفاضة وغاياتها، أن تكشف فنياً بلاهتنا، وتفضح ادعاءاتنا وأكاذيبنا على صفحة مرآة صدقها الجارحة، وتثير فينا شهية الانتفاض، بدورنا، على ما تواتر واستتب

حتى أصبح أعرافاً وتقاليد، وتحرك فينا ما أسن من أفكار وأساليب، عليها تننفس هواءها النقي الطازج.

\*

«ما ثمة مجاز، الكل حقيقة!» قال ابن العربي، ذات كشف بعيد. وكأنه كان يعطينا مفتاح الرؤية السحري، الذي به، وبه فقط، يمكن فض مغاليق المعنى، وملامسة الانتفاضة، وجس نبضها الحارق. كنت أود أن أكتب كلاماً آخر، أعبر فيه عن مشاعري تجاه ما شهدته على الأرض الفلسطينية المنفض شعبها، وعن تفاصيل لقائي الأول بها، الذي أبت الأقدار إلا أن ينشأ بعد سنوات، حتى يتزامن مع انطباق الفكرة على معناها، وتماهي الحلم مع حقيقته.

ولست خجلاً من الاعتراف بأنني لطالما حاولت، طوال ما يزيد على الشهرين، أن أفعل ذلك، لكنها محاولات كانت أشبه ما تكون بتثبيت قطرة زئبق على لوح خشبي.. بمسار!

لقد جردتني الانتفاضة من أدواتي اللغوية والبلاغية جميعها، ومسحت بممحاة واقعتها كل ما حفظته من كلمات وتعبير، وما خزنته من أسماء وتشبيهات، وأوقفتني هكذا، مذهولاً مبهوتاً، أمام حقائقها العارية!

ما ثمة مجاز، هذا أول الكلام!

فلسطين ليست مجازاً. الاحتلال ليس مجازاً. الشهداء ليسوا مجازاً. الأمهات العائدات إلى بيوتهن بعدد من أطفالهن لسن مجازاً. أشجار الزيتون التي تقطع والبيوت التي تهدم ليست مجازاً. الفتيّة المشمرون عن سواعدهم المغداة بشمس بلادهم، يرجمون البغي ويقاومون القمع ليسوا مجازاً. محمد الدرة ليس مجازاً. الآخرون الذين سقطوا برصاص الاحتلال الحي (الحي ١٩) ولم نحفظ أسماءهم، ولم يحفظوا بمصور عابر ينقل تفاصيل إعدامهم ليسوا مجازاً. ما يجري على الساحة السياسية، بموازاة كل هذا، وخفية عنه، ومتاجرة به، ليس مجازاً. الكل حقيقة. الكل حقيقة. هذا منهى الكلام!

عثمان

## إنها تحاول إنجازنا!

خيربي منطور

بدءاً، لأبد من تصحيح أكثر القراءات رواجاً للانتفاضة، تلك القراءة التي حذفت أبجدية المقاومة الفلسطينية، وبدأت من الباء، فانتفاضة الحريف الأخير التي اجترحت ربيعها التاريخي من صلب الجغرافيا الرسولية، هي واحدة من قيامات مهدت لها، وهي تجل من تجليات قرن أو شك أن يكون إسرائيلياً، لولاها. أما القراءة للمتدنية الثانية التي لم ترتق إلى مرتفعات هذه الظاهرة الفتنة، فهي التعامل الموسمي مع رياحها، وكأنها عود إلى صفر البدايات، وسلسلة من العتبات التي لم تُقضى إلى أي بيت! لهذا ازدهرت الكتابات (عنها) و«حولها» وقلما كانت (منها) أو (فيها)، ليس لأنها لم تعتمد خارج

## الانتفاضة: فعل وكتابة

نطاقها الجغرافي، بل لأن ظهورها العربي والإسلامي يفترق إلى رشاقة الإستشعار، وبالتالي لا يتذكرها إلا إذا لامس وجهه رذاذ الدم ! فالكتابة عنها كرسد خارجي واقعي، بدأت تحصى أيامها، وأسابيعها، وشهورها. أكثر من عشرين صحيفة ومجلة عربية أحلت الإحتفاء مكان التحريض والمشاركة.

فبدت البشائر بأن الإنتفاضة دخلت شهرها الثالث، كما لو أنها مقدمات لبشارة قادمة، تعد العرب بأن الشهر التاسع سيكون الحاض الأخير، وهكذا تنجز الإنتفاضة وحدها «وطناً» واستقلالاً، وتحزيراً لمقدمات تخص ملياراً ونصف المليار من البشر

هذه الإنابة، يتنازل بموجبها ثلاثة آلاف عربي ومسلم يهودي واحد، وكان بمقدور طفل فلسطيني كالشهيد (الدره) أن يفك الاحجية بعملية حسابية لا تحتاج إلى حاسوب !

لقد أدى الترميز المبالغ فيه لإسناد الإنتفاضة المحاصرة، إلى جعلها شبه جزيرة، محاصرة من إسرائيل من الجهات الثلاث.. والجهة الرابعة هي البحر، وبالطبع تختلف أشباه الجزر عندما تكون سياسية أو تاريخية عن مثيلاتها في الجغرافيا الصماء !

كان أسبوعها الأول زلزلاً، خلخل حالة الإستنفاع السياسي والإجتماعي وحتى الثقافي في الوطن العربي، لكن إغاثات متعاقبة حصنت النظم والاتقراطيات من هذا الزلزال، وبالرغم من الإنحسار الذي أصاب «الظهير»، إلا أن الانتفاضة كدينامية كاشفة وفاضحة أسقطت جملة أو هام دفعة واحدة، وهم الشقيق الدود، والحليف غير المأمون والإركان إلى سلام أتكني من أمة حرب.

وأوشكت أيضاً على إسقاط الأبريات السياسية والإجتماعية وسائر ترويات الوصاية. ولعل هذا التهديد الذي اقترن بوجهها هو ما حذر الحائزين إلى استدعاء كل الاحتياطات لتدجينها، وتحويلها إلى مجرد جملة معترضة في كتاب العرب الإثنيالي، وفي قرن جديد من الفية، بدت منذ ميلادها مطبوعة للولايات المتحدة وضاحتها الإستيطانية شرق البحر المتوسط.

إن إنتفاضة «متلفزة» فهي محظوظة بمقياس ما بالنسبة إلى سابقتها، منذ عشرينات القرن الماضي. لكن «المتلفزة» أيضاً لها أضرارها وأخطارها الجانبية، فبدا الإعلان للحظة يقسم الجنازة على شاشه واحدة. وبدت الندوة بدلاً عن أمة مشاركة، وهكذا تحولت فروض العين إلى سلسلة لا نهائية من الإنابات والترميز، والإراحة من شر القتال !

وكان الترميز تحديداً في بعده الاقتصادي كالتبرع وتوأمه قد اختزل التراجميديا كلها إلى مجرد حادث سير كبير، أو نكبة طبيعية، وكان ألفلسطيني قد اندلع من القمم، وطفا على دمه من أجل الخبز أو إعادة بناء بيت منسوف.

إنها حرب استقلال، تعرضت إلى تحريف، وأصبحت الآن في حاجة إلى إعادة (تعريف) كي لا تفتسل الذاكرة الأثمة بحفنة دولارات، وتحقق التوازن الوهمي في لحظة أصبح الدم فيها يحدد منسوب كل شيء، أي أن أنتهي - رغم مراوحتي في البدايات - إلى أن الوجدان الأدبي خول الإنتفاضة إلى (عمدوح) جديد، فتشابهت المذاتح حتى الشحوب، وتغذت على الظاهرة ولم تُغذَّها، وفي غياب الجدل الحيوي بين المكتوب عنه والكاتب، تكون الحسارة محتمة للمكتوب عنه، لأنه يتعرض إلى تمييط، واختزال، وبالتالي لا يُقرأ من البحر كله إلا سطحه الأزرق المتعرج.

فالإنتفاضة مبنوثة في الأنساخ كلها، وعلى من يبحث عن موقع بجوارها، أو في مدى توهجها أن يعثر على إنتفاضته، لغة ورؤى، وأن يستغيث بها للتحرر من تراث المديح الذي تورطت به الثورات العربية كلها خلال نصف قرن !

وسيبقى السؤال مفتوحاً على آفاق لا آخر لها، تنبعث فيها الإنتفاضات كالعنقاوت وهو... أيهما الجز الآخر؟

أيهما سينجز الآخر، الوطن أم إنتفاضته؟

أم كلا الإثنين، سينجزان عربياً حُرّاً خطوته الأولى على هذه الأرض.. فلسطينية؟؟

## سأكون بين اللوز ...

حسين جميل برغوثي

بعد ثلاثين عاماً أعود إلى السكن في ريف رام الله، إلى «هذا الجمال الذي تمت خيانتته». نغيت نفسي، طوعاً، عن «بدايتي» فيه، واخترت المنفى، وأنا ممن يتقنون «البدايات»، وليس «النهايات»، وعودتي، بالتالي، «نهاية» غير متقنة.

كان القمر بديراً، والهواء صقيعاً في جنائن اللوز حول بيتنا وأنا انجول بين الظلال وأتأمل في هذه «النهاية». أرجعني إلى هنا مرضي بالسرطان، ووجع في أسفل الظهر مستمر إلى حد الملل. والليل، كما قال عنه كيركيغارد، «مرعب إلى حد لا يمكنني عنده أن أصفه إلا بالقول بأنه مرعب إلى درجة مملة». والمرض، عندي، وجهة نظر في الحياة.

لم يعد لي من مكان في كل هذه «الانتفاضة» إلا التردد، بشكل ممل أيضاً، على مستشفى رام الله، فهو الآن كعبتي أو حائط مبكاي الأخير. هناك متسع لي بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاثة حفظ الموتى تحت. أعني بآثني معاق تماماً، وأطوف على حافة الأحداث، في ضواحي الأشياء. مثلاً، في ممرات المستشفى الغربية، ممرات تسكنها كائنات بقبعات خضراء وأردية خضراء، خبيرة في «التشريح»، تمشي وراء عربات عليها مخدرون لم يفيقوا بعد، أو لن يفيقوا أبداً. وفي باب غرفة الطوارئ تندفق سيارات إسعاف عليها رسم هلال أحمر كالذي كنت أراه خلف الجبال، جرحى وشهداء، وأنا تأله أسأل عن دكتور أمراض الدم. فتد فرمضة متوترة: «نحن في حالة طوارئ، ألا ترى؟». فادرك أنني شخص زائد عن الحاجة، مريض متطفل يمشي نحو مصيره وحده، بهواجس فردية، لست «زائراً»، ولا «معافى»، ولا جريحاً ولا على وشك الشهادة، بل «مريضاً عادياً»، أي لفظة حائرة بين قاموسى الموتى والأحياء، بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاثة الموتى في الطابق السفلي. بماذا يشعر كائن قدره أن «يراقب»، ممنوع عليه «التدخل»، ويشم رائحة الأدوية، بدل الزعفران، بين طابقين؟.

هذا ما أرجعني إلى الريف، إلى جمال سبق وخنثته، رجعة غير محكمة الحبكة.

كنت أخطط للعودة من زمن. فزرت جبال طفولتي، ليلاً. كان القمر كاملاً، والصمت شاملاً، بين خرائب «دير» قديم ومهدم، في قمة جبل بعيد عن القرية. وقفت هناك أتأمل البدايات والنهايات. فجأة حدث شيء غريب فعلاً. سمعت صوتاً يشبه بالضبط بكاء طفل صغير، يأتي من جنائن التين والزيتون المقمرة، وقف شعر رأسي من الذهول، وحدثت في تفاصيل الظلال، والصخور البيضاء، ولم أر أحداً. بدا الصوت وكأنه يأتي من كائن لا يرى في هذا البر الواسع.

مشيت نحوه بحذر، خائفاً ومندهباً، فواصل بكاءه، ولكنه كان يبتعد كلما اقتربت. أسرعت ولم أصله. قطعت عدة جنائن وكان لم يزل بعيداً عني بنفس المسافة. رجعت من حيث أتيت، وقلت بأن هذه جبال بها شبه الجنون، أو مسكونة بالجن، أو مختلفة، ببساطة. ولكن الصوت لحق

بي، واقترب إلى حد محرج ومخيف. حملت عصا واتجهت إليه، وأنا لا أرى غير شجر قصير مقمر. كان في الحقل الأول، ولما وصلت بدا وكأنه يأتي من الثاني، واحترت تماماً. فكرت بأن هذا قد يكون «ضبعاً». ولكن ليس لضبع صوت بهذه الرقة، بهذا الحزن، والطغولية، والشعور الماورائي. على كل، قد يكون «ضبعاً». والضبع يخشى من النار، ويهاجم المنفردين مثلي، وقيل بأنه يرشق بوله على وجه الضحية كي يتخدر حسها بالأشياء. أخرجت علبه كبريت من جيبي، ورجعت نحو خرائب الدير، ووقفت هناك أفكر.

كانت أمني يتيمة، وعاشت زمناً ترقص وتغني في مواسم فلاحية للمنطقة. وتبناها عم لها يدعى «قدورة»، شيخ عملاق وصلب، كان يسكن مع أخيه، على ما اعتقد في هذا «الدير»، وكانا قاطعي طرق مسلحين، أيضاً. إن اختفت فرس أو بقرة قالوا إنها في «الدير الجواني»، ولم يجرؤ أحد على الذهاب إلى هناك.

في ذات ليلة كان راجعاً إلى الدير على ظهر حماره، ورجلاه تتارجحان فوق الطريق المقمرة، فلقت قدمه اليمنى أفعى «زعراء» (قصيرة وملونة وسامة جداً). نزل، وقفز قفزات متوالية قبل أن تغلت قدمه من نابها، ووصل الدير منهكاً، ومات هنا، حيث أقف، ربما. كانت أمني تقسم لي، وأنا طفل، أنها رأت نفس الأفعى «الزعراء» تطير فوق الجبال المقمرة وتزغرد لأنها قتلتها. مرة قالت بأنها أفعى لها قرنا ثور هرم، ويتحرك العشب اليباس من زفيرها، وتدعى «أفعى القصب».

خطرت ببالي «ذاكرة المكان» هذه، وأنا واقف فوق الخرائب. غرباً في قمة جبل منطى بغابات صنوبر وسرو وبلوط، تشع أضواء النيون من مستعمرة إسرائيلية تدعى «حلميش»، عندهم، و«مستعمرة النبي صالح»، عندنا. أضواء باردة، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة. وبدت المستعمرة معلقة في الفضاء، ربما بسبب الضوء أيضاً، ولم تلمس الأرض، ولا التاريخ، بعد.

ماذا يرى مستعمر جاء من روسيا أو استونيا، ربما، قبل سنة فقط، حين يفتح الآن شبابه، ويحدق في نفس هذه الجبال التي أنا فيها؟ ماذا يرى، أو يدرك من هذه الجبال التي تسمع في تاريخها وتبزع منه؟ لن يرى، حتماً، الأفعى الملونة التي تطير وتزغرد فوق الخرائب، ولن يسمع هذا الصوت الذي يبكي، ولا هذا السر الذي يجعل حتى مصابا بالسرطان يمشي فيها في الواحدة ليلاً لن يلمس التاريخ، ولو كان عرافاً، ليس تاريخي أنا، على الأقل، ولو كان إلهاً.

وأنا واقف فوق الخرائب تلك، شعرت بفرق شاسع بين نوعين من «الضوء»: القمر والنيون في المستعمرة. كان الأخير مرتباً، ومهيئاً، حاد البياض، منتشرًا حتى وراء الأسلاك الشائكة التي تعزل كل مستوطنة عن محيطها، أشبه ما يكون بـ «رؤيا مسلحة»، باحتلال بصري، ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلحة ومضاءة بالنيون. وبدت المستعمرة كلها كتاباً في النفس أيضاً: في العلاقة بين «القوة» و «الضوء»! لم يدرس أحد، بعد، العلاقة بين القوة والضوء.

وبدلي بآبائي أرى «ذاكرتين» معاً: ذاكرة الأفاعي التي تزغرد وهي تطير، وذاكرة من رؤى وأساطير مسلحة تحمل بإعادة الأفاعي. (أو لم يقل إسحق شامير، رئيس وزراء إسرائيل السابق، في الانتفاضة السابقة، بأن العرب «أفاع»؟). وبين الذاكرتين، ذاكرة الضحية وجلادها، ما يشبه الوادي، أو «الهوة»

صدع عميق ما، وأنا واقف على شفير هذا الصدع اللامرئي. هل يمكن لهذا الصوت الغريب الذي يشبه بكاء طفل صغير في هذا البر المظلم أن يكون قادماً من أعماق الصدع؟  
لما رجعت إلى بيتنا سألت خالاً لي، أكبر سنّاً مني، وذاكرة، عن الصوت قال: «هذا صوت حيوان صغير يدعى الـ «غريريا». كانوا قديماً يطاردونه بكلاب الصيد والبنادق، ولحمه لذيق، والآن انقرض تماماً. ربما أنك سمعت صوت آخر غريريا في هذه الجبال!». قلت لأنفسي: لا، رأيت غريريات أخرى كثيرة في مستشفى رام الله، كن يلدن ويولدن في الطابق العلوي، فوق، أو يحفظن في ثلاجة الموتى، تحت، لكن رأيتهن...

رام الله

## أقواس الإنتفاضة خارج الأقواس

أحمد دحبور

تقتاضك الإنتفاضة من يد روحك، وتمضي بك لا إلى فردوس الطمانينة، بل ربما إلى النقيض. فانت إزاء هذا الفعل الإنساني الجبار، حائرٌ على غير مستوى. ثمّة دمٌ يُراق ولا تملك غير الحبر، وما من حبر يرفى إلى منصّة الدم. وحتى حين يمور الدم في جسدك باحثاً عن مخرج، فإِنَّك حينئذٍ فدائي لا شاعر. وليس معنى هذا أن الفداء ينافي الثقافة، أو أن الثقافة متعالية على الميدان، ولكن لا بد من تفادي خلط الأوراق، فلا يمكن للممارسة أن تتحوّل إلى حكم قيمة أدبي، مع أن الحبر عرضة لاختبار دائم – لقد خلصنا من ترف الكتابة للكتابة وهي ذي الإنتفاضة، بوجهها وضرائها اليومية، تعيد إنتاج السؤال التقليدي عن جدوى الكتابة، وإذا كان السؤال قاسياً أو عصياً على الجواب، فلنبحث عن صيغة ثانية: «هل من عزاء في الكتابة؟» ويرسلك هذا السؤال إلى مستوى آخر من المشكلة، يتصل هذه المرة بكيونة المثقف المتورط بوجوده في زمنٍ ملتهب: «هل قدرك أن تلبس هذا اللبوس الماموشي، مقرعاً حيزك الفيزيائي المحدود، بدعوى عدم صعبه إلى لحظة الإشتباك؟»... وحين يدخل المثقف العضوي – مع الاعتذار من غرامشي – على الخط، فإنك في مستوى ثالث من الحيرة: كيف أمارس كمثقف وكيف أكتب كمحارب؟ وفي كلتا الحالتين: ألسنتُ مثقلاً بأسلتي الوجودية، أنا المفرد في فضاء محذوف؟ فكيف أتحوّل إلى خليط فعال في نسيج الجماعة؟ ولك أن تعتبر، في طرفة يأس أو ضجر، أن ما سبق ليس إلا دليلاً لغويّاً، وأنّ عليك أن تعود إلى سؤال الأسئلة عن دورك،

مثقفاً في هذه الملحمة. وساعتها لا مناص من مستوى جديد يدعم حيرتك الأولى، هو أن الانتفاضة هي نشيد الجماعة ومرآتها، وليس الفرد إلا نبرة في إيقاعها الجمعي المتكاثر. بهذا لن تكون ذاتك إلا بالحد الذي تسمح به الانتفاضة، فهي تهدد شخص الثقافة بالتنميط. وحين تنأى عن الإمتثال للثقافة السائدة، فمعنى ذلك أنك اخترت الغربة - أمغرب ومثقف ثوري في آن؟ كيف تلثم المعادلة؟

## ١

على أن حرارة الجو تعفيك من التفلسف، وتضعك في عين العاصفة مباشرة. وللجو أن يشتعل حتى ولسعة البرد الخريفية تمسّ منك العصب. وبين أن تنشغل ببرد زاحف وحرارة موقف محتدم، تنسى دور المثقف أو تتذكر أن المثقف لا يملك دماً أزرق. إنه في المحنة كالآخرين فماذا عن الآخرين الآن؟ سأقطع فقرة من مادة تشبه اليوميات، فلعلّ «الآخرين» عايشوا تلك الليلة كما فعلت: اسجل هذه الكلمات في الدقيقة العاشرة بعد السادسة من مساء الإثنين الموافق ٢٠/١٠/٢٠٠٠ من غرة. لقد قطعت ما بدأت به أعلاه. لسبب بسيط: إنقطعت الكهرباء وبدأ القصف. من أين؟ إلى أين؟ كل ما أعرفه الآن أن القصف جوي وبحري. صوت الطائرات يملأ المكان، ووسط الظلمة تلوح من البحر أضواء حمراء تطلقها الزوارق الحربية، ولا أنسى أكتب من غير تدبير مسبق، ومن غير أفكار مرتبة، فإنني أسجل كل ما يخطر لي أولاً بأول. مثلاً: هذه أول مرة أتعرض للخطر وأنا في بيتي الشخصي. فقد كانت المخاطر تحول معي وتنقل، كما حدث لآلاف الفلسطينيين من أبناء جبلي: من عثمان ١٩٧٠، إلى جنوب لبنان ١٩٧١، إلى درعا - جنوب سورية عام ١٩٧٢.

ويجب ألا تفوتني الفترة التي عملتُ فيها مراسلاً ميدانياً في غور الأردن الشمالي بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠. كان للطائرات خير خبيث، أشبه بهذا الذي أسمعه الآن.

لحظة، ثمة دوي كبير، إنفجار آخر، لعلّ القصف قريب جداً. الكهرباء مقطوعة فلا تلفزيون بالتالي ولا ادري أين يوجد الراديو؟ وأكتشف المفارقة: فحين تتعرض للخطر بعيداً عن أهلِكَ تكون مشكلتك بحجمك، أما حين يأتيك الخطر إلى البيت فانت مسؤولٌ أمام حيرتك... وعجزك وغضبك. ما علينا؟ ها هي أصوات أطفال البناية تصلني إلى هنا: الله أكبر...

ياها الله أكبر... كنّا أطفالاً عندما سمعنا هذا النشيد أول مرة، يا هذه الدنيا أطلّي واسمعي، جيش الاعادي جاء يبني مصرعي. واندكر ذلك النص المثير للمحامي الفرنسي جاك فرجيس الذي دافع عن الاسير الفلسطيني الأول محمود بكر حجازي. لقد سأل: علي من تعتمد؟ إن الجيش الذي تحاربونه هو أقوى جيش في المنطقة: فقال له محمود: نعتمد على الله... ويقول جاك فرجيس: «لقد ارتجفت عندما سمعتُ تلك الكلمة.. الله.. إنها الكلمة التي سمعتها أيضاً من ثوار الجزائر».. ولكنني لا أتوقع الآن تدخلاً من الله وبطبيعة الحال، استبعد إحتمال أي تدخل عربي رسمي.

لا اتحدث عن البطولة ولا أعرف ما سيحدث بعد دقائق. لكنني أقرّر حتى هذه اللحظة أنني لن أغادر. لقد غادرنا كثيراً، ولجنا كثيراً، وهذا أول سقف يغطي رأسي ويكون لي. صحيح أنني لم أسد أقساط بيتي، ولكنّه لي. لن أتركه، فقد بكى أبي بما يكفي وكان يقول: «ليتنى سمعتُ جارنا

الخلّاق «أبي جورج» وهو ينصح ألا أغادر حيفا». ولن أغادر إلا إلى حيفا.. لا يوجد عندي زيتون ليصفه الجنرال. ولكن أمام بيتي بحيرة سمك. يجب أن يقصفوها، لم ؟؟ اليس السمك – مثل الزيتون – من أعداء السلام؟

## ٢

(اكتشف العلماء أن المخلوقات الحيّة جميعها تغيّرت منذ أن وُجدت على وجه الأرض حتى اليوم إلا العقرب. فقد وجدت متحجّرات من العقرب منذ مئات آلاف السنين تدلّ على أنّ العقرب بقيت على صورتها الأولى التي وجدت عليها).. ليس هذا فصلاً من بحث في علم الأحياء، ولكنني ورثتُ عن أبي المسحر في رمضان تقليداً شعبياً، هو إقتناء مفكرة يومية، فاقتطع كل يوم ورقة منها تدلّ على التاريخ بالتقويمين الميلادي والهجري، وأقرأ، على ظهرها، حكمة أو مأثورة أو معلومة. ويوم الإثنين الموافق ٢٣ / ١٠ / ٢٠٠٠، المتوافق مع ٢٥ رجب للعام ١٤٢١ الهجري، قرأت في تلك الورقة، هذه المعلومة عن العقرب..

وفي ذلك الإثنين، كنتُ عائداً من عملي إلى البيت، فبشّرنتي زوجتي بأنّ الجنرال أصدر أوامره بإغلاق المطار الفلسطيني في رفح، وردّاً على النار بالمثل، بشّرتها بأنّ الجنرال المذكور أمر بوضع حاجز بين غزة وخانيونس، ففصل بذلك قطاع غزة بعضه عن بعضه الآخر... تماماً كما فعل في الضفة... أما الشخص الذي إسمه يفتال كرمون كما يسمى معهد أبحاث صحافة الشرق الأوسط، فقد ظهرت صورته، على عينك يا عربي، في إحدى القنوات الفضائية العربية. وكان كصهيوني شديد التهذيب يسخر من رغبة الشعب الفلسطيني في الإستقلال، ويتهمك على دماء الشهداء قائلاً: «إنّ الفلسطينيين يريدون صنع الإستقلال بدم أطفالهم الذين يضطر الجنود إلى إطلاق النار عليهم... كونوا مكان الجندي الذي يتعرّض للحجارة، ماذا يفعل؟» ثمّ أعلن يفتال كرمون حزنه الصهيوني كاملاً غير منقوص على الشهيد محمد الدرة، موضحاً بموضوعة صهيونية أكاديمية أنّ التحقيق لم يثبت أنّ الطفل الدرة تعرّض لرصاص الجنود... وبشيء من الحسبة المنطقية الصهيونية، وإذا كان الجنود لم يقتلوه، فإنّ الفلسطينيين هم الذين أطلقوا النار... ومن يدري، فلعلّ الخبر في أبحاث صحافة الشرق الأوسط الصهيوني سيعلم قريباً أنّ والد محمد الدرة هو القاتل؟؟

وأمدّ نظري إلى صفحة اليوم – أحصى متاعب النهار وآلاء الإنتفاضة، فيكون قد مرّ بنا الكثير. وعلى طريقة العرب في التعبير أقول «على سبيل المثال لا الحصر»... فيكون أمامي هذا المثال: هذا رجل طيّب، وجهه يطفح نبلاً وتعاظفاً... فضولاً. إنه صحفي أولاً وأخيراً، مهنته البحث عن الحقيقة فهو يسأل. ولهذا فإنّ العتب مرفوع ما دام السؤال لا يعني وجهة نظر مسبقة. قدّم نفسه بآته بلجيكي. فضحكت معقياً: «ونحن بلجيكي أيضاً...»، إلتسم وظنّ أنّ ثمة خطأ في الترجمة، فأكدت له أنّ الفلسطينيّين، في أحد الأقطار العربية، يُطلق عليهم إسم البلجيكي، لا إنتقاصاً من شعب بلجيكا، بل ليُقال إنّ الفلسطينيّ غريب عن العرب كالبليجيكي، إلا أنّ هذا موضوع آخر. وكان السؤال الأوّل هو: «ما تعقيبك على راديو باراك الذي يقول إنكم ترسلون أولادكم إلى الموت

وتختبئون في البيوت؟» .

مساء ذلك اليوم، صرّحت ملكة السويد بأنّها تنتقد الفلسطينيين الذين لا يرجعون أبناءهم، فهم يزوجونهم في الحرب، مع أنّهم أطفالٌ صغار، وكان بإمكان الفلسطينيين أن يلفتوا أنظار العالم إلى قضيتهم بأسلوب غير هذا، وإنّ عليهم أن يراعوا حقوق الإنسان ..

في يوم واحد يُعاد إنتاج السؤال ثلاث مرّات، وبنوايا مختلفة، لكن مصدر البرابجندا واحد، والرواية واحدة : إنّ الفلسطينيين يرسلون أبناءهم إلى الموت .. وبالتالي فهم المسؤولون عن موت أبنائهم. ولو بذل العقل ( شرط أن يكون عقلاً ) جهداً بسيطاً في مشاركة الضمير ( شرط أن يكون ضميراً ) لمشاهدة التلفزيون ( اللهم إلا من فضائية السي إن إن ) لرأى ما تراه البشرية في القارات الخمس : شباب فلسطين ينادون بالإستقلال، فيردّ عليهم الجنود بالرصاص الحيّ الموجه إلى الرؤوس والقلوب أساساً، وإذا كان الجنود يسجلون رقماً قياسياً في قتل الأطفال، فإنّ عدداً لا يستهان به من الشهداء، تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين. لقد نجح الرصاص الصهيوني في تحقيق عدالة الأعمار : لقد قتل الرضيع، وتلميذ المدرسة، وربة البيت، وطالب الجامعة، وأبا الأطفال الخمسة .. وكان الجميع في الشوارع يرفعون الهتاف، ويضعون الشهداء على الاكتاف، فيندلع الرصاص من غير تمييز أو رحمة ..

ناشدت الصحفي البلجيكي أن ينزل إلى الشارع، بكاميرا ومن غير كاميرا، فالمهم أن يشاهد ويشهد وأتاني شاحياً، بل إنّه أجهد بالبكاء، ثم لم يلبث أن اجتاحت نوبة من الغثيان والدوار .. واما ملكة بلاد نوبل، فرجاؤنا عندها أن تفتح التلفزيون على نشرة الأنباء .. ولأننا نؤمن بحسّها الإنساني نناشدها ألا تامر - مع أنّها تملك ولا تحكم - بإلغاء تلك المناظر المرعبة، وإنّ كنا نتضامن مع رغبتنا لو وجهت نصيحة إلى الآباء والأمّهات السويديين والسويديات بأنّ يحجبوا ويحجب تلك المناظر عن الأطفال، حتى لا تحلّ السوداوية محلّ الجنسية السويديّة ...

وبالعودة إلى الأكاديمي الصهيوني أدون كرمون، تنقطع أسباب الحوار الذي لم يدر لحظة واحدة، إنّه في بيتي وهذا هو الامر الحقيقي بشأنه. ولهذا فإنّ من حقّه أن يبكي على جنود جيشه الذين يتعرضون للعنف من دفاتر تلاميذ المدارس، ومن أشجار الزيتون المحترقة، ومن الأمّهات الثكالي، ومن الأطفال المفزوعين .. ومن صورههم على شاشات التلفزيون وهم يقتلون أطفالنا فيستبيون الرعب لأطفالهم هم .. طويلاً تأملت ملامح السيد كرمون، وتمنّعت في دقة تعبيره وهو يتكلّم اللغة العربية. ترى هل يعرف معنى كلمة عقرب؟

### ٣

كان صوت السيّد المسيح يتدحرج من ليلة الليالي تلك إلى أيّامنا السوداء هذه : « أعني .. أعني .. أنا محمد درة فكان يقول : « إرحمني يا أبي » وكان الفتى المصري أحمد محمد شعراوي يطلق صرخة على طريقته. فقد هزّنا لانه اهتزّ .. أفزعه ما جرى لمحمد الدرة، وبقيت صورة الطفل الشهيد تلاحقه أثناء النوم، وفي المدرسة، وعلى مائدة الطعام .. وكان يعزّز على الفتى المصري أن يرى أباه

يبكي عاجزاً عن تقديم شيء لأيّ محمد درّة يموت على الهواء مباشرة، أو في صمتٍ التعتيم : مات الولد مات مات .. من؟ وكيف؟ ولماذا؟

ولم يدم أحمد محمد شعراوي تلك الليلة .. كانت فلسطين تنادي، ولم يكن يحلم بشجيع السينما أو فتوة الحارة، بل كان يسأل نفسه عمّا يمكن أن يقدم لفلسطين. وهكذا اختفى أحمد من البيت في اليوم التالي. ظنّ الأب والأم، في البداية، أنّه يدرس عند أصدقائه، ثمّ واسب أحدهما الآخر بأنّ من حقّ إبنهما المجتهد بعض اللّعب، لكنّ الليل إنقضّى ولم يظهر أحمد ..  
أما هو فكان تلميذاً شاطرأ في الجغرافيا، وفي الدروس كلّها، والجغرافيا تقول إنّ هناك بلدين لهما اسم واحد : رفح، وإنّ أحدهما مصريّة والثانية فلسطينيّة، فهما متجاورتان .. وعلى هذا فإنّهما تشكّلان منطقة الحدود .. وحتى يصل إلى رفح المصريّة ثمّ الفلسطينية، فإنّ عليه أن يعبر صحراء سيناء، وهو يعلم بطبيعة الحال أنّ مدينة العريش هي عروس سيناء .. ولكن كيف الوصول إليها؟ ..  
ذات يوم، حين تنعم بلاذخا بالسلام والطمانينة، سيظهر مذيّع فلسطيني على شاشة التلفزيون الوطني الفلسطيني في عاصمة فلسطين الأبدية، القدس .. وسيروي حكاية الولد المصري الشجاع أحمد محمد شعراوي .. ولأنّني في لهفة إلى تلك النشرة، فإنّني آمل ألا يكون هذا الولد قد أصبح عجوزاً وهو يروي وقائع رحلته المثيرة من حيّ الحلميّة في القاهرة، إلى الإسكندريّة، إلى الإسماعيلية، إلى القنطرة، إلى العريش، إلى رفح .. على أمل أن يدخل فلسطين. لقد أعيد أحمد إلى والديه. كانت الأم تحضنه وتبكي. كانت تكابر حتى لا يظهر الفزع في وجهها، فهي، مثل أيّ أم، تخاف على طفلها ... مع عدم الاعتذار من ملكة السويد ..

#### ٤

في مسرحيته التاريخية « هنري السادس »، يقدم شكسبير شخصيّة فتاة في مقتبل العمر، ويركّز على أنّ اسمها جان لا بوسل، ويحرص على ألا يناديها عدوّ أو صديق إلا بهذا الاسم. وهذه الفتاة الفرنسيّة تتمكّن - كما هو مثبت في التاريخ - من إنزال ضربات مؤلمة في الجيش الإنكليزي، حتى أنّها تذلل اللورد تالبوت، فارس الإنكليز الشجاع. وما كان لسيّد المسرح على إمتداد العصور، ولهم شكسبير، إلا أن يعترف ببطولة هذه الفتاة، وينقل على لسانها أنّها تشارك في جهاد بلادها بوحية من السماء. لكنّها حين تقع أسيرة في يد الإنكليز، تكشف عن وجه آخر أرادها لها المؤلّف الإنكليزي، ولم تشبه وقائع التاريخ حتى في أقلّ النصوص أمانة، وهي أنّها تمتجّر بالسحرة والشياطين والأرواح الشريرة صارخة :

العون آتيتها الرقي الساحرة والتعاويذ  
وأنت آتيتها الصفوف من الأرواح  
إظهري وإعيني على هذه المهمة  
لقد دبّ الضعف في تعاويذي القديمة

وعندها تندخل الشياطين من غير أن تستطيع أن تقدم جان لا بوسل أي نفع، وحين تقترب النار منها - لأن الإنكليز يحرقونها - تتراجع في ادعائها، فهي ليست عذراء طاهرة كما كانت تقول، بل إن في أحشائها جنيناً تنسبه إلى غير أب، ولكن من غير جدوى ..

بقي أن نذكر أن شكسبير كتب هذه المسرحية عام ١٥٩٢، أي في نهاية القرن الذي شهد تلك الوقائع الحقيقية التاريخية. والأهم من ذلك أن شاعر الإنكليز الأكبر هذا، لم يكتب هذه المسرحية تلقائياً، بل كان يأخذ بالاعتبار إرادة القصر الملكي.

... ولكن هل انتصر شكسبير العظيم - ووراء الملكة اليزابيث المعظمة - على الفتاة الفرنسية جان لا بوسل؟ دعونا نسال مكر التاريخ ..

لم يبق من اللورد تالبوت، إلا ما يمكن أن يحفظه تلميذ إنكليزي نجيب من درس التاريخ، أما ما بقي من الفتاة التي إسمها جان لا بوسل فهو كثير .. بقي منها أنها ليست في الحقيقة، إلا بطلا فرنسا وقتلها جان دارك ...

وحين تهزم الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً أعظم صوت أدبي أوروبي في العصر الوسيط، فمعنى ذلك أن ثمة خللاً في قدرات هذا الصوت الجبار حتى لو كان شكسبير بجلالة قدره. ولهذا يبدو طبيعياً ما تقوم به الآلة الإعلامية الصهيونية الجبارة. دباباتهم تطحن عظام الأطفال، وإذاعتهم تسرق خطاب الضحية .. فنحن المعتدون. وزيوتنا آثم، وبرتقالنا شرير، أما نخيلنا فيكفي أنه عربي .. يا للنخيل الغنوييم! على أن قوة السر لا تكمن في القوة المجردة للحق المجرد من القوة. بل في هذا التيار الذي لا يمكن القبض عليه باليد. بهذا الذي قاربه محمود درويش، وهو بعد فتى، بالريح التي لا تجرحها ضربة سيف. كانت جان لا بوسل - ومنذ الآن ستعيد لها إسمها : جان دارك - تحارب وفي قلبها فرنسا. وهذا ما يفعله الشاب الذي يقذف الحجر وفي نبضه إيقاع فلسطين. كان هناك شكسبير شاعر البناء. ويوجد الآن أقمار وتلفزيونات وصحف وقوى ضغط .. بحيث يمكن التشويش على الشاشة، ووضع النجم السداسي على رأس محمد الدرة وكأنه طفل يهودي قتله الأغيار ... لكن هذه الغول الإعلامية لم تستطع أن تمسح عبارة مكتوبة بالاحمر القاني على الجدار الذي أوى إليه محمد وجمال الدرة، واستغرب كيف لم ينتبه الكثيرون لتلك العبارة التي قالها جمال عبد الناصر قبل ثلاث وثلاثين سنة من تلك اللحظة : ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة .. ثلاث وثلاثون سنة .. إنه عمر المسيح على الأرض، والمسيح إبن بلادنا .. وعلى هذا فلا نطلب العون من الرقي والتعاويز. بل من هذه الأرض.

لقد منحت الانتفاضة، في العقد الأخير من القرن العشرين، لغات العالم كلمة جديدة ودخلت كلمة الانتفاضة بحرف الضاد على مختلف اللسان، ثم أنها منحت شاشات تلفزيونات عام الألفين،

عدداً من الصور التذكارية الخالدة : الطفل محمّد الدرة يستشهد في حضن أبيه، الطفل فارس عودة يلتحم بالدبابة العملاقة ويرجمها بالحجر، الولد السبع شادي أبو دقة يتسلق السارية، تحت مطر من الرصاص فيلتي بالعلم ذي النجم السداسي إلى الجحيم، فيما يتصنّز المشهد ولد - سبع آخر، يرفع العلم الفلسطيني هناك، مكان العلم العدو...

صورٌ تتناسل من صور. ودم يرث الدم. أمّا علم فلسطين فهو علم الثورة العربية الكبرى الذي قلبته النكبة فجعلت اللون الأسود في الأعلى، حداً أو عموماً في وجه زمن المظالم هذا، وانزاح المثلث الأحمر ليحتلّ الركن الأيسر... فهو من العلم محل القلب من الجسد الإنساني، لكن اليد على القلب لا لتجرسه، بل لتعبر عن الحياة والأسف، لأنني أبحث عن علمٍ بلادي، في مواعيد الشهداء، فأخشي ألا أراه بالهواء الذي له، وأحذق إلى المركب ثانية : لن يندم شادي أبو دقة لأنه جازف بعمره الطري مقابل إسقاط العلم السداسي وإطلاق علم الثورة العربية الكبرى. مع أن ما يحدث.. مع الأسف.. هو هذا الذي يحدث. نتأمل المسيرات وجنازات الشهداء، فماذا نرى؟ ثمة رايات حزينة : رايات خضراء وحمرات ومزركشة. رايات تتدافع وتتسابق... هي راياتنا على أي حال، وقد سقط في ظلّها مئات الشهداء وآلاف الجرحى، ولكن أين علم فلسطين؟

دعونا للمناسبة نتذكّر واقعة الأليمة : عندما استشهد غسان كنفاني في الثامن من تموز عام ١٩٧٢، كانت تمرّ بنا الذكرى الأولى لأبي علي إِياد الذي استشهد في الثالث من تموز ١٩٧١. واجتهد القائمون على مجلة «فلسطين الثورة» يومها. فوضعوا صورة الشهيد أبي علي إِياد على واجهة غلاف المجلة، فيما تركوا صورة صغيرة في خلفية المشهد للشهيد غسان كنفاني الذي لم يكن دمه قد جفّ بعد. وكان رئيس تحرير «فلسطين الثورة» كما هو معروف، هو الشهيد كمال ناصر الذي ما إن رأى الغلاف حتى جنّ جنونه، وجمع المحرّرين ليلقي عليهم خطبة حقيقيّة نارية، مزجراً : « منذ متى كان الفلسطينيون يتبارزون بأسماء الشهداء؟ وهل الجبهة الشعبية وحدها هي التي فجعت بالشهيد غسان كنفاني أم فلسطين كلّها والأمة العربية جمعاء؟ وهل كان الشهيد أبو علي إِياد ليرضى عن ذلك الغلاف المتحرّز الذي يسيء لجوهر رسالة فلسطين الثورة... واعتذر يومها المسؤولون عن تلك الفعلة، واستدركوا الأمر في العدد اللاحق من المجلة..

وما دمنّا قد شرعنا بتلخيص الذّاكرة - وهو، بالمناسبة، تعبير يحبه الأخ أبو عمار - فلنأخذ الدّرس من إسم المجلة «فلسطين الثورة» نفسها...

فقد كان إسم المجلة، كما هو معروف، مؤلفاً من كلمة واحدة : «فتح»، وكانت جريدة «فتح» قد حظيت من القيادة الفلسطينية مجتمعة يومذاك، بأن تكون هي الجهة الإعلامية الوحيدة، الناطقة بإسم الفصائل جميعاً، بإسم منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يلبث الشهيدان الكمالان ناصر وعدوان أن اتفقا على إنطلاقة الإعلام الفلسطيني الموحد. وذلك صيف ١٩٧٢، وإلغاء الأسماء والعناوين ذات الإشارات التنظيمية، فتحولت «وكالة فتح للأنباء» إلى وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» وأصبحت «إذاعة العاصفة» هي «صوت فلسطين، صوت الثورة الفلسطينية»، وحلّت محلّ جريدة «فتح» مجلة «فلسطين الثورة».. هكذا انضويّنا جميعاً تحت الراية الأعلى، راية فلسطين..

والآن، بعد ملحمة الصمود في لبنان ١٩٨٢، وبعد الإنتفاضة المعجزة التي فرضت إسمها على لغات العالم، وفي ذروة الإنتفاضة المتجددة، نجد من ينسلّ وهو لا يدري أنه، بهذه النسبة أو تلك، يستعد عن علم الاعلام. فتحلّ القبليّة الحزبية محل الوطن، والراية الفتوية محلّ علم فلسطين... وعلى غير سعادة أو إحتفال بذكرة عنيدة، أذهب إلى عام ١٩٧١، عندما كتب المثقف الفرنسي جيرار شاليان كتاباً نوعياً عن الفدائيين الفلسطينيين : صدقهم وفعاليتهم. فسأله صحفيّان من بلاده عن نقطة ضعف هؤلاء الفدائيين، فقال : إنهم شجعان.. ولكن تنقصهم روح الفريق، روح الجماعة... ولقد ظننت ما يجب ألا يكون ظناً، بل هو جمره يقين، أن معمودة الماء والتار قد أعادتنا خلقاً آخر، وأبطلت نظريّة شاليان : لكنني حين أرى المتسابقين إلى رفع راياتهم مكان علم فلسطين، انتكس، ولا يسندني إلا الولد السبع شادي أبو دقة.

## ٦

### الإثنين ٢٧ / ١١ / ٢٠٠٠ - الموافق الأول من رمضان ١٤٢١

يتسلسل رمضان كماءٍ التبع للعتيق فترتوي الذاكرة من عطش الصيام، وقد ترك التاريخ علامتين من الشهر الفضيل. ففيه بداية القرآن، وبداية القرآن : اقرأ.. ومن حروف القراءة والكتابة يتشكل وعينا بالوجود والغيب - وفيه أول إنتصار عسكري للإسلام، وأول إنتصار هو بدر، والبدر ذروة القمر، ورمضان ذروة التقويم القمري...

على أننا إذا أخذنا هاتين العلامتين للزّرع في حديقة الزّرع، فإن رمضان الحديث له في أرواحنا وأجسادنا ذكريات وذكرىات...

حين عشتُ جرّ المجازر، لأول مرة، قبل ثلاثين سنة، كان الوقت رمضان، ولقد رأيت بعيني يومها ذلك الرّجل الذي كان يحمل سطل الماء، ليبل ريق الأسرة في الإفطار، لكن الرصاصة عاجلته فائكا على ناصية الدّرج، هناك في وسط المدينة وكان الدم ينزّ من جسده قطرة قطرة على ماء السّطل. مسكين ذلك الماء، لن يشربه أحد، ولن يربّط جوف الصائم... وحين وقعت حرب ١٩٧٣، كان التاريخ القمري يشير إلى العاشر من رمضان، وهي ذكرى بدر أيضاً، ومنها على سبيل الدّفعة والمثال، صورة جابرنا محمد زيدان، ذلك الشاب الطيراوي الوسيم، وكنيته أبو الفهد، وكان أخوه فؤاد أبو العميرين قد استشهد قبل بضعة أشهر على طريق البادية المؤدية إلى العراق.. أنا أبو الفهد، فقد هرع، في دمشق، إلى جهة أركان الجيش، حيث كانت طائرة الميراج تمخر الفضاء كأنها تنتظره.. ولست أدري كيف استدلّ أهله على أشلائه...

وحين اجتاحت جيش بيغن وشارون، بالسّلاح الأمريكي الحديث، مدن لبنان وقراه وعاصمته واستمرّ الإجتياح والحصار ثلاثة أشهر، مرّ شهر رمضان في المشهد. لم يحتفل الأطفال بمدفع الإفطار، لكنهم عاشوا على دويّ مدافع من نوع آخر، وأرسل البحر شواطئ الحمم والقذائف. ودلفت السماء صواريخ وقنابل، أما الأرض فاخرجت بعض أثقالها، ولكن الحكام العرب لم يقولوا : مالها؟ وكان على

الفلسطيني والوطني اللبناني أن يتعمد في وحدة الدم، فكان صياهما مقبولا، حتى وإن طالبنا بمياه الشرب التي كان المندوب الأمريكي فيليب حبيب يضمن بها إلا بشروط...  
واندلعت الإنتفاضة الفلسطينية الكبرى أواخر عام ١٩٨٧ واستمرت إلى ربيع ١٩٩٣، فمر رمضان بها ست مرات. كان الحجر ينطق، والريح تشهق، والتاريخ يحار في الملحمة التي تتشكل بين يديه، وكان العجز العربي الرسمي هو الفاكهة الدائمة لشعب تعود أن يتجرع العقلم... ويتقدم. وها هي إنتفاضة الأقصى تدخل حسابات المنطق، والشهداء يسجلون الأرقام القياسية، فتجتمع قمة خجلي كان مقدراً لها أن تتأخر بضعة أشهر، لولا إنفجار الشارع العربي هذه المرة، فكان لا بد من تنفيس هذا الشارع، وظل الحجر يقابل الطائرة والدبابة والمدفع والطراد البحري. ويطل رمضان على حصار جديد ترقه جرافات تقتلع الزيتون والبرتقال والنخيل من الجذور. لكن الفلسطينيين الصائمين والمؤيدين شعائر الإيمان على مختلف طرائقهم، يواصلون الصمود، وقد يعزيهم كل مساء أن يذهب الظما وتبتل العروق... وثبت الأجر إن شاء الله. لكن المفارقة لها حصة في الموضوع. لأن الجنرال يريد حصة من هذا الأجر؟ فقد حاول أن يجزّ رمضان بجنائز الدبابة، قبل موعده القمري. إن الحصار الذي يشمل المواد الغذائية جاء قبل رمضان. وكأته إقتراح بصيام مبكر. المواد تشع في الأسواق، والمدن الفلسطينية مقطعة الأوصال، فلن ينعم الغزاي بلبن الجنيدى الخليلى مثلاً، ولا بموز أريحا... ومع ذلك فللفلسطيني أن يهندس يومه ورمضانه على مقاس الحصار. ويأتي رمضان في موعده وما لا يسر الجنرال، أن العيد قادم بالتأكيد بعد شهر الصوم الفضيل...

## ٧

السبت ١٢/٩/٢٠٠٠

فجأة يقدم الجنرال إستقالته. رد الفعل الأول: لقد هزمته الإنتفاضة بحجارة فلسطين وليست القنيطرة إلا رموزاً من لحم ودم وتاريخ. لقد كان من شأن أهل البلاغة أن يقولوا: إنتصر الدم على السيف؛ خسبناه ستقول آلة الجنرال إله استقال بهدف إدارة معركته السياسية الداخلية على طريقته. ولسنا في وارد المناكفة، فليكن... ولكن ما كان حقاً، هو أن الجنرال، نحني لو استقال بدوافع إنتخابية، فإنه ما كان ليركب هذا المركب الحشن المعقد، لو لم تلجئه إلى ذلك هذه الإنتفاضة. وقد يتساءل المراقب عما كان سيفعل الجنرال في هذه اللوحة: الرصاص الحي موجّه إلى الرؤوس والقلوب. غول الدعاوة والإعلان تحلّ شاشات الدنيا وصحفها وشوارعها. اللبن أسود، والفحم أبيض.

ولقد تمنى الجنرال غضباً وعصافير - بلا أجنحة... قال الفلسطيني العتيق: رتبوني وأعرف أهلي. الإنتفاضة في الجليل والمثلث أيضاً... وفي التقب تمور نار الغضب. هل يملك الجنرال إلا أن يقتل؟ ثلاثة عشر شهيداً يليهم ومشروع لحاكمة الشخصيات الوطنية. عرب الخط الأخضر يتميزون بالعقور. أخضر أو أصفر أو أزرق أو ما شاء الجنرال من الألوان. لكنهم عرب فلسطينيون وقد ظلوا كذلك. ألم يكونوا هكذا يوم الإنتفاضة الأولى؟ فماذا يفعل الجنرال؟

سيدكر هذا كله ويذكر الكثير. الشارع العربي العاصف من الرّباط إلى بغداد وما بينهما. أما

شارعه فيهتف : الموت للعرب، إقتلوا العرب . لكن الإنتفاضة مستمرة إن. ت. ف. ا. ض.ة باللفات كلها . وما زلنا على قيد الحياة . والإنتفاضة لا تقبل إستقالة الجنرال بل تقيله من إيتسامته الصفراء . فلسطين تحصي شهداءها وجرحاها . ويسال الطفل أباه عن ماهية الإستقلال . فيجيب الأب : إنه أنت ...



وفي حكايتنا الشعبية، يستطرد الراوي ويتوغل في القصص الفرعية، ثم يفتن إلى ما بدأ به، فيقول : يرجع مرجوعنا إلى...، والآن أصبح واضحاً، لي على الأقل، أن المرجوع إليه هو الإسهام الثقافي في هذا الفعل الجبار الإنساني الذي إسمه الإنتفاضة، لا اعتقد بأن هناك سؤالاً سادياً أكثر إيلا من هذا السؤال الموجه إلى الكاتب : ماذا تفعل في هذه الأثناء؟ والمفارقة أن السؤال، على وضوح سادته، لا يكف عن إنتاج نفسه . فقد كانت الإنتفاضة الجديدة في أتمامها الأولى، عندما كنت أحد من فوجئوا بكلام من نوع : كيف تقرأ خارطة الأدب الفلسطيني تحديداً بعد إنفجار الإنتفاضة بهذا الرّخم والتّقس الطويل...؟

وهذه المرة لم يرجع مرجوعنا إلى...، بل عملت ما يشبه الإستخارة، لاهندي إلى جواب، فكان أن بدأ الجواب بسؤال، رحم الله المتنبي - وكثير من ردة تعليل، فُرحْتُ أقول، وعمر القراءة يطول : - أين هذا الأدب أولاً؟ لقد قرأت قصيدة قصيرة، جميلة طبعاً، للشاعر محمود درويش، وكتبت قصيدة في بداية أيام الإنتفاضة... ولا شك في أن شعراء آخرين قد فعلوا ذلك . ولكن هل يمكن إعتبار هذه الصفحات خريطة جديدة للأدب الفلسطيني أو حتى العربي؟ بسؤال آخر : هل التحولات الكبرى في الأدب مشروطة بالمعارك؟ إن الشعر العربي الإسلامي، مثلاً، لم يتغير بسبب معركة بدر أو أحد . ولكن الشعر العربي تغير بعد الإسلام . بمعنى أن هناك تغيرات نوعية من شأنها أن تحدث تغييراً جوهرياً في المشروع الثقافي، ولكن ببطء، ولم يحدث أن وقعت تغيرات في الأدب بسبب هذه المعركة أو تلك، لكنه أمرٌ شديد الأهمية أن ترصد حركة الشعر الحديث وإنتشارها بعد زلزال نكبة ١٩٤٨ . فالنكبة مفصل تاريخي نوعي...، والآن نحن أمام إنتفاضة شعبية تمتد بشكل أو بآخر إلى الحياة العربية، فإلى أيّ حدّ يمكن لتوابع الزلزال أن تنشئ خريطة جديدة؟ هذا، كما أرى، سؤال من المبكر أن نجيب عنه الآن باطمئنان...

ولا اظنّ من العدل في هذه العُجالة، ولهذه المناسبة أن أكون مطالباً بإعطاء اجوبة عن أسئلة متقنة تناقش ما بعد الحداثة مثلاً، إلّا إذا قصرنا الأمر على التناول الخارجي للموضوع، مما يمسّ العلاقة بين الإلتزام في الأدب والإكتفاء بنظرية الفنّ للفنّ.. وهو موضوع سابق على ما بعد الحداثة بطبيعة الحال.. لكن هذا لا يعني السؤال من حقيقة أنه لا يزال مطروحاً، بغضّ النظر عن المدخل المؤدّي بنا إليه.. وما يمكن أن يُقال في هذا الشأن، ينطبق عليه التشريع الشهير : الحلال بين والحرام بين . بمعنى أن كل وجهة نظر أصبحت واضحة، فهناك جماعة من المتطيرين الذين تروعه شبهة الوطن في الأدب بدعوى أن الشأن العام يؤثر سلباً في الذات، التي هي مملكة الفن وجوهره وماله الطبيعي . وهناك جماعة التي تؤمن، مع التواضع والثقة مجتمعين، بفهم خلاق لغائية الفن، فالغن لا يمكن

إلا أن يتجه إلى الآخر. والآخر صيغة متشظية، فهو الصدى حيناً، وهو الصادم حيناً آخر، كما أنه المصدر دائماً باعتبار أن للعملية الإبداعية أثر الصدمة. هناك العدو وهناك الذات الجماعية، هناك المتلقي التفعلي وهناك المتلقي الجمالي المجرد. وهو ما يجيز لنا أن نسقط دعاوى الذاتية المغلقة في الفن. فحتى هذا الذاتي الذي ورث صرخة أوسكار وايلد : « لا نفع في الفن إطلاقاً » سيظل في حاجة إلى ذاتيٍّ مثله ليسخرنا منا في أقل تقدير. وعلى هذا فقد لا نأخذ تلك الإنعزالية على محمل الجد. وتأتي الوقائع النوعية الجسيمة بحجم الإنتفاضة كالمراة المكبرة، لترسم بصورة كاريكاتورية حجم قصور المثقف، ولكنه إذا لم يكن قصوراً مشروعاً، فهو على الأقل يتطلب الرأفة. ولا شك عندي في أن الإنتفاضة رحيمة بنا. . ليست هذه أحد تجليات الام الفلسطينية؟

غزة

## ليليات

### ليلة بحر

١

أتمتع بمراى النجوم وهي تومض لامعة في مساء رام الله المحاصر. أظن نفسي للوهلة الأولى تحت سماء طفولتي في أريحا، ثم أعاود التذكر والتركيز لكي أعرف أنني هنا، أمام باب بيتي الذي سينفتح بعد هنيهة فأدخل رغماً عني. أمثلئ من ثم بنشوة استمتاع مزدوج بالحياة رغم تهديد القصف المائل في أية لحظة. بعد هذه الهنيهة المرسومة بمخمل الليل الطري الذي يحمل آلاف مسات النجوم سوف أدخل إلى تحت سقف يجلل حيطاناً جامدة لا تعرف ماهية مسرى النجوم في العروق. فما عاد ثمة فسحة للتسكع والتمشي تحت أنوارها الخافتة كما اعتدت أن أفعل قبلها. الناس في جميع الامكنة في حالة استنفار، سيارات قليلة تعبر الشارع بسرعة خرقاء أحياناً، وأخرى لها ذات التجوال المتردد لأناس مثلي يريدون أن يستمتعوا بنعمة الفضاء الخارجي كي لا يقتلهم السام احتباساً واختناقاً داخل أسوار كثيرة.

أتساءل أنا التي شهدت حروباً كثيرة :

ومتى كانت الأسوار تحمي ؟

لكن حكمتي لا تتحمل رفض جبرية الحياة الإستنفارية، فها هي تضطر إلى أن تغادر ملجأها الأول في الطبيعة، كي تحتمي مثل الجميع وراء أبعد الأسوار الممكنة. فبعد قليل سوف تنهال علينا حمم الرشاشات المستمرة من قبل المستوطنة، وسينجرف رواء هذا الليل المبكر ليصبح كتلاً من (اللافا) والسواد المتحجر.

فجأة انتبهت إلى الصور التي كنت ألصقها فوق مكتبي بعد أن بات جلوسي إليه نادراً. نصف منها يروي آثار حروب ماضية، ونصف آخر ملون بالسهرات والورود والامسيات والأضواء واخضرار الأشجار. كان هذا تماماً مثل قطبي حياتي منذ عودتي إلى فلسطين حين كنا يتجمعان خطوطاً على الحائط الذي ظلل كتاباتي ستة أعوام كاملة قبل أن يبدأ القصف، وقبل أن تتغير عادات حياتي لتصبح من جديد كما كانت أيام الحروب الماضية. غربة قاسية عن الكتابة وقلق عنيف يطيح بالأوراق التي كانت قد كتبت سابقاً.

في مساء رام الله أشهدهم كل يوم في طابورهم. أطفال بين الخامسة والعاشر يركضون بهدوء ويهتفون بروية بعد أن يبدأ صخب تجمعهم الأول. يَلْتَمُونَ استعداداً بعد أن كان معظمهم يتناثر في عرض الحارات أو يتسلق أنابيب الماء الصاعدة على جوانب الطريق. يسرون في التواءات الأزقة وهم يخفون: تمشي.

تمشي يا فلسطين.

أسمع صوت مدرسهم وهو يهيب بهم:

دُق الأرض بكعبك أنت هناك. وأنت الذي بجانبه... يدي أسمع صوت دق الكعب على الأرض. يشربون في الركض كالكيار وربما بانضباط أعلى. بعضهم يرتدي طاقات صوفية سوداء يقومون بفرداها على وجوههم فتحجب وجوههم المدورة، ولا تظهر من ثمة سوى أسنانهم الصغيرة المفردة وأعينهم البراقة.

مخلوقات ملائكية هم، يطوفون بشوارع مساءتنا رغم عفرتهم المكبوحة. يطلقون أينما وصلوا دق عذوبة يغطي ولو للحظات كمد الأحداث في الخارج. عبر انتظامهم كل مساء يصارعون الخوف اليومي من القصف العشوائي الإسرائيلي، ويحاربون رعبهم الذي كان يتجلى في دموعهم وصرخاتهم ومخاط بكائهم الذي كان يظهر أمام الكبار رغماً عنهم في بداية الأحداث. بعضهم يصير «زورو» بقناع طاقيته الصوفية السوداء، وكل منهم يحس في قرارة نفسه بأنه «فدائي» يجتاز الحدث للمربع دون أن يخاف. هؤلاء ابتداء طابورهم بعد قتل الطفل (محمد الدرة).

أتكون هذه المسيرات واسطة لإمتصاص الرعب الذي يعصف ببيوت الناس العاديين الذين لم يشهدوا قبلاً كل هذا القصف الثقيل؟

أ يكون القناع حامياً للطفل، أم أن فحواه الرمزي هو الذي يرفع من معنوياته؟

هل يحمي القناع الطفل حين يرخيه على وجهه ويصير واحداً مغفلاً بين الجميع، لكنه يرمز إليهم جميعهم في الوقت ذاته؟

في حكاية ليلي والذئب، تخفى الذئب في ثياب سيدة عجوز كي يلتهم الطفلة.

في مساء رام الله يخفي الأطفال وجوههم مثل اخوتهم الكبار الذين يتحشرون الوحش الإسرائيلي

على الحواجز، في إشارة إلى أن القناع قد يحميه هو الطفل من أن يصير فريسة للذئب المسلح بالاتياب والملوث.

#### ٤

الطفل الذي كان يقف في الملصق حاملاً مقلعه أمام جسد الدبابة الضخم استشهد بالأمس، تخبرني صديقتي ونحن نحدق سوياً في الصورة المعلقة على حائط مطبخها. كيف تسلمت هذه الصورة أصلاً إلى الجدار لتلتصق مقابل كيس الحبز على المائدة، وتندمج بين أغراض متناثرة، ثم تضيء مثل ماء الشرب اليومي المتدفق من الحنفية. صورة ولد صغير أذهلت العالم يشبه أن يكون عصفوراً يتصدى لسديم معدني أولد دبابة هائلة. صحن فضائي يحمل أقنعة الشر كلها. بشاعة الدبابة المصفحة وثقل كتلتها العملاقة تشبه أن تكون وحشاً حديدياً هبط بغتة على كوكب يحكمه الأولاد الصغار.

مات الولد بعد أيام من مصرع ابن خالته الذي كان يماثله عمراً، وفي مكان المواجهات ذاته. للوهلة الأولى عندما حدثت في الصورة قبل موت الصبي خلال توزيعها في ندوة حول الإنتفاضة هالتي جسد الدبابة الهائل وهو يوشك أن يطبق على الأمير الصغير، الذي لا يطاله اليأس في قصة «سان اكسوييري». كانت قبضته الصغيرة تلوح بمقلع هو سيفه السحري الذي سوف يخلصه من جنون الوحش الغالت.

الآن وأنا أعاود التحديق بعين الأسمى والحزن بعد استشهاد الطفل برصاصة من نوع ٥٠٠ قطعت معظم شرايين وأوردة رقبته، أنتبه من جديد إلى يده الصغيرة، إلى ملايمته البسيطة، أرى حذاءه المدعوك. أتذكر فارس الذي أرق وما عاد ينام بعد استشهاد ابن خالته شادي، والذي كان مغرمًا باغنية يدهلك عليها مع رفاقه في المدرسة

(لو كسروا عظامي مش خايف

لو هلتوا البيت مش خايف )

وأرى وحشة الحديد المدرع حين يهجم به جنود إسرائيل لينقضوا على حلم الأمير الصغير الذي كان يقطن في غزة.

#### ٥

في وسط رام الله ميدان «المنارة» اجتهدت بلدية رام الله كي تثبت فيه منحوتات تمثل أسوداً حجرية تقف حول بركة تعيد إلى الأذهان ذلك الميدان القديم الذي عرف بإسمه الشهير في السابق. منذ أن جرى تركيب الأسود الجديدة التي تمتاز بضعفها صارت هواية الأطفال تسلق واعتلاء الأجساد الحجرية للملوك الغاية في ليل رام الله الصيفي. في بداية المواجهات كان هناك من أتى ووضع أكاليل الجنائزات الذابلة على أعناق المنحوتات التي بدت وحيدة وكئيبة. الآن، لا يمر مساء إلا وقد ازدادت أعداد الأطفال الذين يتنافسون على اعتلاء هذه الأسود.

الفارق الوحيد هو أن أجساد هذه الأسود المرمرية باتت مغطاة بملصقات كثيرة لأطفال آخرين.

٦

من جديد تختلف علاقتنا بالظل والنور. قبل هذا القصف كنت أعنى بأن الاحق شذرة الضوء الأخيرة قبل الغروب فلا اسدل الستائر. الآن، أقفل أغطية الشبايك (الاباجورات) بحرص بالغ وكان اقتفاء آثار الغروب يشبه جرعة عقابها القصف المؤبد. صار للنور واشعاعاته الشمسية شروط وجودية أخرى تتضمن الحماية من أية أنوار ليلية.

استمتع بالقراءة على قليل من ضوء المصباح الجانبي حينما يكون مخفياً لا تتسرب أسرار من وراء الستائر السمكة. فاصبح كمن يجد نفسه مشدوداً إلى طوف وسط فيضان عات قد يعد بالوصول إلى فردوس سحري وعالم أخاذ. كل العوالم ساحرة حين تخلو من عين المستوطنة السيكلوبي الذي يراقبنا ليل نهار.

بالأمس كان هنالك رجل يعمل على تركيب أشغال الكهرباء في بناية قريبة من الحاجز الإسرائيلي على المدخل الشمالي لمدينة البيرة قرب مستوطنة بيت إيل، حين قضى بطلقات رشاش هائل شطرت جسده إلى أجزاء. وكما كان السبب في غاية البساطة، فقد ظن الإسرائيليون أنه يحمل سلاحاً بيده رغم أن مسافة كيلومتر على الأقل تفصل بينه وبينهم.

لا أحد يصدق ما نراه إلا إذا عاش على حافة هذا العالم السوريالي الذي يحمي جرائم إسرائيل وبنفس الطرف عنها.

هكذا، تطل أبراج المستوطنات العالية قرب جميع المدن والقرى الفلسطينية لتخبرنا عن حقد عنصري لا مثيل له إلا في قصص خيالية.

٧

تنقض المستوطنة على مساكن البيرة ورام الله وخصوصاً تلك التي تواجها وكانها بثرة قبيح في جسد مريض. حقد ينفذ آفات جرثومية، ويلوث ليل للعالم الجميل من حولنا بصواريخ وقذائف ورشاشات ثقيلة لها قدرة تدميرية هائلة.

هذه المستوطنة التي انتزعت بالقوة من أراضي البيرة ورام الله لم تنشأ إلا في عام ٨٤. الرقم نفسه معكوساً كان عام استيطان البلاد الإستعماري سنة ٤٨. هنا أتم الإحتلال الإستيطاني عمله بسهولة فائقة لم تزد عن إصدار أوامر مصادرة الأراضي من قبل الحاكم العسكري. كم حصل الغزاة على أرض سرقت من أصحابها دون أن يتكلفوا شيئاً سوى إصدار الأوامر بانتزاعها. كان تمزيق الأراضي وتدمير الزراعة المحلية أسهل عندهم من شرب فنجان من القهوة السريعة. وها هي النتيجة، جسم غريب عن البيئة لا يمتلك من مقومات الوجود عدا العزلة عن المحيط، وزرع القهر والكراهية لكل من يجاوره.

جيراني نظرياً، أعدائي عملياً حسب جميع القيم والمواصفات. فهم لا يحملون إلا بإزاءتنا من

الوجود كي يسرقوا كل الأرض دون مساعلة من أحد .

مساء كنت أحاول النزول من السيارة في الشارع الرئيسي الموصل بين القدس ورام الله، حينما أزلت القديفة في فضاء الشارع آتية من المستوطنة، ثم هبطت على معهد الإعلام العصري التابع لجامعة القدس . شحنة ثقيلة من الهواء الساخن تصطبدم بالأرض فتدك سوراً وتجرح رجلاً كان واقفاً بالصدفة خارج البناء المجاور .

ليس إلا الطمع وحده من أحضرهم إلى هنا . فييوتهم مُشيدة بأحجار بلادنا البيضاء، ومبينة بأيدي عمالنا وفوق أراضيها، وهم يسطون على حقول زيتوننا ويجرفون أشجار اللوز والبرقوق كي يقيموا طرقاً سريعة تدمر بيئتنا الطبيعية وتقتل الحيوانات البرية التي عاشت آلاف السنين في هذه الجبال والوديان . وعلى صدئ آلامنا ودموعنا تستثمر شركاتهم المتعددة الجنسيات أموالاً تجنى لإبادتنا ولتسليفتهم قروضاً سخية لأرقامها وقع الخيال .

وهم ... وهم ...

ورغم كل هذا ، فالأرض أرضنا ... والحياة حلوة رغم هذا الليل .

رام الله

## مدخل وعنوان وحجر هن ياقوت

### علي الخليلي

سيارة مرسيدس أجرة تنزل بنا من الطابق الثاني في المحطة المركزية برام الله، وتتجه إلى الرام شمالي القدس، السائق يفرك زر المذياع على صوت فلسطين، تصعد الأغاني التي تمجد الحجر وأطفال الحجارة . في المقعد الأمامي إلى جانبه، يختفي رأس راكب تحت الحطة والعقال . ما أن تمر السيارة أمام مبنى الشرطة الذي دثره القصف الإسرائيلي قبل بضعة أسابيع، حتى يضرب هذا الراكب كفاً بكفٍّ، ويلتفت إليّ في المقعد الأوسط، أو إلى الشابين قربي، ويحكى مع نفسه، أو معنا : « لحقونا بالصواريخ حتى إلى هنا . أخذوا السهل والبحر، وطاردونا للوعر . يا ناس، هل هذا معقول ؟ » . نصمتُ . ويواصل وحده الحكى عن الانتفاضة، وعن السلطة الوطنية، وعن جيش إسرائيل، والمستوطنين اليهود، وعن العرب والمسلمين، وعن أميركا، وعن الدنيا كلها . ثم يسكت، ليعود إلى ضرب كفيه والهمهمة بكلام تطغى عليه الأغاني . أغمض عيني، وأفكر بمدخل مؤثر لمقاتلي . فكرة المقالة موجودة . وهل يمكن لفكرة هذه المقالة، أو غيرها، أن تبتعد في هذه الأيام، عن أجواء الانتفاضة ؟ فقد عاد شعار « لا

صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة» ليتصدّر الخطابين السياسي والثقافي معاً، وهو في صدارته يستجيب لحتمية تلقائية، أكاد أحسّ أنه لا علاقة للسياسيين، أو للمثقفين فيها! غير أن «المدخل» في كل مرة، هو الذي يصنع سيولة الكتابة أو جفافها. وثمة، أجد نفسي، رغم امتلاء الصدارة، حائراً مثل المأخوذ على حين غرة، أو كمن يكرّر مقالاته السابقة، في سلسلة من التساؤلات الثقافية المكررة أيضاً، منذ ثلاث عشرة سنة. أرفض هذا التكرار الذي يتلبّسني على شكل هاجس يتضخم في داخلي، وأتجاوز مسألة المدخل إلى العنوان.

سأجعل عنوان مقالتي «بحر الانتفاضة». أمواج متدفقة، وكلمات حية ساخنة أدفع بها فوراً على الورق، من انتفاضة أولى إلى ثانية. في الأولى كان الوصول إلى المفاوضات والسلطة الوطنية، وفي الثانية الآن، لا بد من الوصول إلى الاستقلال والدولة. لكنني أعود بذاكرتي إلى بدء النشوء والتكوين لمفردة «الانتفاضة» ذاتها. كنا نلّوب على هذه المفردة العزيزة الغالية في صحافتنا الفلسطينية تحت الاحتلال، في العام ١٩٨٧، وما تلاه من أعوام، حتى مؤتمر مدريد، فلا يتسنى لنا نشرها في خبر أو مقال، إلا مستبدلة بتسميات شتى، مثل «أحداث دامية»، موجات عارمة من التظاهرات وأعمال الرشق بالحجارة، اشتباكات عنيفة، صدامات... وكانت كل هذه التسميات باردة وبليدة وعاجزة إلى حد القهر، عند وصولها إلى مفردة «الانتفاضة» الممنوعة بسبب الرقابة العسكرية الإسرائيلية الصارمة. وقد اندحرت هذه الرقابة المعادية. وصار لنا إعلام فلسطيني جديد، في فضاء واسع، وتقنيات حديثة، وانتفاضة صمدت وتغلّبت على كل التسميات والمصطلحات البديلة. غير أن الهاجس يدهمني في مزيد من قلق الأسئلة. لماذا ينزاح المثقف إلى إشكالية «التسمية والمصطلح» دائماً؟ هل هو انزياح إلى العمق، أم أنه خروج إلى الهامش الفكري، وربما إلى الترف الفكري في بلاغة الإنشاء؟ ولماذا يصير للكلمات على مختلف أشكالها ومعانيها، كل هذا الضغط المتفجر في عقل المثقف، إزاء المسافة بينها وبين حركة الأحداث، أو حركة الفعل التاريخي على الأرض؟ وما هو «الفعل التاريخي»، ليس في مرحلة ما على وجه التحديد، وإنما في كل يوم، وفي كل جملة يشتمل عليها النص؟ أم أن مرحلة معينة تفرض شروطها، فيزداد الضغط ليصبح الانزياح من المنفى إلى الهامش أو العكس، قلماً وجودياً يستولي على عقل الكاتب؟

إن النار والدم والأجساد المثقبة برصاص العدو في الشارع المنتفض، هو المشهد البارز. فما هو مشهدني الثقافي فيه؟ أسرع إلى كتابة قصيدة عن الطفل الشهيد محمد الدرة، احتفظت بها عدة أيام، غير راض عن مستواها الفني، وعن قدرتها في استكناه غضبي وأحزاني. ثم نشرتها في صحيفة «الأيام». لقد انجزت هذه الكتابة مثل عشرات (مئات، ألوف) الشعراء على امتداد الأمة العربية. لا بد لي من «إنجاز» أعمق وأكبر، يتجاوز الانفعال بالشاهد التلفزيوني إلى المشاركة بالفعل ذاته. ماذا أفعل؟ يستغرقني القلق الغاضب المتسائل. هل هو قلق البحث عن «دور ما» للمثقف الفلسطيني، كلما جرى التحديق في المسافة بين الكلمة والرصاصة، أو بين الكلمة والحجر؟ وكان هذا «الدور» غائب، ولا نتحسس غيابه المزعوم، إلا بضغطة الرصاصة مرة، وضغطة الحجر مرة ثانية؟ هل هي صفات التمزق التي تضرب المثقف في تناقضه بين «أنا» ثقافية متضخمة لا ترى العالم إلا من خلالها، و«أنا»

دونية منكشة في إطار ذاكرة مدرسية « السيف أصدق أنباء من الكتب »، و « تكلم السيف، المدفع، الحجر، فاسكت (أخرسن) أيها القلم » .. إلخ؟

اضطرب بشدة، فافتح عيني، وأصحو على حوار فيه ما يشبه زقزقة العصفير، بين ركب المقعد الخلفي. أعرف من هذا الحوار أنهم جدة وابنتها وحفيدتها. لا ألتفت. وانصت للحفيدة التي تكرر « تيتا، تيتا ». لعلها في الخامسة من العمر. ثم تكشف هذه الحفيدة التي تعلق زقزقتها على الأغاني، وعلى همهمة الكهل، وعلى الصمت المطبق للشابين قربي، عن سر صغير، هو أن أباه كان يرفض أن تسافر هي وأمها من نابلس إلى الرام، خوفاً عليهما من اليهود. تغضب الحماة. ولكن الحفيدة تقول للجددة : « تيتا، تيتا، لا تخافي، معي حجر، إذا رأيت اليهودي قرب بيتكم، سأضربه في بوزه ». فتصبح الجدة : « إزيك! إياك يا حبيبتي! إرم الحجر من الشباك، ارميه. سوف يقتلونك، ويقتلوننا كلنا ». كانت السيارة قد بدأت تتجاوز « سطح مرحبا » وتتسلق ببطء وحذر تلال قرية « كفر عقب » عبر طريق فرعي ضيق ومحقر، ضمن صف طويل من السيارات بمختلف أنواعها وأحجامها، ذلك أن الشارع الرئيس الذي يربط رام الله بالرام مغلق بحاجز عسكري إسرائيلي عند « سمراميس » منذ عدة أسابيع، مثله في هذا الإغلاق الذي يمزق شرايين الوطن، مثل كل الشوارع بين مختلف المدن والقرى. الجدة تصرخ مجدداً، أمرة حفيدتها برمي الحجر. التفت إلى ورائي هذه المرة. الطفلة ترزق وترفض أن تفتح أصابع قبضتها عن الحجر. الجدة والام تخلصان الحجر الذي هو في حجم حصوة صغيرة لونها بُني مشرب بالخضرة، كأنها ياقوت، من قبضتها الطرية، فتلقفه الجدة وتلقي به من الشباك.

أتابع الحجر أين استقر بين أشجار الزيتون. تبكي الطفلة، فقد أخذوا منها لعبتها، وألقوا بها بعيداً عنها. أحسن بالحنو الشديد نحوها، وأود لو رفعتها من مكانها بين جدتها وأمها، وحملتها إلي حضني. ثم أحس فجأة بالعرب، بما يشبه لطمة البرق الخاطف. ماذا لو واجهنا بالفعل، حاجزاً إسرائيلياً متنقلاً، عند مدخل مخيم « قلنديا » مثلاً؟ تقوم الطفلة بإلقاء حجرها فجأة. يعني تلعب بلعبتها، فيرد جنود إسرائيل بزخه من رصاصهم القاتل فوراً، على الطفلة وعلينا جميعاً؟ واصلت الطفلة بكاءها. ثم نامت. وفي الصمت الذي ساد السيارة، كنت استرجع حجر الطفلة، وأعيد لعبة ياقوتية بُنية خضراء، إلى أصابعها الفضة الرقيقة.

الحجر؟ الحجر الفلسطيني بالنسبة للإسرائيليين « سلاح » بكل ما يعنيه السلاح من عنف وشراسة وقتل. وزير عدلهم، وهو وزير سياحتهم في آن، أبراهام شارير، يقول في العام ١٩٨٨ أن « الحجر سلاح ». واسحق شامير رئيس وزرائهم آنذاك يقول « أنها حرب حقيقية، هؤلاء بحجارتهم يحاولون هزيمة إسرائيل ». واسحق رابين الذي حقق شهرته في تكسير عظام أطفال وشبان الانتفاضة، يصريح أنه لم يستخدم الطائرات والدبابات بعد، فمن ذا الذي يتحدث عن هزيمة إسرائيل؟ وكي يُغطي ذلك التصريح نفسه، قبر رابين بعد اغتياله بيد يهودي، ها أن اليهود باراك رئيس حكومة إسرائيل وزعيم حزب العمل نفسه، يستخدمها الآن. وحين يسخر أحد أعمدة الليكود موشيه عميراف، في ذلك الحين، من « هذا السلاح الحجري »، إزاء القنابل الذرية، قائلاً : « اسمعوا، نحن نملك قنابل ذرية. أية حجارة هذه إذن؟ »، فإن شمعون بيريس يطور من إسرائيلية هذه السخرية بقوله : « إن التاريخ لا

تصنعه الحجارة». وأما بن العيزر، من كان يستسى بالحاكم العسكري الاسرائيلي للضفة الغربية المحتلة في العام ١٩٨١، فيقول: «إن سلطات الحكم العسكري تعتبر كل حجر صغير بمثابة قنبلة يدوية». فيا طفتلي الصغيرة، أنت بذلك، كنت تقبضين على قنبلة يدوية!

ولكننا في السيارة، ما بين مطار قلنديا ومخيم قلنديا، نواجه ما توقعناه، أطفال وشبان الخيم من جانب، وجنود اسرائيل وراء سياج مدرج المطار من جانب آخر. حجارة ومقاليع وإطارات مشتعلة، ورصاص، فوق رؤوسنا. يندفع السائق إلى الامام، بين عشرات السيارات، وتراكم النفايات والحردة في الشارع. لقد اعتاد، واعتدنا كلنا على هذا كله. الطفلة تبكي مجدداً. والكهل يصمت. والسيارة تصل أخيراً إلى مفترق الرام. التفت إلى الطفلة وأبتسم لها. ما اسمك يا صغيرتي؟ كائني كدتُ أن أسالها حقاً. أسكت. وإنزل إلى حال سبيلي نحو البيت. في البيت، أشم بقايا رائحة الغاز المسيل للدموع. لعل قنبلة غاز انفجرت في مكان قريب، أضغط على الرموت كنترول، فتضئ شاشة التلفزيون. من محطة إلى محطة، أتابع الانتفاضة المصورة. ما الفرق بين الانتفاضة على التلفزيون، والانتفاضة في الشارع؟ أظن أنه الفرق ذاته، بين المثقف في مخيلته وحيرته للإبداع المنفض من جهة، وبين احساسه العميق بضرورة المشاركة الميدانية المنتفضة، من جهة ثانية. ندوات، معارض، أمسيات، مسيرات، .. إلخ. لماذا إذن، لم نحتفل بيوم التراث الشعبي الفلسطيني في ٧ تشرين الأول؟ كنا في وزارة الثقافة، أعدنا ملصقات جميلة لهذا اليوم، وبرامج لكل المحافظات.

هل يتعارض الاحتفال التراثي مع فعاليات الانتفاضة؟ أم أنه على الأصح، جزء منها؟ لم يعد الأولاد من مدارسهم، ولا أمهم من مكان عملها بعد. لقد غادرت مكنتي في الوزارة مبكراً. لا شيء في الوزارة. قراءة جرائد. راديو ترانزستر. أخبار. لحظات مع الانترنت. صحف العالم العربي. تعليقات وأخبار مكررة. نقاش مع بعض الزملاء الذين تمكنوا من الالتفاف حول الحواجز والوصول إلى مكاتبهم. لا بد من «فعل ثقافي بارز» للتلاحم مع الانتفاضة! كيف؟ هل نجتمع مرة ثانية أو ثالثة، ونصدر بياناً ثقافياً جديداً؟ جدل وغضب واحزان. نخرج من مكاتبنا ونشارك في جنازة تشييع شهيد. يسأل أحدنا هل يجوز الاضراب التجاري في كل يوم؟ ملصقات صور الشهداء وكتابات نعي الشهداء على الجدران، تزداد يوماً بعد يوم. هل تبقى الانتفاضة سلمية أم تندفع إلى الحرب؟ بالنسبة لإسرائيل، هي الحرب في كل الأحوال. القصف ليلة البارحة. هل ستظهر المروحيات الإسرائيلية هذه الليلة أيضاً؟ والديابات؟ والبوارج؟ هل قرأت ما يقوله قناص إسرائيلي في لقاء معه أجرته صحيفة هآرتس ٢٠ / ١١؟ يقول: «تعليمات الجيش لنا تنص على اطلاق النار القاتلة على من هم في سن ١٢ فما فوق». كم عدد الأطفال الشهداء حتى الآن؟ إن الصحافي الإسرائيلي الشهير زئيف شيف لا يكثر بهذا الرقم فهذه «الحرب» بالنسبة له، «لا تدار بمنظمات الأمهات» كما يقول. أرايت؟ ولكن الانتفاضة تحتاج إلى منظمات الأمهات الفلسطينية ليشرحن أنهن لا يرسلن أولادهن إلى الموت. لماذا يكون على الضحية أن تشرح للقاتل، سبب قتلها؟ انتبه لخفقان الضوء على شاشة التلفزيون. خبر عاجل: الديابات الاسرائيلية في مستوطنة جيلو تجلّد قصفاً لبيت جالا. ماذا تعمل؟ انحر إلى الورق للكتابة. اضطرب. لو باتي الأولاد، الآن! الملح كتاب «أفكار لأزمة الحرب والموت» لسيغموند فرويد، متنجياً

قرب وسادة مطرزة، بين فوضى مئات الكتب، في كل مكان بالبيت. لماذا رغبت بقراءة هذا الكتاب ليلة أمس؟ كم مرة سبق لي أن قرأته؟ أرفعه إلى عيني. أفتحه على صفحة تركت طرفها مطوياً: «من المستحيل إصدار أي حكم شامل على حروب الغزو، فبعضها مثل الحروب التي شتها المغول والأتراك، لم تجلب إلا الشر. وبعضها على النقيض من ذلك، أسهم في تحويل العنف إلى قانون على طريقة إقامة وحدات أكبر، وجعل استخدام العنف داخلها مستحيلاً، وأدى نظام جديد من القوانين فيها إلى حل الصراعات. بهذه الطريقة أعطت غزوات الرومان للبلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، السلام الروماني الذي لا يقدر بثمن». ماذا يقول هذا الفيلسوف أو المحلل النفسي؟ لو قدر له أن «يحلل» حرب إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، هل كان سيرى فيها امتداداً «للسلام الروماني» المزعوم؟ أحسن بالهلع من كل أشكال الفلسفة والتحليل النفسي. ورغم أن فرويد يكتب مقالته في هذا الكتاب تحت عنوان فرعي «لماذا الحرب»، عن محصلة الحرب العالمية الأولى، إلا أنه يكتبها بالنسبة لي، كما لو أنها الآن، عن محصلة حروب القوة ذاتها في القرن الحادي والعشرين، ضد الشعوب الفقيرة والضعيفة، وفق مقولته هو نفسه «الحق هو قوة جماعة». إسرائيل - أميركا قوة جماعة، مثلاً؟ ملسوعاً، ألقى بالكتاب الذي اهترا غلافه الأزرق واتسخ كثيراً، من يدي. وأعيد تصفح الجرائد واقفاً، ثم منكمشاً على وجع في صدري، على أريكة في الصالة.

رام الله

## الانتفاضة وتجدد الأسئلة الصعبة

جميل هلال

ليس من السهل الكتابة عن حدث لم ينته بعد. كما يصعب للكلمات أن تضيف لما تسجله الكاميرا عن مشاهد لحركة شعب يجدد ثورته ضد احتلال استوطن، ويذكر العالم أن ما فيه استعمار. ويريد، كما أراد غيره من شعوب، أن يرفع علماً للحرية وأن يمارس الحياة.

تضيف الذاكرة الفلسطينية الانتفاضة الجديدة إلى تاريخ كفاحي طويل، ليس أوله هبة البراق عام ١٩٢٩، وثورة العام ١٩٣٦، ويوم الأرض عام ١٩٧٦، وصمود حصار بيروت عام ١٩٨٢، ومن بعده النهوض بعد مجازر مخيمات بيروت، وانتفاضة عام ١٩٨٧، وعلى الأرجح لن تكون الانتفاضة الجديدة آخره. لعل ما يميز الانتفاضة الجديدة أنها تجمع بعض سمات ما سبقها من هبات وثورات وانتفاضات ومجاهدات، وتعيد تكوينها في زمن كوني جديد بثورة المعلومات والاتصالات تنقل الحدث اليومي وإن أغفل بعضها، أو أغلبها، أو شوه أو تجاهل معانيه. اعتقد جنرالات حرب إسرائيل،

في الانتفاضة السابقة، أن تكسير سواعد المنتفضين سيوقف رجم الاحتلال. ونجدهم الآن قد طوّروا أساليب حربهم لتشمل قتل الأطفال الفلسطينيين، واثقن من أن العالم المتحضّر سيلقي باللوم على أمهات الأطفال لأنهنّ أئذنَ فرصة قتلهم لجنود الاحتلال. فلوم الضحية وتجريدها من إنسانيتها كان دوماً منطق القوة المشبعة بالعنصرية والتي تنصب نفسها حكماً أوحد للحركة للتاريخ.

بتمثل غنى الانتفاضة كآية ثورة، في إتاحتها فسحاً جديدة لإعادة صياغة مفردات لغة الذات، ووضع الآخر عنوة أمام المرأة. وما هي تعيد شيئاً من الاعتبار إلى لغة التحتر من قيود تفاوض عبثي سوق لنا، أو نحن سوقناه لأنفسنا، تحت عنوان «عملية سلام»، وصاغه الآخر المستعمر كمعادلة يُقايض وفقها جزءاً من أرضنا بالتخلي عن حقنا في الحرية والعدل. وترأى له أن المصالحة التاريخية التي سعيها إليها، ولا نزال، ليست سوى مجرد شعار نرفعه ليحتفل هو ببقيدنا، ولنباركه نحن على منعه لنا «بنتوستانا» ولنشكره على ميزات فصله العنصري لنا.

تطرح الانتفاضة على الآخر السؤال: هل وبعد أن فشل تكسير العظام وقتل الأطفال وتجريب مختلف أنواع الحصار سيعيد، هو ومن تواطأ معه، النظر في المرأة؟ وهل سيعيد صياغة مفردات لغته ومشروعه ويدرك أن الضحية التي كان قد انتقلت إلى موقع الجلاد؟ وهل سيذكر أنه قد آن الأوان ليسعى للسلام القائم على الحرية وبعض العدل، وأن الآخر إنسان؟ هل يعي جنرالاته، وقد غرر بهم شبق الأمن وحجم ترسانات السلاح، أن معاني الانتفاضة لا تُقاس بكم ونوع آلات الحرب ولا بمفردات اقتصاد السوق؟

قد نقرأ الانتفاضة الجديدة بلغة الصراع على تخوم ومصطلحات الدولة الفلسطينية، ونترقب فعلها داخل حدود الحقلين السياسي والثقافي لإسرائيل. وقد نستبشر بأن قيام دولة فلسطينية بات أمراً حتمياً بعد أن تولدت قناعة عند مراكز القرار الإسرائيلية والإقليمية والدولية بأن لا مفرّ من الاعتراف بدولة للفلسطينيين. ونسمع من داخل المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية، ونُخبها السياسية والاقتصادية والثقافية، أصواتاً تدعو لقيام دولة فلسطينية، حرصاً على أمن إسرائيل وحفاظاً على سمعتها اليهودية. ونغذّي رؤيتنا لحتمية الدولة الفلسطينية بما تبديه النظم العربية من حرص على رؤية قيامها حتى ولو كان الدافع وراء ذلك إزالة عبء المسألة الفلسطينية عن كاهلها، أو خشيتها من انتقال عدوى الانتفاضة إلى عواصمها. ونقرأ بيانات مراكز القرار الدولي، عسى أن نجد ما يؤيد قيام دولة فلسطينية رغم انحيازها للمشروع الصهيوني، ونعرف أن غايتها هو ضمان استقرار مصالحها في المنطقة.

لكنّ المسألة الفلسطينية غير قابلة للاختزال في ثنائية أن تكون دولة فلسطينية أو أن لا تكون، ولا على أية مساحة من أرض فلسطين تقوم. بل وفق أية شروط وحقوق. وهنا تتباين الرؤية الفلسطينية لوظيفة الانتفاضة. فالبعض يحصرها في تحمين شروط التسوية لتشمل حدود الدولة الأراضي التي احتلت العام ١٩٦٧، بما فيها القدس الشرقية، ورحيل المستوطنين أو معظمهم، وإيجاد صيغة لا تسلب الحقوق الجماعية والفردية للجزء اللاجئ من الفلسطينيين. والبعض يرى في الانتفاضة فعلاً تثويرياً يكتفي بذاته وينتظر إلى أن تتوفر شروط دولة فلسطينية على كلّ أرض فلسطين التاريخية. وربما يكتفي البعض إن نجحت الانتفاضة في إعادة المفاوض الفلسطيني إلى طاولة المفاوضات بتحسينات

ما على صيغة المشروع الأمريكي - الإسرائيلي للدولة الفلسطينية، حتى إن تطلّب ذلك الدخول في تسويات مرحلية جديدة.

لكن هل يقف سؤال الانتفاضة عند حدود جلاء الاحتلال عن الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ أم أنه يمتد ليختبر حدود طاقتنا على تذليل الصعاب وحدود مخيلتنا على تحويل الضرورة إلى إمكانيات؟ ربما علينا إعادة صياغة السؤال ليكون: هل ينتهي مشروع الانتفاضة، بما هي فعل يومي مقاوم للاحتلال، عند حدود دولة تُضاف إلى قائمة دول جمعية الأمم المتحدة؟ هل تمنحنا الانتفاضة وتجربة سنوات طويلة من التفاوض وحكم الذات، حرية محاوره الذات، بما تراكم لنا من وعي على مدار قرن من الزمان، ونحن نقف على عتبة الغاية الجديدة، حول ماذا نُريد أن نكون وأي مُجتمع يستحق الأحياء منا وقد ترك لنا الشهداء أحلاماً جميلة؟ هل من حقنا أن نُحاور الأسئلة الصعبة، من نوع لماذا فشلت ثورة العام ١٩٣٦، ولماذا انتهت انتفاضة العام ١٩٨٧ إلى ما انتهت إليه، وكلاهما انحدرتا إلى عنف داخلي وبروز أشكال جديدة من الفكر والممارسات السُلفيّة، ولماذا اعتبرت سلطتنا الوطنية نفسها غير معنية بالقيم والمبادئ التي احتفل بهما إعلان الاستقلال عام ١٩٨٨؟

إذا كان محرك الانتفاضة الجديدة هو رحيل الاحتلال ومستوطنيه، وهو كذلك، وإن كان انقشاع الأوهام التي راهنت على الوصول إلى سلام عادل وفق الآليات والأسس التي صاغها اتفاق أوسلو، هو مُفجّر هذه الانتفاضة، فإن وصولها إلى هدفها الوطني هو مسؤولية المُجتمعات السياسية والمدنية. ويصعب، حتى اللحظة، على الأقلّ تقديم شهادة بوجود ما يحول تصميم الحركة الشعبية إلى تشكيلات تنظيمية أو من يمدّها برؤية لا تُقيد فعلها عند حدود الحاجة التفاوضية رغم أهمية هذه. فلدينا كثيرون من يعتقدون أن تخوم الوطنية الفلسطينية تقف عند حدود مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وهي تُحقّق ذاتها لحظة قيام الدولة. وهو فهم يحمل مخاطر أوّلاً على مشروع الدولة نفسه. فهل تتوقف الوطنية الفلسطينية، بما تحمله من مضامين تحررية، قومية ومدنية وإنسانية، عن إعادة إنتاج نفسها بعد قيام الدولة؟ ألا يحقّ لنا القلق إزاء من يُريد كسر أجنحة طموحنا بأن تقوم الدولة العتيدة على المواطنة الحرة والمجتمع العصري المنفتح؟ واليست المواطنة، بما هي ممارسة فعلية للحرية والمسؤولية في آن، حقّ لكلّ شعب، بما فيها شعب امتدّ نضاله التحرري قرناً من الزمن؟

فكما لا يجوز العودة إلى التفاوض مع الآخر، ومن يتواطأ معه، وفق أسس وآليات ما قبل الانتفاضة، كذلك لا يجوز العودة إلى التعااطي مع قضايانا الوطنية الحيوية في الغرف المغلقة أو استمرار الارتجال في تنظيم شؤون مجتمعنا وحياتنا وفق رؤى وممارسات كشفت عن غمقها. وكما يمكن أن تكون الدولة كياناً (بما هو مؤسسات وقوانين وثقافة ورموز) لممارسة التفرد والتسلط والقمع، ويمكن أن تكون كياناً يحيل المواطن إلى فرد خائف يتوسلّ حقوقه وإنسانيته (وعلمنا لا يشكو من قلة دول على هذه الشاكلة)، كما يُمكن أن تكون الدولة كياناً حاضناً وحافظاً لحقوق كلّ أفرادها، نساءً ورجالاً، بما فيها الحقّ في حرية الرأي، والتعبير والتنظيم والمعتقد، وأن تكون كياناً يُمنّس قيم العدالة والتكافل الاجتماعي، ويوقر البيئة التي تستقبل وتُشجّع الإبداع الفكري والثقافي والفني، وكياناً مُنفتحاً على مُحيطه القومي والإنساني وفاعلاً فيها. وهنا التحدي الأكبر في تجديد الذات لمؤسسات مُجتمعنا السياسي والمدني، من سلطة وأحزاب وجمعيات واتحادات وجامعات ومنظمات أهلية، بعد أن تكشف قصورها.

رام الله

## حِصَّةُ هَسْتَعَلَةِ ..

### أنطوان قَلَحْت

ما مِن شيءٍ أكثرَ سهولةً في إسرائيل من عودةٍ للمتخصِّصين في الدعاية للحرب إلى العمل، كلِّما استلزم الأمر. ودخل هذه العودة الأخيرة يجتاحنا، منذ انفجار إنتفاضة أيلول ٢٠٠٠، فيضاً من الكتابات الساخنة بالعبرية تسير في وجهة «إكتشاف» أسباب هذه الإنتفاضة وتحليل ما ترتب عليها من «إنجراف» فلسطيني معها داخل تخوم «الحطّ الأخضر»، في الجليل والنقب والمثلث، فضلاً عن الساحل والمدن المختلطة.

ويمكن القول إنّه بمقدار ما كان هذا «الإنجراف» تعبيراً بسيطاً عن ردّ الاعتبار لذاتنا الوطنية، فإنّ معظم تلك التعليقات لم يعوزها العناء لئلاّ كان خذلاناً للتوقعات الإسرائيلية من الفلسطيني المألّب المفترض أن يكونه كائنٌ بشريٌّ يُسمّى «المواطن العربي في إسرائيل» ١ ولا يُنبئ النصّ المكتوب بما يحمله، على الصّعيد النظري، فوق اسطح الورق فحسب بل يؤثّر أيضاً على المشاعر الإعتيادية للإسرائيلي العادي، تلك التي تتكشف، على الصّعيد العملي، في الحياة اليومية : حياتهم وحياتنا.

قلتُ إنّها دعايةٌ للحرب، ولذا فإنّ تقطيع المفاهيم نادراً ما يختلف باختلاف أصحابها. وفي الحرب كما في الحرب كلّ شيءٍ مباح، بما في ذلك، بل في المغلّمة، الإنكشاف التلقائي لاغوار البشر الباطنية التي كانت مكبوتةً لدى البعض في «زمان السلام». من المتعارف عليه لدى الخبراء أنّ الدعاية، التي تكون مؤهلةً لأن تعدّ جزءاً من «المجهود الحربي» لأية دولة محاربة، هي الدعاية التي تتخذ صبغة «الحرب النفسية». وهي، كما يقول ف. نابلور، قذائفٌ من الكلمات التي تُختار بعناية وتُصاغ بحساب دقيق مستهدفة التشكيك في العدو وفي قدرته على تحقيق النصر. فكيف تكون الحال حين تسقط مثل هذه الدعاية، في أوضاع إسرائيل، على آذان صاغية لجمهورٍ مستهدفٍ لا يتفنّن شيئاً أكثر من العنصرية الجامحة وتنميط شخصية الإنسان الفلسطيني من أجل تدعيم «تصوره الذاتي» ؟

حربٌ نفسيةٌ سرمان ما تهضمها حالةٌ نفسيةٌ، أو عصاب جماعي تتمثّل بعض مواصفائه في إشارات «صافية وصريحة» توصّل إليها مؤخراً بروفيسور إسرائيلي في علم النفس، يرأس أيضاً «الشركة العالمية لعلم النفس السياسي»، بعد أن مدّد المجتمع الإسرائيلي على أريكة التحليل النفسي. مهما يكن أمر هذه الخلافات، فإنّ واحدةً منها تتعلق بالتشنّج الاجتماعيّة، أو مات إلى أنّ الأطفال اليهود، منذ عمر الثانية والنصف، يتشكّل لديهم تصوّرٌ سلبيٌّ عن العرب تحت تأثير العوامل الكثيرة المحيطة بهم، المتداخلة في تنشئتهم، ما يعني أنّ هؤلاء الأطفال يفتقرون إلى مرحلة السّذاجة البريئة. ويبقى العربي، في تصوّرهم، مفردةً ملازمةً لصفات سلبيةٍ وشريرة. وهذا التّصور يُعبّر بكيفية ما، عن مجازاة مع ما تبثّه كتبُ التدريس العبرية، التي لا تنفك تكرّس النزاع مع العرب والفلسطينيين

وتجتمده في إطار الحرب تثبيتاً على الماضي، من غير أدنى تغيير يتناسب على الأقل مع سيرورة «عملية السلام».

يبدو أن السلام، حتى في شروطه الكائنة، بقي خارج حدود المدرسة. وهذه الأخيرة هي، بطبيعة الحال، خلية حية مصغرة عن المجتمع الأوسع.

من ينظر إلى السلام، قال هذا البروفيسور، فإنه يفعل ذلك بوصفه إما شيئاً ما ينتمي إلى «السياسة» لا أكثر، وتختلف الآراء حوله، وإما بوصفه إنحرافاً عابراً وطفيفاً عن مسار التاريخ (الإسرائيلي) الحافل بالحروب... تبعاً لهذا، فإن لسان حال الجميع هنا يقول بمنطق التشكيك: ما جدوى تغيير كتب وغير ذلك إذا كان هذا السلام، وفق المنظور السالف، مجرد فصل قصير، وقد لا يصمد طويلاً؟

ما أبانت عنه تصرفات الجمهور الواسع في إسرائيل يحيل، إذاً، على واقع قديم يعيد تجديد نفسه: الإسرائيلي العادي لم يباغت باننا فلسطينيون، لأننا في الأصل عرب أيضاً. لكن ما بوغت به «حتملة القلم» هو أننا لا نندم على كوننا كذلك.

وقد لا نعر على دليل يؤكد ذلك أفضل مما يمكن أن نستخلص من تحليل الجانب المضموني للكثير من تعليقات أصحاب النزعة الثقافية.

ها هو أستاذ العلوم السياسية في جامعة حيفا، البروفيسور دافيد بوكاعي، يعيد إلى أذهان قرائه أن الإشكالية الرئيسية في النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي هي إشكالية ثقافية.

ومما كتبه: يمكن أن تسالوا الخبراء في اللغة العربية كي تطلعوا على مسألة مثيرة: ليس في العربية كلمة تحمل دلالة «ندم» أو تهكيت ضمير. ثمة كلمات تنطرق إلى أمور مشابهة لكنها بعيدة جداً عن تحديد التدم وتحمّل الذنب، وبالتأكيد على المستوى القومي.

واضح أن مثل هذا الهذر الرخيص لا يستهدف النقاش في اللغة وإنما تعزيز موقف «بني قومه» من زاوية الافتراء بأن لغتهم تبدو، من وجهة ما يقوله، أغنى بالمفاهيم الإنسانية.

أما التصور الذاتي لليهودي الإسرائيلي، ورؤيته للعربي في حدود ما يفترضه مثل هذا التصور، فقد انعكس في قول الشاعر حايم غوري: «لقد اعتدنا حتى الآن أن نراهم عرباً خاصتنا - إسرائيليين». والتأقّد يهود بن عيزر قال، ضمن أشياء أخرى: «إذا اعتقدنا سابقاً أنه في الحروب سلتزم عرب إسرائيل جانب الصمت، فإن مثل هذا السيناريو يبدو يعد الآن مستحيل التحقق».

إن أقل من عشر سنوات من الصراع على «اتفاق السلام» كانت كافية لبن عيزر كي يطلق الأعنة لخياله في افتراض أن التوحيد ممكن بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، لإنجاز شيء لا وجود له كشيء إلا في ذاكرته الافتراضية. ويمثل هذا الخيال يتم اختزال المسافة بين فعل الافتراض وبين تدافع جماهير الغوغاء لإرتكاب مذابح غطاؤها بصيحات: الموت للعرب!

ولم تبلغ هذه الصيحات مستمعي، كما كان في العادة، عبر وسائل الإعلام المرئية فقط، وإنما أيضاً عبر المشاهدة المباشرة والحية، أكثر من مرة واحدة، لهؤلاء الغوغاء في مدينتي «المختلطة».

إحدى هذه المرات كانت في ساعات متأخرة من ليلة من ليالي أكتوبر، مصحوبة بإعتداءات على

محالٌ تجاريّةٌ يملكها فلسطينيون . لم نتفاجأ بهذا . لكن هذه الليلة إنحفرت عميقاً في أذهان الأجيال الصغيرة من الأسر الفلسطينية، الذين كانت عيون مجاليهم من الفتية اليهود المتوجهة بصيحة « الموت للعرب » أشبه بطرف حصاةٍ مشتعلةٍ في ليلةٍ دامسة الظلام، مؤشرةً إلى ما يحدث على هذه الأرض منذ أكثر من مئة عام .

عكا

## حكاية عائلية

حسن خضر

تبلغ ابنتي في هذه الحرب مقدار عمري في حرب عام ١٩٦٧ . وقد بادرت إلى الاتصال بها خلال موجة القصف الأولى بالطائرات . أنا في رام الله وهي في خانونس، في البيت الذي تعرّض للقصف بمدافع الهاون قبل ثلاثة وثلاثين عاماً . كانت طائرات الهليكوبتر تقصف المدينتين، وكانت ابنتي فريسة رعب يشل اللسان .

ورغم ذلك، تبدو البنت أسعد حظاً من أبيها - حتى الآن على الأقل - ففي ذلك البيت شهد أبوها مصرع أبيه، عندما سقطت قذيفة هاون على البيت فأصابته إصابة مباشرة، قصفت عمر الوالد، هدمت جزءاً من البيت، وأصابته الولد يجرّح في قدمه، ما زال واضح المعالم حتى الآن .

وليس في مفارقة البنت التي تعيش في بيت شهد مصرع جدها، لتشهد حرباً أخرى لم تنته بعد، ما يمكنني من تجريد الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي في فلسطين وعليها من شبهة الحكاية العائلية . فقد خرج أبي مطارداً ومطروداً من قريته في عام ١٩٤٨ بقوة الحراب، ليلحق به مطارده إلى مخيم للاجئين بعد ١٩ عاماً . هناك، صفوا حسابهم معه، لكنه تمكن بين حريين من إنجاب أولاد وبنات في مجرد وجودهم الفيزيائي على الأرض ما يجعل خاتمة الحكاية العائلية بعيدة النال، وكذلك الصراع . ففي البيت نفسه يتعلم المشي طفل جاء إلى الدنيا في الذكرى الخمسين للنتكية قبل عامين . إنه ابن شقيقي الأصغر، الذي كان عمره أقل من ثلاثين يوماً في حرب عام ١٩٦٧ . وليس من قبيل الصدفة أو المفارقة أن الطفل يحمل اسم جده، أيضاً . وأرجو أن تمن الحياة على الاسم بما يمكنه من النهوض في جسد فتي جديد .

ربما في الحكاية العائلية ما يحرض على القيام بعمليات حسابية دائمة . ففي عام ١٨٩١، زار فلسطين رجل أطلق على نفسه اسم آحاد هاعام، وكتب بعد الزيارة بقليل مقالة بعنوان « حقيقة من فلسطين » . ساورد مقطعاً من تلك المقالة بعد قليل، لكنني حريص على التذكير بحقيقة لن يذكرها

أحد من المؤرخين: كان جدي على قيد الحياة، آنذاك، ربما كان طفلا يتعلم المشي. لذلك لا يندرج ما كتبه آحاد هاعام في تاريخ الاستيطان اليهودي في فلسطين وحسب، بل يندرج في كتاب الحكاية العائلية، أيضا.

قال آحاد هاعام في وصف المستوطنين اليهود في فلسطين: «أقنان كانوا في ديار الدياسبور، وفجأة نالوا حريتهم، فابقظ فيهم تبدل حالهم ميلا إلى الاستبداد، يعاملون العرب بعدوانية وقسوة، يحرمونهم من حقوقهم، يسيئون إليهم دون سبب، ويتباهون بتلك الأعمال، ولا يوجد بيننا معارض لهذا الميل الخطر والبغيض».

لنتذكر أن هذا الكلام كان قبل نهاية القرن التاسع عشر. فما الذي تغير بعد مائة عام. سأصف مشهدا يوجز المعاملة في نهاية القرن العشرين: كانت طائرات الهليوكوبتر، التي قصف رام الله مؤخرا تغير على المدينة في تشكيلات تتكون من ثلاث طائرات، تحرسها طائرة مقاتلة - وربما أكثر - من فوق، بينما تتولى طائرات، يتم التحكم فيها عن بعد، نقل صور حية للمواقع المستهدفة قبل القصف وبعده.

تابعت المشهد باهتمام فائق. تحوم طائرات الهليوكوبتر لفترة من الوقت على ارتفاع شاهق، ومسافة بعيدة عن المواقع التي تستهدف قصفها. فجأة، تكف الطائرات التي تشبه جنادب معدنية هائلة الحجم، وتطلق طينينا مربعا، عن الحركة، كأنها جمدت في الهواء. تتقدم واحدة منها إلى الامام، تطلق صاروخها ثم تتراجع إلى المؤخرة، بينما تخطو طائرة أخرى إلى الامام، لتأخذ مكانها وتعمل عملها، وهكذا دواليك.

لا شك أن المناورة التي اتبعتها الطائرات المغيرة تنسجم مع أفضل وأحدث تكتيكات القصف من الجو، ومبادئ الحرب الحديثة، ويمكن النظر إلى الطائرة المقاتلة، التي تقوم بالحراسة من أعلى، والطائرة بدون طيار التي ترسل صوراً حية على مدار الساعة، كعلامات على مدى الدقة في التنفيذ والتخطيط الذي لا يترك مجالا للمصدفة.

ومع ذلك، في هذا المشهد ما يثير السخرية، ويدعو إلى تأمل سيرة الاقنان الذين وصفهم آحاد هاعام، أكثر مما يدعو إلى التفكير في تقنيات الحرب الحديثة. فطائرة الحراسة المقاتلة غير ضرورية لأن الفلسطينيين لا يملكون طائرات مقاتلة قد تشكل تهديدا محتملا للجنادب المعدنية، كما أن القصف من ارتفاع شاهق غير ضروري، أيضا، لأن الفلسطينيين لا يملكون أسلحة مضادة للطائرات. والأكثر مدعاة للكوميديا السوداء أن الطائرات تقصف مدينة ماهرة بالسكان، مدينة لا توجد فيها معسكرات لجيوش مدرية ومسلحة، لا تقصفها تمهيدا لاحتلالها كما قد يحدث في حرب شاملة، بل كنوع من العقاب، الذي أصبح - بكل بلاغته التقنية المعززة بالدبابات والمدفعية - من الطقوس شبه اليومية.

الأ يحمل مشهد أواخر القرن العشرين ما يعيد التذكير بذلك الميل غير المبرر إلى القسوة في نهاية القرن التاسع عشر؟ الفرق الوحيد أن طاقة الأذى أصبحت أكثر كفاءة مما كانت عليه قبل مائة عام.

نعثر على فرق كهذا في الواقع، أما في الخطاب فلم تتغير أشياء كثيرة: بررت القسوة نفسها في الحالة الأولى بعدم وجود خيار آخر، وما زالت تستخدم الذريعة نفسها في الحالة الثانية. فالقصص جزء من مفاوضات تستهدف تحقيق السلام.

وإذا كنت لا أستطيع فصل الصراع في فلسطين وعليها من شبهة الحكاية العائلية، فإنني حريص على تمكين أفراد العائلة من امتلاك أدوات ضرورية تساعدكم على فهم طبيعة وخصوصية تلك القسوة، لما لهذا الأمر من صلة بحاضرهم ومستقبلهم من ناحية، وبحكم العلاقة الحتمية والمؤكدة بين السيرة الذاتية والتاريخ القومي العام من ناحية ثانية.

برّر الخطاب الصهيوني - بمختلف ألوان الطيف التي كوّنتها وكوّنته - تلك القسوة استناداً إلى فرضية بسيطة وتبسيطية مفادها اصطدام حركتين قوميتين في فلسطين. وقد انخرط في ما يشبه الرثاء الذاتي، عندما أعلن داعم العينين: لن يكف الحظ السيئ عن ملاحقة اليهود، أبداً. فقد تصادف ظهور مشروع الحركة القومية اليهودية مع ولادة الحركة القومية الفلسطينية، وبالتالي جعلت مصادفة التوقيت من الصدام مسألة قدرية، بقدر ما هي مأساوية ومحزنة.

وقد تطوّر شخص كان مولعاً بالخطابة والحلول المتطرفة، بتحويل القسوة الناجمة عن مصادفة التوقيت إلى نظرية كاملة شعننا بتاريخ وكوابيس يهودية أوروبا الشرقية والوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأطلق على نظريته تسمية الجدار الحديدي.

يعرف المطلعون على تاريخ الصهيونية، بالتأكيد، مقالات زيف جابوتنسكي الشهيرة عن الجدار الحديدي، في سياق مرافعاته اللاذعة ضد نفاق الصهيونية العمالية والتواء سياستها تجاه الفلسطينيين. ويعرف المطلعون، أيضاً، أن العمال تبنا تلك النظرية - بعد تمويه أصولها الأيديولوجية وبلاغتها الجارحة - وطبقوها على الأرض، لتصبح سياسة رسمية لقيادة البيشوف اليهودي، والدولة الإسرائيلية بعد قيامها.

قال جابوتنسكي آنذاك: يحب الفلسطينيون بلادهم كبقية شعوب الأرض (على طريقة البدائيين وأقل من الشعوب المتحضرة، إذا تحرّينا الدقة) لذلك لن يقبلوا بمشروعنا، ومن العبث التفكير في حلول وسط معهم، فما علينا سوى حماية المشروع بجدار من الخراب، وعدم المساومة أو التفكير في حلول وسط، بل دحرهم بعنف كلما حاولوا اختراق الجدار وهدم المشروع. بهذه الطريقة، فقط، وبعد هزيمتهم، وقبولهم بنا كأمر يستحيل الانقلاب عليه، يمكن التوصل إلى اتفاق معهم.

ربما جاز لشخص هبط من المريخ، للتو، تأمل حقيقة أن قبول الفلسطينيين بعشرين في المائة من وطنهم التاريخي، الذي يحبوته، من أجل السلام مع الإسرائيليين، يحوّل بلاغة الجدار الحديدي إلى ما يشبه النبوءة. فهذا معنى ومبنى اتفاقيات أوسلو، في نهاية الأمر.

لكن تأمل هذه الحقيقة لا يستدعي الاستعانة بكائنات من خارج الأرض. فقد حاول مؤرخ يدعى إيان لوستيك تحليل الكيفية التي تحولت بها فكرة الجدار الحديدي من نظرية إلى استراتيجية مختلف

أجنحة المشروع الصهيوني، وعبر عن حيرته العميقة بشأن تصرف الإسرائيليين بعد اقتراحهم من خط النهاية. فكل ما فعلوه يدل على تخريب متعمد لاستراتيجية الردع والتراكم واستثمار الفوز. يمكن ترجمة هذا الكلام إلى مفردات متداولة ومألوفة من نوع الجهود الاستيطانية المحمومة، ومصادرة الأراضي، وزبارة عدد المستوطنين، وتفتيت الكثافة الديمغرافية الفلسطينية وتقطيع أوصالها حتى - وخاصة - في ذروة التفاوض على السلام مع الفلسطينيين. وهي جهود كانت للحكومات العماليين فيها، وما زالت، حصاة الأسد.

الخلاصة أن لحرية لوستيك ما يبررها. فمن الواضح - رغم كل ما يقال - أن الاحساس بالاقتراب من خط النهاية لم يتحول إلى فكرة سائدة في أوساط النواة الصلبة لمشروع الدولة اليهودية في فلسطين. أو ربما كانت فكرة الوصول إلى نهاية ما يبعث قلق عميق.

ومع ذلك، الحيرة هي وصف ما يتركه الواقع من أثر على أشخاص يحاولون فهمه أو التعاطي معه، وليست، بهذا المعنى، وصفا للواقع نفسه. وهذا الأمر يستدعي القيام بخطوة إضافية تستهدف مقارنة الواقع، أو محاولة وصفه. ولعل في الأدبيات الصهيونية التي تغطي مائة عام من النشاط الاستيطاني والدولاني اليهودي في فلسطين ما يحقق بعض هذا الطموح.

زاوية النظر في هذا الشأن هي الموقف من السكان الأصليين، كما صاغته الرواية الرسمية، التي تشكل ديانة مدنية للمجتمع الإسرائيلي: يتعلمها التلاميذ في المدارس، ويعبر عنها بتتنوعات مختلفة عدد لا يحصى من الكتاب والصحافيين والفنانين والباحثين. وبما أن الرواية خطاب، والخطاب مؤسس على عملية انتخاب وإقصاء دائمة، فمن المثير لملاحظة ما صرح به الخطاب وما سكنت عنه. ولكن فكرة القسوة، هنا، الأداة الوحيدة لاختبار الخطاب.

نثر في أدبيات الرواية الرسمية على فكرة مفادها أن الآباء المؤسسين لم يفكروا في احتمال الصدام مع السكان الأصليين، بل فكر بعضهم أن البلد تكاد تخلو من السكان، وفكر البعض الآخر أن المنافع الاقتصادية والتحديث الاجتماعي القادم مع المستوطنين سيحرض السكان الأصليين على الترحيب بالقادمين الجدد.

لكن الأبحاث التاريخية في العقدين الماضيين تشير إلى حقيقة أن محاضرات اجتماعات الأحزاب الصهيونية في فلسطين وخارجها منذ مطلع القرن العشرين، إلى جانب محاضرات اجتماعات النقابات العمالية، وقيادة اليسوف تعرضت للتحرير والتنقيح لحذف كل ما يمت إلى العرب بصله، أو تقليصه إلى الحد الأدنى. فقد كان السكان الأصليون مصدر قلق عميق، وكانت فكرة الصدام معهم في صلب الموقف الصهيوني.

تترافق البراءة للزعومة للمستوطنين الأوائل، عادة، وتنسجم مع الكلام عن أيديولوجية اشتراكية حكمت سلوك ومواقف بناء اليرتوبيا الجديدة. لكن النزعة العمالية المساواتية لبناة اليسوف اليهودي في فلسطين أصبحت موضع شك عميق في السنوات الأخيرة. ويكفي التذكير في هذا الصدد

بكتاب زئيف شتيرنغال المعنون « الأساطير المؤسسة لإسرائيل »، الذي يبين أن الاشتراكية الصهيونية لا تختلف من حيث الجوهر عن الاشتراكيات القومية التي عرفتها أوروبا بين الحربين الأولى والثانية، أما كلام العاملين عن القيم الإنسانية العليا للإشتراكية، وأخوة الشعوب، فلم يكن في حقيقة الأمر سوى قشرة خارجية. لذلك لم يثر بناء تعاونيات عمالية على أرض جرى طرد أصحابها الأصليين، والتشكيل بهم في حالات عديدة، اهتمام أحد.

وكما جرى حذف الكلام عن السكان الأصليين في محاضرات الاجتماعات، جرى حذف العلاقة بين وجودهم الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من ناحية، ونشوء الييشوف اليهودي وتطوره الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من ناحية ثانية. فقد حرص منتجو الرواية الرسمية في حقل التاريخ وعلم الاجتماع على دراسة الييشوف في فلسطين الانتدابية كوحدة اقتصادية واجتماعية منفصلة تحركها ديناميات يهودية داخلية، بينما تجاهلوا كل تأثير محتمل لوجود الفلسطينيين.

مرة أخرى، تعرضت الرواية الرسمية في هذا الجانب لنقد عميق. ففي دراسات غيرشون شافير، وأوري رام، وباروخ كيمرلنغ الجديدة، ما يبدد حقيقة التطور المنفصل والمستقل للمجتمع اليهودي في فلسطين، وللدولة الإسرائيلية في وقت لاحق. فقد كانت علاقة التفاعل السلمي والإيجابي مع السكان الأصليين، والصراع ضدهم، هي العامل الحاسم والمقرر في كل ما يتصل بمؤسسات المجتمع الإسرائيلي، وثقافته السائدة، أما العوامل اليهودية الداخلية فتأتي في المرتبة الثانية من حيث الترتيب. لكن ما أظهرته الرواية الرسمية من كفاءة في تجاهل وجود السكان الأصليين في زمن الييشوف يشعب أمام محاولتها طمس ما أصابهم في حرب عام ١٩٤٨، حيث حاولت التنصل من المسؤولية المباشرة عن ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. ولعل هذا الجانب من الرواية هو الأكثر تعرضاً للنقد في السنوات الأخيرة، وهو الأكثر شيوعاً بين الناس، أيضاً. ففي كتابات بني مورييس، وإيلان بابي، وآفي شلايم وغيرهم، ما يمكن من العثور على تفاصيل دقيقة لعملية طرد استهدفت زحزحة تجمعات ديمغرافية فلسطينية كبيرة من مراكز استراتيجية معينة، أو دفعها خارج البلد.

يُلاحظ أن القاسم المشترك بين ثلاثة تجليات للموقف من السكان الأصليين في الرواية الرسمية يتمثل في محاولة تجاهل أو تقليص وجودهم. وفي هذه المحاولة التي يمكن العثور عليها بصيغ مختلفة في تجليات لا يتسع المجال لذكرها ما يبرر الشك والارتياب: لماذا حاولوا تجاهل أو حذف الوجود الموضوعي للسكان الأصليين؟ ولماذا حاولوا طمس معالم القسوة التي وسمت علاقاتهم بالسكان الأصليين؟ ولماذا برروا تلك القسوة عند انتضاح أمرها بعدم وجود خيار آخر، أي أضفوا على أنفسهم صورة قاتل يبكي على نفسه وعلى ضحيته في آن.

من حقي كواحد من السكان الأصليين البحث عن إجابات مناسبة تحل الحكاية العائلية من شبهة الاقذار العاتية أو المصادفات الناجمة عن سوء الحظ، ففي مسيرة أربعة أجيال من عائلة واحدة ما يبرر البحث عن ناظم يعقلن السيرة، أي يضعها على سكة التاريخ.

وأشعر أن كلمة القسوة، التي تمثل الناظم المشترك لكل التمثيلات السابقة، كلمة مخادعة وفارغة. فقد تكون ذات دلالات معنوية أو أخلاقية، لكنها لا تعني أو تفسر شيئا بالمعنى التاريخي. ففي كل موضع وردت فيه يمكن وضع كلمة الكولونيالية في مكانها، وإعادة تأمل المشهد من جديد. فالمشروع الذي حاول جايوننسكي تسييج به جدار من الحراب، كان في الواقع مستوطنة بيضاء لا تختلف من حيث المعنى والدلالة والخطاب والأدوات عن مستوطنات أخرى عرفتها شعوب وبلدان في أميركا الشمالية وآسيا وأفريقيا منذ ثلاثة قرون مضت. وإذا كانت ثمة خصوصية تسم المستوطنة الصهيونية البيضاء في فلسطين، فهي تتمثل في ثلاث حقائق: ظهورها المتأخر في زمن تصفية الاستعمار وظهور حركات التحرر القومي في المستعمرات، وغياب المركز الكولونيالي الأم، وضعف الطاقة البشرية القادرة على ضخ دماء جديدة في عروق المستوطنة بصفة دائمة.

في هذه الحقائق ما يفسر محاولة تجاهل أو تقليص الوجود الموضوعي للسكان الأصليين، ومحاولة إخفاء معالم الجريمة ضدهم، أو تبريرها بعدم وجود خيار آخر. ففي الوقت الحالي - كما في كل الاوقات السابقة - نستطيع نحن الأحياء، وشهود المشهد، البرهنة على وجود أكثر من خيار يمكن الطرفين من التوصل إلى حل وسط في الواقع. لكن في تجربة السنوات السبع الماضية بعد اتفاقيات أوسلو، وتكثيف الجهود الاستيطانية، وسياسة إسرائيل المعلنة بشأن الفصل الديمغرافي، وعنق الحرب الحالية، ما يشير إلى تصميم آخر للمستوطنات البيضاء في أواخر القرن العشرين على حماية نقائها عن طريق نظام الأبارتهيد، الذي عرفته وجريته أنظمة كولونيالية في أماكن أخرى من العالم.

وإذا كانت حيرة لوستيك قد أصبحت خارج السياق، فإن كلامه عن فشل الإسرائيليين في استثمار الفوز بعد وصولهم إلى ما يشبه خط النهاية، وعن دور الفشل في تحريض الخصم على تبني استراتيجية الجدار الحديدي، أيضا، يفتح فصلا جديدا من فصول حكاية عائلية بدأت منذ مائة عام، ولا نعرف متى تنتهي.

ثمة أشياء تحدث الآن وهنا. أشياء نعرفها. أقيم، مثلا، في بناية تبعد أقل من كيلومتر واحد عن فندق السيتي إن ومستوطنة بيت إيل، إحدى أكبر المستوطنات في الضفة الغربية، ومقر الإدارة المدنية الإسرائيلية. أصبح الفندق الذي قام الجنود الإسرائيليون باحتلاله في الأيام الأولى للانتفاضة، من أكثر نقاط التماس سخونة في الانتفاضة الحالية. فمن هنا تخرج طلقات القناصة، وقذائف المدفعية والدبابات، ومختلف أنواع المذودفات النارية للأسلحة الرشاشة الخفيفة منها والثقيلة، إلى جانب أصوات سيارات الإسعاف، التي لا تكف عن الحركة معظم اليوم وحتى وقت متأخر في المساء.

يشحذ هذا القدر من القرب عددا من الحواس أهمها حاسة السمع، التي لا تكفي برصد الأصوات، بل تحاول تمويهها بـ **فيديو** رصاصية واحدة يعقبها بوق لسيارة إسعاف يعني أن قناصا أطلقها، وأن جريحا، أو شهيدا سقط على الأرض. كما يعني دوي انفجار في مكان قريب أن القذيفة لم تسقط على أم راسك، أو في مكان ما من البناية، فعندما يحدث أمر كهذا لن تمنح سرعتها الفائقة حاسة السمع لديك رفاهية التمييز. وبالقدر نفسه تكتسب مع مرور الأيام كفاءة التمييز بين أنواع الانفجارات،

وإمكانية تخمين أنواع الأسلحة التي أطلقتها.

واظبت على الصعود إلى سطح البناية في الأيام الأولى لمراقبة سحببات الدخان التي يحدثها القصف: تصعد بيضاء، خفيفة ومتماوجة في البداية، ثم تزداد كثافة وميلًا إلى السواد، كلما اتسعت مساحة انتشارها. أما في الليل فتطلق ضوياً أصفر تشوبه حمرة قائمة، عنيفة، وسريعة الانطفاء، ما لم تشعل حرائق صغيرة.

لكن رغبة مشاهدة القصف فترت بعد أيام قليلة، وكذلك رغبة البحث عن زاوية أكثر أمناً في البيت، لأن النوافذ تحتل مساحة واسعة في كل الحجرات، كما أن القذائف لا تعجز عن اختراق الجدران. لا بد، إذًا، من قدر محسوب من اللامبالاة كي لا تمكن الحرف من تحويلنا إلى كائنات مذعورة. ولعل تلك الرغبة تفسر إصرار عدد كبير من الناس على ممارسة طقوسهم اليومية المعتادة، بما لا يمكن الخطر المهدق بهم من شل قدرتهم على الحياة.

لذلك، عادت الحياة بعد يومين من صدمة القصف بالطائرات إلى سياقها اليومي. يكتظ دوار المنارة بالشباب في ساعات ما بعد الظهر، تفتح المحلات التجارية والمقاهي والمطاعم أبوابها، ويزدحم الشارع الرئيسي في رام الله بالسيارات التي يغضب أصحابها من اختناقات مرورية تؤخرهم وتحرمهم على الشكوى الدائمة.

في دوار المنارة تطل وجوه فتية بصفة شبه يومية من ملصقات كثيفة الألوان تجاور ملصقات أقدم عهداً. ربما كان أصحابها في هذا المكان يوم أمس. من المؤكد أنهم مرّوا من هذا المكان. وربما كان بين الفتية الجالسين على سور الكنيسة شهيد محتمل.

لا تستطيع الغالبية العظمى من الناس مغادرة رام الله أو الدخول إليها. هناك أعداد قليلة تتمكن من القدوم من القدس أو مدن أخرى، لكنها تحتاج إلى ثلاثة أضعاف الوقت المعتاد، وإلى سلوك طرق ترابية مرتجلة تم « اكتشافها » بعدما أغلق الإسرائيليون الطرق الرئيسية. لكن الطريق إلى بيرزيت ما زالت سالكة حتى الآن.

أرى الطريق من نافذة البيت. حاول الإسرائيليون أغلاقها في الأيام الأولى، لكنهم تعرضوا لوابل من النيران. ويبدو أن صعوبة التواجد في ذلك المكان بصفة يومية لأسباب أمنية محضة، دفعتهم إلى التراجع عن تلك الفكرة. في رؤية السيارات الصاعدة إلى بيرزيت ما يمنح المشهد الصباحي قدراً من الألفة والعادية، لكن صوت الرصاص القادم من السيتي إن وبيت إيل يبدد العادي والمألوف. أصبحت أصوات القذائف والرصاص متقطعة في الآونة الأخيرة، لكن ذلك لا ينفي احتمال عودتها، ولا ينفي عدم وقوعها أو ازدياد كثافتها في أماكن أخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة. فالواضح والمؤكد أن ما نشهده الآن وهنا مرشح للاستمرار في المدى المنظور.

رام الله

## الركض في ساحة خراثيت : لا أحد يحصي عدد الشهداء !

---

### اسحق لاؤور

« يشبه الشرق الأوسط فيلمًا من أفلام فيليني، ولا يشبه أفلام انغمار برغمان، العنف والغضب رهن الإشارة، دائماً »  
عاموس عوز، « غارديان »، ٢٥/٧/٢٠٠٠ (مباشرة بعد فشل كامب ديفيد)

لي رجاء في البداية : أرجو أن يتنبه قراء هذا المقال لتواريخ الاقتباسات . أحياناً ما تكون قريبة من بعضها؛ فمقال مكتوب وسط طفرة الإحساس بـ « نهاية الصراع »، بدافع من نوع من السجود الغبي ليهود باراك و / أو من خلال استخفاف بمنتقدي الذهاب إلى كامب ديفيد في صيف ٢٠٠٠، يختلف بروحه عن مقال مكتوب بعد ذلك بأسبوع، بدافع من كراهية كبرى لعرفات، « من أتلّف » نهاية الصراع، التي كادت تنجيء . مهم كذلك من أين يأتي الاقتباس . عندما يكتب عاموس عوز للغارديان، فهو يفكر بالليبرالي الإنكليزي، في أكسفورد أو كامبريدج . إنه متفائل، وحذر في تصاوره العنصرية، حتى بعد « حادثة القتل » في رام الله التي كانت الإشارة على « الزعزعة من سفك الدماء » ( كان تعداد قتلى الفلسطينيين آنذاك تجاوز المائة ) . وعندما يكتب لصحيفة « نيويورك تايمز »، يستخدم تعابير « القديمة والجيدة »، عن الأرواح والشياطين، المستمدة من مصنع القولية، بواسطة « كيتش » ميلودرامي، لأنه يعرف، مثل كاتب نصوص جيد، أو موجه إعلامي قومي، إلى أي جمهور يكتب هذا المقال .

---

خاص بـ « الكرمل »

كذلك، فإن أرقام القتلى جديرة بأن تنتصب من خلل هذا «المفهوم ضمناً» في هذه القراءة. كلهم ينتمون إلى إنكار الكارثة الفلسطينية. كانت عملية الحضيرة في أواخر نوفمبر قاتلة، راح ضحيتها اثنان، أما قتل خمسة مواطنين من قلقيلية مباشرة بعد ذلك فكان «حادثاً اعتيادياً»، وفي أحسن الحالات، قصة «نجاح لقواتنا». كان بالإمكان الحديث عن دور المراسلين العسكريين، واختفاء الحوار في تقديم الأخبار. يسأل مقدم البرنامج أياً من روني دانييل أو ألون بن دافيد: «هل ينوي جيش الدفاع الرد في إحدى الليالي؟» ولا بد للإجابة من أن تتضمن دائماً «نعم، بالتأكيد»، «هل هذا صعود مرتبة أعلى؟»، «نعم، بالتأكيد»، عندها، وبعد الـ «نعم، بالتأكيد» الثانية أو الثالثة، يواصل المراسل العسكري نقل كلمة الجيش، كما فعل مقدم البرنامج، كما المذيع في الراديو، كما المحلل السياسي، كما أمنون أبراموفتش، أو أهود عمري، أو أريه غولان، أو ميكى جيموفتش، مع ابتداء القلق على «مصير شعبنا»، بالطبع، وبقيّة الملاذات الأخرى التي يلجأ إليها الوطني، بما في ذلك إنكار الكارثة والجرائم المحيطة. هؤلاء هم مستنسخو القوة من النوع المنحط، وناسخوها الأوتوماتيكيون. ما تدعى بالنسبة للإعلام في الحرب الأخيرة لم يكن سوى تصورات الذاتية، كأنها لم تعد كما كانت في «العهد البين غوريوني». كل من سجل أمنون أبراموفتش لنفسه بالفيديو أمكنه مقارنة الدور الذي يلعبه هذا المحلل، مثلاً، مع تنميط مشابه للأخبار في أيام بن غوريون: «دكتاتور مصر»، و«الدكتاتور المصري»، الخ. بإمكان كل راغب بالتوسع، التأكد بالضبط متى عاد التعبير البائس «المغربون» إلى لغة الأخبار. دفعة واحدة.

ما برز أكثر من أي شيء آخر في الإعلام كان اجتهاده في الحصول على دعم من بيت المثقفين العجزة. توجه ملحق «هآرتس» مختلف أنواع المثقفين ليقوم بتنميط «ارتباك اليسار»، اختبأ معظم من قابلهم في البيت عندما بدأت حرب لبنان، قبل عشرين عاماً تقريباً. غالبيتهم كانت «مرتبكة» آنذاك أيضاً. لم يكن يرمياهو يوفيل، على سبيل المثال، «يسارياً» مرة، باستثناء نوع من التماثل النرجسي بينه وبين سبينوزا، عن طريق وساطة «السلام الآن»: لو كان سبينوزا يعيش في أيامنا لكان بالتأكيد عضواً في «السلام الآن» سوية مع يرمياهو يوفيل. في كل الأحوال، عندما تنشأ الحاجة لحلحلة اليسار، يتجندون لليسار لكي يخلخلوه. ومقالات عاموس عوز في خارج البلاد نشرت أولاً من دون الإشارة لمواقفه السياسية. بعد ذلك، وفي أوج الحرب، حرص على منح نفسه لقب «من مؤسسي سلام الآن»، وبالذات، وعندما كانت كتابته أسوأ من صراخ العامة في ملعب كرة قدم، حرص على الإشارة إلى كونه من مؤسسي «السلام الآن»، الآن في أوج أيام تأييده للحرب.

جرى تجنيد الرأي العام، منذ انهيار مغامرة كامب ديفيد في أواخر يوليو ٢٠٠٠، بواسطة دعم قدمه «المثقفون» للصحافيين. وإذا رغبتم، فإن سلسلة الأمور لا تعمل بصورة مباشرة: فالتقصص الذي يطلق النار على فتى متظاهر، ليس بحاجة لمقابلة في الصحيفة مع البروفسور مناحم بريونكر، لكي يقول للمراسل ببث مباشر «أنزلت واحداً آخر». ولكن لو قامت الدنيا في اليوم التالي على هذه الجملة التي قيلت على الهواء، لفكر قائد القنصا مرتين، ولو اتصل اثنان - ثلاثة من أصحاب جائزة إسرائيل بمقدمة البرنامج في الراديو، معبرين عن استنكارهم الشديد، كما يفعلون في مسائل تكاد تكون عادية، وحتى لو أن أساكشير، الرجل الذي وضع نظام الضوابط الأخلاقية للجيش دون أن

يشير فيها ولو بكلمة واحدة إلى الاحتلال، اتصل وقال كلمة عن «لا تقتل»، لاكتسب «القانون» المهم إلى هذا الحد في الشيفرات الأخلاقية في مثل هذه الحالة، دلالات أخلاقية، ذلك لم يحدث. وحدث العكس: حصل الصحافيون، الهوامش المنخفضة للعالم الثقافي، على الدعم من السلوك المشين للمثقفين، ومن حين لآخر تراكض نفس الصحفيين لكي يبنوا السلوك المشين، وينمطوه كمصطلح إعلامي - «ارتباك اليسار» - وهم الذين منحوا الدعم للسياسيين، ولا يجب أن ننسى التحريض في الحث على «رد فعل ملائم» من جانب مقدمي البرامج، والمذيعين والمراسلين؛ ولا يجب أن ننسى الكذبة الكبرى التي طورتها الصحافة عن «تبادل ثقيل للنيران»: نار الرشاشات الأوتوماتيكية، في أخطر الحالات من جهة، ونار صواريخ ورشاشات ثقيلة ومروحيات ومدافع من الجهة الثانية. على هذه المذبحة، على ميدان الرماية هذا، أطلق الإعلام اسم «تبادل للنيران» - والسياسيون هم الذين منحوا بـ «تصويت في مجلس الوزراء» الدعم لتحويل المتظاهرين إلى مرمى جماعي، بمن فيهم البروفسور شلومو بن عامي، المختص بالفاشية والوزيرة البروفسور يولي تمير، المختصة بالتعددية الثقافية.

لم يحمل «الشارع» التحريض ضد الفلسطينيين إلى أعالي السلطة التي ردت بسبب الشارع. لم تقع حرب بسببها تبين بهذا الوضوح النقيض التام للعملية. وأي هتاف بـ «الموت للعرب» في ملعب كرة قدم لم يُشَقَّ من «رؤى» عنصرية محسوبة أو تربية عمرها سنوات. تلقت العامة في الملعب وفي الشارع درساً جيداً مما شاهدته في الأخبار، إذ ليس هناك أسرع وأسهل من إنزال «الموت بالعرب»، لكن العامة كانت أقل فظاعة من قرارات الحكومة ومجلس الوزراء التي تم تنفيذها في نفس الليلة وكان معناها الوحيد هو الموت للعرب. لذلك، يجب توجيه النداء المنطوي عليه هذا المقال نحو ما يسمى «ثقافة اليسار الصهيوني». ولدت هذه الفقة من المثقفين، الذين أريد الاشتغال بهم هنا، من داخل انكار الجرائم المنفذة بالفلسطينيين منذ ١٩٤٨ والسنوات التالية لها، مروراً بالحكم العسكري ومصادرة الأراضي والاعتقالات الإدارية. لعل هذه القضية - التغيب - أبرز مركب في صلف وغرور مؤيدي رحلة براك الغيبية إلى كامب ديفيد. مهما يكن من أمر، فإن مثقفي اليسار الصهيوني العجزة لا يستطيعون النظر نحو الفظائع والقتول «نحن ضد ذلك». عندما تحدثوا فرادى، كل شخص في مقاله، أو المقابلة معه، ردوا بالضبط أقوال السلطة، بدون أية إضافة شخصية. وعندما جروا، بالتالي، في السابح عشر من نوفمبر على التوقيع على عريضة قالت العكس مما كتبوه طيلة الوقت، قالوا ذلك سوية، كأنهم ثلة جيناء. لم يسألهم أحد «ماذا تغير؟»، وواصلت الصحافة مهمتها بقوة الدفع الآلية التلقائية. وعن ذلك هذا المقال. كم تبدو هذه المسألة مختلفة، إذا قارنا الاستهتار الذي تميز به سلوك ثلة الجيناء هذه مع الإعلان الذي يادر البروفيسور داني غور إلى نشره في «هآرتس»، مع سقوط أوائل الشهداء. كيم كان جراح القلب هذا جريماً في سعيه لرفع صوته.

#### ١ - «أحصوا الموتى»...

في حرب لبنان، التي استمرت منذ ١٩٨٢ حتى ١٩٨٥، قتل أكثر من ستمائة إسرائيلي. لم نتوقف عن سماع هذا الرقم في مظاهرات السلام. في غضون الشهرين الأولين على الإنتفاضة الحالية

قتل حتى الآن ما يقارب الثلاثمائة فلسطيني، من بين مجموعة سكانية أقل بكثير من تلك الموجودة في دولة إسرائيل، أي ثلث ما فقدته إسرائيل خلال ثلاث سنوات، إضافة لآلاف الجرحى ومئات المعوقين، وهناك مَنْ يقول الآلاف. كانت الأغلبية الساحقة من القتلى من الأولاد والفتية، لكن مثقفي «اليسار الصهيوني» صمتوا، وبإصرار. كان بمقدور ليثا رابين المريضة أن تدعو باراك من سرير موتها لوقف القتل. بينما لم يكن بمقدور عاموس عوز مثلاً اسماع صوته ولو مرة واحدة. وهكذا، فإن قضاياها كان يتوجب نقلها أمام المحكمة الدولية في لاهاي ثمّ مَرَّ الكرام على جدول الأعمال كأنها المقصود رش المتظاهرين بالمياه الملونة، أو رميهم بالحصى. لا أحد يحصى عدد القتلى الفلسطينيين. اتصلت غلاظة القلب هذه خلال السنوات الأخيرة بالغرور في كل ما يتصل بعملية أوسلو. «انتصرت الصهيونية»، «انتصرت البراغماتية»، و«انتصر الحمائم»: أثبتت النخبة صِدْقَتها. بدأ ذلك بالتأكيد من قبل، لكن يضيق المجال عن البحث في القيمة الأخلاقية للشعار «الاحتلال مُفسد»، أو «المناطق هي ورقة مساومة». وعموماً، منذ اتفاقية أوسلو بُنيَ الشبيه باليسار الحمائم في إسرائيل، من دون فلسطينيين. «هم هناك ونحن هنا». وحقيقة أن «هناك» محكوماً لـ «هنا» طُمست تماماً عبر أكذوبة «نهاية الصراع».

بعد انهيار كامب ديفيد في الصيف الأخير، بث التلفزيون الرسمي الهولندي لقاء بين أ. ب. يهوشع والكاتبة الفلسطينية من رام الله، ليانا بدر، جلب زميلنا ران هكوهن شريط اللقاء من محطة التلفزيون تلك، وأقنع هيئة تحرير أسبوعية «هعير-المدينة» بنشر أجزاء من نص الحديث. نشر الحديث في «هعير» بعد أسبوع من القتل بالقرب من المسجد الأقصى.

بدر مولودة في القدس، لجأت للأردن، ومنه للبنان، ثم إلى تونس، ومنها سُمح لها بالعودة إلى رام الله. قُدم يهوشع في البرنامج باعتباره «ناشط سلام يكاد يكون ملاحقاً في البلاد ليساريتته». بنية الكذب هذه الصادرة عن دعائبي المؤسسة تكرر نفسها، كذلك عاموس عوز، إذ عَرَضَ نفسه كملاحق في السابق جراء تأييده قيام دولة فلسطينية. حتى بناته لوحقن بسبب مواقف الأب. لم يلاحقهن أحد، بالطبع! ايجاد الملاحقة مربح على ما يبدو جيداً لإثبات أن «الفلسطينيين، حتى مع اليسار غير قادرين على التدبر» فحسب، أي أن هناك إجماعاً قومياً في إسرائيل ضد «الرفض الفلسطيني»، بل هو متصل بالحاجة لشرح «الإنقلاب الداخلي الذي مرت به إسرائيل»: من كانوا مطاردين بسبب يساريتهم في «ماضي إسرائيل المظلم»، يعدون اليوم أشخاصاً مركزين في الثقافة. لا تمتدحوا بهذا الوصف البنيوي، فهو يتكرر كثيراً إلى جانب أنماط تغيب مشابهة في الدعاية الحمائمية.<sup>(٢)</sup>

وهذا ما قالته بدر في التلفزيون الهولندي، شهراً واحداً قبل اندلاع الانتفاضة: «لا دولة لي، ولا أي إحساس بالأمن، ومن حولي يسرقون أرضي كل الوقت...». وهنا قاطع أ. ب. يهوشع أقوالها قائلاً: «لا تتظاهري كأنكم مساكين أكثر مما أنتم حقاً. لديكم مشاكل، ولكن...». حاولت بدر إنهاء الجملة التي بدأتها، لكن مؤلف «ازاء الغابات»، الذي سبق له أن قطع لبطله العربي اللسان في قصته الشهيرة، وبعد ذلك أعطاه لساناً لكي يقتبس... بباليك (في «العاشق»)، يواصل الكلام بدلاً منها:

«لديكم شرطة، ولديكم منذ الآن ما يشبه الجيش الخاص بكم، عندما اذهب لرام الله أرى رجال

الشرطة الفلسطينية بالكلاشنيكوفات الخ. ولديكم عرفات، الذي يُستقبل في العالم كله كما لو كان رئيس حكومة».

لا تسحبوا اكتشافكم استخفافاً بغياء المتكلم. حاولوا أن تقرأوا في هذه الأقوال المنطق البنتوستاني، لكي تفهموا ماذا حدث في الجمهور الإسرائيلي حتى الإنتفاضة الأخيرة.

اشتكت بدر من الحظر على دخول القدس (وهي مسألة عُثِبت تماماً في السنوات الأخيرة) : « بالنسبة لي فهي نوع من المنفى الجديد، هذه ليست عودة للبيت. أنا ابنة هذه المدينة، فلماذا أنا في المنفى ولماذا يحظر عليّ الدخول بدون تصديق منكم؟ أعتقد أن كل هذا الاختناق، والإحساس بأنك في نفس المكان مرة أخرى، بكل للمشاكل والعنف المحيط، يسد الطريق أمام مشاعري ... ». حاول يهوشع مقاطعتها عدة مرات، وبالتالي سيطر على الحديث بواسطة المونولوج الذي يحظر نسيانه، ولو بسبب التاريخ فقط، الأول من سبتمبر ٢٠٠٠، قبل اندلاع الإنتفاضة بأقل من شهر.

« أنا الآن غاضب حقاً، أنا الآن غاضب حقاً، لأنك لست منطقية. وقعت هنا إنتفاضة. وفي كل يوم يُجرح فلسطيني، ويُجرح إسرائيليون أيضاً، والحرب مستمرة كل الوقت. اختفى الازهاق منذ ثلاث-أربع سنوات. كل شيء هادئ، لا مظاهرات، ربما القليل هنا وهناك، ولكنها تقلصت، إذن، لا يمكنك القول إنه نفس الوضع. هناك تحسن ... ».

للحظة لم يخطر بباله الإصغاء لها أو الرد عليها. لا حوار له معها. فهو يمثل دولة إسرائيل، يمثل الهوية الجمعية التي ينتمي إليها، ومحط تماثله. إنه لا يستطيع الإصغاء لها، فليس لهذا الغرض هو موجود هناك. فهو ليس وحده. إنه رسول الهجرة في الوكالة بروحه. بعد ذلك قد يجلس لكتابة رواية عن شاعرة فلسطينية ويضع في قسما نصاً سهلاً، شيئاً قومياً، يجعلنا نكون « يهوداً »، في مواجهتها بالطبع، ويتحدث عن مصالحة بين القوميتين، ولكن حديثها عن الأرض، والحاجز، والاختناق، لا يمكنه سماعه (عامي أيلون، رئيس «الشبابك» السابق يتحدث عن ذلك، أما أ. ب. يهوشع، في هولندا أو إسرائيل، فلا يستطيع). وها هو يواصل :

« تعرفون أن ما يقارب ١٨٠٠ فلسطيني وحوالي مائتي إسرائيلي قتلوا في سنوات الإنتفاضة. انظروا ما حدث في كوسوفو أو سراييفو أو البلقان، في حرب من ثلاث إلى أربع سنوات، قتل ٤٠ ألف شخص هناك. (...) أقول ذلك لأنني أرغب في وضع الأمور في نصابها الصحيح. قوموا بإحصاء الموتى، يجب إحصاء الموتى، ذلك هام جداً ... ».

بعد ذلك بستة أسابيع، وبيومين على يوم الغفران (كان قد سقط بضعة عشرات من القتلى)، ورد في أخبار الصباح في القناة الثانية باقتضاب نبأ زيارة تعزية أدياء عبريين لدى عائلة من الناصرة، فقدت ابنها برصاص القناصة. أظهر المقطع القصير أ. ب. يهوشع يتحدث للاب الشاكل بكلمات التعزية : « الآن دخلتم إلى الوعي الإسرائيلي، لأن الكل ملّ عرفات والفلسطينيين. الآن دخلتم إلى الوعي ». قبل ذلك كان قد باع بدر الاحترام الكبير الذي يحظى به عرفات كعزاء عن فقدان أرضها، حريتها. والآن يبيع الاب الشاكل من الناصرة عداء الإسرائيليين لعرفات كعزاء على موت ابنه. لست معنياً بغباء أ. ب. يهوشع ولا بانتماده العاطفي أيضاً، بل بالاستعلاء الكولونيالي الكامن في هذه الجملة. فالمعارك في الناصرة، بموجب رواية يهوشع، لا علاقة لها بالأحداث في المناطق المحتلة. فقد

ترجّعوا للشوارع للتظاهر هكذا، «بلا سبب»، والآن، بعد أن «ملّ الجميع السلطة في المناطق»، لأننا كلنا مللنا عرفات، كذلك الأب الثاكل، الذي من المؤكد أن شعوره يتحسن لسماعه كلمات العزاء، الآن فقط سنفرغ قليلاً لكم، يا «عربنا».

## ٢ - مصلحتهم هي مصلحة باراك، وبالعكس

لو قاد هذا القتل الجماعي في صفوف الفلسطينيين «بيبي» أو شارون، لانطوت بلادة اليسار الصهيوني ولاستمعنا لخطاب آخر، قد يكون انفعالياً أحياناً، وربما مليئاً بالأسطورة «المحكمة». لا يوجد ما هو أفضل من النموذج الذي قدمته التصريعات المتلاحقة ضد حكومة نتنياهو بعد أحداث «النفق»، في الأسبوع الأخير من سبتمبر ١٩٩٦. على مدار يومين من القتال قتل ١٦ إسرائيلياً وأكثر من ثمانين فلسطينياً. لكن أصبح اتهام «المعسكر المغلق» وجهت فقط ضد نتيناهو، لا ضد عرفات بأي حال من الأحوال، لم نسمع كلمة واحدة عن عرفات، فقد كان المحرض «بيبي». وهل هناك ما هو أفضل من افتتاحية «هآرتس»:

«جاء الانفجار الفلسطيني العنيف رداً على فتح نفق الحشمونيم في الحي الإسلامي في القدس، لكنه يعكس خيبة أمل جوهرية من عملية السلام. الإغلاق، البطالة، الفقر، البنى التحتية المتداعية، والتدخل المتواصل بحياة السكان، لم تعد مجرد معاناة من يمضي نحو مستقبل أفضل، بل وضعاً لا مخرج منه» «هآرتس»، ٢٧/٩/٩٦.

أين اختبأ «فهم» كهذا بعد إطلاق النار الجماعي على متظاهرين كانوا خرجوا للتو من المسجد الأقصى، عشية رأس السنة، بعد أن تلقى أرئيل شارون اذناً بالتوجه إلى هناك، بعد أن حاول عرفات لدى باراك في «كوخاف غير» ألا يسمح لبطل صبرا وشاتيلا بالتوجه إلى هناك؟ لم يكن هناك أي «فهم» من هذا القبيل. كان هذا الفهم في أيام نتيناهو كما في أيامنا هذه، نافعاً تماماً، وهو منتشر في ما لا يحصر له من أشكال البكاء والاحتجاج على غرار «نتيناهو يهدم الدولة»، التي كانت تعني على الدوام: «يا رب للسلطة اخترتنا، نحن الجماعة الأفضل من «اليسار الصهيوني»...». ويفترض هؤلاء الأشخاص الطيبون، بشكل عام، حتى لو لم يكونوا عنصرين واعين عنصريتهم، وجود تناقض مركزي واحد في سياستنا، بين «الليكوود» و«العمل»، أي بين السلام والحرب، أي بين الخير والشر، وهو تناقض يجب على الفلسطينيين أيضاً «ادراكه»، الموافقة عليه وحتى مساعدة «الخير على الانتصار» على الشر، أي تمكين «السلام» من التغلب على «الحرب»، أي مساعدة أهود باراك في التغلب على أرئيل شارون، لأن كل شيء ينحصر فقط في التناقض بين باراك و«بيبي» (= شارون). ولو رغبتنا بالخاطرة بلغة افتراضية أكثر: اجمال التناقضات «التي بداخلنا» هو المطلق الوحيد، وكل ما تبقى تافه، من هنا لا بد للتناقض المركزي «في حياتنا» من أن يكون تناقضاً مركزياً في حياتهم أيضاً. وتنحية الفلسطينيين عن التناقض المركزي بين مصالحهم وبين الاحتلال الإسرائيلي، وتحبيد هم عن التناقض بين الاحتلال وبين حياتهم تحت الاحتلال، أي تنحيهم عن جدول الأعمال بواسطة «جدول الأعمال الواقعي»، أو شيء ما من نوع «اتفاق بيلين-أبو مازن» باعتباره نهاية المطاف في المفاوضات،

كلها جزء من عملية طويلة بلغت أوجها في اتفاقية أوسلو، وتواصلت بتحويل « ميرتس » إلى حزب « معاد للدين »، أو « طائفي - أشكنازي »، وبعد ذلك باختفاء « السلام الآن » ونهايتها في « واجب اليسار » وحتى « واجب الفلسطينيين » مساعدة ايهود باراك لكي ينتخب مجدداً لرئاسة الحكومة، بعد القتل الجماعي الذي أشرف عليه .

أي تبريرات يستخدمها مثقفو اليسار الصهيوني لإلزام الفلسطينيين بابتلاع هذا التناقض الجزئي، المختصر، الكامن في « باراك أو بيبي »؟ باسم الواقعية، بالطبع، الـ « الواقعية السياسية » . من بحاجة لدفع ثمن باهظ لقاء الواقعية السياسية؟ هم . من لا يجب عليه أن يدفع البتة لقاءها؟ « نحن » . تحت هذا العهر الكلامي تستتر العنصرية .

عشية سفر باراك استعداداً لخطاه الغيبي في كامب ديفيد، أبلغ البروفيسور مناحم برينكر اليسار الإسرائيلي عبر صفحات « هآرتس » :

« جاء باراك إلى كامب ديفيد مع برنامج سياسي بعيد المدى . لم يسبق لأي قائد إسرائيلي في الماضي أن عرض خطة كهذه على الفلسطينيين . لا يوجد لدى اليسار أي سبب لتوجيه النقد لخطوطه الحمراء » ( « هآرتس » ، « أخلاق البراغمانية » ، ١٧ / ٧ / ٢٠٠٠ ) .

بكلمات أخرى، لا يوجد لدى اليسار أي سبب لتوجيه النقد لأنه مستعد لإعطاء الكثير . حسنة تنفذ من الموت . برينكر لا يكتفي بهذا القليل :

« أنا معني بسلام في أرض الواقع، وليس على الورق، لذلك، فإنني ملزم بأن أفهم أن هناك أسباباً موضوعية تفرض على باراك حدود تنازلاته » .

كل من يعرف خريطة مقترحات باراك، يعرف أن برينكر كاذب، وأن جميع من باعوا قائمة المشريات بالنسب المئوية، ٩٠٪ من الضفة الغربية وغير ذلك من الترهات، كذابون . ومن تعلم إحصاء الفلسطينيين ستين طويلة باعتبارهم « تهديداً ديموغرافياً »، أي : كم من الفلسطينيين سيكونون « بيننا »، تعلم كيف يحصي أيضاً أرضهم بالنسب المئوية، لا كابناء البلاد . تذكر « أكبر قدر ممكن من الأرض، وأقل قدر ممكن من الفلسطينيين »؟ ها هو إذن تفسير كذبة النسب المئوية المكشوفة . سيضطر المؤرخون لأن يسألوا ذات يوم إذا لم يكن باراك راغباً بتفجير كامب ديفيد، أم أن ما حدث كان مجرد احباط سياسي . ولكن، ما الذي دفع أشخاصاً مركزيين في حياتهم اليومية، بهذه الطريقة أو تلك، في مجالات عملهم على الأقل، للتطوع وتسليم السلطات المفاتيح القليلة التي بقيت للمعارضة اليسارية - هذه المسألة لن يعالجها حتى المؤرخون، مع ذلك يجدر التوقف عند ذلك . يعرف برينكر، باعتباره أستاذاً للفلسفة، أن استخدام التعبير « ظروف موضوعية » قد يخفي وراءه استعراض القوة الوحشي، في القسمة بين « الموضوعي » و « الانتقائي » وفي الطريقة التي يؤدي ذلك بواسطتها . ما قاله برينكر باستعراض قوة يكاد يكون فلسفياً هو أن الظروف الموضوعية ( التاريخ ) هي ظروف انتقائية ( مشاكل اثنائية ) لدى الجانب القوي ( إسرائيل والولايات المتحدة بجانبها ) ومن يقرر ما هو الموضوعي هو الجانب القوي، الذي يقدم برينكر لقوته « القليل من التاريخ »، أي « الواقع الموضوعي » . جاء أبناء اللاجئين وغيروا لنا « الواقع الموضوعي » ( ولذلك فهو بالتأكيد صامت منذ تموز ) .

كذلك البروفسور افيشاي مرغليت، حبيب الـ «نيويورك ريفيو أوف بوكس» في كل ما يتعلق بإسرائيل، دفع بذلك خطوة باراك البهلوانية، هو الآخر تحدث في هذه المقابلة في «هآرتس»، عشية كامب ديفيد، وهو كذلك، مثل برينكر، سمع النقد الموجه لباراك ورفضه، كلاهما استمع إلى ما قاله في أكثر من موقع عن عوامل التهور المغامرة :

«أقوال باراك عن خطوط حمراء لا تهمني حقاً. هذه بلاغة كلامية، ترهات لن تكون ملزمة له فعلاً. تحت هذه الخطوط الحمراء يمكنه أن يدخل إلى الاتفاقية كل ما يرغب بإدخاله (...). يمكن ابقاء ٧٥ حتى ٨٠٪ من المستوطنين في إسرائيل على ستة ونصف بالمائة من مساحة الضفة، ويمكن ابقاؤهم حتى على خمسين بالمائة من مساحة الضفة. ( «هآرتس»، ١٧/٧/٢٠٠٠ ).

لماذا يصدق باراك؟ هكذا، إنه ببساطة يصدق باراك. على أي أساس؟ على أساس «مصادر علمية بالأمور»<sup>(٢٢)</sup>. في أي حال، وفي سبتمبر، الشهر الذي كان القتل فيه قد بلغ أوجه، نشر في «نيويورك ريفيو أوف بوكس» مقال لافيشاي مرغليت، «الشخص المهم» على مدار سنوات طويلة في «السلام الآن». بموجب مضمونه ورقته، يبدو أن المقال مكتوب مباشرة بعد انهيار مؤتمر كامب ديفيد، وقبل الحرب :

«الصراع الممتد منذ مائة عام، كما يصفه يهود باراك، تقلص في كامب ديفيد بحجم ثوابته. ووفقاً لمصادر علمية بالأمور، فإن النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود. وهي لا تمس مشاكل الأمن أو المياه. إنها القدس» (مجلة نيويورك لمراجعة الكتب ٢١/٩/٢٠٠٠). «النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود»، هكذا يكتب الفيلسوف، بهذه الكلمات : «النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود».

عندما ارتفع عدد القتلى بصورة ملحوظة، وبعد أن قتل ١٣ مواطناً عربياً من دولة إسرائيل، نشر ملحق «هآرتس» تقريراً حاول أن يبني فيه صورة «يسار حائر». قبل أن نعود إلى ذلك التقرير، الذي لم يقابل أحداً من مئات الناشطين الذين كانوا قد بدأوا العمل ميدانياً، وشاركوا في المظاهرات واللقاءات، يجدر أن نذكر أ. ب. يهوشع في هذا السياق، خلافاً لآخرين مقتبسين هنا، فإن يهوشع صاحب قلم ثقيل، بقدر ما يبدو الأمر غريباً بالنسبة لأديب. من جهة أخرى، إنه يجب أن يقابلوه. ومن حين لآخر كان يحاول بيع الفلسطينيين النصائح والعظات عبر الراديو، في أيام الدماء التي سفكها الجيش الإسرائيلي. لا أعرف من هم الأشخاص الذين استضافوه في رام الله، عندما قام بزيارتها، كما يقول، لكن من الواضح أن هذه الضيافة تمت على خلفية ما فعله الفلسطينيون باليسار الإسرائيلي الحقيقي بعد اتفاقيات أوسلو، مفضلين عليه «الوجهاء الإسرائيليين»، وبكلمة واحدة : خانونا. المهم أن يهوشع قال في ذلك التقرير من «هآرتس» عكس ما قيل للبانة بدر :

«صحيح. رد فعل اليسار الإسرائيلي وخيبته مفهومة. جلسنا مع عرفات، وكان عرض باراك سخياً، لكنه تجاوز كل الأصول بدافع من الاعتقاد بأنه بالعنف والضغط الدولي فقط يمكنه إحراز إنجازات كبيرة. هذه هي خيبة الأمل وهو يرتكب خطأ كبيراً لأن من وقف أمامه هو باراك لا شارون أو نتنياهو، مع اجماع قومي عريض للانتهاز من الأمر» («حيرة اليسار»، ملحق «هآرتس»، ٢٠/١٠/٢٠٠٠).

وكالعادة، وعلى هذا المستوى من العبادة الغيبية، لم يكن هناك من هو أشد حماساً من عاموس عوز في قول انصاف الحقائق. أحياناً بدا أن وجوده كشخصية إعلامية متعلق برمته بالقدرة على نفخ البالون الإسرائيلي، بالانكليزية، في خارج البلاد. أرجو أن تنتبهوا للعبادة الشخصية لدى «الثقف». هذه هي أيام «نجاح» يهود براك، قبل كامب ديفيد :

«هناك شبه مذهل بين هذه الايام واللحظات الحاسمة لولادة الأمة الإسرائيلية: نوفمبر ١٩٤٧ (... ) وإيار ١٩٤٨ (... ) وقف يهود براك أمام تحفة بمقاسات بن غوريونية؛ إنه يبدو كمن يخرج لملاقاة التحدي بشجاعة بن غوريون. (عاموس عوز، «الجراح الرئيسي ملزم بوقف سفك الدماء»، «غارديان»، ١١/٧/٢٠٠٠).

وبعد أن يحط إلى حد لا معقول المقارنة بين بن غوريون ومعارضيه داخل الحركة الصهيونية - مرة في أوساط المعسكر اليميني المتطرف عشية قرار الأمم المتحدة، وبعد ذلك من جانب بعض المحسوبين على المعسكر المعتدل عشية الإعلان عن إقامة الدولة - يصل عوز ذروة اللامبالاة في طفرة شعورية عاجزة عن فهم الكارثة المقترنة:

«يبدو أن يهود براك ورفاقه ملزمون الآن بالصراع ضد نموذجي المعارضة هذين في وقت واحد : واحدة صقرية على غرار ١٩٤٧ وأخرى جبانة من نوع ١٩٤٨. لو حكمنا بموجب سلوك السيد براك، فإن لديه الشجاعة لمجاهدة النموذجين. مهما يكن من أمر، فالسؤال لا يخص شجاعته الشخصية والسياسية فحسب، بل ما إذا كان الحمائم في إسرائيل يملكون ما يكفي من طاقة لدعمه، بينما بعض الشركاء الأشد صقرية، أو الأكثر تسلطاً، ينشقون» (نفس المصدر).

مرة أخرى، فالمشكلة ليست في الزعيم بل في «اليسار»، أي الحمائم التي لا تجرؤ وتكاد تكون جبانة، من نوع «معارض بن غوريون من الداخل». مرة أخرى يُكنس جانباً النقد الموجه لاجراءات براك المغامرة، كأنه لم يكن، ولم يتردد، ولم يكن مناسباً :

«علينا أن نخرج الآن، وأن نظهر للداخل وللعالم أن ملايين الإسرائيليين يغمرون رئيس حكومتهم بالدفع وتمنيات النجاح» (ن. م.).

من يكتب لهم هذه النصوص ؟ كيف أن نفس الكلمات تتردد في مظاهرة أمام بيت رئيس الحكومة في القدس، وفي أقوال رؤساء «السلام الآن» وفي كتابات أديب «منزل في النقب» ؟. «امض إلى كامب ديفيد يهود براك، امض بشجاعة وحذر وحكمة ورؤياً وتفهم للآخرين، وبحسك الحاد بالواقع. امض إلى كامب ديفيد كما الجراح الذي يخطو بثبات نحو حلبة الجراحة؛ الحلبة التي فوقها سيُحسم مستقبل إسرائيل ومستقبل فلسطين». (ن. م.).

هذه مقالة سطحية لم تكن «الغارديان» لتنشرها لو أنها خصت الحلبة البريطانية. هذه الكلمات الجوفاء، لم تشر إلا من قريب ولا من بعيد إلى المشاكل التي يقف أمامها براك. هذا المقال المحلق، الذي يبدو كخطاب في الساحات العامة، لا يتضمن كلمة واحدة عن المياه والمستوطنات والعراقيل الأكيدة والمحاولة الإسرائيلية في فرض تسوية شاملة بدون التنازل عن المستوطنات في أهم مناطق الضفة (منطقتي بيت لحم ورام الله)، ولا يشير للقدس التي لا تدخل ضمن احصاءات النسب التي «يعطيها

باراك للفلسطينيين» من ضفتهم، انها القدس التي تكبر باضطراد وتصل تقريباً حتى البحر الميت، كلمة واحدة عن هذا كله لم يحملها «ناشط السلام الإسرائيلي»، ممثلاً في بريطانيا والولايات المتحدة والمانيا.

بعد ذلك بأسبوعين، ولم تكن الحرب قد اندلعت، كان عوز ملازماً بأن يبيع قراء «الغارديان» نوعاً من التحليل السياسي (مرات تساءلت إذا لم يكن هذا الإذن بارتكاب البلاءه والنشر في «الغارديان» متصلاً بالاستخفاف الإنجليزي العميق بالانتلجنسيا الإسرائيلية : «ماذا تريدون؟ هكذا هو عقلهم»، كان محرر الصحيفة يقول لقراءه (الإنجليز). هكذا كتب عوز في ٢٥/٧ عندما تبين ان المقال المنشور ١٤ يوماً قبل ذلك كانت له قيمة فقط لدى اكلي السمك والشيبس في مطر لندن :

«يهود باراك قطع شوطاً طويلاً نحو الفلسطينيين، حتى قبل قمة كامب ديفيد، أبعد بكثير مما قد يقطعه أي زعيم إسرائيلي آخر.

في طريقه إلى كامب ديفيد، كان موقف باراك المعلن حمائماً للغاية، إلى حد أنه فقد غالبيةته البرلمانية، الائتلاف، بل فقد قسماً من جمهور ناخبيه.

على رغم ذلك، وبينما هو يستعد للطيران، ووراءه جسمه وذنبه، وأصل باراك مثل قمره ريان محلقة، المهم أنه استمر. يبدو أن ياسر عرفات لم يقطع شوطاً طويلاً ووحيداً كهذا نحو الإسرائيليين. لعله لم يكن قادراً، أو أن الحماس المخلص لصنع السلام كان غائباً لديه. (عاموس عوز، «حتى لو فشل كامب ديفيد، فإن هذا النزاع يقف على ساقيه الخلفيين»، غارديان، ٢٥/٧/٢٠٠٠).

افتقد عرفات إلى «الحماس المخلص لصنع السلام». انتبهوا إلى غياب الاهتمام التام بالمشاكل الحقيقية التي كانت تغلي في تلك الأيام تحت الأرض وفوقها. بالنسبة للدعائي الإسرائيلي، فقد كان عرفات ببساطة أقل حماساً من باراك. وإذا سلبت مياهم، ألن يعطشوا؟ وإذا صودرت أراضيهم، ألن يجوعوا؟ وإذا أغلقوا في قراهم ومدنهم، ألن يخنقوا؟ وإذا ضيقوا في الطريق إلى عملهم اليومي في ثلاثة إلى أربعة حواجز كل يوم، ألن يرغبوا بالقتل؟ لكن المقال مكتوب كما أسلفنا للغارديان، وما طلب من عوز كان شيئاً خفيفاً، ليس انفعالياً أكثر مما يجب، وليس معادياً للعرب أكثر من اللازم. قراؤنا أيها القوموي العزيز ليبراليون مهذبون.

### ٣ - ألوان الحرب ، ملوثوها وضباها

لم تتوقف مسيرة بث الأوهام بشأن سخاء باراك عند المقابلة المنشورة عشية سفره إلى كامب ديفيد، أو المقالين في «الغارديان»، بعد أن تكشف الرحلة عن مغامرة. تواصلت المسيرة في كل حلبة أمكن فيها بيع الحرب القادمة. ليس مهماً إذا ما كان عاموس عوز عرف أو لم يعرف بوجود مخططات احتياطية للجيش لقمع انتفاضة جديدة. من كان راغباً، عرف بهذه المخططات. فقد الملح إليها في ما لاحصر له من الأحاديث والتوجيهات الصحفية، حتى في الراديو والتلفزيون. تحدثوا عن دبابات. تحدثوا عن صواريخ. تحدثوا عن مستوى منخفض من الحسائر.

من نيويورك، أرسل دان ميرون، شيخ الدراسات الأدبية العبرية، مباشرة لـ «يديعوت احرونوت»،

نفس الصيغة عن سخاء باراك، الذي لم ينوجد له أي إثبات، عميقاً في داخل الحرب :

« في الصراع الحالي فإن إسرائيل محقة أكثر مما كانت في جميع صراعاتها من يوم خروجها إلى حرب الأيام الستة، وربما كذلك منذ حرب الاستقلال في ١٩٤٨. إسرائيل لا تحارب على التمسك بالمناطق المحتلة ولا حتى على وجود المستوطنات والأحلام عن إسرائيل الكبرى، التي انقطعت عنها غالبية الجمهور الإسرائيلي. كل ما طالبت إسرائيل به هو أن يتم إخلاء المناطق بغالبيتها الساحقة وتسليمها للسلطة الفلسطينية، لكي تقيم عليها دولة مستقلة، في إطار اتفاق ومصالحة شاملة، يتم التعبير فيها عن بعض متطلباتها الحيوية ( «علام الصراع» ، «يديعوت احرونوت» ، ٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٠ ).

تجند دان ميرون للدعاية عندما كان وضع إسرائيل، كما بدا له من نيويورك، في أسوأ حال في «الإعلام العالمي». مهم أن تنتبه إلى أنه بتدهور الحرب إلى حضيض لم يكن له مثيل منذ سنوات، ظل الحديث يدور عن «سخاء إسرائيلي». وهنا تملكنا رغبة قوية في سؤال الدعائي من نيويورك صن «المتطلبات الحيوية لإسرائيل»؟ غوش عصيون؟ كريات أربع؟ الحى اليهودي في الخليل؟ بساغوت؟ جيلو؟ غوش قطيف؟ نتسرم؟ كفاردروم؟ الشوارع الالتفافية؟ شارع الأنفاق؟ السيطرة على مياه الضفة الغربية؟ ما هو مهم قوله الآن هو أنه عندما قوضت الحرب «التوقعات» بإنهاء النزاع، احتاج كل واحد من الدعائيين إلى مستوى أعلى من ألوان الحرب على سحنته.

أما عاموس عوز، وفي مقال في «الغارديان» من الثالث عشر في أكتوبر - وهو اليوم الذي أمكن فيه استخلاص الحد الأقصى من عملية مقتل جنديين إسرائيليين على يد فلسطينيين غاضبين في رام الله (وهو يفعل ذلك، فهي فرصته : لم يفاجئه «اللينش»، كما جاء في مقاله، ولماذا لم يفاجأ؟ لأنه سمع المثقفين الفلسطينيين في الراديو والتلفزيون التابعين لهم، كما حكى عوز لقراء «غارديان»، فجأة أمكنه سماع «صوتهم») - فكتب هكذا :

«يهود باراك (...) عرض في كامب ديفيد إعطاء الفلسطينيين أكثر من تسعين بالمائة من الضفة الغربية والاعتراف بدولة فلسطينية مع شرق القدس عاصمة لها. حتى أنه وافق، بأسنان مصطكة (هكذا) أن تنتقل الأماكن المقدسة في القدس المختلف عليها إلى وصاية إسلامية». (غارديان، ١٣ / ١٠ / ٢٠٠٠).

لنعد للحظة للوراء : مباشرة بعد انهيار المحادثات في كامب ديفيد حرص عوز على نشر مقال متلون وشري وحتى عنصري، في «نيويورك تايمز». كان ذلك هو الإعداد للحرب. لأم عنوان المقال عالم عوز الأدبي : «شبح صلاح الدين» (٢٨ / ٧ / ٢٠٠٠). يجدر التنبيه للمقارن الأسلوبية بين المقال الذي كتبه لد «غارديان» ثلاثة أيام قبل ذلك (٢٥ / ٧)، على نفس الخلفية. مهم أن تنتبه كم كان التبعد الدعائي محسوساً :

«اجلس أمام التلفزيون في الصالون، وأرى ياسر عرفات يحظى باستقبال الأبطال في غزة، وكل ذلك لأنه قال لا للسلام مع إسرائيل» (نيويورك تايمز ٢٨ / ٧ / ٢٠٠٠).

لم ترتجف يده جراء هذه الجملة. ولن ترتجف في المستقبل كذلك.

«قطاع غزة كله مغطى بالاعلام والشعارات التي تعلن قدوم «صالح الدين الفلسطيني» . «أهلاً وسهلاً بصالح الدين الجديد»، كتبوا على الجدران (...) تهاوى قلبي بين ضلوعي. (ن. م.).  
هكذا إذن، بعد وصف دقيق لعودة «الحريجي»، تنتقل الميلودراما إلى عاموس عوز نفسه، فقلبه ينكسر في الصالون، أمام قطاع غزة المغطى باللانفئات (هل شاهد أم لم يشاهد غوش قطيف، نتسرم وكفار دروم، ومخيمات اللاجئين؟) :

«منذ العام ١٩٦٧ وأنا واحد من أولئك الإسرائيليين القلائل الذين أثاروا حل دولتين جارتين مع القدس كعاصمة لهما، واعتراف متبادل وقبول متبادل. منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، تعاملوا معي كخائن، في صفوف شعبي. تحمل أولادي في المدرسة مختلف أنواع الإهانات، واتهموا بكونهم أبناء من هو مستعد لبيع وطنه». (ن. م.).

حقاً، كانت معاناته كبيرة. طفل المؤسسة الإسرائيلية المدلل يبيع الأمريكان كونه شخصاً مطارداً. لكن ما حدث الآن، أن الميلودراما انتقلت من الضحية السلبية لبعض من الوقت (عاموس عوز) إلى البطل الناشط، المخلص : «وبعد كل هذه السنوات الصعاب ذهب رئيس الحكومة يهود باراك إلى كامب ديفيد ليعرض الحل الذي تنبأت به قبل أكثر من ثلاثين عاماً». (ن. م.)  
( وحقاً، لم تكن الضحية سلبية تماماً، فهو أيضاً يتكشف عن مستشار لا بأس به لشؤون السلام، وأولاده فقط كانوا ضحايا حقيقيين؛ آه، أيها الأب الكبير). وفي كل الأحوال، لا بد من العودة الآن إلى الأيام التي سبقت ثورة المعلومات الكبرى التي غيرت ملامح إسرائيل كلية وحولتها من دولة ملاحقة للفلسطينيين إلى دولة ملاحقة للسلام :

«أتوقف لكي أفكر. أتذكر كيف كفت في تلك الأيام خلية هاتف عمومي لاحتواء المؤتمر القطري لناشطي السلام الإسرائيليين. أمكننا عدنا أنفسنا بأصابع أيدينا حقاً، أقلية صغيرة داخل أقلية. اليوم تغير كل شيء. أكثر من نصف الأمة معنا» (ن. م.)

#### ٤- ماذا يريد الفلسطينيون؟

لو لم يكن «كييتش» عوز جزءاً من ماساتنا، لا يمكن أن نضحك. لكن المسألة أعمق من ذلك، بسبب دوره السياسي. في سياق هذه الحرب، كان طبياً مهماً. عندما غادر يهود باراك إلى كامب ديفيد لم يحاول الشخص التفكير مرتين. فدوره ليس دور المثقف الذي يقف جانبا، بل حالاً، وبدون تفكير كثير، وبدافع من الشعور بالشراسة، وبتضامن تام. بإمكانه هنا أيضاً أن يكون «رجل سلام»، وكذلك إلى جانب السلطة وأيضاً أن يقوم بلجم أعداء السلطة «والسلام». كان العنوان على الجدار، بل إنهم تحدّثوا عنه داخل حزب العمل (بيريس)، لكن عوز، مثل مثقفي اليسار الصهيوني الآخرين، لا وقت لديهم للنقد. إنهم يريدون المشاركة في «المشروع الصهيوني».

أما أ. ب. يهوشع، الذي لم يدع ليانة بدر تتكلم، تماماً بنفس الطريق التي قطع بها لبطله العربي اللسان في «إزاء الغابات»، ووعدها أن وضعها جيد، لأن لديها شبه رئيس حكومة، فقد «اعترف» بخطئه، عندما اتدلعت الانتفاضة. ماذا يعني أن يخطئ؟.

« اعترف أنني لم أفهم ما يريد عرفات . لكن الشعب اليوغسلافي أيضاً سار وراء ميلوسوفتش وحارب لجانبه، وها هو الآن لم يعد موجوداً » ( « حيرة اليسار » ، ملحق « هآرتس » ، ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠ ) .  
بالمناخية ، ميلوسوفتش متهم بالمسؤولية عن « تطهير عرقي » . من تتم مقارنته هنا بمنفذي « التطهير العرقي » ؟ الفلسطينيون بالطبع . أي ، أنه أخطأ . والآن ، فهو يصحح نفسه .

من هذه الناحية ، فإن المقابلة مع أفيشاي مرغليت ومناحم برينكر مثيرة أكثر . إنهما لم يذهبا لإعطاء حديث صحفي فقط مجرد أن المراسل ، الذي هو بنفسه ناشط سابق في « اليسار الصهيوني » ، عرض عليهما إجراء مقابلة . لقد اختارا هذه الخلية ، لتسديد الضربة لـ « السلام الآن » . لذلك ، تم عرضهما في « هآرتس » ، عشية سفر باراك إلى كامب ديفيد ، وبإسهاب ، كمؤسسي « السلام الآن » . في الشهور التي سبقت كامب ديفيد اتخذ باراك له هدفاً مركزياً ( بل تباهى أكثر من مرة بتحقيق هذا الهدف ) : تجنيد معارضة شاملة في الغرب لإعلان الفلسطينيين من جانب واحد عن إقامة دولة مستقلة . بعدها تباهى بحقيقة فرض مؤتمر كامب ديفيد على عرفات ( ستظل تُذكر لسنين طويلة في الغولكلور الفلسطيني تلك الصورة التي ينجح فيها باراك بدفع عرفات إلى داخل بناية مغلقة ، بنوع من المزاح ، وأمام الكاميرات ) . في الإعلام الإسرائيلي ، المكان الذي يتحكم فيه « المفهوم ضمناً » ، والمستخلص فيه يومياً ، « مفهوم ضمناً » إنه إذا كان باراك راغباً بمؤتمر قمة ونجح بفرضه على عرفات ، فذلك نجاح ، توجب أن نتوقع من مثقفين يبحثون في قضايا الاحتلال هذا العدد الكبير من السنوات أن يتخذوا لأنفسهم موقف الشك . فالأمور تتم بدونهم أيضاً ، بدون صوتهم . مقابل ذلك فإن موقفاً نقدياً أمكنه أن يمنح المعارضة المتفلسة من يوم لآخر قوة معينة ، هذه المعارضة التي أدركت أن المؤتمر سيؤدي إلى انفجار ، لأن باراك لا يملك القدرة لفرض مواقفه على الفلسطينيين .

من خلال الجدل مع اليسار الداعم للفلسطينيين ( الجبهة ، غوش شالوم ، عزمي بشارة وناطقون آخرون عرب في إسرائيل ، وقلة في داخل « السلام الآن » ) أطلقت في هذه المقابلة مع « الفيلسوفين » خيانتهم للحركة ، هذه الخيانة التي ستسمى بعد شهرين من ذلك ، وفي قلب المذبحة ، « حيرة اليسار » .

هو ذا أفيشاي مرغليت ، في البحث عن شرعية لفرض تسوية على الفلسطينيين :

« يمكن أن نبقى في إسرائيل ٧٥ - ٨٠ من المستوطنين فوق ستة ونصف بالمائة من مساحة الضفة ، ويمكن أبقاؤهم على ٥٠ بالمائة من مساحة الضفة . ( ... )

السؤال الوحيد المثير لاهتمامي هل باراك يعرض هناك مواقف تطابق اتفاق بيلين - أبو مازن . إذا كان الأمر كذلك - « كله تمام » . إذا عرض فجأة مواقف أكثر شبيهاً بخطة ألون - فسيكون مسؤولاً عن فشل القمة . نفس الشيء بالنسبة لعرفات . إذا وافق على ما وافق عليه أبو مازن - « كله تمام » . إذا طلب أكثر من ذلك بكثير - سيأخذه مسؤولية الفشل » ( « هآرتس » ، ١٧ / ٧ / ٢٠٠٠ ) .

لا أحد يعرف شيئاً واضحاً عن اتفاق بيلين - أبو مازن . وحقيقة وجود اتفاق لم تحظ بأي تصديق في أي مكان . جتي حقيقة وجوده خاضعة حالياً للشك . لكن أفيشاي مرغليت يطالب عرفات بقبول الاتفاق كإسباغ للمصالحة : ليست قسمة البلاد بين الشعبين ، بل تقسيم المناطق المحتلة منذ ١٩٦٧ بين الشعبين . هذا هو الحل الوسط الإقليمي الذي تحدث عنه حزب العمل . لهذا كان لا بد

لاستاذ فلسفة اللغة من توضيح لياليه في نشاط لأجل السلام وأيامه على مسطحات العشب الأخضر في الحرم الجامعي. أمكنه حالاً الذهاب إلى الانتخابات التمهيدية في حزب العمل. لماذا يولي أهمية لتأكيد اتفاق ١٩٩٥؟ لماذا يولي أهمية للقول في هذه المقابلة أنه يجب العودة لاتفاق بيلين-أبو مازن؟.

« الأمر متعلق هنا بشخصين ليسا هامشين بالمرّة في مجتمعهما، وهما لم يجتمعا في داخل الحصار، وتوصلاً لاتفاق. اتفاق يكون مشابهاً، بهذه الصورة أو تلك، لاتفاق بيلين-أبو مازن، لن يكون اتفاقاً مفروضاً بأي حال من الأحوال » (ن. م).

يرى هنا البحث عن الشرعية، من خلال «مراعاة الصوت الفلسطيني». هل هناك حاجة لأن نذكر في هذا السياق أن البروفسور يولي تمير فيلسوفة أيضاً، وناطقة بلسان وفد براك أيام كامب ديفيد، والناطقة بلسان الحكومة أيام للذبحة، وهي أيضاً صاحبة مؤلفات في التعددية الثقافية، ومن دافعت حتى عن حق الأقليات بختان نساها؟ نعم، هناك حاجة. أبرز تلميذين في إسرائيل للسير يشعياهو برلين أنساباً للسلالة، وكلاهما، في اللحظة الحاسمة، اختاراً جانب القوة، وأيدا انكار حق الفلسطيني بإسماع صوته. « الأمر متعلق هنا بشخصين ليسا هامشين بالمرّة في مجتمعهما، يشرح مرغليت أساس الشرعية. اذهب وقل ذلك للأشخاص الهامشين في المجتمع الفلسطيني، للفتية من مخيمات اللاجئين، لاشكال البط في الرمي العسكري، إن مرغليت تخلى عنهم، باسم الإصغاء لـ «شخصين ليسا هامشين بالمرّة في مجتمعهما، لم يجتمعا في داخل الحصار».

أعطيت هذه المقابلة في الأساس للغمز في قناة «السلام الآن»، التي انشغلت في السنوات الأخيرة فقط في تتبع توسيع المستوطنات. يختبئ مرغليت خلف صيغة أبو مازن-بيلين، لكي يتحدث عن «إبقاء غالبية المستوطنين في أماكنهم». برينكر يحز بقوة أكبر. لم يعد لديه المزيد من الوقت للاشتغال بالصراع اليومي المرير ضد المستوطنات، هذا هو الشيء الوحيد الذي قامت به هذه الحركة الفنية الموارد والفقيرة بالناشطين في السنوات الأخيرة. وهكذا جاء في التقرير :

«الخطوط الحمراء التي عرضها براك قبل مغادرته إسرائيل مقبولة لدى برينكر بكاملها. ضم كتل استيطانية، يقطن فيها معظم المستوطنين الموجودين اليوم في الضفة الغربية، لا يناقض برأيه تطلعات الحد الأدنى للفلسطينيين ولا يمس باحتمالات إقامة دولة فلسطينية مستقرة. بل إن برينكر مستعد للإبتعاد كثيراً والقول إن رايه هذا مقبول على الفلسطينيين أيضاً». «لو فكروا بيمينيت»، يقول «لما ذهبوا إلى أوسلو من الأساس. كل فلسطيني قدم لاوسلو أدرك أن سابقة يمينيت لن تكرر نفسها في الضفة الغربية». (نفس المصدر).

كم هي شبيهة هذه الصياغة بما قاله مرغليت بخصوص اتفاق أبو مازن-بيلين. مرغليت بحاجة لشائعة عن صيغة، لكي يرسخ ادعاء ما بخصوص الشرعية، لكي يجادل في ما سيحدث بعد فشل القمة (ومن الواضح لكليهما أن الفشل مترص بالباب، وهو ما أوحى به كل كلمة في المقابلة). برينكر ليس بحاجة بالمرّة للأساس «القانوني» لدى الفيلسوف التحليلي. فهو ظواهرى، وحتى أنه تعلم هايدجر في الآونة الأخيرة. لذلك يحق له الاشتغال بالتكهّنات. من الصيغتين، «القانونية»

والافتراضية، تتصاعد نفس الرائحة الكولونيالية : «نحن نعرف ماذا يريدون». يواصل المراسل النشيط اقتباس برينكر : «دائماً اعتبرنا المستوطنات عقبة أمام السلام، وعليها ركزنا باستمرار انتقاداتنا»، يضيف في غمز نحو زملائه في السلام الآن، الذين ركزوا خلافاً لرأيه جل اهتمامهم في السنوات الأخيرة في المستوطنات - «الآن يتضح أن الفلسطينيين يتعاملون مع المستوطنات بشكل مختلف تماماً. إنهم لا يرون بها عقبة للسلام ولا يطالبون بإخلاء جميع المستوطنات» (ن. م). إلى هذا الحد. لا توثيق لديه، بل له تصورات من «لديه تماسك في الشخصية»، وذلك يكفيه. بواسطة هذه الأداة - «تماسك الشخصية» - يمكنه أن يسدد نحو «السلام الآن». ويواصل المراسل المؤيد:

«في الأسبوع الماضي تذكر برينكر فجأة لقاءً إسرائيلياً - فلسطينياً جرى قبل عشرين عاماً في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة. كان في الوفد الإسرائيلي إلى جانب برينكر كل من أريه لوبا الياف وماتي بيلد، وكان ضمن الجانب الفلسطيني الأساتذة ادوارد سعيد ووليد خالدي» (ن. م). انظروا إلى عجائب الوعي الوجودي، ففي الستين التي عارض خلالها برينكر، البروفسور في الجامعة العبرية، وفي جامعة شيكاغو، المستوطنات، وحتى عندما تجند لنشاط في صندوق من أجل سلوان، استقرت في قعر وعيه الحقيقة المنسية، تلك الذكرى الغابرة، من هارفارد: «تحدثنا نحن الإسرائيليون، عن إبقاء المستوطنات، ومنذ تلك الأيام كان هناك فلسطينيون لم ينفروا من ذلك» (ن. م).

إنهم «لم ينفروا من ذلك». إنه - بعد كل هذا النقاش المتشعب، وبعد كل هذه الصياغات عن الموضوعي والانتقائي، وبعد كل الأقوال المرتفعة عن تفضيل السلام الميداني على العدل «على الورق» - إنه جوهر الصوت الفلسطيني : «لم ينفروا من ذلك». كيف لم ينفروا؟ هزوا رؤوسهم علامة الموافقة؟ شدوا أكتافهم؟ اشمأزوا؟ أم أن هذا التغيير في حالة ذاكرة أكبر أنصار سارتر في إسرائيل متصل بالذات بالقائد الجديد، يهود باراك؟ ولعل هذه الذاكرة المتأخرة متصلة بـ «جدول الأعمال» القومي الكبير، الذي لا يستطيع المثقف الصغير الوقوف بوجهه؟

بعد أن بدأت الحرب، لو كان هناك صحفي نشيط وليس دعائياً بنفسه، لكان ملزماً بالعودة للإثنين وسؤالهما : أين كان خطاهما؟ لكنه لم يفعل ذلك. الأول فضل بطبيعة الحال السكوت في مستودع العسل في جامعة شيكاغو، والثاني أفيشاي مرغليت، ضم صوته لـ «حيرة اليسار»، وتطرق - وهل يمكن ألا يفعل؟ - بالذات لـ «رغبة الفلسطينيين»، باعتبارها «تكهن بالحالة»، وهي الإرادة ذاتها التي لم تهتم من قبل، في مرحلة «تشخيص الحالة» :

«يمكن للفلسطينيين العيش، ولو بصعوبة، مع أشياء نفرضها عليهم ولكن المؤكد أنهم لا يستطيعون التوقيع عليها. هذا ما اتضح لناخي الحقيقة - النظام الذي يتضمن إعلاناً موقفاً بأنها نهاية الصراع تكشف أنه مستحيل. تبين أن عرفات لم يرغب بالوصول إلى نهاية الصراع، ضمن الشروط المعروفة، حتى بدون صلة بتحديد بدا. تبين أنه أمر لا يمكنه أو أنه لا يريد القيام به. («حيرة اليسار»، ملحق «هآرتس»، ٢٠/١٠/٢٠٠٠).

وكان لدى دان ميرون أيضاً معرفة واضحة بـ «ارادة الفلسطينيين»، أي ماذا يقول الصوت الفلسطيني بالفعل». هكذا يتشكل الصوت الفلسطيني في مقاله الدعائي، بعد أن تصدعت صدقية الحرب والإستعداد الإسرائيلي البعيد المدى لإعادة كل شيء، باستثناء بعض المصالح الحيوية». هذا هو تفسير عدالة الحرب الحالية، أي أكثر الحروب التي شهدتها إسرائيل منذ ١٩٦٧ عدلاً، على الأقل: «قررت السلطة الفلسطينية أنها ستوصل إلى إخلاء المناطق والإعلان عن إقامة دولة بدون اتفاق مع إسرائيل. سيتم الإخلاء كما تم في لبنان، بطريق العنف وبضغط دولي. سوف تعمل الحجارة والرصاص والصحافة الدولية ولجان التحقيق وجيش الامم المتحدة على خلق واقع تبقى فيه إسرائيل بدون المناطق، وبدون السلام وبدون اتفاق ينظم المسائل المشتركة بينها وبين فلسطين ضمن مطالب جديدة: كل القدس العربية التي من قبل ١٩٦٧، وتطبيق حق العودة الخ الخ». («علام الصراع»، «يديعوت احرونوت»، ٢٤/١٠/٢٠٠٠).

توثيق لهذه التكهات المنفلتة؟ لا يوجد. مرة أخرى تختفي من هذا الوصف الحواجز، والتقييدات علي السير، والمستوطنات، والعطش، والاحتلال الذي ترك خلفه خراباً تاماً للجهاز العام (طيلة الـ ٣٣ عاماً لم يبن مستشفى واحد في المناطق المحتلة، ولم يتم شراء باصات جديدة، ولم تمتد خطوط مياه جديدة الخ)، وعموماً، لا مصالح مباشرة، وبسيطة، لمجموع الشبان في الخروج في مواجهة القناصة الإسرائيلييين. مقابل ذلك، يوجد لدى ميرون خوف واحد: توسيع القدس العربية غرباً و «حق العودة»، أي الخوف من الاختراق، لذلك:

«فإن الرد الإسرائيلي حتمي. جنود جيش الدفاع يضطرون لإطلاق النار (رصاص مطاطي) لأن إسرائيل ملزمة بخوض صراع على مبدأ إخلاء مناطق في إطار اتفاق سلام شامل. والفتية الفلسطينيون، سواء كانوا يائسين أو مستشارين، فإنهم من ناحية موضوعية، متفدو سياسة مرسومة، تسعى لإنشاء دولة فلسطينية لم تسلم بإسرائيل ولم تتنازل عن مطالبها تجاهها. إسرائيل مضطرة لأن تمنع بالقوة تطبيق سياسة كهذه». (ن. م.).

عدا عن العبث بالأفكار الجنونية كحالة من فقدان السيطرة، ما الذي يدفع إنساناً مثل دان ميرون للكذب على صفحات صحفية إسرائيلية، عندما يؤكد بين قوسين، وعلى مسامع القارئ الإسرائيلي، حقيقة أن الجنود يطلقون «رصاصاً مطاطياً»؟ (دائماً كتبت الصحافة الأمريكية التي يقرأها «رصاصات فولاذية مخلفة بالمطاط»). ما الذي يدفع إنساناً للشد على أيدينا من مسافة عابرة للمحيطات؟ ما الذي يجعله يقول لنا «لا مناص»، يجب قتل الفتية الصغار لأنهم يريدون دولة تملك متطلبات تجاه إسرائيل؟ «الإجابات على ذلك، عندما لا تكون متصلة بجوهر هذا الشخص أو غيره، بفنان كاذب مرضي، أو بعلان المعجب الكبير بجنرالات الجيش، الإجابات كامنة في الخوف من انهيار النظام»، الذي فيه نحن من يحدد جدول أعمال اليهود والعرب. يحدث عاموس عزز على القراء الأمريكيين عن رد الفلسطينيين على سخاء إيهود باراك:

«مع ذلك قال الفلسطينيون لا. إنهم متمسكون بـ «حق عودتهم» بينما نعرف كلنا جيداً أن ما يحيط بـ «حق العودة» كونها كلمة عربية خالصة لإبادة دولة إسرائيل.

لا يتمسك السيد عرفات فقط بالحق بالدولة الفلسطينية، وهو حق أؤيده بالكامل. الآن يطالب أن يعود المغتربون الفلسطينيون لا إلى فلسطين فحسب، بل لإسرائيل أيضاً، وبذلك تختل المعادلة الديموغرافية، ما يحول إسرائيل في نهاية المطاف إلى الدولة العربية السادسة والعشرين. هناك ملايين الألمان الذين لن يعودوا أبداً إلى بيوتهم السابقة في بولندا، شرق بروسيا أو إقليم الوديت. للفلسطينيين الحق بفلسطينهم مستقلة. لكن إذا كانوا راغبين بالحصول على إسرائيل أيضاً، عليهم أن يعرفوا أنهم سيجدونني مستعداً للدفاع عن بلادي: ناشط قديم في السلام الآن مستعد للقتال دفاعاً عن وجود دولة إسرائيل. إنني واثق بأنها الفرصة الأخيرة. على الفلسطينيين أن يختاروا إذا ما كانوا يريدون صلاح الدين الجديد أو العمل بالفعل من أجل السلام». (نيويورك تايمز، ٢٨ / ٧ / ٢٠٠٠).

انتبهوا للتاريخ: المقال لم يكتب إبان المعارك. كتب بعد فشل المؤتمر. إنه لا يتطرق من قريب أو بعيد لما يسمى النقاش مع الموقف الفلسطيني. إنه لا يدخل بالتفاصيل. إذ أن استنتاجات عاموس عوز ليست «مناورة» فحسب، لأنه بالفعل أديب استنتاجي، لا يهتم بالتفاصيل، ويرتكز على «المفهوم ضمناً». إنه يبنّي فزاعة (انهارت قمة كامب ديفيد بسبب المطالبة بحق العودة). إنه يحول الفزاعة إلى «إبادة دولة إسرائيل». انظروا التوسع في هذه التفاصيل عن الإبادة. انتبهوا كيف أن عوز اختار في تلك الأيام الامتناع عن بيع البريطانيين هذه الفرص. في أكسفورد أو كامبردج، يبدو أن ادعاء ديماغوجيا كهذا يشعرهم بالمهانة.

## ٥- وهنا تدخل عريضة الأدباء

عندها، وفي السابع عشر من نوفمبر، بعد أكثر من مائتي قتيل فلسطيني، وبعد أن انتهت الدعاوى الإسرائيلية من اقناع الرأي العام العالمي، وبعد أن أخذت سياسة باراك الإسرائيلية تغوص في دماء الإسرائيليين، وليس الفلسطينيين فقط، وبعد أن نجحوا بالصمت في كل ما يتعلق بجرائم الحرب، صدر بيان لمفكرين من اليسار الصهيوني، على شكل إعلان مول من طرف خفي، احتل مساحة كبيرة في الصحيفة وجاءت صياغته السياسية ملتوية، لكنه يبلغ ذروته بالمطالبة بتفكيك المستوطنات، وفي صلبه هذا الموقف الحاسم التالي:

«لن تفكك حكومة باراك أية مستوطنة. بل بذلت أكثر من حكومة نتنياهو في تطوير المستوطنات وتكبيرها (...). ابقاء المستوطنات في أماكنها أو توسيعها يحول دون أية إمكانية لمد خط حدود منطقتي بين إسرائيل وفلسطين. وهو ما يعني من الناحية العملية تخليد النزاع» («أوقفوا التدهور»، إعلان في «هآرتس»، ١٧ / ١١ / ٢٠٠٠).

وقع على هذه العريضة كتاب مثل يهوشع كنانز، س. يزهار، إيلي عمير، حاييم بشير، بعد أن تمكنوا من ضبط النفس والامتناع عن قول كلمة واحدة علناً منذ بداية المذبحة في صفوف الفلسطينيين، وبطبيعة الحال وقعت أيضاً تلك الفقرة التي من الأفضل لنا جميعاً لو أغلقت أفواهها، مثل أ. ب. يهوشع (نعجز عن اقتباس أحاديثه المطولة مع الإذاعي عميكا مروطمن)، عاموس عوز، وكذلك

الشاعر נתان زاخ. عندما تدافعوا جميعاً ليكونوا «حيرة اليسار» تدافع هو الآخر، وأعلن في «هآرتس» المزمع الثابتة كلها<sup>(١)</sup>. «والآن تغيرت الصورة. لماذا، ما الذي حدث؟»، «لماذا، من المتوفى؟».

بعد مرور شهرين ونصف من القتل وصل هذا الصالون الأدبي النقال، بمن فيهم الأعضاء الثابتون في الرحلة (نسيم كلدرون، ورويت متالون الخ)، لقول ما كان يجب قوله قبل كامب ديفيد، قبل الثلاثمائة قتيل، وقبل آلاف الجرحى، وقبل مئات المعوقين تماماً. لو لم أعرف هذا المشهد منذ اليوم الأول لحرب لبنان، لما كبدت نفسي عناء هذه المقالة المطولة. لم تكن لعريضة الادعاء (التي نظمها بجهود جبارة دافيد غروسمن، الذي لم يخن للحظة أصدقاءه الفلسطينيين خارج الخط الأخضر، وأصر على التحدث كل الوقت عن حل وسط في منتصف البلاد، وليس في منتصف الضفة؛ تلك العريضة التي مؤلتها «السلام الآن»، أو ما فاض عن حساب البنك الضخم) قيمة كبيرة في المرحلة التي نشرت فيها. كذلك حركة «ميرتس»، الحزب الذي مصوته هم المستهلكون المركزيون لمقالات من النوع المقتبس هنا، للمقابلات الإذاعية والتلفزيون التي لم تقتبس هنا. هذه الحركة نزلت إلى العمل السري، وتركت زحافاً غلفون لتكون مهرجة «معسكر السلام». اختفى يوسي سريد (الذي سبق أن قيل عنه إنه «يسكن في الإذاعة»)، كان وجوده مرهون بالمجابهة مع «شاس»، وقد عاد حقاً للشاشة بعد أن عادت قضايا بحجم الميزانية المعطاة لـ «شاس» لإشغال المجتمع السياسي. جاء الإعلان متأخراً فلم يتمكن من التصدي لكنرفال القتل والخراب، ووسط بحر من العرائض والبيانات التي سبقته، لم يكن هو الوسيلة الصحيحة. لو كانت هناك رغبة بالقول: «اللعنة، أخطأنا» (ولكن من منهم أخطأ مرة؟) - لوقف أعمال القتل. كان هذا الإعلان مجرد مؤشر على «الركض في ساحة خرايت» . ولم يكن بمقدوره أيضاً أن ينقص شيئاً من كل ما قلناه «كلنا». «كلنا» قلنا إن عرفات مذنب وباراك يريد السلام. «كلنا» قلنا إن كل شيء عرض عليهم. «كلنا» قلنا إلهم لا يفهمون ما يخسرون. «والآن، فجأة، هكذا، بلا سبب، «كلنا» نقول إن باراك إستثمر في المستوطنات أكثر مما لو استثمر نتيها هو. قلنا؟ طيب، قلنا! «وشو يعني» ؟

لماذا لم تعرفوا بذلك من قبل ؟ لأنكم لم تهتموا بذلك من قبل. لماذا لم تهتموا بذلك من قبل ؟ لأن الفلسطينيين وجحيم حياتهم لم يهكم أبداً. لأن الإحتلال فقط «يفسدنا»، وإذا لم نسّم الإحتلال إحتلالاً، فلن يكون إحتلالاً، بل جزءاً من منظومة رمزية تقوم نحن بترسيخها، وبكلمات أقلّ بريقاً : نحن الناطقون بلسان التّخبة الحاكمة في دولة إسرائيل. عندما يكون الليكود في السّطة، نكون مع السلام وضد الليكود. حتى ذلك الحين فإنّ دورنا هو الكذب.

وشربت الأرض المحتلة دماً، وكفّ الدم عن أن يكون فلسطينياً فقط، ومن خلل الجرح المغفور أطلّ الحقيقي، وأجبرهم على الإهتمام فجأة بشيء ما أبعد من «المفهوم ضمناً»، أبعد من الكذبات السابقة. ولعلّه لم يبرز شيء، بل كانت هناك حاجة لمراكمة «إعلان» حماشي واحد للسنوات القادمة، عندما سيضطر عاموس عوز أو أ.ب. يهوشع الرد على السؤال : «ماذا فعلت عندما ذبحوا فتية فلسطينيين ؟». عندها سيتمخرج أحدهما، الدعائي (أ) أو (ب) هذا الإعلان ويقول : «كنت ضد. ها هو». من جهة ثانية، إذا كان عاموس عوز مصداقاً لما كتبه بنفسه في «غارديان» وفي «نيويورك تايمز»،

فكيف أمكنه التوقيع على عريضة كهذه التي من السابع عشر من نوفمبر ؟ وإذا كانت الحقائق التي وقع عليها في السابع عشر من نوفمبر صحيحة، هل يمكنه التحدث بشكل مختلف عن الحرب القدرة ؟ وبكلمات أخرى : هل معنى «التهديد على الأبواب» إنه كذاب، أو ديماغوجي ؟ يبدو أنه كذلك. ومنوع أن نخطئ بشأن هذا الإعلان : فالفقرة الختامية فيه تؤكد، بعد كل ما جاء فيه، «نحن نناشد القيادة الفلسطينية لتسوية النزاع ليس بالعنف». لا تخطئوا بذلك. إنه ليس إرضاء للعين القارئة. هذا هو الوقوف خلف «شرعية» العسكري. هذه الجملة التي تضمن شرعية نشاط الجيش، والحصار على القرى، والديابات عند مشارف المدن، وإطلاق الرصاص اليومي على المتظاهرين، وتصديق الجرائم : «نحن نناشد القيادة الفلسطينية لتسوية النزاع ليس بالعنف». إنهم عنيفون حقاً. الجيش يقوم بكل مما يقوم به لأنهم عنيفون. هذا هو المعنى الحقيقي لهذا الموقف. مهما كان مصير المستوطنات، فهو ليس متعلقاً بنا، أم أنه حقاً متعلق بنا. ذلك يتعلق بالمزاج. لكن، بكل ما يتصل بالجيش، فلن نستمد الشرعية أبداً من مكانته كمتدع وقاضٍ وجلاد. هذه روحنا القتالية من وراء ظهر الجندي، المكتوب على خوذته born to kill (وُلد ليقتل).

## ٦- شب ١٩٤٨

لم يكن أي حديث متعجرف أو مغرور كهذا الذي يتمتع به عاموس عوز، من النوع الذي صاغه برينكر كما لو كان «مسجل تاريخ في البلاط»، ممكنًا، ولو تحول الوعي بالجرائم ضد الفلسطينيين لبصير جزءاً من تراث اليسار الإسرائيلي، لما جرأت أية حركة سلام على توجيه الدعوة لهؤلاء الأشخاص للتحدث باسمها، ولو جرت أية محاولة لدى اليسار اليهودي للإنقطاع عن ماضي الدولة الكولونيالي، ولو بذلت جهود للنظر في هذا الماضي والقول إننا لسنا ملزمين تجاه هذا الميراث، الذي أوصلنا إلى هنا. هذا هو عملياً الخط الفاصل بين من عارضوا الحرب من اليوم الأول وبين من «ارتبكوا»، و«حذروا»، وأتدوها. الحديث هنا لا يدور عن «مشاعر الذنب»، أو «الشعور بالمسؤولية»، بل بالإصغاء للصوت الفلسطيني، الذي هو جزء من الحل، وليس فقط جزءاً من النزاع. في المقابلة الخفيفة التي منحها مرغليت وبرينكر لـ «هآرتس» قال مناحم برينكر :

«لا يمكن لإسرائيل بأي حال من الأحوال قبول المطلب الفلسطيني بخصوص مسؤوليتها القانونية والأخلاقية عن خروج اللاجئين. ما يطالب به الفلسطينيون هو مسألة من إختصاص المؤرخين، لا السياسيين. ماذا يريدون ؟ أن يتحدث في مفاوضات سياسية عدد الفلسطينيون الذين طردتهم إسرائيل وكم كان عدد المغادرين بمحض إرادتهم لكي يعودوا مع الجيوش العربية المنتصرة ؟ هذا سؤال من إختصاص بيني موريس، لا إيهود باراك» ( «أخلاق البراغماتية»، ١٧/٧/٢٠٠٠ ).

كل عنصرية المثقف الصهيوني قيلت عبر هذا النص القصير. مخيمات اللاجئين في الضفة أو لبنان ليست مشكلة سياسية. إنها جزء من كتب التدريس. سنتحدث عنها في «فان لير» (\*). من بحاجة لأن يجابه، مثلاً، هذه القضية السياسية في لبنان ؟ سياسيون أم مؤرخون ؟ ومن بحاجة للتحدث عن لم الشمل ؟ مؤرخ أم سياسي ؟ وبأثر من ذلك، من سيكون المؤرخ ؟ يهودي، بالطبع،

كما قيل : « هذه مسألة من إختصاص بيتي موريس، لا يهود باراك ». القضية تبقى دائماً بأيدي اليهود، أي أنه لا وجود لصوت فلسطيني حتى في إستيضاح المسألة التاريخية.

#### ٧- هذه ليست النهاية

عندما ينتقد يساريون « اليسار الصهيوني » يجابهونهم بادعاءات مثل « لماذا تتخاصمون مع أقرب المقرّين إليكم وليس مع اليمين ؟ ». الحقيقة معكوسة بالطبع. فالسبب الذي دفع يهود باراك لاستنفاار مساعدة مثقفي « اليسار الصهيوني » لجانبه، قبل كامب ديفيد، وبعد كامب ديفيد وفي زمن الحرب، هو بالضبط الرغبة بكم أفواه « المتطرفين » هنا وفي الخارج. لماذا يحتاج عاموز عوز لأن يضيف إلى كتابته في الخارج اللقب « من مؤسسي السلام الآن » ؟ بالضبط لأنّ المقال يرمي لكم الأفواه، داخل المجموعة الثقافية في الخارج، أو هنا، لمن يعتقدون أنّ باراك خطئ على السلام.

من المهم أن ندير ظهرنا لمن تتوجههم الصحافة بشكل عام بأنهم « يسار ». الصحافة هي صاحبة المصلحة. كانت مصلحتها عدم نشر رأيٍ حرف عن نشاطاتنا السياسية المتعاطمة، منذ بداية هذه الحرب. لسنا جموعاً غفيرة، بل مئات وحتى آلاف. قوموا بإحصاء العرائض، الصغيرة، الدقيقة، والشمينة، وعودوا إلى لقاء المحاضرين المائة من جامعة تل أبيب، مباشرة بعد يوم الغفران، وهو اللقاء الذي بدأ التّشاط في جامعة تل أبيب وحيفاً وبعث السمع، عودوا للحظة للمظاهرات في باحة المتحف في تل أبيب، والمظاهرة الكبرى في حيفا، والمظاهرات في القدس، ونشاطات منظمات النساء، والصلة بين مجموعة نشاط من تل أبيب وقرية حارس في الضفة، لتبتئوا أنّنا، في اليسار الراديكالي، عائشون وموجودون، حتى لو كانوا يشطبوننا في الصحافة الغربية وحتى في الصحافة التي نقرأها ونكتب بها. الصوت المحو ليس محواً بسهولة. فالفتية من رام الله، الذين أساهم زاخ بـ « العاتة »، وأطلق عليهم دان ميرون، قرينه المعجوز، صفة « البائسين أو المستشارين »، نجحوا على الأقل بشيء واحد، حتى الآن، وهو تذكيرنا بأنّ الحقيقة ليست محصّلة كل ما كتب في الصحيفة.

عندما اختتم هذه الأقوال، فإنّ الأحداث في المناطق المحتلة، وضمن ذلك القتلى الفلسطينيون، هذا عدا الحصار الشديد والتّقص في المال والموارد والأدوية، وقطع الأشجار بأيدي المستوطنين والجيش، وهدم البيوت بأيدي الجيش، كل هذه الأمور ليست مغطاة أبداً، لا في وسائل الإعلام الإسرائيلية، وتقريباً ليس في وسائل الإعلام في العالم. هذه الجرائم تكبر. وسندفع جميعنا ثمن ذلك.

## اشارات:

- ( ١ ) إلى زميلتي هالة ناصر، ابنة بيت جالا، أهدي هذا المقال . استضافتني أمها في بيت عائلتها الجميل في صيف ١٩٩٦، عندما لم تكن هناك مياه في البلدة، وللتجول فيها كان لا بد من المرور عبر الحاجز، من منطقة C إلى B. هذا البيت، كبقية بيوت الحي الجميل، الذي سلبه شارع الأنفاق طبيعته الجميلة ( دون سؤال سكان البلدة عن رأيهم فيه )، تهدم، كما تناهى إلى مسامي، بنيران متفجرات الجيش الإسرائيلي. لماذا أجدني أقدم لهالة مقالاً بالذات ؟ لأن هذا كل ما أملك تقديري الآن لها، ولإبناء شعبها.
- ( ٢ ) هناك شبه كبير بينه وبين أسطورة «الرايئين» : ويقدر ما تنطوي عليه هذه الأسطورة من تحقير لرايين نفسه كشخص مركّب، فإنها تثلث في الأساس الحاجة لشرح عملية أوسلو باعتبارها «هزة أرضية وضعت حداً لماضٍ احتلالي طويل». بما أن اتفاقية أوسلو لم تضع حداً للاحتلال، ترفع قيمة الأسطورة، بعلاقة عكسية لأهمية الاتفاقية.
- ( ٣ ) مرة حاول نقض ما كتبه نعيم تشومسكي عن مذبحه الرجال في مخيم لاجئين في قطاع غزة في ١٩٥٦، قالت له «مصادر عليمة بالأمور» إن جميعهم «كافرو فدائيين». جرى الجدل على صفحات «نيويورك ريفيو أوف بوكس».
- ( ٤ ) نتاخ زاخ : «ابهود باراك»- الشخص الذي كان مستعداً للاعتماد كثيراً في تنازلاته لعرب المناطق المحتلة- لو صدقنا ما نشر في الصحافة ولم يتم إنكاره- أكثر من أي رئيس حكومة سبقه». عرفات ؟ «ما لم ينجح اليمين الإسرائيلي المتعصب حدّ الجنون بالحصول عليه في كل هذه السنوات بقواه الذاتية، تمكن الآن، وبمساعدة متواصلة من «الرئيس» وحلفائه القدامى-الجدد : «حماس»، الجهاد الإسلامي، والعمالة المنفلتة في رام الله وأريحا، وجاك شيراك» ( «حيرة اليسار»، «هآرتس»، ٢٠٠٠/١٠/٢٠).
- ( \* ) فان لير- مؤسسة بحثية في إسرائيل.

## المثقفون الإسرائيليون وانتفاضة الأقصى :

### إعادة إنتاج حكاية مستهلكة

محمد حمزة غنايم

« كيف تجرؤ على القول أن المثقف اليهودي في إسرائيل صار جزءاً من المؤسسة، لذا فهو غير قادر على الموقف النقدي الراديكالي؟ ... كلنا هنا مؤسسة، بمن فينا أولئك الساخرون منا. ومن لا يريد أن يكون جزءاً من المؤسسة هنا، فليذهب. لأن المؤسسة جالمة اليوم في قناة السويس. من ليس راغباً، فليذهب... ».

(غرشوم شولم في حوار من العام ١٩٧٠)

#### ١

لعله الاعتقاد ( « الساذج » قليلاً ) بأن الإنتلجنسيا الإسرائيلية « المحترمة » مطالبة اليوم أكثر من ذي قبل بالخوض حالاً في طور « محاسبة الذات » الخاص كجزء من الحساب القومي العام المطلوب، ما أعاد إلى ذهني مجلداً تلك « الصدمة الكهربائية » التي أحدثها كتاب الكاتب والصحفي الإسرائيلي بوغز عفرون، « الحساب القومي »، لدى صدوره بالعبرية في الثمانينات، عندما كانت تجربة الغوص في « الوحل اللبناني » ما تزال حاضرة بشقلها المساوي على الأجندة العامة في إسرائيل. في مقدمة الفصل الأخير، الذي يحمل العنوان « إسرائيل واليهودية »، ينوّه عفرون إلى أن الضعف والعجز اليهوديين، هما اللذان فجرا الوهم القائل بأن العنصر الجوهري في أي كيان قومي مستقل هو القوة المادية. وهما أيضاً اللذان يقفان وراء النظر إلى الصهيونية ودولة إسرائيل، ليس كوسيلة للإنتخاط والمشاركة مع الشعوب الأخرى كطرف متساوٍ، بل كوسيلة للإنتقام التاريخي. ( « الحساب القومي »، ص ٦٠٩، الترجمة العربية، القاهرة، ١٩٩٥ ).

لم يسبق أن أبدت هذه الإنتلجنسيا هذا القدر الكبير من « بلاهة الإحساس »، كما فعلت في الشهور التي سبقت ورافقت إنتفاضة الأقصى، وإن خيل لنا أن أثار الكلمات المبهورة بالدم المراق التي تجرّعناها هذا العام في تتبع وقراءة أدبياتها لم تنجح بتغطية هذه الحاجة إلى الحساب، التي يتعامل عددٌ من الرموز الثقافية معها في نطاق « إسقاط الواجب ». لكن ذلك لا يحدث وفق مفهوم

«النزاهة السياسية» الصهيوني الذي صاغته أجيال من المثقفين العبريين، وإثماً يظلّ خاضعاً للامزجة الثقافية والقومية العاتية، التي لا تسمح بطبيعة الحال بإهدار الطاقات على «حساب لا يمحى في الاتجاه الصحيح». وحقاً، هل يمكن أن نستخلص من طوفان الكلمات المتدقق هذا، نصّاً جديداً وجديراً بالإهتمام حول مجريّات الحساب القومي، دون أن يكون ذلك محكوماً بضوابط التاريخ الصهيوني؟ أو، كما يتساءل شلومو زاند (في مؤلفه المهم «المثقف، الحقيقة والقوة» الصادر مؤخراً بالعبرية): «هل كتابة أدب جميل، شعر أو نثر، أو مقالة صحفية، ستظل أسيرة بالضرورة لمنظومة اصطلاحية أبوية للغاية، تم إيجادها من داخل التوتّر المحفز في المراحل الأولى لإرساء وتوجيه الثقافة القومية؟» (ص ١٧٧). وهل الحقيقة المحكومة للمخزون الكلامي العبري الحديث ملزمة بالإنصياع للشيفرة الداخلية للتخطيط الغفوي الأيديولوجي الذي خلقها، لذلك فهو محكوم بأن يظلّ أسيرها إلى الأبد؟

«الكلمات لا تنجول لوحدها في الشارع، وهي دائماً ممسكة باليد الكبرى واللزجة للأشياء»، وفي السياق الثقافي الإسرائيلي، فإنه «أكثرهما لو كانت الكلمات تولد في داخلنا، فإننا نولد في داخل الكلمات. الأنماط الكلامية تصوغ تفكيرنا منذ بدايته» (زاند: ١٧٥).

من يقرأ مثل هذه الأقوال، سيتخيّل أنّ «شعب الكتاب» يملك حساسية خاصة تجاه الكلمات، التي تقوم بخلق علاقات القوي الاجتماعية لديه، وتلعب دور السلاح في حليات صراعه السياسي، حيث يتم حسم أشكال السيطرة والسيادة والإرتباط. فوق هذه الحليات، تعيد الكلمات إعادة إنتاج ذاتها، بصورة تلقائية، لتكون ظلالاً باهتة لقوالها السابقة، مع تبدل بسيط في المواقع والتواريخ والأسماء. إنها «اللغة القومية في خندق البقاء»، إذ دائماً ما كانت الكلمات «حجر أساس في خلق القومية اليهودية الجديدة» (زاند: ١٧٦)، التي ما تزال تجر في أطوار التقلّب والتقصّ والتجريب. لماذا «الحساب القومي»، إذن؟

لأنّ ما يحدث اليوم في بلادنا أقرب إلى «الانتقام التاريخي» منه إلى «المشاركة والإنخراط مع الشعوب الأخرى» أو «المصالحة التاريخية» معها. نحن إزاء وضع مستحيل، تجتمع في صناعه عناصر الواقع الصّعب كلّها، وتشترك في استعادته ضمن «خطاب السلم» الثقافي المشروخ، فئات مثقفين لا يتحذرون بالضرورة من اليمين القومي المتعصب، بل الغريب أن مجلّة رهطاً كبيراً منهم من بين المثقفين الليبراليين الإسرائيليين اليهود، جن يشتركون، دون أيّ خجل أو تردد أو تائب ضمير، في صياغة هذا الخطاب وترسيخ جذوره في الأرض!

يومياً، تنضج قائمة «المسكوت عنه» في أجندة الثقافة الإسرائيلية «الحاربة» (نعم، الحاربة، وهو ما سيتبين في السياق أيضاً) حتى تكاد تنفجر، وتبذل بانفجارها ما تبقى من شرف مهنة وكلمة وضمير، بعد أن تآكل الشرف وانهارت مداميك أخرى أخلاقية في «حروب - إسرائيل - الثقافية». وكان هذه الثقافة كانت تتربّع إندلاع الإنتفاضة الفلسطينية الثانية، بما رافقها من فظائع صنعتها «قرينتها» الآلة العسكرية، وما تلا ذلك من ردود فعل وتقلّبات سياسية - حزبية في الأصل (يبدو أن الإنتفاضة الثانية في طريقها لأن تحدث إنقلاباً سلطوياً جديداً في إسرائيل، في ضوء التطوّرات السياسية

والحزبية الداخلية) حتى تكشف عن حقيقتها، ولا يظل لمن بقي في قلوبهم بصيرة وفي عيونهم بصر سوء القول : « الملك عارياً »، من جديد! وحتى لا ننعرج في القول، لا بأس من التحفظ في البداية والتأكيد على أن قلة قليلة فقط من الكتاب الإسرائيليين « المنحصرين » (بين انتفاضتين : ١٩٨٧، ٢٠٠٠) حافظت على « شرف الكلمة » ولم تنظر بعين زائغة إلى واقع لم يعد فيه أي شيء مفاجئ، ولا حتى عندما يحمل إلينا نقائص ما يشي به من إهجمات.

في أوقات المحن، يعمل رهط كبير من كتاب اليسار الإسرائيلي ساعات إضافية في « النفخ في البوق ». مع الوقت تبلور هنا جيش « النافخين في الأبواق »، أفراد كتاب معروفون، يقيمون منابرهم القديمة، ويقفون خلفها ويصرخون عبر بوق كبير وبكرة إحتفالية قاطعة، إن كل شيء قد انتهى : « تغير كل شيء من الأساس، لا شيء بقي على حاله »، كما حدث بعد « يوم الغفران »، و« النفق » (١٩٩٦)، وكما بعد مقتل رابين (١٩٩٥)، وكما بعد صبرا وشاتيلا (١٩٨٢)، وكما بعد العمليات الإنتحارية في أواسط التسعينات، وكما بعد مدريد، وكما بعد كل المرات المؤسسة.

بين « مفصل » وآخر، تقوم الكلمات بإعادة إنتاج نفسها بصورة شبه آلية، بعد أن أنهكها أصحابها بالكليشيهات المعروفة، عندما فشلوا أنفسهم وفشلت كلماتهم في ملامسة الحقائق بنجاح، وفشلوا في أن يكونوا وكلاء للتغيير الاجتماعي، وفي أن يكونوا « وكلاء أخلاقيين » أيضاً. « فقدوا مسؤوليتهم في تقديم الحقيقة حول قضايا ذات أهمية إنسانية، أمام جمهور قادر على فعل شيء في الأمر »، - كما يقول نعوم تشومسكي في سياق مشابه، في حديث له عن مسؤولية الكتاب : « في محاولة الكتاب هذه للعثور على الحقيقة وتقديمها إجابة جزئية على السؤال حول من هو الوكيل الأخلاقي وليس الوحش. صعب التفكير في زعم أقل إثارة للخلاف من هذه، أو هكذا يخيّل لنا على الأقل. لشدة الأسف، الوضع ليس كذلك بالضبط، وسبب ذلك بسيط : إن النشاط المتعارف عليه للمجموعات الثقافية التي ننتمي إليها يتنكر بحرارة وحماس باديين لهذا المبدأ الأخلاقي الأساسي. وموجب المقياس الطبيعي لحجم النشاط المقبول ومقارنته بكمية الفرص، من المحتمل أن نكون قد غصنا في حضيض تاريخي » ( « قوة السيادة »، ص ٧٠، بالعبرية ).

« الغوص في الحضيض التاريخي » هو الوجه الآخر لـ « المسؤولية الثقافية » أو « الإستقامة الثقافية ». وفي مؤلفه المذكور أعلاه ينوء تشومسكي إلى أنه إنما يقدم « تفسيراً ضيقاً » لهذه التعبيرات، فهناك « أبعاد كثيرة أخرى أقوم بحذفها، منها الأبعاد الجمالية » ( ص ٦٩ ). سقطت « الأبعاد الأخلاقية » للكلمات، كمقدمة لسقوط « الأبعاد الجمالية » لها. وتجددت العودة (في إسرائيل ٢٠٠٠) إلى تلك الكليشيهات المموجة عن « العربي، كحل أدبي » : « في نهاية كل جملة بالعبرية يجلس عربي مع نرجيله. حتى لو كان ذلك يبدأ في سيبيريا أو هوليوود مع نشيد هيتا نفرح »، كما كتب مغير عوز يعمل مرة في « أغنية عن الألم ».

في فبراير ٢٠٠٠ نشرت مائة شخصية فلسطينية « نداء عاجلاً للجمهور الإسرائيلي »، حذرت فيه من المسار الذي دخلته عملية التسوية في الشرق الأوسط بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وشددت على أن التطورات المترتبة بذلك ستؤدي بالضرورة لمواصلة الصراع بدلاً من أن توصل إلى « حل »

تاريخي نهائي يسمح لشعوب المنطقة بالعيش بسلام وكرامة إنسانية». كانت المجموعة التي ضمت طائفة من الشخصيات الثقافية والسياسية والأكاديمية تؤكد على أن إسرائيل استغلت التطورات المتربة على عملية أوسلو، لتقوم بتوسيع غير مسبوق للمستوطنات الكولونيلية وتسميتها وزيادة عدد سكانها إلى حد مضاعفته، الأمر الذي كان متصلاً بالضرورة بتواصل مسلسل الإستيلاء على الأرض، وهو ما صنع لاحقاً (سبتمبر ٢٠٠٠) الإنفجار المؤجل منذ سنين.

كان ذلك نداء فلسطينياً نادراً يصدر عن فئات واسعة من الأكاديميين والباحثين والكتاب الفلسطينيين، في مخاطبة «مستعجلة للجمهور الإسرائيلي»، كما قال النداء - البيان (الأول)، الذي مر من دون أي تعقيب، وبدا مثل صوت صارخ في برية. هذه الحقيقة لم تحل دون هذه المجموعة والعودة إلى تكرار نفس المحاولة بعد ثمانية شهور بالتقريب، مع تأكيدات جديدة - قديمة على الثوابت الوطنية الفلسطينية، ولكن بفارق واحد: إنها اختارت التوجه بنداها «المستعجل» في عز العدوان الدموي الوحشي الجديد على الشعب الفلسطيني، الذي بادرت إليه حكومة الجنرالات في إسرائيل. نوهت الشخصيات في بيانها المذكور إلى أن الفلسطينيين باتوا الآن بلا حماية جسدية أو قانونية أو سياسية، وإلى أن «الإحتلال العسكري المؤثر والمقرر في أنماط حياتنا اليومية مر بعملية تمويه في إطار إتفاقات أوسلو بشكل يحول بيننا وبين الحصول على الحماية التي أمكننا تلقيها من القانون الدولي». ووجدت المجموعة الموقعة على البيان أن «القيادة الإسرائيلية - ليكود» و«عمل» معاً - واصلت الافتراض أنها بواسطة الميزان العسكري المختل لصالحها ستنتج بفرض تصوراتها غير العادلة لإنهاء الصراع على القيادة الفلسطينية، متوهمة أن اتفاقاً غير عادل كهذا يمكن التوصل إليه مع الرئيس ياسر عرفات لوحده، ومتوقعة أن يفرض عرفات هذه التسوية على شعبه - هذه الأوهام هي المسؤولة إلى حد كبير عن الوضع الخطير الذي نجد أنفسنا فيه هذه الأيام». وانتهت المجموعة الفلسطينية في البيان إلى ما قد يبدو للوهلة الأولى تطلعاً قبالاً للهضم والإستيعاب لدى المثقفين الإسرائيليين، عندما اختتمت بالقول: «إننا نأمل أن ننجح، من خلال المآسي التي شهدتها الأسابيع الأخيرة، في التوصل إلى رؤيا جديدة ومعقولة للسلام». (هآرتس، ١٠/١١/٢٠٠٠).

خلافًا لما لقيه بيان المائة الأول من إهمال، «تجاوب» عدد قليل من الكتاب الإسرائيليين مع النداء الثاني، كان أبرزهم إثنان: الأديب دافيد غروسمان والنقاد نسيم كلدرون. وللتذكير فقط نقول إن ذلك جرى في وقت تجاوز فيه عدد ضحايا الآلة العسكرية الإسرائيلية المائتي شهيد (ولا تزال «اليد ممدودة» فيه لزيد من القتل والدمار). كان دافيد غروسمان، الأديب الأكثر شهرة لدى الفلسطينيين والعرب، أول المبادرين للرد، على شكل «رسالة جوليّة للبيان الفلسطيني»، (نشر الرد بالعربية في ٢١ نوفمبر ٢٠٠٠):

«إسرائيلي محب للسلام، أوافق مع غير قليل من المواقف المطروحة في نداءكم، مع وصفكم الوضع الصعب للقائمين في المناطق المحتلة تحت شعار عملية أوسلو، ومع عدم الجدوى من إتفاق سلام يعكس، أكثر من أي شيء آخر، التفوق العسكري الإسرائيلي، لذلك فإن أكثرية المبادئ العامة التي طرحتم، تبدو لي أساساً يمكننا للإتفاق المستقبلي...».

تحفظ غروسمن في رده على « بيان المائة » الفلسطيني، في وقت بدا فيه أنه « نداء إستغاثة » إلى الرأي العام الإسرائيلي، بعد أن وصل الحال الفلسطيني إلى وضع لا يُطاق، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل تقدمت خطوات إلى أمام في « الإشتراط » على ما وصفه بـ « الحوار المنطقي » مع الفلسطينيين، الذي يبحث عنه في ظل القتل والموت والدمار، ما حدا به لأن يضيف : « بالإضافة لهذا، كإسرائيلي محب للسلام، كان ينقصني في ندائكم إعلان موقف بأن إتفاقاً كهذا يشكل نهاية للمطالب المتبادلة، ويتضمن إعتراضاً بحدود ١٩٦٧ ( مع تعديلات متفق عليها ) كحدود دائمة بين إسرائيل وفلسطين، توقعت أن أرى في نداء كهذا أيضاً موقفاً واضحاً أكثر لمستقبل العلاقات بين الدولتين، للحرب المشتركة ضد الإرهاب والتضال ضد التحريض، التضال الذي بدونه تكبر هنا أجيال وأجيال على مفاهيم الكراهية والعنصرية ».

لم « يتوقع » غروسمن « هذا الحجم من الكراهية » في الجانب الفلسطيني، كما يقول، مع ذلك « توقع » أن يتضمن النداء « إستعداداً فلسطينياً للحرب المشتركة ضد الإرهاب، والتضال ضد التحريض »، لذا فهو مندهش لرد الفعل الفلسطيني الميداني ( المقاومة المنتفضة ) وأبعاده « السلبية » على المجتمع الإسرائيلي : « لا يجوز الإستخفاف بهذا الجمهور الإسرائيلي الذي يحسن اليوم بآله مهتد من عدة نواح : أغلبه لم يكن يوماً مدرراً لعمق الغضب الفلسطيني فيما يتعلق بشكل إدارة العملية السلمية، وهو ذاهل من قوة العنف الموجه إليه ... ».

في هذه النقطة، تصل الساذجة القاتلة لدى غروسمن حدوداً غير محتملة، وبخاصة محاولته بحث نهج « التبادلية » للحكم على الموقف والسلوك وإتجاهات الخطاب . يقول : « آمنت أكثرية الإسرائيليين أنه مع بداية العملية تبدأ المصالحة أيضاً ... وها هم يرون عند خط النهاية أن الشركاء في العملية قد « خانوهم »، وخرقوا الإتفاق الموقع ... ».

بإسم من ينطق غروسمن حقاً؟ هل بإسم « أكثرية الإسرائيليين »، أم أنه يريد فقط « تصوير الواقع » بلغة الريبورتاج الصحفي، وهو المحرّب والخبير في هذا المضمار ( في كتابين سابقين له - « الزمن الأصفر » و« حاضرون غائبون » - في نفس المحور طرح غروسمن أسئلة كثيرة لم ينجح في الإجابة عليها، مكتفياً بالإيحاءات المبلبلة حول المواقف العامة للناس موضوع مآلاته، وليس عن الناس أنفسهم )، إلى الحد الذي يجعله يكتب في الرد على بيان المائة : « أكتب هذه السطور ويتملكني الإحساس بالتفاهة الباعثة على اليأس بمجرد العودة إلى الإدعاءات المعروفة لنا جيداً ». نسجاً على هذه « التفاهة الباعثة على اليأس » ( ١٩ ) وبعد التساؤل عن « جدوى اللف والدوران في مسار الإتهامات المتبادلة بينما نجد المئات من بني البشر الأبرياء من فلسطينيين وإسرائيليين يقتلون »، يعود غروسمن إلى محاولته الإحتفاظ بحديثه إلى المثقفين الفلسطينيين فوق « سطح إنساني »، وهو العارف أن هذا السطح لا ينجح هذه المرة أيضاً في حقن كل هذا الدم المراق : « ما الفائدة - يكتب - في الظرف الحالي من محاولة تحديد المتهم أو البادئ؟ كلنا، من إسرائيليين وفلسطينيين، شركاء في المساة التي أحقت بنا، بهذا القدر أو ذاك ... ». وبعد هذا الحكم الصارم بالشراكة في المسؤولية، والإنتقال للحديث عن « ضرورة فتح إتفاقات أو سلو بصورة أجراً والعشور على حل جديد أكثر منطقية وشجاعة، من

المؤكد أنه سيقطع في اللحم الحي لدى الشعبين»، يعود غروسمن إلى «حججه الطبيعي»، وينكمش إلى السطح الذي لا يُسمح له بالتأثير، ومع ذلك، فهو يكتب بغرور من يزعم معرفة «الآخر» بكل جوانبه، ما يجعله يخلص إلى القول: «ما زال بإمكان الفلسطينيين الذين وقّعوا على الرسالة المعلنة للجمهور في إسرائيل، وبإمكان فلسطينيين وإسرائيليين كثيرين أيضاً ممن يؤمنون بالأفكار التي طرحتها، فتح حوار بينهم بصورة منطقية. واضح أننا لسنا مخولين لإجراء مفاوضات، لكننا نملك قوة على الأقل لتجديد الحوار، لعلّه يمكننا أيضاً إيجاد حلول خلاقة وعادلة في النقاط التي لا يستطيع فيها السياسيون - مختلف الأسباب - الترفع على المصالح القصيرة الأمد...».

يعرف غروسمن جيداً موقف الموقعين على بيان المائة، فقد التقى بعضهم في رحلته الميدانية لتجميع مادة كتابيه المذكورين آنفاً يلتقيهم اليوم، ويعرف أين هي «الحدود» الجغرافية، لا الثقافية، التي يريدونها لدولتهم العتيدة، ولكن حديثه المتواصل عن «تعديلات حدودية متفق عليها» وضبابية موقفه في قضية اللاجئين، تجعله يفضل «النضال من داخل خيمة الحوار»، على الخروج علناً إلى الشوارع وإشهار الاحتجاج على القتل البشع المتواصل في صفوف الفلسطينيين (للامانة نقول أن غروسمن «تأثر» كثيراً من الترحيل المتجدد لعرب الجاهالين من أراضيهم شرقي القدس، ما دفعه إلى إعلان تظاهرة متلفزة لم تات بأي نفع على «البدو الرُحل» في الإعلام الإسرائيلي، وإن نفعت الأديب الطليعي في مسعاه لترسيخ دعائم شخصية «الطليعي» فيه، مجرباً هذا النوع من التضامن الفردي الذي لم يعرف بهذا الشكل، في مسعى واضح لتحويله إلى «ظاهرة» عاتية، وهو ما لا يحدث بطبيعة الحال؟؟)، طالما أن غروسمن لا يفعل ذلك، لا هو ولا غيره، يظلّ من الصعب عليه أن يحدد موقع «الخيمة»، التي تحدث عنها في خاتمة مقال، عندما تساءل: «هل نستطيع اللقاء في هذه الأيام بالذات عند خط الحدود، الرمزي والمحسوس أيضاً في آية نقطة بين إسرائيل وفلسطين؟ لنفترض أن ذلك سيتم في خيمة سلام نقيمها معاً؟ هل يمكننا أن نضع هناك يدلاً ما للعداء المنفلت، والكرهية، والقتل والرغبة بالانتقام؟ هل يمكننا وقف دوامة العنف المنفلت التي تهددنا بجرنا جميعاً إلى داخلها؟». تبدو هذه «الدعوة إلى الحوار»، الموجهة بلغة الضحية إلى الضحية نفسها (نشرت بالعربية في الصحافة الفلسطينية داخل وخارج «الخط الأخضر»)، مستهجنة في ضوء حجم القتل اللاحق بالشعب الفلسطيني، عندما يجد غروسمن نفسه، بخطابه هذا، شريكاً في تحميل الضحية مسؤولية السوء الحاصل للجميع هنا، ومحاولة إيجاد جذوره في مسؤولية الفلسطينيين ضمن معادلة «التبادلية» المثيرة للتعقّز. كذلك: ترى، أين سيحدد موقع «خيمة الحوار» من حدود الرابع من حزيران، طالما أن غروسمن لم ينته بعد من «تعديلاته الحدودية»؟ وبالتالي: هل يعرف غروسمن «بالضبط» حدود دولته اليهودية «التي فيها أقل قدر ممكن من العرب، وأكثر قدر ممكن من الأرض»، كما ترسم «المصالحة التاريخية» في مخيلات اليسار الصهيوني المنتمي هو إليه؟.

لا يبدو غروسمن أكثر سخاءً في موضوع اللاجئين، مع أنه يدافع عن «الحلول الإسرائيلية المقترحة» لهذه القضية (نسخة باراك ٢٠٠٠)، ويكتب في رده السابق: «حول قضية اللاجئين أيضاً مقترحة اليوم لحلول إسرائيلية سخية، هدفها إنهاء مشكلة اللاجئين...». ولكن، ما هو الحل لدى غروسمن؟

هذا ما تركه المقال - الرد غامضاً، وإن كانت مواقف الشخص معروفة في هذا السياق من مناسبات ومنابر أخرى، تبين استقراءها حقيقة «السخاء» الذي تحدث عنه في سبيل حل هذه المشكلة. ليس بعيداً عن غروسمن، يقف الناقد الأدبي نسيم كلدرون، الذي - رغم علاقته «المرزنة» مع الفلسطينيين - يبدو عاجزاً ومقصراً أيضاً في فهم «القباء الفلسطينية» الجديدة، التي يكتب لها ويخاطبها بلغة أمه.

في رّد ثانٍ له على بيان المائة، يكتب كلدرون تحت عنوان «بدون المستوطنات، بدون حق العودة» : «يجب الاستعداد لأيام طويلة وصعبة، وكذلك لأيام مظلمة ستشهد انهيارات في قضية السلام وتراجعات عنه. يمكن للمثقفين من الطرفين إعلاء صوت الأمل في هذه الأيام المظلمة، مهما كان بعيداً، ومن المؤكد أنهم قادرون على القيام بذلك بصورة أفضل في إطار الحوار. لذلك، وحتى لو كنت عاجزاً عن التوقيع على البيان - الفلسطيني - فإنني أرى فيه خطوة للحوار، وآمل أن تكون له استمرارية...».

القضية أن كلدرون لا يتوقف عند هذا الحد، ويتجاوز صيغة التعميم في النوايا «الحسنة»، وتعميم الموضوع فوق أسطح «انسانيته»، ويتعدى في توصيف وتخطيط طبيعة وغايات هذا الحوار، بنوع من الإصرار المفرض على أنها «عزة، ولو طارت». وإلا، ماذا يحضر كلدرون لهذا الحوار، وما هي الأسس التي يبنيه عليها؟ ليس أقل من نفي حق الفلسطينيين المشروع بالعودة إلى الوطن! مقابل ما يعد به الفلسطينيين من «إنجازات» وهمية بالطبع. إذا وافق محاوروه من بينهم على هذا الشرط «الطازج» القادم إلينا من قرن اليسار الصهيوني (هناك من يجادل في كون كلدرون يقف في «يسار اليمين»، بينما المتفائلون يقولون إنه في «يمين اليسار»...) فلعل حوارهم معهم يصبح ذا غايات حقيقية. لذلك يكتب هكذا : «لا يمكن أن يتم الحوار الجوهري إذا طلب الفلسطينيون من الإسرائيليين التوقيع على صيغة كهذه التي ظهرت في نداء المثقفين (إعتراف إسرائيل بمسؤوليتها عن خلق قضية اللاجئين الفلسطينيين في العام ١٩٤٨، هو شرط مسبق لإيجاد حل عادل ودائم لهؤلاء اللاجئين، بموجب قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بالأمم)». من يطلب مني التوقيع على صيغة كهذه يطلب أمرين : أولاً، تعريف حرب الإستقلال في ٤٨ كإنتم اقترقته إسرائيل؛ ثانياً، القبول بـ «حق العودة»، التي تعني عدم إعتراف الفلسطينيين بخط الرابع من حزيران ١٩٦٧. أرفض بكلتا يدي هذين المطالبين. مسؤولية إسرائيل عن طرد الفلسطينيين قائمة، وهي ثقيلة. لكنها أصغر من مسؤولية القيادة الفلسطينية، التي رفضت خطة التقسيم ونادت الجيوش العربية لغزو إسرائيل وتصفيته.

هكذا يبدأ حوار كلدرون، لذلك، فهو منته بهذا الشكل المأساوي. وليس غريباً أن ينتهي إلى نفس النهاية في مقالته المذكورة، عندما يكتب :

«سيكون من الصعب إقناع الشعبين بالتصالح. من يعلم كم من الدماء ستسفل حتى نجيء المصالحة. القوى المعارضة للحل في الجانبين هائلة. لذلك من المهم أن يوضح المثقفون الأوضاع والمواقف لا أن يشوشوها. بدون خط الرابع من حزيران لن تكون مصالحة، بدون خط الرابع من حزيران سيظل وقود «مصير عوفرة كمصير يافا» يزود المستوطنين، ووقود «مصير يافا كمصير قبر يوسف» في نابلس

يزود حماس. وتدلنا التجربة على أن الحوار بين المثقفين الإسرائيليين والفلسطينيين حقق نجاحاً فقط بعد أن امتنعوا عن إدخال تصريحات تاريخية شاملة، وعندما لم يقطعوا الطريق أمام ديناميكيا الحوار بوثائق متشدة». (يديعوت احرونوت، ٢٨/١١/٢٠٠٠).

هذه الديناميكيا التي يطلبها نسيم كلدرن تختفي عندما يكون الحديث متعلقاً بالمعاناة الفلسطينية الحقيقية اليومية وليس القومية فقط. وهي ظاهرة تسم قطاعات كبيرة من اليسار الصهيوني المثقف، ثم تجربها في حروب إسرائيل كافة، وبرزت بشكل خاص في الموقف من العدوان على لبنان، وفي المواقف العامة من حقوق الإنسان داخل وخارج «الخط الأخضر». لم تنفع مئات النصوص المكتوبة إبان الحرب في نفي صفة «البلادة» إزاء الألم الإنساني، ما دام ذلك يخص حالة الإستنفار القومي العام الذي يعيشه الجميع في إسرائيل. وفي داخل هذه الحالة، «لا مكان للعواطف. ففي الحرب، كما في الحرب»، كما يقولون في اليسار أيضاً، ويتباكون!

إنغل اليسار عن الألم الفلسطيني، وبرز ذلك كظاهرة عامة مقرونة بالأجواء التي ما زال يحاول التهيئة لها ضمن مناخ الحريق العام. وفي ذلك لدينا «شهادات على أهله»، وردت في كتابات اسحاق لاؤور وأمنون راز وعادي وأخيرين، تبدو معروفة لنا من «حرائق» أخرى سابقة - لبنان، مثلاً، لمن يكاد ينسى.

في مقال بعنوان «أبواب القلب المغلقة»، كتب الشاعر اسحاق لاؤور: «لا يعتبر الإنغلاق صفة نفسية لهذا الشخص أو غيره، بل هو موقف يجمع قسماً كبيراً ممن يسمى بمعسكر السلام أو اليسار الصهيوني: ممنوع التماثل مع ألم الفلسطينيين، لأن تماثلاً كهذا يضع التماثل في مستوى واحد مع العرب (...) أحد دروس حرب لبنان لليسار الصهيوني كان عدم إبقاء الشارع لليسار، فالتماثل مع الألم - وهذا هو الموضوع الأساسي لمعسكر السلام منذ سنوات، يتحول إلى نقيضه - الإنكار الشديد لهذا الألم». («هآرتس»، أكتوبر ٢٠٠٠).

تلك هي خيانة اليسار الإسرائيلي، التي لم تبدأ مع الأحداث الأخيرة، بل قبل ذلك بكثير. ولدينا في ذلك «شهادات يسارية» تؤكد بحرارة على ما استنتجه الباحث والمؤرخ التقدمي أمنون راز، عندما كتب يقول إن «الكشف عن الوجه الحقيقي لليسار الإسرائيلي ربما يكون أحد أهم مكاسب الإنتفاضة الفلسطينية الحالية»، وله في ذلك عبرة: أن اليسار الإسرائيلي لم يتأخر فحسب عن الوقوف إلى جانب الفلسطينيين، بل قدم مساهمة حاسمة في ممارسة الضغوط في سبيل إملاءات إسرائيلية عرضت كآثار أفضل مما يعرضه اليمين. لم يلتفت اليسار الإسرائيلي أبداً للموقف الفلسطيني، وهذه حقيقة تاريخية، بل إن تأييده للسلام جاء بدافع الحفاظ على صورته كمتنور وتقدمي «فقد اشتغلوا بانفسهم وبهويتهم أكثر مما لو اشتغلوا بحقوق الفلسطينيين. وطرحوا انفسهم كطلاب سلام، دون أن يكون لهم موقف مبدئي. وعدا «كوكتيلات السلام» التي نظمها اليساريون للصهيونيون مع التخبطة الفلسطينية، أغلق هذا اليسار الباب أمام أية محاولة للنقد أو التضامن». (راز، في مقالة عن التعايش، «فصل للمقاي»، أكتوبر ٢٠٠٠).

بينما يعطي أمنون راز كروتسكين الأولية للكشف عن الوجه الحقيقي لليسار الصهيوني، يبحث ران هكوهن، أستاذ الأدب المقارن في جامعة تل أبيب، في «انجاز» آخر من انجازات «انتفاضة الأقصى»: أنها أعادت إلى أجندة اليسار الصهيوني مسألة البحث في مصير المستوطنات الكولونيالية في أراضي الدولة الفلسطينية. «إذا كان بالإمكان الإشارة إلى انجاز مركزي للانتفاضة الفلسطينية الشعبية - يقول هكوهن - فتلك هي إعادة المستوطنات إلى جدول الأعمال القومي العام في إسرائيل». في البداية، كان رد الفعل العام متميزاً بالضبابية، وقد كان بمثابة محصلة طبيعية حتمية لاجتماعات عملية التسوية الضبابية لدى «نصف الإسرائيليين» عن يتربعون في خانة «معسكر السلام» في القاموس السياسي الإسرائيلي، بأن إنجازات التسوية المعنوية هي الأهم، وإمكان الانجازات المادية أن تنتظر «الظرف المناسب» (إخلاء المستوطنات، القدس، حق العودة). وبخيل أن ذلك ناجم عن الطريقة التي بها فسر اليسار الإسرائيلي الصهيوني إتفاقية أوسلو المرحلية، وكان من الأسهل له أن يبني على عملية بث الضباب أمام الوعي العام على المسار الفلسطيني من التفكير ولو من باب البحث في «الغيبات المحظورة والمؤجلة» في مصير المستوطنات مثلاً في ظل «المصالحة التاريخية»، وهي مصالحة فضّلوا الاحتفاظ بها على السطح المعنوي، «مطمئنين» إلى «أخلاقية القوة» في المحافظة على البيت القومي من مخاطر ما باتوا يعترفون بأنها «حرب الإستقلال التي يخوضها الشعب الفلسطيني»، بوازع من دروس هذه «المصالحة» وغيرها بالذات.

قوبل رد الفعل الفلسطيني في البداية بما يُستى بالبلبل لدى اليسار الصهيوني - «لغة نقية جداً تعتبر عن جرف قومي حاد ومنسق جيداً مع الأوساط العليا في الإعلام، وبالتنسّق مع المؤسسة بطبيعة الحال»، كما يكتب هكوهن، الذي يكشف في مقاله كيف أن صحيفة ليبرالية مثل «هآرتس» رفضت في الأسابيع الأولى من الانتفاضة نشر مقالات نقدية، حتى لكتاب أعمدة الرأي المخضرمين فيها، تطرح مسألة إخلاء المستوطنات كمخرج من هذا الحريق.

لكن بعد شهر، وفي مطلع نوفمبر، بدأت تتردد أصوات «متعلقة»، لم يكن صدفة أنها أصبحت تنادي بوضوح كبير بإخلاء المستوطنات: «من الصعب أن نحتد بالضبط الأسباب التي دفعت بالمتعلقين للعودة إلى الحديث عن المستوطنات. لعلهم استوعبوا أخيراً حقيقة أن الهتافات المطالبة بإبادة دولة إسرائيل لم تعد تصدر عن الفلسطينيين، بل تنطلق من صندوق الترجمات الأيديولوجية الإسرائيلية للمستهدفة تحرير الإحتلال». (ران هكوهن، من كتاب يصدر بالعبرية قريباً عن الانتفاضة الثانية واليسار الصهيوني، أشرف على تحريره عادي أوفير).

مهما يكن من أمر، فقد عاد الموضوع إلى الصالونات اليسارية، بكثير من التشويه والحقائق المقلوبة. وابتداء بشهر نوفمبر أخذنا نقرأ كلاماً كهذا لم يعد صادراً عن «غير المبلبلين» المخضرمين فحسب، الذين اتخذوا موقفاً نقدياً من أوسلو قبل اندلاع الإنتفاضة، بل شمل أسماء جديدة لم يسبق أن قالت شيئاً في هذا الصدد. كان الأديب دافيد غروسمن أول الأصوات التي نادى بإخلاء المستوطنات، وهو المعروف بتأييده لعملية أوسلو، ومن يتحدثون أحياناً عن «استحالة» إخلاء جميع المستوطنات،

وعن «ضرورة» ابقاء «كتل استيطانية كبيرة» داخل أراضي الدولة الفلسطينية. لكنه استخلص هذه المرة أنه «لم يعد بالإمكان الثالثة بعد الآن» («هآرتس»، ٣/١١/٢٠٠٠). بعد أسبوع على ذلك نشر الأستاذ الجامعي زئيف شطرنهال أحد أبرز مؤيدي أوصلو في اليسار الصهيوني مقالاً بنفس الروح بعنوان «العودة إلى السابقة المصرية» (في إشارة إلى اخلاء «ميت» من سيناء بعد اتفاقات كامب ديفيد مع أنور السادات)، وصدرت أصوات مشابهة عن الباحث الاجتماعي موشيه شكيد ومناحم كلاين وافيعد كلاينبرغ («ليس لبنان بل الجزائر»، «هآرتس»، ٢٦/١١/٢٠٠٠)، وحتى عن ميخائيل بن يعير، المستشار القضائي السابق للحكومة الإسرائيلية («لنعترف بمحدودية القوة»، «هآرتس»، ٢٧/١١/٢٠٠٠).

لا يعني تغلغل النقاش في مصير المستوطنات إلى صالونات اليسار الصهيوني أن صداه تنأهى إلى أطراف المجتمع الأخرى. لكن البارز هنا أن الأكاديمية الإسرائيلية وأساتذة علم الاجتماع والأدب كانوا السباقين هذه المرة إلى إثارة الموضوع، وحتى في التهيئة له على الصعيد الإعلامي على الأقل. وقد وصلت ذروة ذلك في العريضة المنشورة في الصحافة الإسرائيلية يوم ١٧/١١/٢٠٠٠ التي جاء فيها : «لم تفكك حكومة باراك ولا حتى مستوطنة واحدة. بل بذلت في تطوير المستوطنات وتوسيعها أكثر من حكومة نتنياهو. إذا لم نكن إزاء إنعدام إستقامة هنا، فنحن إزاء غياب الفهم على الأقل. إبقاء المستوطنات في مكانها أو توسيعها يحول دون أية إمكانية لمد خط محدود معقول بين إسرائيل وفلسطين. ذلك يعني من الناحية العملية تخليد الاحتلال. إننا نطالب حكومة إسرائيل بالإعلان عن نهميد فوري للمستوطنات والإعتراف بحدود ٤ حزيران ٦٧ كقاعدة لترسيم الحدود بيننا وبين الفلسطينيين... الغالبية العظمى من المستوطنات ستضطرب لأن تزال».

كان الجديد في هذه العريضة أنها لم تقتصر على حفنة يساريين راديكاليين كما في الماضي، بل ضمت توقيعات العشرات من مؤيدي «ميرتس» البارزين، جميعهم من الشخصيات الثقافية والفكرية العاتة، ولم يسبق لهم أن انتقدوا أوصلو علانية. من أبرزهم : لوبا الياف، حايم يعير، ابراهام ب. يهوشع، نتان زاخ، س. يزهار، سامي سموحة، ايلي عمير، ديف قمحي، وحتى من تحول في عهد باراك إلى أديب بلاط - عاموس عوزا بعد إتمام على صدور البيان، كتب باروخ كمرلنغ، أستاذ علم الاجتماع المعروف وصاحب كتاب «صيرورة شعب» الذي يبحث في التاريخ الحديث للشعب الفلسطيني، مقالاً في صحيفة «هآرتس» قارن فيه بينه وبين عريضة سابقة لأدباء «من أجل أرض إسرائيل الكبرى» نُشرت بعد عدوان الخامس من حزيران ٦٧، مجعلاً إستنتاجاته بالعنوان «نهاية عهد الكولونيالية الإسرائيلية» (٢٢/١١/٢٠٠٠).

يرى كمرلنغ أن «عملية نقض الكولونيالية الإسرائيلية عبرت حاجز التراجع»، وأن «الأسئلة الوحيدة التي بقيت مفتوحة هي كم من الدماء ستُسفك إلى أن يتغلغل هذا الإعتراف لدى القيادات السياسية وتستخلص النتائج العملية المطلوبة».

لعل هذه النتائج رهينة الوسط الأكاديمي الذي ينحدر منه كمرلنغ وهكوهن، مع ذلك، يجمل هكوهن بدوره «النتائج العملية المطلوبة»، وإن كان يتحفظ في مقالهِ من أنه في الجدل حول مصير

المستوطنات بين الوسط السياسي والوسط الشعبي لا ضمانات بأن صوت الأخير سينتصر :

« يجب التعلم من الخطأ الكبير لعملية أوسلو، التي أسقطت معسكر السلام في فخر مسيحية سلبية، تؤمن خلافاً لكل الدلالات أن للمستوطنات ستُخلى ذات يوم » من تلقاء ذاتها، لذلك لا يجب مضايقة حكومات اليسار بالذات التي توسعها وترعاها. إذا كانت لدى حكومات إسرائيل نوايا خفية، فهي توسيع المستوطنات وليس إخلاؤها أبداً. أفضل صديق للإحتلال هو من يصمت أمامه بدافع من الإيمان بنوايا حسنة خفية، وبحيوية التاريخ وديناميكا العملية. من يريد السلام مطالب بالمطالبة بإخلاء المستوطنات، جميعها، من تنسريم وبساغوت مروراً بعوفرة وبيت إيل حتى جيلو وكنسرين (في هضبة الجولان). المطالبة بإخلائها الآن، سواء كان هناك شريك أم لا، أكان هناك عنف أم لا. تحت الرصاص أيضاً. خصوصاً تحت الرصاص. يخيّل أن أفضل تعبير عن المطلب الشهير ليشعياهو لايبوفتش وإسحاق بن اهرن في هذا المجال، هو شعار قديم لهما، عمره في مثل عمر الإحتلال : الخروج من جانب واحد من المناطق، الآن ».

### ٣

فجأة صارت هناك «غربة يهودية» في فلسطين، عبّر عنها إبراهيم ب. يهوش في مقالة مشعونة بالإنفعالات والعواطف، نشرها في أوسع الصحف اليومية إنتشاراً («يديعوت احرونوت»، ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٠) في مكان بارز وسط بحر الأخبار «الدامية»، تحت عنوان «من أجل أطفالكم...»، خاطب فيها المستوطنين الكولوناليين بلغة : «اخوتي... من أجلكم ومن أجل أولادكم»، مطالباً إتيّاهم بالعودة من «المنفى الفلسطيني» إلى «البيت»، إلى هذا الجانب من «الخط الأخضر». وجرياً على عادته، يضيف يهوش صبغة ميلودرامية على نصّه، تكاد تلامس حدّ التهريج : «هل كان ينقصكم مكان في دولة إسرائيل حتى ذهبتم إلى قطاع غزة وقلب السامرة؟ هل الجليل مأهول بأهله؟ ألا يوجد مكان لكم في النقب؟ هل جميع هذه الأماكن ليست أرض إسرائيل - مثل نتساريم أو كفار دروم أو غوش قطيف أو بساغوت؟».

ومع أن يهوش يتناسى هوية منتدبي هؤلاء المستوطنين - حكومات العمل واليسار الصهيوني - إلا أنه يمضي في استدرار عطف الميلودراما، في مسألة شائكة وتنطوي على قدر كبير من السخرية : «قولوا، هل بإمكانكم أن تأتوا بمثال واحد من التاريخ نجح فيه شعبٌ بالسيطرة على شعب آخر لفترة طويلة؟ هل تعرفون مكاناً واحداً في العالم يعيش فيه بشرٌ في وطنهم بدون حقوق إنسان مثل الفلسطينيين؟ (...) حتى لو قطعنا الشعب الفلسطيني، لن نتمكن من سحق رغبته بالاستقلال وحقه بدولة على ٢٢٪ فقط من الأرض التي نظر إليها دائماً كوطنه الأصلي». ويختتم : «أيها الأخوة، أيها المستوطنون، لا تكونوا عنيدين، بل كونوا أقوياء وعقلاء... عودوا إلى دولة إسرائيل، فهي موجودة أيضاً في أرض إسرائيل».

اللافت للنظر في خطاب «يهوشوع» هذا، أنه لا يقول كلمة نقد واحدة للسلطة التي أوعدت هؤلاء المستوطنين - وهي السلطة التي هو جزء من حزبها - بل يقوم بإخراج المسألة من سياقها،

ويختار أسهل الطرق : « مناشدة » المستوطنين تجنبه وتجنب دولته عناء الشرور، جزاء استمرار مكوثهم هناك. على أي حال، هي كلمة حق يُراد بها باطل !

على عكس يهوشع، يدافع أمرون ميجد، الكاتب اليميني المعروف، عن هذا « الإنتفاء اليهودي » في الوطن من خلال العودة إلى التأكيد على « الصلة الروحانية » التي يحتاج إعادة إبتكارها الآن على ما يبدو أكثر من ذي قبل مع هذا « المنفى ». ومع أنه بات يصريح مؤخراً فقط وبوضوح نسبي أنه مؤيد لقيام دولة للفلسطينيين، إلا أنه لا يوضح كيف يريد الحفاظ على « صلاته الروحانية » بما يقول أنه جذوره التاريخية فيها، بينما يعضي في أحلام يقظته بقدم السلام. ويقول :

« سكان البلاد العرب، المنزوعون في أرضها منذ عشرات الأجيال، جديرون بالإنستقلال كبقية الشعوب، إذا كانوا يعتبرون أنفسهم شعباً مختلفاً عن الشعب الأردني أو السوري أو اللبناني، فليس نحن من يقرر لهم. لذلك علينا التسليم بقيام دولة فلسطينية في جزء من أرض إسرائيل. لكن حتى بهذه الطريقة لن نتمكن من الإنقطاع، لا تاريخياً، ولا ثقافياً، ولا دينياً، ولا ذاتياً، من ذلك الجزء الذي سيكون تحت سيطرة الفلسطينيين، ولن نستطيع اعتباره « منفى » أبداً. فلو كانت يهودا والسامرة، وبضمنها الخليل وبيت لحم وتقوع وعناوت وبيت إيل وأريحا وجبل جرزيم وجبل البيت « منفى »، أي خارج البلاد - فلماذا جئنا إلى هنا من الأساس؟ ولماذا نواصل إنشاد « هتكفاه » مع « عين إلى صهيون ترنو » وما أشبه؟ إن أحداً مثلاً لن يصلح أن « أرض الآباء » التي عدنا إليها بعد مئات السنين في المنفى هي بالذات هذا الشريط الساحلي بين تسرم ونهاريا، حيث الرمال نظيفة تماماً من الذكريات التاريخية التي شكّلت لنا دفعا للمطالبة بحقنا بالعودة والإستيطان في هذا البلد، مهد ثقافتنا » (يديعوت أحرونوت، ١٢/٧/٢٠٠٠).

إزاء هتاف ميجد للمسيحانية التاريخية، قدمت أحداث الإنتفاضة الجديدة بهراً آخر على استحالة ما ذهب إليه بعض كتّاب اليسار الصهيوني من أوهام إستيطانية أنستهم حقيقة الأوضاع « في البيت »، فوجدناهم يكتبون الآن « نحن أيضاً أخطأنا »، كما فعل الكاتب سامي ميخائيل. « أنقذوا مدينتي... »، هتف ميخائيل، اليهودي - العربي الذي اختار منذ عقود منفاه العبري، وتحول للكتابة بالعبرية، مخاطباً الجميع، ليس قبل أن يتبني مصطلحات الصهيونية الدينية في الصراع، ويبدأ التباكي على مصيره في البلاد، وهو يرى النار تلتهم مختلف « أنسجة العلاقات » التي حكمت تعامله مع الآخرين... بعد أقل من أسبوع على إندلاع إنتفاضة الأقصى، وامتداد ألسنة اللهب إلى « المدن المختلطة » في الداخل، وبضمنها حيفا، بلد الكاتب الشيوعي السابق، الذي صار صهيونياً مباشرة بعد هجرته إلى البلاد، كتب ميخائيل مقالاً بعنوان « أنقذوا مدينتي »، استهله بالقول :

« عاصفة نار ودم جديدة تغمر أرض إسرائيل، التي ترفض الإنقسام، وترفض التصالح. تاريخ مزور وسياسيون بلا ضمير، يقدرون الشعبين إلى حلبة القتل والإنتحار المتبادل. هذا هو اليوم العظيم لليهود والمسلمين المتعصبين، الذين يرون السلام خطراً مميتاً. هذا هو الفشل المدوي لانصار السلام الذين لم يعرفوا كيف يترجمون حلمهم إلى لغة مفهومة، وهذا هو يوم الحزن الكبير لمن أوصل باراك إلى سدة الحكم، أملاً أن يجلب السلام ويضع حداً لسلطة الديماغوغيين الذين يقومون بإثارة القطيع.

هذا هو اليوم الأسود لليسار الإسرائيلي، الذي تخلى عن باراك وحطم صورته في أنظار شعبه. هذا اليسار يتحمل مسؤولية كبيرة لأنه صعد إلى قطار علماني منتزع لكي يحطم «شاس»، الحليفة الوحيدة من المعسكر الآخر في صنع السلام.

في البداية، لم يكتف سامي ميخائيل ببيته الجديد على ما يبدو وهب يتقمص دور النافخ في البوق بدوره، ما يليق بالمكانة التي يسعى كل الوقت للترقيع فيها، إلى حد أنه أمسك مؤخراً وهو يهذي: «الصهيونيون الحقيقيون اليوم هم المستوطنون» - يكتب، يقول، في كتاب المقابلات المطوّلة التي أجراها معه الصحفي روبيك روزنطال وصدر هذا العام - «المستوطنون هم من يحتل الأرض بتضحية عظيمة بالنفس، ويعرضون أولادهم وأنفسهم للخطر، وأنا لست معهم. أنا موجود في الطرف الثاني، مع ذلك أخشى أن يُقتل أحد منهم. عندما يُقتل مستوطن في عملية، يسيل دم اليهودي الذي بداخلي. أنا قلقٌ على مصير أبنائهم» (ص ١٦). وهو القائل في نفس الكتاب: «لكي نكون جزءاً من الحاضر الإسرائيلي، ولكي نبزّر عدم التجاوب الفوري مع أمر الهجرة طالما أحسنا بالآمان هناك، فإننا نقوم بقتل اللأجئ الذي في قلوبنا ونعظم الصهيوني الذي في أرواحنا...» (ص ١٠).

«تعظيم الصهيوني الذي في الروح» كان وما يزال يعني - ثقافياً على الأقل - كراهية العرب كمقدمة «ضرورية» للخروج من مأزق الهوية، الذي وصله الشرقيون اليهود وما زالوا عالقين فيه حتى اليوم. وفي ذلك يكتب سامي شالوم شطريت، الناطق بلسان السفارديم: «عرفتُ على الدوام إلى أيّ حدّ نحن الشرقيّين أسرى مصيِّدة الهوية القومية هذه، التي تلزمننا بكراهية العرب للفوز بوجودنا، مع ذلك فقد آمنت بنفس القدر من اليقين أننا في الواقع نكره أنفسنا فقط في فخ الكراهية هذا. آمنت بأنّها مسألة وقت مردها القمع الثقافي الذي نتعرض له. لكن الوقت يظل يلعب دوراً حاسماً وديناميكياً. أجيال ثلاثة من الكراهية تعمل عملها. لم يعد للشرقي اليوم أية حاجة بكراهية العروية لأنها لم تعد موجودة، عروبتنا غائبة فقد أبهدت على يد الصهيونية. لا يوجد يهود - عرب في العالم بعد اليوم. هناك شرقيّون في إسرائيل وهناك سفاراديون وشرقيون مغتربون في العالم ومعظمهم يقعون عميقاً في مصيدة العالم الصهيوني الاشكنازي».

كما سامي ميخائيل، وآخرين، بالضبط

## I

إذا كانت حرائق الشهور المنتهية قد اثارت هذا القدر من «الضغائن الشرقية» لدى الكُتّاب السفارديم، الذين باتوا يستشعرون القواسم المشتركة بينهم وبين الفلسطينيين ولو بشكل مشطور، فإنّها خلخلت الأسس الواهية التي وقف عليها كُتّاب وشعراء «اشكناز»، من يخطبون ضدّ المؤسسة، ولكنهم يخطبون ودماً قبل نهاية المطاف. هكذا بدا نتان زاخ بصورة باعثة للحزن والياس، وهو يستخلص عِزّة ودروسة من الأوضاع. في استطلاع أجرته «هآرتس» (٢٠/١٠/٢٠٠٠) عن أزمة اليسار الصهيوني في ضوء الإنتفاضة، إختار زاخ المقارنة بين القاتل والضحية، في «إستثناء» مجازي

نادر الوجود لديه، وإن بدا أنه قابلٌ لأن يتكرر. «من يرغب بالتعلم من التاريخ مُطالبٌ بقدر قليل من التواضع المناسب. حتى لو عاد التاريخ، فإن التاريخي لا يعود إلى الأبد»، يكتب زاخ، الذي يتباكى على «حجم الفرصة الضائعة»، بعد أن وجد أن ياسر عرفات مسؤول عن التفويت! من هنا، فإن الطريق إلى الإستنتاج المذهل الذي توصل إليه ليس من دون «سذاجة قاتلة»، كانت قصيرة: «عدا عن مهمة الإصلاح الكبرى الملقاة اليوم على إسرائيل، فإن إسرائيل المتنوّرة (أقلية ليست كبيرة في الشعب) تغف مجدداً أمام المهمة القديمة - الجديدة: الإعداد النفسي والسياسي للجولة التالية في عملية السلام، وهذه المرة من دون مساعدة عرفات ومؤكّد من دون تدخل الكثيرين من أبطال التراجيديا الحالية. بكلمات أخرى: إنها العودة إلى الصحراء».

لا أدري ما الذي يدفع شاعراً مُرهفاً وطيّعيّاً مثل زاخ إلى هذه الإستنتاجات القاتلة، عن إختفاء «الشريك» الفلسطيني، إلا إذا كان ذلك هو «الإحساس بالواجب» وليس «إسقاط الواجب» تجاه المعركة ما يجعله يقول مثل هذا الكلام، الذي لا يختلف كثيراً عن ذلك الذي تقوم بإنتاجه آلة الدعاية الصهيونية يومياً، وبالأطنان، حتى لو غلّفه بالميثولوجيا ذات الطبيعة النقدية، كما في قصة الخروج إلى الصحراء، المعروفة! ولكن ما نفع الميثولوجيا إذا كان الواقع المرّ أشدّ إيلاماً، وأمضى من أيّ «تبه في الصحراء»؟

«ذات يوم، في أواخر شهر سبتمبر ٢٠٠٠، إكتشف الإسرائيلي المتنوّر أنّه ما زال يرتدي حذاء المحتل، وأنّه ما زال يقف أمام مئات الآلاف من الرعايا المعادين، الذين يمتلكهم الغضب والكراهية، ولا يستطيعون إحتمال لا مبالاته تجاه معاناتهم» يكتب الدكتور عادي أوفير بصورة أوضح، ويخطاب سياسي لا يحتمل الكيس، خلافاً للشاعر التقدّمي المتنوّر: «الإنقفاضة الفلسطينية الأخيرة تضمن لنا على الأقل شيئاً واحداً: لن يكون هناك إحتلال متنوّر بعد الآن. في ظلّ غياب اتفاق، ستتسع الصدمات، وربما تندلع الحرب. وسيضيف الإسرائيلي المتنوّر سترة أخرى وأقية من الرصاص إلى حذاء المحتل، ويقرم بالملقى عليه، مسلّحاً بأحقّيته العمياء. وفي تراب البلاد ستختلط لترات كثيرة من الدم اليهودي ودم الفلسطيني، ضمن النسب المناسبة، لرسم الصورة الجديدة لدولة الأبرتهاید اليهودية». (٢٠٠٠/١٠/١٧).

فهل هناك تبه أكبر من تبه إنتلجنسيا دولة الأبرتهاید، التي تلجأ، في سبيل المضي نحو هدفها، إلى إعادة إنتاج الميثولوجيا، وإحياء «حكايات» مستهلكة من الماضي البعيد، لعلّها بذلك تعيد إنتاج هويتها في واقع متغيّر، ليس من الواضح أنّه سيظلّ قادراً على إنتاج المزيد من هذه «الحكايات»؟ تبه الإنتلجنسيا الإسرائيلية، في مطلع الألف الثالثة، ما بعده تبه!

(باقية الغريبة / المثلث)

## حيث يكون الجنود تكون الحجارة

### عميرة هس

\* إلى أين تذهيبين؟ - سألني أحمد ابن الخامسة، وأراد بدلاً من الاحتجاج على التي أفسدت عليه مواصلة اللعب معه بالطائرة والأرجوحة الدوارة، حسبما نفعل دائماً عندما آتي إلى غزة وأحلّ ضيفاً على بيتهم. في أيام أخرى غير أيامنا هذه، أي قبل انتفاضة ٢٠٠٠، درجت على أن أجيبه بأنني ذاهبة إلى العمل.

في ذلك الوقت، قبل الإنتفاضة، كان «العمل» يعني الخروج من البيت ومقابلة موظفين في مكاتب السلطة الوطنية لاطلاعي على كومة الطلبات المرفوضة لتصاريع خروج إلى الضفة الغربية أو إسرائيل أو للم شمل العائلات، وكذلك تجاذب أطراف الحديث مع نشطاء في المعارضة وإن كانوا لا يقترحون بدائل عملية، والتجوال في الشوارع لتسجيل أن الحوائث تكاد تكون خالية من حركة للمتسوقين وأن المسافرين في «التاكسيات» يتحدثون علانية كم أن الأوضاع بائسة وكيف أنهم لم يغادروا حدود القطاع منذ خمس أو سبع سنوات، وتوثيق حركات الناس الذين يملأون «دزينة» من التشنكات بمياه صالحة للشرب من صنادير رئيسية لأن المياه التي تصل إلى المنازل الحلة وملوثة، والإشارة باكتفاء إلى أنه على رغم كل ما تقلّم فثمة بعض حوائث بيع الورود في غزة، وتسجيل مهانة امرأة من مخيم جباليا لللاجئين تحت صحفياً أجنبياً ومحوزته كاميرا فصاحت به: إنكم دائماً تحضرون لرؤيتنا متلبسين بُذلنا، نفس الشيء منذ ١٩٤٨.

أما الآن، يوم الجمعة، الأسبوع الأول من إنتفاضة الأقصى، قبل ثلاثة أيام من إقدام الجيش الإسرائيلي على تفجير «البنائتين المتجاورتين» قرب الموقع العسكري الإسرائيلي في مفترق «نيتسرم» والجدار المقابل لهما، الذي قتل في محاذاته الطفل محمد الدرة، فقد أجبت أحمد: «أنا ذاهبة لرمي الحجارة على الجيش». وقد بدا له هذا التفسير معقولاً جداً، إلى درجة أنه صدّ أي احتجاج محتمل. وفي المساء، عندما عدت إلى البيت، أبلغني بصوت مجلجل أنه شاهدني في التلفزيون أرمي الحجارة. (يا لها من توزيعه عمل غريبة وموجعة، طبيعية وجنونية: هناك من يرمون حجارة، هناك من يرمونها ويُقتلون، بعد ذلك، يترأض المئات صوب المستشفيات، والآلاف يشتركون في الجنازات،

العشرات يطلقون صيحات الغضب والألم بينما يسير الآخرون كان على رؤوسهم الطير وراء الحماة التي يُسجى فوقها الميت، وعشرات الآلاف الآخرين يجلسون في البيوت ويشاهدون عبر التلفزيون الجنازات، واطلاق النار، ويحافظون بكل ما أوتوا من قوة على أن لا يخرج أولادهم إلى الشوارع. ويجد الأهل أنواع لا حصر لها من «أشغال الطوارئ» لأولادهم في البيت من أجل أن يبقوا في مرمى بصرهم، لا في مرمى بنادق جنود الجيش الإسرائيلي).

طبعاً لم يشاهدني أحمد أرمي حجارة، لأنني لم أرمها فعلاً. لقد ذهبت إلى هناك كصحفية لاكتب عن رماة الحجارة وعن رميات النار للقاتلة المتواصلة، التي أطلقها جنود إسرائيليون غير مرئيين محميون جيداً عن بعد كيلومترين على الأقل، من مواقع قصير في مستوطنة «نيتسريم». آلاف الناس تدفقوا بعد صلاة الظهر إلى هذا المكان الرمزي، المكان الذي لا يرمز فقط إلى جيش غريب عالق في منتصف الطريق الرئيسي للقطاع، وإنما أيضاً إلى وجود هذا الجيش في مكان يُحظر عليه التواجد فيه، بموجب نصوص اتفاق أوسلو.

في الجيش الإسرائيلي ما زالوا ناقمين على أسامة العلي، أحد الضباط الكبار في الأمن الفلسطيني والمسؤول عن التنسيق الأمني معهم، وهو صاحب مبادرة تشييد بنايتي السكن لعائلات أفراد الشرطة، على مقربة من الموقع. يا للوفاحة! فلسطيني يجرو على أن يفرض وقائع على الأرض والدارج على لسان الجيش الإسرائيلي في العادة أن هاتين البنائتين - كل واحدة منهما ذات خمسة أو ستة طوابق.. أصبحتا «مراكز للهجوم»، في سبيل إثارة الانطباع بأن الحديث يدور عن هجمات فلسطينية مهولة على الموقع العسكري. حالياً ما بقي هو الموقع العسكري فقط. البنائتان هدمتا حتى الطوية الأخيرة. والعائلات فقدت ماواها. كذلك تم اقتلاع البيارات والبساتين من حولهما. فليعرف الجميع من القوي هنا.

. في ذلك الوقت، يوم الجمعة نفسه، أوقعت رميات الرصاص عن بُعد المزيد والمزيد من الضحايا. وفي نهاية ذلك اليوم بلغ عدد القتلى أربعة. لكن الناطق العسكري لم يكلف نفسه عناء التصريح بشأن هذه الرميات اللانهائية، واكتفى بالتصريح عن حادثتين اثنتين، فقط أطلق خلالهما الجنود نيران أسلحتهم في الموقع الذي كان عرضة للهجوم في المفترق نفسه، الأولى رداً على إطلاق النار من جانب مسلح فلسطيني والمرة الثانية رداً على أنبوب غاز جرى قذفه في اتجاه الموقع.

لقد سجلت في دفترتي كل رمية نار، وسألت نفسي في ذلك الوقت، وهانذا أتساءل الآن عن عشرات الأماكن في الضفة والقطاع، التي تحدث فيها مواجهات يسقط على إثرها قتلى ويصدر الناطق العسكري بشأنها، على رغم وقوعها فعلاً، بيانات جريئة للغاية، يحتضنها الإعلام الإسرائيلي دون أن يغير فيها حتى فاصلة واحدة، فيتماشى كل شيء مع صورة الملاحقة التي أحاط الإسرائيليون أنفسهم بها منذ الساعات الأولى للانتفاضة. يتماشى ويزود الوقود لمشاعر المهانة والضحية. الحجارة قاتلة. ونحن حسبنا أن الفلسطينيين راغبون بالسلام، يا للخيانة.

( أعرف أن مجرد مزاحي مع أحمد ابن الخامسة حول مشاركة متخيلة في رمي الحجارة من شأنه أن يزود الذين يزعمون باني تجاوزت الخطوط الحمراء، بالمزيد من الذخيرة. لكن هاكم الإثبات القاطع

على أنني لم أتجاوز مثل هذه الخطوط : ذات مرة، في أخريات الإنتفاضة الأولى، كانت والدتي ابنة الثمانين عاماً ونيّف تشاهد التلفزيون وهو يعرض مظاهرة ما يرمي بعض الأطفال الفلسطينيين خلالها حجارة صوب جيب عسكري إسرائيلي . «فالدكو» -قالت والدتي التي كانت تتكلم بلغة عبرية مطقمة بلغة صربية - كروا تية . ومعناها : ما أحلاهم ! وسالت ما إذا كان بالإمكان أن تحصل من اليكس ليباك ( المصوّر الصحفي ) على صورة أو إثنين لأطفال الحجارة . وحصلت فعلاً على مبتغاها : الصورة الأولى لطفل من مخيم جباليا للاجئين في غزة والصورة الثانية لطفل آخر من مخيم بلاطة للاجئين في نابلس .

لم تكن والدتي في حاجة لأن تعيش وسط الفلسطينيين كي تحدّد خطوطاً حمراء واضحة لا ينبغي تجاوزها . فهذه المرأة اليهودية التي تعرضت للتمييز بسبب يهوديتها المعلنة في يوغسلافيا الملكية، والتي انضمت إلى فعاليات شعبية بسيطة شبه سرّية ضد سلطة القهر والقمع، والتي القي القبض على أصدقائها الأنصار - اليهود وغير اليهود - من جانب الألمان وغلّقوا على أعواد المشائق، والتي أودعت في غياهب سجون الغستابو، وبعد ذلك نجت من معسكر الاعتقال في برغن -بلزن، هذه المرأة اليهودية خطوطها الحمراء واضحة وهي خطوط اليسار -إذا جاز لي مثل هذا الكشف المعقول - وخطوط الحقائق الكونية الإنسانية فوق القبلية . الاحتلال الأجنبي، حتى لو كان يهودياً، هو احتلال ساقط . وأي احتلال، حتى لو كان يهودياً، يستجّر إنتفاضة . الحق في الانتفاض هو حق إنساني لكل جمهور مضطهد، وبالذات لمثل هذا الجمهور . هل يوجد شيء أبسط من هذا؟ .

بيد أن والذي المرحوم والذي طورد أيضاً في الماضي بسبب يهوديته واستمحيكم العذر على هذا الاستطرد في الشأن العالمي - كان عملياً أكثر . ففي سياق الانتفاضة السابقة رجاني الأسافر بسيارتي في الضفة الغربية «لأنهم إذا رشقوا الحجارة فهم يفعلون ذلك عن حق» .

حركة يد فتى فلسطيني : اليد ممدودة إلى الامام، بعد ذلك يميل الظهر والراس إلى الخلف، تعود اليد إلى الوراء وتبدأ بالارتفاع تدريجياً وببطء ما، ثم تشق الهواء بسرعة وتتجه مرة أخرى إلى الامام بينما الأصابع تطلق سراح الحجر الذي كانت ممسكة به . إنها حركة تخيف من يتمسك، بكل ما أوتي من جبروت وقوة، بحرقه الفائضة، من في مقدوره أن ينصب دبابات، وقناصة من أجل الدفاع عن هذه الحقوق الفائضة، مثلاً، عن المياه ووفرته للحتمام والعشب الأخضر . بينما في القرية الفلسطينية المجاورة ( التي صادروا أرضها قبل عشرين عاماً ) ينقلون في الصيف تنكات المياه على ظهور الحمير، فالصنوبر خاير لأن إسرائيل، التي تسيطر على مصادر المياه في البلاد ضمن حدودها الانتدابية، تفرض بوقاحة ودون حياء حصّة المياه التي ينبغي أن يصرفها الفلسطينيون للاستعمال البيتي .

مخيم قلنديا للاجئين، على بعد خمس دقائق سفر من القدس، يحده مطار . ومثل كل فلسطيني في الضفة والقطاع لا يسمح لسكان المخيم بدخول القدس، إلا إذا زوّدهم موظفون وضباط إسرائيليون بتصاريح دخول مناسبة . وهذه التصاريح تُعطى بالقطارة أصلاً .

الحل إذاً : الدخول من غير تصاريح والمخاطرة بالتعرض إلى الاعتقال أو التفرغ أو إلى نظرات تبعث الرعب لجندي ما . كان هذا قبل الانتفاضة . أما الآن فمنذ شهرين ونصف الشهر والفلسطينيون

رهاثن لدى الجيش كل منهم في جيبه الخاص.

«طوق» هي الكلمة الجديدة للجيش الإسرائيلي، وبالفعل فالمدن والقرى مطوقة جيداً بواسطة شبان من الكيبوتسات والموشافات والمدن، سفاراديون وأشكناز، جنود بعضهم جاء إلى البلد قبل سنتين أو خمس سنوات من موسكو أو من قبرغستان أو من قرية قرب أديس أبابا أو من بلدة في فلوريدا. وهم الآن ينفذون آخر الأوامر: لا يمنعون ثلاثة ملايين فلسطيني فقط من الخروج من تخوم الضفة والقطاع. وهذا هو الوضع «الطبيعي» في السنوات التسع الأخيرة. وإنما يمنعونهم أيضاً من التحرك في الـ ٢٢ بالمئة من النسبة المتبقية من وطنهم. إنهم يحفرون قنوات، في الحقول حتى يستوا عليهم إمكانية الالتفاف، من هناك، على «الحجوز» (الحاجز العسكري) وينصبون كومات الرمال في مداخل القرى والبلدات. وبالنسبة فإن كل جندي من هؤلاء في مقدوره الآن أن يقرر الانتقال للسكن ضمن شروط مفضلة في أية مستوطنة كولونيالية في الضفة الغربية، إذا لم يكن أصلاً من سكان هذه المستوطنات.

مفتشو «الإدارة المدنية» هم بمثابة «العين الساهرة» التي تضمن أن لا تخترق أية قرية فلسطينية بنيت على أراضيها المستوطنة المخاذية منطقة نفوذها، حسبما تحددت في اتفاقيات أوسلو، لناحية «غزو» أراضي الدولة. وكلمة «غزو» هي ما يكتب على أوامر الإخلاء والهدم والاقتلاع التي يتلقاها فلسطينيون تجرأوا، هم أو آبائهم، على غرس شتلة شجرة في أرض ستعلن مرور الأيام أنها «أرض دولة»، أي أرض لليهود. ومن مهبط الطائرات قرب «الإدارة المدنية» تقلع الهيلوكوبترات وعلى متنها المفتشون أصحاب الهمة (قسم منهم يقيم في المستوطنات) فيحلقون فوق القرى ويصورون كل قطعة أرض مزروعة أو بور، ليقارنوها بصورة سابقة وليحددوا من ثم «غزوات» اشتال الزيتون أو التين. من بيتي في البيرة أطلّ على مبنى «الإدارة المدنية»، حيث يقع مقر اللجنة العليا للتخطيط، التي تغير الخرائط الهيكلية فتوزّع وتضيف، وتسمع الاعتراضات، وعادة ما ترفضها ليكن واضحاً: هذه اللجنة عملت وتعمل في تخطيط أرض فلسطينية. وليكن واضحاً، مرة أخرى: جميع أعضاء اللجنة إسرائيليون. وليكن واضحاً، مرة ثالثة: ٩٩,٩ بالمئة من التخطيط معدة للإسرائيليين. وأحياناً تصيب الاحتجاجات الهدف: لجنة التخطيط هذه، سوية مع دائرة الأشغال العامة (ماعتس)، خططتا لشقّ شارع جديد يصل بين مستوطنتي عوفرا بمستوطنة بيت إيل، لكي لا تظلا منعزلتين. وقررت حكومة العمل - ميرتس شقه في نيسان / أبريل ٢٠٠٠ بكلفة ٣٦ مليون شيكل. هذا الشارع كان من شأنه تدمير أحد المواقع النفيسة التي تخبئ الأبصار في منطقة رام الله، وهو حوض واد ساحر ومحمية طبيعية تابعة لقرية دورا القرع، تعتاش مئات العائلات على زراعتها. لكن في بداية الإنتفاضة وصلت البشرى السارة بتجميد شق هذا الشارع. وتبيّن أن الضغوط الاسرائيلية والفلسطينية ساعدت في تحقيق ذلك بعض الشيء. مع هذا يبقى السؤال: ماذا عن «دزيتتين» من شوارع أخرى، ليست أقل تدميراً، يجري شقها على قدم وساق خدمة لاحتياجات فئة المستوطنين فقط؟.

أحد هذه الشوارع يجري إنهاء العمل فيه هذه الأيام، بالقرب من مخيم قلنديا للاجئين، الواقع على بعد خمس دقائق سفر محظورة من القدس. إنه طريق سريع متعدد المسارات، شارع تل أبيب -

عمّان ( طبقاً لبرنامج شمعون بيريس بشأن الشرق الأوسط الجديد، هل تذكرون ؟ ) . لكن في الحقيقة هو شارع يختزل الطريق للمسافرين من موديعين ومستوطنة غفعات زئيف، مثلاً، إلى مستوطنتي بسجات زئيف ومعاليه أدوميم . فليحيا حق الإنسان في حرية الحيز والحركة وتقصير وقت السفر .

شارع القدس - رام الله يشق الخيم . هذا الشارع جرى ضمه إلى القدس في ١٩٦٧ . على هذا الأساس فإنه يعتبر جزءاً غير منفصل من «عاصمة إسرائيل الأبدية» . إنك في شارع ضيق ومشوش، مليء بالحفر، بدون لافتات مرور وخطوط سير وإشارات ضوئية، وكذلك بدون إضاءة ليلية . شرطة إسرائيل تعتبره «شارعاً دموياً» لكثرة حوادث الطرق وضحاياها من قتلى وجرحى فيه . لا يجمعون النفايات منه ( رغم أن طابور المنازل على طول جري ضمه أيضاً إلى القدس ويدفع السكان ضرائب البلدية كاملة ) . حاويات النفايات على جانبي الشارع فائضة دائماً عن حاجتها ومحاطة بأكوام القاذورات والحرداوات، في ساعات المساء يحرقون النفايات التي في الحاويات فتصاعد السند الدخان وتبعث في الجو رائحة إحترق البلاستيك، والحضار المتعفة . تبرعت حكومة اليابان للسلطة الوطنية الفلسطينية بحوالي خمسة ملايين دولار لترميم هذا الشارع ترميماً جذرياً والسبب، كونه يخدم الفلسطينيين فقط، بينما حظي اليهود المقيمون في المستوطنات المجاورة ببناء وشق شوارع التفافية عريضة وأمنة . عينت السلطة الفلسطينية وكالة الأمم المتحدة للثمنية - UNDP . لإنجاز أعمال الترميم الجذري . لكن بلدية القدس رفضت ذلك بكل الحزم، بحجة أن هذا الأمر من شأنه أن يعتبر اعترافاً بكون الشارع غير تابع للقدس، حيث أن تفويض وكالة الأمم المتحدة ينص على أن تعمل فقط « خارج حدود دولة إسرائيل » . قالوا في البلدية : أعطونا الأموال ونحن ننجز أعمال الترميم الجذري، وإلا فإن إسرائيل تفتقر إلى ميزانية خاصة لترميم هذا الشارع بصورة جذرية !

في الجهة الجنوبية - الغربية للمخيم، حيث يلتوي قليلاً هذا الشارع الخطير، توجد رابية تطل على مسار هبوط الطائرات وعلى طريق عمّان - تل أبيب السريع . هذا المكان مئة للحجارة والزجاجات الحارقة والاطر المطاطية المشتعلة عندما يكون فيه جنود . وعندما لا يكون جنود، لا تكون حجارة ! لكن ثمة جنود، إذ بخلاف ذلك أتى لنا أن نعرف أن إسرائيل هي الجهة المسيطرة هنا . وعندها يطلقون النار على الأولاد، فيما يبدون في إسرائيل مشاعر المرارة حيال الأهل الفلسطينيين الذين يرسلون أولادهم إلى الموت .

مع ذلك، فإن الذي ليس في عجلة من أمره لضمان شارع آمن لأولاد المخيم ولا يقلقه عدم توفر مياه للشرب والاستحمام في الصيف، مهتم جداً بحملات تاديبهم المحكمة . منذ حوالي السنتين تقرر في أروقة الجيش الإسرائيلي، القوة السيادية في المناطق، تخفيض عمر الأولاد الفلسطينيين المسموح إعتقالهم وتقديمهم إلى المحاكمة بتهمة الإخلال بالنظام أو بتهم من أنواع أخرى، من ١٤ سنة إلى ١٢ سنة . وصدرت تعليمات للقضاة العسكريين تقضي بتشديد عقوبة طلبة المدارس المتهمين برشق حجارة على آليات عسكرية . في لوائح الاتهام ضد العديد من هؤلاء ورد مثلاً : « رشق الحجارة في تاريخ كذا وكذا وإيضاً بين كانون الثاني / يناير وكانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٩٨ » . وتفضل أثبت العكس .

الحجر هو شيء خطير للغاية - قالوا في الجيش الإسرائيلي، في معرض تبرير تشديد العقوبات. وأضافوا أنه لا يمكن تحمل أعمال الإخلال بالنظام. الاحتلال هو النظام هنا. والنظام، أيضاً، أن الحكومة تملك ميزانية لشقّ شارع آمن للأولاد اليهود، لكن هذه الحكومة لا تملك ميزانية لترميم شارع للأولاد الفلسطينيين. هذا هو نظام العالم الذي ينبغي عدم الإخلال به، خصوصاً إذا ما كان مغلفاً بورق السيلوفان الوردي لـ «عملية السلام» و «الإدارة الذاتية الفلسطينية».

وهذا السيلوفان الوردي والخادع نجح في أن يحجب عن أعين كل من لم يرغب بالرؤية أصلاً، وهؤلاء هم غالبية المواطنين في إسرائيل - أنه في سنوات أو سولو أنشأ واقعاً يشكل صفقة يومية لكل فلسطيني، ولكل طموح إلى المساواة محفور داخل كل إنسان مجرد كونه كذلك، وأيضاً للرغبة في حياة طبيعية. فليس هناك نصف إحتلال ونصف إستقلال. ما هو الأمر غير المفهوم هنا ؟ أما الأولاد في عمر ١١ و ١٢ سنة فقد أحسّوا هم أيضاً بالمهانة والظلم. ومن أجل ذلك هؤلاء ليسوا بحاجة إلى «تحريض» في كتب التدريس أو في برامج التلفزيون.

يبدو أن الرقم ١٢ تُمثّل في الجيش الإسرائيلي كحد أقصى لعمر الولد الفلسطيني. قنّاص إسرائيلي أقسم على مسامحي أن لديه «تعليمات واضحة بعدم إطلاق النار على الأولاد». وعندما سألت ما هو عمر الولد ؟ أجاب بثقة كاملة : ١٢ سنة فما دون، جيل «البار متسقاء» ! يبدو أن هذا القنّاص أخطأ بسنة واحدة. أما الناطق العسكري فقد رفض أن يقول لي من يكون الولد بالنسبة لهم. وزئيف شيف قرر في «هآرتس» أن يحدد الأولاد الذين قتلوا فعلاً أقل من العدد الذي يعلنه الفلسطينيون، وذلك بعد أن حدد عمر ١٣ سنة كحد أقصى لجلب الطفولة. يمكن الخلوص من كل هذا أن حجراً في يد ولد ابن ١٤ سنة هو سلاح. وإن جاء ليقبلك فيكّر واقتله !.

بسرعة فائقة، عملياً منذ اليوم الثاني لاندلاع المواجهات، كان يمكن الخلوص أن هذه هي التعليمات التي صدرت للجند. ورغم أن هذا كان واضحاً وأصل الفتيان تقدمهم نحو «المحسوم» - الحاجز العسكري - في البداية كانوا يعدون بالمئات، لكن هذا العدد يتقلص أحياناً إلى العشرات، وإلى أقل من ذلك. لكنهم يتقدمون، لا أحد منهم يعرف كيف يعود، عند المغيب، سليماً أو جريحاً أو قتيلاً. والذي لم يشاهد ولم يسمع فتياناً يتفرقون بعد هذه الجنازة أو تلك بصيحات : «يَلَّا إلى المحسوم، إلى المحسوم يا شباب» أو «إلى البالوع» (حيّ في البيرة يقع في سفوحه محسوم الجيش الإسرائيلي - حيث موقع المواجهات) فإنه لم يشاهد في حياته فرح الشباب، فرح المنتصرين.

أحد هؤلاء هو «أحمد»، من مخيم الجلزون للاجئين، صادفته للمرة الأولى ذات يوم مع مجموعة من الفتيان الآخرين في ميدان «النارة» في رام الله. كانوا مثلي يبحثن عن المظاهرة اليومية التي لم تكن قد انطلقت بعد من أجل التقدم مع المتظاهرين نحو «المحسوم». وأصلنا البحث معاً وثرثرنا قليلاً. كونهم أبناء مخيم لاجئين بدا واضحاً على جباههم. أحد الفتيان أخرج بفخر مقلعاً كان في جيبه. وآخرون لم يخفوا أن في حوزتهم بضعة حجارة جاهزة للرشق. إنهم لا يذهبون إلى المدارس، فمن لديه بال الآن للدراسة. أحياناً يعملون في حاثوت أو مرآب. والمال الذي يقبضونه يعطون نصفه للامهات، والنصف الآخر يقتنون أحذية رياضية على آخر طراز. لأول وهلة انتابتهم الدهشة من

مجرد كوني إسرائيلية، لكن بعد ذلك ولدى كل جنازة أو مظاهرة في المدينة يتوجه واحد منهم إليّ ويبادرنى بالتحية باللغة العبرية. ويسألني، بالعبرية أيضاً «كيف حالك؟». ومن ثم يركض نحو «المحسوم».

وثمة توزيع على صراحة في الإنتفاضة. لا يتكلمون عن ذلك بصوت مسموع. لكن وسط جموع الشبان هؤلاء، أو المنتحرين منهم على باب الاحتمال، النسبة الحاسمة هي من اللاجئين وأبناء الأحياء الفقيرة. وهؤلاء الفتيان - «الزعران» على اختلافهم - الذين قفزت عنهم الامتيازات الطفيفة الناجمة عن عملية أوسلو - فرضوا أنفسهم على الواقع، وليس فقط على إسرائيل في حقيقة الأمر. لقد فرضوا أنفسهم، قبل أي شيء، على الحركة السياسية ودفعوها نحو التخلي عن رسميتها وعن مثاقيل حركة سلطوية يتوقع العالم منها أن تسلك سلوكاً حسناً، وفقاً لاتفاقيات موقعة ولميزان القوى العالمي. وبدورها فرضت حركة «فتح» نفسها على المؤسسة الرسمية وأجهزتها وضمنت بأن لا يحاول هؤلاء إيقاف طوفان الغضب الجارف، بموجب ما تلزمهم إتفاقيات أوسلو، وربما بموجب ما كان بعضهم رغباً بأن يفعل.

ولو أنهم في إسرائيل أصاخوا السمع جيداً للرمزية المنطوية عليها حركة اليد التي تقذف حجراً، ولو أنهم لم يردوا على الحجر منذ اليوم الأول بوجبة يومية من سبعة قتلى، لكان في الإمكان توفير كل البقية. و«كل البقية» هنا هي تحويل مركز الثقل للانتفاضة من الحجر المكشوف إلى البندقية المستورة والقذيفة المنفجرة، وليس كما عرضت ذلك وسائل الإعلام الإسرائيلية. إطلاق النار الفلسطيني في البداية كان رمزياً.

«إنهم يطلقون النار في وجه الشمس»، هكذا عبّر العلي من غزة عن غضبه حيال شبان حسبوا أنهم باطلاق نيران لا فائدة ترجى منها، إنما يدافعون عن كرامة القتلى أو ربما عن كرامتهم هم في نظر إخوانهم. وفي الجيش الإسرائيلي عرفوا أيضاً أن إطلاق النار في البداية كان رمزياً. ففي الشهر الأول من الانتفاضة أثارت «حوادث تبادل إطلاق النار»، التي صرّح عنها الناطق العسكري، نوبة من الضحك لدى الجنود. غير أن مجرد ذلك، كان سبباً جيداً لاستعمال سلاح ثقيل أضعافاً مضاعفة: صواريخ وقذائف، وكل ما كان في مقدورهم فعله في إسرائيل هو مواصلة الشعور بالهانة «لأنهم يطلقون النار»!

عند ذلك بدأت عملية «الاندساس» الحتمية للفلسطينيين المسلحين ولا نزال في بدايات هذه العملية السائرة في وجهة مواصلة مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. في إسرائيل ما زالوا يعتقدون أن الطريق للجم هذه العملية تكمن، مثلاً، في منع رجال فلسطينيين من السفر بمفردهم في سيارات خصوصية، إنما ليس، حاشا وكلا، في الإعلان عن خطوات فورية لإنهاء الاحتلال.

(البيرة - رام الله)

ترجمة: أ. شلحت

## نجيب نهار : الصحفي المقاوم الذي انتظر هزيمته

فيصل دراج

إلى طفل فلسطيني لا يحتاج إلى تصفيق أحد ..  
إلى محمد جمال الدرة

وقد ترجم الكلمات أمير الكلام إن تداعت القواميس، يُقال . « وقد توفي في حيفا في مطلع سنة ١٩٤٨ ( ؟ ) إثنان الإضرابات، ولم تنح الظروف له آنذاك الإحتفال بوفاته كما يليق به وبجهوده »<sup>(١)</sup>، هذا ما كتبه قلمُ نجيب عن نجيب نصّار، « شيخ الصحافة الفلسطينية »، كما يقول كثيرون . في إشارة الإستفهام، التي تجعل يوم موته منسياً، ما يجعل من ذاكرة الاحزان المتجددة ذاكرة وحيدة، كما لو كان الحزن المتوارث بديلاً عن ذاكرة تحسن المحاكمة . والحزن ماءً غريب، لا يغسل ما يجب غسله إلا في لحظات هاربة .

كان موت « أبو فلسطين » في ذلك اليوم المطير، ربما، رمزياً قبل أن يكون جسدياً . فالشيخ الذي تداعى، وقد جاوز الثمانين، كان قد آثر العزلة في بيته في بلد الشيخ، ضاحية حيفا . فإن حاصره الشجن، حملته خطاه المتثاقلة إلى بئارة موز في بيسان، محاوراً أطياًفاً تقاسمه لوعة قديمة . كان الجسد قد استسلم للتداعي، بعد رحلة مجيدة، والقرى الفلسطينية تنساقط، والأمطار تنسجُ مشهداً جنائزياً، وصوت مختنق لزمان يسقط في الأفول . كانت فلسطين تسقط من يدٍ إلى أخرى، واسمها المألوف تطارده أسماء معادية . ونصّار، الذي احتجب وراء الأشجار وثقل السنين، يرى إلى وطن

يغيب، مؤثراً أن يغيب مع الوطن الذي يغيب، بعد أن نذر عمره للوطن، الذي قاسمه التداخي والغياب. رحل إلى قبره مخدولاً في وداع أخير نفره قليل. لأن «الأخرين» حملوا خذلانهم ورحلوا.

## ١- سيرة نصّار في ملاحم ناقصة :

كان نصّار، في ذلك اليوم الجنائزي، يصافح موته الثالث. فقد لقي الثاني وهو يغلق «كرمله» في مطلع الحرب العالمية الثانية، بعد صدور قارب ربع قرن من الزمن. وربما كان، وهو يُصمت صوته، يشعر بعبء العمر، مدرّكاً، وهو العقل اليقظ، أن انفتاح الثورة الفلسطينية الكبرى - ١٩٣٦ - ١٩٣٩ - على الفراغ، فتح باب الهاوية أمام فلسطين. مع ذلك، فإن نصّار، الذي كان يضع طربوشه مائلاً على طريقة تجّار بيروت، كان قد تعرّف على موته الأول، وهو يرى إلى أرواح ميّنة وعقول صدئة وغثاة سياسية، أخرجت محمد عزة دروزة عن طوره أكثر من مرة، وأتلفت أعصاب خليل السكاكيني مرّات عديدة. كان قوله المنظم المستنير يتهشّش، وفي أوقات كثيرة، أمام رطانة الاعيان الملعبة. ولأن الخطابة تهزم العقل النثري، كان على صاحب جريدة الكرمل، وبعد كفاح نموذجي ضد الصهيونية، أن يمشي في شوارع حيفا وحيداً، لا يلتفت إليه أحد : «ففي سنة ١٩٣٣ سافرتُ إلى حيفا للقاء نجيب نصّار، ... وقد فتح أمامي قلبه، وأخبرني بما يلاقيه من أبناء شعبه الذي لا يقدر ما كان يفعله من أجل الشعب الفلسطيني، ومحاربه للإستيطان اليهودي لسنتين طويلة»<sup>(١)</sup>. وهذا الذي لم يكن يلتفت إليه أحد، بعد حوالي عشرين عاماً من ظهور الكرمل، كانت الحركة الصهيونية قد شكته، ومنذ زمن، إلى المراجع العثمانية العليا، بعد أن رأت فيه عزماً فردياً فريداً يقترب من الظاهرة. فما أن مرّت فترة وجيزة على ظهور الكرمل حتى نشرت صحيفة هاعلوم، الناطقة بلسان الحركة الصهيونية المركزية. تقريراً لمراسلها في فلسطين جاء فيه : «إن القوة الأكبر في فلسطين هي قوة العرب .. ونحن ننسى كلياً أن هنالك عرباً في فلسطين، ولم نكتشف هذه الحقيقة إلا في السنوات الأخيرة فقط. ... إنّنا لم نأبه لهم ولم نحاول قط أن نقيم صداقات لنا في صفوفهم. ويعتبر المثقفون المسيحيون أكبر اعداء اليهودية في صفوف العرب»<sup>(٢)</sup>. يحيل تعبير «المثقفون المسيحيون» إلى مثقفين غير نجيب نصّار، لكنّه يحيل عليه أولاً.

كتبت فرنسيس نيوتن : «وكنّت قبل تلك الحرب قد بدأت أفتح عيني على الصهيونية في مقالات ترد في جريدة الكرمل، عن إقبال اليهود على الأراضي يشترونها وينشغون المستعمرات، فتتعرّض مرافق العرب الزراعية والإقتصادية للبوار والدمار»، ويكتب الكس كرمل : «وكان تأثير «الكرمل» كبيراً، وخصوصاً بين أبناء الطائفة المسيحية والتجار منهم خاصة»<sup>(٣)</sup>. ويبدو أن نصّار، الذي أزدري معروف الرصافي وهو يمدح المندوب السامي في فلسطين، كان محمولاً، حين أسس جريدته، على لهب داخلي وإحترام إجتماعي كبير. يكتب الدكتور عبد الوهاب الكيالي : «في السابع من شهر حزيران ١٩١١ نشر نجيب نصّار في صحيفة الكرمل رسالة مفتوحة موجهة إلى جميع رؤساء تحرير جميع الصحف العربية، الذين يشاركونه رأيه ومشاعره، مقترحاً فيها توحيد جهودهم في جبهة واحدة ضد الصهيونيين. .. وهكذا نجد عند مراجعة الصّحف العربية الصادرة في النصف

الثاني من عام ١٩١١ مقالات كثيرة ضد الصهيونية<sup>(٥)</sup>.

لم يكتف نصّار، الذي كان يدعو إلى غرس الأشجار ويستخف به «تجار الوطنية»، بتحويل الكرم إلى الصحيفة الأعلى صوتاً في الدفاع عن فلسطين، بل ترجم أيضاً (في عام ١٩١١) كتاباً دعا: «الصهيونية: تاريخها، غرضها، أهميتها». كشف في الكتاب عن إيديولوجيا الصهيونية وأهدافها، وأشار إلى بنيتها شبه العسكرية وطريقة عملها في فلسطين. جاء في الكتاب أنّ الصهيونية تسعى إلى «السيطرة على بلادنا ومصادر حياتنا»، وطالب بـ «قيادة صلبة ومخططات جريئة، فنحن العرب بحاجة إلى الإعتماد على النفس والكف عن إنتظار كل شيء من الحكومة». والقيادة الصلبة، والتي حلم بها نصّار، هي التي ترى في التعامل مع الصهيونية خيانة، كما قال، وتعمل على إنقاذ الشعب والحفاظ عليه من «خلال العمل الواعي المنظم». ولهذا قادت الكرم حملة تدعو إلى إيقاف الوعي وتنظيم العمل، أفضت إلى ظهور «جمعية مكافحة الصهيونية»، التي اتخذت من نابلس مقراً لها، وأقامت لها فروعاً في مناطق أخرى. وما أنّ الكرم رأت في «تحسين حالة الفلاح وتعزيز كرامته ما من شأنه أن يعزّز إحساسه بالواجب نحو أمته»، أصبحت قضية الأرض والفلاح ركناً أساسياً من أركان جمعية مكافحة الصهيونية، فاحتجت على بيع الحكومة للأراضي بالمزاد العلني، وطالبت بالحفاظ على حقوق الفلاحين في أراضيهم، التي اغتصبها الحكومة، وذلك بأن يدفع الفلاح الديون المترتبة عليه بأقساط سنوية.

ومع أنّ نجيب نصّار، كما الكرم، غدا ذائع الصيت قبيل الحرب العالمية الأولى، فإن أثره، تحديداً، توجه إلى التّخبة الاجتماعية المتعلّمة. خاصة أنّه لم يكن يحسن اللغة المزخرفة الفارغة، التي تبهّر البسطاء، بل كان مشغولاً بلغة أخرى، مفرداتها الوعي والإرادة والتنظيم والإرتقاء بالكفاءة والمسؤولية الوطنية و«العلوم التطبيقية». وهذا التوجه إلى التّخبة بلغة بسيطة، تقترب من الركافة أحياناً، وبصوت وطني واضح لا مساومة فيه، أمّده بجملة من العلاقات الاجتماعية أضاع بعض جوانبها في «روايته»: «مفلح الغساني». وإذا كانت الفاعلية النخبوية جعلت اسمه مبتدأً لدى الإدارة العثمانية الحاكمة، فإنّ الفاعلية ذاتها حرّضت الإدارة على مراقبته والتوجس منه، بسبب نواطئ مضمرة، أو سافر، بين الحركة الصهيونية والحكومة العثمانية. وبقدر ما كان عادياً أن يشكو حاييم ناحوم، كبير الحاخاميين في الحكومة العثمانية، نجيب نصّار إلى وزير الداخلية في القسطنطينية. كان عادياً، بدوره، أن تلاحق تلك الحكومة نصّار القومي العربي، وإن كان قد نجح برأيه مرتين متتاليتين.

على نقيض وعي غائم، لا يزال يتنازع حتى اليوم، يحتزل الصهيونية إلى اليهودية، اشتقّ نجيب نصّار موقفه العقلاني من معنى الوطن. وما كان موقف هذا المثقف، الذي يميل إلى القِصَر والبدانة. منعزلاً عن مواقف أخرى، تترجم سيرة المثقف الحديث في مجتمع بلا حداثة. فإضافة إلى تصوّر «علموي» للعالم، استقدم نصّار «الغساسنة» إلى الزمن الحديث، كي يوطّد عرويته، ويؤكد الوعي القومي قوَّاماً على الوعي الديني. كما لو كان إئتسابه المسيحي، وقد أخذ جذوراً عربية، تعبيراً عن حسن عروبي راسخ. لم يرحّب به العثمانيون أبداً. وتعيّن وعيه الحديث بالمهن التي اختارها، فهو المحامي والمعلم والصحفي والمترجم، والحالم بزراعة تعتمد على «العلوم التطبيقية». بل إنّ هذا الوعي

كان مشدوداً إلى «الدستور»، قبل أن يلتفت إلى الزراعة وقراءة شكسبير، لأن بلداً لا دستور فيه يتلف البشر والأشجار في آن. ويذكر نصّار في إحدى افتتاحيات الكرمل (عدد ٤٢٦، السنة الخامسة، ١٣ / ١ / ١٩١٣)، يأسه من النظام التركي الذي ينكر الحرية وقراره بالهجرة، وغبطته بإعلان الدستور - ١٩٠٨ -، وإن كان في ممارسات «الطورانيين» ما لا يبعث على الراحة. وكان احتفائه بالدستور، في مناخ طوراني يثير التوجس، مرآة الوعي يؤمن بـ «قوة الحرية» إلى حدود الشطط، دون تدقيق كافٍ في ملامح الذين ينادون بها.

وضع نصّار، الذي كان يكتب جريدته ويخرج موادها وينضد حروفها ويوزع نسخها، كتباً مختلفة الاختصاص، وقد تعتبر الكتابات المتنوعة عن معرفة واسعة، لكنها تعبر أولاً عن نزوع رومانسي، يرى تعددية الحرية في التحرر من جهل متعلد. فإلى جانب كُتُب عن الصهيونية (٦٤ صفحة)، ظهر في سنة ١٩١١، ملخصاً عن الأنسكولوجيا اليهودية. يوجد كتاب «الزراعة الحاقة» وهو كتاب شبه مترجم، أملت له دوافع وطنية لا تنقصها الرومانسية. وإلى جانب الكتابين الموزعين على السياسة والزراعة، هناك كتب أدبية - تربوية مثل «شمس العرب» و«في ذمة العرب» وسيرة ذاتية محددة الزمن عنوانها: «رواية مفلح الغساني». وبما أن على الكتب أن تضيّع، ولو فقت صاحبها من حكمة، فإن كتب نصّار لا تتوفر إلا صدفة، بفضل دارسين، لم يفقدوا الذاكرة، مثل حتّا أبو حتّا ووليد خليف. حين يتعرّض أبو حتّا لكتب نصّار يكتب ما يلي:

«ونبحث عن هذه الكتب جميعها فلا نحظى بنسخة منها. أنا المكتبة القومية في الجامعة العبرية في القدس فوجدنا في بطاقتها تحت إسم «نصّار، نجيب» ما يلي من مؤلفاته...». وما يوجد في البطاقات لا يوجد على رفوف المكتبة، فإن حصل الأمر، جاءت نسخة وحيدة مجلدة بالغناء والنسيان. ويكتب خليف، الذي صني بجمع «رسائل صاحب الكرمل»، الكلمات التالية: «إن الأتام والسنين تمرّ تبعاً والمورثات والحقائق التاريخية والوقائع الإحصائية، وثارخة الأماكن والموجودات في طريقها إلى الإندثار».

ولأن الإندثار يتأبط المنسي، يغدو البحث عن مسار نصّار شاقاً، ويضع مؤرّخ تاريخ ميلاد الكرمل في عام ١٩٠٨، ويشاء آخر أن يضعه في عام لاحق.

وسواء وضع نجيب نصّار، كتباً للنسيان أم دفاتر للذاكرة، فإن جريدة الكرمل تظل إنجازاً الأكبر، بفضل ريادة مزدوجة: رائدة وهي تعلن ميلاد الصحافة الفلسطينية، ورائدة وهي ترى إلى المشروع الصهيوني دون غش كبير، بل أنها رائدة وهي تذيب الحقائق عارية، بعيداً عن تشاطر «تجار الوطنية»، الذين شطارتهم بذاعة. يكتب ماهر الشريف، وهو يبحث عن بدايات الهوية الفلسطينية: «وقد تحدّد عام ١٩٠٨ كنقطة انطلاق بصورة إعتباطية إلى حد ما، وذلك باعتباره العام الذي ظهرت فيه أوّل صحيفة فلسطينية، وهي صحيفة «الكرمل»، عبّرت، بهذا الشكل أو ذاك، عن بروز تلك المظاهر لوعي «وطني» فلسطيني بدئي، أخذ يتبلور كتعبير عن إدراك مخاطر مشروع صهيوني صارت ملامحه وأهدافه أكثر وضوحاً»<sup>(١)</sup>.

ينقل حتّا أبو حتّا عن كتاب «تاريخ حيفا» لجميل البحري الصادر سنة ١٩٢٢ ملامح نجيب نصّار

آنذاك : « الكرمل جريدة عربية تصدر مرتين في الأسبوع، واشتراكها في فلسطين ١٢٥ غرضاً مصرياً و ١٥٠ في الخارج. أنشئت سنة ١٩٠٩، وتوقفت مدة أربع سنوات الحرب الكبرى، وعادت إلى الصدور بعدها في بدء سنة ١٩٢٠، وهي اليوم في سنتها التاسعة التي ابتدأت سنة ١٩٢٢. وقد بلغ مجموع أعدادها لهذا التاريخ ٨٣٠ عدداً. أما موادها فغزيرة ومباحثها تدور حول الوحدة العربية وكتابات هذا الشأن شهيرة. وقد عالجت القضية الفلسطينية معالجة أكسبت صاحبها إسم أب فلسطين، خصوصاً وهو أوّل من لفت الأنظار إلى الصهيونية وأخطارها. وقد وضع لها كتاباً طبعه قبل الحرب. ويكمل البحري صورة الكرمل فيقول : « أوّل مطبعة أتت بها إلى حيفا هي المطبعة الوطنية لباسيل الجديع سنة ١٩٠٨، ثم جاءت بعدها مطبعة جريدة الكرمل سنة ١٩٠٩ لنجيب نصّار ».

نصّبت الكرمل، ولفترة من الزمن، نصّار « أباً » لفلسطين، لشدّة تنديده بـ « سيطرة الأرض »، ولوضوح فكره في شرح غايات الصهيونية، غير أن صوت نصّار، ما لبث أن اتسع وامتلأ في صحيفة المقتبس الدمشقية وصحف المفيد والحقيقة والرأي العام الصادرة في بيروت. فهذه الصحف جميعاً كانت تنقل صوت نصّار وترجمه، منتقدة ببيع الأراضي العربية للمستوطنين اليهود، ومطالبة السلطة العثمانية أن تكون أكثر عدلاً. وإذا كان نصّار قد استنصر صحفاً عربية ونصرته، فإن صحيفه فلسطينية عنوانها : « النقيز »، يحضر اسمها اليوم إذا حضر اسم نصّار لا أكثر، كرّست كلماتها للهجوم على الكرمل، كانت الصحيفة المذكورة تترجم تمويلها اليهودي - الألماني إلى كلمات عربية كاذبة.

تنقل بين مهن عدة وعاش حراً، وتعالى الزراعة وارتاح إليها، واختلط باليدوي وأبناء القرى وتعلّم عاداتهم، وقرأ شكسبير مرتين وكتب أكثر من حكاية، وأنشأ جريدة تُعلّم مبادئ الوعي والوطنية، ودعا إلى تأسيس « جمعية النهضة الاقتصادية العربية »، بعد أن نادى قبل عقد من الزمن تقريباً بإنشاء « جمعية مكافحة الصهيونية ». وعمل محامياً وأنصف المظلومين، وشكى من تجاهل شعبه له، ومات مخذولاً يوم فقدت فلسطين أهلها. . قدر غريب لرجل أحب الحياة والوطن والعدالة. وما خسر إلا ما أراد أن يخسر. شيء قريب من المثل القائل : ومداوي الأوجاع يموت في غرفته مريضاً.

## ٢- سيرة ذاتية مجزوءة :

« حوالي الساعة التاسعة من مساء يوم في أوائل شباط سنة ١٩١٥، سمع حليم قرعاً خفيفاً على باب بيته على ظهر الكرمل، ففرح إلى الباب وهو يضرب أخماساً في أسداس ». هكذا يبدأ الفصل الأوّل من « رواية مفلح الغسائي »، التي تسرد أقدار نجيب نصّار، ولمدة ثلاث سنين تقريباً، بعد أن أخذ عليه الإتحاديون الاتراك تمسكه بعرويته، بلغة مستقيمة، أو عمله لصالح الإنكليز، بلغة كاذبة. وقد تعامل الإتحاديون مع العرب، وكما تقول الرواية، بأدوات النقي والتغريب والحبس والتشهير والجلد والسوق إلى الديوان العرفي. وكان على « مفلح الغسائي » أي نجيب نصّار، أن يختلف إلى أماكن مختلفة، تبدأ بحيفا وتنتهي بدمشق، كني يحزّر نفسه من تهم ملققة. لكنّه، وهو ينتقل من مكان إلى آخر، كان يسرد أنساقاً من الثقافة والعادات والحياة الاجتماعية، قبل أن يحكي عن أوجاع الطريد ومفاجآت المطاردة. وكان للمطارد، رغم الشتات راضياً، مؤمناً بقول جميل : « إني خبزك على

وجه الماء تجده بعد حين»، أو كن كما أردتلك الفضيلة أن تكون، فلا كل الأماكن ترحب بالزديلة. يقول «مفلح»: «لقد علمت أنني أتيتك لا توارى لا خوفاً على حياتي، ولكن لاني أريد أن أعيش لا ولادي ولوطني المهتد بخطر الإستعمار الصهيوني. ص: ١٣٩»<sup>(٧)</sup>.

«مفلح الغساني»، التي نشرت تبعاً في جريدة الكرمل، نص طريف، يعطي ذاته صفة الرواية، في زمن لم تعرف فيه الرواية العربية بعد إلا عمل محمد حسنين هيكل الشهير: «زينب». وبما أن الاسم لا يخلق المستمى، يقدم نصار وثيقة إجتماعية - تاريخية هامة، تحيل على أشياء كثيرة، دون أن تلقي بعالم الرواية بالضرورة. ومن الطريف، وفي ذلك الزمان، أن يحجب نصار اسمه وراء اسم آخر ملتصقاً، وعن طريق صيغة «الغائب»، قدراً من الحرية في الكتابة، وكان بحاجة إلى هذه الحرية، ربما، ليقدّم «عبرة» الدفاع عن الحق وماله. ولعلّ خروجه من المطاردة سليماً، وضع على قلمه صفة متفائلة وأخرى لا ينقصها الفخار. فمتفائل هو حين اشتق اسمه من «الفلاح»، أي النجاح ولا يعوزه الفخر، وهو ينتسب إلى قبيلة عربية قديمة ومسيحية.

إنكفاء على تصور تربوي - تحريري للكتابة، لا ينسى «فضائل العرب»، يؤكد نصار، وهو يلتصق الأمان في أكثر من مكان. جملة فضائل إيجابية، منسوبة للعرب. ولهذا وضع «روائتين» إحداهما «في ذمة العرب» أو «حرب ذي قار» والثانية «وفاء العرب»، ولن تكون الشخصيات المتواترة، التي تناوب على إحتضان المطارد، إلا مرايا متجاورة لقيم ناصعة البياض، مثل التعاون والغيرة والوفاء والكرم والرد على المعروف بالمعروف والحفاظ على الكبرياء. وبداهة، ورغم تصور رومانسي للقديم، فإن نصار كان يرى إلى القيم الفاضلة وهو يرى إلى توظيفها في مشروع وطني. وبهذا يصبح إصلاح الأخلاق مقدمة لإصلاح العمل السياسي. يتحدث نصار، وقد وجد ملاذاً أميناً، عن دوره في محاربة بيع الأراضي «إستعرض مفلح هذه الحوادث كلها وقال في نفسه لو أعطي امتياز الغور للأصغر أو لو بيع في أوائل سنة ١٩١٤ من أين كنت أجد من يهتمون بي ويعرضون بانفسهم للخطر من أجل سلامتي ويقتلون لي جهادي في سبيل إستبقاء الغور لهم. ص: ١٢٦»، «إرتاح مفلح لذكريات جهاده في سبيل إنقاذ الجفالك وإلى ما كان يراه من وفاء قومه، فقال في نفسه إن أمة مثل هذه أخلاقها تسيج عليها وتحمي وطنها، ولكن الأخلاق تفسد اليوم. ص: ١٢٧». و«اليوم» الذي كانت تفسد فيه الأخلاق هو بداية العشرينات التي سبقها عقد من الزمن أكثر يقظة وتماسكاً، قبل أن يصل الإنتداب البريطاني متوجاً بوعد بلفور.

يشق نصار الأخلاق، في «روايته»، من ضرورتين: ضرورة وطنية، فلا إمكانية للمبادئ الوطنية إلا لدى أرواح تحترم معنى المبادئ أولاً. مما يقيم عروة وثقى بين الوعي الوطني والوعي الأخلاقي، وضرورة قومية. إذ العربي يكون كما يجب أن يكون، حين يحمل في ذاته الأخلاق التي انتسب إليها العرب، وبهذا المعنى، فإن التمسك القومي يتهالك سريعاً، إن لم يتجسد في جملة قيم عملية تدافع عن التاريخ العربي، وهي تدافع عن «الوطن العربي». أو لنقل: إن ضعف «الأخلاق الوطنية»، بتعبير نصار، كشف عن ضعف «الإنتماء القومي». وما حاول نصار أن يقوله ولم يقله هو مفهوم: المسؤولية، الذي إن احتضنته فردية متطورة ضرورية له، ربط بين الأخلاق والوطن، وبين الوطن والذاكرة الجمعية

التي تكوّنت فيه. يقول «مفلح»: «هذا الذي إنتقدته بشدة يظهر مثل هذه المروءة والغيرة. اليس في مثل هذه الأعمال عبرة للعرب لبوسعوا صدورهم ويتآخوا ويتعاونوا؟ ص: ١١٧». والحديث عن «عبرة» مرتجاة تعبير عن مسؤولية «مرتجاة» غائبة. وبسبب هذا، فإن نصّار يردد شعار «الشهامة العربية العظيمة» إلى ما لا نهاية، رغبة في نقل الشّهامة من أثر الشعار إلى أرض الواقع. وبالتأكيد، ودون إفراط في التنقيب، فإن معرفة نصّار بالتاريخ العربي محدودة، تشهد على ذلك المهن التي ارتاح إليها، وأسلوب كتابي فقير النضارة. و«الشهامة العظيمة»، في تحديد كهذا، إختراع تربوي أملت به رغبة تنوس بين مجتمع متخيل قديم ومجتمع متخيل قادم. يمكن إدراج الإختراع، بدهاء، في سيامة ثقافية، أخذ بها دروزة، وكان معجباً بنصّار، وأقرب منها السكاكيني. فعلى الاحفاد أن يخترعوا أجدادهم العظام، وأن يقتنوا الأجداد بإختراع أحفاد عظام أيضاً. يفصح الإختراع عن أزمة مزدوجة: نتعين الأزمة الأولى بحاضر يستنهض ماضياً ميسوراً، وتحدد الأزمة الثانية في فقر الوسيلة، فلا يستنجد بالأخلاق إلا من قارب تخوم الإفلاس. بمعنى آخر: إن تعظيم العنصر الأخلاقي، في فلسطين التي تقترب من الفرق، تعبير عن ضعف الحركة الشعبية وضالّة الوعي الاجتماعي وبؤس الأحزاب السياسية، التي هي «أحزاب وطنية بلا وطنية»، كما يقول نصّار، وهذا الواقع، ربّما، هو الذي جعل نصّار يأخذ بعنوان تراثي: «مفلح الغساني»، ويشير في نصّه إلى رابطين تراثيين، ويشير إلى «أشرف الثقايلد العربية».

كتب نجيب نصّار سيرته الذاتية المجزوءة، وتغطي سنوات ثلاثاً، حين لاحقته الحكومة العثمانية كعروبي يحيل إلى الإنجليز. وإذا كانت العناصر التي أنتجت دراما شخصية سياسية بطبيعتها، فإن المناخ التاريخي الذي تكوّنت فيه، وفضاء الحرب العالمية الأولى، يعطي السيرة أبعاداً جديدة، ويؤكد سيرة ووثيقة تاريخية في آن. تحيل عناصر السيرة - الوثيقة على العثمانيين وحلفائهم الألمان، وعلى الإنجليز والصهاينة، وعلى شعب فلسطيني يحوق به خطر وشيك. أما العنصر العثماني فكان مسكوناً بالمفارقة، يقول بالدستور ويمارس سياسة عنصرية، تضع الأتراك فوق العرب، وتفرض اللغة التركية لغة للجميع. وتجلي الدستور، الذي ينقض ذاته، في «الديوان الحربي العرفي»، الذي جعل من أوامر جمال باشا السفاح قانوناً متعالياً، يدفع بمن يشاء إلى الموت. جاءت صفة السفاح من مشائخ الشهداء، ومن مجتمع عربي مذعور تحولت فيه الوشاية إلى دين يومي «حتى أن الأخ كان يشي أحياناً بأخيه وكان المترلقون يتزاحمون على باب مقرّه ليتقرّبوا منه بالدس على بعضهم بعض». ص: ٩٩. وكان الكثيرون من العرب، وقد قوّضهم الخوف «بمجدونه ويتهمون الشهداء بالخيانة، حتى قيل إنّه لما مرّ بجنتين ذهب أب أحد الشهداء إلى المحطة للمسلم عليه فاعتزّ الرجل بنفسه وتحقق أن البلاد ليس فيها رجال أشداء يخشى بأسهم فلم يحترم أحداً.. واحتقر جمال طبعاً الأمة التي تعبد زعماء يتظاهرون كذباً بالرضى عن تعليق أبنائهم على أعواد المشائخ». وإضافة إلى الظلم وصناعة الإذلال، لم يقف خلفاء السلطان عبد الحميد في وجه المشروع الصهيوني، ذلك أن «جمعية الاتحاد والترقي»، وكما يذكر بروكلمان، تلقت دعماً مالياً من «الدّ» «دومة»، وهم يهود سالونيك الداخلون في الإسلام، والذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في المدينة.

كان الأتراك يعلّقون مشائق العرب، يمنعون الأحزاب ويعطلون الصحف ويشدون الزّمن العربي إلى زمن ميتة نتن الرائحة. وكان الأوروبيون مشغولين بتقسيم تركية «الرجل المريض»، فللقنصل الألماني حضوره في فلسطين، يناوئ من اشتبه بقرّبهم من الإنجليز، والإنجليز يقفون على مشارف إمبراطورية عثمانية منهارة، واليهود يجمعون الأخبار للإنجليز، ويشترون الأراضي بدعم من حكومة تركية مسلمة. وفي هذا المشهد التاريخي الذي يتحالف فيه الألمان مع الأتراك، ويقمع فيه الأتراك العرب، ويتحالف فيه الإنجليز واليهود لحصار الأتراك والألمان والعرب، كان على سارد الأحداث أن يعثر على موقع للتأمل والتّظنر. والموقع الذي اختاره «مفلح الغساني»، ويكتنفه الضباب، منفتح على أكثر من إتجاه: إتجاه أول يحتد صورة الإنجليز، وآخر يعيّن موقف الغرب من بقايا السلطة العثمانية، وثالث يرى إلى آفاق الوجود اليهودي في فلسطين. وفي الإتجاه الأول يكون «الغساني» مطمئناً، ولو إلى حين، إلى طيبة الإنجليز «الذين لا يقدمون على عمل إلا وفيه كل الخير للإنسانية وابتنائها» كما يقول. وهذا راجع إلى إعجاب السارد بثقافتهم ولغتهم وأدبهم، ذلك أن نصّار كان يُحسن الإنجليزية ويترجم عنها، بقدر ما كان يحسن الألمانية ويترجم عنها أيضاً. ولن يكون الإتجاه الثاني أقلّ إضطراباً من الأول، ولو إلى حين أيضاً، ويقول: على العرب الوقوف إلى جانب الأتراك إن شعروا بأن للغرب أطماعاً في الشرق. ويسبب هاتين المقدمتين سيّشعر «مفلح الغساني» بخيبة كبرى، حين يعلم، لاحقاً، بوعد بلفور: «أحسن مفلح بقشعريرة، وقال في نفسه: أيّمكن أن يكون صحيحاً ما قالته المجرائد التركية عن أن الحكومة الإنجليزية وعدت اليهود بأن تعطّيهم فلسطين وأن نكون نحن العرب مخطّطين في ناوينا هذه الدعاية، واعتقادنا أن الأتراك يقومون بها ليضعفوا ميول العرب إلى الإنجليز وثقتهم بهم؟ ص: ٢٩».

تعطي «رواية مفلح الغساني» صورة الزّمن التاريخي بوضوح، وإن كان في الوضوح ما يشوب الوضوح، ويقدم صورة عن المكان وأهله أيضاً. تنتشر في الرواية، إن جازت التسمية، أسماء قرى فلسطينية، وأسماء عائلات ويشرح حقيقتين وقبائل وزعماء للبدو لهم حياتهم «البسيطة» التي عرفها نصّار قبل زمن المطاردة. كل شيء يحجل على ما كان قائماً، من عواطف التّضامن والوفاء والحياة البسيطة والمحكمة العاطفية أيضاً، كما لو كان نصّار يحتفظ بالأشياء كما هي، مكتفياً بتغيير اسمها، توتلاً للتفاوت والأصول العريقة. وعلى الرّغم من ريبورتاج صحفي طريف، قوامه يوميات صحفي وطني عنيد، فإن نصّار التفت في أكثر من مكان إلى الشخصية التي تنوب عنه في الكلام. فـ «مفلح الغساني» لا يحضر كمرآة غبية تعكس ما يقع عليها، بل يحضر إنساناً له «إستقلاله الذاتي»، فيتذكّر ويخاف ويرتعد ويناجي أطبافاً تعبّر في ساعات المقتب والعرلة. ولعلّ إستنهاض «الشخصية» من ركام الأحداث هو الذي فرض على نصّار. وبشكل غير متوقع، الحوار الفصيح والحوار العاطفي، كما لو كان نصّار، وهو يحاكي نموذجاً روائياً قرأه، يريد أن يحول تجربته الذاتية إلى رواية، وأن يؤكّد ذاته سارداً متخيلاً. نفع في تقطيع الفصول المتكئ على التقرير الصحفي على العناوين التالية: قرار مفلح الأخير، الشيخ يصف مفلح، شعور الغساني، الدلالة على مفلح، أبو فارس يفاجئ مفلح، مفلح يتذكّر، حنكة مفلح. . تعطي صيغة الغائب للكاتب حرية كافية، تتيح لسارد الأحداث أن يمنح

ذاته الصفات التي يريدها، دون حرج كبير، مثل الذكاء والدهاء والوطنية والكبرياء. بل أن هذه الصيغة تسمح للكاتب بأن يرى الناس على مسافة، بعد أن أخذ مسافة عن ذاته، تؤمن للبقول موضوعية معينة. ولعل هذه المسافة هي التي وضعت على قلم الكاتب الجمل السعيدة والخزينة التالية : « ثم أخذ مفلح ينانجي نفسه قائلاً : أنا ذاهب إلى الصלב ؟ فهل أنا أمثل دور السيد المسيح وهو ذاهب لآخر مرة إلى القدس ؟ ولكن المسيح تمجد قبل الصלב، فقد إستقبله الشعب بالهتاف وفرشوا له الطريق بالرياحين وسعف النخل. أمّا أنا فماذا عساني ألاقي ؟ هل يهتف لي الوطنيون فاتمجد قبل الدينونة وأناكد من تقدير الشعب إخلاصي ؟ .. ص : ١٦٠ ». لم يكن التماهي بالمسيح ممكناً دون صيغة الغائب، ولم تكن صيغة « الأنا » ملائمة لأحلام الكاتب باستقبال وطني كبير.

تشكّل جملة : « أناكد من تقدير الشعب إخلاصي » مدخلاً ملائماً لقراءة « رواية مفلح الغساني ». لا نرد الجملة إتهاماً، فقد حظي نصّار باحترام كبير في فلسطين وخارجها، إمّا تحيل إلى أمر آخر يمس أحلام المثقفين، أو أوامهم بشكل أدق. فالرجل وهو يكتب سيرة كان يؤرّخ حياته، معتقداً أن في حياته ما يستحق التاريخ، وأن في تاريخ حياته عبرة وطنية، على الأجيال الفلسطينية أن تتداولها وهي تنقب عن الصواب. وفي كلام نصّار ما يشي بتفاؤل كبير، وهو الذي أصاب الفلاح، وهو ما يوحي بثقة بالمستقبل وبذاكرة مستقبلية عامرة باليقظة والوفاء. والدليل قائم أولاً في نهاية « الرواية » التي تحمل عنواناً دالاً : « الدسيمة الأخيرة »، إذ البطل انتصر على مصاعب الدهر ورجع « يعمل لإعالة أولاده ». وقائم هو في عنوان آخر هو : « الروايتان المحروقتان »، اللتان تتحدثان عن فضائل العرب : « وهما من محصول العزلة، وقد راجعت من أجلهما شكسبير مرتين، وطالعت أكثر من مائة رواية، .. وأنا اعتقد أن في الأمة أوفياء يرجونهما، والشعب طيب يقبل عليهما .. ص : ١٧١ ». يطلب الكاتب من وراء روايته « منفعة الأمة » ولتحقيق النفع راجع شكسبير مرتين وهو يكتب عن « موقعة ذي قار »، وراجع أكثر من مائة رواية ليكشف عن فضائل العرب. والسؤال الذي يطرح هو : ما الذي يجعل نصّار يتمسك بروايتين ترويتين، لا تختلفان في شيء عن روايات تهذيبية دارجة أخرى، وهو صاحب الصوت الأعلى في محاربة الصهيونية، وصاحب الجريدة التي يؤرّخ بميلادها الهويّة الفلسطينية؟ ربما هي « أوام الكتابة » التي تجعل المثقف يذهب إلى حيث توهم، لا إلى حيث يحب الذهاب.

### ٣- سيرة ذاتية فكرية :

ذلك الرجل الذي لا يحسن البلاغة، قام بجولتين واسعتين في ربوع فلسطين. جمع ما رأى في ثلاثة وستين رسالة بدأها في السابع والعشرين من أيلول عام ١٩٢٢ وأنهاها في نهاية تشرين أول ١٩٢٥. ونشرها تحت عنوان : « رسائل صاحب الكرمل على صفحات جريدة الكرمل ». والرسائل ريبورتاج صحفي مباشر، أو « مسيرة إستطلاعية تجريبية »، كما يقول وليد خليف، حيث نصّار يرى ويسجل ما يرى، شديد الاستنكار غالباً وقريب من الرضا في أحيان قليلة. وفي الحاليين نرى أحوال فلسطين بعين مجرّدة وصادقة، ونقف أمام فكر نقدي وطني، يثق ببصيرته ويبحث، لاهناً، عمّن لم

يفقدوا البصيرة. يكتب نصّار تحت عنوان «الحقيقة الجارحة»: «وجدنا أنّ معظم الحركات الوطنية التي حاولنا أن نقوم بها مع الوجهاء والمترجمين في المدن كانت تفشل، وأنّ المتعلّمين إلى الآن لم يتخذوا لهم موقفاً صريحاً بل تراهم دوماً يترددون أو بعبارة أخرى يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، ولم يقوموا بعد بأعمال تستجلب الأبصار أو تنعش الآمال ليضع الشعب ثقته بهم. ولذلك قرّرنا لما صبحنا على القيام بهذه الرحلة أن نزرور بعض القرى في كل قضاء لتعرّف بالفقريين وأحوالهم الإجتماعية والإقتصادية ونقف على نفسيّاتهم ونرشدهم إلى ما نعتقد صالحاً لهم، ونستوحي منهم المادة الضرورية لعملنا الصحافي، ولنعلم إذا كان يمكن أن نعمل وإلّا هم. ص: ١١٧<sup>(٨)</sup>.

تضيء السطور السابقة قضايا عديدة: «يعرب نصّار عن يأسه من العمل مع «الوجهاء والمترجمين»، ويستنكر ميوعة المتعلّمين، ويضع نفسه خارج الطرفين معاً، ولأنه يتركن إلى جريدته وإلى عقل يتحصّن بالصواب، رغم إضطراب لا يعيه صاحبه بالضرورة، يذهب نصّاراً إلى قضاء مفتوح، يقف فيه على أحوال «المهتسين»، يستمدّ منهم معرفة عارية لا «ترغم» فيها، ويرسل إليهم بنصائح وبأحلام كثيرة، والرّجل فيما يفعل يطبق نهجاً جديداً في الكتابة، إذ الكلمات المحددة تلتقي بمواضيعها المشخصة، ويسعى إلى حلم مستحيل، يكون فيه المثقف الوطني سياسياً مسؤولاً في مجتمع متخيم بالمرآج الفقيرة، شيء لا يبتعد كثيراً عن دروس خليل السكاكيني، التي تستولد المعرفة من الحياة والسياسة من معرفة حيائية، وتستولد العلاقتين معاً من مسؤوليّة أخلاقيّة، وجهها الآخر مسؤوليّة وطنيّة.

تحت عنوان: «رسائل صاحب الكرمل المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن»، جمع وليد خليف مشاهدات نجيب نصّار، التي حاول فيها أن يكون صحفياً ومثقفاً من نوع جديد. وجديد نصّار أسلوب صحافي ينشد الإمتاع لأنه ينشد التربية الوطنية، ويرى إلى مصائر البشر قبل أن يلتفت إلى الكلمات. وبسبب ذلك تأخذ المقالة شكل الحكاية. وتتحول اطراف الحكاية إلى شخصيات، كما لو كان الصحفي التّبيه معلماً عطوفاً، يعطي تلميذه الأمان قبل أن يوجه إليه الاسئلة، يعطي نجيب، وعلى سبيل المثال، رسالته الأولى - ١٩٢٢ - عنواناً جميلاً وحزيناً: «عكا النائمة». لكنّه لا يلبث أن يوزّع العنوان إلى عناوين صغيرة لاحقة: «البهجة، الطريق بين عكا وصفد، نجل البهاء، الجمعية الإقتصادية، لا يحرف تعدّد العناوين نصّار عن غايته. فبعد مقدّمة تعظيميّة عن عكا التي استعصت على نابليون، تأتي مسيرة زعماء «يتزاحمون على أمور لا شأن لها في الحياة العمليّة» تعقبها «البهجة» وهي إسم بستان شهير في لواء عكا، لم يحمه اسمه من الإهمال والتداعي. وكحال بستان مغرب عن اسمه، تكون الطريق بين عكا وصفد خشنة وتحتاج إلى «التعبيد»، و«نجل البهاء» معزولاً في قصره وغريباً عن قضايا الحياة. ولن يبقى لنصّار، بعد مسيرة يتوّجها الإحباط، إلا دعوة ورعة إلى تأليف «الجمعية الإقتصادية»، التي بإمكانها، إن تحققت، أن تنظّم «الأوقات الثمينة التي تنفق في المقاهي». غير أن نصّار، الذي يبحث عن البهجة في بستان تداعي وعن البهاء عند من فقد البهاء، يعطي عكا صفة جديدة في حلقة جديدة، فتأتي «عكا المستيقظة»، التي تظل نائمة رغم الكلمات المستبشرة، يأخذ العنوان الجديد التفاصيل التالية: المعارف في عكا، المدارس التعليمية،

مدرسة الصبيان الثانوية، مدرسة البنات، الشبيبة، الجمعية الاقتصادية، الحاكم الإداري، الشيخ المتقاعد، السجون. ينقش التفاوض الذي يحصن به نصار نفسه سريعاً، ذلك أن «الواجب وجوده»، الذي يقول به همساً، يشي برقعة الخراب الواسعة. يثني الصحفي على المدارس العلمية، مقترحاً أن تتضمن البرنامج المدرسي «مبادئ علم الزراعة الأساسية»، و«التجارب العملية» لأنه ثبت «أن العلوم النظرية لا تأتي بالفائدة التي تأتي بها العلوم العملية». فإن وصل إلى «الشبيبة» أطرى عليها، وأعلن «مع الأسف أنه ينقصها حسن القيادة وأكثرية الشباب لا يعتمدون على أنفسهم كفاية ولم تترب نفوسهم منذ الصغر على الجراة الأدبية». و«الجمعية الاقتصادية» تذكر بنضارة عكا الإقتصادية الغابرة. والشيخ المتقاعد، وهو خطيب مفوه، لا تروق له حرية الصحافة ولا يميل إليها. وحين يصل إلى السجون يكتب السطور التالية: «لم نتفقد حالة السجون، مع أن هذا كان في مقدمة واجباتنا كصحفيين. ولكننا سألنا فعلماً أن الحكومة الحالية أحدثت فيها تحسيناً يستحق الذكر وسننورها إن شاء الله في زيارتنا الثانية لعمكا. ص: ١٥». بيد أن نصار، وفي حلقة ثالثة، يجھض التفاوض الذي وعد به بعنوان جديد هو: عكا المعطلة. أمراض كثيرة تعطل المدينة التي هزمت نابليون وحولها العثمانيون إلى معتقل لأكابر السياسيين منها: «نوادي الكسل» في المقاهي المنتشرة، أو «ملاجئ البطالة والبلادة»، كما يقول، و«المراسم» التي تهت القوى العملية، وتربية التبرير والأعذار التي تجعل كل شيء ممكناً، الاستكانة إلى الألقاب المتوارثة، وإقبال الناس على تقبيل يد شيخ قليل الفائدة وكثير الضرر. يتطلع نصار إلى «مسح اجتماعي شامل» يفصل بين المريض والصحيح، كأنه يعاين صحة «المريض الفلسطيني»، الذي تنتظره معركة لا يعرف موقعها.

يقول نصار: «إن صدق استدلالنا بأن الجرائم والدعاوي يزيد في فلسطين في عهد الإدارة البريطانية فمن الواجب على علماء الحقوق والاجتماع أن يبحثوا أسباب هذه الزيادة. ص: ١٠٨». وواقع الأمر، فإن نصار يقوم بما لم يقم به علماء الحقوق والإجتماع، وهو يتأمل «نوادي البطالة» وأركان التجهيل، وبما لم يقم به «المتزعم» الدعي والمتعلم الهش، وهو يكتشف أقدار فلسطين من حكايات المضطهدين. وإذا كان نصار يمثل رومانسية المعرفة، ينتقل من مبادئ الزراعة الفنية إلى نقد المنهاج المدرسي، فإنه، في رومانسيته، عبر أولاً عن تبشيرية المثقف الوطني، الذي يؤمن بـ«قوة المعرفة» وبقدرة الجريدة على تحويل المعرفة إلى وقائع عملية. وبالتأكيد، فإن تبشيريته المكتنزة لا تستقيم دون بعد تحريضي عريض، هو قوام لها ومرجع في آن. وتكشف العناوين التي كان يقع عليها غن رغبة في استنهاض الكسبيخ ومن يحسن الوقوف أيضاً، كان يكون العنوان: «أقرأوها كلكم، استبدلوا، إلى الأمام أم إلى الوراء. كيف يُثقى الخطر. المؤسسات، البيوع الكبيرة والكثيرة: الله أكبر أين غيرة الزعماء التي كانت تظهر في تافه الأمور...» وعلى الرغم من بحث عن التفاوض بين طيات الغيوم، ف«المؤسسات» مسيطرة في «المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن».

يقول نصار: «تحتاج النهضات إلى إرادة قوية تقاوم العقبات وتدوس العراقيل التي يضعها الرجعيون بأقدام الجراة الأدبية». لكنه سيكتب بعد قليل، وحين يمر بـ«مرج ابن عامر»: «اجتئنا كل هذا السهل الذي يجب أن يكون ينبع ثروة فلسطين وإذا هو مع الأسف متشعج بوشاح الذل والفقر وليس

عليه علاقة أو مظهر من مظاهر العمران والمدنية». وبين التحريض المجرد، إذ «الجرى» تمجده الأجيال، والاسف، المشخص، فالفقر يلتهم القرى، يكتب نصّار: «والذي استوقف نظراً أن القطار صار يقف أمام الجالود، إحدى القرى التي اشتراها الصهيونيون من نجيب بك سرسق، قبل أن يعثر اليهود فيها حَجراً ومذوا إليها الخط الحديدي». لا يمر القطار أمام قرى فلسطينية قائمة ويتوقف أمام «قرية يهودية» لم تولد بعد، مفصلاً عن زمنين شديدي الاختلاف. والفرق قائم بين من يذهب إلى غايته ومن ينتظر أن تجيء غايته إليه: «معظم سكان طبريا اليوم من اليهود أما العرب المسلمون والنصارى فهم أقل من نصف السكان. ولذلك نجح الاستعمار اليهودي في شراء الأراضي من عهد قديم قبل أن يكون الناس يعرفون شيئاً عن الصهيونية ومقاصدها. ص: ٣٢». عرف «الناس» الصهيونية حين أصبحت معرفتها متأخرة، أو عرفوها بوعي متأخر لا علاقة له بالمعرفة. ولهذا فأت القطار القرى الفلسطينية.

ارتكن نصّار إلى «علة المعرفة» حالماً بتخليق كون جديد. وسقط حلمه قبل أن يرتفع، لأن المكان الذي يوافق «عقلته» لا وجود له. وما لحظة الحلم إلا نثار من وقائع سعيدة، كان «تعتني مدارس المستر سمبل بتعليم اللغة العربية وتدرّس سيرة أبطال العرب»، أو أن ترد «الحديقة الغناء» جانب طولكرم على قول تشرشل: «لا أتوقع أن يعمر العرب بلادهم أو أن يدوا لها الكهراء في ألف سنة»، أو أن كسب بعض الناس عيشهم بشرف لأنهم تمسكوا بـ «مزايا العرب». بيني نصّار، مقابل نثار التفاؤل، خطاباً وطنياً - نقدياً قوامه جملة من الثنائيات اللامتكافئة: «العلم / الجهل، الغنى / الفقر، الوطنية / الخيانة، فلسطين / المشروع الصهيوني». وبداهة، فإن نصّار، وهو يكتب ريبورتاجاً صحفياً أجمعيل التقطيع، لا يكتب بلغة مفهومية «مشبعة» بالنظرية، بل يرمي بملاحظات نقدية نضرة ومتراصفة، يستطيع الدارس بناءاً نظرياً. ويغدو الأمر ميسوراً، بسبب قصيدة كتابية سافرة، تحاول قراءة أحوال فلسطين على ضوء المشروع الذي ينذر بإغراقها.

مهما تكن الثنائيات التي ارتكن إليها نصّار، يظل الموقف من الحفاظ على الوطن معياراً رئيساً: يكتب تحت عنوان «تطوير الأراضي»: «غير أن العيب قد ظهر في الأهالي بسبب جهل قيمة الأرض وبسبب ضعف أخلاقهم الوطنية وبسبب الضائقة المالية. ص: ٢٨». ويكتب تحت عنوان الحالة الاقتصادية: «يستهي السماسرة البسطاء بتضليلهم ويقولون لهم الأفضل لكم أن تبيعوا فالبلاد راحت والشمس الذي تقبضونه اليوم لا تحصلون عليه فيما بعد.. ص: ١٦٣». يتحدث نصّار عن «الفقر الشامل»، لا عن الفقر الإقتصادي فقط، ذلك أن الفلاح الذي يبيع أرضه، وهي حالات قليلة على أية حال، يعتقد معنى الحياة قبل أن يفتقد الرغبة. ومع أن نصّار يسبغ على الأرض جمالية خالصة، فهي «فردوس المجتهدين»، يؤكد، بلا انقطاع، ضرورة «علم الزراعة» و «المدرسة الزراعية» و «مبادئ التعليم الزراعي»، كما لو كان في العلم، وهو منظور إلى العالم، ما يغوي الأرض على الكشف عن أسرارها. وبهذا المعنى، لن يكون نصّار، وهو المغنون بكلمة العلم والمعرفة والمدرسة، بعيداً عن القول بـ «علم المبادئ الوطنية»، الذي يعلم الفلاح قيمة الأرض ويعضد الأخلاق الوطنية ويسهم في فك الأزمة الاقتصادية.

لن يقطع «علم المبادئ الوطنية» مسافة طويلة قبل أن يتداعى، فالعلم فقر آخر إن لم تباطنه أخلاقية واضحة. فما عصم العلم خائناً عن خيانة. يكتب نصار: «راج سوق بيع الأراضي في لواء نابلس وقضاء طولكرم ورواجاً يشبه رواجه في الجهة الشمالية أو أكثر، وإن كانت البيوع في المنطقة الشمالية كبيرة فالبيعة معظمهم من أهالي بيروت وزعماء لبنان الكبار الذين يشار إليهم بالبنان. أما في هذه الجهة فمعظمهم من الوجهاء والعلماء وأبناء العائلات والزعماء وأعضاء المؤتمرات والجمعيات إلخ... ص: ١١٥». يبيع الفلاح أرضه عن جهل وفقر، و يبيع «الاعيان» الأرض عن جشع ومعرفة، بل أن الفلاح، وكما تشهد الدراسات، لا «تنهب» منه أرضه، إلا بسبب «متزعم» يقف على ظهره. ولهذا، فإن نصار، المقتون بتعاليم المسيح والنبي محمد، يربط ربطاً وثيقاً بين «المتزعمين» واستحالة المشروع الوطني، لأن دور المتزعم، وكما يقول، يبيع المصلحة العامة من أجل مصلحة خاصة. تجعل العلاقة بين المتزعم وتحقيق المصلحة الخاصة، أو بين التزعم وتهديم المصلحة العامة، من تجار الوطنية تجاراً بالوطن والمواطنين. تجاراً لهم مهابة وبهاء وهالة محترمة. يستمدون المهابة من «الوجاهة» والبهاء الكاذب من «العلم» والهالة الخادعة من «المؤتمرات» و «الجمعيات» و «قصور» عائلاتهم المعروفة، بل إنهم يستمدون كل القابهم الخاوية من إلغاء إنسانية الفلاح ومصادرة إرادته. ولعل هذه الهالة هي التي تدفع نصاراً، دون أن يدري ربما، إلى الإحالة إلى قانون التقليد، حيث الضعيف يحاكي القوي. حين يحدث عن «فساد الفلاحين الذي يتسرب إليهم من المدن». وما يخلص إليه نصار، وهو ينتدب «المتزعمين» في لبنان وفلسطين وبقاع أخرى، واضح، تبرع الزمن بالبرهنة عليه بعد حين: «هؤلاء الزعماء الذين يساعدون متعمدين على تشكيل مملكة يهودية في قلب البلاد العربية بين سوريا ومصر والجزيرة.. ص: ١٤١».

«المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن». هذا هو العنوان الثانوي الذي يضيء العنوان الأساسي: رسائل صاحب الكرمل. يرذ العنوان الثانوي إلى المكان، وإلى رحلة ترصد ملامح المكان وتسجله. بيد أن نصار، يضيف إلى الرحلة الأولى رحلة أخرى، تقرأ المكان في مرآة المتزعمين، وتشق صورة المتزعم من المدرسة البائسة والمزرعة المهجورة والفلاح المخذول الذي يدفع لـ «جلاده الإنجليزي» ثمن العصا التي تكسرت فوق ظهره. يكشف نصار، وفي استقصاء ميداني، عن معنى «المتزعم» في مجتمع عضوي موزع على العائلة والطائفة والمشيخة والعشيرة والبلدة. ينطوي التزعم المفترض على ظاهرتين: يعمل المتزعم على الاحتفاظ بالقسط البشري الذي يؤمن له الزعامة مجتهداً، لزوماً، في إقصاء قسطه عن الأقسام الأخرى، أي مؤمناً أن التفرقة هي عماد وجوده. ولكي يبرهن المتزعم على صلاحه، الذي لا صلاح فيه، يكون عليه أن يبرهن عن تمايزه الاجتماعي، نفوذاً وهيبة وثراء. وهكذا تكون التفرقة قوام الظاهرة الأولى، والفساد والإفساد عماد الظاهرة الثانية. وعن هاتين الظاهرتين معاً، يصدر دور «المتزعم» في إفساد القضاء والتلاعب في الضرائب على الزراعة وتزوير معنى الكفاءة ونقل الفساد من «المدينة؟»، كما يقول نصار، إلى القرية. وحاكم الأمور دائماً هو «النفوذ الشخصي»، الذي يضع مصلحة الجزء المبدد فوق مصلحة الكل الذي لا وجود له، ويضع مصلحة المتزعم فوق ركام الجزء والكل معاً. وفي منطلق كهذا تكون «الأحزاب الوطنية» تنكيلاً

بالوطن، والمتزعمون سماسرة و«الصحافة الوطنية» كتابات صفراء تروج للسماسرة المتزعمين. وقد يبدو نصّار عالي الصوت لئاء الخراب الداخلي وخفيضة لئاء الاستعمار البريطاني، وهو ما ينقصه، وبنبرة مقتضبة، في فقرة عنوانها: «بلقورات فلسطينية»، متحدثاً عن: «العاملين على إتمام تصريح بلفور بإنشاء الوطن القومي ومن هؤلاء المرائين الذين يستفيدون من شدة الضائقة الاقتصادية .. ص: ١٤٨»، حيث فحش الفائدة يجبر الفلاح على بيع أرضه، وبداهة، فإن معايير الربا والبيع والشراء، في مجتمع قائم على «النفوذ الشخصي»، يقرّرها المتزعمون، بقدر ما تقرر الأرباح والطموحات الفاسدة معايير قيادات البوار. وفي الحالات جميعها، يعيد نصّار، وعلى مستوى آخر، الصورة السوداء التي رسمها محمد عزة دروزة مؤرخاً. فحديث الإصلاح يحتاج إلى إصلاح. و«الحصص البشرية» هاجعة، و«حراس» مرتاحون في عبااتهم، حين يمر نصّار على أكثر من بلدة يكتب «الروح الوطنية نائمة»، فإن التقى بـ«روح طيبة» نسبها إلى «شمم العرب»، أو أخذ عليها كثرة الانفعال: «الحركة الوطنية في نابلس قائمة كلها على العواطف كما هو الحال عند عموم الشرقيين .. ص: ٧٧».

في أكثر من مكان وبوعي واضح مستثار، يرى نصّار إلى الفرق بين اجتهد اليهود وإهمال العرب، كان يكتب: «كانت مخازن الصهيونيين في حيفا في أول سني الاحتلال قليلة جداً، وما كنت ترى سوى لوحات قليلة باللغة العبرية، أما اليوم فإذا مررت بالسوق ترى اللوحات باللغة العبرية أكثر منها باللغة العربية»، إلى أن ينتهي إلى نبوءة تحققت بعد ثلاثة وعشرين عاماً: «إذا بقي الحال مستمراً نعتقد أنه لا تخفي سنون قليلة حتى يتطبق تصريح بلفور بحذائيره وتصبح فلسطين في قبضة الصهيونيين ولا يبقى لنا إلا التراشق بالكلام وأسمالاً لأن الصهيونيين لا ينازعونا في شيء من هذا .. ص: ٩١». تجبر السطور الأخيرة عن خفوت صوت نصّار في النصف الثاني من العشرينات، وعن كآبته في الثلاثينات، وعن موته الجسدي والرمزي في عام النكبة.

ذلك المولع بكلمات ليست من زمن مجتمعه في شيء، مثل «الرجل العمراني»، كان، وقد ظللته أشجار المعرفة الخضراء والحزينة معاً، يقترح بديلاً عن التراشق بالكلام ويهجم بـ: «استراتيجية المقاومة الوطنية، في فضاء أعزل ترتد عنه صحراء الانفعال إلا في لحظات مارة. فهو يستنهض في الفلسطينيين جمال المسيح الفلسطيني وعدالة الرسول محمد، ويقص عليهم أمجاداً عربية قديمة حقيقية ومتخيلة، ويحرض فيهم، وقد ألمّ بشيء من ثقافة الغرب، عقلاً يتأبى عليه النهوض، مؤكداً أهمية العلوم والعلوم التطبيقية والمدارس الحديثة وتحرير المرأة وشعاراً لا تنقصه الطرافة: «النهضة الاقتصادية أساس النهضة جميعاً». وهذا الشعار فرض عليه حديثاً متواتراً عن تنظيم التجارة والارتفاع بالصناعة وتقديس الزراعة والأرض، متأثراً ببعض كلمات تولستوي عن الأرض والفلاح. وكانت هامشيتة، في حديث الترقّي والتمدن على الأقل، لا تنفصل عن لغة غير اليفة لمجتمع تقليدي، تحتضن جملة من التعابير تخاطب العقل كثيراً والعاطفة قليلاً. من هذه التعابير، التي ينأى عنها المتزعم ولا يعرفها ربما: الاخلاق الوطنية، الهيئة الاجتماعية، كفاءة الوطني، الكتلة الوطنية الفاعلة، الرجل العمراني، العقول النيرة، فن الإدارة، النهضة الزراعية، الرقي والتمدن، المبادئ الأخلاقية والاجتماعية .. تحيل

هذه التعبيرات على حياة حرة، لها لغتها الخاصة بها، على مبعدة عن لغة الخطب والرياح وعلى مسافة من متعلم يقوده وعيه الريفى إلى تزلف الوجهاء والأنبهار بالوظيفة الحكومية. وليس غريباً، والحالة هذه، ألا نعرش على صوت وطني بارز لدى المتعلمين، الذين كان يرسلهم الانتداب، أو عائلاتهم الميسورة، إلى الجامعات البريطانية، أو إلى مدارس عالية تحت الانتداب البريطاني أو السيطرة العثمانية، ذلك أن هؤلاء المتعلمين كانوا يتلقون «تعليماً إدارياً» هاجسه الانطلاق من وظائف الدولة والعودة إليها. ولذلك، لن يلتقي نصّار، إلا قليلاً، بـ «متعلمين» يستعملون لغته، ولن يلتقي، إلا قليل الأقل، بسيااسيين مشغولين بـ «النهضة» و «التقدم الإجتماعي».

كلمة «الوطنية» هي الأكثر رواجاً بين كلمات نصّار، تحتضن الأخلاق والزراعة وما بينهما، وتحيل على أمر مرغوب هو: المواطن الذي يحتفي بالوطن، أو: المواطنون، الذين يرون إلى فلسطين، قبل أن ينصتوا إلى عائلاتهم وطوائفهم ومشايخهم. لم يعثر نصّار على كلمة «الوطنية» في كتاب، إنما جاءته من كفاح وطني، ومن ممارسة مشخصة عاشت دلالات: الاستبداد العثماني والنفاق الانجليزي والترصص الصهيوني والعواطف العربية. ومن معرفة نبرة قوامها الممارسة الأخلاقية انبثق ذلك الحدس العارف، الذي بشر وأندّر ثم انسحب ينتظر الفجیعة. نقرأ في رسالة له عن حيفا عام ١٩٢٥ ما يلي: «والحقيقة التي لا مراء فيها أنه كلما ازداد الضرر وسرى الخطر في جسم هذه الأمة ازدادت الهمم فتوراً والعقول ذهولاً والنفوس خمولاً وازداد الأطباء إهمالاً بل ازدادوا جدالاً وخصاماً ونسوا أن مريضهم يحتضر بين أيديهم وأنهم أوشكوا أن يصيروا حفاري قبور وأنهم إذا بقي هذا حالهم قد لا يجدون حفاراً يحفر لهم قبورهم». وضوح جميل، وجماله مرارة باهظة، بعيد عن خطر الثلاثينات القادمة، التي تعد بتأديب الجبال ونصرة الحق المبين. ويكتب نصّار عن حيفا أيضاً: «ست سنين وعوامل التنازع تفعل فعلها فينا فتذهب بأموالنا وتزيد في تفريق كلمتنا وتناهبنا وإضعاف جميع قوانا حتى أصبحت هيئتنا الإجتماعية كمن أصبح في الدرجة الثالثة من السل يهدده الموت وهو بحسب أنه أطول الناس عمراً».

في رحلته التي يختلط فيها الحدس بالإحصاء، قدم نصّار خطاباً اجتماعياً نقدياً، وخطاباً وطنياً تحريضياً، وصورة عن مثقف وطني رومانسي، ظن أن جريدته تعيد تخليق العوالم. وبما أن أعلى الناس ارتفاعاً أوقعهم سقوطاً، كان على نصّار أن يبدأ، لاحقاً، رحلة المرارة والتشكي، فما كتبه المثقف محته الريح ولم يره أحد، شيء قريب من عاشق قصب السكر الذي قوّضه السكر لاحقاً، مع فرق حزين، هو أن نصّار لم يكن سجين الشره، بل طليقاً في عشق البلاد.

#### ٤ - سيرة الخطأ والصواب الذي لا سيرة له :

في السابع من تموز - ١٩١٤ - نشرت الكرمل، وهي تعلق على «نداء عام إلى الفلسطينيين» جاء من إحدى المنظمات الوطنية، السطور التالية: «عليكم أن تجندوا الرأي العام حتى تتمكنوا من تحقيق هذه الأهداف، وليس لكم أن تلوموا الصهيونيين، بقدر ما ينبغي أن تلوموا زعماء بلدكم وموظفي حكومتكم الذين يبيعونهم الأرض ويعملون كسماسرة لهم. أوقفوا هذه المبيعات توقفوا الحركة

الصهيونية». الحملة الأخيرة: «أوقفوا هذه المبيعات توقفوا الحركة الصهيونية»، تعلن عن موقف نصّار الوطني ومحدودية منظوره الوطني أيضاً. وطني وهو يقاتل الصهيونية ويبيع الأرض، ومحدود في منظوره الوطني وهو يرى العامل الداخلي ولا يرى إلى العامل الخارجي. ينصب هذا المنظور في الأخلاق مبتدأ وخبراً، دون أن يدري أن أخلاقية الشعوب المستضعفة تسعفها في المقاومة ولا تمتع عنها الهزيمة. ولهذا اعتقد أن استعادة العرب، في الحاضر، لفضائل العرب، في الماضي، ترشد القافلة العربية الجديدة إلى طريق قوم.

انعكس تصوّر نصّار الأخلاقي في قضايا متعددة. كان يندهش من موقف الأتراك الجائر من العرب، والطرفان ينتميان إلى شرق واحد، ويتعجب من ظلم الأتراك للعرب، والطرفان يعتنقان ديناً واحداً. في تصوّر، لا تنقصه السذاجة، يصبح الشرق هو «الجوار»، والدين هو «القرى»، وعلى الأخلاقي أن يحترم الجوار والقرى، ماحياً، وببراءة كبيرة، الدولة وحساباتها وموقف الدولة العثمانية البراجماتي من «القرى» و«الجوار». وبسبب وعي بريء، لا ينشغل بالصراعات المادية والمصالح الاستعمارية، يكون «مفلح الخسائي» مستعداً للدفاع عن تركيا في «حالة ظهور المطامع الأوروبية»، التي هي، أي المطامع، «سرغامض» لا يمكن التنبؤ به. وهذا اللامتوقع أوقع نصّاراً في الارتباك والذهول حين علم، فجأة وعلى غير توقع، بوعده بلفور، ذلك أن الإنجليز لا يؤذون أحداً، بل أن ثقافتهم، وشكسبير وجهها الأكبر، لا تسمح لهم أن يصيبوا الفلسطينيين بضرر، يشق نصّار العلاقات العربية-التركية من «الدين» و«الجوار» ويخترع الموقف الإنجليزي من فلسطين من الثقافة، على اعتبار أن ثقافة الإنجليز وجه آخر للفضيلة.

وفي هذه الحدود، يغدو «الانتماء القومي العربي» لغزاً، يشير إلى ماضٍ أنتج قيماً فاضلة، لا إلى مجموع بشري متمايز يربط هويته المختلفة بمستقبل مختلف، يحقق التمايز وتعيين الهوية سياسياً. ولذا، فإن نصّار لن يميل إلى الأتراك لسيبيين: اضطهادهم العرب وتحالفهم مع الألمان، بدلاً من التحالف مع الإنجليز، الذين لهم أسطول كبير يرافق الشواطئ التركية الممتدة من الأستانة إلى مرسين. وهذا يعني أن رفع الجور وتصحيح التحالف، وهما يردان إلى الأخلاق والحكمة، يجعل من القضية القومية نافلة، ويضع العرب والأتراك في إناء متجانس، بمعنى آخر: إن العروبة أخلاق قومية لا تستدعي، لزوماً، سلطة سياسية يمارسها العرب.

يظل تناقض نصّار قائماً وهو يعاين المشروع الصهيوني: يعرف غاياته بوضوح مدهش، ويبصر آفاقه ببصيرة نافذة، لكن منظوره يكيو مرتين: مرة أولى، وهو يعزل تكوّن المشروع عن العوامل الأوروبية الأساسية التي أسعفته على الوقوف، ومرة ثانية حين يرى في الصلاح الداخلي، أي تهذيب النفوس، دليلاً لدحر هذا المشروع، فيما أن المشروع وليد يهودي محض لأطماع يهودية محضة، فمن العبث «بعثرة الجهود» والأصطدام بما هو غير يهودي. ولعل هذا التصور الخاطيء، بعد أن استقر الإنجليز في فلسطين سيدفع صوت نصّار الهادر إلى الخفوت، حتى اقترب من التهميش والصمت. يكشف نصّار عن بصيرته وهو يكتب في الكرمل في ١٩ أيلول ١٩١٣ السطور التالية: «البيروتيون يقتصرون على مطالبة الحكومة بالإصلاح.. مالنا والبيروتيين! نحن الفلسطينيون على شفا جرف،

فالخطر السياسي والإجتماعي والإقتصادي يهددنا من كل صوب، والأمة تنازعنا البقاء في وطننا برهنت على كونها أمة حية قوية تعمل لنفسها وتعتمد على نفسها.. عقلاء الشعوب أدركوا أن دعائم الحياة هي صيانة المصلحة العمومية والتضامن على إحكام ربط الجامعة القومية، فلماذا لا يقوم أبناء الأمراء والشرفاء والكبراء، والمتعلمون والغيورون في فلسطين لعقد مؤتمر يفكر بتنظيم جامعة عربية فلسطينية تهتم بإحياء التجارة وإنهاض الزراعة والتعليم؟».

يهجس نصار، وهو يدعو إلى «جامعة فلسطينية»، بالمؤتمر اليهودي الذي عقد قبل خمسة عشر عاماً، مؤمناً بأن «الأمة اليهودية» تعتمد على نفسها، وأن على «الفلسطينيين» أن يعتمدوا على أنفسهم أيضاً. لا يمنع ارتباطك المقايضة عن نصار فضيلتين: تعامله اليقظ والذي لا خفة فيه مع المشروع الصهيوني، مدركا أخطاره ومؤمناً بإمكانية انتقاله من «القوة» إلى «الفعل». ودعوته إلى إصلاح فلسطيني، شامل، يمتد للفلسطينيين بأسباب مقاومة وطنية. وسواء كان يترجم إلى العربية سطوراً «إصلاحية» قراها في كتاب أجنبي، أم كان يرد على واقع مقروض يجب تحويله، فإنه كان يهجس بـ «استراتيجية مقاومة»، بعيداً عن الخطابات الملتهية التي تتميز لحظة غياب المصنفين.

إن هذا الوضوح في التعامل مع صهيونية مكتفية بذاتها، كان يرتبك، إضافة إلى ما يخالطه من ارتباطك، مرة أخرى، حين يخرج نصار من سؤال ضيق إلى سؤال أكثر اتساعاً. كان يكتب في الكرمل في ٢٢ آب ١٩١١، ما يلي: «بدأنا نشعر بتأثير الصهيونيين على الهيئة الحاكمة مذ علت نغمة الترك والعرب.. إن أحرار الترك سليمو النوايا وحديثو العهد في السياسة. ونعتقد أن الصهيونيون ( هكذا وردت في النص ) وجدوا فيهم موضوعاً قابلاً للخديعة.. أما نحن العرب فلم نبرهن على كوننا أوفر حكمة من إخواننا الأتراك تجاه السياسة التي تهدد سلامة المملكة. فبدلاً من أن تحملنا هذه الأحوال على زيادة التقرب منهم لنبتئ لهم ضرورة اتحادنا، قابلنا مخاوفهم بالاستياء، فازداد الاعتقاد الذي غرسه فيهم الصهيونيون على ما نظن، بعدم إخلاصنا لهم رسوخاً في أذهانهم..».

يحتضن القول السابق الكلمات التالية: النية السليمة، الخديعة، التقرب، الإخلاص.. تظهر هذه الكلمات أكثر وضوحاً بالركون إلى نقائضها: النية الحسنة، والأعمال بالنيات، الوفاء، وهو علاقة فرد بفرد، التنافر، وهو غياب التسامح، الغدر، وهو علاقة فرد بفرد مرة أخرى. توافق الكلمات، وكثير غيرها في كتابات نصار، خطاباً أخلاقياً، يرى في العلاقات الإجتماعية والسياسية علاقات ما بين-فردية. وبما أن الأخلاق، بداهة، تبدأ بالفرد، فإن إصلاح الأفراد العرب والأفراد الترك مدخل إلى حياة سعيدة توحدتهما. يبدأ القول سياسياً وينتهي إلى فضاء لا مكان للسياسة فيه، إذ القومية العربية أخلاق والقومية الطورانية نافلة بعد إصلاح الأخلاق، وإذ المقاومة الوطنية ترد إلى النوايا والأفراد والنيات الحسنة. ينبت القول السياسي عند نصار على عمومية أخلاقية، تستأنف «العواطف الشرقية الملتهية»، التي يتقدها في أكثر من مكان. وهذه العمومية الأخلاقية تغوي نصاراً بتعامل إيجابي مرتاح مع كلمة «الحكومة» سواء كانت عثمانية أم بريطانية، طالباً منها «إصلاح المجتمع» و «دعم القضية الوطنية». يتوزع معنى «الحكومة» على الأفراد الذين يمثلونها، وبما أن في بعض الأفراد الذين التقى بهم فضائل لا تنكر، فإن الحكومة المزودة ببعض الفضائل قادرة على بعض «الدعم»

ما الذي يجعل خطاب نصّار، المثقف الحديث، مسكوناً بتناقضات متجددة؟ ما الذي يجعله يبعثر البداية الصحيحة حين يتعد عن البداية؟ يقول نصّار، وهو يُخلّل الإيديولوجيا الصهيونية: «والغالب على اعتقاد الموسويين أنه يستحيل عليهم إعادة حكمومتهم في سوى أرض الموعد... ومع أن هذا الاعتقاد يستخدم لتسخير عقول عامتهم، فإنه يفيد أيضاً في تشويق الخاصة منهم»<sup>(١)</sup>. يس نصّار مباشرة البعد البراجماتي للإيديولوجيا التضييلية، دون أن يقارب المراجع البشرية التي تنتج الإيديولوجيا وترزج لها. ويكتب أيضاً: «إننا لم نعلم كيف يدعي الكاتب وكثيرون من الإسرائيليين أن فلسطين هي ملك أجدادهم، فإن كانوا يدعون ذلك لأن أجدادهم امتلكوها بحق الفتوح فقد امتلكتها أمم من بعدهم بالحق نفسه. وإن كانوا يبنون دعواهم على قول التوراة بكون الحق عز وجل أعطاهام ملكاً لإبراهيم، فالحق نفسه سمح بأخذها من أيديهم، فضلاً عن كون أم كثيرة تفرعت من نسل إبراهيم غير الطائفة اليهودية»<sup>(٢)</sup>. يرد «المثقف الحديث» على الحجة التاريخية القديمة بحجة تاريخية قديمة، وعلى القول الديني بقول ديني آخر. ومع أن الرد، في شكله، لامع وحاضر البديهة، فإن نصّار عاجز عن ربط المشروع الصهيوني بالمشروع الإستعماري الأوروبي، وعن ربط المشروع الأول بآثار الثورة البرجوازية الأوروبية، مكتفياً بشعب ملتف على ذاته، هو الشعب اليهودي، الذي يشتق من كتبه الدينية مشاريع مكتفية بذاتها أيضاً. والسؤال هو: لماذا يأخذ هذا المثقف الذي يقرأ الإنجليزية والألمانية، ويمتحن الصحافة بمقاربة محدودة في موضوع بالغ الخطر كما أكد أكثر من مرة؟ يفتتح الجواب، ربما، على اتجاهين: يقبع في الاتجاه الأول مجتمع عضوي تقليدي، لا يعرف الأحزاب السياسية والحوار المجتمعي وربط الخاص بالعام والمحلي بالعالمي. وهذا يفرض على المثقف العزلة والأخذ بمقاييس ذهنية. فنصّار يدافع عن فلسطين وهو يدافع عن أرض المسيح، ويدافع عن «مسيحية فلسطين»، وهو يقاتل من أجل القيم العربية القديمة، ويكافح من أجل هذا كله تمسكاً بمبدأ الفضيلة التي تواجه الرذيلة، والمسيح يرد إلى زمن ذهبي قضى وفضائل العرب حلم متوارث والفضيلة رنين جميل ليس له عنوان، أي أن نصّار، وعلى مستوى المنظور، يحجج إلى أزمة مختلطة ويظل ضائعاً. ومهنة الحديثة، مثل المحاماة والصحافة والتعليم، حديثة بالمعنى التقني، الذي لا يوافق، بالضرورة، معنى تاريخياً يفصل بين الدين والقومية وبين الأرض والوطن. وتعطي «رواية مفلح الغساني»، ربما، صورة عن التناقض بين المنظور والتقنية. فالرواية، تحريفاً، تحيل على جنس أدبي حديث يختلط فيه المتخيل بالمستقبل، و «رواية» نصّار مشدودة إلى معيش «حرفي» وقيم منقضية.

استعمل نصّار تقنية أدبية حديثة لخدمة أغراض تقليدية، مبهورة بحسن الضيافة وهذو البراري، أي مبهورة بمجتمع عليه أن يتغير دون أن يفقد «عادات أجداده». وإذا كان يؤس الواقع الفلسطيني قد فرض على نصّار تمرداً مقيداً، فإن الاتجاه الآخر، أي الثقافة الأوروبية قد حررت نصّار وقيدته أيضاً. تحرّر وهو يقارن بين أكثر من لغة، وبين نصين سياسيين، وبين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية، وظل مقيداً وهو يُقبل على الثقافة الأوروبية ويغمض عينيه عن الاستعمار الأوروبي، لأن «الثقافة الخيرة» لا تسيء إلى أحد، بمعنى أكثر تحديداً: إن كانت أوروبا الإستعمارية قد ضحت بالشعب الفلسطيني

فداء للمشروع اليهودي، فعلى المثقف الحديث أن يضحي بكرهه للاستعمار فداء للثقافة الأوروبية، فأوروبا جاءت بالاستعمار وبالحدائث الفكرية، والعلاقة الثانية تخفف أوزار العلاقة الأولى، أو تزيجها عن مجال البصر. وهذا الموقف، المسكون بالتناقض والتمزق، دفع نصّار، ربما، إلى التعاطي الصارخ مع «الأمراض الاجتماعية الفلسطينية»، كما لو كان المرض الفلسطيني يصدر عن روح فلسطينية مريضة لا أكثر، وإلى التعامل الرفيق مع السيطرة البريطانية على فلسطين.

ومهما تكن التناقضات التي حكمت موقف نصّار، وهو مشروط بزمّنه وبمجتمعه، فإن هذا الصحفي الوطني الشائر أنتج خطاباً وطنياً، يتعامل مع الشخص مع ويرى بلا خطأ إلى آفاق المشروع الصهيوني، وخطاباً تنويرياً، غير مسبوق، يصل بين إمكانية المقاومة الوطنية وإصلاح المجتمع الفلسطيني. كان نصّار يكتب نثراً في مجتمع يحتفي بالبلاغة، ويحض على الفعل المنظم في مجتمع كثير الشعارات والعواطف. وكان، قبل كل شيء، قد اختبر «المتزعمين» وألقى بهم وراء ظهره، وعانين «التعلمين» واكتشف ميوعتهم الباهظة.

ولد نجيب نصّار عام ١٨٦٥ وتوفي عام ١٩٤٨، لم يلتق نصّار بالأجيال التي تمجّد الجريء، كما اعتقد، لكنه وجد من يحفظ بعض صفحاته من الضياع، ويعرف تاريخ موته وولادته، ولو بخطأ قليل. كان الروائي الألماني هنريش بول يقول: «يعمل المثقف من أجل حلم لن يراه». وفي حدود هذا القول يكون الزمن قد أنصف نصّاراً، أو اقترب من إنصافه.

## إشارات:

- (١) نجيب نصّار: رواية مفلح الغساني، تقديم وإعداد حنا أبو حنا، دار الصوت، الناصرة، ١٩٨١، ص: ٢٤. استفاد كاتب هذه الدراسة (ف.و) من المقدمة الهادة التي كتبها حنا أبو حنا، فله جزيل الشكر.
- (٢) المرجع السابق، ص: ٢١.
- (٣) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص: ٦٤.
- (٤) نجيب نصّار: المرجع السابق، ص: ١٥.
- (٥) كتاب الكيالي، ص: ٦٤.
- (٦) ماهر الشريف: البحث عن هوية، الطبعة الأولى ١٩٩٥، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، قبرص، ص: ١١.
- (٧) رسائل صاحب الكرمل، بقلم شيخ الصحافة الفلسطينية نجيب نصّار (المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن)، تقديم وإعداد وليد خليف، مطبعة الحكيم، الناصرة، (٢١٩٩٢).
- (٨) المصدر نفسه.
- (٩) ماهر الشريف، ص: ٢١.
- (١٠) المرجع السابق، ص: ٢٣.



نوبل 2000

## غاو تشينغجيان: قوة الحياة، هتئاتسة الأديب

تقديم

صنعت الأكاديمية السويدية واحدة من أكبر مفاجآت جائزة نوبل للآداب، إذا لم تكن الأكبر حتى الآن في الواقع، وذلك حين منحت الجائزة إلى الصيني غاو تشينغجيان، الروائي والمسرحي والمنظر الأدبي والرمثام، المقيم في فرنسا منذ العام ١٩٨٨. وليس ثمة مبالغة في القول إن السؤال الأول الذي تردد فور إعلان النبا، وفي العالم بأسره ما عدا الصين وأوساط ضيقة في فرنسا والسويد، هو التالي: من هو غاو تشينغجيان؟ الخطوة الطبيعية اللاحقة كانت، وبعد قراءة حيثيات منح الجائزة بالطبع، البحث عما هو متوفر من ترجمات لأعمال الرجل باللغات الأوروبية، وبالإنكليزية تحديداً. الحصلة لم تكن مشجعة أبداً، باستثناء دار النشر الفرنسية الصغيرة Editions de l'aube، التي احتضنت منذ عام ١٩٩٥ ترجمة ونشر أعمال تشينغجيان إلى الفرنسية، و... الترجمات السويدية التي أكسبته شعبية واسعة لدى الجمهور السويدي وأعضاء الأكاديمية أيضاً.

ولقد قيل على الفور إن هذا، أي ترجمة تشينغجيان إلى السويدية، كان السبب «الإجرائي» الأول الذي مهد الطريق أمام طائفة أخرى من الأسباب: سياسية، وإبداعية، وجغرافية. إذ لولا الترجمة إلى السويدية، تتابع المحاجة، ولولا رغبة الأكاديمية في منح الجائزة — أخيراً! — إلى أديب صيني، والأفضل أن يكون منشقاً منغياً، فإن الجائزة كانت ستخطيء طريقها إلى الصين من جديد. تشينغجيان ليس أعظم أدياء الصين، وهو على الأقل ليس الأجدر بينهم لحمل لقب أول فائز صيني بالجائزة.

أصحاب هذه المحاجة أدركوا — سريعاً على الأرجح، وربما فور قراءة الفصول الأولى من رواية «جبل الروح» أو مسرحية «على حافة الحياة» — أن تشينغجيان لا يستحق الجائزة فحسب، بل ويستحقها أكثر بكثير من نصف دزينة من الروائيين

الأوروبيين الذين حصلوا عليها قبله. وأما أنه ليس أعظم أدباء الصين، فإن الرد على اعتراض كهذا أبسط بكثير: متى كان الفوز بجائزة نوبل شهادة على أن الفائز هو أعظم أدباء بلده؟

والحال أن المرء - وبعد قراءة نماذج من أعمال شينغجيان، وروايته «جبل الروح» تحديداً - لا يملك سوى منح الأكاديمية السويدية فضيلة تقديم هذا الفنان الكبير إلى العالم بأسره، ومنح الجائزة الأرفع صيغاً إلى «أعمال بعيدة تماماً عن كتابات السوق، أعمال أثارت القليل فقط من الإنتباه، ولكنها في الواقع جديرة بالقرأة»، كما يقول شينغجيان في محاضرته، هو الذي يعتبر أن صوته ليس سوى «صوت ضعيف للفرد هتّ يستحقّ بالكاد الإصغاء إليه، ولا يُسمع البتّة في وسائل الإعلام».

ولد غاو شينغجيان في جيانغشي سنة ١٩٤٠، وحصل على دبلوم في الفرنسية من معهد اللغات الأجنبية في بكين. تأثر بالأدب الفرنسي (بريغور، بيكيت، يونسكو)، وطرح مبكراً سلسلة من الأفكار المجرورة حول تحديث الأدب الصيني ضمن إطار إحياء التراثات الشعبية الغنيّة وليس عن طريق القفز عنها وتلقف النماذج الغربية وتقليدها. لكنه أبشراً ساجل، وإن على نحو جيّد التمويه، ضد إخضاع الأدب لمبادئ «الثورة الثقافية»، وكان كما له دلالة خاصة أن أول الأعمال التي جلبت عليه مسخط الدوائر الحزبية كان كتاباً في النظرية الأدبية، صدر سنة ١٩٨١ بعنوان «مقالة تمهيدية حول فن الرواية الحديثة». قبل هذا الكتاب، وقبل سحب أفكار «الثورة الثقافية» من التداول الرسمي، اضطرّ شينغجيان إلى حرق عشرات المخطوطات في الرواية والمسرح، كما خضع لفترة «إعادة تأهيل» على الطريقة الستالينية الشائعة آنذاك في الصين. المزيد من ألقاب الإضطهاد، خصوصاً بعد عرض مسرحياته «شارة الخطر» و«موقف الباص» و«الرجل البرقي»، قادتته إلى عزلة ذاتية طويلة في الأرياف الصينية، ثم مغادرة البلاد نهائياً إلى فرنسا، حيث يقيم اليوم في إحدى ضواحي باريس الشعبية.

والكرم، في هذا الملف تقتطعت نموذجين من كتابات شينغجيان: نظريّة، تمثّله محاضرة نوبل التقليدية التي ألقاها مطلع كانون الأول (ديسمبر) الماضي؛ وإبداعية هو ثلاثة فصول من روايته الملحمية «جبل الروح». وفي النموذج الأول ما يدهش حقاً، إذ تبدو أفكار شينغجيان وكأنها قادمة من عصور سابقة، أو ما تزال تعيش في الخمسينيات حين كان السجال مستعراً حول نظريات الفن للشعب / الحياة، أو الفن للفن، وعلاقة الإبداع بالذات الفردية أو الذات الجمعية، وأنطولوجية الإبداع وما إذا كان يحتر عن حاجة ذاتية أم رسالة / مسؤولية فكرية واجتماعية. ولهذا فإن بعض الأفكار «محاضرة نوبل» تبدو وكأن الزمن تجاوزها حقاً، لأنها الآن حُسمت تماماً أو حُسمت بنسبة عالية حتى في الأوساط التي ما تزال تتشدد حول الوظيفة الرسولية أو الرصالية للأدب. أكثر من ذلك، تبدو بعض الأفكار وكأنها قاطعة أكثر مما ينبغي، «سادجة تارة، وتحصيل حاصل طوراً». غير أن الإنصاف يقتضي وضع أفكار شينغجيان في سياق الأدب الصيني بالذات، بحيث لا تكون مستويات ذات صلة بالمشهد النظري والإبداعي الراهن الذي واكمته التجارب الأوروبية طيلة العقد المنصرم، بل ذات صلة بالمشهد النظري والإبداعي الصيني الراهن، أولاً وأساساً. ويكفي التذكير بأن هذا المشهد لم يعرف أولى ترجمات غابرييل غارسيا ماركيز وجيمس جويس وصمويل بيكيت إلا في العام ١٩٨٥! وهكذا فإن شينغجيان يتوجّه إلى أبناء بلده في المقام الأول ربما، أو هو يتحدث وكأن التنظير الأدبي الرسمي في الصين ما يزال يعتبر تقنية تتيار الوعي هرطقة برجوازية، أو يحظر على الجمهور قراءة «الهرقاء» الذي يكتبه أدب مناهض للشعب مثل... صمويل بيكيت!

وأما «جبل الروح» فهي عمل روائي ملحمي حقاً، أو هي ببساطة أشبه بأوديسة صينية تقوم على عناصر الرحلة والقدر والبيئة والحكاية والصراع. وكان شينغجيان قد استجمع مادة هذا العمل البانورامي الضخم (٦٧٠ صفحة في الترجمة

الفرنسية، و٥٢٨ صفحة في الترجمة الإنكليزية) أثناء مسيرة ترحال طويل على ضفاف نهر البانتسي استغرقت عشرة أشهر، تعرّف فيها على عمق الصين الإنساني والبيئي والرمزي، وتمكّن - كما تبرهن الرواية - من اختزان كتلة هائلة من المدونات: بصرية تخص المكان والبيئة والصورة إجمالاً، وسيكولوجية تخص أغاط البشر وتقلبات الطابع، وثالثة لولكلورية-رمزية، ورابعة لغوية-بلاغية... أعاد استعراضها وتركيبها في سياقات جديدة متشابكة ومقاطعة وفوتوغرافية أحياناً، وذلك عند الشروع في الكتابة. والمدقق في أفكار «محاضرة نوبل»، خصوصاً تلك التي تخص تقنيات السرد واستخدام الضمائر والتركيز على موضوع الوجود الإنساني والجانب «العلاجي»، في الكتابة الأدبية، يدرك أنّ هذه الرواية ليست أفضل أعمال شينغجيان الروائية فحسب، بل هي إلى حدة كبير مُختبره التعبيري وخلاصة جمعه الناجح بين فنون الرواية والمسرح والتشكيل.

وتبقى إشارة إلى أنّ «محاضرة نوبل» تُرجمت عن الإنكليزية إستانداً إلى النصّ الرسمي الذي ورّعته الأكاديمية السويدية، وترجمت الفصول الثلاثة من «جبل الروح» عن الإنكليزية بعد ضبطها على الترجمة الفرنسية التي أشرف المؤلف على تدقيقها بنفسه.

## غاو شينغجيان في الإنحياز إلى الأدب

(محاضرة نوبل)

لا أملك وسيلة تمكّني من معرفة ما إذا كان القدر هو الذي دفع بي إلى هذه المنصة. ولكن ما دامت مصادفات سعيدة متنوعة هي التي خلقت هذه المناسبة، فإنني سأعتبر الأمر في حكم القدر. وإذا أضع جانباً النقاش الخاص بوجود أو عدم وجود الله، أرغب في القول إنني أبدت علي الدوام الكثير من التبحّل للمجهول، بالرغم من كوني ملحدًا.

ليس في وسع المرء أن يكون الله، وليس في وسعه - بالتأكيد - الحلول محلّ الله، وحكمّ العالم مثل سوبرمان. والكوارث التي كانت من صنع البشر تركت، في القرن الذي أعقب نيتشة، السجلات الأكثر قتامة في تاريخ البشرية. وتوقّر سوبرمانات من كلّ صنف، سمّوا أنفسهم زعماء الشعب أو رؤساء الأمم أو قادة العرق، ولم يعقهم شيء عن اللجوء إلى أسوأ الوسائل عنفاً في سبيل ارتكاب جرائم لا تشبه البتة هذيانات أيّ فيلسوف إناني. غير أنني لا أود تضيق هذا الحديث الخاص بالأدب في قول الكثير عن السياسة والتاريخ، وما أود القيام به هو انتهاز هذه الفرصة للتكلّم ككاتب ينطق

بصوت الفرد.

الكاتب شخص عادي، ولعله أكثر حساسية لأن الناس المفرطين في الحساسية هم الأكثر هشاشة غالباً. الكاتب لا يتحدث بوصفه الناطق باسم الشعب، ولا بوصفه تجسيد الرشد. صوته ضعيف لا ريب، غير أن صوت الفرد هذا بالذات هو الذي يُعدّ الأكثر أصالة.

ما أريد قوله هنا هو أن الأدب لا يستطيع إلا أن يكون صوت الفرد، وهكذا كان الأمر على الدوام. وحين يُخترع الأدب في صورة النشيد الوطني للأمة، أو غُلم العرق، أو المتحدث باسم حزب سياسي أو طبقة أو جماعة، فإنه عندها يمكن أن يُستخدم كأداة دعاوة جبّارة وشاملة. غير أن مثل هذا الأدب يفقد ما هو موروث في الأدب، ويكفّ عن كونه أدباً، ويصبح بديلاً عن السلطة والربح.

وعلى امتداد القرن الذي انصرم لتوّه واجه الأدب سوء الحظّ هذا تحديداً، وكان أكثر تعرّضاً لندوب السياسة والسلطة مما كانت عليه الحال في أية فترة سابقة، وخضع الكاتب أيضاً إلى قمع لا سابق له. وعلى الأدب العودة إلى صوت الفرد إذا تعيّن على الأدب أن يحفظ علّة بقائه ولا ينقلب إلى أداة للسياسة. ذلك لأن الأدب مستمّد أساساً من احساس الفرد، وهو نتاج الاحساس. وهذا لا يعني القول إن الأدب ينبغي، بالتالي، أن يفصل عن السياسة أو يتغمس في السياسة بالضرورة. والسجلات حول التيارات الأدبية ونزوعات الكاتب السياسية كانت بمثابة شروح جذّية أنهكت الأدب خلال القرن الماضي. والإيديولوجيا ألحقت الأذى عن طريق تحويل السجلات ذات الصلة بالتراث والإصلاح إلى سجلات حول ما هو محافظ أو ثوري، وبذلك بطلت القضايا الأدبية إلى صراع حول ما هو تقدّمي أو رجعي. وإذا كانت الإيديولوجيا تتحد مع السلطة وتحوّل إلى قوّة فعلية، فإنّ الأدب والفرد سوف يتعرّضان عندها للتدمير.

والأدب الصيني في القرن العشرين تعرّض للإنهاك وكاد أن يختنق، مرّة تلو الأخرى، بسبب إملاء السياسة للأدب: الثورة في الأدب والأدب الثوري أصدرتا كلاهما أحكام الإعدام بحقّ الأدب والفرد. والهجوم على الثقافة الصينية التقليدية باسم الثورة أسفر عن حظر عام وحرق للكتب. كتاب لا عدّة لهم أعدموا، وسُجنوا، وتعرّضوا للنفي أو المعاقبة بالأشغال الشاقة على امتداد المئة سنة المنصرمة. ذلك كان أكثر تطرّفًا من فترة حكم أيّة سلالة إمبراطورية في تاريخ الصين، فخلق صعوبات أمام الكتابات باللغة الصينية أو حتى أيّة مناقشة لحرية الإبداع.

وحين توجّب أن يبحث الكاتب عن الحرية الفكرية، فإنّ الخيار كان واحداً من اثنين: إمّا الصمت، أو الفرار. غير أن الكاتب يعتمد على اللغة، وامتناعه عن الكلام لفترة مطوّلة أمر أشبه بالإنحجار. والكاتب الذي حاول تفادي الإنحجار أو التزام الصمت من أجل التعبير عن صوته، كان يواجه خياراً واحداً هو المنفى. وفي استعراض تاريخ الأدب شرقاً وغرباً، يتضح أنّ الحال كانت هكذا على الدوام: من كو يوان Qu Yuan إلى ذاتني، جويس، توماس مان، سولجنيسين، والأعداد الكبيرة من المثقفين الصينيين الذين غادروا إلى المنفى بعد مجزرة تيانانمن علم ١٩٨٩. ذلك هو القدر المحتوم للشاعر والكاتب الذي يواصل البحث عن كيفية الحفاظ على صوته.

وخلال سنوات ممارسة ماو تسي تونغ للكتاتورية الشاملة كان خيار الفرار ذاته غير متوقّر. والأديرة الواقعة في أعالي الجبال، والتي كانت توقّر الملاذ للعلماء في الأزمنة الإقطاعية، دُمّرت تماماً. وحتى

الكتابة في السرّيات خطراً على حياة المرء. ومن أجل الحفاظ على استقلاله الذاتي الفكري، لم يكن أمام المرء سوى الحديث مع النفس، وكان ذلك يتم في صورة سرّية تماماً. وينبغي أن أقول إنني، في هذه الفترة التي كان فيها الأدب مستحيلاً، بدأت أدرك مدى ضرورته الجوهرية: الأدب يسمح للمرء بالحفاظ على وعي إنساني.

ويمكن القول إن الحديث مع النفس هو نقطة انطلاق الأدب، وأن استخدام اللغة في التعبير هي نقطة الإنطلاق الثانية. المرء يصبّ أحاسيسه وأفكاره في اللغة التي تصبح أدباً حين تُكتب. هنالك إلزام بالكتابة لأنّ متعة الكتابة توفر التعويض والعزاء. ولقد بدأت كتابة روايتي «جبل الروح» من أجل طرد وحشتي الداخلية في ذات الوقت الذي مُنعت فيه أعمالي التي كتبته تحت رقابة ذاتية صارمة. «جبل الروح» كُتبت من أجل نفسي، ودون أمل في أنها ستطبع ذات يوم.

ومن خلال تجربتي في الكتابة أقول إن الأدب هو تأكيد الإنسان على قيمة الذاتية الخاصة، وهذا يتأكد أثناء الكتابة، والأدب يولد من حاجة الكاتب إلي الإشباع الذاتي. ومسألة ما إذا كان الأدب يمارس أي تأثير على المجتمع أمر يأتي بعد استكمال العمل، وذلك التأثير لا يتحدد قطعاً بالإمستاد إلى رغبة الكاتب.

وفي تاريخ الأدب ثمة أعمال عظيمة خالدة لم تُطبع في حياة كتابها. فإذا لم يكن الكتاب أولئك قد حققوا تأكيد الذات عند الكتابة، فكيف إذا تمكنوا من مواصلة الكتابة؟ وكما هي الحال بالنسبة إلى شكسبير، يصعب اليوم تأكيد تفاصيل حياة العباقرة الأربعة الذين كتبوا أعظم روايات الصين: «رحلة إلى الغرب»، «هامش المياه»، «جين بينغ ماي»، و«حلم المنازل الحمراء». كل ما يتبقى مقالة في السيرة الذاتية كتبها شي نايان Shi Naian ولم تجلب له العزاء بالتاكيد، وإلا فكيف نفسر أنه كرس بقيّة حياته لكتابة ذلك العمل الضخم الذي لم يجلب له أيّ تعويض في حياته؟ ألم تكن هذه حال كافكا الذي تصدر رواية القصة الحديثة، وحال فرناندو بيسوا الشاعر الأعمق في القرن العشرين؟ إن تحويلهم إلى اللغة لم يكن يهدف إلي إصلاح العالم، ورغم أنهم كانوا على وعي عميق بعجز الفرد فإنهم مع ذلك قالوا وأفصحوا، وهذا هو سحر اللغة.

اللغة هي التبلور الأقصى للحضارة الإنسانية. إنها شائكة، قاطعة، وعسيرة على الإدراك. ومع ذلك فهي تتخلل وتخترق المدركات الإنسانية، وتربط الإنسان - الذات المدركة - بوسيلته الخاصة في فهم العالم. الكلمة المكتوبة سحرية أيضاً، لأنها تتيح الإتصال بين الأفراد المتفصلين، حتى إذا كانوا يتحدّثون من عروق وأزمنة مختلفة. هذه أيضاً هي وجهة ارتباط الزمن المشترك الحاضر، عبر الكتابة والقراءة، بقيمته الروحية الأبدية.

وأرى أنّ جهاد الكاتب الراهن من أجل التشديد على ثقافة وطنية يُعدّ مسألة إشكالية. ذلك لأنّ تقاليد الصين الثقافية كانت مترسبة في أعماقي حيث ولدت وحين استخدمت اللغة. اللغة والثقافة وثيقنا الارتباط دائماً، وهكذا تتشكّل أنماط الإدراك المميّزة والثابتة نسبياً، مثلما يتشكّل الفكر والمفوضات. ومع ذلك فإنّ إبداع الكاتب يبدأ بتحديداً من ذلك الذي تمّ التلغظ به في لغته، ويتوجه إلى ذلك الذي لم يجز التلغظ به على نحو كافٍ في تلك اللغة. والمرء، بوصفه خالق الفنّ اللغوي، ليس في حاجة للإلتصاق بأرومته الوطنية الخاصة التي يمكن التعرف عليها بسهولة.

الأدب يرقى بالحدود القومية: يرقى باللغات عن طريق الترجمة، ثم يرقى بعادات إجتماعية محدّدة، وبالعلاقات إنسانية مشتركة يخلقها الموقع الجغرافي والتاريخ، وصولاً إلى كشف الغطاء عن كونية الطبيعة الإنسانية. أكثر من ذلك يحظى الكاتب في يومنا هذا بتأثيرات متعدّدة الثقافات خارج ثقافة عرقه الخاص، بحيث يصبح التشديد على السمات الثقافية لشعب بعينه أمراً مربهاً لا محالة، إلا إذا أريد منه ترويح السباحة.

والأدب يسمو بالإيديولوجيا، وبالحدود القومية والوعي العرقي، تماماً كما يسمو الوجود الفردي بهذه أو تلك من الدية -ism. ذلك لأن شرط وجود الإنسان متفوق على أيّ النظريات أو التكهّنات حول الحياة. الأدب رصد كوني لمعطيات الوجود الإنساني، وامن محرّم هنا. والقيود على الأدب لا تُفرض إلا من الخارج: السياسة، المجتمع، الأخلاق، والعادات تشرع جميعها في تحويل الأدب إلى ديكورات مختلف أطرها.

لكنّ الأدب ليس زخرفة للسلطة ولا هو مادة قابلة للتطويع اجتماعياً: إنه كيفية جمالية. والجمالي المرتبط على نحو وثيق بالعواطف الإنسانية هو المعيار الوحيد الذي لا غنى عنه في العمل الأدبي. والحال أن مثل هذه الأحكام تختلف من شخص إلى آخر لأنّ العواطف تنتمي إلى جملة أفراد وتغايّر من فرد إلى آخر. ومع ذلك فإنّ تلك الأحكام الجمالية الذاتية تنطوي على معايير يمكن تمييزها كونياً. وطاقة التدوّن النقدي التي يفتّحها الأدب تسمح للقارئ أن يعيش، بدوره، الإحساس الشعري والجمال، السامي والمضحك، الأسى واللعب، الضحك والمفارقة التي يصنّها المؤلف في عمله. والإحساس الشعري لا يُستمدّ ببساطة من التعبير عن العواطف، ومع ذلك فإنّ قدراً من الانانية مطلقة العنان، وشكلاً من الطفولية، يصعب تفاديها في المراحل الأولى من الكتابة. كذلك هنالك مستويات عدّة للتعبير الوجداني، والوصول إلى مستويات أعلى يقتضي التجرد البارد. الشعر خبيء في التحديقة البعيدة. وهذه التحديقة تنفتح شخص المؤلف وتمتدّ إلى شخصيات الكتاب والمؤلف، بحيث تصبح عين المؤلف الثالثة، المحايدة قدر ما هو متاح، بحيث تكون كوارث العالم الإنساني جذيرة بالتمحيص. وعندها تنور أحاسيس حبّ الحياة والاهتمام بها، تماماً كما تنور أحاسيس الألم والحقد والمقت.

والجمالي المرتكز على العواطف الإنسانية لا يصبح قديم المفعول حتى في ظلّ التغيّر الدائم في موضوعات الأدب والفنّ. ومع ذلك فإنّ التقييمات الأدبية التي تتغيّر مثل الموضة تنهض على الأحداث: أي أن ما هو جديد جيّد. هذه آوالية في حركة السوق العامة، وسوق الكتاب ليست مستثناة؛ ولكن إذا كان حكم الكاتب الجمالي يقتضي حركات السوق فإنّ ذلك سوف يعني انتحار الأدب. وعلى المرء أن يلجأ إلى الأدب البارد، خصوصاً في سياق ما يستمى بالمجتمع الاستهلاكي. ومنذ عشر سنوات، بعد إكمال «جبل الروح» التي كتبتها على مدار سبع سنوات، كتبت مقالة قصيرة اقترح فيها هذا الطراز من الأدب:

«الأدب ليس معنياً بالسياسة، ولكنه مسألة تخصّ الفرد حصراً. إنه إرضاء لملكة التفكير مثلما هو رصد ومراجعة لما تمّ تجريبه، من ذكريات وأحاسيس أو تصوير لحال الروح». وما يستمى بالكاتب ليس أكثر من شخص يتكلّم أو يكتب، وللآخرين أن يقرّزوا ما إذا كان

عليهم الإصغاء إليه أو قراءته. الكاتب ليس بطلاً يتحرك بأوامر من الشعب، ولا هو جدير بالعبادة مثل وثن، والمؤكد أنه ليس مجرماً أو عدواً للشعب. إنه تارة يُحوّل إلى ضحية هو وكتاباته، لا شيء إلا بسبب حاجة الآخرين إلى ذلك ببساطة. وحين تحتاج السلطات إلى تصنيع حفنة أعداء لحَرْف انتباه الشعب، فإنّ الكتاب يصبّحون هم القرايين، والاسوأ من ذلك أنّ بعض الكتاب المحدثين يعتقدون بالفعل أنه شرف كبير لهم أن يُحوّلوا إلى قرايين.

«والحق أنّ علاقة المؤلف بالقارئ تأخذ دائماً صيغة التواصل الروحي، ولا حاجة لهما للمقاء أو التفاعل إجتماعياً، فهما يتواصلان ببساطة من خلال العمل. والأدب يظلّ شكلاً لا غنى عنه من أشكال النشاط الإنساني الذي ينخرط فيه القارئ والكاتب في آن معاً، وبمحض الإرادة. ومن هنا فإنّه ما من واجب للأدب إزاء الجماهير».

«وهذا النوع من الأدب الذي استعاد شخصيته الداخلية يمكن أن يُسمّى بالأدب البارد. إنه يوجد ببساطة لأن البشرية تبحث عن نشاط روحي محض عابر لإرضاء الرغائب المادية. وبالطبع لم يولد هذا النوع من الأدب اليوم فقط. ومع ذلك فإنّه في الماضي كان مضطراً لمقارعة القوى السياسية الفاهرة والعادات الإجتماعية، وهو اليوم مضطراً لحاربة قيم المجتمع الإستهلاكي التجارية الهدامة. ذلك لأن استمراره في الوجود يعتمد على استعداده لاحتمال العزلة».

«فإذا كرّس كاتب ما نفسه لهذا النوع من الكتابة فإنه سيجد صعوبة في تأمين لقمة العيش. ومن هنا فإنّ كتابة هذا النوع من الأدب يجب أن تُعدّ رفاهية، وشكلاً من الإشباع الروحي المحض. أمّا إذا قُيّض لهذا النوع من الأدب حظّ طيّب فُتشر وانتشر، فإنّ مرّة ذلك هو جهود الكاتب وأصدقائه، وكاو شو كين Cao Xueqin وكافكا مثالان على هذا. ففي حياتهما ظلّت أعمالهما غير مطبوعة ولم يتمكنا من خلق تيّارات أدبية أو حيازة الشهرة. هذا الكاتبان عاشا على هامش المجتمع، وكرّسا نفسيهما لهذا النوع من النشاط الروحي الذي لم يكونا ياملان في أن يجلب لهما أيّ تعويض آنذاك. لم يطلبوا الموافقة الإجتماعية، بل استمتعوا بالكتابة، هكذا ببساطة».

«الأدب البارد أدب يتوجب أن يفرّ لكي يظلّ على قيد الحياة، وهو أدب يرفض أن يُخنق بأيدي المجتمع الباحث عن الخلاص الروحي. فإذا كان عرق ما غير قادر على التلاؤم مع هذا النوع من الأدب غير النفسي، فإنّ الأمر عندها لا يشكّل سوء حظّ للكاتب فحسب، بل مأساة للعرق أيضاً».

«وإنه لمن حسن حظّي أن اتسلّم، في حياتي، هذا الشرف الكبير من الأكاديمية السويدية، وساعدني في ذلك أصدقاء كثيرون من مختلف أرجاء العالم. وطوال سنوات عكفوا على ترجمة ونشر وتمثيل وتقييم كتاباتي، دون تفكير في المثوبة ودون اكتراث بالمصاعب. ولكنني لن أشكرهم فرداً فرداً لأنّ لائحة الأسماء طويلة».

«كذلك يتوجب عليّ أن أشكر فرنسا لأنها قبلتني. وفي فرنسا، التي توقّر الأدب والفنّ، توقرت لي ظروف الكتابة بحرية، وتمكّنت أيضاً من الفوز بالقراء والجمهور. ومن حسن حظّي أنني لست وحيداً، رغم أنّ الكتابة التي ألزمت نفسي بها تظلّ مسألة عزلة في المحصلة».

«أقول أيضاً إنّ الحياة ليست احتفالاً، وإنّ بقيّة العالم ليست آمنة كما هي الحال في السويد، التي لم تشهد أية حرب منذ ١٨٠ سنة. هذا القرن الجديد لن يكون محصّناً ضدّ الكوارث لمجرّد أنّ الكثير

منها وقع في القرن الماضي، فالذاكرة تنتقل مثل انتقال الجينات. للبشر عقول، ولكنهم ليسوا أذكاء بما يكفي لكي يتعلموا من الماضي. وحين تشتعل الضغينة في نفوس البشر فإنها عندئذ كفيلة بهتديد الوجود الإنساني ذاته.

والنوع الإنساني لا يتحرك بالضرورة في مراحل متعاقبة من تقدم إلى تقدم، وإنني هنا أشير إلى تاريخ الحضارة الإنسانية. فالتاريخ والحضارة لا يسيران جنباً إلى جنب. ومن ركود أوروبا العصور الوسطى إلى الإضمحلال والفوضى في الأزمنة الراهنة، وصولاً إلى حربين عالميتين في القرن العشرين، باتت طرائق قتل البشر معقدة أكثر فأكثر. والتقدم العلمي والتكنولوجي لا ينطوي بالضرورة على المزيد من تحضّر البشرية.

وإن استخدام بعض الـ «العلمية» Scientific-ism لتفسير التاريخ أو تأويله ضمن منظور قائم على جدلية زائفة، فشل في إيضاح السلوك الإنساني. والآن، بعد أن تقوّضت الحميّة الطوباوية والثورة المتواصلة في القرن الماضي، لا مناص من تكون إحساس بالمرارة في صفوف أولئك الذين نجوا بجلدهم.

إنكار الإنكار لا يسفر عن تأكيد بالضرورة. فالثورة لم تجلب أشياء جديدة لأنّ العالم الطوباوي الجديد قام على تدمير القديم. وهذه النظرية في الثورة الاجتماعية طُبقت على الأدب بطريقة مائلة، فحوّلت ما كان سابقاً ميدان إبداع إلى ساحة قتال شهدت إسقاط أناس سالفين وتقويض تراثات ثقافية. ولقد توجّب أن يبدأ كلّ شيء من نقطة الصفر، فكان التحديث أمراً حسناً، وجرى تفسير تاريخ الأدب على أنه انتفاضة دائمة أيضاً.

والكاتب لا يستطيع أن يلعب دور الإله الخالق، ولهذا فهو ليس بحاجة إلى تضخيم أنه عن طريق تخيّل نفسه في موقع الله. ذلك لن يجلب عليه الخلل النفسي ويحوّله إلى معتوه فحسب، بل سيحوّل العالم إلى هلوسة يكون فيها كلّ ما هو خارج جسد الكاتب مظهرًا، الأمر الذي يُفقد القدرة على مواصلة الحياة بالطبع. الآخرون هم الجحيم بوضوح، ويُفترض أنّ الأمر هكذا حين تفقد النفس السيطرة. ولا حاجة للقول إنه بذلك يحوّل نفسه إلى قربان من أجل المستقبل، ولسوف يطالب الآخرون بالإقتداء به والتضحية بانفسهم.

ولا حاجة للمهولة من أجل استكمال تاريخ القرن العشرين. فإذا سقط العالم من جديد في خرابٍ إطار إيديولوجي ما، فإنّ هذا التاريخ سيكون قد كُتب عبثاً، والأجيال التالية سوف تعدّله بما هو في صالحها.

الكاتب ليس نبيّاً أيضاً. الهام هو أن يعيش المرء في الحاضر، وأن يكفّ عن الإندخاد بالمظاهر، وأن يلقي الأوهام جانباً، وأن يحملق جيّداً في برهة الزمن هذه، وأن يمحّص النفس في الآن ذاته. فهذه النفس، بدورها، فوضى شاملة. ومن الخير للمرء أن يلتفت إلى نفسه أثناء مساعلته للعالم وللآخرين. الكارثة والطغيان يأتيان من الآخر عادة، ولكنّ جيّن الإنسان وهاجسه يمكن لهما في الغالب أن يكتفيا المعاناة ويخلقا المزيد من البلاء للآخرين..

هذه هي طبيعة سلوك البشرية، الطبيعة غير القابلة للتفسير. وأما معرفة الإنسان لنفسه فهي أكثر صعوبة. والأدب، ببساطة، هو تحديق الإنسان في نفسه، وفي أثناء قيامه بذلك يبدأ خيط الوعي في

النمو، ويلقي الضوء على هذه النفس.

والتهديم ليس وظيفة الأدب، فقيمته تكمن في اكتشاف وكشف ما هو معروف نادراً من حقيقة العالم الإنساني، ما هو معروف قليلاً، وما يُظن أنه معروف ولكنه في الحقيقة غير معروف على الوجه الأفضل. وقد يلوح هنا أن الحقيقة هي خاصية الأدب الأهم والأكثر رسوخاً.

لقد حلّ القرن الجديد لتوه. ولن أكثرث كثيراً بتبيان ما إذا كان جديداً حقاً، ولكن يبدو أن الثورة في الأدب والأدب الثوري، وحتى الإيديولوجيا، قد تكون بلغت نهاياتها. تلاشى ما ختم طيلة قرن من أمل في اليونان الاجتماعية، وحين سيتخلص الأدب من اصفاد هذه وسواها من أنماط الوضعية فإنه سيظل مع ذلك ملزماً بالعودة إلى معضلات الوجود الإنساني. غير أن معضلات الوجود الإنساني لم تتبدل إلا قليلاً، وسوف تظل موضوعاً أبدياً للأدب.

هذا عصر بلا نبوءات ولا وعود، وإعتقد أن الأمر خير هكذا. وينبغي على الكاتب أن يتوقف عن لعب دور النبي أو القاضي ما دام قد بُنيت أن الكثير من نبوءات القرن الماضي كانت زائفة، ولا حاجة لتصنيع خرافات جديدة حول المستقبل، فمن الأفضل كثيراً أن نتنظر ونرى. سيكون من الخير أيضاً أن ينتقل الكاتب إلى أداء دور الشاهد، المجاهد لتقديم الحقيقة.

ذلك لا يعني القول إن الأدب مماثل للوثيقة. والحق أن الشهادات الموثقة لا تحتوي إلا على القليل فقط من الحقائق، وغالباً ما يجري طمس أسباب وبراثن الحوادث. ولكن حين يتعامل الأدب مع الحقيقة فإن من الممكن كشف كامل السيرة دون ترك أي مخفي، بدءاً من ذهن المرء الداخلي وحتى تفصيل الحادثة. هذه القوة تظل موروثاً في الأدب ما دام الكاتب لا يتوقف عند تجميع الهراء بل يشرع في تصوير الظروف الحقيقية للوجود الإنساني.

وإن رُؤى الكاتب في التقاط الحقيقة هي التي تحدّد نوعية العمل، وألعاب الكلمات وتقنيات الكتابة لا يمكن أن تكون البدائل. وثمة في الواقع تعريفات عديدة للحقيقة، وكيفية التعامل معها تتفاوت بين شخص وآخر. ولكن يمكن بلمحة خاطفة أن يخمن المرء ما إذا كان الكاتب يجسّل الظاهرة الإنسانية أم يصورها على نحو مكتمل ونزيه. والنقد الأدبي المنتمي إلى إيديولوجيا معينة حول الحقيقة واللاحقية إلى تحليل دلالي Semantic، غير أن مثل هذه المبادئ والمعتقدات ذات مغزى ضئيل في الإبداع الأدبي.

وإن يواجه الكاتب الحقيقة أو لا يواجهها ليس مسألة منهجية إبداعية فحسب، بل هي وثيقة الارتباط بموقفه من الكتابة. وعندما يمسك الكاتب قلمه فإن الحقيقة تنطوي في الآن ذاته على بقاء المرء نزيهاً بعد ترك القلم. الحقيقة هنا ليست مجرد تقييم للأدب، بل هي في الوقت ذاته مدلول أخلاقي. ليس في واجبات الكاتب أن يعط، وإذا يجهّد لتصوير مختلف أنماط البشر في العالم فإن عليه أيضاً أن يكشف نفسه بكلّ أمانة، بما في ذلك تسليط الضوء على دوائله ذهني. ذلك لأن الحقيقة عند الكاتب تعادل الأخلاق، بل هي منتهى أخلاق الأدب.

وعلى يد الكاتب ذي الموقف الجاد من الكتابة يمكن للمختلقات الأدبية ذاتها أن تنهض على تصوير حقيقة الحياة الإنسانية، وتلك كانت قوة الحياة في أعمال وإصابت خلودها منذ أقدم العصور وحتى الحاضر. ذلك بالذات هو السبب في أن الزمن لن يبطل قيمة التراجيديات الإغريقية وقيمة

شكسبير.

الادب لا يصنع ببساطة مجسماً مصغراً عن العالم، ولكنه يخترق طبقات السطح فيصل عميقاً إلى اشتغالات الواقع الداخلية؛ إنه يزيل الأوهام الزائفة، وينظر إلى الوقائع العادية من ارتفاعات شاهقة، ويكشف الوقائع في شموليتها الثامنة ضمن منظور عريض.

وبالطبع يعتمد الادب على الخيلة أيضاً، لكن هذا النوع من السفر في الزمن لا يقوم على مجرد اجتماع عدد من المهملات. الخيلة المنفصلة عن الاحاسيس الحقيقية، مثلها مثل الإختلاقات المنفصلة عن اساس التجارب الحياتية، لا يمكن إلا أن تنتهي إلى التفاهة والضعف، والأعمال التي تفشل في إقناع الكاتب نفسه لن تكون قادرة على التأثير في القراء. والادب في الحقيقة لا يكتفي بالإتكاء على تجارب الحياة المألوفة، كما أن الكاتب ليس مقيداً بالتجارب التي عاشها شخصياً. فمن الممكن للأشياء التي شُعت وقيلت من خلال حامل لغوي ما، والأشياء ذات الصلة في أعمال أدبية لكاتب سابقين، يمكن لها أن تتحول إلى أحاسيس تخصّ أيّاً متاً. هذا أيضاً سحر لغة الادب.

وكما بالنسبة إلى النعمة أو النعمة، في وسع اللغة أن تهزّ الجسد والروح. وإن فنّ اللغة يكمن في قدرة صاحب الاحاسيس على تقديمها للآخرين، وهي ليست نظام علامات أو بنية دلالية لا تتطلب ما هو أكثر من البُنى النحوية. وإذا نُسي الكاتب الحي الذي يقف خلف اللغة، فإن الإستعراضات الدلالية يمكن أن تغلب بسهولة إلى العالَم نحوية.

اللغة ليست مجرد مفاهيم أو مجرد ناقل للمفاهيم، لأنها تنشّط الاحاسيس والحواس على قدم المساواة، وهذا هو السبب في أن العلامات والإشارات لا تستطيع الحلول محلّ اللغة التي ينطق بها البشر الأحياء. الإرادة، والبواعث، والنبرة، والمُشاعر وراء ما يقوله المرء لا يمكن التعبير عنها في وجهة نابعة عن طريق علم الدلالة والبلاغة وحدهما. على تضمينات اللغة الأدبية أن تُنطق وتُلفظ على لسان البشر الأحياء، وأن يُعبّر عنها تعبيراً تاماً. وهكذا فإنّ على الادب أن يستجيب للحواس السمعية إلى جانب خدمته كناقل للفكر. والحاجة الإنسانية للغة لا تنهض على بثّ المعنى فقط، لأنها في الآن ذاته إصغاء لوجود المرء وتأكيد لذلك الوجود.

وفي الإستعارة من ديكاوت يمكن القول عن الكاتب: أنا أقول، إذاً أنا موجود. بيد أنّ أنا الكاتب يمكن أن تكون الكاتب نفسه، ويمكن مساواتها مع السارد، أو تحويلها إلى شخصية في العمل. وكما في مقدور الذات - السارد أن يكون هو وانت، يمكن له أيضاً أن يكون ثلاثياً. وإنّ تثبيت ضمير متكلم أساسي هو نقطة الإنطلاق من أجل تصوير المدركات، هذه التي يمكن تختلف أنساق الحكاية أن تأخذ شكلها. والكاتب لا يعطي مدركاته شكلها الملموس إلا أثناء سيرورة بحثه عن منهج سردي خاص به.

وفي رواياتي أستخدام الضمائر بدل الشخصيات المعتادة، كما أستخدام ضمائر «أنا»، «أنت» و«هو» من أجل الإخبار عن الشخصية أو التركيز عليها. وتصوير الشخصية ذاتها عن طريق استخدام ضمائر مختلفة يخلق إحساساً بالمسافة. ولأنّ هذا يخلق أيضاً تمثّلين على خشبة ذات فضاء نفسي عريض، فإنني أيضاً أدخلت تبديل الضمائر في أعمالي المسرحية كذلك. وكتابة القصة أو المسرح لم ولن تبلغ نهايتها، ولا أساس للإعلانات المتهوّرة حول موت بعض أنواع

الأدب أو الفن.

واللغة، التي ولدت في فجر الحضارة الإنسانية هي، مثل الحياة، مملأ بالمعجزات ولا حدود البتة لطاقتها. وشغل الكاتب يبدأ من اكتشاف وتطوير المخزون الكامن في اللغة. الكاتب ليس الإله الخالق، وليس في وسعه اقتلاع العالم حتى إذا كان عتيقاً شائعاً. إنه أيضاً لا يستطيع تأسيس عالم مثالي جديد حتى إذا كان العالم الراهن عبثاً وعصياً على الفهم الإنساني. بيد أن الكاتب يستطيع، بالتاكيد، صياغة أقوال التجديد عن طريق الإضافة إلى ما قاله أناس سابقون، أو عن طريق البدء من النقطة التي توقف عندها أناس سابقون.

كان تهديم الأدب هو بلاغة «الثورة الثقافية». لكن الأدب لم يمُت، والكتاب لم يفتنوا. لكل كاتب مكانه على رف الكتب، وله من الحياة بمقدار ما يملك من قراء. وما من عزاء للكاتب أكبر من أن يترك كتاباً في خزانة الأدب الواسعة التي تملكها البشرية، يُقرأ ويُقرأ في ما سيأتي من أزمنة. والأدب لا يكتسب فاعليته وجاذبيته إلا حينما يكتبه الكاتب ويقراه القارئ. والزعم بالكتابة للمستقبل خداع للذات وللآخرين أيضاً، إلا إذا كان الإدعاء هو الباعث. الأدب للبشر الأحياء، وهو يشدد على حاضر الأحياء. إن هذا الحاضر الأبدى، وهذا التشديد على الحياة الفردية، هما السبب المطلق في أن الأدب هو الأدب. وأن تتحول كتابة الأدب إلى مهنة أمر بغض ناجم عن تقسيم العمل في المجتمع الحديث، وهو ثمرة مريرة بالنسبة إلي الكاتب.

تلك هي الحال في عصرنا الحاضر بصفة خاصة، حيث شدَّ اقتصاد السوق وبات الكتاب بضاعة مثل سواه. ثمة في كل مكان أسواق عشوائية هائلة، والمال لا يقتصر على اندثار الكتاب الأفراد، بل أيضاً على اندثار جمعيات وحرركات المدارس الأدبية الماضية. وإذا لم ينحن الكاتب أمام ضغوطات السوق، ورفض الإمتثال إلى صناعة المنتج الثقافي الذي يلبي أذواق الموضة السائدة، فإن عليه تدبر العيش بوسائل أخرى. الأدب ليس الكتاب الأكثر مبيعاً، وليس الكتاب الذي يتصدر اللائحة، والمؤلفون الذين يروج لهم التلفاز إنما يشتغلون بالدعاوة وليس بالكتابة. حرية الكتابة لا تُمنح ولا تُشتري، بل تنبع من حاجة داخلية عند الكاتب نفسه.

وبدلاً من القول إن بوذا في القلب، من الأفضل القول إن الحرية هي التي في القلب، وهي ببساطة تعتمد على ما إذا كان المرء سيستخدمها أولاً. فإذا بادل المرء الحرية بشيء آخر فإن الطير الذي هو الحرية سوف يطير بعيداً، وهذا هو ثمن الحرية.

الكاتب يكتب ما يكتبه دون اكتراث بالتعويض، ليس من أجل تأكيد ذاته فحسب، بل من أجل تحدي المجتمع أيضاً. وهذا التحدي ليس ادعاءً، والكاتب ليس بحاجة لتضخيم أنه عن طريق الإنقلاب إلى بطل أو محارب. الأبطال والحاربون يقاتلون من أجل إنجاز عمل عظيم أو من أجل تأسيس فعل جدير بالمكافأة، وهذان يقعان خارج نطاق الأعمال الأدبية. وإذا أراد الكاتب تحدي المجتمع فإن ذلك ينبغي أن يتم من خلال اللغة، وعليه الإعتماد على الشخصيات والأحداث في أعماله، وإلا فإنه لن يتسبب إلا في إيذاء الأدب. الأدب ليس الصراخ الغاضب، وليس في وسعه تحويل سخط الفرد إلى اتهام. ولن تصمد مشاعر الكاتب أمام خراب الأيام، ولن تعيش زمناً طويلاً، إلا حين يحتل عمله بمشاعره هو، بوصفه الفرد أولاً.

وهكذا فإن الأمر لا يدور فعلياً حول تحدي الكاتب للمجتمع، بل بالأحرى تحدي أعماله. والعمل الباقي يظل، بالطبع، رداً جتاراً على أزمة الكاتب ومجتمعه. وقد يتلاشى ضجيج الكاتب وتضمحل أفعاله، ولكن ما دام هنالك قراء فإن صوته في كتاباته سوف يواصل التردد. ومثل هذا التحدي لا يغير المجتمع في الواقع. الأمر في النهاية يخص فرداً يطمح إلى السمو بتقييدات البيئة الاجتماعية واتخاذ موقف غير واضح أبداً. لكن هذا الموقف ليس مألوفاً بأي حال من الأحوال، لأنه موقف يستمده اعتزازه من كونه إنسانياً. ولسوف يكون من المحزن أن يظل التاريخ الإنساني خاضعاً لمناورات القوانين المجعولة، وأن يتحرك كالأعمى في عوالم الراهن بحيث يصبح من المتعذر سماع مختلف أصوات الأفراد. الأدب يملأ فراغات التاريخ بهذا المعنى تحديداً. وحين لا تُستخدم قوانين التاريخ الكبرى في تفسير شأن البشرية، فإن من الممكن عندئذ أن يترك الأفراد أصواتهم وراءهم. التاريخ ليس كل ما تملكه البشرية، فهناك أيضاً تراث الأدب. والناس في الأدب اختراعات، لكنهم يحتفظون بيقين جوهري في قيمة ذواتهم الخاصة.

حضرات السادة الأعضاء الأكاديمية، أشكر لكم منحكم جائزة نوبل للأدب إلى أدب لا يهادن في استقلاليتها، لا يتفادى العذاب الإنساني ولا القمع السياسي، ولكنه في الآن ذاته لا يخدم السياسة. أشركم جميعاً على منح هذه الجائزة الأرفع صيتاً إلى أعمال بعيدة تماماً عن كتابات السوق، أعمال أثارت القليل فقط من الإنتباه، ولكنها في الواقع جديرة بالقراءة. كذلك أشكر الأكاديمية السويدية التي أتاحت لي اعتلاء هذه المنصة والحديث على مسمع من العالم بأسره. صوت ضعيف لفرد هش يستحق بالكاد الإصغاء إليه، ولا يُسمع البتة في وسائل الإعلام، سُمح له اليوم بمخاطبة العالم. واعتقد أن هذا بالذات هو معنى جائزة نوبل، وأشكر الجميع على منحي فرصة الكلام.

## غاو شينغجيان جبل الرود

### الفصل (١)

الباص القديم سقط متاع المدينة. بعد الإرتجاج داخله منذ مطلع الصباح وطيلة اثنتي عشرة ساعة على الطريق الرئيسية المزدحمة، تصل إلى هذه المقاطعة الجبلية في الجنوب. وفي محطة الباص الملاى ببقايا أغلفة الكراميل المثلج ونفايات قصب السكر، تقف حاملاً محفظة الكتب وحقيبة وتتطلع حولك قليلاً.

الناس ينزلون من الباص ويقطعون الشارع، الرجال يحدودبون تحت الأكياس والنساء يحملن الأطفال. وثمة حشد من الشبان، لا تعيقهم أكياس ولا سلال، يسيرون بأيدٍ خالية. يخرجون بذور عبّاد الشمس من جيوبهم، يلقون بها دفعة واحدة في أفواههم، ثم يلفظون القشور. وبحذق وطققة عالية تؤكل النوى. التخفف وخلو البال مرض مستوطن في المكان. إنهم من أهل البلد والحياة

جعلتهم هكذا، وهم أقاموا هنا على امتداد أجيال عديدة، ولن تكون بحاجة إلى الذهاب إلى أي مكان آخر من أجل البحث عنهم. وأبكر من غادر المكان بينهم، حيث لم تكن محطة الباص هذه موجودة بالطبع ولم تتوفر أي باصات ربما، سافر عن طريق النهر مستخدماً قوارب العريش السوداء أو عن طريق البر في عربات مستأجرة أو سيراً على الأقدام إذا لم يتوفر لهم المال. وفي هذه الأيام، وما داموا قادرين بعد على السفر، تراهم يتدفقون عائدين إلى البلد، حتي من الطرف الآخر للباسيفيكي، قادمين في سيارات أو عربات مكيفة. يسارعون إلى العودة لأنهم أخذوا يطعنون في السن، الغني والشهير وذلك الذي لا يتميز بشيء خاص. وفي نهاية الأمر، من ذا الذي لا يحب أرض الأسلاف؟ لكنهم لا يعتزمون البقاء بالطبع، ولهذا تراهم يتبحرون وراحة البال بادية على وجوههم، يتحدثون ويضحكون بصوت عالٍ، ويطلقون عبارات التحيب والولع بالمكان. وحين يلتقي الأصدقاء هنا فإنهم لا يكتفون بإمضاء أو مصافحة حسب طقس المدينة الذي لا معنى له، بل يهتفون باسم الشخص ويقرصونه من الكتف. العناق شائع أيضاً ولكن ليس عند النساء، اللواتي يمتنعن عنه. وقريباً من الحوض الإسمنتي حيث تُغسل الباصات، تماسكت امرأتان بالأيدي وانخرطتا في تجاذب أطراف الحديث. النساء هنا يملكن أصواتاً بدعية وليس في وسعك أن تتجنب اللقاء نظرة ثانية. الأولى التي تدير ظهرها لك كانت تضع غطاء رأس مطبوعاً باللون النيلي. وهذا النوع من أغطية الرأس، وكيفية عقده، يعود في القدم إلى أجيال عديدة ولكنه نادراً ما يُرى هذه الأيام. تجد نفسك سائراً صوبهما. غطاء الرأس معقود أسفل الذقن وطرفاه شاخصان إلى أعلى. إنها امرأة ذات محباً جميل. وملامحها رقيقة، مثل جسدها النحيل. تمر بالقرب منهما. كانتا تواصلان الإمساك بالأيدي، الأيدي الخشنة ذات الأصابع القوية. ولعلهما عروسان جديدتان عادتتا لمشاهدة الأقارب والأصحاب، أو لزيارة الأهل. وفي هذه الأصمغ تعني كلمة «شيفو» كتلة المرء، ولكن استخدام الكلمة على منوال ما يفعل الشماليون للإشارة إلى أية امرأة شابة متزوجة امر قد يعرض القائل لسوء الفهم وقد يجلب عليه الغضب. ومن ناحية أخرى تطلق المرأة المتزوجة على زوجها اسم «لاوغونغ»، لكن مفردتك «لاوغونغ» ومفردتي «لاوغونغ» هما قيد الاستخدام أيضاً. الناس هنا يتحدثون بطريقة فريدة في التنغيم رغم أنهم يتحدثون من الأباطرة الكبار أنفسهم وينتمون إلى ذات الثقافة والعرق.

وهكذا فإنك أنت نفسك لا تستطيع تبيان السبب الذي جاء بك إلى هنا. لقد تصادف أنك كنت في قطار وذكر ذلك الشخص اسم مكان يدعى «لينغشان». كان يجلس قبالتك وكان كويك محاذياً لكويه. وكلما تحرك القطار كان غطاء الكويين يصطدمان ببعضهما ويطلقان. ولو أن الغطاءين طقطقا كل الوقت أو طقطقا ثم توقفا، لانتهى الأمر عند هذا الحد. ولكن كلما عزمت وعزم هو على فصل الكويين كانت الطقطقة تتوقف، وكلما أشحتما بالبصر كانت الطقطقة تتعالى من جديد. مائة مائة ومددت يدك، لكن الطقطقة توقفت. ضحككنا معاً في اللحظة ذاتها، فصلكنا الكويين، وانخرطتما في الحديث. تسالها أنت إلى أين يذهب؟

«لينغشان».

«ماذا؟»

«لينغشان، لينغ تعني النفس أو الروح، وشان تعني الجبل». لقد سافرت إلى العديد من الأماكن، وزرت العديد من الجبال الشهيرة، ولكنك لم تسمع أبداً بهذا المكان.

صاحبك الذي قبالتك أغمض عينيه وأغفى. وإنك مثل كل الناس لا تستطيع مقاومة الفضول وتريد بالطبع أن تعرف أي الأماكن المشهورة فانتك في رحلاتك. كذلك فإنك تحب إتمام الأمور على أفضل وجه، ومن المزعج وجود مكان لم تسمع به أبداً. تسأله أين تقع «لينغشان».

«عند منابع نهر يو» يقول فأتحمأ عينيه. لا تعرف «نهر يو» هذا أيضاً، لكنك تتحرج في السؤال وتوميء علي نحو غامض يوحي بما معناه: «صحيح، شكراً» أو «أوه، أعرف المكان». ذلك يشبع رغبتك في التفوق ولكنه لا يشبع فضولك. وبعد هنيهة تسأل كيف الوصول إلى المكان وإلى طريق الجبل.

«خذ القطار إلى ووتزيهين، ثم بالقرب صعوداً إلى أعلى نهر يو». «ما الذي يتوفر هناك؟ مناظر طبيعية؟ معابد؟ مواقع تاريخية؟» تسأل، محاولاً اصطناع اللامبالاة. «المكان كله برزبة عذراء».

«غابات قديمة»؟

«طبعاً، ولكن ليس الغابات وحدها»

«ماذا عن الإنسان البري؟» تسأل مازحاً.

يضحك، ولكن ليس بسخرية، ولا يبدو أنه يمازح نفسه، الأمر الذي يثير فضولك أكثر. ينبغي أن تعرف المزيد عنه.

«هل أنت أخصائي في البيئـة؟ عالم أحياء؟ عالم إنسانـة؟ عالم آثار؟»

يهز رأسه نافياً في كل مرة، ثم يقول:

«أنا أكثر اهتماماً بالبشر الأحياء».

«أنت إذا تقوم بأبحاث حول العادات الشعبية؟ أنت عالم اجتماع؟ عالم أعراق؟ صحفي ربما؟ مغامر؟»

«أنا هاوٍ في كل هذه المهن».

تشرعان في الضحك معاً.

«أنا خبير هاوٍ في كل هذه المهن»!

الضحك يجلب عليكما البهجة. يشعل سيغارة ولا يتوقف عن إخبارك بأعاجيب لينغشان. بعدئذ، وبناء على طلبك، يمزق عليه سفاثره الفارغة ويرسم لك خريطة الطريق إلى لينغشان.

في الشمال كان الحريف قد حلّ لتزه. أما هنا فإن حرارة الصيف لم تخمد تماماً بعد. والجو ما يزال حاراً قبيل ساعة الغروب، والعرق أخذ يتصبب على ظهرك. تغادر المحطة لكي تستكشف المكان. لا شيء في الجوار سوى نزل صغير في الطرف الآخر من الطريق. إنه بناء من الطراز العتيق ذو واجهة خشبية وطابق أعلى. في الطابق الأعلى يصدر خشب الأرضية صريراً مزعجاً والأسوأ منه السخام

الذي يغطي الوسادة وفرشة النوم. ولكي تغمسل يتوجب أن تنتظر حلول الظلام لكي تتمشى وتصب الماء على نفسك في الباحة الرطبة الضيقة. هذا المكان موقف للمباعة المتجولين وللصناع من أهل القرية.

ثمة وقت طويل قبل حلول الظلام، ولهذا أمامك زمن كافٍ للعثور على مكان نظيف. تقطع الشارع حاملاً محفظة الظهر لكي تتفرّج قليلاً على البلدة الصغيرة، أملاً في العثور على إشارة ما، لوحة إعلان أو ملصق، أو مجرد اسم «لينغشان» يفيدك أنك تسير في الدرب الصحيح ولم تتخذ حين قرّرت القيام بهذه النزهة. تنظر في كلّ مكان فلا تجد شيئاً. ولم يكن هنالك سواح من أمثالك بين الركاب الذين هبطوا معك من الباص. وبالطبع، أنت نفسك لست بالسائح الحقيقي، والامر لا يعتدّ ما ترتديه: حذاء رياضي متين ظاهر للعيان، ومحفظة ظهر ذات سيور، ولا أحد يرتدي ما ترتديه. وبالطبع، هذا أيضاً ليس المكان السياحي الذي يرتاده المتزجون حديثاً والمتقاعدون. تلك أماكن بئلتها السياحة، وثمة عربات مصطقة في كلّ مكان والحرايط السياحية متوقفة لمن يشتري. قبعات سياحية، قمصان تي-شيرت سياحية، ثياب داخلية، مناديل تحمل اسم المكان وتمازج المحالّ ومصنّات البيع، واسم المكان يُستخدم في أسماء كلّ الأصناف التي «لا تُباع إلا بالعملة الأجنبية»، وثمة فنادق للجانب، وشقق مفروشة، ومصنّات علاج، فضلاً عن الفنادق الصغيرة التي تتنافس في اجتذاب الزبائن. لم تاتِ لكي تتمتع نفسك في واحد من هذه الأماكن على الجانب المشمس من الجبل حيث يحتشد الناس لا شيء إلا لكي يتدافعوا بالمناكب، ولكي يضيفوا المزيد إلى قماعة قشور الليمون والفاكهة، وزجاجات المشروبات الخفيفة، والغُلب، والكروتون، ولعائف الصندويش، وأعقاب السفائر. ولن يطول الأمر حتى يزدهر هذا المكان أيضاً، ولكنك تزوره اليوم قبل نصب السرادق المبهرج وجلب المراسلين الصحفيين وكاميراتهم، وقبل أن يتوافد المشاهير بدبابيس الزينة التي تحمل أسماءهم منقوشة بخطّ فتي جميل. لا تستطيع منع نفسك من الإحساس بالرضى عن الذات، ولكنّ القلق يعتريك مع ذلك. لا إشارة البتة على أيّ شيء ينفع السواح هنا، فهل ارتكبت حماقة؟ أنت تسير وليس في حوزتك سوى خريطة مرسومة على علبة سفائر في جيب قميصك، فماذا لو انّ الخبير الهواوي الذي قابلته في القطار كان مثلك قد سمع بالمكان في رحلاته ولم يزره أبداً؟ كيف تعرف أنه لم يخترع الأمر كله في الأساس؟ أنت لم تصادف المكان مذكوراً في أيّ كتاب رحلات، وهو غير مدرج في أدلة السياحة ذات المعلومات الاحداث عهداً. ومن السهل، بالطبع، العثور على أماكن مثل «لينغاتي»، «لينغكي»، «لينغيان»، أو حتى «لينغشان» في خرائط الضواحي وأنت تعرف حقّ المعرفة أنّ «لينغشان» تظهر في كتب التاريخ والكلاسيكيات، وتظهر كذلك في أعمال تعود بتاريخها إلى عهد الكتاب الشاماني العتيق حول الجبال والبحار، وفي النشرة الجغرافية القديمة عن المياه. وفي لينغشان قام بوذا بإضاءة «ماهاكاشيابا البجل». لست غيبياً، فاستخدم عقلك إذاً، واعتزّ أولاً على المكان المدوّن على علبة السفائر، وتزبّهين، لأنك هكذا سوف تصل إلى لينغشان. تعود إلى محطة الباص وتدخل غرفة الإنتظار. المكان الأكثر ازدحاماً في هذه البلدة الصغيرة هو الآن مهجور تماماً. شبّاك التذاكر وشبّاك الطرود مغلقان من الداخل، ولهذا لا فائدة تُرجى من طرقهما. لا مكان يمكن أن

تقصده للإستفسار، ولهذا ليس أمامك سوى استعراض مواقف الباص فوق شباك التذاكر: « قرية جانغ»، « الشقة الرملية»، « معمل الإسمنت»، « الكوخ العتيق»، « الحصان الذهبي»، « الحصاد الطيب»، « المياه الفائضة»، « خليج التئين»، « غور براعم الدراق»... الأسماء تحسن تدريجياً، لكن المكان الذي تريده غير موجود. هذه مجرد بلدة صغيرة ولكن ثمة الكثير من الطرق والقليل فقط من الباصات. الطريق الأكثر ازدحاماً، بخمسة أو ستة باصات يومياً، هو طريق معمل الإسمنت الذي لا يمكن أن يكون طريقاً سياحياً بالتأكيد. والطريق الأقل في عدد الباصات، باص واحد يومياً، هو ذلك الذي يذهب إلى أبعد جهة، وتبين لك أن وتزيهين هي الموقف الأخير. لا خصوصية في الاسم، وهو مثل اسم أي مكان آخر، ولا سحر يكتنفه. ومع ذلك لاح أنك عثرت على طرف أول في متاحة لا أمل منها، وإذا لم يكن ما تشعر به هو الجبور الصوفي فإنك على الأقل تحسن بالارتياح. تحتاج إلى شراء تذكرة في الصباح قبل ساعة من المغادرة، وتعرف من التجربة أن الفوز بمقعد في باصات جبلية مثل هذه، تنطلق مرة يومياً، يقتضي خوض معركة حقيقية. فإذا لم تكن جاهزاً للمعركة فإنه يتعين عليك الحضور مبكراً غداً للوقوف في الصف. أما الآن فإن لديك الكثير من الوقت، رغم أن محفظتك المحمولة على الظهر أخذت تزعجك. تسير متمهلاً على الطريق، تمر بك الشاحنات المحملة بالأخشاب، مطلقة أبواقها الزاقة. الضجيج داخل البلدة أسوأ لأن الشاحنات، وبعضها يجر مقطورات، تطلق أبواقها وبعد السائقون أيديهم خارج النوافذ للقرع على جوانب الباصات وحث السابلة على إخلاء الدرب. الأبنية العتيقة على جانبي الطريق تنتصب شاخصة متوهجة، حيث الطوابق السفلية للأعمال، ومن الطوابق العلوية يتدلى غسيل منوع، شراشف، وحمامات نهود، وثياب داخلية، وسراويل مفتوحة، وأغطية أسرة شبيهة بأعلام الأمم جمعاء، تخفق كلها هكذا وسط الضجيج والغبار وحركة السير. أعمدة التلغراف الإسمنتية الممتدة على طول الطريق مغطاة حتى مستوى البصر بكل أنواع الملصقات. ويلفت انتباهك أحدها، ذاك الذي يعلن عن علاج رائحة الجسم. ليس لأنك تعاني من رائحة الجسم، بل بسبب اللغة الفارغة والكلمات المحصورة بين هلالين بعد عبارة «رائحة الجسد»: رائحة الجسد (التي تُعرف أيضاً باسم أريج الخالدين) وضع مقرف يفرض رواثع كريهة مثيرة للغثيان. وهي غالباً تؤثر على العلاقات الاجتماعية، ويمكن أن تعيق أهم أحداث الحياة: الزواج. إنها ليست في صالح الشبان والشابات في مقابلات الترشيح للوظائف، مما يتسبب في الكثير من المعاناة والضنك. ونحن نستطيع تخليصكم على الفور من رائحة الجسد بنسبة نجاح تصل إلى ٩٧,٥٣ في المئة، وذلك باستخدام طريقة علاج جديدة تماماً. فمن أجل المتعة في الحياة والسعادة في المستقبل نرحب بمجيئكم إلينا لتخليص أجسامكم من روائحها! تصل بعد ذلك إلى جسر حجري: ما من رائحة جسد هنا، بل التيسيم المنعش البارد. سطح الجسر الممتد على النهر العريض مطلي بالقار، لكن نقوش القروء على أحجاره العتيقة تشهد على تاريخ طويل. تنكبي على الحواجز الإسمنتية وتستعرض البلدة المخاذية للجسر. على ضفتي النهر تتراكب أسطح البيوت مثل حراشف السمك، وتمتد في الأفق إلى ما لا نهاية. الوادي ينفث بين جبلين حيث عنقايد الخيزران الأخضر تتخلل المناطق العليا المؤلفة من حقول أرز ذهبية. النهر أزرق وصافٍ، يقطر بدعةً نحو الضفاف الرملية، ثم يصبح أخضر غامقاً وعميقاً

حين يلامس بوابات الغرائث التي تقسم لجة التيار. وعلى مقربة من حدة الجسر تزيد المياه المندفعة وتصطبغ، ويتصاعد الزبد الأبيض من الدوامات. السلة الحجرية المرتفعة بعلو عشرة أمتار تحمل علامات منسوب المياه: لعل الخطوط الصفراء المائلة إلى الرمادي كانت تلك التي تركتها فيضانات هذا الصيف. ايكون هذا هو «نهر يو»؟ هل يتدقق هابطاً من لينغشان؟

الشمس توشك على المغيب. القرص البرتقالي اللامع مشبع بالضياء دونما سطوع. تحلق في البعيد صوب الطبقات الضبابية للقمم المثلمة حيث يلتقي طرفا الوادي. هذه الصورة السوداء المنذرة بالسوء تقضم الأطراف السفلى من الشمس المتقدة التي بدا وكأنها تدور. تنقلب الشمس إلى اللون الأحمر الغامق، وتصبح أكثر طلاوة، وترشق الأخيلة الذهبية على كامل طيات النهر: الأزرق الغامق في المياه ينصهر في ضياء الشمس اللامع، يخفق وينبض. القرص الأحمر يأخذ في الإنحدار إلى بطن الوادي، يصبح أكثر سكوناً، يصبح جماله باعناً على الرهبة، مكتوم الصوت. تصغي أنت إلى بضعة أصوات، مراوغة محيرة، تتردد في أعماق قلبك، ثم تندفع خارجة نحو الشمس التي بدت وكأنها تستند على أطراف أصابعها، تتعثر، ثم تغرق في ظلال الجبال السوداء، مطلقة حفة ألوان متألقة سرعان ما تتبعثر في جوف السماء. تهب ريح مسائية تصخب عند أذنك، وتندفع سيارة مازة، مطلقة كالعادة بوقها الذي يصم الأذان. تعبر الجسر وتبصر حجراً جديداً نُقشت عليه كتابة باللون الأحمر: «جسر يونغنينغ». شُيد في السنة الثالثة من ولاية كايوان المنتمي إلى سلالة سونغ، ورُم في العام ١٩٦٢. وهذا الحجر وُضع في العام ١٩٨٣. ولا ريب أنه يدشن بدء صناعة السياحة في هذه الأرجاء.

كشكان لبيع الأطعمة ينتصبان عند نهاية الجسر. في الأول الذي على اليسرة تاكل زبدية من خُثار اللوبياء، النوع الناعم طيب المذاق بكل مواضعه السليمة. الباعة الجوالون اعتادوا بيعه في الشوارع والأزقة؛ ثم اختفى تماماً لبعض الوقت، لكنه اليوم عاد من جديد على هيئة تجارة عائلية. في الكشك على اليمين تاكل الثنتين من فطائر الكُرْاث اللذيذة المحلاة المرشوشة بالسّمسم، ساخنة خارجة للتوّ من الفرن. وبعدئذ، ولم تعد تتذكر في أيّ الكشكين، تاكل زبدية من زلابية يوانشياو، مشوية بنبيذ الارز: إنها بحجم لؤلؤة كبيرة. وبالطبع، لست في الطعام أكاديمياً مثل السيد «ما الثاني» الذي جال البحيرة الغربية ولكنك مع ذلك تمتلك ذائقة مكينة. تتلذذ بطعام أسلافك هذا وتصغي إلى ثرثرة الزبائن مع الباعة. انهم من أهل البلد إجمالاً، وهم يعرفون بعضهم البعض. تحاول استخدام اللهجة المحلية المعسولة لكي تتوَدّد إليهم، لكي تكون جزءاً منهم. لقد عشت في المدينة زمناً طويلاً وأنت بحاجة إلى الإحساس بأنّ لك بلدة مسقط رأس. تريد بلدة مسقط رأس لكي تكون قادراً على العودة إلى طفولتك واسترجاع الذكريات التي ضاعت منذ زمن بعيد.

وعلى هذا الجانب من الجسر يحدث أن تعثر على نزل يقع في شارع مرصوف بالحجر. الأرضيات الخشبية كُنست وتبدو نظيفة كافية. تأخذ غرفة صغيرة مفردة تحتوي على سرير خشبي مغطى بحصير الخيزران. البطانية القطنية ذات لون رمادي يثير الرغبة، فهي إما لم تُغسل جيداً أو أنّ هذا هو لونها الأصلي. تلقي جانباً الوسادة الدهنية الموضوعة تحت حصير الخيزران، ومن حسن الحظ أنّ الجوّ

حارٍ بحيث تستطيع الإستغناء عن الشرشف . ما تحتاج إليه الآن هو إفراغ متاعك الذي بات ثقيلاً تماماً الآن، وغسل الغبار والعرق، وتسطيح جسمك على الفراش . ثمة صراخ وصياح في الغرفة المجاورة . إنهم يقامرون وفي سمك سماع أصوات التقاط ورمي أوراق اللعب . حازم من الخشب يفصلك عنهم، ومن خلال الثقوب في الورق الذي يغطي الألواح تستطيع تمييز الأشكال الزائفة لرجال عراة الصدور . لست تعباً إلى حدٍ يجعلك تسقط نائماً سريعاً هكذا . تنقر على الجدار، فيتعالى الصراخ على الفور . إنهم لا يصرخون عليك بل فيما بينهم : هنالك دائماً رابحون وخاسرون والخاسر يحاول التملص من السداد . إنهم يقامرون علانية في النزول رغم لافتة تحذير « مكتب الأمن العام » المصقفة على الجدار والتي تحظر القمار والبقاء، وها أنت تقرر التحقق مما إذا كان للقانون أيّ مفعول . ترتدي بعض الثياب، تسير في المشى وتقرع الباب الموارب . قرعك لا يسبب أيّ فارق، فهم يواصلون الصراخ والصياح في الداخل ولا أحد يعبأ بشيء . وهكذا تدفع الباب وتدخل . الرجال الأربعة الجالسون على الفراش في منتصف الغرفة يلتفتون بأبصارهم صوبك . لكنك أنت من يُصاب بالصدمة، وليسوا هم . فالرجال هؤلاء كانوا قد الصقوا قصاصات ورق صغيرة علي وجوههم، وجباههم، وشفاههم، وأنوفهم، وخدودهم، فبدأ منظرهم قبيحاً ومضحكاً . يحملقون فيك ولا يضحكون . أنت الذي اقتحمت، والإنزعاج واضح على وجوههم .

« أوه، أنتم تلعبون الورق »، تقول، مصطنعاً نبرة اعتذارية .

يواصلون اللعب . أوراق اللعب الطويلة ذات علامات حمراء وسوداء من طراز المهاجونغ، وثمة « بوابة الفردوس » و « سجن الجحيم » . والفائز يقاصص الخاسر عن طريق تمزيق قطعة من أوراق الصحف ولصقها في موقع محدد . وسواء أكان هذا مزحة، أم تنفيساً عن الإحتقان، أم وسيلة للحساب، أمر يتفق عليه المقامرون أنفسهم وما من شيء يتيح للدخلاء أن يتكهنوا بما يجري حقاً .

تسحب والحال هذه، وتعود إلى غرفتك، تستلقي ثانية، وترى كتلة ضخمة من البقع السوداء حول مصباح الضوء . ملايين البعوض تنتظر انطفاء الضوء لكي تهبط للتغذي على دمك . ترخي الناموسية سريعاً، وها أنت منحصر في فضاء مخروطي ضيق، تعلوه طارة من الخيزران . مضى زمن طويل منذ أن رقدت تحت طارة مثل هذه، وتجاوزت منذ زمن طويل العمر الذي يسمح لك بتأمل الطارة والاستغراق في أحلام اليقظة . اليوم لا تعرف ما سيحلبه الغد من رضوض . تعلمت من خلال التجربة كل ما تحتاج إلى معرفته . ما الذي تبحث عنه، إذاً؟ حين يبلغ المرء منتصف العمر، ألا يتوجب عليه البحث عن وجود آمن ومستقر، العثور على وظيفة ليست شديدة التطلّب، وملازمة مرتبة متوسطة، والانتقال إلى طور الزوج والأب، وتشديد بيت مريح، ووضع بعض النقود في المصرف وإضافة المزيد إليها كل شهر بحيث يتوفر شيء للشيوخوخة وشيء للجيل القادم؟

## الفصل (٢)

وكان أن شهدت أثر حضارة إنسانية مبكرة، عبادة النار، في منطقة كيانغ منتصف المسافة إلى جبل كيونغليا، في المناطق الحدودية بين فجود كينغهاي التبتية وحوض سيشوان . النار، جالبة الحضارة،

عندها أسلاف البشر الأوائل في كل مكان. مقدسة هي. وهو جالس قبالة النار يحتسي الشراب من الزيدية. يغمس إصبعاً قبل كل رشفة، ثم ينفذ بضعة قطرات على الفحم الذي يمز ويصخب ويرسل شرارات زرقاء. عندها، عندها فقط، أخذت أدرك أنني حقيقي.

يقول: «هذه من أجل إله قرن الطبخ، فبفضله ناكل ونشرب».

ضوء النار الراقص يلتصق على وجنتيه النحيلتين، وعلى أرنبه أنفه العالي، وعلى عظام وجنتيه. يخبرني أنه من رعايا كيانغ، من قرية غينغادا في أسفل الجبل. ولا أستطيع أن أسأله عن الجان والأرواح مباشرة، ولهذا أقول له إنني هنا من أجل القيام بالبحاث حول الأغنيات الشعبية في الجبل. ألا يزال سادة الأغنية الشعبية وراقصوها على قيد الحياة؟ يقول إنه واحد منهم. الرجال والنساء اعتادوا تشكيل حلقة حول النار، والرقص حتى انبلاج الفجر، لكن العادة هذه مُنعت فيما بعد.

«لماذا؟» أعرف السبب حق المعرفة، ولكنني أسأل. ها أنني أباعد عن النزاهة من جديد.

«بسبب الثورة الثقافية. قالوا إن الأغنيات كانت قدرة، فانتقلنا إلى غناء تعاليم ماو تسي تونغ بدلاً عنها».

«وماذا بعد هذا؟» ألحقت في السؤال. باتت هذه عادة لدي.

«لم يعد أحد يغني تلك الأغنيات. الناس ما زالوا يمارسون الرقص، وقلة قليلة من الشبان هي التي تفعل ذلك، وأنا أعلم الرقص لبعض هؤلاء».

أطلب منه أن يريني مثلاً. وبلا تردد ينتصب على قدميه ويشرع في الرقص والغناء. صوته خفيض وغني، وهو صاحب صوت حقاً. أنا متأكد أنه من كيانغ، رغم أن الشرطة المسؤولة عن تسجيل السكان تصرّ على أنه ليس منهم. يعتقدون أن كل من يزعم الإنتماء إلى التبت أو الكيانغ إنما يحاول التهرب من قوانين تحديد النسل، من أجل زيادة النسل.

يغني أغنية تلو أخرى. يقول إنه شخص محب للمرح. أصدقه. وحين أنهى عمله كرئيس للمقرية، عاد إلى سابق عهده كواحد من أهل الجبل، عجوز جبلي يحب المرح، ولكنه للأسف تجاوز سن القصص الغرامية. هو يحفظ الرُقى أيضاً، تلك التي يستخدمها الصيادون حين يقصدون الجبل. إنها تُسمّى السحر الأسود الجبلي، أو التعاويذ، وضميره لا يوجهه إذ يستخدمها. يؤمن صادقاً أنها قادرة على استدراج الحيوانات البرية إلى الشراك والفخاخ. ولكنها لا تُستخدم مع الحيوانات وحدها، بل من أجل الإنتقام من الكائنات البشرية.

أيضاً. وضحية السحر الأسود الجبلي لن يفلح في العثور على طريق الخروج من الجبل. تلك التعاويذ أشبه بـ «حيطان الجان» التي سمعتُ عنها في طفولتي: حين يسافر المرء ليلاً في الجبال، فإن جداراً، أو جرفاً، أو نهراً يظهر قبالة تماماً، بحيث لا يستطيع المضي أبعد. وإذا لم تُكسر التعويذة فإن قدسي الشخص لا تتقدمان إلى الامام حتى إذا واصل المشي، لأنه يظلّ لابثاً في المكان الذي انطلق منه، ولن يكتشف إلا عند انبلاج الفجر أنه إما كان يدور في حلقات. ليس هذا أسوأ العواقب، فالأسوأ أن يُساق المرء إلى زقاق أعمى، الأمر الذي يعني الموت الأكيد.

يبدن بتعاويذ شتى. ليست بطبيعة ورخية كما هي حاله عندما يغني، ولكنها أقرب إلى نان. نان

نا -نا ضمن لحن متسارع. لا أستطيع فهمها كلها، لكنني أستشعر الجاذبية الصوفية في الكلمات، والمناخ الشيطاني المربع يتخلل الحجرة التي أسودت من الدخان. عيناه تومضان لرأى السنة اللهب تلعق القدر الحديدي الذي يُسلق فيه لحم الضأن. ذلك كله حقيقي، شديد الواقعية.

وبينما تواصل أنت البحث عن الطريق إلى لينغشان، أتجول أنا على امتداد نهر اليانغتسي بإحداً عن هذا النوع من الواقع. لقد مرت لنوبي بازمة، وبعدها زاد في الطين بلة أن الطبيب أخطأ في تشخيص المرض حين اعتبره سرطان رئة. كان الموت يمازحني، وكنت وقد نجوت من حائط الجان أشعر بهجة سرية. الحياة عندي ما تزال تنطوي على نظارة رائعة. وكان عليّ، منذ زمن طويل، أن أغادر هذه الأرجاء الملوثة، وأن أعود إلى الطبيعة باحثاً عن الحياة الأصلية.

وفي تلك الأرجاء الملوثة خضعت لتعليم يفيد أن الحياة هي منبع الأدب، وأن على الأدب أن يكون وفيّاً للحياة، وفيّاً للحياة الحقيقية. خطأي كان أنني غربت نفسي عن الحياة، وانتهيت إلى إدارة ظهري للحياة الحقيقية. غير أن الحياة الحقيقية ليست شبيهة بتجليات الحياة. الحياة الحقيقية، أو جوهر الحياة الأساسي، ينبغي أن يكون الحياة لا تجليات الحياة. لقد سرّت عكس الحياة الحقيقية لأنني ببساطة كنت أدورن تجليات الحياة، ولهذا فإنني بالطبع لم أكن قادراً على تصوير الحياة بدقة، ولم أجمع في النهاية إلا بتشويه الواقع.

ولست أعرف ما إذا كنت أسير على درب القويم، ولكنني في كل حال خلّصت نفسي من هياج عالم الأدب ونجوت كذلك من الحجرة العابقة بالدخان. الكتب المكثّسة في كل أرجاء الحجرة كانت طاغية وخائفة. كانت تعرض كل أنواع الحقائق، من الحقائق التاريخية وحتى الحقائق حول كيفية أن يكون المرء آدمياً. لم أكن أدرك حكمة توفير كل هذه الحقائق، لكنني رغم ذلك علقت في شبكة تلك الحقائق وكنت أقاوم بلا أمل مثل حشرة عالقة في شبكة عنكبوت. ومن حسن الحظ أن الطبيب الذي أعطى التشخيص الخاطئ أنقذ حياتي. كان صريحاً للغاية وجعلني أقارن بين صورتي الأشعة المتقطعتين لصدري في مناسبتين مختلفتين: ظلّ غائم على الفلقة اليسرى من الرئة، على امتداد الضلع الثاني لجدار القصبه الهوائية. وحتى استئصال الفلقة اليسرى بأسرها لن يفيد في شيء. كانت النتيجة واضحة. والذي توفي بمرض الرئة. توفي خلال ثلاثة أشهر من اكتشاف المرض، وكان هذا هو الطبيب نفسه الذي شخّص المرض بدقة. كنت مؤمناً بخبرته الطبية وكان مؤمناً بالعلم. وصورتنا الأشعة اللتان التقطتا في مصحين مختلفين كانتا متشابهتين، ولم تكن هناك إمكانية لوقوع خطأ فني. كذلك كتب الطبيب ترخيصاً بإجراء صورة أشعة مقطعية، وكان الموعد بعد نصف شهر. لا شيء في هذا يدعو إلى القلق، والهدف هو تحديد نطاق الورم. أجرى والدي الصورة ذاتها قبل وفاته. والنتيجة ستكون واحدة سواء أُجريت تلك الصورة أم لا، ولا خصوصية في ذلك. وإنه الحظّ الطيب وحده هو الذي جعلني أنزل هكذا من بين أصابع الموت.

ذات يوم رأيت قطعة خشب بطول أربع بوصات، جمعها في منطقة كيانغ عالم إناسة خلال الثلاثينيات. كانت تمثالاً منحوتاً لشخص واقف على يده. العينان والأنف والفم رُسمت على الوجه بالخبر، وكُتبت على الجسد كلمة «عمر طويل». كان اسم المنحوتة «وشانغ رأساً على عقب»،

وكانت تنطوي على أمر مؤثر غريب. وأسأل رئيس القرية المتقاعد عما إذا كانت مثل هذه الطلاس ممتوكة هذه الأيام. يقول لي إن هذه تُدعى «الاجين» أو «المجدور العتيقة». وهذا الوثن الحشبي يتوجب أن يرافق الطفل الوليد من الولادة وحتى الممات. وعند الموت فإن الوثن يرافق الجثة لدى خروجها من البيت، ويُترك بعد الدفن في البرية لكي يسمح للروح بالعودة إلى الطبيعة. أسأله إذا كان يستطيع تأمين وثن لي أحمله معي. يضحك ويقول إن هذه أوثان الصيادين يشبهونها بقمصانهم لإبعاد الأرواح الشريرة، وهي لن تكون ذات نفع لأناس مثلي.

أسأل: «أوجد صياد عجوز يتقن هذا النوع من السحر ويوافق على اصطحابي معه إلى الصيد؟» يقول بعد تفكير: «الجدّة الحجر سوف يكون الأفضل».

أسأله على الفور: «وأيّن أعثر عليه؟»

«إنه في كوخ الجدّة الحجر».

«أين يقع كوخ الجدّة الحجر هذا؟»

«إمش عشرين ليّاً [وحدة صينية للمسافات، حوالي ثلث ميل] حتى «أخدود منجم الفضة»، ثم اتّبع الجوّن يمينا وصعداً حتى النهاية. ستعثر هناك على كوخ من الحجر».

«أهو اسم المكان أم تقصد كوخ الجدّة الحجر؟»

يقول إنه اسم المكان، إذ يوجد في الواقع كوخ حجري، والجدّة الحجر يعيش هناك.

أتابع السؤال: «هل تأخذني إليه؟»

«إنه ميت. استلقى على سريره ومات وهو نائم. كان طاعناً في السنّ، وعاش أكثر من تسعين سنة، والبعض يقول أكثر من مئة. في كلّ حال لا يوجد من هو متأكد من سنّه».

ولا أستطيع منع نفسي من السؤال: «أما يزال أيّ من أحفاده على قيد الحياة؟»

«في زمن جيل جدّي، ويقدر ما أستطيع أن أتذكّر، كان الجدّة الحجر وحيداً طوال حياته».

«بلا زوجة؟»

«عاش وحيداً في أخدود منجم الفضة. عاش في أعلى الأخدود، في الكوخ الأعزل، وحيداً، نعم، وما تزال بندقيته معلقة على جدار الكوخ».

أسأل ما الذي يحاول قوله لي.

يقول إن الجدّة الحجر كان صياداً رائعاً، صياداً خبيراً في فنون السحر. لم يبق صيادون من أمثاله في هذه الأيام. الكلّ يعرف أنّ بندقيته ما تزال معلقة في الكوخ، وأنها لا يمكن أن تخطيء الهدف، ولكن لا أحد يجرؤ على الذهاب لاخذها.

«لماذا؟» أسأل وقد ازدادت حيرة.

«الطريق إلى أخدود منجم الفضة مقطوع».

«لا يوجد طريق يوصل إليه؟»

«لم يعد هنالك أيّ طريق. في السابق اعتاد الناس التنقيب عن الفضة هناك، واستاجرت شركة من شينغندو فريقاً من العمال وبدأوا التنقيب. في أعقاب ذلك، وبعد نهب المنجم، غادر الجميع».

وشاخصات الطريق التي نصبوها تحطمت أو تسوست .

« متى جرى كل هذا ؟ »

« حين كان جدّي ما يزال على قيد الحياة، منذ أكثر من خمسين سنة . »

ذلك هو الزمن الصحيح، إذ أنه الآن متقاعد وجزء من التاريخ، التاريخ الحقيقي .

أسأل وقد أصبحت أكثر تشوّقاً : « وهكذا لم يذهب أحد إلى المكان بعدها ؟ »

« يصعب الجزم، الذهاب إلى هناك صعب في كل حال . »

« والكوخ تسوس ؟ »

« الحجر يتقوّض، فكيف يتسوس ؟ »

« أقصد دعامة السقف ؟ »

« نعم، هذا صحيح . »

لم يمكن راضياً في اصطحابي إلى هناك، كما لم يكن راضياً في العثور على صيّاد يرافقني، ولهذا

فإنه يبلبل تفكيري على هذا النحو، كما اعتقد .

أسأل، رغم ذلك : « فكيف إذاً تعرف أنّ البندقية ما تزال معلقة على الجدار ؟ »

« هذا ما يردده الجميع، ولا بدّ أنّ أحداً رأى البندقية . الجميع يقولون إنّ الجند الحجر أمر خارق،

جثته لم تتعفن والوحوش الضارية لا تجرؤ على الإقتراب منه . إنه يجثم هناك متنبساً وهزلاً، وبندقية

معلقة هناك على الجدار . »

« محال . قياساً على درجة الرطوبة هناك في أعلى الجبل، لا بدّ أنّ جثته تعفنت والبندقية تحولت

إلى كومة من الصدا، أقول مجادلاً . »

« لا أعرف . في كل حال يردد الناس هذه الأقوال منذ سنوات . » يرفض التنازل ويظلّ متمسكاً

بحكاياته . ضوء النار يتراقص في عينيه ويلوح لي أنني الملح خبثاً ما فيهما .

« وأنت نفسك، ألم تره ؟ » أسأل وقد أزمعت تضيق الحناق عليه .

« الناس الذين رأوه يقولون إنه يبدو أشبه بالنائم، وأنه هزل، وأنّ البندقية ما تزال معلقة على الجدار

فوق راسه، يتابع الكلام هادئاً . « كان يتقن السحر الأسود . ليس الأمر أنّ الناس وحدهم لا يجرؤون

على الذهاب لسرقه بندقية، بل إنّ الحيوانات نفسها لا تجرؤ على الإقتراب . »

الصيد أسطورة الآن، لتوه . والحديث عن مزيج من التاريخ والخرافة هو سبيل ولادة حكايات

الشعب . الواقع لا يوجد إلّا من خلال التجربة، ولا مناص من أن تكون تجربة شخصية . غير أنّ

التجارب الشخصية تصبح حكايات حين تُروى . الواقع لا يمكن التحقق منه، وهو لا يحتاج إلى

ذلك، فهذا أمر متروك للخبراء في تحليل حقيقة الحياة . ما هو مهمّ هو الحياة . الواقع ببساطة هو أنني

أجلس قبالة النار في هذه الحجرة المسودة بالسُخام والدخان، وأنني أرى ضوء النار يتراقص في

عينيه . الواقع هو نفسي، والواقع ليس سوى إدراك هذه البرهة التي لا يمكن نقلها إلى شخص آخر .

وكلّ ما ينبغي قوله هو التالي : ثمة في الخارج غيش يطبق على الجبل الأخضر المائل إلى الزرقة، وثمة

ضباب، وقلبك ينبض بالمياه الدافقة من جدول بطيء الجريان . وهذا يكفيك .

## الفصل ٨١

## (الفصل الأخير)

من النافذة أبصر ضعفدة صغيرة جاثمة على الأرض المغطاة بالثلج. إنها تطرف بعين وتتحفظ بالأخرى. تراقبني دون حراك. أفهم أن الأمر يتعلق بالرب.

إنه يتجلى أمامي في هذه الهيئة ويرى ما إذا كنت أفهم. يطرف عينا لكي يحادثني. وحين يتحدث الرب إلى البشر فإنه لا يرغب في أن يسمعوا صوته. أما أنا فلا يدهشني ذلك، وكأنه ينبغي أن يكون هكذا، وكان الرب كان على الدوام ضعفدة ذات عين مستديرة تماماً، ذكّية، مفتوحة على اتساعها. أفة رافة منه أن يكثر برجل يدعو إلى الرثاء مثلي!

لغته التي يتكلم بها غير مفهومة من عينه الثانية، وعليّ أن أفهمه إذ يطرف بالبوؤ لشدّ انتباه البشر. غير أن هذا ليس شأنه.

أستطيع كذلك التخمين أن تحريك البوؤ لا ينطوي على أي معنى، وأن معناه قد يكمن ربما في غياب المعنى على وجه التحديد.

لا توجد معجزة، هذا ما قاله الرب لي، أنا الذي لا أقنع أبداً. وأطرح عليه السؤال:

في هذه الحال، هل يتبقى شيء نبحث عنه؟

السكون يعمّ الجوار. الثلج يتساقط بصمت. أنا مندهش من هذه السكينة. سكينة الفردوس.

ما من غبطة. الغبطة لا توجد إلا في علاقة مع الحزن.

وحده الثلج يتساقط.

وفي تلك اللحظة لا أعرف أين يقع جسدي، لا أعرف من أين تأتي قطعة أرض الفردوس هذه.

أتفحص الجوار.

لا أعرف أنني لا أفهم شيئاً، وأعتقد أنني أفهم كل شيء.

الأشياء تجري خلفي. ثمة دائماً عين غريبة. والأفضل أن يدعي المرء أنه يفهم.

ادعاء الفهم، ولكن دون فهم أي شيء في الحقيقة.

وأنا في الواقع لا أفهم شيئاً، لا أفهم أي شيء.

هكذا هو الأمر.

صيف ١٩٨٢ - أيلول ١٩٨٩

باركين - باريس

ترجمة: صبحي حديدي



## الخروج من سجن التخريب الأدب الصيني في التسعينات لي هيبيل

في أوائل الثمانينات أصبحت أسماء مثل هابرماس، ودريدا، وفوكو، مالوفه بصورة مفاجئة في أوساط المثقفين الصينيين، إلي جانب كتاب ومفكرين من الغرب حُظرت كتاباتهم في الصين لمدة نصف قرن. لعبت الأعمال الإبداعية والنظريات الأدبية الغربية دورا بالغ الأهمية في تبديد سلطة المبادئ الأدبية التي أرساها ماوتسي تونغ. المبادئ التي جرى العمل على ترسيخها حتى أصبحت قيда من الحديد في زمن الثورة الثقافية.

فمع نهاية تلك الثورة، كان قد تم تعقيم الأدب والنقد الصينيين، وتعقيم الكاتب والقارئ والكتب بطريقة أيديولوجية. كان النقد، والملاحقة، والسجن، وحتى خطر فقدان الحياة، من الأدوات الفعالة المؤثرة في تلك الفترة. لكن القواعد الجامدة المفروضة على العقول في الفترة نفسها خلقت أعراضا للفقر الروحي. لذلك، تفتحت شهية الناس بشراهة لزيادة الحرية الفردية التي تسمح بقدر ضئيل من التعددية الفردية والاختلاف.

وقد كان هذا التعدد والاختلاف متوفرا في الأدب والفن الاجنبيين، وفي الميراث الأدبي الصيني ما قبل الماركسية. وعندما انجذب الحزب نحو نوع من الليبرالية لتحقيق التحديث الاقتصادي في المقام الأول، سمح بدخول ثقافة الغرب، ويقدر ما نالت طريقة الرأسمالية الغربية في التسويق جاذبية لدى مجتمع يعاني من الخضوع والامتثال، نال أدب الغرب القدر نفسه من الجاذبية لدى العقول المفكرة في المجتمع.

وضع معهد الادب المقارن، الذي جرى تأسيسه في جامعة بكين عام ١٩٨٠ كهيئة غير حكومية وشبه مستقلة، نصب عينيه تعريف الصين على الأدب العالمي. ويرجع الفضل في هذا المجال ليو داويرون، أستاذ اللغة الصينية، الذي نجح بفضل جهوده الدؤوبة في تجاوز العقبات البيروقراطية، وفي

وضع المعهد على قدميه .

وقد أدى هذا الوضع إلى إنشاء مزيد من الهيئات المشابهة في مختلف الجامعات الصينية . وغالبا ما كانت هناك علاقة قوية بين وجود أقسام اللغات الأجنبية في الجامعة وظهور العديد من الطلاب الراغبين بدراسة الأدب والخطاب الغربيين . كانت الدراسة تشبع حاجتهم النفسية لفهم تطورات الثورة الثقافية ، كما فاز بعضهم بفرصة الدراسة في الخارج .

وقد اعتنق المثقفون الصينيون لفترة من الوقت نظريات غربية مختلفة بحماسة تنسجم شدتها مع ما يتصل منها بالتطورات المتلاحقة في المجتمع الصيني ، كما اتسمت دراسة الأشياء الجديدة بالبهجة والتشويق . يلاحظ شياوبينغ تانغ المثقف الشاب الذي استكمل دراسته في الغرب ، في نقاشه للملامح لتلك الفترة ، التناقض الكامن في فترة الثمانينات ، عندما سادت فكرة أن النظرية الجديدة تعني « جهدا ثقافيا عاما لترجمة نص الصين المعاصرة إلى لغة عالمية مفترضة » :

« بينما كان على المشروع المعارض للهيمنة طرح إطار نظري جديد لمجابهة القمع السياسي ، بالعودة التعسفية إلى النزعة الإنسانية الكلاسيكية ، والتعددية الليبرالية ، أو مفهوم الاختلاف في أيديولوجيا ما بعد الحداثة ، لم يكن اقتصاد السوق ، بفعل مضمونه التجاري ، وعدم اهتمامه بهوم المثقفين من العوامل المساعدة . بين غياب الحرية السياسية ، ولا مبالاة السوق ، لا توجد فرصة حقيقية » .

طرحت هذه التعليقات في التسعينات ، ومن المستبعد أن كتاب الصين ونقادها في الثمانينات ، بما فوهم شياوبينغ تانغ ، كانوا مدركين لهذا التناقض . ومع ذلك ، أسهمت النظريات الغربية الجديدة في « تفكيك » القبضة القوية لعادات ثقافية جرى تأسيسها وترسيخها في زمن الثورة الثقافية . كما شهدت الفترة نفسها زيادة هائلة في نشر الأعمال الأدبية الغربية المترجمة إلى الصينية ، إلى جانب الاهتمام بدراسة لغات غربية .

وكما كان الطموح أن تلحق الصين سريعا ، بفضل تطورها الاقتصادي ، ببقية العالم ، أراد المثقفون الصينيون ، بما فيهم الكتاب ، وجود عملية تطوّر متسارعة في مجالهم الخاص : حيث مكنتهم قراءة أعمال أدبية أجنبية من الحصول على تجارب كانت محظورة عليهم ، كما خلقت لديهم نوعا من التوتر ، فهم يريدون الكتابة والتعبير عن أنفسهم كجزء من كتاب العالم ، الذين تعرفوا عليهم من خلال الاتجاهات الأدبية السائدة في العالم .

حدثت ردة الفعل هذه في عالم الأدب الصيني أولا كردة فعل غريزية بعد الرفع التدريجي للقيود على حرية التعبير الفني للكتاب في المجالات الإبداعية . وتلا ذلك أعمال نقدية استهدفت تفسير العمليات الأدبية المتغيرة ، بينما شرعت الجامعات في تعليم النظريات الأدبية الغربية لطلابها .

ورغم أن حراس النقاء الثوري في الأدب شنوا حملات ضد التلوث الأخلاقي القادم من الغرب ، إلا أن أفكار الليبرالية توافقت مع محاولات الصين الجادة لنيل قبول واعتراف وموافقة بقية العالم الصناعي ، باعتبارها أمة حديثة ، وهذا بدوره جعل وقف استيراد الثقافة الغربية من الأمور الصعبة .

وفي عقد الثمانينات تنوعت الأعمال والنظرية الأدبية في عملية متضاربة مع التطورات الجديدة في الاقتصاد والمجتمع . كما خلقت سياسة دينغ شياو بينغ لإشاعة نوع من الليبرالية ديناميات لا يمكن

الراجع عنها. ديناميات تتطور بصورة ذاتية وصلت إلى الذروة في الحركة الطلابية عام ١٩٨٩. من الآن ما يزيد عن نصف عقد على أحداث ١٩٨٩ ( كتبت هذه المقالة في عام ١٩٩٦ ) التي كانت نقطة تحول أعاد الحزب بعدها تأكيد سلطته، رغم السماح بقدر أكبر من الليبرالية في مجالات معينة، أحيانا. لكن الأدب الصيني تغير إلى حد كبير خلال عقد ونصف العقد. فقد اختار عدد كبير من الكتاب الصينيين الإقامة الدائمة في الخارج، واصلوا النشر في الصين وتايوان وهونغ كونغ، أو في بلدان أخرى تتواجد فيها جاليات صينية كبيرة إلى حد يسمح باستمرار النشاط الأدبي.

كما أصبحت للمشاركة في الأنشطة الأدبية المحلية والدولية من الأمور الشائعة. وفي الوقت الحاضر تمثل منشورات الصين الشعبية وتايوان وهونغ كونغ منبرا دوليا يمتاز بالحيوية والأهمية للخطاب الأدبي للكتاب والأكاديميين الصينيين، خطاب غير مراقب، وغير « موجه » بصرف النظر عن مكان إقامتهم. وربما كان الاعتماد بالمعنى الجسدي وسيلة جيدة للتقسيم الموضوعي وتامل التطورات التي شهدتها الأدب الصيني في القرن الحالي، وهي مسألة يحرص عليها الكتاب الصينيون بعناية.

تمكن خلال الفترة نفسها الموهوبون الشباب من الأكاديميين الصينيين من أمثال ليو كانغ، وشياو بينغ تانغ، من امتلاك زمام النظريات الغربية، وظهرت أصواتهم في أوساط الدراسات الأدبية الغربية، وكانوا مسلحين بالتجربة الحية النابعة من معرفتهم بالمشهد الأدبي الصيني، لدعم نماذجهم النظرية. كثير من أفكارهم ثابتة وحادة، لكنهم يمتنون الموقف للمتشدد والكفاحي الذي لا يمكن تفاديه في مجال الدراسات الأدبية. ورغم ذلك، لا توجد هذه المشكلة لدى كاتبين وناقدين ثقافيين في أوساط العمر، تركز عليهما في هذه المقالة، هما ليو زايغو، وغاو شينغجيان.

الفرق في العمر مسؤول عن تجارب شخصية تراكتت خلال فترة زمنية أطول، لذلك يتسم تحليل الرجلين للمشهد الأدبي الصيني في التسعينات، وللإبداع بشكل عام، بالأصالة والفرادة. يتماشى غاو شينغجيان مع أحدث الاتجاهات الأدبية الأوروبية، بينما كرس ليو زايغو حياته لدراسة التاريخ الثقافي والفكري، والنظريات التحليلية الأدبية الحديثة.

ولا تعني حقيقة عدم استخدامهما لنظريات تحليلية غربية في نقاش الأدب أن الكاتبين يجهلانهما، أو أن تحليلهما الخاص أقل صلاحية منها. فمنذ التسعينات « يخرج الكاتبان من سجون ناس آخرين » بصورة واعية، رغم أن الطرق التي اختارها تقود إلى اتجاهات مغايرة.

تعبّر أعمال الكاتبين، التي نناقشها في الفقرات اللاحقة، عن وعي جديد، وعن ثقة بالنفس يقولان أنها أصبحت متاحة للكتاب الصينيين بعد قرن تقريبا من الإحساس بفقدان الطمأنينة الثقافية بفعل احتكاك الصين بالشعوب الصناعية واليابان.

ونقوم، هنا، بمناقشة أفكار الكاتب المسرحي والروائي غاو شينغجيان ( مواليد عام ١٩٤٠ ) والمنظر الأدبي والمؤرخ الثقافي وكاتب المقالات ليو زايغو ( مواليد عام ١٩٤١ ) بصورة مشتركة، وفي سياق بعض الموضوعات التي طرحها معاصروهم الأصغر سنا، الذين أصبحوا كما يبدو مغرمين بالخطاب النظري الغربي.

رغم انتماء الكاتبين إلى الدياسورا الصينية، إلا أن تجاربهما مختلفة تماما كما سيتضح لاحقا.

ورغم ذلك، ثمة تشابه في تقييمهما لما طرا من تطورات في تاريخ الأدب الصيني خلال هذا القرن. فقد نبعت أفكارهما عن تاريخ وأدب الصين من تجارب حية، وكذلك الأمر بالنسبة لأفكار تخصص الإبداع، بحكم ممارستهما للكتابة الإبداعية.

هناك، بالضرورة، أوجه اختلاف كبيرة في الطريقة التي يتأملان بها الأدب، فهما يمتازان بأسلوب نثري خاص وحساسية فنية فريدة. كلاهما استأذ في أسلوب كتابته لكنهما اختارا مجالات تعبيرية مختلفة، وموضوعات مختلفة أرادا استكشافها بواسطة الكتابة. ومع ذلك يشتركان في الرأي أن الأدب مسألة فردية وليست جماعية، وأن الكتاب الصينيين ضحوا عن طيب خاطر بالفرد لصالح الجماعة. ويتفقان، أيضا، في الرأي أن من واجب الكتاب الصينيين في التسعينات إعادة تأكيد ذواتهم ككتاب، وأن على الأدب ألا يربط نفسه بالسياسة. كما يعني التقارب في عمرهما أن مولدهما جاء بعيد بداية حرب المقاومة، وأنهما عاشا بصورة شخصية ولادة وعذاب نمو جمهورية الصين الشعبية.

لا ينبع اختيار هذين الكاتبين من اعتبارات تعسفية أو من باب المصادفة، بل لأن السطور الافتتاحية في كتاب غاو شينغجيان « بلا لوازم ism » [ إشارة إلى اللازمة التي تلحق بالكلمة في عدد من اللغات الأوروبية، وتكتب بالعربية إية: مثل الفردية، الإنسانية، الاشتراكية.. الخ ] ( ١٩٩٣ ) تشير إلى مقالة ليو زايغو « وداع الآلهة » ( ١٩٩٠ ).

اشتهر غاو في الصين بعد عرض مسرحيته التجريبيتين « علامة الخطر » و « محطة الباص » في قاعات مكتظة بالحضور في بكين عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٣. لكن كون المسرحيات « تجريبية » لم يكن بالعدو الكافي، فقد منعت السلطات عرض « محطة الباص » التي أسماها نائب رئيس قسم الدعاية « أكثر مسرحية إثارة للسموم منذ تأسيس الجمهورية الشعبية ».

كان غاو في الواقع تحت المراقبة منذ عام ١٩٨١ بعد نشر كتابه « اكتشافات أولية في فن وتقنية الرواية الحديثة » الذي افتتح النقاش حول الحداثة في الأوساط الأدبية. ففي أوائل ١٩٨٣ تعرضت الحداثة لنقد رسمي يربط بينها وبين الرأسمالية والليبرالية البرجوازية. في هذا الجو، جو القلق الذي يعيشه الكتاب بعد الثورة الثقافية، غرقت « محطة الباص » وتوقفت. وفي تلك الظروف قرر غاو الفرار من بكين ليشرع في أوديسة مدتها عشرة أشهر في أعماق الصين، شكلت نسيج روايته « جبل الروح ».

تمكن بواسطة الهرب من بكين من تفادي الهجمات الضارية التي شنت خلال حملة « تصفية التلوث الأخلاقي »، وفي الوقت نفسه حافظ على صحته الجسدية والعقلية. وفي عام ١٩٨٥ قبل دعوة لزيارة ألمانيا وفرنسا، وما عدا عودة قصيرة إلى الصين في عام ١٩٨٦، أقام غاو في باريس بصورة متواصلة منذ عام ١٩٨٧.

نجح غاو، بفضل معرفته للأدب واللغة الفرنسيين، في الانخراط في الأوساط الأدبية الفرنسية، وجرى تكريمه بوسام الفارس الفرنسي للفنون والآداب في عام ١٩٩٣ كاعتراف بإنجازاته الأدبية. وتبين أعماله التي كتبها بعد استقراره في باريس قدرا كبيرا من النضج. لكن أعماله تثير النقاد الغربيين

الذين يتبنون الموقف « الاستشراقي » ويطالبون الدراما الصينية أن تبقى جامدة بلا تغيير للمحافظة على هويتها الصينية، وهي تزعمهم لأنها لا تشبه الدراما الصينية التقليدية.

يوشي عرض تلك المسرحيات للوهلة الأولى أنها دراما غربية حديثة، ورغم ذلك تبقى مميزة وأجنبية في نظر الجمهور الغربي، ومهما كانت الطريقة التي نصف بها مسرحياته، المهم أن أعماله منذ استقراره في باريس تخطى بنجاح كبير في مسارح فرنسا وأوروبا. وحقيقة أن أعماله الإبداعية تتكون في معظمها من مسرحيات تُمثل على الخشبة، تفسر ضرورة إضافة جوانب أخرى تجعلها مفهومة من جانب الجمهور الغربي.

وقد نالت التقنيات الفردية والمفرطة في التجريب التي يوظفها في أعماله القبول والإعجاب في أوروبا، وتُرجمت إلى لغات مختلفة ليجري تمثيلها في المسرح. نشر المسرح الملكي السويدي في عام ١٩٩٤ ترجمة سويدية لعشر من مسرحياته، قام بها العالم المشهور غوران ماليكفست، بمناسبة اختيار غاو كاتبا للمسرح الملكي. ونالت روايته « جبل الروح » إعجاب نخبة القراء الصينيين ( ١٩٩٠ ) لكن القدر الأكبر من الإعجاب جاء من أوروبا بعد الطبعة السويدية لترجمة ماليكفست ( ١٩٩٢ ) ومؤخرا بعد الترجمة الفرنسية التي قام بها نويل وليليان دوترت ( ١٩٩٥ ) التي أعقبها إطراء بالغ. ويبدو أن غاو نجح في الحفاظ على حياة إبداعية مفيدة نال بفضلها الشهرة في الوسط الصيني والأوروبي، كما مزل مشروعاته الأدبية بواسطة بيع لوحات يرسمها بالحرر الصيني الأسود، وتباع بأسعار مرتفعة في أوروبا وآسيا.

التقيض الحاد لهذه الصورة هو ليو زايفو، المقيم في المنفى منذ أحداث ١٩٨٩. تعرّض زايفو، عندما كان مديرا لهيئة البحث الأدبي في أكاديمية العلوم الاجتماعية في بكين، ورئيسا لتحرير مجلة « النقد الأدبي » لهجوم عنيف من جانب السلطات، بفضل تحليله للذاتية في الأدب وشخصية الإنسان، كما فُرضت عليه الإقامة الجبرية لعدة أشهر في عام ١٩٨٥، وتسببت كتاباته النقدية عن الثقافة الصينية خلال الحركة الطلابية عام ١٩٨٩ في وضعه على القائمة السوداء، فغادر على مضض الأرض الصفراء التي تحبني لكنها تخلّت عني.

لم تكن حياة ليو في المنفى مريحة كحياة غاو، فقد عاش على معونة منح البحوث الأكاديمية ( جامعات شيكاغو وكوليرادو وستوكهولم ) وعائدات كتاباته الغزيرة، لكن مقابلة أجزاها مؤخرا مراسل من هونغ كونغ تُظهر لنا روحا غاضبة جرحتها تجارب شخصية وما زالت تعاني عذاب المنفى خارج بلدها. كما تؤكد كتاباته نفسها هذا الغضب، فبعد سنتين من العيش في المنفى يتذكر بصورة تفصيلية دقيقة ما لحقته الثورة الثقافية من خراب بتلك الحلة اللاذعة التي تسم كتاباته:

« كانت الحياة مقرونة بالجوع والخوف، لكنها كانت مقرونة بالبربرية والجنون، أيضا. جيلنا كان مغرما بالقتال، ومدمنا على القتل. جيل تقع على عاتقه جرائم كثيرة، ينطوي كل قلب من قلوبنا على سفر للجرائم، وعلى لسعات السوط الذي نزل بالآخرين، وآخرين نزلوا بسياطهم في آخرين. لم يكن طعامنا الروحي خشنا وحسب، بل كان ممزوجا ببارود الكلمات الثورية، حتى أن أجسادنا انطوت على مواد لغوية سامة ورائحة البارود. بطوننا كانت متخمّة بأفكار شائكة، لو لم نتخلص

منها بالقتل لاختنقا » .

يعتقد ليو زايغو أن الفقر جعل الناس غلاظ القلوب، منحهم شجاعة ابتلاع الجرذان، وأشجار البتولا، وحتى لحم وأرواح بني جنسهم . منحت الغابة العذراء الكبيرة في قريته الأصلية الظل والحماية للناس على مدار أجيال، لكن القرويين جعلوها تربة حمراء .

هل يلومهم لأنهم قطعوا شجر الغابة، هل يلومهم لأنهم أرادوا البقاء على قيد الحياة ؟ يعترف بأنه في عام ١٩٥٨ كان واحدا من النمل الأحمر الذي عرّى الجبل خلال أيام قليلة :

« تحول الجميع في تلك الأيام إلى شعراء وثورين وتغل أحمر مسه الجنون . . أنا، أيضا، كنت غملة حمراء مسها الجنون أحمل راية حمراء على كتفي وأنشد أناشيد الحرب » .

لم تغب الدلالة الرمزية لصورة النمل الأحمر التدميرية والجبال المخضراء التي أصبحت حمراء عن أذهان النقاد في الصين، لذلك قالوا عنه « عاهر يبحث عن الطهارة ويتهمج على الأرض التي أنجبت » . ومع ذلك، لا ينبغي القول أن النقاد في الصين وحدهم يمارسون الضغط على الكاتب . فالظروف المحيطة بمسرحية غاو المكوتة من فصلين « فرار » ( ١٩٩٠ ) مثال جيد .

تجري المسرحية في مستودع مهجور بعد صدور أمر للبدابات بالزحف إلى ميدان تيان آن مين يوم الرابع من حزيران عام ١٩٨٩ . المسرحية باردة وساخرة، ولا أثر لبلاغة الحماسة فيها سواء تجاه المتظاهرين أو السلطات . يلجأ شاب وفاته كانا في الميدان بين المتظاهرين إلى المستودع، يتجذبان إلى بعضهما البعض بفعل الظلام والخوف، رغم أن كليهما غريب بالنسبة للآخر .

يقطع الوصل بينهما وصول كهل تطارده السلطات، أيضا . يتكلم غاو من خلال تعليقات الرجل الساخرة . يخرج الشاب من الخزن، وتسمع أصوات رصاص، يعتقد الكهل والفئة أن الشاب قد مات . وتحت جنح الظلام تأخذ الشابة زمام المبادرة، فيمارسان الجنس، بعد مقاومة واهية من جانب الكهل .

هاجم أحد النقاد في الصين المسرحية باعتبارها « عملا لا يتحلى بالمسؤولية » لكاتب في الخارج » لم يعيش شخصيا أحداث الرابع من حزيران، كما يوصف سلوك البطل في المسرحية « بالمنحل » . لكن الأسوأ من ذلك أن مجموعة الدراما الأميركية التي طلبت من غاو كتابة المسرحية لم يعجبها غياب الطلاب الأبطال، وطلبت من الكاتب إجراء تعديلات . فقام غاو بدفع تكاليف الترجمة وسحب المخطوطة .

ثمة خط فاصل في نظر غاو بين الأدب والسياسة . الأدب مسألة تهتم بالفرد، الذات، بينما تهتم السياسة بالإرادة الجمعية وتكرن الذات . وقد دفعته تلك الحادثة إلى نشر أفكاره في كتب « مذكرة موجزة من باريس » ( ١٩٩١ ) حول الإبداع الأدبي، في الأدب الصيني خاصة، و« أسطورة الشعب وجنون الفرد » ( ١٩٩٣ ) و« بلا لوازم ism » ( ١٩٩٣ ) .

حول موضوع الفصل بين الأدب والسياسة، يقدم كتاب ليو كانغ « الذاتية، الماركسية، والنظرية الأدبية في الصين » تحليلا فذا لفكرة ليو زايغو عن الذاتية في الأدب، وخاصة تأثير أفكار لي جيهو الجمالية على ليو زايغو، وعلى جيل كامل من المثقفين . ومع ذلك، يؤكد كانغ أن التركيز على الذات

في أدب ليو زايغو وآخرين رفع من شأن الذات لأسباب سياسية غير مباشرة، أي لغرض تعزيز الأنا. ورغم أن النظريات مفيدة كأدوات في التحليل، إلا أن أدوات القياس التي تستخدمها تُسقط اختلاف الناس واختلاف الأزمنة، أحيانا: تحاول أداة القياس جعل الواقع ينسجم مع النموذج بصرف النظر عن الفرد موضوع الفحص. ويبدو أن وجهة نظر ذات نزعة جمعوية جديدة يجري تأسيسها لتجاوز الأنا الفردي.

يتأمل غاو شينغجيان في « أسطورة الأمة وجنون الفرد » كيف أضرت الروح الوطنية بالتطور الأدبي في الصين في الأزمنة الحديثة. فمنذ فترة الرابع من مايو، اعتبر المثقفون الصينيون، بما فيهم الكتاب، أنفسهم ناطقين باسم الشعب، وبهذه الطريقة أنكروا حقوقهم كأفراد. فقد جعلت الروح الوطنية والقومية الصينية تحقيق حقوق الإنسان، والاعتراف بحركة الفكر خاصة، مسألة بالغة الصعوبة. كان المثقفون الصينيون قادرين على معارضة النظام الأخلاقي التقليدي بشجاعة وكذلك سلطة البيروقراطية السياسية، لكنهم كانوا عاجزين عن مواجهة الخرافة الحديثة للأمة. تقوم هذه الخرافة في وعي قومي جمعي أكثر عمقا من الظاهرة الأخلاقية. وتعتمد في قوتها على غريزة البقاء البدائية. فبعد انهيار النظام الإقطاعي الإمبراطوري، تحولت الأخلاق الإقطاعية القائمة على الولاء للحاكم إلى روح وطنية قومية مصابة بسم معنوي وأخلاقي.

وفي تحليله لتطور الأحداث في الصين في عهد دينغ شياوبينغ، يرى غاو أن تراخي قبضة السيطرة على الأدب معناه فوز المثقفين الصينيين بقدر محدود من الفضاء. وفي سياق كفاحهم من أجل الديمقراطية، وانعتاق الفرد، ووعي الذات، عاد المثقفون الصينيون إلى الواجهة مرة أخرى. ويرى أن فلسفة نيتشه عن الرجل الأعلى والمشاعر الرومانسية لتخليص العالم تصل إلى إحدى الذرى العالية في ممارسة المثقفين الصينيين لدورهم التاريخي كأبطال للشعب أو شهداء.

لا يعارض غاو انخراط المثقفين في السياسة بل يحيل المشاركة السياسية إلى حق الاختيار الفردي. فإذا انخرط جميع المثقفين الصينيين في السياسة سيكون مصيرهم، آنذاك، نفس مصير المثقفين خلال فترة الرابع من مايو، أي الانتحار الجماعي. وبينما يعبر عن تقدير عميق للعديد من المثقفين الذين ضحوا بحياتهم من أجل الشعب ومن أجل رفاهيته، ويتعاطف أيضا مع الذين دخلوا السياسة وضحوا بهذه الطريقة بحيواتهم الأكاديمية والإبداعية.

من سوء حظ الأدب أن الكاتب لو شوم سحق حتى الموت على يد السياسي لو شوم. من الواضح بالنسبة للو شو أن الأمر لم يكن من قبيل سوء الحظ بالضرورة، لكنه ربما كان مصدرا للندم.

ككاتب مبدع يرى غاو شينغجيان خيارا واحدا فقط، القرار. في مواجهة السلطة، والرأي العام، والمواظ الأخلاقية، ومناخ الحزب والجماعة، للحفاظ على الجدوى الشخصية، والتماسك الشخصي، والاستقلالية الفكرية، أي الحرية، ليس للفرد من خيار سوى الهرب. بالهرب، فقط، يستطيع الإنسان الحفاظ على تماسك الذات واستقلاليتها. البديل إما التعفن، أو السحق بواسطة نقد الجماهير، الفرق والانجراف مع الموج، أو معاناة العذاب حتى آخر العمر من المجد الفارغ، في غربة عن كل ما تعنيه الذات.

تتردد فكرة الهرب باستمرار في أعمال غاو شينغجيان. فهي ما يقترحه من حل على الفرد المحاط بالجموع، حتى لو كانت مجرد شخصين. الصفحات الستمائة وخمسون في روايته جبل الروح تتيح له فحص العديد من جوانب معنى أن يكون الإنسان محاطاً بالناس، أما في مسرحية « فرار » الموصوفة سابقاً فيجري تصوير هذا الأمر ببراعة. ظهرت الأحداث للمساوية لتيان آن مين أمام العالم على شاشات التلفزيون يوماً بعد يوم، تمثل تلك الصور إلى جانب الحلفية المذكورة في المسرحية بعداً إضافياً للقراء الذين كانوا في الميدان في ذلك الوقت. تنجح هذه المسرحية القصيرة المكوّنة من فصل واحد في تفحص الجوانب المختلفة للسلوك الإنساني، لكن العلاقة بين الفرد والجماعة هي ما يهم البحث الحالي. يقول الرجل الكهل أن يذهب الإنسان إلى الهجوم دون فهم لاستراتيجيات التنظيم والتراجع، يحتم عليه ألا يخطر في السياسة، وإلا سيكون مجرد ضحية في المغامرة. ينتقده الشاب بعنف لأنه لم يتحول إلى قائد طالما يستطيع التنبؤ بكل هذه الأشياء. وهذا جوابه البسيط:

الكهل: « قلت لك من قبل بأنني مجرد متفرج، أحياناً قرب الأحداث، وفي أحيان أخرى أجد نفسي منجرافاً في أشياء. نحتاجني المشاعر، وأحياناً اتكلم. هذا كل ما في الأمر. لدى أشيائي الخاصة، أنا مريض من السياسة منذ وقت طويل، لا أملك مواهب القائد، ولا تملكني رغبة أن أكون كذلك. ثمة الكثير من القادة، وأخشى توسيخ يدي ».

يرى الشاب نفسه بوضوح في وضع بطولي ويتمهم الكهل ( صادقاً ) بأنه ليس عضواً في الحركة من أجل الديمقراطية، وأنه مجرد متفرج. يستعرض الشاب أمام الشابة، الأكثر ميلاً من ناحية فكرية لما يقوله الكهل ( التي تنجذب إلى الكهل جسدياً، أيضاً، بفعل ظروف الظلام والخوف من الموت ) .

الشابة: وإذا كان مجرد متفرج؟ السنا مطاردتين؟

الكهل: تمام. الهرب من مطاردتين مصيرك، ومصيري، ومصيره أيضاً. الهرب من المطاردة قدر الجنس البشري.

وفي حين يواصل الكهل الكلام عن رغبته في ألا يكون مجرد بيدق في لعبة، أو ضحية استغلال من أحد، وأن السبب بإصراره على حرّيته في الفعل، لذلك اختار الهرب، يصبح الشاب عدوانياً ويتمهم الكهل ( صادقاً ) بالتهرب من الحركة من أجل الديمقراطية. يكون جواب الكهل أنه يتجنب جميع المواقف التي تنطوي على ما يسمى الإرادة الجمعية. هذا بدوره يُغضب الشاب: ولكن ماذا عن الأمة والشعب، هل تكفي بالفرجة بينما الأمة والشعب يتعرضان للتدمير؟

الكهل: أي أمة؟ أمة من؟ هل تأخذ على عاتقها المسؤولية عني وعنك؟ ولماذا أحمل مسؤولية تجاهها؟ مسؤوليتي تجاه نفسي فقط.

الكهل: انتقد نفسي، فقط. إذا تحطّم العرق فإنه يستحق ما أصابه، ليس ذلك ما تحاول جري للاعتراف به؟ ما هي أسئلتك الأخرى؟ هل انتهى التحقيق؟

ترك تلك الأسئلة الشاب في حيرة من أمره. السؤال الضمني: ليس ما يفعله نوع من الملاحقة والاعتداء على حقوق الفرد؟ ليس هذا موضوع مظاهرات الحركة من أجل الديمقراطية؟

في « بلايات » يجري نقاش معقّد للصراع بين إرادة الفرد وإرادة الجماعة، وما يعنيه الأمر بالنسبة

للكتاب، وقد كان الصراع موضوع محاضرة غاو في مؤتمر للأدب الصيني خلال ٤٠ سنة، عقد في تايبيه. فقد لاحظ أن مبدأ لوشون «يربط جميع الأشياء بلازمة ism» ليس مسألة سيئة في حد ذاتها، بقدر ما يتعلق الأمر بالأفكار الغربية، لكن الكتاب الصينيين بالغوا كثيرا في استحضار كل لازمة أوروبية معروفة. فلا حاجة للسفر في الطرق نفسها التي سار عليها الأدب الغربي: ما إن يُذَوَّت الكتاب اللازمة ism لا تعود كما كانت في الأصل. لذا من غير المجدي نقاش اللازمة أكثر من ذلك أو الإصرار على «رفع يافطات الآخرين على أكتافنا».

مرة أخرى، تلك خلاصات استمدها غاو من تجاربه الشخصية. لذلك، سمي «بالحدائي» في عام ١٩٨١ بعد نشر «اكتشافات أولية في فن وتقنية الرواية الحديثة» وبصاحب مسرح العبت عام ١٩٨٣ مع ظهور «محطة الباص» و«الفطري» عام ١٩٨٥ بعد «الرجل البري» و«بالرجعي» عام ١٩٩٠ بعد «فرار». لكنه يرفض كل تلك التسميات، ويعلن عدم التزامه بأي لازمة ism مهما كانت، سواء في الأدب أو السياسة.

«في الوقت الراهن لتحلل الأيديولوجيا، يصبح التساؤل، بالنسبة للفرد، الموقف الوحيد الممكن للحفاظ على استقلاليته الروحية. هذا، أيضا، موقف تجاه الأشياء التي تنال الكثير من الإعجاب والموضة - الحركات الجماهيرية والذائقة الشعبية - مثلها في تجربتي مثل ما يعرف بالذات، لا تستحق العبادة، ولا تستحق المعتقدات الخرافية، بالتأكيد».

وككاتب يعيش في المنفى، يرى غاو أن وسيلته الوحيدة للمخلاص الذاتي، هي الفن والخلق الأدبي. ذلك لا يعني تحوله إلى مدافع عن الأدب الصافي الذي يدعو «بالبرج العاجي المنفصل تماما عن المجتمع». فالإبداع الأدبي في نظره تحدى وجود الفرد للمجتمع. أهمية التحدي قليلة الأهمية، فما بهم هو الموقف.

ويعترف غاو أن الأدب يستطيع تحقيق الحرية عندما يفصل نفسه عن اعتبارات المكاسب المادية. الحرية رفاهية إنسانية بعد تلبية الحاجات الأساسية من أجل البقاء، ووجود الحاجة للأدب مصدر فخر للكاتب والقارئ. تلك هي الطبيعة الاجتماعية للأدب. الأدب، في نظره، يوسع الأفق، ينتقد، يتحدى، يقلب أشياء، ويتجاوز. لكن حصر الأدب في الإطار الضيق لسلسلة من الوظائف السياسية، أو القواعد الأخلاقية، وتحويله إلى دعاية سياسية، وتعليمات أخلاقية، وحتى إلى سلاح ضد الأحزاب السياسية المنافسة، كان من سوء حظ الأدب. لم يتمكن أدب الصين الشعبية من تحرير نفسه بعد. فمند بداية القرن العشرين مرّت الصراعات السياسية الأدب الصيني. وفي الوقت الحاضر يتمكن الكتاب الصينيون، للمرة الأولى، من النطق بأصواتهم الخاصة.

«الأدب من حيث الجوهر مسألة شخصية وفردية تماما. المهم ألا يُقحم نفسه على آخرين، وألا يقبل بقيود تفرض عليه، بصرف النظر عما تتسمّى به تلك التقييدات من أسماء، سواء كانت أسماء أمة أو حزب أو عرق أو شعب. ففي تمكين تلك الإرادات الجمعية المجردة من وسائل القوة ما يعني موت الأدب».

وكما ذكرنا من قبل، يفتتح غاو كتابه «بلا لوازم» مشيرا إلى عبارة لليو زايغو في «وداع الآلهة»

أن الوقت قد حان لخروج الأدب الصيني من ظلال الآخرين، وتوديع الآلهة. ويعقب ليو زايغو أن النقد الأدبي الصيني الحديث، الذي كان مثاليا وتقدما، أخلى مكانه لحالة تتسم بالفقر والعبث والحيرة، وذلك لأن المدارس النقدية المختلفة في القرن العشرين، منذ دراسات ليانغ كيتشاو عن الرواية في نهاية القرن التاسع عشر وحتى دراسات هو شي وزاو زورين في فترة الرابع من مايو كانت «مسروقة» من الخارج. يعترف زايغو أن هذا القول يبدو جارحا، لكنه يصبر على اعتباره السبب الحقيقي، ويستشهد بمقالاتي لو شون «ترجمات صعبة» و«الطبيعة التطبيقية للأدب» لتبرير استخدامه لكلمة «مسروق».

«يقارن الناس عادة الثوري بشخصية بروميثيوس الأسطورية، الذي لم يشعر بالندم، لأنه سرق النار من أجل الناس، عندما عذبه إله السماء. تتساوى الشخصيتان من حيث التصميم، ومع ذلك عندما نسرق النار من بلدان أخرى، نستهدف طهي لحمننا الخاص، معتقدين أن إمكانية تحسين الطعام ستفيد أكل الطعام، ونحن من جانبنا، بدرجة أقل، بدنا أجسادنا بلا جدوى».

يؤكد ليو زايغو أن لو شون كان رجلا نزيها اعترف «بسرقته للنار»، كما يعترف أن أعمال السرقة الأولى كانت تستهدف تنوير الناس. ورغم انطواء الأمر على سرقة، إلا أن الغرض كان شريفا. لكن «السارقين» في وقت لاحق «سرقوا القشر» واستخدموا مختلف اللوازم ism الأجنبية لتزيين وجوههم بما يمكنهم من إخافة الناس. يالها من نتيجة عبثية ومضحكة.

يلاحظ ليو، أيضا، أن السجلات الأدبية في الصين، كانت ما جرى من عراك في البلدان الأخرى: سواء بين أفلاطون وأرسطو، أو زولا وهوغو، أو تشيرنيسفسكي وفرويد. وهي في الواقع ليست سجلات أكاديمية صينية أصيلة. لم تجر تعديلات إبداعية على تلك النظريات الأدبية الأجنبية لأن الصينيين يفتقرون إلى لغتهم النظرية الخاصة لممارسة تفكيك مستقل لتلك النظريات، وهم يفتقرون حتى إلى الموضوعات التي تخصهم والسرديات المناسبة لتلك النظريات.

«بعبارة أخرى، عاشت النظريات الأدبية الصينية لمدة قرن فعليا في ظلال الآخرين، وتاهت في سجون مفاهيم ومحددات أشخاص آخرين. نالت وجودية سارتر فترة من الشعبية في الصين لأن الناس أحبوا مفهومها عن «آخر سجن الأنا»».

يكشف هذا الوضع، كما يقول زايغو «ظاهرة نفسية أساسية في صين القرن العشرين: يشترك المثقفون الصينيون في القرن الحاضر، بما فيهم الكتاب والمنظرون، في فكرة مفادها أنهم يعيشون في السجون الكلية القدرة للآخرين. لذلك «الخروج من سجن الآخرين» من أهم أهداف الأدب الصيني في نهاية القرن العشرين. ويلاحظ أن العديد من كتاب الصين الشعبية عبروا طقس «وداع الآلهة» الذي يعني التخلص من الأنماط السلوكية والسلوكية السائدة في أواسط القرن، التي جرى دمجها في القلب والعقل.

وداع الآلهة يعني أولا،

وداع إله الثورة، أي التمرد على طغيان الأعمدة السماوية. طغيان استخدام منهج التحليل الطبقي للثور على « حلول أساسية » للمشاكل الاجتماعية، بما فيها المشاكل الثقافية. وفي النظرية الأدبية استخدام مفاهيم الصراع الطبقي الحشنة والفجة لفهم الأدب، ولتدمير الأدب.

ثانيا، وداع الإله الذي « يرتق السماء » أي الذي يرتق القوانين القديمة. تجلّى هذا الأمر في النظرية الأدبية من خلال استحضار الصيغ الأساسية « المسروقة » من كتب نصوص النظرية الأدبية لروسيا السوفياتية، وترقيعها لتصبح صالحة للاستخدام.

ثالثا، وداع بروميثيوس، سارق النار، الذي تسبب في دعم كثير من اللوازم ism لحل المشاكل. تجلّى هذا الأمر في النظرية الأدبية من خلال النظر إلى أيديولوجيات سياسية وأدبية مستوردة كادوات للخلاص.

كما يؤكد ليو أن نقاد الأدب الصينيين قد أدركوا بالفعل أن الأباطرة الروحيين في صين القرن العشرين هم من صنع الأجانب، بعضهم من الألمان وبعضهم من الروس. يصدق الأمر نفسه على النظرية الأدبية، فالأباطرة من الروس والألمان، لكن بعضهم مصنوع في فرنسا وأميركا، أيضا. تسبب هذا الوضع في حرمان النظرية الأدبية الصينية من الطاقة الإبداعية والنتيجة هي ذلك النقاش للأدب الذي غالبا ما يكون نقاشا لمشاكل آخرين. فتلك النقاشات « مستنسخة » عن الأصل. لذلك، دعوة ليو لتوديع الآلهة، هي دعوة للتوقف عن العيش في ظل آلهة شعوب أخرى، والعيش بدلا من ذلك في كينونة مستقلة تتجاوز الآلهة المذكورة. بهذه الطريقة يمكن « المبادرة بطرح » أشياء « ونقاش مشاكلنا الخاصة ». هكذا يكتب ليو بقناعة وتفاؤل عن الأدب الصيني:

« في مستقبلنا سنتعلم بفعالية بالتأكيد ونستوعب إنجازات الجنس البشري، ولكن لا اعتقد أن من الممكن بعد الآن خضوعنا لأباطرة روحيين صنعهم الناس في بلدان أخرى ».

بلور ليو زايغو أفكاره حول « الخروج من سجون الآخرين » في وقت لاحق، ففي نقاشاته الطويلة مع لي زيهو، التي نشرت مؤخرا بعنوان « وداع الثورة » ( ١٩٩٥ )، يصبر على الذاتية في الأدب وعلى فصل الأدب عن السياسة. وإذا لم يكن قد تخطى عن مبادئه العامة، واعتقد أنه لم يفعل، فهذا يعني أنه اختار أن يلزم نفسه بالسياسة، وأن يقلل من الوقت المكرس للكتابة الإبداعية. من الواضح أنه خرج من سجون الآخرين من خلال رفضه لما يقدمه الغرب من حلول لمشاكل الصين، ولكنه اختار - من ناحية أخرى - الدخول الطوعي في السجن الذي يفرضه المثقف الصيني التقليدي على نفسه لممارسة دوره السياسي في المجتمع. ولن يتمكن زايغو إلا في تلك اللحظات العابرة التي يكرسها للكتابة الإبداعية من تحقيق الحرية الشخصية في الأدب.

م في تراث  
م في تراث  
م في تراث

## فرناندو بيسوا كتاب اللاطمأنينة

( مقاطع )

لم تظهر الطبعة الكاملة لكتاب الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا وكتاب اللاطمأنينة إلا عام ١٩٨٢ . لم يتعد ما نشر منه ، من قبل ، بعض المقاطع والشذرات . ويبدو من خلال دراسات وتحقيقات المختصين أن بيسوا شرع في كتابة هذه اليوميات حوالي عام ١٩١٤ واستمر فيها حتى قبيل وفاته بأسابيع قليلة . ولا شك في أن تأخر صدور الكتاب في طبعته الكاملة يعود إلى الصعوبات متعددة المستويات التي واجهها المحققون المختصون في تصنيف وترتيب نصوص الكتاب ، الذي وُجد موزعاً على تسعة أغلفة ، وخالياً تقريباً من أي ترقيم أو عنوان أو تنظيم ، بالإضافة إلى غموض الخط وكثرة التشطيطات والبياضات .

وقد سبق بيسوا أن نشر بعض المقاطع في حياته ، في مجلتين أو ثلاث ، وبخاصة في مجلة «حضور» ، موقعة باسمه ومتسوبة إلى برنارد سوارش الذي اختلف دارسو أدب بيسوا بشأنه ، فمنهم من اعتبره نهديداً لبيسوا ، ومنهم من عده نصف تلبد ، فيما ذهب آخرون إلى اعتباره مجرد اسم مستعار .

على أن أشهر إلى أن الترجمة الإسبانية للكتاب ظهرت كاملة للمرة الأولى عام ١٩٨٥ ، وقد أنجزها الشاعر الإسباني Angel Crispo . وبلغ عدد الطبعات تسع عشرة طبعة حتى عام ١٩٩٨ .

المترجم

### فصل أول

عندما جاء الجيل الذي أنتمي إليه إلى الوجود لم يجد أي سند عقلي أو روحي . ذلك أن العمل الهدام الذي قامت به الأجيال السابقة لنا ، جعل العالم الذي ولدنا فيه مفتقراً إلى الأمان الديني ، وإلى الدعم الأخلاقي ، وإلى الاستقرار السياسي . لقد ولدنا إذن في أوج القلق الميتافيزيقي ، في أوج القلق الروحي ، وفي أوج اللاطمأنينة السياسية . الأجيال التي سبقتنا لحات . مُتخمة بالصينغ الخارجية ،

وبالمسائل البحتة للعقل والعلم، إلى الإطاحة بأسس الإيمان المسيحي كأقفة، لأن نقدها للكتاب المقدس، بانتقاله من نقد النصوص إلى النقد الميثولوجي، حوّل الأناجيل والعهد القديم لليهود إلى ركام مشكوك فيه من الأساطير والحرافات ومن الأدب المحض؛ أما نقدها العلمي فقد ذلّ بالتدرج على الأخطاء وعلى السذاجات الهمجية لـ «العلم» البدائي للأناجيل؛ وفي الوقت نفسه فإن حرية الجدل التي أخرجت إلى النقاش العلني سائر المعضلات الميتافيزيقية، سحبت معها أيضاً كل القضايا والمشكلات الدينية المنتمية إلى الميتافيزيقا. لقد انتقدت تلك الأجيال، ثَمَلَةً ومُتَمِّمَةً بما أسسته «الوضعية» الأخلاقيات كُلُّها وقلبت كافة قواعد الحياة. ومن صدمة تلك المعتقدات لم يبق سوى يقين زوالها بالكامل. إن مجتمعاً مُقَوِّضاً في نظامه وأسسه الثقافية لم يكن يقادر على أن يكون شيئاً آخر بالطبع، سوى ضحية، للانظامية تلك؛ وكذلك جرت الأمور كما لو أننا أيقظنا عالماً متعطشاً إلى الجديد الاجتماعي. سيمضي ذلك الجيل مبتهجاً بتحقيق حرية لم يعرف كنهها، وتقدم لم يتمكن قط من تحديد ماهيته. لكن، إذا كان النقد الابتدالي لآبائنا قد أورثنا استحالة أن نكون مسيحيين، فإنه لم يورثنا بالمقابل، الرضى بذلك. إذا كان قد أورثنا عدم الإيمان بالصيغ الأخلاقية المتحققة، فإنه لم يورثنا اللامبالاة تجاه الأخلاق وتجاه قواعد العيش الإنساني؛ إذا كان قد ترك المشكل السياسي بدون حل، فهو لم يدع روحنا لامبالية إزاء كيفية حل ذلك المشكل.

لقد قوِّض آباؤنا ما قوضوا بفرح لأنهم عاشوا في لحظة كانت ما تزال محتفظة بانعكاسات من صلابة الماضي، الذي أطاحوا منه بما يهب المجتمع القوة حتى يتمكنوا من الهدم دون أن يشعروا بتشققات البناء. نحن إنما ورثنا الهدم ومخلفاته.

عالم اليوم هو عالم البلهاء وعديمي الإحساس والمهيجين. الحق في العيش وفي النجاح يتم اليوم بنفس المبررات التي يتم بها الحجز في مصحات الأمراض العقلية...

### سلسلة النهاية

انتمي إلى جيل ورث الارتياح تجاه الإيمان المسيحي خالقاً في ذاته الكفر بكل أنواع الإيمان. آباؤنا ما زالوا يمتلكون الباعث الإيماني الذي نقلوه من المسيحية إلى أشكال أخرى من الوهم. بعضهم كان من المتحمسين للمساواة الاجتماعية. بعض منهم اقتصر على عشق الجمال لذاته. بعض آخر أودع إيمانه في العلم ومنافعه. وثمة آخرون، أكثر مسيحية، مضوا يبحثن في مشارق الأرض ومغاربها عن أشكال تدينية أخرى لتلهية الوعي الذي سيغدو مجوفاً بدونها في تجربة العيش الخالص. هذا كله فقدناه نحن، ومن كل هذه التعزيات والبلاسم ولُئلا يتامى. كل حضارة تتبع الخط الخاص للدين الذي يمثلها: الانتقال إلى أديان أخرى يؤدي إلى إضاعة هذا الدين، وإلى إضاعة الأديان كلها في النهاية.

أما نحن فقد فقدنا هذا الدين منذ البداية، ومع الأديان الأخرى بدورها، وانتبهنا إلى الاستسلام لذواتنا الفردية، داخل وحشية الإحساس بالحياة. إن المركب هو أداؤه هذلقها الإبحار. بيد أن الغاية الفعلية ليست هي الإبحار، وإنما الوصول إلى ميناء. نحن وجدنا أنفسنا مبحرين، فاقدين

لفكرة الميناء الذي علينا أن نرسو فيه. وهكذا أنجبنا، داخل الجنس الإنساني المودع، الوصفة المغامرة للابطال الأسطوريين: الإبحار ضرورة، العيش لا.

بلا أوهام نعيش بالكاد من الحلم الذي هو وهم من لا قدرة له على امتلاك الأوهام. وباقتياتنا من ذواتنا نزداد ضالة، لأن الإنسان الكامل هو الإنسان المتجاهل. وباقتقادنا للإيمان أصبحنا نعيش دون أمل. وبفقدانا الأمل لم تعد حَيَاتُنَا نحن هذه التي نحياها. ومع افتقارنا لآية فكرة عن المستقبل أصبحنا فاقدين لآية فكرة عن الحاضر. لأن الحاضر، بالنسبة إلى رجل الفعل ليس سوى مدخل للمستقبل. مَعْتَا مَيْتَةٌ وَلَدَتْ طَائِقَةَ الْكِفَاحِ، لأننا ولدنا محرومين من حماسة الصراع. البعض منا سجنوا أنفسهم في مجرد امتلاك ما هو يومي، مبتدلين صفراء بلمهثون وراء خبز كل يوم، راغبين في الحصول عليه دون فعل محسوس، دون الوعي بالمجهود المبذول، دون نبالة ما يُنَال. آخرون من طينة أفضل: انسحبوا أو لنقل انسحبنا من الانشغال بالشأن العمومي، دون أن نرغب في شيء ولا أن نطمح إلى شيء، محاولين حمل صليب وجودنا إلى جلجلة النسيان، مجهود لا طائل وراءه بالنسبة إلى من لا يملك، مثل حامل الصليب، محرراً إلهياً داخل وعيه.

آخرون استسلموا، بانسغالهم بما يقع خارج الروح، للصخب والفوضى. يحسبون أنهم يحيون إذ يتبادلون الإنصات. ويحسبون أنهم يجربون الحب عندما يقعون في قشوره. يؤثنا العيش لأننا نعلم أننا نعيش؛ الموت لا يخيفنا، لأننا فقدنا المفهوم للمعتاد عن الموت.

غير أن آخرين من سلالة النهاية، الحد الروحي للساعة الميتة، لم يمتلكوا قسمة الرفض ولا الملاذ في ذواتهم، ما عاشوه عاشوه في النفي والإنكار والغم. لكننا عشناه من الداخل، بلا إشارات منبهة، محبوسين دائماً، على الأقل فيما يتعلق بنوع الحياة، بين المجدران الأربعة للغرفة والمجدران الأربعة لانعدام المعرفة بالفعل.

### لو كان العالم ملك يدي

رابط الجناش، أواجه حيسي الدائم لحياتي في شارع Los Doradores<sup>(١)</sup> هذا، في نفس هذا المكتب، بين هؤلاء الناس. حيث أعيش بالقليل المتاح لي، وحيث المحدود من الفضاء الحر المتاح في الزمن لي كيما أحلم، أكتب - أنام - ، وما الذي بإمكانني أن التمسه أنا من الآلهة أو أتوقعه من القدر ؟

كانت لدي طموحات كبيرة وأحلام واسعة، لكن الحُمَال ومتعلمة الخياطة كذلك كانت لديهما نفس الأحلام. لأن الأحلام مشاع للجميع : ما يجعلنا متميزين هو القدرة على تحقيقها أو قدرة تحقيقها فينا. في الحلم نحن سواء متعلمة الخياطة والحمال وأنا، ما يميزني عنهما هو معرفتي بالكتابة التي هي فعل خاص بي. على مستوى الروح نحن سواء. حسناً أعرف أن هناك جزءاً في الجنوب وعشقيات كونية كبيرة و<sup>(٢)</sup>.

لو كان العالم ملك يدي لغيرته، وأنا متيقن، مقابل تذكرة شارع Los Doradores. ربما كان مقبضاً لي أن اظل محاسباً إلى الأبد. أما الأدب والشعر فهما بمثابة فراشة كلما كانت

اجمل وأبهى بذوت أكثر إثارة للسخرية بفعل حومانها فوق رأسي .  
ساحس بكل اشتياقات Moriera<sup>(٢)</sup> لكن ما الذي تعنيه الاشتياقات أمام المعارج الكبرى ؟ .  
أعلم جيداً أن اليوم الذي سأغدو فيه محاسباً<sup>(١)</sup> في إدارة فاسكيز سيكون من الأيام المجيدة في حياتي . أعلم ذلك بتكهن استباقي مرير وتهكمي لكنني أعلمه بالامتياز العقلي للميقين .

### حديث النثر

أفضل النثر على الشعر، كشكل من أشكال الفن لسببين : الأول شخصي خاص وهو أنني غير قادر على الاختيار، وإذن فأنا عاجز عن كتابة الشعر . السبب الثاني عام، وهو ليس - أعتقد ذلك حقاً - ظلاً أو قناعاً للأول، ... إنه يحس المفهوم الخاص لقيمة الفن بكاملها .

أعتبر الشعر شيئاً بسيطاً، خطورة من الموسيقى باتجاه النثر . الشعر، مثل الموسيقى، محكوم بقوانين إيقاعية محددة، وحتى لو لم تكن من نمط القوانين الصارمة للشعر المنظوم، فهي قائمة، مع ذلك، كدفاعات، كإكراهات، كآجهزة أوتوماتيكية للضغط والعقاب . في النثر نحن نتحدث أحراراً . بإمكاننا أن نضمن إيقاعات شعرية، وأن نوجد خارجها، مع ذلك . إن تسرب إيقاع شعري معين بصفة عرضية إلى النثر لا يعوق النثر؛ لكن تسرب إيقاع نثري عرضاً إلى الشعر يفسد الشعر .

الفن كله متضمن في النثر . من جهة لأنه في الكلمة، الكلمة الحرة يتركز العالم بكامله . ومن جهة ثانية لأنه في الكلمة الحرة توجد الإمكانية الكاملة لكي نعبر عن العالم ونفكر فيه في آن . في النثر نمنحه كل شيء، بواسطة التحويل : نمنحه اللون والشكل اللذين ليس بمقدور الرسم منحهما إياهما إلا على نحو مباشر، وبدون أي بعد حميم؛ ونمنحه الإيقاع الذي لا تمنحه الموسيقى إلا مباشرة أيضاً، ودون شكل مُحجَستَن، ومجرداً من ذلك الجسد الثاني الذي هو الفكرة؛ ونمنحه البنية التي إذا كان على المعماري أن يشكّلها من مواد صلبة، معطاة وخارجية فإننا نصنعها من إيقاعات وترديدات من متتاليات وانسيابات؛ ثم نمنحه الواقعية التي على المثال أن يخلقها في العالم بلا ليونة ولا استحالة؛ وأخيراً نمنحه الشعر، الشعر الذي دور الشاعر فيه شبيه بدور المبتدئ في محفل سري، هو عبد، وإن طوعاً، لمقامات وطقوس معينة .

إنني على يقين من أنه، في عالم متحضر تماماً، لن يوجد فن آخر غير النثر .  
سوف تترك الغروب للغروب، معتنين بالفن وحده، مستوعبينه شفويّاً، ناقلينه هكذا بواسطة موسيقى تفهم بالقلب . لن نصنع نحنًا للأجساد التي ستحتفظ، مرثية وممسوسة، برونقها متحركاً وبرودتها ناعمة . سننشئ بيوتاً، فقط لنقيم فيها، وهو ما من أجله وجدت البيوت في النهاية . أما الشعر فسيمضي ليقرب الأطفال من النثر المستقبلي، لأن الشعر، بالفعل، طفولي وأولي وتحضير .  
حتى الفنون الدنيا، أو تلك التي يمكن تسميتها كذلك، تظهر وشواتها في النثر . ثمة نثر يرقص، نثر يغني، نثر ينشد بذاته لذاته . ثمة إيقاعات شفوية هي بحد ذاتها رقصات تتعري فيها الفكرة ملتوية بشهوية وحسوية نصف شفافه ومتقنة، ثمت في النثر أيضاً خبايا مرتعشة . يثبت فيها مثل كبير هو الفعل، بجوهره للجذب، عبر الإيقاع، سرّ الكون المتعذر على الإدراك المحسوس .

## شهوة الكلمات

يحاولي التلاعب بالكلمات. إنها بالنسبة إليّ أجساد يمكن لمسها، حوريات مرثيات، شهويات لا ماديّات. ذلك لأن الشهوة الفعلية لا تستثير أي اهتمام لديّ. سواء في الواقع أو في الأحلام، لقد استعصمتُ عنها بما يؤلّد الإيقاعات الشفوية لديّ أو الرغبة في الإنصات إلى تجسّدها عند الآخرين، بحيث تتولد الرعدة فيّ عندما يتمّ التلفظ بها بإتقان. من ذلك مثلاً أن قراءة صفحة لـ FIALHO<sup>(٩)</sup> أو لشاتوبريان من شأنها أن تُصيب شراييني بالتشنّج مُسبّبة لي ألماً شديداً مصحوباً بقشعريرة داخلية هادئة بفعل المتعة الغالية التي أجنيها من هذه القراءة.

كما أن صفحة من صفحات Vieira<sup>(١٠)</sup> بإتقانها البارد ذي الهندسة النحوية تحملني على الارتعاش ارتعاشه غصن إزاء الريح في هذيان مُنصاع لشيء نواس.

ومثل كل العشاق الكبار أعشق حلاوة الانققاد في ذاتي نفسها، حيث متعة الاستسلام كاملة تُعاش. هكذا أكتب، أحيان كثيرة، بدون رغبة في التفكير في أي هذيان خارجي، مُستليماً أمرّي للكلمات تصنع احتفالاتها بي، مثل طفل صغير في حضنه اللين، جمل لا معنى لها تجري ناعمة جريان مياه محسوسة، جداول غفل، حيث الموجات تختلط لا مُتعبنة متحوّلة باستمرار إلى غير ما كانته.. كذلك الأفكار، الصور، وعشات التعبير، من خلالي غمر، بمغازلات صائتة لتموجات حريرية خافتة. حيث مُبتهماً يهتزّ الصفاء القمريّ للأفكار.

ما تُسألني إياه الحياة وما تهنيي لا يعنيني ولا يبكيني. بالمقابل لطالما أبكتني بضع صفحات من النثر. انذكر، كما لو كنت أرى ذلك بعيني الآن، في تلك الليلة، طفلاً كنت ما أزال حينما قرأت، للمرة الأولى، في إحدى المختارات ما أورده Vieira بخصوص الملك سليمان:

«صنع سليمان قصرًا... وواصلت القراءة، حتى النهاية، مرتعشاً، متحيراً كيما انخرط في بكاء سعيد مديد، لم ولن يكون بمقدور أي سعادة واقعية أن توفره لي، ولا أي حزن من أحزان الحياة أن يدفعني إلى تقليده.

تلك الحركة الكهنوتية للغتنا الواضحة المهيبة. ذلك التعبير عن الأفكار في الكلمات اللامناص منها. ذلك الجريان المائي بفعل انحدار المجرى، ذلك الانخفاف الصوتي حيث الأصوات ألوان ذهنية؛ ذلك كله كان يسكرني غريزياً كما لو باهتياج سياسي هائل. لذلك بكيت؛ واليوم، إذ انذكر، أبكي، لا حنيناً - لا إلى الطفولة التي ليس لديّ أي حنين إليها: بل هو الحنين العاطفي إلى تلك اللحظة، والحنن المتولد عن العجز عن قراءة ذلك التأكيد السنفوني.

لا أملك أي نوع من المشاعر السياسية أو الاجتماعية إلا أنني أملك، بمعنى من المعاني، شعوراً وطنياً عالياً جداً. أما وطني فهو اللغة البرتغالية. ولن يحزنني أن تُجتاح البرتغال أو تُحتل، طالما لم يصبني الأذى شخصياً. لكنني أشعر بكرهية حقيقية، هي الكراهية الوحيدة التي استشرها إزاء، لا من يكتب البرتغالية سيّئاً، ولا من يجهل النحو، ولا من يكتب وفق قواعد إملائية مبسطة، وإنما نحو الصفحة المكتوبة بشكل سيء، كما لو كان شعوراً بالكراهية نحو شخص يعينه. أكره النحو المستعمل

مغلوطاً كراهيتي لأشخاص يتوجب صفعهم، أكره الاستعمال اللا مضبوط لقواعد الإملاء، كما لو أن الأمر يتعلق ببصقة مباشرة. أجل، ذلك أن قواعد الإملاء هي كائنات بشرية بدورها. الكلمة كائن كامل مرئية ومسموعة.

## ملك روما

فكرت اليوم، أثناء لحظة إحساس معينة، في شكل النشر الذي استعمله. حقاً، لا بد من التساؤل، كيف أكتب؟ لقد كانت لدي، مثل الجميع، تلك الرغبة المفسدة في امتلاك نظام وقاعدة بهذا الشأن. أكيد أنني مارست الكتابة قبل امتلاك أي قاعدة أو نظام. وأنا لا أختلف بهذا عن الآخرين. وقد اكتشفت، بتحليل ذاتي قمت به هذا المساء، أن نظام الأسلوب عندي يركز على أساسين ينبنيان بدورهما حسب الطريقة المثلى للكلاسيكيين الجيدين على الأسس العامة لكل أسلوب وهما: أن أعبر عما أحسن تماماً وفق ما أحس - بوضوح إن كان ما أحسته واضحاً، وبغموض إن كان غامضاً، وملتبساً إن كان ما أحسته ملتبساً بالفعل -؛ أن أدرك أن قواعد النحو هي أداة وحسب وليست قانوناً. لنفترض أنني أشاهد أمامكم فتاة ذات سلوك ذكوري. إذن هناك شخص عامي سيقول عنها: «البنيت تبدر ولداً» ثم شخص آخر سيقول، إنما بصيغة أقرب إلى الوعي بأن الكلام هو التعبير: «هذه البنيت ولد». شخص ثالث وإع هو الآخر بتطلبات التعبير، لكنه، مدفوعاً بنزوة الاقتضاب الذي هو التجسيد الحي لشبقية الفكر، سيقول عنها: «ذلك الولد». أما أنا فسأقول على الفور: «تلك الولد»، منتهاكاً أكثر القواعد النحوية أساسية وهي الملزمة بتوفر تطابق في الجنس والعدد بين النعت والمفعول.

وسأقول حسناً.. أنا استخدمت الالفاظ مُطلَقَةً، على نحو فوتوغرافي، خارج المألوف، خارج القاعدة، وخارج ما هو مبتذل، وبذلك فانا لم أتكلم وإنما عُبِّرْتُ.

إذا فحصنا الاستعمالات اللغوية، نجد النحو يضع تقسيمات مشروعة وزائفة. فهو مثلاً يقسم الأفعال إلى لازمة ومتعدية. لكن الإنسان الذي يجيد التعبير عما يحس ينبغي عليه أحياناً كثيرة أن يحول فعلاً متعدياً إلى لازم حتى يصور بالضبط ما يحسه. لو أردت مثلاً أن أقول «أنا موجود» existo لقلت: “Soy”<sup>(٧)</sup>. لو شعيت أن أقول بانني أوجد كروح منفصلة سأقول: “Soy yo”. لكن إذا أردت أن أقول بانني موجود كذات متشكلة بذاتها وتمارس إزاء ذاتها الوظيفة الإلهية لخلق ذاتها (creare). فكيف ينبغي أن استعمل الفعل (ser) (الدال على الكينونة) إن لم أخوِّله من اللزوم إلى التعدية؟ وحينئذ، وبصوت عالٍ، وضد النحو وبإحساس الظافر، سأقول: “Me soy”. وبذلك أكون قد عبرت عن فلسفة بكاملها في لفظتين صغيرتين. أو يُمكن أن نطلب أكثر من هذا من الفلسفة والتعبير معاً؟

من لا يعرف كيف يفكر ما يحس هو الذي يخضع للنحو، أما الذي يخدمه بالفعل فهو من يعرف التحكم في استعماله التعبيرية. يُحْكَمُ عن سيجموند ملك روما، أنه أجاب بعض من نبيه إلى خطأ نحوي ارتكبه أثناء إلقائه لإحدى خطبه: «أنا ملك روما، وملك النحو علاوة على ذلك».

والتاريخ يروي أنه عُرف خلال حكمه باعتباره سيجموند «الشّور نُحوي». رمز عجيب بلا شك. كل من يعرف قول ما يقول هو ملك روما بطريقته الخاصة...

### من أنا ؟

كل شيء يغلت مني. حياتي كلها، ذكرياتي، مخيلتي بما تحتويه، شخصيتي، الكل يتبخر، أحس باستمرار انني كنت شخصاً آخر، وأنني أحسست وفكرت بانني آخر. وذلك الذي أعانيه هو مشهد من سيناريو آخر. ذلك الذي أعانيه هو أنا بالذات.

أحياناً أعثر في الفوضى الخاوية لأدراجي الأدبية، على أوراق كتبتها منذ عشر سنوات، منذ خمس عشرة سنة، وربما أكثر. والكثير من هذه الأوراق يبدو لي منتعياً لرجل غريب. إذ لا أتعرف على نفسي فيها. لا بد أن أحداً قد كتب هذه الأوراق. وهذا الكاتب هو أنا. أنا الذي عايشها بإحساسه، لكن ذلك حدث في حياة أخرى سبق أن استيقظت منها كما لو من حلم ينتمي للغير.

يحدث مراراً أن أعثر على أشياء كتبتها وأنا شاب صغير، مقاطع تعود إلى سن الثامنة عشرة، مقاطع تعود إلى العشرين. وبعضها يمتلك قوة تعبير لا أتذكر كيف كنت قادراً على امتلاكها في تلك المرحلة من عمري. ثمة مقاطع تُحسُّ أموراً مكتوبة بـتحيّة مراهقتي، تبدو لي من ثمار شخصي الراهن الذي حنكته سنوات وتجارب وأحداث. أعرف انني لست ذلك الذي كان. ومع إحساسي بأنني أعرف تطوراً كبيراً بالمقارنة مع ما كنته، أسأل أين يوجد هذا التطور إن كنت حينئذٍ للشخص نفسه الذي أنا اليوم.

ثمت في هذا كله لغز محيرٍ يحيطني ويغميني. منذ أيام عانيت من إحساس مرعب، بسبب نص مكتوب قصير لي يعود إلى الماضي. أتذكر تماماً وسواسي البارز فيه تجاه اللغة التي تعود إلى سنوات قليلة خلت. ثم في أحد الأدراج عثرت على نص مكتوب لي، يعود إلى تاريخ أقدم، يبدو فيه وسواسي ذلك مُبرّزاً بقوة. لم أدرك في الماضي إدراكاً إيجابياً، كيف أمكنني أن أتطور لأصبح ما كنته بالفعل حينئذٍ؟ كيف عرفت ما كنت أجهله بالأمس؟ والكل متداخل عندي داخل مائة أنا التائه في ذاتي فيها.

مفكراً أغرق في الهذيان، موقناً بأن ما أكتبه الآن قد كتبتّه بالفعل من قبل. أتذكر ذلك، وأسأل هذا الموجود للزهو في أين يوجد إن لم يكن في أفلاطونية الاحاسيس ذاكرة أخرى، ذكرى أخرى من حياة سابقة تنتمي بالكاد إلى هذه الحياة...

يا إلهي... يا إلهي. من أكون؟ كم من ذوات أنا؟ من هو أنا؟ ما هو هذا الفاصل الموجود بيني وبينني؟

### عمر الخيام

عمر الخيام كانت له شخصية معينة، أما أنا، فلا أملك، لحسن الحظ أو لسوءه، أي شخصية على الإطلاق. ما أكونه في لحظة معينة، أنفصل عنه في اللحظة الموالية؛ ما كنته ذات يوم، أنساه في اليوم

الذي يليه . لا يشبه عمر الخيام إلا ذاك الذي يعيش في عالم واحد، هو العالم الخارجي، أما من هو مثلي فيحيا في عالم داخلي متعاقب متنوع . وحتى لو رغب في أن تكون له نفس فلسفة عمر الخيام فلن يستطيع ذلك حتماً . هكذا أمتلك فيّ، ولو لم أرغب في ذلك حقاً، الفلسفات التي انتقدتها كما لو كانت أرواحاً مقيمة بداخلي؛ بإمكان عمر الخيام أن يستبعدا لأنها شيء خارجي بالنسبة إليه، أما أنا فلست بقادر على ذلك، لأنها أناي.

### روحي

روحي عبارة عن أوركسترا خفية : لا أدري أي الآلات تعزف فيها أو تصر، أوتار وقيانير، نغارات وطبول، بداخلي . لا أتعرف على ذاتي إلا كسفنونية وحسب .

### لا أحد

توصلت اليوم، إلى إحساس لا معقول وصحيح في آن، لقد تنبعت، بوميض برق باطني، إلى أنني لا أحد . لا أحد، على الإطلاق لا أحد . حينما أضاء البرق، هناك حيث المدينة المفترضة لم يكن ثمة غير سهل قاحل، أما النور الذي أسفر عنه فلم يكن ليكشف أي سماء فوقه . لقد سُرقت مني قدرة أن أوجد قبل وجود العالم . وإذا كان عليّ أن أعاود التجسد، لقد عاودت التجسد بدوني، بغير تجسّد أناي .

أنا هوامش مدينة ليس لها وجود، أنا التعليق المسهب على كتاب لم يكتب، لست بأحد أنا، لا أحد . لا أعرف كيف أحس، لا أعرف كيف أفكر، لا أعرف أن أرغب، أن أريد . أنا نموذج (شخص) في رواية ينبغي أن تكتب، يمر مرور الأثير، ويتوارى، بدون أن يكون قد وُجد، في أحلام من لا يعرف منحي الاكتمال .

دائماً أفكر، دائماً أحس، لكن تفكيري لا يحوي أي منطق . وعاطفتي خالية من أية عواطف . أحس بانني أسقط، عبر الفخ المنسوب هناك في الأعلى، في الفضاء اللانهائي بتمامه، سقوطاً ليس له اتجاه، سقوطاً لا متناهياً وفارغاً، روعي تيار بحري أسود، دوار أسود حول الفراغ، حركة محيط لا نهائي حول ثقب من هباء، وفي المياه الدوارة، تطفو جميع صور ما رايت وما سمعت في هذا العالم . منازل تمر، وجوه، كتب، صناديق، مخلوقات موسيقية، مقاطع أصوات في دوامة عسراء ليس لها قرار .

وأنا، أنا بالفعل، أنا المركز اللاوجود له لهذا كله إلا بهندسة الهاوية؛ أنا الهباء الذي حوله تدور هذه الحركة بدون أن يكون لذلك المركز من وجود سوى لأنه دائرة كله دائرة . أنا حقاً، أنا البئر بلا حيطان، إنما بكلّ اللزوجة التي تملكها الحيطان . أنا مركز الكل محاطاً بالهباء .

ذلك أنه، فيّ أنا، كما لو أن الجحيم نفسها مع إنسانية الشياطين تضحكان، فيّ أنا يثوي الجنون التناق للمكون الميت، الجنة الدوارة للفضاء الفيزيقي، نهاية العوالم كلها وهي تتقلب مسرودة أمام الريح، مشوهة، مهجورة، بدون الله الذي قد يكون خالقها، بدون هو ذاته متدحرجاً في غياهب

الغياهب، مستحيلًا، فريدًا - كل شيء.

ان أعرف كيف أفكر! أن أعرف كيف أحس!

في فترة مبكرة جداً توفيت أمي، وأنا لم يتح لي التعرف عليها.

١٩٣١/١٢/١

وسواس

فلأنتجُ كُلَّ عاطفة شخصية خاصة بها، كُلُّ وضع من أوضاع الروح رُوحاً مستقلة.

ما يرى من الداخل

لأنني لا أملك ما أفعل؛ ولا حتى التفكير فيما عليّ أن أفعل، ساضع على هذا الورق خطاطة وصف لحاشية نموذجية؛ أريد حساسية مالا رمي داخل أسلوب فييرا، الحلم على طريقة فرلين بجسد هوراس؛ أن أكون هوميروس على ضوء القمر.

أريد أن أحس كل شيء بكل الأشكال الممكنة وغير الممكنة؛ أن أعرف كيف أفكر بالأحاسيس وأحس بواسطة الأفكار، ألا يكون لي طموح إلا بواسطة الخيال؛ أن أتالم بدلاً؛ أن أرى ما أراه بوضوح كما أكتب بطريقة صحيحة؛ أن تكون معرفتي بمنهجية ومداجية، . . وبالجمل أن أستخدم من الداخل الأحاسيس كلها، نازعاً عنها القشور قشرة قشرة، حتى أصل إلى الله، لكن مع تغليفها من جديد وإعادتها إلى الواجهة الزجاجية على نحو ما يفعل ذلك البائع الذي أراه من هنا يعلب زفت صغيرة من النوع الجديد .

كل هذه الرغبات المثالية الممكنة أو المستحيلة تتبخر الآن، ثمة الواقع أمامي: ليس البائع ما أرى، إنها يده (البائع لا أراه)، وهي مَلَمَسٌ لا معقول لروح ذات عائلة وحظ، يصنع تعرجات لعنكبوت لا نسيج له عبر مُتَدِّدِ استعادة الهناك الذي قبّلتني .

١٩٣٠

## الصدى والهاوية

بالتفكير خلّقتُ صدًى وهاوية، بتعمقي ذاتي تكاثرت . الحادث العرضي، الصغير جداً، ما ينبثق عن الضوء من تغير، السقوط الملفوف لورقة جافة، البتلة المنتزعة مُصْفَرَّة، صَوْتُ الجانب الآخر من الجدار أو خطوات المُتَلَقِّظِ بالصوت جنب خطوات من ينبغي أن يسمعه، البوابة المواربة للضيعة القديمة، الساحة المنفتحة على قوس البيوت المتجمعة تحت ضوء القمر، كل هذه الأشياء، التي لا تنتمي إليّ، تُنْبِتُ فيّ التأمل الحسّاس بأواصر من رنين وحنين . في كل إحساس من تلك الإحساسات أشعر أنني آخر، متألماً أتجددُ في إحساس لا مُحدّد .

من أحاسيس لا تنتمي إليّ أحتيا، غيّر عابئ بالتنازلات، آخر أغدو في الشكل مثلما أنا بالفعل .

## أنا المسرح الحي

خَلَقْتُ نَبِيَّ شخصيات متعددة، باستمرار أخلق شخصيات بداخلي. كل حلم من أحلامي، يتجسد لحظة ظهوره كحلم، في شخص آخر، يصبح هو حالم الحلم وأبقى أنا خالي الوفاض.

لكي ابني، كان عليّ أن أتهدم: كثيراً ما كنتُ بُزائناً داخل ذاتي. لأنني لا أوجد داخل ذاتي إلا خارجياً. أنا المسرح الحي الذي تتعاقب عليه أدوار ممثلين متنوعين يشخصون أعمالاً درامية شاسعة التنوع.

## أغنية بلد بعيد

كان يغني، بصوت شديد النعومة، أغنية بلد بعيد. وكانت الموسيقى تجعل الكلمات المجهولة الليفة حميمة، يبدو أنها كانت أغنية روحية من أغاني الفادو، لكن بغير أي شبه بالفادو.

كانت الأغنية تعبر، بالكلمات الكريمة والتغم الإنساني، عن أشياء كائنة في أرواح الجميع وما من أحد يعرفها. وكان هو يؤديها بنوع من التوهيم، متجاهلاً المستمعين بنظره، بانتشاءة متسكع شوارع.

الناس المتجمعون كانوا ينصتون إليه بلا جلجل مرثي. كانت الأغنية أغنية العالم كله، والكلمات تتحدث إلينا عن السر الشرقي لجنس مفقود.

ضوضاء المدينة ما كانت لتنفذ إلى مسمعي، والسيارات كانت تمرق عن قرب إلى حد أن إحداها لامست ذيل بدليتي. لكنني كنت أحسها بدون أن أسمعها. كان هناك في أغنية المجهول امتصاص مريح لذلك المألوم المتعذر فينا. الحادث كان حادث متسكع عابر، وكلنا ركزنا نظرتنا على الشرطي الذي دار حول زاوية الشارع على مهل، ثم دنا متوقفاً للحظة خلف حامل المظلات، كمن يتفرج على مشهد، في تلك اللحظة. كَفَّ المغني عن الغناء، لم ينبس أحد بشيء، وحينئذٍ تدخل الشرطي.

## أشياء تمر بدون أن تحدث

الحالمون بالممكن، وللمنطقي القريب يثيرون شفتي أكثر من الحالمين بالبعيد والغريب. الحالمون بالكبير، هم إما مجانين يؤمنون بما يحلمون محققين بذلك سعادتهم الخاصة، وإما هذيانيون بسطاء مبسّون يمثلّ الهذيان بالنسبة إليهم موسيقى روحية تهددهم بدون أن تقول لهم شيئاً. لكن من يحلم بالممكن لديه دوماً الإمكانية الواقعية الخيبة الأمل الحقيقية. لا يمكن أن يؤثر في كثيراً لو تُخَلِّتُ عن أن أكون امبراطوراً رومانياً، لكن يمكن أن يؤلّني عدم قدرتي على محادثة الحياطة التي تحتاز، حوالى الساعة التاسعة صباحاً، الزاوية اليمنى من الشارع. الحلم الذي يعدنا بالمستحيل يحرمننا منه بمجرد الاستسلام للحلم. لكن الحلم الذي يعدنا بالممكن يندرج في الحياة الفعلية ويُفوّضُ لها إمكانية تحقيقه، الأول يحيا منفصلاً ومستقلاً، الثاني خاضعاً لاحتمالات الحدث.

لذلك أحب المشاهد الطبيعية المستحيلة والفيافي الشاسعة التي لن أطاها أبداً. إن للحقب التاريخية الماضية روعة خالصة، لذلك، لا يمكنني بالطبع التفكير في إمكانية العيش فيها. لا أنام إلا عندما

أحلم بما لا وجود له، واستيقظ فقد عندما أحلم بما يمكن أن يوجد .  
أطل، من إحدى نوافذ المكتب الخالي في منتصف النهار، على الشارع الذي يحس شرودي بحركات  
الناس في العيون، بدون أن يراهم، من خلال المسافة الفاصلة لثاملاتي. أنام على المرفقين، حيث  
يؤلني الدرابزين... تفاصيل الشارع الخامل حيث يسير الكثيرون، تفصلني بعيداً، ذهنياً: الصناديق  
المكدسة في العربة، الأكياس الموضوعة عند باب الخزن، وفي الواجهة الزجاجية البعيدة للمتجر الكائن  
في الزاوية. بمعرضات ما وراء البحار، الملح قنينات خمر أوبرطو التي أتخيل ألا أحد يستطيع شراءها.  
ينفصل عني جوهر النصف الآخر من المادة. اتفحص وأنقب بالتخيل وحده. الناس الذين يمرّون عبر  
الشارع هم دائماً نفس الناس الذين مروا منذ قليل، إنه المظهر المتقلب لأحد ما، يُقَعّ بلا حركة،  
أصوات مرتابة، أشياء تمر بدون أن تكون قد حدثت بالفعل.

التفسير بواسطة الوعي الحواسي، قبل الحواس ذاتها... إمكانية أشياء أخرى... و، بغتة، ير، من  
ورائي، في المكتب، نداء الصبيّ المستخدم كما لو من هاوية ميتافيزيقية. أشعر بانني قادر على قتله  
لأنه قطع عليّ حبل ما لم أكن أفكر فيه. انظر إليه، بصمت مغمم بالكرهية، أتصمت مسبقاً، بنية قتل  
دفيئة، إلى الصوت الذي سيهم بان يقول لي شيئاً. يتتسم من داخل البيت ويقدم لي تحية المساء  
بصوت عالٍ. أكرهه مثلما أكره الكون. عيناى مثقلتان بالنعاس.

### «محاولة عيش»

منذ أن انتقلت الأمطار الأخيرة نحو الجنوب، وبقيت، وحدها الريح، التي كنسبتها، عادت إلى  
تجمعات المدينة بهجة الشمس الأكيدة وظهرت ثياب بيضاء كثيرة معلقة على الجبال الممدودة بواسطة  
القضبان في النوافذ العالية للمنازل المتعددة الألوان.

بدوري أصبحت فرحاً، لأنني موجود. لقد خرجت من البيت تحدوني غاية كبرى، هي في النهاية،  
الوصول إلى المكتب في الوقت المحدد. لكن في هذا اليوم، يبدو أن القسر المحض للحياة قد انصاع  
لذلك القسر الآخر المحبب، الذي جعل الشمس تأتي في ساعات التقويم متطابقة مع عرض وطول  
الأمكنة الأرضية. لقد أحسستني سعيداً لأنه لم يكن بمستطاعي أن أحسني بالأسا. نزلت الشارع  
مرتاحاً، مغمماً باليقين، لأن المكتب المعروف، في آخر المطاف، والناس المعروفين الموجودين بالمكتب،  
كانوا من اليقينيات. ما كان ليدهشني إحساسي بانني حر، بدون أن أعرف لماذا. في السلال للوضوعة  
على جوانب أرصفة شارع La Plata <sup>(أ)</sup> كانت أعذاق الموز المعروضة للبيع، تحت الشمس، فاقعة  
الصفرة.

أنا فرح، فوق كل شيء، بالقليل: بتوقف المطر، بوجود شمس طيبة في هذا الجنوب السعيد،  
بالموز المتجاوز حدة الاصفرار بما يعرفه من بقع سوداء، بالناس الذين يبيعونه لأنهم يتبادلون الحديث،  
بارصفة شارع La Plata، بنهر التاج في العمق، أزرق مخضراً ضارباً إلى الذهب، وبكل هذا الركن  
الآليف من نظام الكون.

سوف يأتي اليوم الذي لن يكون بمقدوري أن أرى فيه هذه الأشياء، اليوم الذي ستستمر فيه حية

أعذاق الموز بجانب الرصيف، وأصوات البائعات الفطنات، والصحف اليومية التي نشرها الصبي الصغير في زاوية الرصيف الآخر من الشارع. حسناً أعلم أن الموز سيكون موزاً آخر وكذلك البائعات، وأن الصحف سيكون لها، بالنسبة إلى من سينحتي لرؤيتها، تاريخ آخر ليس هو اليوم، لكنهم لا يحيون، يستمرون وإن كانوا آخرين؛ أما أنا، الذي أعيش، فعابر ولو كنت نفسي.

هذه اللحظة يمكن الاحتفال بها بشراء الموز، إذ يبدو لي أنه في هذا الموز قد تركزت كل شمس هذا اليوم مثل فانوس بلا بطارية. لكنني أخجل من الطقوس، من الرموز، من شراء أشياء في الشارع. بإمكانهم ألا يُلْقُوا الموز جيداً، ألا يبيعونه كما يجب أن يباع لعدم معرفتي بشرائه كما ينبغي أن يشتري، يمكنهم أن يستغربوا صوتي عند سؤالني عن الثمن. أن أكتب خير لي من أن أجازف بأن أعيش، حتى ولو كانت محاولة العيش مجرد شراء موزات تحت الشمس، طالما ثمة شمس وموز معروض للبيع.

فيما بعد، ربما... أجل، فيما بعد... آخر.. يوم آخر، ربما... لا أدري...

### ملوك الواقع، ملوك الحلم

ما يدهشني أكثر من غيره ليس هو البلادة التي يحيا بها أغلب الناس حياتهم : وإنما الذكاء الموجود في تلك البلادة.

إن رتبة الحيوانات العامة تبدو، مرعبة، في الظاهر. في هذا المطعم الشعبي أتناول غذائي، وأنظر، فيما وراء الحاجز الخشبي، إلى حياة الطباخ؛ وهنا، بجانبني، واقفاً يوجد النادل الكهل الذي يخدمني، كما كان يفعل منذ ثلاثين عاماً في هذا المطعم، ترى إلى أي نوع من الحياة تنتمي حياة هذين الرجلين؟ منذ أربعين عاماً ظل ذلك الرجل يعيش حياته كل يوم تقريباً داخل مطبخ؛ العطل المتاحة له قصيرة؛ ينام نسبياً ساعات قليلة؛ يذهب من حين إلى آخر إلى بلدته، التي يعود منها بلا تردد ولا حسرة؛ يدخر ببطء مالا لا ينبغي إنفاقه؛ سوف يغدو مريضاً إذا ما أجبر على ترك مطبخه (بصفة نهائية) قصد التوجه إلى الحقول التي اشتراها في غاليسيا<sup>(٩)</sup>، إنه مقيم في لشبونة منذ أربعين عاماً. ولم يسبق له قط الذهاب، حتى إلى ويطوندا<sup>(١٠)</sup>. ولا إلى مسرح، ولديه يوم واحد فقط مخصص لسيركه الخاص: مهرجان في الأطلال الباطنية لحياته. لقد تزوج لا أدري كيف ولا لماذا، لديه أربعة أبناء وبنت واحدة، أما ابتسامته، عند احتفائه، من الجانب الآخر للعارض الخشبي نحو الجانب الذي يوجد فيه، فهي تنم عن سعادة عظيمة، بهيجة، رائعة. وهو لا يتظاهر، ولا مبرر لديه لكي يتظاهر، فإذا كان يحس بهذه السعادة فلأنه يمتلكها بالفعل.

وماذا عن النادل الكهل الذي يخدمني، والذي وضع أمامي كأس قهوة لعله الكأس المليون منذ امتنهن وضع كؤوس القهوة على الطاولات؟ إنه يحيا نفس حياة الطباخ، مع فارق بالكاد يصل إلى أربعة أو خمسة أمتار: هي الفاصلة بين المطبخ الذي يوجد فيه أحدهما عن القسم الخارجي من المطعم الذي يشتغل فيه الثاني. هذا الكهل لديه ولدان فقط، لكنه يذهب مرات أكثر لزيارة غاليسيا. كما أنه يعرف لشبونة أكثر من زميله، ويعرف أوبرطو حيث كان هناك منذ أربع سنوات. أما من

حيث السعادة فما من فارق بينه وبين الأول.

أتفحص، باستغراب بانوراما هاتين الحياتين، فاكتشف، حالما أكون موشكاً على الإحساس بالرعب، والحزن، والحنق تجاههما، أنهما بالذات من ينبغي أن يحس بهذا الإحساس، هما بالذات اللذان يعيشان تلك الحياة. إنه الخطأ المركزي الجسم للتخيل الأدبي: افترض أن الآخرين هم نحن وأن عليهم أن يحسوا إحساسنا. لكن لحسن حظ الإنسانية، كل إنسان هو فقط من هو، إلا في حالات تعد محسوبة تحديداً على العبقريّة.

الكل، في النهاية، يتحدد بالعلاقة مع ما يتحدد به. حادث عرضي صغير في الشارع، يجذب إلى الباب طباخ هذه الدار، يهبه من التسلية أكثر مما يمنحني تأمل أكثر الأفكار أصالة، وأكثر مما تمنحني قراءة أفضل الكتب وأكثر الأحلام اللامجدية غرابة. وإذا كانت الحياة رتيبة بصفة جوهرية، فذلك لأنه هو (الطباخ) قد تحرر من الرتبة بسهولة أكبر مني. الصواب ليس معه ولا معي. لأن الصواب ليس بجانب أي كان. غير أن السهولة موجودة حقاً بجانبه هو.

الحكيم هو من يضفي الرتبة على الوجود، بحيث يكتسب، حينئذٍ، كل حادث مهما صغر شأنه ميزة الأعجوبة. بعد الأسد الثالث تفقد مغامرة صياد الأسود كل إثارتها. بالنسبة إلى طباخي الرتيب الحياة يظل مشهد مصافحات في الشارع ممثلاً، على الدوام، شيئاً من جاذبية قيامية متواضعة، من لم يغادر لشبونة قط يحس أنه مسافر صوب اللاتنهائي في الترام عندما يمضي إلى بمبيكة<sup>(١١)</sup>، وإذا ما أتبع له الذهاب إلى سينترا<sup>(١٢)</sup>، يحس أنه ذهب إلى المريخ. المسافر الذي قطع الأرض كلها فيما يتجاوز الخمسة آلاف ميل، لا يصادف الجديد، لأنه يصادف أشياء جديدة فقط؛ الجديد مرة أخرى، شيخوخة الجديد الدائم، لكن المفهوم المجرد للجديد يظل كامناً في البحر على الدوام.

بإمكان أي شخص، إذا كان ممتلكاً للحكمة الحقيقية، أن يستمتع بالشهد الكامل للعالم، من خلال كرسي، بدون معرفة بالقراءة، بدون حاجة إلى الحديث مع أي كان، فقط بواسطة الاستخدام السليم للحواس وروح لا تعرف كيف تكون حزينة.

إضفاء الرتبة على الوجود، لكي لا يكون رتيباً. ثقّية اليومي، كيما يفدو أقل الأشياء أهمية متخيلة لأكثر التسليات. وسط عملي اليومي، الشاحب، الرتيب واللامجدي. تباغتني رؤى هروبية. آثار حلمية لجزر قصية، احتفالات في حدائق حقب أخرى، مشاهد طبيعية أخرى، أحاسيس أخرى، أنا آخر، غير أنني اكتشفت، بين مقعدين، أن لو كان ذلك كله لي، لن يكون أي شيء منه من نصيبي. الباطرون بامسكيس أنفع لي، في الواقع، من ملوك الحلم، شارع Los Doradores، يساوي أكثر بكثير مما تساويه كهربيات الساحات في حدائق المستحيل. بامتلاكي شخص الباطرون بامسكيس، أستطيع التمتع بحلم ملوك الأحلام؛ بوجودي في مكتب شارع Los Doradores أستطيع الاستمتاع بالمشاهدة الباطنية للمناظر الطبيعية التي ليس لها وجود. لكن لو امتلكت (بالفعل) ملوك الحلم. ماذا سينبقى لي من أحلام؟ لو امتلكت المناظر الطبيعية المستحيلة، ماذا سيتبقى لي من مستحيل؟.

الرتابة، تماثل الأيام الخالية من أي بريق، انعدام الفارق بين اليوم والأمس، هو ما يبقى لي على الدوام، مع الروح المتعطلة لأجل الاستمتاع بالذباة التي تسليني، عندما تمرق مصادفة أمام عيني،

بالقهقهة القادمة متقلبة من شارع غير محدود، بإحساس التحرر الفسيح لكون الساعة ساعة إقفال المكتب، بالاستراحة اللانهائية ليوم عيد.

بإمكانني أن أتخيل الكل، كل شيء، لأنني لا شيء، لو كنت شيئاً لما كان بإمكانني أن أتخيل. مساعد الحسابات بإمكانه أن يحلم بنفسه إمبراطوراً رومانياً؛ ملك إنجلترا محرم عليه أن يكون، في الأحلام، ملكاً آخر مختلفاً عن الملك الذي هو إياه. الواقع لا يترك له مجالاً للإحساس.

### عابر أقل

دخلت إلى صالون الحلالة بنفس المتعة التي أجدها في ارتياد المنازل التي سبق لي ارتيادها من قبل. لدي حساسية مقلقة تجاه ما هو جديد : لا أكون مرتاحاً إلا حيث الفت أن أكون.

عندما استويت على المقعد. سألت الفتى الحلاق الذي كان يضع على عنقي قماشاً بارداً ونظيفاً، عن حال رفيقه الكهل والذكي حلاق المقعد الأمين، فقد كان مريضاً. سألته بدون أن يجبرني هو على طرح السؤال: المكان والتذكر قاداني إلى ذلك. « مات أمس »، أجابني بدون تنغيم الصوت، بينما أصابعه تنتهي من إدخال الثوب بين قذالي وياقة القميص. كل حماسي مات على الفور، تماماً مثلما غاب إلى الأبد حلاق المقعد المجاور. سرت البرودة في كل ما فكرت فيه. لم أقل شيئاً.

الاشتياقات ! لدي منها الكثير حتى مما لا يمت إلي بصلة بسبب قلق الهروب من الزمن وداء الحياة الملغزة. الوجوه التي اعتدت رؤيتها في شوارع المعنادة، يعتريني الحزن حين لا أراها وهي ليست مني في شيء إن لم تكن رمزاً للحياة بكاملها.

العجوز ذو القماطين المتسخين الذي كان يتقاطع معي باستمرار في التاسعة والنصف صباحاً ؟ بائع اليانصيب الأعرج الذي كان يضايقني بلا فائدة ؟ العجوز المدور بالسيجار عند باب دكان الطبكيرية ؟ صاحب الطبكيرية الشاحب ؟ ماذا فعل الله بهم جميعاً، هم الذين أصبحوا جزءاً من حياتي لأنني اعتدت رؤيتهم مراراً ؟ غداً سأختفي أنا أيضاً من شارع La Plata من شارع Doradores ، ومن شارع Los Lenceros غداً أيضاً أنا - الروح التي تحس وتفكر، الكون الذي أنا إياه بالنسبة إلي - أجل، غداً أنا أيضاً سأصبح ذلك الذي كف إلى الأبد عن المرور بهذه الشوارع، والذي سيستحضره الآخرون من خلال « ماذا سيكون منه ؟ » وكل ما أفعل، كل ما أحس، كل ما أعيش، لن يكون سوى عابر أقل اختفى من الحياة اليومية لشوارع مدينة ما.

### أستنطق الحياة

لم أطلب سوى القليل من الحياة، وحتى ذلك القليل رفضت الحياة منحي إياه. طلبت حزمة ضوء من الشمس، حقلاً [ ... ]، القليل من السكنية مع قليل من الخبز، ألا تثقل علي كثيراً معرفتي بأنني موجود، وألا أطلب من الآخرين شيئاً وألا يطالبونني هم بأي شيء. هذه الرغائب ذاتها تم تجاهلها، كمن يتجاهل الظل لا بسبب الافتقار إلى المشاعر الطبية، وإنما لكي لا يتحتم عليه أن يفك أزرار السترة [ ... ].

أكتب، مكتئباً، في غرفتي الهادئة، وحدي مثلما كنت، وحدي مثلما ساكون. وأفكر إن لم يكن صوتي، على ضآلة شأنه ظاهرياً، يجسد جوهر آلاف الأصوات، والحاجة إلى التعبير لدى آلاف الحيات، صَبْرُ آلاف الأرواح المذعنة مثل روحي، تحت شمس القدر اليومي، متشيفة بالحلم اللامجدي، والأمل الذي بلا بارقة. في هذه اللحظات ينفض قلبي نبضات أعلى بسبب إحساسي الحاد بنبضاته. أحيا زيادة على اللزوم لأنني أحيا على نحو أكبر وأعظم. أشعر في شخصي بقوة دينية، أشبه بتنوع من الصلاة، أشبه بالشكوى. لكن رد الفعل ضدي من الذكاء يأتي.. أراني في الطابق الرابع من شارع الـ Doradores، حالماً أمارس الإحساس؛ أبصر فوق الورق نصف المكتوب، الحياة الباطلة الحالية من الجمال والسيجارة الرخيصة [...] فوق النُشَاف العتيق. هنا أنا، في هذا الطابق الرابع، أستنطق الحياة، صانعاً نثراً [...].

### اشتياقات مجهولة

أن تمش معناه أن تكون آخر. لو أحسست اليوم على نحو ما أحسست بالأمس فليس ذلك بإحساس، أن تُحس اليوم بنفس ما أحسست به أمس لا يعد إحساساً؛ إنه يعني أنك تتذكر اليوم ما أحسست به أمس، وأنتك اليوم الجثمان الحي لما كان بالأمس الحياة المفقودة. باستقبالك ليوم جديد عليك بدفن كل ما يتعلق باليوم الذي سبقه، كن جديداً في كل صباح جديد، في عملية تجديد مستديرة لباكورة الإحساس: وهذا، وحده فقط، ما يستحق أن يمتلك بالنسبة إلى كينونتنا الناقصة.

هذه الصبيحة، هي الصبيحة الأولى في العالم. لم يسبق قط أن استقر هذا اللون الوردى ذو الصفرة الضاربة إلى البياض، هكذا على الوجه الذي تجابه به قرية الغرب مكتظة بالعيون المبرقة السكون الآتي في النور المتنامي. هذه الساعة لم توجد قط، ولا هذا النور، ولا كينونتي هذه. غداً، كل شيء سيكون شيئاً آخر وما أراه أنا سيكون مرئياً بعينين أعيد تركيبهما، مفعمتين برؤية جديدة. أيتها الجبال الشامخة للمدينة العمارات الشاهقة المدعومة والمضخمة بمرتقيات شديدة الانحدار، انزلاقات الأبنية المتراكمة بأشكال شتى مما ينسجه الضوء من ظلال وحرائق، أنتن هُنَّ اليوم؛ هذا اليوم، أنتن أنا، لأنني أراكن ما [...] وأحيكن من الداخل مثل مركب يمر بجانب مركب آخر وهو يحمل حينئذ مجهولاً للمشهد.

١٩٣٠/٥/١٨

### أخويات

بسبب ما أحدثه لديّ الإحساس الجسدي من ضيق وقلق قديم يصل أحياناً إلى حدة الانفجار، لم أكُل، اليوم، جيداً، ولا شربت ما أشرب دائماً، في المطعم، أو في بيت الوجبات الطعمانية، الذي في طابقه الوسيط تتأسس استمرارية وجودي. ولأن النادل لاحظ، عند خروجي، أن قنينة النبيذ تُركت ملوثة للنصف، فقد أتجه نحوي قائلاً: «إلى اللقاء، يا سيد سوارش، أتمنى أن تتحسن حالتك».

ما إن تُلغظ بهذه العبارة البسيطة حتى انفجرت روعي كما لو أن غيوماً في سماء أزيحت فجأة بفعل الريح، وحينئذ اكتشفت ما لم أتمكن قط من اكتشافه بوضوح : ذلك أنني وجدت في لُذُل المطاعم أو المقاهي هؤلاء، في الحلاقين، في جمالي الزوايا لطافة تلقائية، وطبيعية، لا أستطيع أن أزهو بتلقيها ممن يعاملونني بكثير من الحميمية .  
إن للأخوة لطافتها .

بعض يحكمون العالم، آخرون هم العالم . بين مليونير أمريكي له أموال في إنجلترا أو سويسرا، وبين الرئيس الاشتراكي لأي قرية، لا توجد فوارق في الكيف بل في الكم . أسفل [ . . . ] هؤلاء، نحن، الحاملون، المؤلف المسرحي الغافل ولیم شكسبير، معلم المدرسة جون ميلتون، المتشرد دانتي اليجيري، الحمال الذي قام بخدمتي أمس، الحلاق الذي يحكي لي النوادر، النادل الذي تصرف معي بأخوية متمنياً لي ذلك التحسن لأنني شربت فقط نصف قنينة نبيذ .

### طفل في السيرك

مرات كثيرة، أجلسني رجلاً، تحت تأثير السطحي والمصطنع . حينئذ أحيا طافياً، بفرح وصفاء، ويصبح التوصل بالأجرة ثم التوجه إلى البيت مفرحاً بالنسبة إليّ . أحسّ الزمن بدون أن أراه، وأحبُّ كل ما هو عضوي . حينما أمارس التأمل، أعجز عن التفكير . أحبّ الحداثك كثيراً هذه الأيام . لا أدري ما يحويه الجوهر الباطني للحداثك العامة، من عجب وقيس، مما لا يمكن أن أحسه جيداً إلا عندما أحس جيداً بنفسني . الحديقة، أي حديقة تختصر الحضارة بكاملها، إنها تعديل غفل للطبيعة . هنالك النباتات . لكن ثمة شوارع . أشجار تنمو، ثمة مقاعد تحت الظل . في الاصطفاف المرتد نحو الجهات الأربع للمدينة، توجد الساحة وحدها، المقاعد الكبيرة ممتلئة دائماً تقريباً بالناس . لا أبغض تناسق أزهار الأحواض، أبغض، على العكس، الاستعمال العمومي للأزهار . لو أن الأحواض وجدت في حدائق مغلقة، لو أن الأشجار نمت في زوايا إقطاعية، لو أن المقاعد لم تكن في ملك أحد، لو وجدت تسليتي في التأمل اللامعدي للأزهار . هكذا هي الحداثك المنسقة بلا فائدة في المدينة بالنسبة إليّ هي عبارة عن أقفاص لا تمتلك فيها التلوينات العفوية للأشجار والأزهار قضاء، ولا مكاناً تنحبس فيه . وحيث الجمال الطبيعي نفسه مجرد من الحياة التي ينتمي إليها .

لكن ثمة أيام يغدو فيها هذا المشهد متمنياً إليّ، فادخل إليه مثل مثل صامت في مأساة فكاهية . في تلك الأيام أكون تائهاً، لكنني، على الأقل أكثر سعادة، على نحو من الانحاء . يبدو لي حينما ألهي نفسي، أنني أملك بالفعل بيتاً . ماوى آوي إليه وأنتي شخص سوي . مدخر لغاية ما، أنظف بدلة أخرى وأقرأ صحيفة بكاملها .

بيد أن الوهم لا يدوم طويلاً مثلما يحدث في الليل . فلون الأزهار، ظل الأشجار تناسق الممرات والأحواض تضمجمل وتنقلص . ينفث بقة من زراء خطأ اعتقادي برجولتي، كما لو أن ضوء النهار كان ستارة مسرح أخفي لأجلي، للشهد الأعظم للنجوم . وحينئذ أنسى بالرؤية، المقعد الامامي وانتظر ظهور الممثلين الأوائل بانتفاضة طفل في السيرك .

خُرَّ أنا وضائع.

احس بزكام وحُمَّى، أنا أناي. (١٣).

.١٩٣٠/٤/١٢

### فكرة السرعة

للإحساس بلذة ورعب السرعة لا احتاج إلى سيارات سريعة ولا إلى قطارات سريعة. حسبي الترام وقدرة التجريد الرهيبة التي أمتلكها وأرهاها.

أعرف، دخل ترام متحرك، وبفضل موقف تحليلي ثابت وخاطف، كيف افصل فكرة الترام عن فكرة السرعة، فصلاً تاماً عن كل ما سواها، حتى أحولها إلى شيئين - واقعيتين مختلفتين. بعدئذ، يمكنني أن أحسني متتبعاً، ليس داخل الترام، وإنما داخل سرعته - الخالصة. ولو شئت، بالمصادفة الحصول على هذين السرعة القصوى أستطيع نقل الفكرة إلى المحاكاة المحضة للسرعة مضاعفاً إياها وفق هواي، أو مقللاً منها، موثقاً إياها إلى مدى يتجاوز السرعات الممكنة للقطارات.

إن التعرض لآخطار واقعية يؤدي، بالإضافة إلى ما يثيره في من رعب، إلى تشويش التيقظ الكامل لأحاسيسي، مما يضايقني ويفقدني تشخصني.

لا أمضي أبداً إلى حيث يوجد الخطر، لدي خوف تجاه ضجر الأخطار.

الغروب هو ظاهرة ذهنية قبل كل شيء.

### كم من قياسرة كنت

الحياة بالنسبة إلينا هي ما نتصوره فيها. حقل الفلاح وهو الكل بالنسبة إليه، هو بمثابة إمبراطورية. الإمبراطورية بالنسبة إلى القيصر غير كافية. وهي ليست بأكثر من حقل. المسكين يمتلك إمبراطورية؛ العظيم يمتلك حقلاً. في الحقيقة، نحن لا نملك أكثر من أحاسيسنا الخاصة، ففيها، إذن، وليس فيما نراه هي، علينا أن نوطد واقع حياتنا.

/ هذه الخواطر لم تأت بمناسبة معينة /

لقد حلمت كثيراً، أنني متعب من وجودي حالماً، ولست متعباً من فعل الحلم. لا أحد يتعب من الحلم، أن نحلم هو أن ننسى، والنسيان لا يحزن وهو نوم بلا أحلام نكون فيه مستيقظين. في النوم حققت كل شيء. كنت أستيقظ أيضاً. لكن ما أهمية ذلك؟ كم من قياسرة كنت! كم من مشاهير وكم من مساكين! القيصر، وقد أنقذ من الموت، بفضل أريحية أحد القراصنة، يرسل منقذه إلى الصليب، بعد اعتقاله إثر بحث طويل عنه. نابليون، بوصي، في الوصية التي أعدها في سانتا هيلينا، بتركة لجرم حاول اغتيال ولينغتون. أوه لجلال الأعمال المعادلة لروح الجازة الخولا، أوه للرجال العظام، رجال طبخة العالم الآخرين! كم من قياسرة كنت، وما زلت أحلم أن أكون.

كم من قياسرة تقصصت، لكن قياسرة الحلم لا قياسرة الواقع. إمبراطورياً حقاً كنت كلما حلمت، لذلك لم أكن شيئاً قط، جيوشي تكبدت الهزيمة، لكنها هزيمة رخوة فما من أحد مات. لم أفقد

رايات. لم أحلم حتى نقطة الوصول إلى امتلاك جيش، حيث تظهر تلك الرايات ذات الزاوية الخلمية أمام بصري. كم من قياصرة صرت، هنا بالذات، في شارع الدورادوريس. والقياصرة الذين كنتهم ما زالوا يعيشون في مخيلتي؛ لكن القياصرة الذين كانوا بالفعل ماتوا، وليس باستطاعة شارع الدورادوريس والقياصرة الذين كنتهم ما زالوا يعيشون في مخيلتي؛ لكن القياصرة الذين كانوا بالفعل ماتوا، وليس باستطاعة شارع الدورادوريس Doradores، أي الواقع، معرفتهم.

أرمني بعلية الثقاب الفارغة إلى الهاوية، حيث الشارع الأبعد من مسند نافذتي الذي بلا جليلة معمارية. أنهض من الكرسي وأصيح السمع. وبجلاء، تصدر علبة الثقاب صوتاً - كما لو كان يعني شيئاً في الشارع شبه الخالي. لا صوت البتة يُعَدُّ، عدا أصوات المدينة بكاملها. أجل، أصوات مدينة يوم أحد تام...

يا لقلعة ما يمثله، في العالم الواقعي، حامل أفضل التاملات. الوصول متأخراً لتناول الغداء، نقاد أعواد الثقاب، إلقيائي بالعلبة إلى الشارع، الوضع الذهني السيء بسبب الأكل في وقت غير مناسب، كون الأحد وعداً هوائياً بفروب سيء، كوني لا أحد في العالم هو الميتافيزيقا برمتها. لكن كم من قياصرة كنتُ!

١٩٣٠ / ٦ / ٢٧

### «أنا بحجم ما أراه»

أعابد بلا أكرات قراءة تلك العبارات البسيطة لكايريرو<sup>(١)</sup> متلقياً ما أحسه كإلهام وتحرير للنفس، ضمن المرجعية الطبيعية للتأثير الخاص لصغر حجم قرينه. من هنالك. ولأنها صغيرة، يقول كاييريرو، يمكن أن يُرى العالم أكثر مما يرى من المدينة؛ لذلك كانت القرية أكبر حجماً من المدينة.

### «لأنني بحجم ما أراه»

### «لا بحجم قامتي»

عبارتان كهاتين، متناميتان خارج إرادة التعبير التي أوجدتهما، تُثقيانني من كل الميتافيزيقا العنوية التي أضيفها إلى الحياة. بعد قراءتهما، أقترب من نافذتي المطلّة على الشارع الضيق، أنظر إلى السماء الهائلة، وإلى النجوم الكثيرة، وأنا حرّ مثل إشراقة مجنحة يرجف اهتزازها سائر جسدي.

«أنا بحجم ما أراه» كلما فكرت في هذه الجملة بكل تنهيه العصبي، بدت لي موجهة إلى إعادة بناء أعلى للكون. «أنا بحجم ما أراه» يا عظيمة هذا التوقع الذهني الذي ينتقل من بحر الانفعالات العميقة إلى النجوم العالية المنعكسة فيه، والموجودة بداخله، بشكل من الأشكال.

والآن، وأنا واع بالطريقة التي أرى بها الأشياء، أنظر إلى الميتافيزيقا الموضوعية لكل السماوات بثقة تمنحني الرغبة في أن أموت مغنياً. «أنا بحجم ما أراه». ويشرع غموض القمر المضئ الذي هو الآن في ملكيتي كلية، في تمكيز زرقه الأفق نصف المسودة بالغموض.

لديّ رغبة في أن أرفع ذراعي وأصرخ نادياً بأشياء ذات وحشية مجهولة، وأوجه الكلمات للخبايا

العليا، بانياً شخصية جديدة شاسعة للفضاءات الكبيرة للمادة الفارغة .  
لكنني أنكح فاهداً، «أنا بحجم ما أراه!» عبارة ستبقى هي الروح بتمامها بالنسبة إليّ. إليها  
ترتكز كل أحاسيسي، وعليّ أنا من الداخل، مثلما على المدينة، من الخارج، تنزل السكينة للغز من  
النور الناصع للقمر الذي يبدأ في الاتساع مع نزول المساء.

١٩٣٠ / ٣ / ٢٤

### قرايات باطنية

من الانشغالات الثابتة المستحوذة على تفكيري سعبي إلى أن أفهم حقيقة وجود اناس غيري،  
وكيف أن هناك أرواحاً غير روحي، وضماير غريبة عن ضميري الذي لا بد، باعتباره وعياً، أن يكون  
متفرداً وفق تصوري. أدرك جيداً أن الرجل الموجود أمامي، والمتحدث إليّ بكلمات ماثلة لكلماتي،  
والمستخدم لإشارات شبيهة بتلك التي استخدمها أو يمكن أن استخدمها، هو شبيهي بشكل من  
الاشكال. نفس الشيء، مع ذلك، يحدث لي مع الرسوم التي أحلم بها، مع الشخصيات التي أراها في  
الروايات، مع الشخصيات الدرامية التي تمرّ أمامي في المشهد المسرحي من خلال الممثلين الذين  
يجسدونها.

لا أحد، فيما افترض، يوافق حقاً على الوجود الواقعي لشخصية أخرى مطابقة له. يمكن أن يقبل  
بأن تكون تلك الشخصية على قيد الحياة، بأن تحسّ وتفكر على نحو مطابق له، لكن سيبقى هناك  
عنصر اختلاف مجهول، على الدوام، وتباين مجسّد أكيد. ثمة وجوه من أزمنة سائلة، صور أرواح  
في كتب، هي بالنسبة إلينا واقع أكبر من تلك اللامبالاة المجسدة التي نتحدث إلينا من أعلى الحوارات  
الخشبية في الحانات، أو تنظر إلينا مصادفة في التراموايات، أو تلامسنا مارةً، في المصادفة للميتة للشوارع.  
الآخرون ليسوا بالنسبة إلينا بأكثر من مشهد، دائماً تقريباً، خفيّ لشارع معروف.

لدي قرابة انتماء باطنية مع وجوه معينة موصوفة في كتب، ومع صور تعرفت عليها مطبوعاً، أكبر  
وأقوى مما لديّ مع كثير من الأشخاص ممن ندعوهم واقعيين، ممن ينتسبون إلى الأجداد الميتافيزيقية  
المدعوة لحماً وعظماً. وبالفعل فعبارة «لحم وعظم» نعت مناسب لهم: فهم يبدون أشياء مقطوعة  
موضوعة على السطح المرمرى لكان لأحلام، موتى ينزفون على حياة أحياء، كوارع واضلاع القدر.  
لا أخجل من الإحساس على هذا النحو لأنني رأيت الجميع يفعل ذلك. وما يبدو من احتقار بين  
رجل وآخر، ومن لا اكتراث يسمح بأن يقتل أناس بدون إحساس بأنهم يقتلون، كما يحدث بين  
المجرمين، أو بدون تفكير في أن تمت قتل، كما يجري بين المجنود، فذلك لأن لا أحد يعير انتباهاً  
للفعل ذاته. يبدو أن من العسير إدراك أن للآخرين أيضاً أرواحاً خاصة بهم.

في أيام، في ساعات معلومة، محمولة إليّ عبر نسيم أجهل كنهه، مفتوحة لي انفتاحاً ما لست  
أدري من أبواب، أحسّ فجأة بأن صاحب دكان في زاوية الشارع كائن روحاني، وأن صبيّة الدكان  
التي تمنحني في هذه اللحظة قرب الباب، على كيس البطاطا، هي بالفعل، روح قادرة على أن تتالم.

عندما أخبروني أمس بانتحار صاحب الطبكية، لم أصدق، يا للمسكين كان موجوداً بدوره! لقد تناسيناه، جميعاً نحن، [...] جميعنا نحن الذين عرفناه بنفس طريقة كل الذين لم يعرفوه. غداً سوف ننساه بشكل أفضل. لكن الروح كانت موجودة لديه، كانت لديه روح، فلماذا قتل نفسه، بسبب الحب، الضمير؟ لا شك... لكن بالنسبة إليّ، كما بالنسبة إلى الناس جميعاً، احتفظ منه فقط بذكري ابتسامة بلهاء من أعلى سترة نسيج وسخة، متفاوتة من الكتفين. هذا ما احتفظ به من الرجل الذي انتحر، لشدة ما عانى من أحاميس ذلك أنه لا ينبغي، في النهاية، أن يقتل أحد نفسه بسبب شيء آخر غير هذا... فكرت ذات مرة، لدى شرائي سجائر من دكانه أنه سيغدو أصلع في النهاية في القريب العاجل. لم يجد الوقت الكافي ليصبح أصلع. تلك واحدة من الذكريات التي بقيت لديّ عنه. فأي ذكرى سأحتفظ بها عنه، طالما أن هذه، بعد كل شيء، لئست بذكراه هو، وإنما هي من اختراع تفكيري الخاص؟.

أمتلك فجأة، منظور الجنة، منظور التابوت الذي وضعت فيه في القبر الغيبي الذي كان ينبغي أن تُحمل إليه. وأرى، على حين غرة، أن صاحب الطبكية، كان بالسترة الملونة، يُمثل الناس جميعاً. تلك كانت لحظة وحسب. الآن، بالطبع، أنا حي وهو قد مات، لا أكثر ولا أقل. أجل، الآخرون لا وجود لهم... فلاجلي بالذات ينشر هذا الغروب، بثقل مجتئح، ألوانه الضبابية والقياسية. لاجلي، يرتعش النهر الكبير، تحت الغروب، بدون أن أرى جريانه. لاجلي أنا شُيِّدت هذه الساحة المفتوحة على النهر بحركة مده وجزره الوشيجة. أو ثمّ اليوم دفنُ صاحب الطبكية في المقبرة العامة؟ غروب هذا اليوم ليس موجهاً إليه. لكنه، وبدون أن أفكر في الأمر أو أرغب فيه، قد كفّ كذلك عن أن يكون موجهاً إليّ.

١٩٣٢/١/٢٦

### رماد على السرير

اليوم استيقظت باكراً جداً، في لحظة مشوشة، ثم نهضت من السرير على الفور تحت ضغط ضمير غامض لم يتمخض عن أي حلم، ولا كان صنيعة أي تجربة واقعية. كان ضميراً مطلقاً وتاماً، لا بد أنه كان مستنداً إلى شيء ما. في العمق للمعتم لروحي، هناك قوى لا مرئية مجهولة شرعت في قتال كانت كينونتي ساحته، وأنا كلي كنت أرتعش للقتال المجهول. قرف فيزيقي من الحياة بكاملها ولد مع استيقاظي. رُطب ضرورة مواصلة العيش نهض معي من السرير. خاوي بدا لي كل شيء وتوَلَّد لديّ الانطباع البارد بأن ليس ثمة أي حل لأي مشكلة كانت.

قلبي فظيع جعل أصغر حركاتي ترتجف. أحسست بالارتياح والخوف من أن أفقد صوابي، لا جنونا. جسدي كان صرخة دفينه، وقلبي ظل يخفق كما لو كان يتكلم.

حافياً قطعْتُ بخطوات واسعة ومصطنعة، حاولت عبثاً أن أجعلها مختلفة، للمسافة الطولية الصغيرة للغرفة، والمسافة القطرية الفارغة للغرفة الداخلية التي يوجد بلها في الركن المؤدي إلى ممر المنزل، بحركات غير متماسكة وغير مضبوطة، لامست الفراجين الموضوعة فوق الخزانة. دحرجت أحد

الكراسي، وتبيديّ دفعت آخر ليرتجّع على الحديد الحاد لقدّم السرير الإنجليزي. أشعلت سيجارة. دَخَنْتُهَا بلا وعي، وفقط عندما رأيت رماداً يسقط على رأس السرير - كيف؟ كما لو لست الذي وضعه هناك؟ - أدركت أنني كنت ممسوساً، أو ما يشبه ذلك، وأن وعيي الذي يفترض تملكه لي، قد غاص في الهاوية.

استقبلت بشارة النهار، بالقليل من الضوء البارد الذي يمنح الأفق المنجلي زرقةً بيضاء، مثل قبة امتنان للأشياء، لأنّ ذلك الضوء، ذلك النهار الحقيقي، حرّزني، حرّزني مما لست أدري، منحني قوةً شيوخوخةً مجهولة، باتجاه احتفالات طفولة زائفة، وحُملَى الراحة المتسولة لحساسيتي الطافحة. آه، أي صبيحة هذه التي توقظني على بلادة الحياة، وحنانها الأكبر! إنني أبكي تقريباً، ناظراً إلى الشارع الضيق العتيق ينجلي أمامي، وعندما تكشف الستارَ الحديدية لـ كان الزاوية ذلك الكستنائيّ القدرَ في الضوء المرتشح بعض الشيء يُحسّ قلبي بانسراح حكاية عن جنيات حقيقية. ويبدأ في امتلاك وثوقية عدم الإحساس.

من أي صباح هذه المראה؟ وأي ظلال تننأى؟ وأي غوامض تكمن هناك؟ لا شيء: ضجيج الترام الأول مثل فوسفور سيضيء عتمة الروح، والخطوات العالية لأول مارٍ هي الواقع الملموس الذي يقول لي، بصوت صديق، لا تكن هكذا.

### من يعيش مثلي

رتابة حياتي الخاملة الشبيهة بغبار أو قذارة متجمعة على سطح انعدام التغيير تبدو لي في أمسّ الحاجة إلى التنظيف.

هكذا مثلما نغسل الجسد، علينا أن نغسل المصير، أن نغير حياتنا مثلما نغير الثياب. لا لننقذ الحياة، مثلما نأكل وننام، ولكن لأجل تكريس ذلك الاحترام المستقل عتاً والذي بالإمكان تسميته تخصيصاً: نظافة.

ليست القذارة لدى كثيرين قابلية إرادية، وإنما هي بمثابة استخفاف من الذكاء. كما أن الحمود والحويوة لدى الكثيرين ليسا شكلاً من أشكال الرغبة في الحياة، أو تنازلاً طبعياً عن عدم الرغبة فيها، وإنما هو انطفاء للذكاء في أنفسهم، وتعبير تهكمي تلقائي عن المعرفة.

ثمة قدرون تشمئز منهم قذارتهم الخاصة، لكنهم لا يتخلّون عنها لنفس ذلك الحد من الإحساس الذي يجعل الشخص المرعوب عاجزاً عن تلافي الخطر. ثمة قدرون يحكم المصادفة مثلي، ممن لا يبرحون التفاهة اليومية بفعل نفس جاذبية ذلك العجز ذاته، إنها طيور مفتتة بغياب الأفق؛ ذهاب يطير عبر الجذوع بدون أن يرى شيئاً حتى يجد نفسه في المتناول للزج لللسان الحرياء.

هكذا أنقل رويداً رويداً لأوعيي الواعي، على غصن شجرة الاعتيادي. هكذا أنقل قدري السائر على قدمين، لأنني عاجز عن السير، هكذا أنقل زمني المتواصل، لأنني غير قادر على مواصلة أي شيء. لا ينقذني من الرتابة سوى هذه التعليقات التي أخطئها. يسرّتي توفر زرناتي على واجهات زجاجية من داخل قضبان النافذة، ويأحرف كبيرة أكتب على الزجاج، في غبار الضروري، إسمي،

اكتب التوقيع اليومي لكتابتي مع الموت.

مع الموت ؟ لا، ليس مع الموت . من يعيش مثلي لا يموت : ينتهي، يذوي، يتيبس . المكان حيث كنتُ سيبقى خالياً منه هو، في الشارع الذي عبَّرته هو الذي سيبقى غير مرئي هناك، المنزل حيث أقمتُ يقطنه الآن . هو . هذا كل شيء، وتُسَمِّيه لا شيء؛ لكن ولا حتى تراجيديا النفي هذه بإمكاننا تقديمها مصحوبة بالتصفيق، إذ لا نعرف ماذا تكون إن لم تكن هباءً، نباتيات للحقيقة مثلما للحياة، الغبار المتجمع بكثرة من داخل كما من خارج الزجاج، أحفاد القدر وربائب الله، الذي تزوج الليلة السرمدية عندما ثرَّمتْ هي من العماء الذي منه ولدنا نحنُ.

(بعد ١٩٢٣)

### بفضل الذكرى

الشَّمُ حاسة بصر شاذ . يستدعي مشاهد عاطفية بواسطة رسم مباغت يأتي من اللاوعي . مرات كثيرة أحسستُ بهذا . أمُرُّ بأحد الشوارع . لا أرى شيئاً، أو بالأحرى، أرى كل شيء، أرى كما يرى كل الناس . اعرف أنني امضي عبر شارع موجود بالفعل بجانبين مكونين من منازل مختلفة ومشيدة لأجل كائنات بشرية . أمُرُّ بأحد الشوارع . من إحدى المحابر تنبعث رائحة تبعث على الغثيان لحلاوتها : وإذا بطفولتي تنبعث من أحد الأحياء البعيدة، وإذا بمخبزة أخرى تنبعث من مملكة الجنيات التي هي كل ما فقدناه . أمُرُّ بأحد الشوارع أشمُّ فجأةً، فواكه اللاتحة المائلة للدكان الضيق؛ فإذا لحياتي القصيرة في البداية، لا أدرى الآن متى ولا كيف، أشجار في نهاية الممر، مع طمانينة تُعغم قلبي وقد أضْحَى طفلاً على الدوام . أمُرُّ بأحد الشوارع، فتُلبِّلني، على غير توقُّع مني، رائحة منبعثة من درج بائع كُتُب : أوه ثيساريو<sup>(١٦)</sup>، ها أنت تظهر أمامي، وها أنا سعيد في النهاية لأنني رجعتُ، بفضل الذكرى، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب.

### غيوم ...

غيوم ... اليوم أمتلك وعياً بالسماء، إذ منذ أيام لم أنظر إليها لكنني أحسها، عائشاً في المدينة وليس في الطبيعة التي تحتوها . غيوم ... غيوم ... هي اليوم الواقع المركزي وهي تشغل بالي كما لو أن استخدام السماء كان من المخاطر الكبرى المحدقة بمصريي . غيوم ... تمر من المعارضة إلى الـCastillo<sup>(١٧)</sup>، من الغرب إلى الشرق، في صخب متفرق وُغار، رتَّة تبدو في طليعة ما لستُ أدري؛ بعضها نصف -أسود، نعم، وأكثر ابطاء، تتأخر لتصبح مكنوسة من قبل الريح الجسور، سوداء من بياض قذِر، نعم، كما لو كانت ترغب في البقاء، تسوِّد من القدوم أكثر مما من الظل الذي تشرعه الشوارع كفضاء مصطنع بين الخطوط المغلفة للمنازل .

غيوم ... موجود أنا بدون أن أعرف أنني موجود وساموت بدون أن أريد الموت . إنني الفاصل بين ما أنا إياه وما لست إياه، بين الحلم وبين ما صنعتته الحياة بي، وأنا القياس المجرد والجسدي بين أشياء ليست في حقيقتها بشيء، لكوني كذلك لا شيء . غيوم ... لكُم ثَمَّة من لا طمانينة في حالات

إحساسي، كمّ ثمت من غمّ في تفكيرى، كمّ من لاجدوى في رغباتى غيوم... غيوم ثمر على الدوام، بعضها يبدو كبيراً، لأن المنازل ما كانت لتسمح برؤيتها لو كانت أقل حجماً مما تبدو، وهي في طريقها لاحتلال السماء بكاملها؛ بعض آخر يحجم غير واضح، لعلهما غيمتان يمكن اجتماعهما في واحدة ستنتشر إلى اثنتين، بدون أي اتجاه في الهواء العالي فوق السماء المتعبة؛ ثمت غيوم أخرى صغيرة ما تزال، تبدو لعباً لأشياء... كرات مختلفة للعبة باطلة، باردة، باتجاه ناحية عزلة كبرى.

غيوم... أستنطق ذاتي جاهلاً بإياها. لم اقم بأي عمل نافع ولن أقوم بما يمكن تبريره. لقد استهلكت حصتي من الحياة التي لم اضيعها في الاعتراض الغامض على اللاشيء، محولاً إلى شعر نثري الأحاسيس غير القابلة للتقل والتي بواسطتها اجعل الكون المجهول كوني الخاص. لقد ضقت ذرعاً بي، موضوعياً وذاتياً. ضقت ذرعاً بكل شيء، وبكل الكل. غيوم... الكل غيوم... فوضى من الاعالي، أشياء هي اليوم وحدها واقعية بين الأرض الفارغة والسماء العديمة الوجود؛ ضباب مكثف بتهديدات ذات لون مغيب. قطع قطن وسبخة في مستشفى ليس له جدران. غيوم... هي مثلي، عبور مشوّه بين السماء والأرض، بمذاق زخم لا مرتمي، مرعد أو غير مرعد، تُزَيّنُ بالأبيض أو تُغَمَّمُ بالأسود، خيالات المدى، بعيداً عن صخب الأرض وسكينة السماء. غيوم... غيوم تمر، تواصل المرور دائماً، مستمرّ دوماً مواصلة مرورها، في التفاف متقطع لحصلات معكرة، في تمدد تُثَبَّتْ لسماء مزيفة متفككة.

١٩٣١/٩/١٥

#### تراجيديا غامضة

لقد ذهب اليوم / يقولون / ، بصفة نهائية، خادم المكتب إلى مسقط راسه، ذلك الرجل نفسه الذي اعتدت أن اعتبره جزءاً من هذا البيت الإنساني، وإذا، جزءاً مني ومن العالم الذي هو عالمي. لقد مضى، عند التقائنا في المر، بمصادفة منتظرة للوداع المنتظر، عانقته بخجل، وقد امتلكت ما يكفي من شجاعة لأمنع نفسي من البكاء الذي كانت عيناى المتقدتان ترغبان فيه من دوني. ما من شيء كان ملكاً لنا، ولو فقط عبر أحداث المعاشة أو النظر العابرين، إلا وأصبح جزءاً منا لأنه كان شيئاً بخوّننا. الذي مضى اليوم، إذن، إلى أرض غاليسية أجعلها، ليس خادم المكتب: بل قطعة حيوية، بصرية وإنسانية، من ماهيتي الإنسانية. اليوم غمّ الانتقاص مني. لم أعد نفس شخص كل يوم. خادم المكتب مضى.

كل ما يحدث في المكان الذي نعيش فيه، إما يحدث فينا نحن، كل ما ينتهي فيما نراه إما فينا نحن ينتهي أو يزول. كل ما كان، لو عشناه كما كان، فمننا نحن انتزع بالذات عندما انقضى ومضى. لقد مضى خادم المكتب بلا رجعة مضى.

أحسّ بالمكتب العالي أكثر ثقلًا، أكثر شيخوخة، أقلّ مطاوعة وأشرع في مواصلة كتابة أمس. غير أن تراجيديا اليوم الغامضة، تقطع، بتأملات يجب أن أسيطر عليها بالقوة، السير التلقائي للكتابة كما ينبغي. لا أملك شجاعة لمواصلة العمل، إلا لأنني أستطيع، بفتور نشيط، أن أكون عبداً لذاتي نفسها. خادم المكتب مضى إلى غير رجعة.

أجل، غداً أو في يوم آخر، أو متى شاء جرس الموت أو الحياة المجرد من الصوت، كذلك أنا ساكون من لم يُعَدَّ موجوداً هنا، ساكون الكتاب المنقولُ المُستَغْنَى عنه الذي سيُحتَقَرُ به في الخزانة الواقعة أسفل السُّلَّم. أجل، غداً، أو عندما يقولها القدر، ستكون هناك نهاية حتمية لكل ما تظاهر من داخلي بأنه أناني. أستمضي إلى مسقط رأسي؟ لا أدري إلى أين سامضي؟ اليوم، التراجيديا تبدو مرثية... يا إلهي، يا إلهي، خادم المكتب إلى غير رجعة مضى.

١٩٣١/١٢/١٦

خيط حريز

الكل باطل ولا معقول. هذا يكرس حياته ليجني مالا يُثخَرُه، وليس لديه أبناء يورثهم ذلك المال ولا أملاً في سماء تحفظ له قيمته. وذلك يكرس مجهوده للحصول على الشهرة ليموت بعدئذ، بدون أن يؤمن بتلك الاستمرارية الحياتية التي تجعله يتعرف على شهرته. وآخر يستهلك حياته للحصول على أشياء لا تروقه في الواقع (...).

هنالك مَنْ يقرأ لأجل المعرفة اللامجدية. هنالك من يستمتع بالعيش اللامجدي أيضاً. في أحد التراوايات، أمضي، متفحصاً على مهل، وفق عاداتي، كل تفاصيل الأشخاص الموجودين أمامي. التفاصيل، بالنسبة إليّ، أشياء، أصوات، جمل. في لباس هذه الفتاة التي توجد قبالي، أجيل اللباس إلى القماش الذي صنع منه، والشغل الذي صنعوه به - أراه كلباس لا كقماش - والتطريز الخفيف حول الجزء المحيط بالعنق الذي يفصلني عن خيط الحرير الذي طُرِّز به، والشغل الذي تم تطريزه. وعلى الفور، ومثل كتاب أولي في الاقتصاد السياسي، امتدّت أمامي المصانع والأشغال؛ المصنع حيث صنع القماش؛ من لون أكثر قتامة، الخيط الحريري الذي أحيط موضعه بجانب العنق بأشكال صغيرة موشاة؛ وأرى فروع المصانع، الآلات، العمال، الخياطات. عيناى المتحولتان إلى الداخل تنفذان إلى المكاتب، أرى الوكلاء يحاولون التظاهر بالهدوء، في المكتب، أوصل حسابات هذا كله. أرى، هنالك، الحيوانات المنزلية لمن يحيون حياتهم الاجتماعية في تلك المصانع وتلك المكاتب... العالم أجمع يتمدد أمام عيني فقط لأنني أمتلك أمامي تحت العنق الأسمر لَوَجْهٍ ما هنالك في الجانب الآخر، تطريفة خضراء قائمة على الأخضر الناصع لثوب ما. كل الحياة الاجتماعية مضطجعة أمام عيني.

اتوجس، فيما وراء هذا كله، غراميات، حميميات، أرواح كل الذين يعملون كي تكون هذه المرأة أمامي في الترام، حاملة، حول عنقها الغاني، الرثاءة الملتوية لخيط حرير أخضر قام منسوج من أخضر أقل قتامة.

أصاب بدوار، مقاعد الترام، المصنوعة من تين مشبك دقيق، تأخذني إلى جهات قصية، تضاعفني إلى صناعات، وعمال، منازل عمال، حيوات، وقائع، وكل شيء. من الترام أخرج منهاكاً ومُسْتَرْشاً. لقد عشت الحياة بكاملها.

١٩٣١

هوامش :

- ( ١ ) احد شوارع لشبونة.
- ( ٢ ) كاتب برتغالي.
- ( ٣ ) سوارش الآن يشغل منصب معاون حسابات.
- ( ٤ ) José valentin Fiolho ( ١٨٥٧ - ١٩١١ ) كان كاتب يوميات مشهوراً وقصاصاً برتغالياً متميزاً تأثر بالتيار الطبيعى وبالأفكار التقدمية لعصره.
- ( ٥ ) Vieira : الاب Antonio Vieira انطونيو بيبيرا ( ١٦٠٨ ) توفي في البرازيل في نهايات القرن ١٧ ، فضلاً عن كونه عرف كخطيب كبير فقد ألف كتاب Clavis Prophetarum الذي أفاد منه بيسوا في كتاباته السيستانية.
- ( ٦ ) فضلت الإبقاء على هذه الأمثلة عن استعمالات فعل الكيونة الإسباني : ser كما هي لتعذر الوفاء بالمقصد منها في حال ترجمتها إلى العربية.
- ( ٨ ) شارع متفرع عن شارع كبير تكررت الإشارة إليه هو Los Doradores ( المترجم ).
- ( ٩ ) لعل المؤلف يشير إلى منطقة MINO البرتغالية.
- ( ١٠ ) Rotonda : هو الاسم الشعبي لساحة المركز De Pombal وهي قريبة جداً من المطعم المعني بالحديث وإذن فالمبالغة هنا من المؤلف ذات قصد تهكمي واضح.
- ( ١١ ) Bimfica : كان وقتها حياً نصف ماهول على أطراف لشبونة، قبل أن يندمج فيما بعد في الفضاء العمراني للمدينة.
- ( ١٢ ) مدينة أثرية قريبة من لشبونة.
- ( ١٣ ) Soy yo.
- ( ١٤ ) البرطو كاييرو : الدنبد الأول الذي ابتكره بيسوا عام ١٩٠٨ توفي سنة ١٩١٥.
- ( ١٥ ) ثيساريو فيردي شاعر برتغالي.
- ( ١٦ ) Castillo de San Jorge : يقع على رابية باتجاه شرق لشبونة.



## كيوثاء ( بزوغ اللون )

### سليم بركات

البريق الذي التمع على الأدراج المغسولة برذاذ الخريف ، قمم حشمه نصفين بين آثار « ميدو » المبعثرة على رقعة معناها الحجري . لسان صغير تدلى من فم الغيم - لسان نور بلل الأدراج التسع والتسعين ، فالتصمت بالعافية ذات الأنداء المندلقة ملأى على أفواه الشجرات الزرقاء ، المحيطة صفين بالاعمدة القديمة المكسورة ، المتناثرة من نهاية الأدراج حتى ساحة الحان المرصوفة بالحجر الرملي الأصفر . الرجال السبعة ، الذين عبروا الساحة ، مسكين بارسان دوابهم ، أبقا أبصارهم - أبصار الكمائن العريقة على الشجرات يصقونها لأنفسهم بلسان العجب الصامت : هي زرقاء ، أو تشرب لحاؤها وورقها بنقش أزرق من رقة اللامعلوم النديم . أكثر ورقها مبعثر ، بإشارة من جواذب الخريف لأرواح الثبات ، على المغتر وحواليه ، والقليل الباقي متشبهاً بالفصون يعرف أن الخفقة الأخيرة لجناح العافية ستبعثر أبعد من مرافد شقيقاته ، في انجاء الساحة الدائرية حيث تنفدُ الريح ، أبداً ، كأنما خيالها مرصود بالارقام الصلبة لخيال الحجر .

سبع وثلاثون شجرة . ثماني عشرة تتقابل صفين ، وواحدة مفردة تسد الممر في نهايته قرب الحان . « شجر المُعجم » - هذا لقبها الذي استأنس به عقل المقيمين على مشارف أرض الآثار المطحونة ، نقلوه عن لسان « أردهان » حارث النقش ، ابن قاضي الطهارة راولد لوز ، دهقان الدساكر الثماني والاربعين في سنجق فيش خابور . هي شجراته في بستانه الحجري المترامي ، من الساحة المرصوفة التي تقوم عليها دارئة الفارغة ، الدائرية ، حتى آخر عمود مُنقّص من إرث « ميدو » ، على التلال المتوسدة عانة السماء البليدة غرباً . جتمع « أردهان » الشجر والحجر إلى خلفته في ملك أبيه المنصرف ، في عزلة قلبه

ويقينه، إلى تدوين «فاكهة الرُّثم» - الأصوات ومراتبها، بعد اعتزاله القضاء الذي أمضى نصف قرن في فرع من الأحكام لم يسبقه إليه أحد، إلا وهو فضُّ المنازعة بين الطُّهاة في إقليم شَهْرَزُور.

«شجر المعجم». كذا كُنِيَ «أردهان» الفصيل الثَّبات المتسامق في حوزة فراغه. لم يشرح، إلا باقتضاب لا يُغني، نازع خياله إلى تأكيد الكناية : «انظروا المعجم : تكثر الكلمات فيه فتختل. وشجري هذا كثر عليه ذهول الحِفظ». الشجر ساهراً أبداً. مشرفاً أبداً على ودائع المسكونات. «امتحن نباتٌ ميوَّبٌ على حروف الدُّهر» يقول الكهل، الذي انفتحت بوَّابات قلبه عن مَهَبٍ من النقوش على كل شيء : جدران دارته، وعُرفها، وأرضها، وساحتها، وأدراجها، والخان الملحق بها، ومعادن آلتها من الأسرجة والفوانيس حتى الأباريق وصحاف الطعام. ويكاد أن يمسك الغيوم، في مرح، ليعيدها إلى السماء مزينةً بصروف الأشكال وقضاء الخطوط. فهو المنحدر أصلاً من سلف تملَّكوا الإيلات في نواحي هَكَازٍ بمراسيم من الخط الأيغوري، مدموغةً باختام السلاطين الجنكيزية، عَمَدَ، في سخرية استوفاهما من أبيه، إلى «دباغة بلا ألم في جلد آدمي حي» : «العلوم والتحو لا يكفیان لإبقاء الكردي كدياً. جلُّدٌ تموجه دباغةً، وكَشَطٌ بشفرة الرُّسم والخط»، لكنه بقي على ريبته الماثورة عن سلالة تُسَلُّ الجن من الشعر. الكرُّ لا يحبون صنف الكلام هذا، الذي يقنِّد اليبية في الموقف ويُطلق الحقبة بحساب المبالغة والاعتراف للذين لا يلبقان بالأقوياء. الجنُّ، الذين أورثوا شعاب الجودي، مذ تزوجوا آدميات هناك، عرقاً ليس على مشارب الطُّفُّ في أصلاب الجن، طووا صفحاً - بالخاص عذب من نسايمهم - عن تلقين الأبناء مرادفات المعنى في طينته، عبر صوت ذي معارج في أوزان لا تليق بالصوت كهبة خُرَّةٍ من التُّطق القدسي. لنبق إرث الشعر في موطن الجن الأول، على تخوم اليابسة العريقة، أما الصُّمُّع الجديد الذي استوطنته قبائله المريثة فما من حاجة بالقرائح إلى نظم الفكر فيه ميثوئاً في رحاب الصُّور، أو مغشياً عليه من أثقال البيان. هكذا وطَّد الدَّمُ المختلط من ماء حيٍّ، وقرمز مسكون، وفراغ مناه، نشأة الطُّبع في الكرْد على حيلة الظاهر وحده، بلا تورية، فيتصبَّب الواحد منهم من مسامة الطيش، والتهوُّز، ومنازعة الأرض على كونها أرضاً والسما على كونها سماً. لكن «أردهان»، المنتدب من جموح الطبايع في زلال خصتيه على تسعة فُرُوجٍ مكتنزة بلا خصام في عصبة ذكِّره، التفُّ على حيلة الظاهر من جهة يغشاها العايشون، مزماً أن يعيد إلى أجداده من الجن الغُصاة، ممزَّج قميص الطاعة على كتف سليمان النبي العاشق، خمرة يقينهم في الكلمات المحسوبة ضللاً يُرشِد الخيال إلى كماله : «ساحفر الشُّعْر على مناقير الطير ومناسيرها».

هو لا يدري كيف هاجت به الإنعطاف من ريبة عقله في الشُّعْر إلى تزويق الجسم الصلب في معمورة مُلْكِه - مُلْكُ أبيه المنعزل، قاضي الطهاة - بالشُّعْر حتى فاضت الخطوط عن مسارها في الإبهاء إلى العتبات، وانسرحت أبعداً إلى حجر الساحة فالأدراج فالأقبية، التي ينحدر إليها المسوسون بجلال الوجود الأرق ليتأملوا صفوف الجرار الملائى برماد أمراء جزيرة بوتان. الأب راوئد لَوْرُ خلط الأرمدة بالتوابل : لكل رماد ما يعادل طباعة من الطُّعْم. وتدبير ذلك، عن عِلْمٍ دقيق النَّظَرِ كالمُتَحَصِّل للأرمدة راوند لور، هو شرعة بقاء الحقيقة متأمِّلةً بجوهرها في بذرة الجماد الجوهر. الرماد والتوابل جوهران، أما الأرواح فهي أبخرة الطهور ينتشِّقها الغيب الجائع ثم ينساها بعد الشبع. الأرواح عُرِّضَ

من أعراض الضرورة.

راوند لور اكتفى، في أعوامه الثمانين، بخاصية اللمس وحدها. الذوق نفسه غداً كمنساً. إصبعه تنتقل من الطعام إلى فمه، ومن التراب إلى فمه، ومن السطور، التي لا يراها في كتابه المهترئ، إلى فمه. يقرأ بلسانه - لسان المعتزل في الدهليز ذي النقوش الخضراء، على الصفيح الفضة، تحت الأربعة الأعمدة في بهو البيت الفاره. وقد أصغى قليلاً إلى الجلبة التي تدرجت خافتة صوب مرقد يقينه ففتح فمه. هسهس. عاد بعينه النازحتين من تيه النور إلى الظلام الكليم يتتبع قلوب الطهارة في عبورهم الأرخييلات الأزلية.

سريعاً التم نقر من المرخبين حول الرجال السبعة، الذين سلموا أرسان دوابهم إلى عناية القائمين بتدبير المباحج الصامته للحيوان في زرائب الحجر، خلف الحان، حيث أعيد تصويب الغاية من الأعمدة المتحطمة في آثار «ميدو»، فرقت ثانية، وكُرمت بسقوف من جذوع الزان غلاها الطين الأحمر المتعلم، والمداخن ذات القباب المثلثات - سلبية الشكل الساهر على حُلم الهندسة. وهناك، تحديداً، ضربت شفاعة النار والنوم مسكوكها المعدن فانبثق من نقشة المسكوك خان هو الأكبر في الأقاليم المدحوة كـرغيف كوني من نواحي جبال طوروس حتى زاغروس، وأرارات، مع انفراج في المشهد المسكون على الفرائتين وما يليهما شرقاً من أم المعمورات والمهجورات.

كانت أيدي الوافدين السبعة تسلم الأرسان إلى الأدلاء المبعوثين طلائع للخدمة، وعيونهم على الشجرات الزرقاء، قبل أن يخرج أردهان بنفسه إلى الساحة، من شق الباب القوسي الضخم كختم ضخم من الخشب المطعم بتسعة أرتال من الفضة جرت بها الحروف اقصوصة عن لسان الملاء سياء، مولانا السيد عبد الله الملقب بالشيخ الأسود، مدوثة بالفارسية على نسق من خط الإمام السعيد في علوم الخبر والتدوير سعد الدين شمشاه الباهتاني، الذي ألقى به من قلعة الهناخ بعد ضربها بالمنجنيق، في تاريخ عائر الحظ. أويس أوسنجان بك الأعور كان إلى يمين أردهان. أمير النوم والنار، الموكل بتدبيرهما نغيين، في الحان، أعطى إشارات من عينه اليسرى الوحيدة، المثلومة البياض بسيف من العروق الحمراء الممتقنة، فهرع الخدم بالدواب إلى كمائن العلف والسقاية. وكاد يسبق مخدمه أردهان بن راوند لولا أن سحبه مخدمه من كم عباءته يلجمه من الإسراف في إعلان طباعه الراضعة من أئداء الهررة الكلدانية. فهو - أويس أوسنجان بك - مذ تسلم مقاليد إدارة الحان من سلفه ألكاكي تاج، الذي مرّقه سبعة غلمان من القاجار العابرين مع قافلة بالخناجر، يستعرض على كل وافد مراقي من الإنشاء المتعلق في لسانه، حتى لكانه يستظهر سوراً من علم الانساب والحمايل المتبوعة بسلاسل من الحمد والحمد.

تراجع الأعور قليلاً. «أهلاً بكم» قال أردهان فاتحاً ذراعيه. احتضن السبعة واحداً واحداً يقللهم من أعناقهم، فوق ذوابات العمائم للعقودة باستدارتين هما علامتا المشرق والمغرب. تراجع قليلاً حين انتهى العناق - ساراهم بترحاب يديه وعينه قبل أن يعرضوا عليه حدائق أسمائهم وثمراتها. إنهم، تحديداً، أهل الغاية التي أسرج - أجلها الغيوم ثمانين مرات، يقودها رأسه من متاب الرياح في «ميدو» إلى فسطاط الله فوق ولايات الصفويين شرقاً، ولايات القاجار شمالاً، كي يدلل المطر،

بشفاعة ما لا لون له، طباع الممانعات وجفافها: «فلْيَحْضُرُوا، بحق الخواتم»، قال أردهان للرُّسل خائفًا من أن يُخَذَّل. وها هم حضروا - أولئك الذين عرضوا على برهة قلبه المتقلبة لئلا أسماء حقائقهم المتصلة بالأنساب - بعد أن قادمهم رُسل أردهان من الولايات فرادى إلى ملتقى القوافل في قلعة بوران، من أرض النكبات - الجلود الآدمية التي كتب عليها الشاعر تولون فيغيني مديحه العذب للجمال في صحراء الهون. ولما اجتمع السبعة وسط امتنان الرُّسل للهبوب الموائم من جهات الأقدار، بُسِطَت الغيومُ الاستبرقُ لقوائم الدواب والعربات من قلعة بوران حتى تُجَدَّ «ميدو»، وفي البرهات التي اصغى فيها أردهان بخواص الصلاح الأعظم في ملكات الإصغاء إلى رنين الأنساب، كانت الغيوم تلك تُطوى لفائف كوسائد الأمراء في حاضرة «موش»، وتُطَلَّقُ خفيفةً فوق أرائك الأبد ذات التطاير البويهية: «عودي يا بنات الحيلة»، تتمم أويس أوسنجان، محلًا بعينه الواحدة إلى الغيوم، واتحدَر بها - بعدئذ - يُحصي السعة. أرعدت غمامةً مشها لسان كبد: «أين الثامن؟» ساءل خيال الأرقام ذا النظم المهجورة.

«مُتَكِّرٌ بآثُرٍ ليس بينهم»، قال أردهان. شَمَّ بآنفه الرُّقْم السبعة - رَقْم الميزان ذي المكايل المتدلّية من حزام القلَم. هو ليس رقمًا، في الأرجح، بل نفس المشيقة بعد فراغها من تسطير الميثاق المُتَحَن. سبعة أيام بلاءٍ قرب عقل النشأة. الكلُّ بلا نقصان، من الروح حتى فساء الذئب. سبعة لا تتوازن في كفتين: تلك هي المُضَلَّة. أردهان وزَّع حساب الكينونة على خَدَّيْن هما رباطُ المقول. طلبُ ثمانيةٍ فحضر سبعة. كيف سيقتمسون زاد اللون ومتاع الشكل؟ هم أمراء في مهنة التشخيص رسمًا. تحت أيديهم ممالك من صور الموسمين بالكُرم القدسي استعادوا بها خيالَ اللا معلوم ناطقًا. وها أردهان، ابن قاضي الطهارة في شهرزور، يستميلهم بهجته فيُخَضِّرُهم إلى «ميدو»، كي يُعَيِّنُوهُ على استيلاء شيخين من المسكينين بتلابيب المُفضِّل استيلاء البزرة من الممكنات؛ شيخين لاسميها جسارةُ المحسوس بَيَد اليقين، لكن ينبغي أن يتخيَّر لهما الرسم، بالحفظ الذي لا يقبل التسوية إلا عدلاً - تنعافى به مدارك الظاهر قُبُل الباطن، بهاء الإقامة في حجاب مرثي، حاضرين غائبين، مشرفين من البرزخ على البصر في استحالة بصر الناظر إليهما قلبًا، ووجدانًا، وطعمًا من مذاق المشموم الخالد: ريح المجهول. لقد تطاول، في ماضٍ من علوم اللون، مبشرون بمآدب الكشف المرقونة، على تخطيط المشور من ظل شخصهما، فاقاموا الصناعة مقام «نداء الهيعة»، وهو علمٌ يتحصَّلُ المران على مخاطبة اللون. وصلت الرسومُ إلى أسواق تبريز، ودرسيم، ونصيبين، وملاطية، من غير روح. والذين علَّقوها إلى جدران منازلهم بخيطان من قُتَب، أو ألياف من قصب الأهوار السوداء، عادوا فانزلوها، بعدما سَرَى أن إمامًا في أرض بوتان سمع استغاثة اللون في رسم الشيخين النقشبندي، والكيلاني. «بَرَكَهُ اللون من بركتهما»، قال أردهان. «سنعيد إلى اللون كرامة حضوره الأزلي تحت عرش الله»، وهو يرمي بلسان الفقيه البسيط فيه إلى أن الظلام - خرزة السواد الأولى في الموجودات الجوهرية القائمة بذاتها - موصوفٌ أوحِدٌ في إشارة الإلهي إلى مكين إقامته، بحسب الشروح الكبرى والصغرى في علوم «الآيِنِيَّات» الشديدة المقاييس: كان العرش، منذ ما لا يتصَّف ببدء، في عمام كلي - سوادٌ مُتَعَتِّق في قارورة القِدَم. ومن السواد؛ من خَلِّه الحامض الانيق، ارتسمت - من ثم - غَلَقَةُ البياض حتى غدت

فراشة تسرح فوق غمر الوجود المنيق من أجاصة الطين.

يقينا، لا يحاول أردهان أن يمضي إلى تأويل أبعد من اختصاص قلبه بالمحظورات الشفيفة، وبإثارت العقل البسيط بلا خزانة لثقل وتضرع، حين يصف القائم على إمارة خانة وملحقه الإسطبل الشاسع أويس أوسنجان بقرابة الأصل مع الكرامات وحقايقها : « أن تكون مجذوبا - وأنت لست مجذوبا يا أويس، أو تكون لك عين واحدة - ولك عين واحدة، فذلك تدبير لا يخفى معناه عليك. لقد أعطيت حظاً في الأقدارين: الظلام والنور. الحقيقة فيك، يا أويس، أصلها في عينك المطفأة، الحرة. بها، وحدها، ترى من أنت يا أويس. الثور غيرة. منذ بدء الثور بدأت الغيرة. المرئي - لا سواه - يغار من المرئي ». هكذا تناول العلوم شرارات الجمر في خزانها : حُمرت طينة آدم أربعين صباحاً حتى نضج عجيتها الخالق صورة الحركة. الصباحات - الثور هي التي وهبت الرُشيم الذاهل، المستور في ذهوله، خصيصة الثقلة إلى الوجود العاقل: ولدت الشكل؛ ولدت الدائرة الناطقة بلسان الجدل؛ ولدت الحلف الذهبي للمعجزة في فقير الجسد الآدمي؛ حيث يدخل نحل الغيب غاضباً ويخرج غاضباً، مسعوراً من قيط الفكرة ذاتها : أن يكون الوجود ميثاق الضجر من وجوده وجوداً.

منذ بزغ الثور، المنضج للخمائر في قدره، بزغ الإمتحان. أضيئت الحلائق المستولدة من كمال غيبوبتها في البرهة التي قدّرت المشيئة لها أن تكون امتحاناً. ما ينتظر الكائن، بعد عبور النور على تاريخ للنور، هو الامتحان، أي خضوع الماهية امتحاناً لما لم تستطع تلافيه، وإن تنطحن بحثاً عما يُرضي أسباب مثولها ماهية بعد أن لم تكن.

ما قبل النور ليس ما بعد النور. في الظلام كان كل شيء، - كل عقل، وفراغ، وإراث مكنون، اختزاناً للأزل في تقدير الله للظلام أن يكون ذاتاً تتحدّد بوجوده، هو، في مغاليق ثقله. الظلام هوية تقوم بها ضرورتها؛ خلاص لا يخص أحداً؛ رسول الإلهي إلى نفسه في المطلق المعبّد شوقاً إلى اللامقدور، اللاممكنون، اللامتّصف، اللامثبّت، اللاوساطة، اللامنتقل، اللاموجب له أو عليه، اللا إحاطة، اللا خاصية، اللامعمور واللامهجور. لكن، حين قدّر للنور أن يُنشئ خميرة الامتحان الأولى، انخرقت مصكوكات الغيبوبة الكبرى إلى التعلق بالاسماء فصارت علوماً ناقصة في تقدير الآدمي القادم من مصنع النور محمولاً على حقّة الآله، التي ينكبّ بها ترميماً على قدره كي يوسع لنفسه باباً إلى القبر.

مع الثور جاءت الاسماء؛ جاء الصوغ الأكثر قسوة في تنظيم الإشراقات على هدي النقصان وتبعية التعمين. لم يعد لشيء منجى من الفتنة. « عينك الفارغة - عين القِدَم شاهدة على عينك الملاى - عين التبذير، يا أويس، فاحفظ لنفسك هذه الخطوة »، يقول أردهان. غير أن عيني أويس تخصمتا وهما تحصيلان الرجال الواقفين على ذراع من أنفاس ابن قاضي شهرزور : سبعة. يا للرقم للتدلي كخصية من حجاب الأرقام. « أين الثامن؟ ».

إنها برهته الأولى التي يتعرّف فيها أردهان إلى ضيوفه - أمراء التشخيص بأقلام اللون وترياقاته : الظلام الأسود، وجراؤه البقية من أحمر وأصفر وأخضر ومهتوك ومستور. لا باس. هم ندماء المُشكر من الخصائص المُشكرة في اللاتعمين، يُشرقون على العماء من مجاهل الشكل، ويستولدون الخفي

خدعة في مضائق الخطوط. فتح أردهان ذراعيه كأنما يطوقهم بالهواء الذي هو امتداد جوارحه اللامنتظرة. «تفضلوا»، وأشار إلى باب الدارة، ثم تلمس بأنامل يده اليسرى كتفه اليمنى، حيث تتدلَّى خرزتان صبراًوان في خيط ذهبي.

تقدم السبعة المنبشون نقوشاً آدمية في لوح الفراغ الظاهر. أزيحت الستائر البيض، المخرمة، المنسوجة بأنوال قرى سهراب، عن النوافذ الدائرية الثلاث، بأنامل انثوية، كي تستجلي العيون خصائص الخطوات المحكمة لذكور موصوفين باقتدارهم على ترتيب الوجود الصامت مشتتاً من قتل العدم الكتيمة. فتح فرهاد الطاهي، ابن الفقيه مرّذان زكّنة، الباب الضخم، ذا الصرير المشوم كقراء شجر الزّان. دخل السبعة يتبعون أويس. تبعهم أردهان، فالطاهي، فثمانية فضوليين من نزلاء الحان، فالفتيات الأربع اللواتي ذرّسن، بتودة، نداء الكيفية في الأيوان الأكبر، خلف المُسقيات الست المتقابلة بمياه نوافيرها، وهنّ -بحركات من أيديهن المختومة بشمار الحناء، تلك التحف النازعة إلى التماثل مع حروف اليقين مصادفةً- يتأكدن من ثبات قبعاتهن المصنوعة من رقائق المصكوكات النقدية في ولاية اربيل. قبعات كالخوذ الرقيقة؛ فلوس فضة معقودة بسلاسل مجدولة كسقيان خنفساء الكرفس، فوق مناديل الرأس. ثلاث منهن كذلك، والرابعة بعمامة تتلاطم في دائرتها، من الجبين حتى القذال، ذوائب من ودع بحيرة وإنّ.

مرّ الجُمع من حديقة الدار المسقوفة بقبة واسعة الأرجاء، عالية على نسق المساجد في أرضهم، جعلت لها كوى بزجاج أزرق وأصفر، تُرى على حوافها أعشاش سنونو -ذلك الطير الذي يُبقى له منافذ إلى الفسطاط الحجريّ المخلق، كي تنكّرهم بعلوم نسله المرقزي حيوات السكينة الكبرى. طير فكرة. سواد في بياض. حجاب سواد من الظاهر وبياض من الباطن. مثلث صغير بُني في الرقبة، أسفل المنقار، هو أثر نبات الحناء تعرف الرعاة به إلى كشف من الخضاب، ملأوا الطائر بمسح برقبته على الفصون، فزئنا أوداج الخراف، وإلياتها، ثم اتخذت النساء بعصارة ذلك الثبّت، ونقيع الباس من ورقه، حجباً من رسوم الغيب على أيديهن، وأقدامهن، وحلمات أندالهن، وفوق العانات الحليقة، لتبقى حفيقة الجسد مستيقظة في كمالها الساحر، ألقا بعد ألق، كخلود الرّجفة في العناق المستنزف ماء الذكر بشفرة الانثى. طير فكرة، يردد بصدره على حواف المياه حين يشرب، ملتقطاً صورة ذاته الشفيفة رشفاً رشفاً كي تنوّع في جوارحه بنداء الكشافة. هو يلد صورته وتلده صورته. ذرقة يُصمى في الحل الأبيض فتؤخذ غثائته الطافية على السطح فيكون لها مقام جبر فضي. ربما الأمر؛ بحسب توصيف النظر إلى نشأة الأحماض، أن السنونو شرة في التقاط يرقات الحلزون من مراد الماء وحواف البرك، فإذا انحلت أهداف اليرقات إلى عصارة في المدة خرج السلح من المعى صمغاً زليفاً، أو شاكل الزّبقي بلا سُميّة. وقد اتفقت الفتيات الأربع، الموكلات بمخاطبة الحصى في حديقة زانا خاتون -امراة أردهان الأولى، نقيية نسائه الأخريات الثماني -استطلاع مساقط الذّرقي في عبور السنونو فوق المُسقيات الست إلى الاعشاش الخشنة، فيأخذن الحصى المملّح إلى قرارير الحل، ثم يُرجعنه إلى مواضعه: كل حصاة عروة في القميص الأرضي للمتمد الحواشي في الفناء الشاسع تحت القبة الشاسعة. حصى حملته بغال مؤش، ذات الجبهة الضيقة، من كهوف الصحراء الباردة شمال

تبريز، إلى «ميدو».

البنابيع، التي تعبت من فك لغز الظاهر، عادت غائرة في اتجاه الباطن المداهن - خزانة أرقام السحر الرثة ومناعه المهترئ، تاركة خلفها، في عمالة الزمن ما بعد القلق المصغي إلى الماهيات المحيرة، سبائكها الكثرية، بالوان كاعين الضفادع الزرقاء العلجومية، والسمنذر الطويل الذئب، ذي السموم التي تفجر أقراس قرح في ممرات الخيال المنحدر إلى الموت، إذا سقي به المغلوبون والمخدوعون. حصي هو لعبة الجماد في إنقلاب اللدائن على نفسها، وانتقال المعادن الناطقة من برزخ الفلز المعتزل إلى الاجتماع المؤنس، في صورة الكتلة الملتحمة بالمجذاب الذرات بعضها إلى كمائن بعض. رخويات الهيئة الهولي، والخلايا الآحية في فتنة وجودها البسيط، تنصلب، بانسلاخها من دين الماهية المطمئنة إلى دين الماهية المجرية بلا احتراز، فتغدو حلاً من بشرى الحجر بميلاد السكون العاقل. لا خصائص أنقى من خصائص العدم المستحدث في كينونة الحصة؛ لا جمال أكثر ثرثرة من الذي لحصى حديقة زانا خاتون، تحت أظلال غزلانها التسعة، التي استعرضت - في هدوء مفصل على مقاس التوافير التي تقرأ للفسقيات ضياء القبة العلوية - عبور الرجال المرسوم على لوح الجبر. حصي غزال فمات لوعة على ذكورته المهتوكة. بقي تسعة تحت غمامة قلب زانا. وصلت يدا الطاهي فهاد إلى الغزال في حتى خياله المنقب عن سطر الله الناقص في مصير اردهان: منيئة لا يُنجب. لا خيال لمنيئة كي يستحدث، بألة الصور في ظلام خصيته، شكلاً زلاً لا يُنبئ على لوح الأرحام. عنده تسع نساء، اختارهن بجلود عليها نقش الولاية الأزلية للملائكة المسرعة بالصلصال المشوي إلى غمامة الصفات، حيث اتخذ اسم آدم من حروفها الشفيفة نوريات القلق. الذرور الدقيق، الذي تنافر من الصلصال، دحرجة النفخ الإلهي إلى الظل الأول - ظل الأجنت المرفقة في الغيب، هناك، تحت لسان اللانطوق الذي سيغدو تاويلاً مؤرقاً في بزوغ حواء من عضلة المكيدة عصباً من لون. شروق مُعش تحلل عظام الذكر بامشاطه - امشاط التبرج فتباعدت ضلعاً ضلعاً لتخرج صورة المصبوك الثاني تأكيداً لصورة المصبوك الأول مختوماً بختم اللحم الحي. تقلبت الأنثى الوليدة على الظل فعلق بجلدها ذرور الصلصال، ذلك التدوين الأول للنقش الذي سيُسمى نَمَشاً. وقد امتحن أردهان بركة النقش الموصوف بجلال الحقيقة، فاختار نساءه ببشراته يترقق تحتها مسيل الحليب أو ينسبط الشفق أحمر برتقالياً، ببضاوات حُمير اوات، على خدودهن وانوفهن ثريات نَمَش ثَقاس - خيالاً - بالتطابق بين فلك الأبراج وفلك النجوم. أما الدروب الخفية لجرات النمش، التي تفتح لنفسها في الأثير الدافئ للكثافة مساكب من اكتاف النساء حتى ترائهن، ومن الشرر حتى قباب القُرُوج، فلك أقاليم تستطلعها أنفاس أردهان إذ تنتحل علوم الرعاة، غادية رائحة بالقطعان الثبل في سهول الجسد الريح. لقد وطد الرجل - حرائث النقش - للحقيقة خصائص البناء كي تلد له ذرية من الرحم الموصوف، باختيار النمش، يقينا لا ينفذ إليه عبث المصادفة، فإذا بالعبث يلتهم أمل الصور في أن ترتدي أمام مرآة المني ثوب الشكل. امرأة بعد أخرى هيج السديم الغدَم في خصيته. فحولته الخضبة بالحناء كراحتي يديه فكّت رباط رثتيه في كل استنزاف لعتن الماء فيه، حتى لتكاد نساؤه أن يوقن أن يدين خفيتن تنفقدن في أحشائهن، من مضائق المهبل إلى المبيض، علامات المشيعة التي يهتدي بها تدوين الصور على لوح

الحلق، لكنهما لا تعثران إلا على الهباء.

سَطَرُ الله الناقص، إِذًا، أَلْهَم الطاهي فرهاد أن يستجير بالممكنات المستورة في خيال التدبير. نزل السرداب إلى ملجأ قاضي الطهارة راوند لور، وهو يحمل صور الاختام التي سُيِّمَتْهَا كِتَابُهُ الْفَرِيدِ الطَّرِيف: «مادية الإعدام». الأب الدهقان، منزلُ الأحكام في أمور لم يسبقه إليها قاضٍ قط، كان منصرفاً إلى قراءة الفصول الناقصة في المؤلف الذي لن ينجزه: «فاكهة الرُّثَم». راوند لور لم يكن طاهياً ليحفظ لنفسه شُرْعَ الأحكام عن مران في خصائص انتقال العناصر إلى أطعمة، وانتفاع الحَيْلِ بِالْحَيْلِ في توليد الأجناس من روائح الطهو ونكهاته، لكنه تَتَبَعَ الحواشي المُحتملة في تصانيف السُّيَرِ الثماني-سَيَرِ الْقَصَائِبِ المعتمدين في قلاع بلاد زوزان، وبخاصة سيرة بوري الهدهد، عالم اللّحم في قلعة جُرْدَقِيل، التي فيها كرسي ملك الكرد آتيل.

اللحم قِيَافَةٌ. علومُ الأعصاب، والاوردة، والألياف، والشحوم، والغضاريف، والأغشية، والعظم، والنخاع، والنقي، ستورُ نَزَاحٍ عن مراتب التفضيل. لا قطعة من جوارح الحيوان المذبوح تشبه الأخرى في مَسَلِّكَ الطهو. أسرارُ بَلْعَمٍ، وغلغ، وماء، ودم، وأبخرة تَجَسَّدَتْ كَثَافَاتٌ فِي نَشَاةِ الْجَسَدِ الْحَيَوَانِيِّ. أسرارٌ نازِمْهَا آتَمُ النظر في إقامة العقل على مشارف المُلَغَزِ-آتَمُ القِيَافَةِ، ذلك الهمُّ الذي يستجلي بالثَّقْصَانِ الْإِنْسَانِيِّ شَوَاهِدَ الْمُخْتَجِبِ. قَصَائِبُ قَلْعَةِ جُرْدَقِيل، بوري الهدهد، صُنِفَ مَثَابِيلُ الْمُسْتَوَرَاتِ عَلَى مَقَاسِ الطَّهْوِ فِي أَجْزَاءِ اللَّحْمِ، فاستهدتْ بِوَصْفِهِ الطَّهَاءُ الْقِيَاوُونَ. وقد آتت قراءة سيرته بالقاضي راوند لور إلى استخلاص الطبايع على هَذِيّ مقادير التوابل، كعنابية عرقانية، واقتدارها على تنظيم السلوك بعد الشُّبْعِ. ولما فرغ من ملاحظات في هوامش السيرة نقلها إلى مَثَرٍ مَخْطُوطٍ اعتمده الوقف الإسلامي في شهرزور، بعد تشاحن قوي، وتقاذف بالتهديد بين الطهارة لتقل منهم إلى أسياذ مطابخهم من موبذانات الإقليم وأمراء الإيالات. كُلُّ مُقْتَدِرٍ انْتَصَرَ لَطَاهِيهِ، وتولبه، وأعشابه، وأسرار أخلاطه في الانتقال بالطهو من أسرار الوعاء إلى كرامة الذوق للمستنير بخصائص الفردوس الموصوف نكهة بعد الأبدية. رُفِعَتِ الْمَظَالِمُ، قبل استفحالها شراً يأخذ بيد الخير، إلى القضاء الذي اعتلى منصته راوند في جُيْتِهِ الْمُقْصَبَةِ الْأَكْصَامِ، فأخذ بيد الطهارة والموبذانات، معاً، إلى أحكام هي تفصيلٌ كَالْقِيَافَةِ فِي شُؤُونِ النَّسْبَةِ، وَالْمَقَادِيرِ، وَالْمَثَابِيلِ، تكون قاطعة عبر امتحان للطهارة يحملون-لاجتياز- توابلهم، وقوارير خلهم، وحَقَّقَ الزَّجَاجُ الْمُسْتَحْدَمَةَ لَتَقْدِيرِ الْكَمِّ، إلى المحكمة، فيجري رُكْهُ الْمُسْتَحْدَثَاتِ مِنَ الطَّعْمِ إِلَى مُسْتَحْدَثِهِ، وابتكار الحَلَطِ إِلَى مَبْتَكِرِهِ، وتغريم منتحلي التوصيفات، ونشالي أسرار الأوعية، بالتعريض بهم في ورقة مهورية بختم الولاية الفقهية يتم لصقها على باب الخان. وتلك غاية ما تستطيع المحكمة فعله لتعذر التغريم والمعاقبة على أي وجه آخر ما دام الطهارة في عهدة أمرائهم. وكانت سرقة النكهات المرصودة، والطعوم المُسْتَغْلِقَةُ بِحَرَصِ الْمَبْتَكِرِينَ، قد شاعت في تلك الانحاء بعدما تبادل الطهارة دس النساء العاملات في المعاجن، الخبَازَاتِ مِنْهُنَّ وموقدات النار والغاسلات، في مطابخ الآخرين يجعلون منهن عبواتاً على أيدي المهرة وقوارير مُطَبِّياتِهِمْ.

راوند لور عزَّزَ علومَ فرهاد زِنَكَةً بِالشِّفَاعَاتِ الَّتِي تَبِيحُهَا الْأَسْرَارُ الْمُحْكَمَةُ فِي مَذَاهِبِ الطَّعَامِ، منذ التحق فرهاد بمطبخهم شاباً في عمر ابنه أردغان. صقل بميرد الجسارة خناجر النكهات ونصال

التوايل، بتحريض الشاب الطاهي على التمرد في حلقة الموازين من حوله، حيث المعارف تتشاحن بين القوارير، والأوعية، وقفف المحققات أعشاباً وفاكهة وقشور أفاوية. ولما نضج الشحم الرقيق على عضلة العقل الحافظ، في خزانة قلب الطاهي الشاب، المؤمن مع أمه سَهْبَةً، وأختيه قبل زواجهما، على مملكة الدخان العرفاء، أباح له راوند أن يروض ما يشاء من الكيفيات المهجورة أولاً، بإعادتها إلى سِنَّة المآذب، والتلاعب بالمكايل ثانياً، بحسب ذوقه المتأمل في بروج النكهات وأفلاكها المعدودة على سُلَّم الأرقام الغبارية: «الطعام فِقة الحقائق».

حين أشرف راوند لور، دهقان الدساكر الشمالي والأربعين في إقليم فيش خابور، على ثمانيناته، حجب نظرة الغمام المتسرب من سهل الجمجمة إلى الوقبين - غمام الخلية - وهي تنحدر من شفق العلوم الأرضي إلى الجهول الأرضي، بدفع من حيلة الوقت المعهودة. صار يتقرى حدود الممكن بلسانه وأصابعه، في السرداب الذي اتخذهُ أسطراباً على أطلس العماء الكبير، تحت الطبقة التي تنتصب على رخامها الناطق بحكمة جبل كاس الأربعة الأعمدة في البهو المفضي إلى حديقة زانا خاتون. آنفد، في الوحدة الرملية المحروثة بخطوات شبح زوجته الميتة ريشمك، وبانامل حنينه الحديدية إلى ابنائه الأربعة الآخرين، أوقد سراجاً من شحم الطاروس فوق غطاء الجرة التي يحفظ فيها رماذ الملا سياه - الشيخ الأسود، وجرد خطوطاً عشواء، وأرقاماً، وكلمات، بالمصادفة التي تقود يقين يده على الرزمة الضمخة من ورق الأرض، بعدما بُثَّت على رقعة من جلد السُلُور الصحراوي عنواناً بحجر القرمز: «فاكهة الرُّثم»، متبوعاً بسطر أسفل: «أسباب الصوت واتصالها بأسبابها الماهيات الأخرى للخيال الناطق»، بلغة كُرْد زوزان، أعانه على استقامة حروفه على الطرُس فرهاد زنكنة نفسه، الذي تسرب إلى عضلة الخلود فيه صمغ الثمرة الزجاجية - ثمرة الكمال غير الناضجة تغدُّ على غصن المتدرة، فاستثار الدهقان المنكب على العماء المولود من شمع بصره المحترق في أمر مكيدته الإنسانية: «ماذا نقول، أيها الشريف القاضي، في أن أجمع مُصَنَّفاً في الطعام المسموم - ملوك أعدوا الموت لضيوفهم على الموائد؟»، فاستعان القاضي ببصر المصكوكات العمياء، المضروبة بالختم الأجرى على لوح المعلوم المستور:

- كيف استقصيت المداخل إلى الملوك، يا فرهاد؟

- بخطوات الموتى في المآذب.

- خستك هذا. استعن بخيال المواقد.

- بل استعن بخيال الدخان.

في الهزيع الثاني من كل ليل، بعد أن تتجرد الظلال من طبائع الثور الداهية، وتتنفس مُمتنَّة لا زلها العريق، يجلس الطاهي الكهل إلى جوار القاضي الشيخ، أمام المنصة الحجرية الواطئة، المطوَّقة بحزام من الأجراس الفضة الصغيرة، منكبين، معاً، على الورق الخشن، بصري واحد من قصبتَي ريشتهما - ريشتي جناح الألباتروس الأسود، اللتين شهدتا تدوين انتقال سبع وثلاثين ألف خزانة من الزمرد، في قرنين، من فاتح إلى فاتح، في خط من الريح يصل بحار الإله أودن الأشقر بكهوف كريت، حيث استقرتا على منصة الميزيران، المنتدب من سلطنة الختم الذهبي في شمس الترك على الجزيرة المنزلة

عن سكة البحر في اتجاه غياهب الشرق الحُرُف. الأمير بدرخان، أمير جزيرة بوتان المنفي تسلم الريشتين من الأمر على الجزيرة، الميرمران الحالم ينقل الجزائر اليونانية على ظهور النيران إلى الجبال، والصعود بها، بواسطة حبال من تلك سراويل الباشوات البداء، إلى سرير النجم العثماني - نجم القشدة. أمير جزيرة بوتان، نفسه، كان يغرف من حليب الحلم الجبلي في أرض الكرد المنتدبين على إماراتهم بختم مثقوب، ينظر منه الشاه طهماسبا إلى الغرب مرة، والسلطان سليمان خان إلى الشرق مرة أخرى. وفي الأثناء التي يتبادل فيها الشاهات والسلطين النظر إلى معجم الممالك للنكوبة في البرزخ بين الحقيقتين، تركض جياد سعاة البريد من جهة إلى أخرى، بحقائب من جلود الثور فيها رؤوس الخارجين من الكرد على اختتام الأمصار الكبيرة : « رأس من معك، اليوم ؟ »، يتنادى الفضوليون والسعاة : « رأس الجوهري. رأس نقاب الفضة. رأس البرق. رأس الحجام. رأس البزرة. » رؤوس بلا أسماء. القاب من طحين أصفر. وقد ترائفت العناية الجبرية برأس الأمير بدرخان فبقي بين كتفيه، كي يشهد عشر سنين من النفي في جزيرة الثور الإلهي ذي القرنين الحجريين، مع نسائه الأربعين. ولما اشتعلت شرارة النهب الكبرى بين الطورانيين - أبناء زبد مرمر والبوسفور وبين الروميين اليونان، أبناء الآلهة المجولة في سرايب أحلامهم البشرية، فتح المنفي السجين باب داره، التي خصه بها أقوياء الآستانة احتراماً لارومته الأميرية، للاجئين اليونان، واستحدث حكمة غدت أحكاماً تحت قلم الميرمران، الذي أهده الريشتين يوم أفرج عنه : لقد وطد الكردي العبوس لسجانه ركن الرئاسة في مذهب المنازعات العمياء بجسارة العدل ورهبة.

من بدليس - أرض الدنيا الثانية في عرف الأمراء الكرد المنكوبين سلالة عن سلالة، حملت ريح البحار المحجوبة تحت رمال الإخشيديين ريشتي جناح الألياتروس إلى قضاء شهرزور، فأحكم راوند لور يدي علومه المؤجلة في كهانة الخبر القادر عليهما. غسلهما بماء فيه رماد الزوغ، وحفظهما في جعبة صغيرة من صقن الجاموس معلقة إلى عمود في البهو الذي يعلو السرداب الحافظ رماد الملا سياه. « رائحة هاتين الريشتين تدغدغ عرق الشهوة في باطن فخذي البسرى »، كان أردهان يتعلل بمنطق الشبهة الذكورية فيه إذ يقول جملته الدائخة، ويقسم أنه يسمع لهات أمير بوطان نافخاً في كلل أسيرة نسائه المنتفخة أشرعة في أرخييلات النار العذبة. أربعون امرأة، أكثر من نصفهن يزيدات - فروج موهوبة من عناية الظاهر الجليل للباطن الجليل. لحم رائق كفكرة تروض نفسها على اللاتعين في القياس؛ لحم مرثي، مدون بحساب الخصائص الصغيرة في الكيمياء، لكنه مستثقل، مثليز، مفاجئ؛ هذائ - لحم هذائ يسوط به العقل ثروة الوحشي في استعراض الله للعقل. اللحم القرخ. الخاصة المستعصية إلا على الوصف الآخر. أربعون امرأة. أربعون توربة تحت سقف البیان، واليزيديات، اللواتي استأنس الأمير بدرخان منهن بمجرات من ريش الطاووس - الطائر الملك، الذي يقفرتين يعبر الفردوس الأزلي متعقباً الأبد الهارب المتنكر في هيئة الثور كيوان ذي الأربعة آلاف عين، مرشد السحاب؛ اليزيديات أولاء نقشن على وسائل الأمير مغامرات ملائكة الليل - العصاة النورانيين في اقتدارهم على تبديل الكلمات السبحانية بالآرق الملهو جيداً على جمر الصيرورات : النجوم للذئبات، وأوراق الجرجير ذات العروق القرمز، والأسماك يعيون آدمية، والبيارق المتماوجة في ريح العتمة الأول؛

تلك نقوشُ الفكر وهو يمتحن البقاء بحسب الكما الذي لم يُغسل من رمل الفردوس المذخور.

قيل لأردهان إن الأمير ذلك، العارف بعارض السُّوم وأخطاها، كان يسأل واحدة من نساءه، كلُّ الصباح، عن حلم حلمته ليتأول مثاقيل يومه، فاتخذ أردهان الأمر لنفسه عرفاً، مع زوجاته القزلباشيات الثلاث دون سائر الأخريات. أحلامهن عوارض من مصكوكات النقود المضروبة في منازل التركمان، على الحدود مع أقاليم الصفويين. نقود لا تشتري شيئاً في أرض شاهات الشمس الشرقية ولا في أرض سلاطين الشمس الغربية فوق قوس الأناضول. نقودٌ حيرة. نحاسٌ مستديرٌ بلا إتقان، ذو حواف رقيقة محوثة النقش، ودواخل ثخينة في المراكز غير مستوية، تظهر الحروف عليها متقطعة. أسماء أئمة مطوّقة بإشارات من جبر الباطن - الألف المستقيم، والمثلث، وهاء الشبهة والمتاهة، وأقواس الحصر. نزوحٌ إلى اللاتعيين لا يُغضب المذاهب إذا غلبت أو غلبت في الصُّنع الترامى المشمول بمصادمات الملائكة من طوروس إلى صحراء الملح الكبرى بخراسان. ثلاث نساء قزلباشيات، من مجموع التسع، تخصصن في نقل الصباح من كمين الثور إلى كمين المصكوكات النقدية، كي يُشرف أردهان من منبع ذكورته على العوالم النقية في بلور الجماد الناطق: «ربع قطعة النقد، في الحلم، يعني نزول ضيوف على الدار يحملون أقمشة. نصف القطعة يعني حلول حُتى من ريح خبيثة. القطعة كلها، بتمام نقوشها، تعني غدرٌ القريب بالمواقف». لكن لم يحصل أن انفردت واحدة منهن برؤية أكثر من خيال معدني لا يشبه المصكوك النقدي تحديداً، ولا يشبه غيره. إنما بالجزم والقطع - هو خيال من إشراق النحاس التركماني المصكوك بضغط من اختام محفورة في كُعبرة نمر الجليد.

«الدنيا كاس، والقلبك هو الساقى، والأجل هو الشراب»، يردُّ أردهان كلما فزع من الإنصات بعظام يقينه المتلامسة إلى إحداهن. ويضرب على فخذهما مداعباً: «أما في نقوش نقودكم صورة طفل، يا أهل الباطن؟»، مُلمحاً إلى سطر الله الناقص في سيرته هو، التي يابى منيّه أن يستحدث لها بياناً بألغة الكمال في ترتيب الصور ذريّة، ونسلًا، وزينة، وصبرورة لحم وعظام يكتسي بها القدرُ التحيل كميزمار المهرج. وذلك السطر، بتحديد الحبر الممحو فيه من رداءة أخلاطه اللامثقة، ألهم الطاهي فرهاد أن ينزل، ذا فجر بارد، إلى سرداب راوند لور، وفي يده كرات جوز. جلس على زرابية تحتها ثيود أسود، مواجهاً الرجل الشيخ المتملذ متكئاً برأسه على راحة يده: «أتنام الليل، أيها السيد القاضي؟»، قال، وضغط الجوزات، حبة على الأخرى في راحتيه، فانفلقت. ترك اللب ينهمر على حبيره فوق الجلياب، ووضع القشر القاسي جانباً.

«ما الليل، يا سليل الفقهاء؟»، رد الدهقان ذو البصر المحتجب في غمام الرجاء المدحور.

بقي الطاهي، المتوسل بمذاق الجهول إلى المعلوم، منصرفاً إلى كشف القشور القاسية عن حروف الطعم ذات التلافيف الشبيهة بادمغة الملوك. وضع في فمه فصاً. طحنه. تتمم الشيخ الدهقان:

- الزبيب مع الجوز يخفف جفاف الفم في الفجر.

«يُغلق عُجم الزبيب بإضراسي، أيها السيد القاضي»، قال فرهاد.

«ما الليل؟»، عاد الدهقان إلى مساعلته.

«قنر»، رد حاكم المذاقات العادلة.

بركات: كيوتاء

«قَدِّرْ تغلي»، قال الدهقان. تربث يستنبطُ حشائشَ لسانه الناطقة، واسترمل ثانية: «ما الذي يفرور منها زَيْداً، يا سليل الفقهاء؟».

«اللون»، رد الطاهي.

أنزل راوند لور ساقيه عن فراشه واستوى جالساً. حذق إلى الطاهي بعينين انكفأتا إلى تدبير السديم: «ظننتك ستقول: اللام».

رد الطاهي عمامته الصفراء إلى الخلف قليلاً يحكُّ لَمَّةً شعره، فوق الجبين. تقرأ أعماق الشيخ بأنامل الحذر:

«ما الذي يجعل متناً يختلف عن غيره؟ لقد بلوت أخبارَ الدُّكران الأقوياء والمؤهَّنين، أيها السيد القاضي».

«خيالٌ صاحبه»، ردَّ الدهقان من وراء متر العبت الشفيف. تحسَّس علبة السُّقوط الذهبية فوق غطاء الجرَّة، التي يحفظ فيها رماد المِلا سياه. استنشق مثقالين، من كل منخر دفعَةً، قَدَّرَ ما جمعتُه السبابَةُ والإبهام في رَفَقٍ. هزَّ رأسه كي يتمكَّنَ طحينُ التَّيغ العسلي من النفاذ إلى قَدَرِ العقل، ويلصق بالحقيقة النازفة فيجمدُ نفوسها: «أيقَلُّك أن أردهان لا يُنجب، يا سليل الفقهاء؟»، قال الدهقان.

«هو ينجب، قطعاً، أيها السيد القاضي. له في أرض ميدو ذرَّةٌ من علوم المسالك التي تنتهي إلى خايه، ومن علوم النقش والتدبير...»، فقاطعه الشيخ:

«لكنه لا ينجب أطفالاً».

«الأطفال يُعوَّضون»، تتمم حاكمُ المذاقات بنبرة المواسي، فردَّ الدهقان:

«لا. الأطفال خيال الرجل».

«وأفعاله أيضاً»، قال الطاهي ملتقطاً شرارة الحكمة النازلة إليه من فراغ المسكونات.

«اللحم الناطقُ أمر آخر، يا سليل الفقهاء»، قال الدهقان الشيخ.

صمت فرهاد. مضغ فصاً من لبِّ الجوز وهو يعاين وجه الرجل المتلبِّد في خسوف اللون:

«إليس لأردهان خيال؟»

«بل فيه إفراطٌ يبلبلُ الشكلَ. منيَّةٌ مخوٌّ من ازدحام الصور بعضها ينهش بعضها، يا سليل الفقهاء»، قال الدهقان الشيخ.

صمتاً. طلققُ الجوز متكرساً في راحتي فرهاد الضاغطين، في الفاصل الذي علا فيه بخارُ الثقل من خمائر العقل المنبسط على ثغرة المعلوم الحائر. تكلم الشيخ:

«اجعلْ على وجهه تبرُّجاً كلَّ عشاء، قبل مواقفته امرأةً من نساته، وإطعمهْ خُصِيَّ مختلفة».

سرَّ الطاهي بصره على الودائع الخفية في قسَمات الشيخ: «تبرُّجاً؟»، تتمم بلسان المستنكر، وأردف المسألة إلى المسألة: «تعني أن أجعل على وجهه عصارة الورد بحبِّ السُّمَّاك؟ أن أدهن جبينه بالشَّيْزُج؟ أن أخطط حدود شفته السفلى بحبر صَبِّيْدج البحر؟ أن أمسد صدغيه بالحناء المخمَّف؟ اهَذَا...».

«نعم»، قال الشيخ بصوتٍ رنَّ فيه فلزٌ صلدٌ. ابتسم فرهاد:

- سيظنني أهدي إذا فاتحته يطلب كهذا .

« نعم » ، رد راوند الشيخ، مثبتاً بصره الفارغ على المعنى المرصود، فلم يطلب الطاهي إضافة . طحن جوزتين في جبره : « ما الحصى التي ترجح أن أطعمه ؟ » .

« الأقل استنزافاً للشهوة ؛ الأقل تبذيراً في الجماع » ، قال الدهقان .

« لا علوم عندي في خواص كهذه » ، تطلق حاكم المذاقات .

« دؤن ، إذا ، على ورق المقادير في الخواص : حصى القنفذ ، والأروى ، ودبكة جبال أرارات ، واليربوع ، والحدأة الشاهين - أسراب منه تقيم في وادي الظل ؛ وذكر الطاووس ، والشاهوار .

« الشاهوار ؟ » ، تتمم الطاهي مستغرباً .

« حيوان النعم » ، قال الدهقان . أحكم يدي يقينه على ريش الحضورات المسؤولة : « الصفير الذي في شعاب قرنه الوحيد سيقظ ملاك النطفة . شيء ثائث في زلال ذكورة أردهان . آله المجابهة مع السديم نائمة يا سليل الفقهاء ، فادهن عتلتها المحركة بمزق فيه حصى الشاهوار » .

هز الطاهي راسه مستكشراً . بارض روم زوجان من الشاهوار - زوجان ربح في الغياض المسورة بقصب الملوك . زوجان هتما هتما ، منذ عبور الإسكندر ذي القرنين اتفاق المهاجر ، التي اقتلع منها جن الأنهار الكبرى حجارة قصر الملاك الكروي إيليس قبل العصيان . رجال فاح الأقاليم السفلى والعليا ، مرشد الحكمة إلى إسطليل العلوم بلا تنعيف أو قسر ، سمعوا زوجي الشاهوار ينفخان من مناخيرهما المثقوبة سنباً سنباً على كل جهة ما يشبه صوت القيثار في أرخبيلات البحار المفقودة . وإذا أصغى بنفسه إلى الحيوانين ، المحتجبين في غلالة من بخار الهور الذهبي ، لم يتوقف عن البكاء حتى بلوغه ، في المساء السادس والعشرين من مسيرته ، أرض التيه الأصفر ، التي بنيت فيها الفطر مختبلاً من رائحة غدة سنور الزباد فاتحة كشفيقها المسك والعنبر . بدليس ، غلام الإسكندر ، المتنصت على خزائن الهندسة العريقة في إشارات الكهانة ، انتشل الرموز الأكثر غبرة . مسح الهباب عن أرقام التدبير ، وأسند الخطوط المستقيمة إلى نهايات المطلق المنعكفة على نفسها ، فخرج من بين يديه ، من شرائق السديم المسفوح على ورق المعمارين ، قرأش يحلق مثلثات مثلثات . أكمل الرسوم الدهرية بأقلام الوجود العارض حتى انتصبت قلعة من حجر وطين على الهضبة هناك ، بجدران مائلة تتلاقى في الأعلى كمثلاتها الأخرى من الأهرامات - تلك المدائح المعلقة من أئدائها إلى كليات البلاغة العدمية . ثم جعل على القلعة رصداً من أسرار الخلود المتاه سماء « طلسم الباب » : آدمي من نحت بارز في صخرة عظيمة ، يحمل على كتفيه ثياب الحجاب الأبدى ، المشرف من جهالة الجماد على الوجود المدون مسالك التصاريغ . ثعبان بعين واحدة لم يقبض له ، في الأرجح ، أن يهتدي إلى شجرة الرانج ، التي من خواصها أن تعيد البصر إلى سلالته في آتي الزمن ، المحكوم في روايات العلم المشكل بصناعة أحداثه الواضحة ، المسطرة قبل وقوعها بحبر المصادفة الجبرية . أحفاد ذلك الثعبان مسحوا عيونهم العمياء بالشجرة تلك فابصروا خيال الموجودات ظاهراً مرئياً ، من الواح الغيم حتى شهوات السيدة « غثن » ، ابنة آدم التي عزا إليها العارفون كشوف البغاء ، في السنة الثانية من نزول أبيوها إلى حراة الأرض ، متلقفين من السماء بذور الجنطة والدخن . الريحان ، الغامض التأويل ، هو ما ستهديه

الافاعي إلى كسرى فارس، فيكون لهذا النبات ظهوره الأول في عهده، بعدما حُيِّتْ بزره طويلاً عن آفات العصيان المتفجئة في أشكال العطر. والقلعة، التي بُنيتْ مشرفة من الهضبة على أقواس من متاهات الظاهر، مثلثة الحجر، مثلثة الحيلة؛ القلعة الخيال المنصرف إلى تأويل الخلود النعبان، سُميت باسم غلام الاسكندر: بدليس.

لم يدون الطاهي فرهاد، في قائمة الحُصى البوئية على حروف المعجم الناقص، ما يتصل الشين فيه بحيوان الشادهور، بل نزل به إلى الشادن، بعد إفتاء من الدهقان راوند لور بجواز تعريب اسم ابن الطيبة الوارد على صورة حرف آخر بالكردية، كي يتمكن المعنى من الاستحواذ على ضلالة الشكل، ويروض الكشافة التي هي تورية الله الأولى حين استولت الروح من شوقه إلى ابتكار الرئي. شفرة رهيفة جُيِّتْ الكرتين من أصلهما المتصل بإحليل الحيوان المنحسر إلى سديم الباطن، تحت حجاب الجلد. ارتفعت قوائمها المُحكَّمة الوثاق، ونطق لسائله. لسائ الأکید الذي يعيد اللغة إلى طبعها استغافنة يتوسل بها العبث إلى المشيعات: هكذا استقرت خصيتا غزال من غزالات زانا خاتون العشرة بين يدي دُرْدِيّ وآ، ابنة الطاهي، دافقتين في صفنهما المغطى بوبر أبيض. حامو، أحد مساعدي فرهاد المؤكِّلين بشؤون المؤنة يُحصيان النواقص فيكملانها من تجار الزاد والتابل، الصق الحديد المحمى بموضع التزف. اختبل دخان الكي من نشيش العناق بين المعدن واللحم. فك وثاق الغزال في حظيرة النعاج التي اقتيد إليها فاستوى واقفاً مصعوقاً. ارتج عرقاً صديغ، وتدرجرت خدعة الحياة قطرة دمع من زاوية عينه اليمنى.

زانا، التي شُتِّت كَم قميصها كَمَدًا من أثر الغدر، وهي القمينة أن تُبْلَغ من قُبْلُ بالإهانة المُحاكاة لحيوان حديقتهما، ضربت عنق الغزال بحدة الينطق الذي استلته من حزام الطاهي، فوق الحصباء المحيطة بالفسقيات الست، في اليوم الثاني من إخصائه. حزت، في لمح كشهاب النفاض بين يدي الملاك نمرود الهارب، بلعومة الرقيق وورديه. شخر الغزال مبهوتا. ركض في اتجاه الأبواب الأربعة الدفينة في رمال خياله كي يعبرها إلى شفق الغيبوبة الرحيم. سقط في البهو الشاسع، الحجري المطروق دائرة الحصى بحنان، ثلاث مرات، بانزلاقات من اغلافة على الدم. سقط ونهض. أحصى صور الحقائق المُتخنة باله، ثم استسلم للأرقام الكبرى تحت ساعة الفراغ السحيق. ترك جسده لحجر البهو الصقيل لكمال نائم، والقي بخيال كينونته الثانية إلى شباك المغاليق.

بُهِتَ الجالسون على زرابيات البهو آنذ، وقد سُمَّتْ نعالهم - المخرومة الاعناق فوق أرساغ الأقدام بسُيُورٍ من عَصَب الجِمَالِ المغولية - رذاذ الحياة النازقة حمراء من عنق الغزال. رن في عظام أعقابهم حديد البطق إذ رمت زانا من يدها متبوعاً بالقسم الكامل - قسم العناصر الستة التي يزن بها الوجود عقل الظاهر الكلي - قسم الماء، والهواء، والتراب، والنار، والروح، واللون: «لا أكون زانا خاتون، ابنة السنجق بكّي إبراهيم عز الدين أخلاطي، إذا تركت أحداً يمس هذا الغزال»، وأوجت بدفنه إلى عمال زوجها في حقول الريحان القرمزي، وزنجبيل عُمان، والأفستين الرومي، والسورنجان القوي في التداوي به من آلام التقرس؛ أرحت إليهم فدفنوه تحت بقايا القوس الرابع من فسطاط «ميدو» الحجري المتناثر. لكن أردهان كان قد التهم خصيتي حيوانها قبل ليلتين من دفنه، مسلوقتين في ربّ العُتَاب الحامض

مع دقيق ملتوت في شحم البط. وزاد فرهاد في موازنة موصوفات الباه على مراتبها اللونية فزّين الخصيتين بورق الغَبِيرُثْرَانِ النّبيء. ثم تتالت على ليالي حرّاث النقش أردهان راوند لور حُصَي البهائم النبيلة، المعلومة الانفاس شهيقاً وزفيراً بعدد مراتب الغابات الدهرية، وسهول التدوين المُحَيَّرُ بِأَقْلَامِ الرّيح؛ حُصَي الوُرُورِ الصّغيرة كحبيب القمح، وحُصَي الحجل المستطيلة كحبيب الفاصوليا، وحُصَي القنافذ المسطّحة، وحُصَي ضبّ الرمال، وحُصَي الشواحين ذوات العروق الصفراء، وحُصَي التيبوس المغلّقة بقشر أزرق، وحُصَي ثيران الهور في نواحي الحابور، وحُصَي الجمال، والاكبش التي لم تُسَافِدْ بَعْدُ، وحُصَي الثعالب واليرابيع. كلّها قُشِرَتْ بِأَنَانَةٍ، ومُلِحَتْ ثم غُلِقَتْ في صُرُرٍ كَثَانٍ على غصن من شجرة الميس يواجه الشرق، كي يهبأ عليها نَفْسٌ من نقطة النور التي هي برهان الشكل على استعادة عافيته صورةً جسماً وظلالاً. علوم التقدير الصغرى توكل الخصى بتاريخ هو انحسار السديم عن خيال الإنسان، الذي لم يتجنب بنين في رفايته الأولى تحت نقوش الفردوس. في الكمال - تقول علوم التقدير الصغرى - لا اقتدار للعقل على توليد الجسارة. الفردوس الكمال حجب العقل عن استيلاء ذاته في خصائص النقصان الجسور: لقد أُعْطِيَ الأسماء الكُليّة مدوّنَةٌ على اللوح، والثناء وحده - هو ما يتوجّب عليه أن يرهن به خصيصته كعقل. ولما أُعْفِيَ الإنسان من حاصل وجوده الفردوسي، الذي تبشّر نشأته إنساناً ونزل من مقام الكمال إلى نقصان الطبائع الكثيفة، استعاد الخيال في الذّكر مشيئة البرهان، فاستولد ذائفة من خصيته بألة الأنثى التي هي حاصلة: هناك، في الوعاء الصّغير الرقيق، المتجعد، التكمش كقطيفة، أسست الصور لصناعتها حلّة الشكل، ومهدّت لابتيقاف المنظورات. «أعطه غذاءً فيه عينُ الماهية». هكذا ألزم الدهقان طاهي البيت بإرشاد من عقل المُغْضِلَة، ورسم بإشارة من يده، في الفراغ المصكوك كدرهم القزلباشيين، كرتين هما مجموع الأرقام الأزلية. وأكد الصورة فوضع راحته، في جلال، على موضع خصيته.

غير أن أردهان تحوّل، منذ إخضاع الغزال، لشان نفسه إذ رأى في عيني زانا توريات الخيلة، وسمع من قلبها طنين يعسوب الزّنجفر - حشرة الثار: «ستدس هذه المرأة في طعامي سمّاً، يا فرهاد»، قال، مصارعاً حاكم المذاقات.

«سنحتكم إلى الحجر»، رد الطاهي.

لا علوم تنجو من البُحران إذا هبّ عليها نَفْسٌ من لغز الحجر. فلزّ كرمي، وفلزّ متواضع، وفلزّ رديء. خيال مرفوع بقفلة النار إلى مشهد العضلة الخلقة - معضلة حساب الصيورات بأرقام الله الغدمية. الكمال المائي يتحسر طامعاً أمام الكمال القيد، ذلك الارتجاع الصلب للجفاف الذي انبثق منه التراب الصلصال حيّاً، خفيفاً في نور شهرته. وُضِعَ الصلصال أولاً بين يدي المشيئة؛ وُضِعَ الفلزّ الصلب أولاً، قبل انقلابه طيناً من سكب الماء. الخيال المتحدّر من نشأة خواصه الصلبة ورّع مراتب المُخْدَث - أصل الخيلة وكتباها ذي الغلاف الهادي: حجر زينة. حجر ملجأ. حجر سم. حجر حيلة. حجر ترياق. على الأرض بدأ كل شيء في اتجاه السماء، حتى أن الجحيم ذاتها يكون وقودها الحجر. لا بأس. فصوص الزمرد للزينة، والصوان للقلاع، وسحققة الماس للموت تسميماً، والحزف المرقون بالحروف للرقى، وسحققة حجر المغناطيس للترياق الذي يُبْطِل السم. «ضع هاتين الحزرتين في مكان ما من

ظاهر ثوبك»، قال الطاهي لحراث النقش، بعد يوم من مفاجئة الأخير له في ريبته من زانا. خرزتان غلقتا بخط ذهبي إلى كتفه اليسرى. «إذا قُرب منهما السَّمُ عرفتا عَرَقًا كالندى»، أضاف حاكم المذاقات.

الياقوت الأسمانجوني يوصف ترياقاً لدفع السموم جميعها، من الأعلى حتى الزرنخ. أخوه الماس الأصفر يعرق إذا قُرب منه السَّمُ. تيمور كوركان لثك، الذي عض أصابعه أمام حجارة قلعة الجزيرة، في أرض مارددين، وأقسم ببياض سمندل النار وتين الريح الأخيرة أن سيذبح الهواء نفسه إذا لم يسلم إليه الكرّ شيخاً فرّ إليهم لاجئاً، لم تكن لوعته على زخرف الذهب وفصوص البلورات النبيلة، بل على خرز كوزة مُتقطعا بشفرات الرصاص الأسود من الواح حُملت إليه من محاجر ما بعد ليل السهوب الكبرى. وثق بالشيخ موجود بن روتا فحمله نُحفاً إلى عمّه ففرّ الشيخ بالنفاس إلى حاكم قلعة الجزيرة الأمير عز الدين الممدود من حكام العزيزية. أربع خرزات فتحت لقلب تيمور كوركان لثك علوماً لم تكن لآناس قبله: تخاطر الحجر البلور والسم. غواصون في متاهات المعلوم المجهول عشروا، بإشراق الخيال وإرث سحره، على مفاتيح المقدور الصغيرة، يفتحون بها خزنة الكرم - خزنة الخواص الممحوّة القُتل إلا من تنوع زئلق. نكتوا الرمل بعيدان شجر المصطكى ربيب هواء الخليج المغفود في بحر الروم، فاجلجت لهم المساررات العُشُر بين الهواء البلور من جهة والماء الحموم من ثقل عِلْم السديم: عناصر الحيلة وعناصر النشأة في اضطراب، تتمازج ثم تتفارق. ومن الهنة يتولد البخار العريق الذي يتكثف فيكون السَّمُ.

قطر متخثر، أو قطر سائل، مُميتان، يتبعان الحياة من مهد بذرتها. غير أنهما مسكونان، في الآن ذاته، بكرامة الهنة المخصصة لأقدار الأحياء، فتصيبهما الحُمى. قطر متخثر أو سائل تصيبه الحُمى فيعرق حين تدنو ذرة منه من ذرة أخرى في جنسه. تيمور لثك تسلم حُصالة السَّم من غواصي متاهات المعلوم المجهول، فحفظ لنفسه خرزتين، وسَيّر الشيخ موجود بن روتا بالحزنتين الآخرين لتكونا ودعة شفاعات الوجود الكشّاف في خزان عمه، بأرض قرقر.

حمل الرسل الناطقون بالفاظ الكرّ الهائمة على وجوه مجازاتها الظاهرة خطاب الخان المتزلزل تهديداً: «ساذبح الهواء. ساذبح الحجر. ساذبح الطير. ساذبح الماء. ساذبح الغيم. ساجم الريح سبعين فرسخاً في محيط قلعة الجزيرة حتى يبلغ التثّن الوباء غمق أرضها سبعين فرسخاً، فلا تعافى الحياة فيها ثانية إلا إذا نما حجر الحية شجرة بتسعة أغصان، على كل غصن ثمرة من روح الناموس الأصفر - جدّ الهاوية الكونية».

لن ينمو حجر الحية، بالطبع، لا في أرض الجزيرة ولا في غيرها. هو حجر من زبرجد أسود، ذو عروق شُعَب من عصارة البرق البيضاء حين تصير جُنداً. فيه خيال من متاهات الغيم، وعقل دخان صلب من انقباض البلور عليه، إذا طُحن استعاد فاقد الذاكرة ذاكرته باستنشاقه سحوطاً. تيمور كوركان لثك لن يترك ذاكرة لقلعة الجزيرة على أية حال. ستتطاحن في السُخر المذبوح بمدية المصائر المعلوم حجارة من حقائق المعدن الجماد والمعدن النبات، تاركةً للثّواح الذهبي أن يملأ تجايف الريح وتلافيفها. كُتب الخواص المعتمدة في مسالك العلوم والطبائع تؤاخي المراتب بعضها في شفاعة

بعض، فما يكون صلباً يتنفّس من أسماؤه اللدنة، وما يكون لدناً يتنفّس من أسماؤه الصلبة. «حجر الإسفنج»: حصة في خلية الحيوان الإسفنج تتداوى به المانة إذا انعقد الكلس في المجرى. «حجر إفرطيس»: كحل للمعين الرمداء. «حجر بمصر صفته» القبطي يجلو الكتان غسلاً، وتندمل به الجروح. «حجر الكلب» يتخذة السحرة لإيقاع الشرّ بالحيين، وإحلال التباض بين الخلان. «حجر البقر» غايّة النساء في طلب الشحم تحت جلودهن كي يقع الذكر على وثير من اللحم في مناضلات الجماع عن الزهر، ويكون القرع رابية رجراجاً يقرعه القضيب فيرتد عنه ليعود إليه أكثر هياجاً في ارتطامه به الكرة نلو الأخرى. كلما استدار القمر بداراً اكتملت نشأة هذا الحجر في مرارة الثور. يُسحق مع اللبن. يالّلحم. «حجر أرمني»، أغبر، يرقق المزاج إن خالطته السوداء. «حجر البسند»، النبات المرجان، المتحير في انتسابه إلى الماء أم إلى الهواء. «حجر مرقشينا»، أو حجر الثور. يقوي البصر، ويؤخذ رقية للصبيان فلا يفرعون. «حجر الكزبرة»، هكذا تقيّم اسمه. ينبغي تشطير الكتلة منه أربعة أنصاف في البيت فينشط القلب ويستروح الدماغ. فإن لم تكن أنصافه الأربعة على تساوي ظهر الخلط في استدكار الأسماء. ونسبته إلى الكزبرة لها حكم من وحي النمل، الذي عجل به الإلهام الحيواني إلى إدراك الخواص، فاستنسخت علومه العلوم: كل بزر إذا كسر نصفين لم ينبت في البذار إلا الكزبرة. نصف البزرة منها ينبت كالكاملة، لذا يعتمد النمل إلى تشطيرها أربعة أنصاف حتى لا تنمو في جمحوره. «حجر الصوفيين» بقل من بقول الأحواض الراكدة، ينمو عليه ويؤثر زهر في غاية الرقة أربع مرات في اليوم الواحد. غير أن في الأصناف المبذولة الأسماء نوعاً درج الاسكندر ذو القرنين على حفظه في جراب من جلد الزرافة، مكتوب عليه بلغة أهل الخليج التائه - خليج بحر لوث المحمول على قرني أعوان الدهر: «الماء لسان الحزان، يصف بحروف الحيلة جواهر المعمر والمهجور». إنه «حجر الإمتحان». كرة غير متساوية الإستدارة، تنطبق عليها راحة يد باصابعها، فيها خمسة أثلام، رمادية، عليها عروق نافرة كعروق آدمي، صفراء باهتة. حجر كزرة ين به الإسكندر مراتب الماء قيمة: الثقيل على الهضم والخفيف على الهضم. الأنقى والمتكدر. الحلو والمالح. الزائد نسبة معادنه وناقصها. تؤتى بالعينة من الماء في قصعة ثم يرمى الحجر فيها، ويُلحظ - بالتدقيق العارف - صدور الفقاعات من خلل الخمسة الأثلام، متلاحقة أو متباعدة، صغيرة أو كبيرة، متائلة في صعودها أو مستقيمة الصعود. هكذا يُجاز استخدام ذلك الماء شرباً، أو اغتسالاً به، أو سقياً للبهائم، أو ريقاً للحقول. والاسكندر كان يطلب الماء الخفيف على الهضم لجيشه، في عبوره المجاهل البكر، وشموس الطبائع المشرقة على تراب الأقاليم العليا والسفلى. وهو الذي افتى في شرف مياه دجلة، وينابيع بدليس، حيث دون قيانو الأسرار عجائب الظهورات القدسية: في هواء المكان الذي سُمي باسم غلامه شهد الناظرون ضومر قرني الاسكندر وأمثاعهما.

«ساذبح الحجر»، قال تيمور كوركان لنك. عرق قلبه عرقاً بارداً من جزعه على خزنتيه أن تقعا في يدين لا تتكلمان بكلام الأقدار كيديه - كلام البلاء والنعمة - أعطني الشيخ الهارب أحفظ عليك شفاعة قلعة الجزيرة»، - وماله السيل المشتدح بهبات الغرقى حملها آخر رسول يُلجّن بالكردية إلى أمير قلعة الجزيرة عز الدين، الذي أكد له كبدة، بإصغاء إلى لهاث الحوت الأعظم تحت أساسات

أسواره، أن لا أحد يملك جلالاً تهديد القلعة سوى الريح إذا هبّت موسومةً بوشم الرباء الأعظم من اهتراء الأجساد على المشارف.. أجساد القتلى آدميين وبهاثم. لكن لا حرب على المشارف. لا وباء. لا اختتام للريح غير ما تصرف به شؤون الثقل من نواخير الله الخفية إلى حقوله الخفية. «هات أمعاء الخراف المحشوة بجوز أورقة». والدراج المطهر يخلّ رشت. هات السكاج، والفالودج عليه فطر العسل، أيها الطاهي. افرشوا ظهر السور، قرب المرصد الكبير، بجلود غور صحراء الحجر، وأحيطوا المجلس بمشاعل من نفل ممزوج بعذّة الزباد وشحم سنام جمال بايزيد. ساجعل جيش هذا الملتصق الأجفان يفرق في لعبه وهو يشم دخان تبغ خوذات المعسل من جنى النحل في بساتين القيامة. ذلك ما قاله الأمير عز الدين، الذي اصطحب ضيقه اللاجئ إليه إلى غرض علياء السور، ثلاث ليال متتالية لا ينبلج عليها الفجر إلا مبتلاً برسم الذبائح المشوية على نار اغصان البُوزق. ذي الحب المتعبط ذكر الرجل إعاضاً لا ارتخاء بعده.. وقد طُعمت بغير التيوس وبعضاً من تروقات الجهاد لها وقت لا يطفئه سوى الماء. غير أن تيمورلنك داهم خيال الأمير بأهرام من الكلاب المقتولة في مواجهة البوابة الكبيرة، حيث الكوى المستطرفة طولاً في السور يرصد منها الحرس العراء المترامي، وغطي جثثها بالواح من الخوص المشدود بعضه إلى بعض بالياف نبات ستة أيام احتقنت فيها روائح الفساد فاطلقها، بكشف الألواح عنها إذ وافته الريح منعكسة صوب الأسوار. أربعة أيام لا غير. كلّمنا تجمعت الريح صوب الأسوار كُشِفَت الجثث، وإذا تغير الهبوب غطيت الجثث. لم ينفع الحراس ما تلمسوا به، فكادوا لا ياكلون. أُلقيت إليهم بالسهم رسالة الحث على التواطؤ مقابل عفو متبوع بياقوتة وأربعين فلساً ذهباً. فُيحتِ البوابة، فاختلطت أعضاء الأدميين المبتورة بأعضاء البهاثم.

«سأذبح الحجر»، كثر تيمور وقتل وعيده بالزناد القادح في غابة كيانه. جمّع الأسرى رجالاً ونساءً، وقرأ عليهم بلسان الهاوية ما لا يترجمه إلا التيه: «ستنقلون حجارة القلعة وسورها، في ثمانين اتجاهًا، توثقونها بالحبال وتجرونها»، فجروها حتى تخوم ممالك الأقوياء المجهولين، ذوي الأسماء المنحوتة تسعة أسطر في ألواح الصين وهضبات أمم الياجوج المعدودة خلائق مبهمة في التعريف. غير أن الأمير عز الدين نجا بنفسه على نحو لا يُحاط بوصفه، وقضى عمره متجولاً في ديار الأرمن والفرس لا يعرفه أحد، حاملاً في جيب قفطانة الوحيد، الموشى بعروق خضراء من حرير بدليس، خرزتين اشترى بهما من الوراق خمدين أشرف زكّة سبعين صحيفة خشنة من صناعة «دار الحجر في تدوين المخبرات» ببلدة أخلاط، وبعضاً من حجر الزجاج. مصرحاً للوراق. الذي أنجب له ابنة الفقيه في معاني التثليث حفيداً هو الطاهي فراه. بعزمه على وضع اشعار عن إمارته التي تنتظره في المنعطف الثاني بعد نهر الغهيب، وراء أكمة الجودي الكبرى من جهة الشرق: «ثمانئة وأربعة وثلاثون بيتاً من الشعر. لا أقل ولا أكثر. حُرقة الكردي لا ينبغي أن يتجاوز ذلك. تصريحه بلوعته لا ينبغي أن يتجاوز ذلك»، هكذا حدّد الأمير غاية خياله في بناء المعاني الصغرى. ولما أبدى الوراق شكاً مهذباً في إمكان أن تستمع الصحائف السبعون لقوافيه المتراخمة في غسق عينيه ابتسم الأمير: «الورق لا يخذل أحداً». ثم لم يُعثر على أثر له بعد ذا. قياضون من إقليم أرجيش ذي الأغوار الكلسية، وقياضون من زارا المسورة بهضبات الكنوز المرصودة، تعبّعوا أنفاس الأمير المكتوب كي يعيدوا قلعة، مُصاناً بعض الشيء من دُلّ

التيه، إلى المعترفين بنجداته من أمراء أقطارهم، فاخطأوا وصَدَّ خياله: لقد انسرب الرجلُ المتناع ذائباً إلى قارورة السرِّ ليقبَسَ لنفسه شرارةً من معنى «المفقود». أشعلَ الفتيلَ الغامض، وأغلقَ معدنَ المصباح على زيت المعقول المجهول.

تصادمت الخرزتان الصفراوان على كتف أردهان اليمنى حين جلس على الأريكة الخضراء، في القسطنطينية المعلق، بعدما حثَّ ضيوفه السبعة، واحداً واحداً، على الجلوس. هزعت الفتيات الأربع، ذوات المناديل الثلاثة المخططة بالفلوس الفضة كالحوذات، والعمامة التي تتدلى منها ذوائب من وضح بحيرة وأن. حملن وسائل زرقاء، وسوداء، وحمراء، خشوها ريش القُبَّج، وأغلفتها قطيفة موشاة برسوم الهدهد طائراً؛ ثلاث وسائل للرجل الواحد يحيل عليها بكتفه نصف متمدد. الحضور الآخرون اقتعدوا الزرابيات الفارسية والبُلسُ الأذرية. دخل حامل قربة شراب الأثرُج المُفضَّل لدى أردهان؛ شراب النظر بعين الدم النهمة إلى اللذة. تبعه حامل الكؤوس الصلصال الحمراء، المطعمة الأعناق الدقيقة بخزف كالرمل ذي يريق كسول. ترقق الشراب في الحناجر ينداء القَدَم البارد. قَدَم الماء اللُّسان الذي كلَّم العَدَم بادبٍ من طباع الوجود. علت همهمات الحديث بدخول سرب من السنونو إلى مغاليق القبة العالية: «لم يهاجر بعد»، ثم هدأت بدخول زانا خاتون آتية من ممر لا باب بينه وبين الإيوان المتصل بحديقتها المسقوفة. نهضت الغزالات التسعة تتبعها بعيون الكمال الساهر في طباع الحيوان. حينئذ المرأة الملتمة بطرف خمارها الأرجواني، المصنَّع أربع دوائر على محيط رأسها بدرام ذهب تُصدِرُ وشوشةً من لغة الكنوز الآمنة. ألقَتْ تحية الرجاء الكردي عليهم - رجاء العافية للروح أولاً، وللجسد ثانياً، وللنسل ثالثاً. جلست على حشيتين من الصوف مستطيلتين على مبعدة من الرجال، وهي ترث أذيال قفطانها الطويل على حجرها. أومات إلى امرأة واكبته منذ دخولها الإيوان، فجلست الأنثى الملتمة، الأخرى، بدورها، على بُعْد شبر من كتفها اليسرى.

صَفَّق أويس أُوْسِينْجان بأجنته الكلمات من حنجرتِه: «وصل إلى خاننا أربعة من حَمَلَة الأكفان، هذا الفجر».

حدق الضيوف إليه. رُت الهيبَة رنينَ النحاس في الفراغ القُدسي. مدَّ أردهان يدَّ خياله يستعيد البرهة المَحْتَطَّة: «هذا سِنْجَقٌ بكِّي إقليم ميدو»، وأشار إلى أويس. علا الضحك. «سنجق بكِّي» هو أمير راية في لفظ ملَّة العثمانيين، وحاكم خُمسٍ من ولاية مقسومة. لقبٌ رفرف خفيفاً حول رأس أويس، الذي حَصَرَ قُلُوع العوالم التائهة بعينه اليسرى الوحيدة، وتراجع بكلماته من عُمُر الرموز المتصلة بِحَمَلَة الأكفان إلى منابت الرَّم: «إنهم سبعة، يا سيد أردهان».

«أرى ذلك»، ردَّ حرَّات النقش، والتفت إلى ضيوفه الجالسِين نصف قوس إلى يمينه: «طَلَبْنَا ثمانية كراماً من أهل التدبير في خوارق المؤنَّلات، الصُنَّاع المحتشمين في نقل خيالهم من الطيش إلى الترويض. حضرتم أنتم، واعتذر الثامن». نَقَلَ بصره في جَمْع من رُوَاد مجلسه: «هل اعتذر عن عدم الحضور؟» فَهَمَّهم اثنان:

- لم يؤد على وجه الهجوم.

«لا بأس. كان من سَعَد اللون في حضرة النقوش - الرسوم لو أُمَّ دارنا مَيَّكَر بابو. تعرفون مَيَّكَر؟»

سأول أردهان السبعة، فهزوا رؤوسهم اتّفاقاً: «نسمع به، كما سمع واحدنا بالآخر- نحن الجالسين هنا»، قال جَيَانُ زَوْو، ذو اللحية الدائرية، المشدّبة بإتقان. ابتسم الآخرون. هم، حقاً، لم يتعارفوا من قبل إلا سماعاً من سعاة في نقل ثمرات الأخبار من مجالس الولايات، التي يُعلن منها مولدُ الرسوم الكبيرة على أيدي صياغة الخطوط الحذقة، الذين يتبارى الولاة في إعلان مقادير الهبات الممنوحة لهم: تزيدُ الهبةُ تزيدُ المباهاة. يكبر النقش في الأروقة، أو الرسوم في صدور الإيوانات، فيكبر النبا. لكن أردهان، الذي جمع سبعةً من صنّاع الجسوم مستولدةً من سديم اللون المُغلق، لم يتوقّف عند سقده الطالع عليه من أطلس الفروق الفلكية، بل مال قليلاً مع هبوب القلق الصلصاليّ على خمائر العقل: «لا اكتنمكم، أيها المرهفون بالوهب الفردوسي منذ قُدرَ لحياكم أن يجاور المجهول المتعقّن صورةً في حقائق الله؛ لا اكتنمكم أنني في حيرة من أمري، قليلاً. لقد ابغضكم رُسلي بالغاية من تكليفكم الحضور إلى دارتنا. رأيُنا أن تكون لنا تحفة من جلال الوسائط بين العين وبين المستور. وتوسّلنا بشرف الخصائص في المُقتنيات الأكثر كمالاً أن نحوز منكم على النفيس من صور الأقرباء في حقائق الله إلى الجلال العالم. أوقفنا قلوبنا، ومذاهب أبصارنا على السديدين العادلين في ميزاني علومهما الذوقية، الشيخين بهاء الدين الفاروقي النقشبندي، وعبد القادر الكيلاني، حفظ الرحمن سيّرهما. وكانت بغية وجدنا أن نحظى بأربعة رسوم لكل جليل منهما، لكن غياب ميكربابو أوجب خلاً، وأوقع التقدير في الوسواس. فماذا ترون يا أكابر النقوش؟».

«لا إشكال»، همهم فَرْتَمُذُ كَرَمَاتُ ذو البشرة الحمراء. فتحت راحة يده اليسرى يميناً بها ترتيب الثقل بين المرثي واللامرثي، فالتمعت فصوص خواتمه الثلاثة، السوداء، الخزرةً بخطوط المناهة- الدوائر المتداخلة للشمويه على استغاثة المعنى. «أنا أرجع إلى موش. سُدّتْ بالتعرف إليك يا سيد أردهان»، قال، ثم ضمّ راحة يده يقبض بها على صروف الحكمة، وأثزان الرّم الذي أعاده سنّة يقبل القسمة بنداء الواحد اللا منقسم: ثلاثة وثلاثة. اعتدال وسيط يحفظ اللون عادلاً في توزيع الحقائق على رسوم الشيخين المُتّقدين على براهين المقامات السريّة.

«لا» تتمم زَعْرُوسُ غُوثِي في همس ضارع. دار بعينيهِ الصغيرتين على غمام المعادل في العيون الأخرى، الشاخصة إلى اعتراضه: «أنا آخر من حضر إلى الحان. لي خطوة ناقصة في الذي يترصّده المكان ويدوّنه. سطري مسطر ناقص، حالما يكتمل تكون مسطوركم قد زادت. لا أحد يدخل حيزاً وتكون لشخص يليه في الدخول المقادير ذاتها من ترويض الأبعاد. أنتم تتقدّمونني، يا عقول النقش الجلييلة، بمشغال من الأرق ليس في ميزاني بَعْدُ. سأعود إلى خيزان».

لم يوافقه الستة الآخرون. هزوا رؤوسهم وأيديهم اعتراضاً. تقلّبت صفحات السكون يتفّخ من فم الشاة الأزلية. تقدم غزال من المجلس خارجاً من خليج الحصى. تبادل والجُمع أنفاس الطبع الأعظم- طبع الخصائص الكلية في لوح الظاهر، ثم التفت إلى زانا خاتون التي نطقت من تخوم البرزخ: «أعدوا قرعةً بحجر الشادر».

انتقلت العيون، في حياء يليق بمقام المرأة الأولى في عصمة أردهان، سيّدة الموازين المنصوبة في هواء الأروقة والحجرات- موازين الحيلة المؤيّدة بعلوم الكايبيل البلورية. «القرعة. نعم»، قال أويس

اوسنجان، فحُدِّجَه أردهان ببصرِ ملوئه استخفاف لم يجد الأعور منه منجى إلا بالنهوض وهو يتعلل للجمع، غير المصني إليه، بشؤونٍ تنتظره في الخان : « خَمَلَةُ الأكفان يحملون بنادق، هذه السنة . هم عجولون »، وانسلَّ طائرًا في خفق عبائه ذات الحاشية المقصبة بسلكٍ طريٍّ مطليٍّ بالزئبق الخلب . غُيِّرَ حفلُ الحصى في حديقة زانا، وانضمَّ إلى سرب السنونو خارجاً .

لم يعجب زانا أن يُهْمَلَ إقتراحُها حين وجدت زوجها منصرفاً إلى الضيوف السبعة كأنما يحثهم، من جديد، على إغاثته في تدبير شفاعة للرقم الذي يتشرح إذا بلغتِ القسمة . رقم طريٍّ، رَحْصٌ، خبيٍّ، خجول، فيه لوعةٌ إذا هُيِّجَ، وإجهاشٌ إذا اُتْشَهَر، وإغماءٌ إذا قَصِدَتِ العقلُ بالغواية، لأنه منذورٌ - من مبتدا الخيال في ترتيبه رقماً - للمنزلة الأبدية في حساب الوجود : خَمَلَةُ اللبِّ بألّة متاعه إلى كمين العرش، بعدما فُتِحَ السديم عن الوجود كالبنّاق، ونثرَ طُلُغَ شجرة الحجاب الأزلية فهرع بُستانيو الثور إلى حداثئ الأفلاك .

« هاتي حجر النشار، يا ديدا »، قالت زانا خاتون وهي تحسم، بصاعقة الذهب في إبرام الميثاق لحضورها، استغالة أردهان بتلبيته في أمر الرقم : « إنه في صندوق الزبيب، يا ديدا »، فنهضت المرأة التي تجاورها . نهضت العميون مع السواد الذي استقام فارعاً تحت العباءة القرغيزية الحمراء المطرزة الأكمام الواسعة بأطواق من صور الجياد، متتابعة في نسق كسُجَّجَةٍ، وقد تعددت أن تُرَدَّ خمارها على فمها الرقيق بعد أن أزاحتها قليلاً ليلَحِظَ الشاخصون إليها أن شفتيها ليستا صناعةً من عرقٍ أُمِّم خام . هي سوداء ممهورة الدم يختم الاب الأول قبل أن تتفرَّع من لونه المختار مسالك الألوان التي يرتاب فيها الوجودُ الناطق : السود، والصُفَر، لانبوةٍ فيهم . هذا ما تقوله مُغْفَلَةٌ تقسيم الإرث الإلهي على تاريخ الأعراق . لكن ديدا صنفٌ من مجابهات الحيرة في انتساب اللون إلى يقين : ذلك ما يبدو واضحاً في مرآة جلدها الأسود : صورة البياض . ولما غابت عن العين في منعطف من الأروقة، عادت العقول إلى استقراء المعنى في القرعة بالحجر النشار، ذي المعدن المُخْتَلَف في مقامه، وطبعه، وخيال أبخرته الصلبة غير المرئية . وأفضل نوعه - يُقال - في خراسان : أبيضٌ لا قلق فيه، يجذب الهواء المُحتبس تحت مسام الجسد إذا مُسِّد به، ويجعل الرقم الخفي ظاهراً على سطح ورق عرائش العنب بتبخيرها بماءٍ دُوبٍ فيه : لكل ورقة قُفْلٌ خياليٌّ في مسيلٍ تُسَفِّها، استودعته النشأة صورة رقم من أرقام الحساب الموكَّلة بمقدار من الوقت حاصلٌ حسابها، معاً، هو الأمدُ المقدورُ - بلا زيادة أو نقصان - بين ساعة تُفْخِ الله في صلصال آدم والنفير من بوق إسرائيل إذاناً بالقيامة . حجرُ النشار يجذب الرقم إلى ظاهر علمه؛ حجرٌ منذور للظاهر، فيه كمالُ التعيين . وقد دأبت زانا خاتون - التي تحفظ في الحُفَّط طبقات من ورق المرائش المملَّح، المُنتَقَى غُضّاً في مطالع الصيف كي يكون مؤنة للحشو بأدفة الحراف المتبيلة بجوز الطَّيِّب، المعجونة بمقادير من بزر الصنوبر والبنّاق الهندي، ولُبِّ الحرشوف البري بعد قُلْبِهِ - أن تُبَخِّرَ الورقَ في القرعة بين نساء أردهان الثماني الأخريات، حتى يستقرَّ الرقمُ المفرد على واحدة منهن تفوز بليلةٍ مع البعل هي ملكُ زانا في تعاقب الليالي على مخادعهن .

كل ليلةٍ عاشره يصرف أردهان، بحساب التناوب، حُلْمَ جسده تصريفاً عادلاً في سرير واحدة من نساؤه . يقلبها باصابع شهوته كورقة الكتاب، أو لا يُقَلِّبها، أمراً آخر . لكنه يعطيها مفتاح أنفاسه

تفتح به مسانرة في أحوال العلوم الناضجة على نار المطارحات الصغرى في الدلال السماوي، والمساءلات  
 المحبوكية من الفضول الأرضي. زانا، كبرى النساء الموسومة بعقد ثالث في مسيرة عمرها، تخفقت من  
 طلب بسمتها المحفوظة شرعاً في أن ترعى بخراف قلبها وقلب أردهان حشائش الخدع، بعد زواجه  
 المتلاحق بالابكار النواهد في حُنى غزوات متنيّه تنكيلاً بالعماء العاقر من غير جدوى: لا أشكال  
 ظاهرتي كي تنقلب الخسارة العدمية إلى فوز الوجود بصور ترتدي لأردهان بشارة الذرية. المرأة  
 الطويلة، سليمة أرض الكمثرى في ولاية أخلاط الحائزة، من الغيب النقاش، شرف مستاكنة البزاة  
 البيض ادغالها، أثرت نقل الليل المحسوب في متاع شراكتها إلى واحدة من الأخريات، حيناً بعد آخر،  
 بإخراج القرعة في اقتدار الثقل من سلطان قرّج إلى سلطان قرّج: «هيو، يا أقلام الله. ساعطي واحدة  
 حصّة الجن من السحر». هكذا تناديهن ليجتمعن بورق العرائش أمام غمار الحجر الخراساني. هن أقلام  
 الله. زانا وسمتهن بصفات القلم منذ تخير لهن أردهان معلماً من سراي سيوت، اتفق نشاره سبع  
 وسبعين شجرة عولجت وزقاً لتصحح شجرات الأنساب في الإقليم العُباري التائه، كي يتقدم بنسائه  
 إلى مجاهل الزهبة في ممالك الحروف السفلى: حروف عربية عليها أستر من شهوات الخلائق إلى  
 البوح للثور الأزلي كيوتاه؛ لكن أروقة تلك الحروف، ما يلي الأستار، فراغات زبرجدة من ضلال المعنى  
 المُشيد بصوت هو خصيصه النداء الكردي في جنبات المعلوم المجهول. نساء أردهان لم يتحكمن في  
 رسم القلق شكلاً على المتن الحامل لصور حروف تتقلب على قُرُشها. قُرُش الفردوس المنكوب بعقل  
 الحيلة أبداً. بضعة أشهر، قبل وصول الضيوف السبعة، من التمرين على اتخاذ الحروف نقساً، انتهت  
 بهرب المعلم، بعد انقلاب الدروس في الإيوان، تحت أعين الغزالات المسحورة بكمال أعماقها. أعماق  
 زحل، إلى انتفاص من هيبه الرجاء المستور في المعنى المستور. كن يتفكهن كلما انتقلن إلى خيال  
 حرف مرسوم بالقتار الذي يفصح به الحرف عن غياب إرادته في هبوب البطش العذب عليه من  
 خيالهن المُبدّر. خلجن الصوت المنسوب إلى جوهره الناطق خلجاً بالثبر المُجدّف من مساكب السنن  
 الناطقة، وأسرفن في إقران رسميه شكلاً بالآثار القوية لآلات الحواس: حُصبي، وفروج، وأحليل، يدون  
 اليقين بها قنّز الممكنات المسحورة. كن يرسمن الحروف على قماش ذي خروم، أبيض، مشدود في  
 طارات خشب، بالخيوط والإبر. حروف كي لا تُمحي بعد حفرها في خيال الظاهر الكلّي. هكذا  
 أوصى أردهان للعلم عوضاً عن اتخاذ ألواح الخزف الأزرق، وأقلام الحلك. وقد استبدّ بهن علم مجاورة  
 المعقول في المتاهات المحسوسة لفردوس الكتابة، فحوّلن القماش المشدود في الطارات إلى دقوف ينقرن  
 عليها، كلما انجزن تدبير الإغواء لحرف ماء، أغاني مزقة الأذيان من انجرارها على حَجَر الأعراس الحشن  
 : «أهذا فصل أم طفل، يا ذات الجديلتين المبلّتين بلسان الماء في البحر؟»

أغلقي الوسادة عليه ؛

أنقشيه كصوف اللحاف ؛

أعيديه إلى سمار ليلته مُتعباً .

بقيت الحروف مرسومة على قماش الطارات بنقل الندم على خروج الكون من سكون الجوهر إلى  
 حركة الغرض وصحبه، أما «أقلام الله» فقد تحرّرن من تضليل الأزل بالتمويه عليه بالأشكال الحروف،

التي هي صوتٌ في الأصل انحدر به الياس إلى مرتبة التدوين. غدت أقلاماً، حقاً؛ أقلاماً هي علّم  
الإشارات المكنونة في خزائن الحفظ، قبل نقل الوجود.

المتعثر الحظّ نُسَخا - بحير الباطل الشقيق - عن صورة أبيه الإمكان المتعثر الحظّ، المولود من خيال  
العدم الجلد في برهة من مشاجراته مع الخلود. لكن «أقلام الله»، المحفوظة أرحامهنّ لصور الخلق  
المؤيدة بالأسماء اللاتهامية، مثلهنّ مثل الكشوف المدوّنة على اللوح العارف، كنّ يستسلمن للمجهول  
الصغير، ريمب القرعة بحجر النشادر، بين يدي زانا وهي توزع ورق عرائش العنب عليهن، اثنتين  
لكل امرأتين، وتبحرهما - من ثم - لنقرأ كثافات الأرقام، والتي تحوز الرقم المفرد تمضي في الرهان على  
الجواد اللامرئي في حقل الليل، حتى تستقرّ النهاية، بباشيقها القنّاص، على آكمة اليقين ذي المجادلات  
الأنثوية.

من علّم زانا قراءة الرقم حتى لو لم يفتح الرقم مغاليقه لبخار النشادر؟ أهل أخلاط - ولاية أقواس  
قزح المَهْشَمَة على قباب شجر الكمثرى، توارثوا القرعة بحجر النشادر عن أهل قلعة موش، المشرفة  
على حقول الدخان، المتصاعد، أبداً، من بين عرائش العنب هناك، حيث ينمو الشجر قزماً عامين ثم  
يموت. يُزرع ثانية لينمو عامين ثم يموت. غير أنه يحمل ورقاً، في عامه الثاني، صغيراً جداً، باربعة  
فصوص مُسنّنة، فضية اللون، يغزوه علّق أبيض يتناسل في شقائق العنكبوت الأبيض، الذي يطلي  
مسامّ النبات بصمم فيختنق النبات. وقد استنزل علماء الخصائص المُعْدَبَة بامتحان الفناء العادل  
تراكيب الدُفَع والمُتَع في تصانيف العقل النباتي، الموضوع بعد اختبار في حقول البلاء بارض سومر  
المفقودة، فتحصّل لهم كيموس من بخار النشادر يسقط منه العلق ميتاً. لكن الورق، بعد تبخيره،  
استظهر عروقاً نافرة على سطحه لها أشكال أرقام مفردة ومزدوجة بما درج على رسمها المجهولون في  
قيافة الحروف الكلدانية، بحسب بعض الألواح الباقية في آثار الممالك التائهة حتى عودتها الألفيّة إلى  
مجرة العُلك الأصفر، على تخوم الإهليلج المائي المحيط بجرم الأرض الظاهر والخفي معاً.

فكّ المغز، واستصدر العلم بهمة العقل المُتَنَشِّئ لسطور الله المحوّة بحيلة الوجود الداهية - كنّاس  
القمامة عن باب المجهول : الأرقام النافرة عروفاً من باطن التُسْنُغ هي مجزوءات من الرقم الكلي، الذي  
قدّرت الحقيقة أنه يكفيها لتبقى محتفظة برباطة جاشها أمام استنطاق القدم المُتَمَتِّح، من أوّل البزوغ  
النوراني للشكّ على قلب آدم حتى انقراض نسله بالغير الصاعق من بوق ملاك القيامة.

هُدِمت أخلاط مراراً، وبقيت قلعة موش قابضة على الطلسم المُتَقَضِّح. آباء أويس أو سنجان،  
المشموّلون بقرابة إلى آباء زانا خاتون، أحصوا في إرث القابهم، المدوّنة على كؤوس النحاس بأقلام من  
أغصان التين المخوّفة، ستاً وثلاثين عاصفة من عواصف الإمتحان المذبّ قوّضت أعمدة أخلاط : مرق  
سلاطين فارس نقوش سمائها المهورة بأخтам السحاب الناطق في ردهم السلاجقة إلى أرض الأخدود  
القمرّي المتاخم لشرق طوروس. ثم مرّق المغول بساتينها في ردهم سلاطين فارس إلى أخدود الشمس  
المؤبة باقتعة أسود الأكاسير. حرثها الشاه طهماسب، ويعثرها السلطان سليمان جداراً جداراً. وما  
لم يقطعه الآدميون بحراب الفتوح قطعه الزلزال ثلاثاً. لكنّها عادت، مفتونة بإرث الخراب الساحر،  
إلى ترميم سطورها المقروءة على لوح للمُكَن بعد ظهور البُرة البيضاء، بطير الملوك القناصين في سرتد

المتاهات الاليفة، في نواحي دغلها، آتية من جبال أم أرمنية. وإذا ذكرت الأصول المكرمة في انساب اخلاط يُقسم أويس، الملتجئ أبداً إلى تستد تعزُّر به زانا حصاده من بَرَاعات المُشكِـل، أن السيد الأكبر حسين اخلاطي، وارث كشوف الظاهر والباطن، القائم بشفاعة الحجاب العريق في الاسرار على علوم الجفر الجامع، تنبأ بولادته هو قبل قرون، في الأرجح: «يكون من نسل بعض احفاد أويسنجان، علاف الشياه على ضفاف الانهار، جسور أعور، تأكل من يديه جهات الله السبع كدجاجات البيت».

إنها تورية مثل راحة أويس التي يقرؤها من عينه اليسرى، القابضة على منازل المرتضى في تلك مصكوكات النور، وينفخ عليها ليجلو عن بلورة المعلوم الحذر غمامة الحيل: «واضح ما قاله سيد الاشراف حسين اخلاطي. أنا أمير الخان في ميدو-ملتقى أقاليم السماء من بحر الروم إلى بحر الخزر». هكذا سيضع الرجل ذو العين الواحدة خصائص المكاشفات بين قلوب القناصين في شعاب المستور وبين الغيب على سوية واحدة في ميزان التأويل: «تنبأ الاخلاطي بخروج جنكيزخان من خمائر العدم الغاضب لاجماً تكيد العمران في تمادي العمران بالنقوش البظرة على الحدود المشتركة من مجارة الله في تلبس الفراغ، والحيز، خلجاناً من كمال مكنونه. نعم، العمران الفاضل مروى». وليس لأويس، على أية حال، تدبير مخارج للعقل من إسراره في ترويح المفضل. إنه يُجهد الإشارات الازلية كي تنطق بالبراهين على انتسابه، بحصافة النبوة، إلى برزخ لامست فيه كتفه كثف تيموجين بن يشوكي، سليل إقليم دولون بلدق، الملقب بجنكيزخان. لقد كانا، معاً، في الخلية ذاتها التي يشرف بها الغيب على كئنته المرفوعة بعثة العلم الناظم إلى خيال حسين اخلاطي، الذي بنى قريبه محيي الدين اخلاطي مرصداً لهولاكو ببلدة مزاغة، في ناحية من تبريز: حجر، ورصاص، وشمع، وكندر. حجر حُسن في الرصاص الذائب حتى غدا في غلاف صفيح، وجعل ملاطة الكندر-صمغ النقاء الإغريقي، الحافظ بزره نسل من الصنوبر أخرجت منه بيد الموارث الجبلية. أما الشمع فكي لا تنفذ من الخصائص والانلام أهوية أو ماء أو صوت. مرصد في مزاغة هو عين هولاكو المنتدبة على أعماق السلالات، غذاها محيي الدين ببصر من علوم الهيئة يقلب الأشكال الكلدع بين يدي الجماد الكاهن: الام صو، والاقليم سباتك الغمام. غير أن قريبه حسين الاخلاطي سيواكب، ببصر النديم على مائدة الموت، من قبره ببر مصر، جيوش هولاكو المرتدة تتقلب كالجرید اليابس في تراجعها من مساكب الغاز الرسوم-صحراء الاهرامات المنازل إلى الفسق المحمول على مرصد مراغة: الام صو، والاقليم سباتك الفراغ.

قطعاً، لم تكن اخلاط سيرورة قديم في مذاهب رواق كاويس، المستنجد بشفاعة زانا خاتون في تأكيد روايته لولا أن اخلاط نفس من أنفاس بدليس-إمارة أعماق الكرد في البستان المرقق على تخوم الهاوية الكبرى: أطلس العبت ذي المدارين المرسومين بحبر الترك والفرس. الازل المستلقي هناك، من نخمته، يُنكت أسنانه بعيدان الشمار. الامراء الهاربون من غدار الامراء ينكتون أسنانهم، في لحظات الجزع، بعيدان الشمار: «حاملو الأكفان، الذين ينزلون الخان لثماً ويغادرون، يحملون رسوم الطرق الخفية إلى بدليس»، يقول أردهان، وهو ينكت أسنانه، التي لا أثر للطعام عليها بعد،

يعود من عيدان الشُّمار. ضيوفه السبعة ينتظرون تدبير مخرج للرقم من حلوة النفائس الابدية، فيما زانا تنقر بأنامل يدها اليمنى على باطن خفِّها الأيسر، ذي الجلد الأصفر، فيهتز القرطُ الحلقَةُ في خِثابة أنفها - القرطُ الإشارةُ من لسان الديمومة إلى نفير الحواس الصَّغرى. « قلنقلُ ثلاثة، وثلاثة، وواحد»، ينفخ أردهان الكلمات محتشمةً في بلاغتها الرقيقة، فيتلقَّفها منه حاكم الطعوم فرهاد، ابن مردان زنكته فقيه المجازفات في مراتب الإنشاء اللغوي الكردي: « كل ثلاثة يرسمون شيخاً - تقدَّس سرُّهما، والسابع يتوكَّل بالحقائق».

نفذ السهم في مرآة الحيلة كالهواء فلم تنشُدخ. تمتعت زانا «ها هو حجر النشادر، والوعاء، تململها دُبتاً»، فصرف عنها النظرَ جابان زُرُو، الشابُّ المحتكم في علوم الرسم إلى المجادلات: «ما الحقائق، أيها الكريم؟»، قال سائلاً الطاهي جوازَ الثقله بين المعاني الرقيقة وأخواتها، فردَّ فرهاد: - البرزخ مثلاً.

«أي برزخ تعني؟»، ساءله دسْتِيدانُ داسَن، الأربعميني ذو الوجه الماروغ في غُثُنونٍ حليقٍ الشاربين. «ما يتصل بالشكل وبالفرغ»، ردَّ حاكمُ المذاقات.

«اسمعوا»، قال جلسي في الإيوان من أهل «ميدو»، وأتبع الأمرَ الحَجُولَ بالانقلاب العادلة على لسان المرید البسيط: «أيها المشمولون بالوعب العريق، ماذا لو تخيَّر واحد منكم رَسَمَ الجنة والجحيم، فيما يتوكل الآخرون، ثلاثة ثلاثة، باميرَي الأسرار عبد القادر الكيلاني، وبهاء الدين النقشبندِي؟ أنتم نظرٌ نستطيع أن نرى به أحكامَ الدرجات بين أجسادنا الدنيوية وأجسادنا الطيفية».

«ها.. إذا»، تتمم حرَّاث النقش أردهان، ابن قاضي الطهارة، وأضاف: «لديكم محرابٌ في عقولكم تُصَلِّي فيه ملائكةُ الموازين، يا أحمد نشمي. أنتم أهل بدليس...»، قال منشِرخ اليدين يمسُطُهما بخاتميهِ الذهبيين كأنما يدعو جليسةً إلى عناق، فانبرت زانا من كمين الحيلة التي ضاقت على نداءٍ علومها: «ها هو حجر النشادر. أوقدي يا ديدا النارَ في فتيل موقد الزيت».

«يا أم الغزالات، لقد أفتى سليل من عِرْق بدليس. لا نشادر، ولا ورق عنب»، قال أردهان. ركعت ديدا السوداء قرب زانا، التي تدلى على صدرها قرص رقيق من حجر الماطليس الهندي - حجر الجدال الذي ينفر الجنُّ من الخوض فيه. تهاستاً كأنما تبريان قلمَ الميثاق ضدَّ الذُكْرَ الجاحد. الأنثى زانا، المثقالُ الأخفُّ في مراتب الضرورات، المُخْتَلَقَةُ بخيال النقصان في الفردوس الأول المحكوم بحلول المهجور في صيفته المهجورة، عاينت وجه شريكها الأنثى ديدا ملتباً تستنزل منه استخفافاً قلبها بحكم أردهان. نقرت بإصبعها على قرص الحجر فوق ثدييها نقرة الوعيد: «ما الجنة؟ ما الجحيم؟ هلأ تخيِّروا من يرسم لنا حارسَ الغزالات جيهان، ابنة شاه جيهان، ولِئْهَ مرايا الاقاقيا؟»، قالت في همسٍ نازفٍ.

«أسمعُك»، ناداها أردهان ضاحكاً. «ضيوفنا يسمعون. هم حكامُ الحُجُب، وليسوا بمن ينسخون الجسوم المعلومه. غزلائك تستطيع أن تنتظر مرور النقَّاشين برسوم الخُتاء».

«سمعتُ ناقصاً يا أبا الحمد والجود. ذكَّرتُ وليَّة الاقاقيا»، قالت المرصودةٌ بحجر الماطليس، زانا. «أنا أرسَم الغزالات، يا سيد أردهان»، تكلم دُرْبَنْد كَرمان، وهو يضيئ بين جفني عينه اليسرى،

فالتمعت خواتمه الثلاثة المشمولة بنقوش المتاهة.

«عفوك، يا كريم العقل. أم الغزالات تريد رسماً للولوية جيهان أرابيكم». لكنها رغبة توجّل، قال حراث النقش أردهان، ابن قاضي الطهارة. ستر بصير حواسه المجتمعة في سلك من ماء الممكن : «سيكون ألفاً من شفاعة خيالك لو نثرت في إقليم ميدو بزرة من خيال الله - جنته وجحيته. سادعو الاكابر في انحاء بهبهان. وسيثرت، وتايزيد، وزارا، وأورفه، كي يدحرجوا قلوبهم شاخصة إلى متاع الميعاد».

هز الستة الضيوف رؤوسهم تأييداً، فارتسم في عيني درتند الأحمر البشرة جناحا القبول. أطبقت زانا يدها على حجر الماطليس : مذرات صورة مهشمة الخطوط لجيهان أرابيكم، حاملة ختم أبي جدّها تيمور كوركان لنك، على ظهر المرأة في بهو ستيركي خاتون في موش، ادركت الشبه العالق في برزخ المنظورات بين جبينيهما المنخفضين، وفميهما. ثم أجترت بنفسها، طباقاً أبعد فطوّقت خمائرهما، على محيط الرأس، بأربعة أطواق من الفلوس الذهب مصكوكة برموز الخير الحروف المخصبة في حقول التوريات الازلية. كانت الكرديات يتطوّقن باثنين على رؤوسهن فزادت زانا المقادير طوقين آخرين على سنة التشريف في رسم جيهان ذات الخمار الأزرق، واقتنت نسخة مهترقة من «مؤنس الارواح» المنسوخ بخط النساخ الجوالين في قرى سفوح الناي.

جيهان أرابيكم أسلمت الدنيا إلى مشيئة الترف، وانصرفت بكيان الخلاء في حقيقتها المتلفة إلى التبتّل للمعاني - الله والشفافة. ابنة الأسلاف التي انسفحت لهم الأرض منبسطة كفرج الباهون، جلست على حافة الجرف المحيط بسيل الكمال، بين حقل صغير من زهور الاقاقيا الصفراء، وهي تسطر بريشة من جناح الالباتروس خواص البسائط الكلية - العزلة في مهبة النفس من جهة السديم. زانا قدّرت، بتخمين قلبها لنبرة اللون في عصب الريشة، أنها من جناح الالباتروس، وفق وصف أسبغه الدهقان راوند لور على ريشته هو، التي يرقش بها البوابات العشر في سور كتابه الأمين على مراتب الصوت «فاكهة الرقم» : «الالباتروس، وليس الحطّاف، أول طائر آتس آدم في عزلته. طائر بقيد في قدميه، يحوم ولا يحط. لا قصاص في المعنى: الجناحان ابديان والقيّد ابدئي، ولهما كرامة الثقل الواحد. بريشة الالباتروس تدون عزلة آدم، وأنا ساحيل عزلة إلى صوت». جيهان أرابيكم، بدورها، تدون ما يؤنس الروح المطوقة بقيد الباطن : الروح شبكة الظاهر التي يقتنص بها بسائط الأحوال الكلية. الروح قلّم الظاهر وجبره. نداء القلم نداء للتدوين. القلم الأول - قلّم المشيئة الذي جرى على لوح الله بالعلوم منقولة من خصائص الغيب إلى خصائص المعلوم - دون بحبر العماء ثقلّة الظاهر من كمين العدم إلى الإنشاء الخالق، لأن الظاهر هو القدّم محفوظاً في خزنة الباطن، فرُجّت عنه المغاليق فاستحدثت الموازين: لا حساب بلا الظاهر. لا امتحان بلا الظاهر. لا نقائص بلا الظاهر. لا انجذاب للقيامه أن تقوم، مُستخلصة من أوعية الفناء الكتيم المغلق أبدية من صور المخلوقات هابطة درج النعيم إلى المحسوس النعيم؛ صاعدة درج الشقاء إلى المحسوس الجحيم، - لا انجذاب لها بلا عون من انقلاب الخلاء الكلي إلى ظاهري يشمل بزوغ الله، نفسه، على كون القضاء الأخير، الذي لا استعالة فيه، مُتجحلاً كمال الظاهر المعدود من حقائق اللانهايات. جيهان أرابيكم دوّنت «مؤنس الارواح»

بشفاعة الظاهر في حقل الأفاقيا - زهرة الحُلوة الذهبية في شريعة اللون : امرأة قلمٌ هي . وكل امرأة قلم حبرها رحمها المنشئ للزخارف التي يتسم بها المطلق زينة الغايات النهائية، في اليوم الذي يُعفى فيه الخبير من تبرير الخيار كعصيان يحقق آدمي به للخير صفته، ويُعفى الشر من تبرير الجبر كعصيان تتحقق به صفة الشر. زانا خاتون أوكلت، بشفاعة الوثنية سيدة الأفاقيا، إلى نساء أردهان ثواب القلم - نحن المنتظرات حبر أرحامهن التي يتردد فيها صدى التردد مقدوقاً بيد الغمام الحجاب . « أقلام الله » . صورٌ تتشاكل . فلماذا لم يُؤدّن لها أن تستميل رسولاً من رسل اللون السبعة، في فسطاط بيتها، كي يستعيد لها كمال الظاهر في رسمٍ يستنطق به اللون علوم القلم الأول؟ رسولاً يفتح لها ممر الأحوال الخرساء كي تمشي زانا، بفدمين من اللون، إلى حقل الأفاقيا، وتقلب بيديها المرصودتين بإشارات الحناء كل صفحة تنتهي جيهان من تدوينها : كتاب لن تقرأ قط، لكنها ستطبع على ورقاته البيضاء، قبل التدوين عليها، واحدة واحدة، قبلة الصفح عن المشيئة التي أنجزت الوجود نازفاً .

« الجنة أولاً، أم الجحيم؟ »، قال أردهان بلسان المستخرج المرح، ملقياً بصراً حواسمه على دربند كرمان، ورفع يده معترضاً قبل أن ينطق ذو البشرة المحتقنة بلون الغايات : « ربما علينا إجراء القرعة ببخار النشادر » .

« سأتدبر ثقة اللون أولاً . على خيالي أن يقدم عروضه المحتملة، اللون يختار ويوجه »، قال دربند متلمساً بأصابع يده اليمنى خواتم يده اليسرى الثلاثة - خواتم الدورة السمردية .

« ثقة اللون؟ »، تنم حاكم المذاقات فرهاد كأنما عثر على مصكوك من علوم المراتب . « أنا، بدوري، اتدبر ثقة الأبايزر التوابل . هي خيالي . لطالما أجهدتُ بصراً لساني في قراءة ذلك السطر الممحور، وها أنت تكتبه لعقلي، يا سيد دربند، بريشة من جناح ديك العرش » .

تدخل حرائث النقش أردهان مدحرجاً بندق المسألة الذهبية : « بيان الثقة من خصائص المحظور . الكتمان هو التحديد » .

تبادل الجلموس نظراً التخمين . الثقة مسألة لا يحوجها تدبير بيان أو كتمان . الثقة ثقة . نطق الضيف جودي غوزغين، ذو الخاتميين المشمولين بنقش المرح - أهذاب بينها ريش : « أبايزر توابل، ولون، وحذر، وشكوك . أين يمضي الخيال بمناعه؟ الثقة ثرى، يا سيد أردهان . الثقة خطوط من حبر دواب البحر » .

« بمن لا تثق، عادة، يا سيد دربند؟ »، ساءله سلماسي شاهجان، الضيف الشريك في تدبير النجاة للأشكال بمعونة اللون .

« لا أثق بمن لا يكذب، رد الأحمر البشرة، وهو يضع يده اليسرى على صدره المعقود بسطور من ألياف نخل القنب » .

« أنا، نفسي، لا أثق بمن لا يخطئ »، قال فرهاد، من غير أن يستشار في تصنيف الماهيات الصغرى، فانبرى أردهان مقتسماً من خزانة النقائض الكسولة بريق التوريات : « امثالي يا سيد سلماسي . أنا لا أثق بمن لا يلقى » .

تدحرج صوتٌ خافت على زرابيات الفسطاط . انغلق القشر عن فُسْتَقَةِ الثيرة الملمومة كتويج

البابونج : « لا اثق بمن لا يثرب »، قالت المرأة السوداء، المنبثقة من جزم القراغ المسكون بغطائه المسكونة. رث درهم القدم في خزنة المتعنتات - العقل المعداد آلة، فضحك أردهان، ضحك الطاهي. نشرت القهقهة وتربها المدغدغ في الحناجر. تماوج الإيوان.

« خضر إيليس »، قالت زانا خاتون وهي تضع راحتها، جانبياً، على فخذ ديدا تواسيها. همدت القهقهة. اعتصرت الإشارات الملهمة، وتواشجت النقااض بشقافة الخيال الأليف. حكت الأسفلت خطمها بمخلب التلميح المخادع : « نثق. لا نثق. نثق. لا نثق. المسألة مقادير. نثق إذا كانت الحيلة مُحكَّمة، والقلموتُ مثيراً بشفرة الإقتدار »، قال كالدي بختران، سابع الضيوف، المتوسدُ سيرورة اللون في الأريكة الزرقاء.

« ما القلموت ؟ »، تتم جلس من جلساء أردهان. أصغت الأسماع إلى أثر اللفظ المكنون. « هو أصل القلم. نحن نستعير خيال التدوين لفظاً عربياً. نعرف القلم، ونسميه القلم بالكردية. حق الله محفوظ نطقاً عند أم الإيمان باللوح؛ واللفظ الجامع لوجهة التأكيد يؤخذ من فم الوحي بلسانه. نحن نأخذه كغيرنا حتى لو كنا نملك فضل الثول به في اللسن. لكن القلموت حاصل خيال الإغريق في ابتداء الرسم الناطق، المتجسم، لآلة التدوين »، قال كالدي، الذي اهتزت قلادة جلد الوشق على صدره.

« أسبق الإغريق الله ؟ »، ساءله جلس مصعوق في متاهة المعنى. « لا، قطعاً. إنما، في الأرجح، كانوا يسترقون السمع على أسماء آله. الإغريق لصوص آلات الآلهة، رد كالدي، الذي استنطق اللون في ثلاثمائة رسم من أنثاه رسوم الطاووس، حتى بات بداهة أن اللون يسرد سيرة اللون بين يديه.

رغرت سننوة فوق الجمع الجالس. « أفسم بالشمس أن هذا الطير ألقى عليهم خزا »، قالت ديدا السوداء لزانا. تقدم غزال مجتازاً برزخ حديقة الحصى، فنهض حاكم المذاقات فرهاد الطاهي : - اعذروني. سأستقصي المؤامرات.

« لا مؤامرة تحاك إلا في مطبخك »، قال أردهان. نُقِلَ بصرف فطرتيه - فطرة النقش المشروخ في الإيوان، من الغزال المقرب في رفاهة خياله الأزلي حتى البوابة التي خرج منها الطاهي مستقصياً مراتب النار تحت أوعية اللحم، حيث يهوى الماء، في غليانه المسكر، شرارة الطعم المتحنّة، ويبدل التابل من خصائص المشومات بجسارة علومه الأبدية. « أسمع الطعام مستبشراً »، تتم حرات النقش، فانفتحت حوصلة الصوت التيممة في نبرة الأنثى : « هل نسمع الشيطان يبيض »، قالت زانا.

نقر الغيب بسبائنه المرجانية على غشاء القلک، فتهيأ ديك الغرش للصياح، إيذاناً بنقل النهار ميزانه إلى ردهة العصر. تكلم زغروس غوني المطوق المعصمين بسوازين جلد فيهما تطريز يشاكل غصون السننر : « سمعت أن الشيخ شريف خان البديسي اقتنى واحدة من بيض الشيطان، حملها إليه، في ولايته، بدو من صحراء قره قوّم، فجعلها في صحن حجر مطوق بكرات كالجوز يسمونها قُستاء الذئب ».

« الشيطان يبيض، إذا !!! »، تتم جلس جلس أخذته رعدة الطبايع.

« أَفْقَسْتُ تِلْكَ الْبَيْضَةَ ، أَمْ مَاذَا ؟ » ، تساءل جليس آخر .

« مكتوب على قِشرها ثمانمائة بيت من شعر الخصيان ، جمعها للشيخ البديليسي ، في ولايته ، جوايون تجارٌ في ممالك الأرُز . شعر بلغة أهل الصين على قِشر البيض يُعْمِت الرُّشْم - بيض الدجاج أو بيض الشيطان » ، قال زغروس . ضرب براحته على فخذِه في البُطْطال الأناضولي الواسع تحت جُبَّتِه : « البيضة تُجاور مخطوطَ الشيخ « شَرْفَتَانَة » في مرقده ببديليس . هكذا سمعت . بين البيضة والكتاب سراج مكتوب عليه « أطفأها شريف خان هنا » بسهم يشير إلى البيضة ، و « أشعلها شريف خان هنا » بسهم يشير إلى الكتاب . بيادٌ خَلِيقٌ بِشَيْخٍ مُؤرِّخٍ ، وحاكم عادل » ، قال زغروس .

« يا سيد أحمد نشمي ، لم نخبرنا بقصة البيضة ، وأصلُكَ من بديليس » ، قال أردهان ، مُلقياً بصَرَ كلماته على قلب الرجل الذي اقترح توكيلَ الرسامين ، كُلُّ ثلاثة بشيخ من الوليَّين الكيلاني والنقشبندي ، والسابع بأحوال الجنة والجحيم .

« هي هناك . لكنني اظنُّها بيضة حورية من نهر سيحون » ، ردَّ الرجلُ مبتسماً .

ترقرقت جَلْبَتُهُ من جهة أرض السرداب ، تحت الأعمدة الأربعة المنتصبة في بهو الإيوان . العقلُ الجوالُ - عقلُ الصوتِ رُتَبَ مراقي إنشائه نيرةً نيرةً كسهام القناص ، قبل أن يظهر هيكلُ الآدمي ، الدهقان راوند لور ، من مشيمة الأرض الرخام إلى الخلاء الرخام ، متميلاً في هبوب عمره عليه من شروح الأحوال وفتوحها : « في أي عام نحن ؟ » ، تساءل مدمداً بلسان الميثاق المُعزِّق الذي لم يحتمله الثور .

« هَلَا أَهْأَكَ ؟ » ، قالت الفتيات الأربع ذوات الحُفُرِ الموشاة كالحُفُرِ براقئ فضةٍ ، وهرعن إليه بجليلة خلاخلهن المرقومة بسطور من بيان الحقائق الخفية . صمَّت الشيخ الدهقان . رفرَف عليه قبسٌ من طالع المظهور العلیم - فطرة النهاية ، فهز ريشة الألباتروس التي حملها من مكمنه المرصود بشرائع البسيط الكلبي . هزها بيده اليسرى ، هزَّ خيال الطير الرهين في طيرانه القئيد . تأثَّل بشرارة العقل الجوال في عينيهِ المرتدتين على سُلطان المرثي ، فجلس ابنه ، الذي ارتبك قليلاً ، وهمَّ بالنهوض كي يعرف ضيوفه إلى أبيه ، لكن الشيخ ، غير المسترشد بعصا العميان ، استدار إلى ثغرة كمينه . تقرَّى العمود ذا التويجات المقططة من حدائق شعوب العُمر ، ثم وجَّه الإرادة المحتقنة في الهواء ، حول قدميه الواهنتين ، إلى خصائص التيه فاستنبط بها غاياتٍ هي خطواته المحسوبة ، بتقدير من شرائع الأمل ، كفايةً لا يلزمها مزيدٌ كي تنزل به من الدرج السفلي إلى سردابه الحالم بنُظْم المُشْكَل . تتمم بصوت القيد في لسانه القيد : « هذا عام الرُّن » .

صاح ديكُ العرش - الملاكُ ذو الحُرُوفِ الصلصالي من جنبات الغيب المجاور لانقاض المدائن في « ميدو » ، فردَّت صياحُهُ دِيكَةً ساحةِ الحان . راوند لور ، قاضي الطهاة ، أكد مراراً للطاهي المقتسم معه تدابير التصنيف ، كُلٌّ على جبهة من علوم الحَيْل ، أن الصوتُ افتراضٌ ، لا غير ، نقيس به الأشبار التي تفصل الوجود عن انقلابه على الله . الوجود العارضُ - بزره العماء ، التي أَبَتْهَا تُعْرِقُ السكون هيبةً من كمال ذاته ، استُخْدِتْ بِأَلْةِ الصوت . كُلُّمُ اللُّهُ أَزْكَةُ في فاصلٍ من ضرورات التدبير المجهول المعلوم فانغلقَتْ جِوْزَةُ الصوت عن ثمرته - الصلصال الحيّ ومستلزماته : الفردوس الأول ، الشهوات الأولى ،

المكيدة، القصاص والثواب المتهدلين من جدالهما في الانتساب إلى عقل الذكر وعقل الأنثى. الوجود العارض، في تخاضي الكمال عن نقصانه، حقيقة بعد أخرى، ابتدع للكلبي سهوة عن المراتب بعروض هي حيرة الكلبي ذاته في حسم المنازلة الأسرة بين ابنيّه - الخير المحتوم المشكل والشر المحتوم المشكل: كلاهما يريّه انتساب الحقائق إلى مشيئته هو. لكنهما يستدرجان نفسيهما إلى صلح لا يُستطلع: الخير يكتم مشاغله بلثام الشر، والشر يكتم مشاغله بلثام الخير. هكذا، يغدو الوجود أزل الأبد. والوجود صوت البوق، الذي اقتطعه إسرافيل من شعبة نحاس في قرن الثور كيوتاء، سيؤكد انتساب القيامة وبناتها الفردوس والجحيم والبرزخ إلى بصر الحواس - خاصة الوجود الصوت. سينعم الصوت بخلوده على مرآى من العماء المظلمة المنتعج على جبهة السديم المفقود - فردوس اللائذلك الأخيال. لا يعرف راوندو لور، حقاً، إن كان تقديره كَوْن الصوت افتراضاً يجعل الخلود افتراضاً. لم يتأمل عقل الأحوال فيه خصائص الغرض الجوهري؛ لم يقلب درهم المتاهة بين يديه ليتقرى تاريخ تداوله مصكوكاً في أسواق اليقين؛ معدناً أحمر نغرت فيه النقوش أبابريق وسحاباً. لقد جلس الرجل على باب شيخوخته، باسطاً أمام بصره المنحسر عن رمال المرثي صحائف يدون عليها، بخطوط ممزقة من لغة أهل زوزان، فجر خياله المنتفض في برائن الغسق: «فاكهة الرقم».

لا يتصل الاسم الجامع لفكرته الشقية، ومذاهبها، بالمعنى المتوطّد لبحثه الشقي في أحوال الصوت. «الصوت ليس رقماً، وليس للرقم فاكهة»، ذلك ما حاول حاكم المذاقات فرهاد الطاهي أن يفاغمه فيه بكلمات الحياة المغسولة، كلما دخل السرداب - العقل المتجاسر أن يكون حجراً وصدى، لكن الدهقان يطوق علوم الطاهي المتصلة الأسباب بعناد الخاسر القوي: «الصمت ماضي الله، والصوت آتي الله. الصمت هو القديم، والصوت هو المحدث. اسمعني يا فرهاد. الموت عودة إلى القديم، تبعه القيامة وهي الوعد الأبدى بالتسليم للصوت سرمداً. لكل شيء، في الخاتمة، حركة لن تنقطع. حركة بلا نهاية، صوت ختام: البشر يتخاطبون في مقاصيرهم، هناك، يلهثون منعة. خربز سواق في الفردوس المطلق، زفير لهب في الجحيم المطلقة. ماذا ترى يا فرهاد؟ الصوت المحدث يغدو قديماً. أم ماذا؟ يغدو القديم مُحَدَّثاً؟. أخبرني ماذا ترى يا فرهاد».

لا تستطلع توابل الطاهي مرابط الإشارات المتجادلة على ألسنة الأحياء المغدورين. ليكن الصوت ما يكون. ليكن القديم والمحدث ما يكونان. لحظة استلّ جسد الشيخ إلى صدقة السرداب عاد الطاهي أكمل إرشاد النار، تحت القدور الثلاث، إلى نبوة الرماد الموقوتة، وعاد إلى الإيمان. سيكون في وسع الضيوف السبعة، وجلساء أردهان، أن يستقصوا مغاليق الهبات القدسية بسراج الذوق القدسي - ذوق الإغواء. أسرّ اللهب إلى القدور سطوراً من شرائع حظوظه فرعنّها القدور حفظاً بعون الأبايزر التوابل الساهرة على خصائص التوليد والثقل. كُشِفَت الاغطية الخزفية ففوض العقل المشعوم لسان الحواس بالتصريح عن ولايته. تسلّم فرهاد المقاليد: «ترديّ وإا» نادى ابنته - الملاك المرفرف في القفطان الأسود فوق السروال الخمل. هبت إليه الفتاة ذات الجديلتين الذهبيتين، المتماديتين تسكماً على كتفها من تحت الخمار للرصوص برفائق الفضة. «قولي لإخوتك أن يرفعوا القدور عن النار»، قال حاكم المذاقات، فتطاير الريش عن لسان دردي وإا وهي تذرّ الحروف ناقصة، مفهومة، أمام أسماع

الشبان السبعة الحاسري الرؤوس. قضم كل واحد قضة من التين المحشو بالجوز، وانحنوا على مقابض القدور يرفعونها عن أفواه المواعد الحجرية. رجع الطاهي إلى الإيوان عبر الممشى الذي يصل الخان بالدار. قرأ لأردهان، صامتاً، في اقترابه من الأرائك، أحوال الطهو الجليلة، فتلقفه حرث النقيش صارخاً في مرح المتندر: «هلاً مددتم سحاطاً هنا، قرب حديقة زانا خاتون، يا فرهاد؟ أريد أن أترك أثراً من نداء طهوك في خيال السنونو»، مشيراً إلى الأعشاش في قبة السماء الحجرية، حيث أوت الطيور باكراً، في عصر الخريف الذي لا يتفق مع طباعها، إلى منازلها المروضة الثناء بكرات الطين. «أين أويس؟» قال ثانية. فتح ذراعيه يكمل بهما إشارات لسانه: «سندلكم، يا ضيوف هذا البيت، على مهاجعكم وترافق أعمالكم المنتظرة. كل متاع سينزل منزله قرب أيديكم. بعد ذلك نخلد، هادئين، إلى مباحثنا في أسرار الفقيه في مواعظ التابل فرهاد، ابن الفقيه في النحو الفلكي مردان زنكده».

«بل هو فقيه في علوم الظاهر»، قال حاكم المذاقات.

«النحو، والظاهر، فتنان. والفتنة برغوث العقل النائم»، قال أردهان.

«ألهين البرغوث؟»، غتمت السوداء ديدا، المتلألئة الجبين من انعكاس طوق الرقائق الفضة على استدارة خمارها.

«لا تتركين حيواناً لا تجدين فيه كرامة المنفعة، يا ديدا. ما كرامة البرغوث؟»، سألها أردهان. «قلل النوم على نسيء نايظله البرغوث إلى صلاة الفجر»، أكدت ديدا لأردهان بلسان التحصيل المكين. تأملها حرث النقيش. أدار بصره إلى زنا خاتون: «أين حاكم أخلاط الممرك الرابية، قريب الزاوية، شخصي شجرات الكمثرى في سهول موش، أويس أوسينجان بك؟»، قال وهو يغمزها مداعباً. لم ينتظر أن تنطق إذ رأى دخان الآجر في عينيها. ضرب كفاً بكف: «هيا ندل الضيوف على بيدر صورهم المحفوظة في خزائن اللون»، قال ناهضاً، فهرعت الفتيات الأربع إليه. رأت الرقائق الفضة على رؤوسهن متناقرة بمناقير الاختام النقوش، وصلصل ودغ بحيرة وإن. «هذه الفتيات رياحين الحدائق المفقودة»، قال أردهان متمدحاً وجودهن الغمام لضيوفه فطارت قلوبهن امتناناً في البهو الشاسع. تقدمن الجمع مرفرات يفتحن ثغرات في حجب الفراغ المعقول، ويمسدن الخفي كي ييسط للخطى من خلفهن لئلا العافية.

من الساحة الخلاء، المروضة بحجر أصفر صقرة هو كتمائه عيش اليقين، اتجه الجمع إلى القبة الصغيرة، الطينية، المضروبة على درج لا يرى إذا لم يصبر المرء إلى حلقة مدخله. «ستشمون أنفاس ثلاثة آلاف عام»، قال أردهان وهو يدعو ضيوفه إلى النزول خلف الفتيات، عبر سطور في ناموس الظاهر إلى بياض الباطن. الأراج اللولبية، الثلاث والأربعون، مست برخاء ذيلها أرض البهو المترامي، في الأعماق. ستة عشر عموداً من رخام ذي أطواق زرقاء بعروق ذهب أسندت سماء القبو تحت حجارة الساحة الدائرية. نوافذ مثلثة الزجاج أضاعت، من جنبات نهايات الأعمدة، الفراغ الشاحب من طول بقائهم فربغاً حقيداً باسماء الرئات المرتديات أجساد النور المهشمة قليلاً، في بروزها من الحارِب المجرّفة في الجدران. «ملوك ميدو ذبحوا كاهناتهم هنا كلما خسروا حرباً»، قال أردهان.

«نحن أضفنا نوافذ إلى السقف، ومدخنةً إلى المداخل الثلاثة، ومجريين للتهوية مستورين، وهذه القُستمية أمام مدخل الحمام الكبير، خلف ستارة الخوص البيضاء تلك. الغرف الإحدى عشرة، التي حوت المدوّنات على الجلود اللفائف، هي على حالها. اللفائف نفسها على حالها. أسرارُ خنوطٍ، وأسرار دفنٍ، وأنسابٍ، وصناعة تروس، وقصّارةٌ، وتوليد فيروزج من خام الرمل، وخواص دماء الحيوان. صنعنا للغرف أبواباً من خشب الزان، كما ترون، بلا طلاءٍ، لتمتصّ الرطوبة فيتولّد هواءٌ فيه فوحٌ صبيغ الكُنْدُر. وتلك هي جرار الرمل المجلوب من منابع الفرات والخابور. نُزّوها على عيّن الأدرج، هناك: خيال الماء. لا قيوً يحيا بلا خيال من خيال الماء. في الجهة اليسرى من الأدرج جرار الرماد. الجرار الخضراء، تلك، جرار رماء»، قال أردهان، وطوّق وجوه ضيوفه بفحةٍ من أنفاس الفيلفل تشبّهاها في مناع الطهوه الذي ينتظرهم قرب حديقة زانا. «رماد من بقايا آل إبراهيم»، تمتع حراث النقش. ثمانية وثلاثون فرداً، بينهم امرأة وصبيّان، سُلبت فروات رؤوسهم، وغرّضوا على سطح قلعة أرجيش للرياح القادمة من حقول الصّاصل. عطرٌ خفيف ولسع كالكي. الأيدي، غير المغلولة، لم تقدر على حماية عظام الجماجم العارية في المهبة المعتدل للريح المعتدلة. أقحاف بيضاء لوثّتها عروقٌ دم ابتهاها السِّلْحُ من مهارة آلاته: «أعطوهم طعاماً، وماءً»، قال الشاه طهباسب، بعد اجتياح القلعة ونزع الفروات عن رؤوس آل إبراهيم بن بدر، الأمير المسكون بطباع ثمرات السفرجل: فجاجة في الفم، وحلاوة في الأحشاء. نطقُ الأمير بكلمات التحصيل المخطور: «أن تلتحق بولاية بدليس الوية الأقاليم الصغرى عن حولها. بدليس متبع الكرد وبصرهم». فكُت الكلمات فيد التسكين عن عقل طهباسب الشاه. أخلّى الهاجسُ الدمويُّ للمهاجسِ الدمويِّ مقعد النظر في شؤون الأقاليم المحفوظة خزائن الكرد. فحُسمت المناظراتُ الخفية: «ساجقُ أقحاف آل إبراهيم، وهم أحياء، كتجفيف الثوب، أعطوهم طعاماً وماءً»، قال الشاه وهو يستعرض آل الرجل الذي نطق بكلمات التحصيل المخطور. بياضُ كالتقدمات فوق سميت الرؤوس - بياضُ العظام. أفواه مفتوحة بعد ارتداد الألم من الوجوه إلى الأكباد، وارتعاشات في الاكتاف كلّما مسّت الأقحاف ريشة الهواء الصّكّاك.

لم يأكل أحد من آل إبراهيم طعامه. لم يشرب أحد ماءً. أوصد الألم على نفسه خيال الإثم مترجعا إلى حافة سور المرصد في أعالي القلعة، ورمى اختامه إلى السطور الظاهرة من زهر الصّاصل: بزفرات خفيفة كزفرات طائر الشوق غادرت أرواح آل إبراهيم، الحاملة فوانيس المعادن، أجساد آل إبراهيم الحاملة فوانيس المغضلة الأزلية وجواهرها. أحرقت الجثث بحرمة النار، واعتُقِلَ الرماذ في جُرنٍ ضخم كأمثولة.

تنشق أردهان، باستعراض من خيال شهوراته، فروق الأسرار في اتحاد التوابل حين عاد بضيوفه إلى الإيوان. سُويّت لكل ضيف غرفة من غرف المدوّنات بحروف الطمط الثالث لالغيات العمارة. رُكِن متاعهم إلى جوار القُرُش السميكة الممددة على حُصُر من صناعة أهل همدان - حُصُر التّدى المحاطة القُوص بقماش أصفر وأخضر، وحُدّروا من الطاووسين المؤمّنين حول القُستمية المطعمُ مرمّرها بصنوف من الجُرَج الصقيل عليه حروف التقييد والحُصُر بلغة أهل «المنطق المحادث»: «الطاووس مولود من حُبَل الزهر الذي تخاصم في الفردوس على مقادير اختصاصاته، قبل انتقال العِلْم إلى آدم بأسماء

الرَّهْر. الطاووس تجديفٌ أوَّلُ على لسان النبات، إذا دخل الشَّرَفُ حُرُضَ فيها اللونُ على المروقِ». هكذا سَكَبَ أردهان حكمة الشَّبهات المصكوكة في أقداح المُشاقَّهات. ولما عاد بضيوفه إلى مطبخ الإيوان، تحت تيجان الأعمدة، تنشقُّ مرافعة التوابل يبصر الشَّمَّ وسَمَّهَ ولمسه وذوقه: «أياحاصرکم ما يحاصرني؟»، ساءل ضيوفه بلسان التشبيه المُستَغْلَف، فردَّ سلماسي شاهجان ذو القبعة النيسابورية: -نعم. يحاصرنا عدلُ المذاق.

احاط الضيوفُ، وبعض خواصَّ أردهان من الجلساء، بالصحاف الثلاث جلوساً على زرابيات متقابلة على ثُخْمٍ من حديقة زانا. بخارٌ بشمانين ضيلعاً، وستٌ تُرَقَّوات كأذان القبلة، تمطى مهذباً وديعاً فوق الطعام الساخن: ألسنة نعاج مقشَّرة، مفتوحة طولاً بالسكين لتُحشى بقضبان الهليون المحمَّرة في دهن النيولوفر. اكارع في صفتها سُلِّقت بماء فيه بصيلاّت من سيف الغراب -سوسن البرّ الناضجة في الأغلفة اللّيف. احشاء دقيقة، حَشَّوْها الجُثَّار المَفرور، وريحان الحناجيم، وحَبُّ الدردار -لسان العصافير، والشحوم الغُدَّد مع غضاريف قصبات المريء المُقطَّع ناعماً. كروش خراف بالقمح والفستق، والزبيب الأصفر، والقراصيا، يزيئنها العُصْفُر ويمدّها الدُّارِصيني بروح من فوح مسالك الصين. طحالات عُلِّقت بصفاق الحيوان وشويت، مع بزر الكرفس والكمأ المجفَّف، في التَّنُور. «سيغلي الماء الراكد في فِرَق ظهورنا، من الاعناق حتى العصاعص، هذه الليلة»، قال أردهان. ضحك ضيوفه ضحكاً خافتاً وهم يقطعون الأرواح الساخنة في الصحاف المستطيلة بأيديهم. تَمادى حرَّاثُ النقش بِالْهَام من فهم ضيوفه للتورية: «ستكون احلامنا على قدر انبثاق الصور من الماء». احلامٌ من صعود الشَّحم والدُّسَم بمقادير الأبخرة الثقيلة إلى القلب -صانع طباع النفاثض، حيث يستقدم الماء المتني، من هناك حَمَلَةُ النواميس الرقيقة، الرافعين متاع الصور المكنونة إلى ملكات النوم العاقل. الصور ستعتقل الهيولي -إِثْرُ الله بالآتها. الضيوف التقطوا التورية، فتَمدّى أردهان، وهو يختلس النظر إلى حلقة النساء المحيطات بصحاف أخرى على مبعدة سبع أذرع، كأنما يطمنن إلى انصراف اسماعهن عن سماعه إلى ابتكار الوسوسات الخفية بعضهن لبعض: «فهاد من أهل القياس في أمور العدم»، قال بلسان المستحوذ على سَمْعِ المغاليق. «العارفون بالعدم يتنجسون الصورَ من نكاح الأحوال»، تتمم حَذَرًا. «التوابل الأبازيُّ أحوالُ: الغلغل المطحون دراية الندم بانقضائه. الدارصيني فسَّق من خصائص العَمَّة. العُصْفُر نَقَس القنَّدر. القرفة عدلُ الثمرة في انتسابها إلى جَوْرِ الشجر. فهاد يضرب المثاقيل أخماساً في أسداس على مرأى من بصر المذاقات المشمومة حتى تنعقد للطعوم حكمة الجماع: صمغ الاكارع يضاعف الرَّهْر. ألسنة النعاج تنفخ الكَمَرَة. الاحشاء المحشوة تولِّد الدغدغة في الصَّفَن. الكروش يبرق القمح سيلُ الله من ترائب الرجال إلى ترائب النساء: دَفَقُ من الثَّنْدَوَة إلى الشدي بلا وساطة من ملائكة العليل. الرجل يقود المرأة إلى الحَبَل بصدرة».

التمع الدُّسَم الساحر على شفاه الرجال، وتكاسلت العيون من استحواذ عقل الماهيات، المطهَّوة في خمارها، على بصير التاويل: كانوا ياكلون الحقائقَ مطحونةً بأضراس النعمة، ويرتشفون من الطاسات الحَرَفِ، المطبوقة الحواف برسوم لذيذ التنين ذي الزعانف، لبناً مخيضاً رشح أصله إلى الضروع من فُرَّت الضان، الذي قدَّدى خيال طباعه بالنبات الغضبيض، المرصود الجوهر كنقش حاملة بثمرات المعقول

الأزلي. لين مُرطَّب يجادل الدسم بحياءِ النُّفح العريق، فيستزيد الرجالُ من مدهاماتهم على الصحاف. «التوابل رهاث»، تتمم جودي غورغين. مسح على شاربیه فالتمتع الخاقمان المصكوكان بشرع المُرَح. «لا رهاث إلا على الله»، قال جليسٌ من جلساء أردهان، في أدب. «ماذا تقول في الرهاث على الخيل؟»، ساءله جليس آخر. انبرى ثالثٌ بلسان التحصيل: «الخيل ریح. في علوم المتأدبين على الكمالات أن الخيل نسلٌ من ریح الجنوب».

«ما الشرع في الرهاث على الریح؟»، تتمم سائل، فرد الطاهي فرهاد: «لا شرع، ذفاً أو حشداً، في الرهاث عليها. «إذا كانت الخيل من نسل الریح، فقد حبَّب الله إلى ملائكته حضور سباقاتها»، قال جليس. «من أين لك هذا التحصيل؟»، ساءله جليس آخر. «ورد في الأحاديث النبوية أن...»، قال شخص تقطعت كلماته بدخول أويس مهرولاً يسبقه لسانه:

«يا سيد أردهان، ماذا نفعل بالرهينة؟

توقفت الأفواه عن المضغ، وانكمشت الأيدي.

«أية رهينة، يا أويس؟»، تتمم أردهان بصوت أرهقته شرارة الطلسم.

«حاملو الأكفان يريدون أن يستودعوا الخائن رهينةً جليوه معهم من نواحي سِرت»، قال أويس. فغر فم حراث النقش. تبليبل مذاق الفهم على لسان عقله. جال بصره على وجوه الضيوف مستمعين، فالفاهم مثله أنزلتهم الخيرة مقامها الذهبي. استنجدت بكلمات الذهول الرقيقة: «ماذا؟ حيلة الأكفان... ماذا؟ من نحن لنحفظ رهاثن في خاننا؟»، تتمم أردهان فلم يسمعه أحد في الأرجح. قرّص أويس بعدما لف العباة على جذعه فيداً مقيداً. تخاصمت سنونوتان في سقمقة صاخبة، ثم ارتدتا إلى عشيهما، في البرهة التي انتقلت الفتيات الأربع فيها إلى إشعال الفتائل في الأسرجة والفوانيس، بحلول المغيب رقيقاً، مُسَطَّر اللوح بأشعار الغيم. تمالك أردهان نفس يقينه: «ياخذون معهم رهاثهم إلى نواحي بدليس، عادةً، فلماذا يستودعوننا، اليوم، رهينة؟. لا طاقة لنا على إثارة منازعات في أرض ميدو»، وأطرق برهته. رفع بصره إلى أويس: «من أية ملّة هو الرهينة؟»، فرّك ذو العين الواحدة:

«لست أدري. ثياب من ثياب أعيان السلاجقة.

غمغم أردهان من أعماقه المنكمشة بصوت يستقصي حيلة العلوم في شؤون المجابهات. حمله الأكفان، الموسمون مسخرة على البياض، بشياهم البيضاء، وأكفانهم التي يحملونها على العواتق، ألقوا مجامر أمراء الانهار من كرتنشاة حتى ملاطية. ظهروا فجأة غامضين حازمين في مبايعة الشرع الذي يوجب إمارة بدليس مقاماً للحق المقدور نصيباً للكرد، مذ اتنى الشيخ نصره الله بالوُجان، ذو العمامة المتصلة الشراريب بحصى مثقوب جُمع من حواصل الطير. خيال القيد الجامع للضرورات، بأن الوقت قد نضج على نار المعضلة الدهرية، التي تستوجب سنّ دستور للظل: «في هذا الفرع من

انفصال الزمن عن علل التشبيه، ستولد الإمارة الموعودة من عقل الماء في بحيرة وإن. بدليس خميرة الظل المنجّب، والكرّ شفاعاً الناموس. قليحضّر الأئمة العارفون، ولتحضّر غمامة الله. هكذا جرى روح القول في الأسباب، وثمت الببئة للأكفان بمدد من الحفي الظاهر.

كان حنلة الأكفان ينزلون الحان في «ميدو» على عجل، ويغادرون على عجل، يبنادقهم الملفوفة المواسير بالحرق الصفراء. علامات التوكيد علي مبايعة الموت. كلّ يحمل كفته. الحقائق مُحْتَمِرَة في القوارير المختومة بشمع النظم الخالدة. نُظُم الممكن البرزخ بين الله وكلماته. الخير حاصل حساب من الأعمار الصغيرة للأرقام، وحنلة الأكفان يحفظون، في عقولهم البرزخية، نواظم المسألة وحسابها المتصرف جدّاول من الرقيم المُقَرَّد. خصيصية الخيال الذي لا يقبل القسمة الا على اللامدرك اللامعلوم. لقد خيروا الأبدية خياراً لا ثاني له: أن يكون إرثهم أو يكونوا إرثه، مهملين الإصغاء الى مرافعات الشرّ القوية الخبث عن الخير كي يظل الإثم هداية الجدل إلى آلاته. حنلة أكفان، وخير صرف، خالص، نقي، لا أمل للخطيئة معه في أن تحظى بثبلة على قدام الغفران: إنا بدليس، أو الفردوس. وقد جرفوا، في الطريق إلى الفردوس، خزائن الإمارات المطمئنة والقلقة، والكثير الكثير من السهول الحائرة وأخواتها الحقول.

«نم سيبادلون رهينة في أرض ميدو؟»، تتمم أردهان شاحباً.

«أن ياخذوه معهم، أو يقتلوه، أجدى»، قال الطاهي.

«فليخصوه»، غمغم أويس بلسان لم يتبين انحيازه إلى السخرية أو الفطنة. نزلت الكلمة مصكوكة إلى خيال الطاهي. نطق أردهان وهو يلجم انسراحه في شفق المغضل: «استمحيكم عذراً على هذا الكدر الخفيف. كلوا هنيئاً، ولا تتوقفوا»، قال لضيوفه، واقتطع عقدة من أحشاء الضبان.

نهض أويس. «إذا أصرروا على إبقاء الرهينة هنا، سأدره على الغناء لنزلاء الحان»، وألقى شبكة بصره، من العين اليسرى، على مجرّات الحفي الظاهر. همس من حنجرته المشجوجة الخيال بنظم ملحون، في انصرافه:

«الطيرُ يعرف أنه طيرٌ،

فلا تُلح عليه أنك تعرف أنه طيرٌ، أيها المتلمسُ جناحيك المفقودين».

## الهم الاجتماعي

### قراءة في «بؤس العالم» لبيير بورديو وآخوين

صدرت منذ فترة طيبة شعبية لمؤلف ضخيم، مرجع سوسيولوجي لا غنى عنه، كان عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو Pierre Bourdieu قد أصدره منذ سنوات بعنوان «بؤس العالم» La misère du monde عن منشورات «لوسوي» Le Seuil بباريس. جند بورديو ما ينيف على عشرين باحثاً اجتماعياً توزع معهم المهام وقاموا جميعاً بجرعة واسعة لمظاهر العسر التي يعاني منها المجتمع في فرنسا بمختلف عناصره المكونة، بما فيها، بل خصوصاً، مختلف فئات المهاجرين والأجانب. ولقد عمدوا إلى تحقيقات سوسيولوجية أو اجتماعية وحوارات موسعة وأردفوها بتحليلاتهم لنتائج هذه الحوارات وروّجهم لمصادر عسر المجتمع الفرنسي والمهاجر. وبمناسبة صدور هذه الطبعة الشعبية، ونظراً للاضواء الحادة والكاشفة التي يسأطها الكتاب على الظواهر المعالجة، أرتابنا أن نعرض في الفقرات الخمس التالية عدداً من فصوله الأساسية. في الفقرة الأولى نتوقف عند الأسلوب الذي اتبعه بورديو والمتعاونون معه في إجراء الحوار والتحقيق السوسيولوجيين. وفي الثانية نقدم رؤية بورديو لما يدهوه باستقالة الدولة. وفي الثالثة عند ما يراه من مساهمة للنظام الثيوي والمدرسي في مفارقة الأزمة. وفي الرابعة عند تحليل أحد مؤلفي الكتاب، باتريك شامباني، لمسؤولية وسائل الإعلام. وفي الفقرة الخامسة والأخيرة عند تجارب مغاربية عرضها المؤلفون وحلولها.

#### أسلوب في الحوار:

في دراسة حملت عنوان «أن نفهم» وتمثّل ما يشبه للفتاح المنهجية للكتاب، يبدأ بورديو بالتذكير بأن عقوداً عديدة من السنوات أمضاها في إجراء التحقيقات والاستفتاءات السوسيولوجية، علّمته بأن هذه الممارسة لا تجد تعبيرها المناسب لا في الرصفات المنهجية المعتدّة سلفاً والتي تظلّ علموية أكثر منها علمية، ولا في التحذيرات من العلم الداعية إلى الانصهار العاطفي أو الشعوري بين شجري التحقيق والجرى معه التحقيق أو بين المستجوب (بكسر الراء) والمستجوب (بفتحها). ومن هنا تنبع في رأيه ضرورة تحديد المبادئ والمعايير التي أجزمت على أساسها عشرات التحقيقات التي استمعت منها هذا العمل الضخم ملاته ومحتواه. لا شك أن العلاقة التي تقوم أثناء التحقيق بين المستجوب والمستجوب، إن كان ميتافها الأساس هو إقامة مقارنة معرفية، فهي تظلّ تمثّل علاقة اجتماعية كبقية العلاقات. أي أن لها نتائجها وآثارها المتباينة على التبادل التاجم عنها. وإذا كان الطابع العلمي أو المعرفي لهذه العلاقة يُبعد عنها مبدئياً أو بالضرورة كلّ ممارسة لأيّ من أنواع العنف الرمزي القادر على ترعيتة الأجيال، فمع ذلك لا يمكن في مثل هذه الإجراءات الركون إلى الإرادة أو النية وحدهما، وتظلّ جملة احتياطات منهجية وعملية تفرض نفسها في هذه العلاقة. إن ثمة التوامات ممكنة في هذه العلاقة كما في سواها، ووحدها الاحتياطات للتخفة

بكامال الوعي تمكّن من تطويع هذه الاتقوات.

القاعدة الأولى التي يطالب بورديو بتقورها لدى الباحث السوسولوجي القائم بالتحقيق أو المحاوره تتمثل في ما يدعوه بالانعكاسية *réflexivité*، وهي أن يطبّق الباحث قواعد مهنته ومبادئه القيمة على عمله نفسه. إنعكاسية أي منعكسة على الذات. وهو يدعو إلى أن تشكل هذه الانعكاسية نوعاً من ردة الفعل الدائمة، ومن الغريزة، تناسس على مراسم مهني وعلى «عين» أو نظرة سوسولوجية تتيح السيطرة على مجرى الحوار وعلى نتائج البنية الاجتماعية التي يتحقق الحوار فيها. فكيف تطمح السوسولوجيا إلى تشكيل علم للمفرضيات والاحكام المسبقة من دون أن تعمل على تحليل فرضياتها المسبقة واحكامها هي؟ إن الحلم الوضعي ببراءة معرفية أو ابستمولوجية كاملة يتخفى في الواقع على الجهل بأن الفارق لا يقوم بين علم يمارس بناءات نظرية (أي يقيم مقدماته ثم يسعى إلى التحقق منها) وعلم آخر لا يمارس مثل هذه البناءات. بل الفارق يقوم بين علم يمارس ذلك من دون أن يعلم، وعلم آخر يعلم أنه يمارس البناء النظري فيجهد في معرفة أفعال بنائه هذا وتطويع نتائجها المحتملة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ينبغي التساؤل عن الآثار التي تنجم عن العلاقة بين المتحاورين، وبالمخصوص آثار الحوار نفسه على المستجوب، على نظرته إلى هذه العلاقة التي يمكن أن تبدو له كممثل تسلسل إلى علله الشخصي، وعلى شاكلته في تلقي هذا التبادل، ما دام الحوار السوسولوجي والاستفتائي يشكل نمطاً من أنماط التبادل. ينبغي التساؤل عن آثار التشجيع المعطى له أو المرفوض عنه في أثناء الحوار، طبيعة إدراكه لكامل الوضع وفهمه لنهايات الحوار والنتائج المنتظرة أو غير المنتظرة منه.

إن الباحث هو الذي يقيم غالباً إن لم نقل على الدوام قواعد اللعبة، أو كيفيات الحوار، بصورة أحادية ومن دون تفاوض. هذا الانزاح أو تفاوت يأتي لبضائه تفاوت آخر، اجتماعي هذه المرة، كلما كان القائم بالحوار يشغل مكانة اجتماعية ومهنية متفاوتة على هذه التي يشغلها الطرف الآخر، الشخص «الخاضع» للمحاورة. هكذا بحيث يتفاوت سوق الممتلكات اللغوية والرمزية الذي ينشأ في المحاوره بمقتضى العلاقة الموضوعية التي تقوم بين المتحاورين، بل بين الرساميل من كل نوع، وبالدرجة الأولى اللغوية، التي يمتلكها المتحاوران.

انطلاقاً من هذا الوعي بالانزاحات والتفاوتات الممكنة، وبغية تطويع آثارها الرمزية إلى أقصى حد ممكن، صار يلزم العمل على اجترار إصغاء منهجي وفعال يتمتع في الأوان ذاته عن عفوية الحوار غير الموجه وعن نوع من التسلسل أو القرار المسبق يرافق عادة الاستفتاءات (الإجابات المقدمة على استمارات معدة سلفاً). في هذه التجربة كان ينبغي، كما يعتبر بورديو، الاعراب عن حضور كامل أمام المستجوب، إزادة في تلقي خطابه، وامتنال لتاريخه الخاص يمكن أن يقود، بفضل نوع من التكيف أو المحاكاة شبه المدروسة، إلى تبني لغته والدخول في وجهات نظره ومشاعره وأفكاره، وذلك ضمن بناء منهجي تساعد عليه معرفة بالشروط الموضوعية التي تحكم بالوضع كله والمحاوره. وكان يجب أحياناً العمل على تعديل بنية الحوار نفسها، أي طبيعة السوق الرمزي واللغوي، واختيار من يقوم بمحاورة من.

إن كل من أجرى محاورة سوسولوجية أو تحقيقاً يدرك كم هو من الصعب حصر الانتباه باستمرار بما ينقال (لا عبر الكلمات وحدها وإنما في مجمل المحاوره مأخوذة كمشهد كلي)، واستباق الأسئلة التي يمكن أن تندرج بصورة طبيعية في مجرى المحاوره وفي الأوان ذاته بالتابع «خطأ» نظري معين. وبالتالي فلا أحد في منجى من أثر الأسئلة الساذجة أو الساهية ببساطة، ومن أثر الأجوبة للتسرع أو المزيقة التي يكون «المحقق» قد أثارها بسؤاله نفسه، ونتائجها

على بقية الحوار. أجوبة يكون هو نفسه قد أنتجها في قم المحاور بصورة من الصور.

لقد طلب بورديو من العاملين معه إجراء حوارات وتحقيقات مع أشخاص يعرفونهم هم أنفسهم من قبل. فالعمال العرب أو أبناءهم مثلاً قام بمحاورتهم باحثون اجتماعيون مغاربة يعيشون في حيزهم السكاني نفسه، وترتبطهم بهم أحياناً علاقة جيرة تمتد على سنوات عديدة. وكان لهذا الاختيار اثران إيجابيان. فعندما يكون المستجوب على قرب اجتماعي من المستجوب، فهو يهيه، بادئ ذي بدء، وبفعل التبادل القائم بينهما من قبل، ضمانات في عدم رؤية بواعث الذاتية وقد حُوِّلت إلى أسباب موضوعية. ضمانات في عدم رؤية اختياراته للعيشة باعتبارها ثمرة قرارات حرة أو عملية بفعل شرطه نفسه، ورؤيتها مختزلة إلى تحديدات موضوعية ناجمة عن قربة الباحث أو استنتاجاته. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهناك أثر بالغ على المسار التقني للحوار نفسه. إن وفقاً مباشراً يقوم بين الاثنين، ويعرب عن نفسه في التلازم، المسير على التحقق بصورة مقصودة، بين جميع العلامات اللفظية والاشارات غير اللفظية التي ترافق المحاور، وهذا كما تلما يساعد إلى درجة بعيدة في تأويل الحوار أثناء انعقاده ولدى الغرغ منه. وكان وليام لايف قد افاد من قبل من هذه الاستراتيجية كثيراً: فحتى يختزل بأكبر قدر ممكن آثار الفناوت والانزاح والتوجيه القسري في المحاور لدى دراسته للانجليزية السود المحكية في هارلم، أرسل للتحقيق معهم باحثين سوداً.

لكن هذا لا يكفي لتحقيق الحوار المطلوب. بل يجب تحقيق انخراط للمستجوب نفسه في الحوار وإشعاره بأنه هو نفسه مساهم فعال في عملية البناء النظري التي ينطلق منها الحوار أو يصب فيها. ولن يتوصل المستجوب إلى نيل مساهمة المستجوب القصوى من دون معرفة عميقة، هي في بعض الأحيان ثمرة سنين طويلة من البحث والمعايشة، بمجمل وضعيته. وغالباً ما يعتمد هذا على معرفة متبادلة تحققت بين الطرفين في حوارات سابقة عديدة. فالحوار الناجح هو واحد، تكلل بالنجاح، من سلسلة حوارات لم نجد ولن نجد سبيلها إلى النور. هذا كما تلما يبعدنا عن العفوية المفتعلة للحوارات الفورية التي يخامر القائمين بها الانطباع بالهم حالهم النجاح منذ أول «ضربة».

إن الباحث السوسولوجي مطالب هنا بأن يحقق وضعية تواصلية بلا عوائق، وضعية متحررة من الضغوط الممارسة على التبادلات اللغوية اليومية، وضعية تنبج للمستجوب أن يعبر فيها عن عسره وافتقاداته ونقصه ومطالبه، أي كل ما يشجع على اثبات خطاب استثنائي كان يمكن أن لا ينبثق مع أنه كان هنا، في انتظار أن تتحقق شروط انعقاده. بعد هذا يأتي تسجيل الحوار أو تحريره خطياً. وهنا يتمتعك بورديو بنوع من الحزلية، لا يكتفي فيها بعدم حذف التكرار والعبارات المترددة والأخطاء النحوية واللفظية، بل يحرص هو ومساعدوه حتى على تدوين الانفعال أو التعبير الایمائي الذي رافق هذه العبارة أو تلك. وهذا أيضاً لا يُقام به من أجل مسرحية الحوار أو شحنة بدرجة عالية من المأساوية، بل لتوفير شروط اعلى مقرونة بمكنة للحوار أو التحقيق السوسولوجي مفهوماً كوضعية تواصل اصيل.

## استقالة الدولة:

في دراسة ضمها الكتاب، مختصة لـ «استقالة الدولة»، يلفت بورديو النظر إلى أن إرادة حميدة تدفع أحياناً إلى البحث عن تفسير الظواهر الخاضعة للمعانية في أماكن لا يقوم فيها هذا التفسير حقاً. فمن المؤكد في نظره أن حقيقة ما يحدث في ما يُدعى بـ «الحوارات الساخنة» أو «الصعبة» لا يقوم في هذه الأماكن بالنسبة التي تصعد بين الفينة والفينة إلى صدارة الأحداث وتحمل الصفحات الأولى من الجرائد. إن للوضع الحقيقي للبحث، الذي ينهني بناؤه

بالتحرك في الاتجاه المضاد للمظاهر، إنما يقوم في نظر بورديو في البناء الاجتماعي نفسه، وتحديد أكثر في البناء السياسي للواقع، واقع يفرض نفسه عبر الأحداث والتمفلات الصحفية والبيروقراطية والسياسية التي تساهم في إنتاج آثار أو انتمكاسات فعلية، في العالم السياسي أولاً، إذ تتحكم بطبيعة النقاشات، وفي العالم العلمي من ثم.

إن للتمفلات الجماعية تشكل جزءاً لا يتجزأ من الواقع الاجتماعي الذي يجب فهمه، وهي مسؤولة عنه إلى حد بعيد. فالرؤية النيو - ليبرالية في فرنسا مثلاً هي التي ألهمت سياسة العقد السبعيني في مجالي التمويل العمومي وسياسة الإسكان. وهي التي تخففت عن التقسيم الاجتماعي الذي يجدد في الغالب صورته المشخصة، كما في حارة سان - فلورنتان مثلاً، عبر شارع صغير يفصل بين سكان القبائل الصغيرة وجمهور المجتمعات السكنية الواسعة. لكن عندما تدفع أحداث الشغب، كهذه التي تفجرت قبل سنوات في حارة «فو - أو - فلان» في ليون أو جريمة القتل التي وقعت سان-فلورنتان، تدفع بهاتين الحارتين أو مثيلتهما إلى واجهة الصحف والاعلام السمي - المرئي، فإن قليلين يتذكرون سياسة «البيوت متهاودة الايجار» (HLM) وعمل لجان رايون بار ونورا - إيفينو، وجميع المناقشات التي شغلت حكومة جيسكار ديستان ووزيره للإسكان جاك بارو. إن البيروقراطيات، يقول بورديو، لتضعفة الذاكرة، والكثير من هذه القرارات التي تظل، في مردودها الاجتماعي المستمر، من أخطر ما عرفت فرنسا بعد الحرب، قد سقط في مجاهل النسيان.

يُكثر الصحفيون الفرنسيون والمثقفون بين الصحفيين الكلام عن «الحجاب الاسلامي» وعن الأحداث الجارية في «الحارات الساخنة»، لكنهم قلماً يتساءلون عن دورهم ودور الدولة في صناعة هذه الأحداث. ثمة جدال بينزطفي واسع عن تعارض الليبرالية والدولية (تحكم الدولة بالاجهزة والخطط والمشاريع)، لكن هذا الجدل لا يصب في اعتقاد بورديو أمام معايير فعلية للواقع. فالجميع يعرفون دور الدولة الحاسم في تسيير سوق الاملاك غير المنقولة، خصوصاً عبر الاشراف على سوق المقارنات واشكال المساعدة المقترمة أو غير المقترمة لشراء المباني واستئجارها. أي بالتالي، دور الدولة الحاسم في التوزيع الاجتماعي للفضاء، ويتشخص أكثر توزيع مختلف الفئات الاجتماعية على الفضاء. فضاء تمارس كذلك سيطرتها عليه بتحكمها بسوق العمل من جهة، وبما يدعوه بورديو بالسوق المدرسي أو سوق التعليم (سنعود إليه في فقرة قادمة) من جهة أخرى. وإن تراجع الدولة، واستقلالتها، وتضاؤل المساعدة العمومية للبناء والاعمار، هذا التضاؤل الذي بدأ يتأكد في السبعينات، هذا كله يظل هو المسؤول عما نلاحظ اليوم من تكاثر لمواضع النفي والتهميش والعزل هذه التي ترى فيها، تحت ضغط البطالة والازمة الاقتصادية، إلى أفقر شرائح السكان وهي تتكتسب بعضاً فوق بعض.

هكذا يظل من المتعذر في نظر بورديو أن نفهم حقيقة الأوضاع في مجال الإسكان ما لم نأخذ بعين الاعتبار التحول الجماعي للرؤية النيو - ليبرالية التي بدأت في العقد السبعيني واكتملت في الثمانينات مع انخراط الاشتراكيين في هذه الرؤية.

لا يكفي، لتعبير عن هذا التحول، الكلام عن «موت روح انتفاضة ٦٨»، وما إليه من المقولات النظرية أو التراثية. بل هو، أي التحول إلى الاسوأ، يترافق وانهيار فكرة الخدمات العمومية بالذات، انهيار ساهم فيه منظرون ودعائون جعلوا من الليبرالية الاقتصادية الشرط الضروري والكافي للحرية السياسية. من هذا المنطلق راحوا يساوون بين تدخل الدولة والتزاتلية، حتى قادوا الدولة إلى استقلالها. وبخلطهم بين التجربة السوفياتية المخصوصة وكل فكرة اشتراكية راحوا يلحسون بأن كل نضال ضنة لاعداء التكافؤ أو اللامساواة لا يمكن أن يتم إلا على حساب الحرية. فصار كل نضال

ضبة اللآسماواة يبدو كمثل دعوة إلى إعادة اعتناق التجربة السوفياتية . وبالحلظ بين النجوع الانتاجي والحدائة والمشروع الخاص، وكذلك بالحلظ بين السلفية وانعدام النجاعة والخدمات العائة، صير إلى إحلال الزبون محلّ المستخدم أو المواطن، وإلى المطابقة بين التحديث وإلغاء المشاريع العائة وتذويبها في القطاع الخاص والاستغناء عن العاملين في القطاعات العائة، المسؤولين المزعومين عن انعدام النجوع وجميع أشكال ركود الانتاج .

لم تتمّ الامور اعتباطاً في نظر بورديو، لا ولم تتمخّض عنها مصادفة « تاريخية »، بل لقد أضغيت عليها صفة الضرورة، وإنّ مآكلها ليكشف للمراقب الدقيق عن توزيع للسهام وتضافر للمبادرات والمسؤوليات . فجميع هذه « الكليشيات » عن المشاريع الخاصة كافق وحيد للممكن وعن لا تدخل الدولة كحلّ أوحد، التي انتهت إلى فرض نفسها على الواقع وإلى التحوّل إلى فلسفة عمل ومنهاج إدارة، إمّا صير إلى تهيتها في مجالات لقاء وحوار ( مجلّات، منتديات، برامج سمعية – بصرية، ملتقيات ومؤتمرات ) جمعت « مفكرين » مغزّين بشهرة السلطة أو الحكم وحكاماً مفكرين إلى « فكر » . هكذا راحت الصحف والمجلّات والذيعات والتلفازات وما تزال تروّج مباشرة لرؤية « نبلاء » الدولة الجدد، الذين ترجموا مصالحهم إلى اجتهادات، المتخزّجين جميعاً من « المعهد الوطني للادارة » INA والمندوبين لتدريس العلوم السياسية . « مثقفو الصالونات » الجدد هؤلاء، الدائمون النهم للترقيات والعلاوات، هم الذين يشيعون المذهب الجديد للقطاع الخاصّ عادماً أوحد للعمل، ويزعمون إدارة المؤسسات العمومية على شاكلة القطاع الخاصّ . هم، كذلك، من يمتدحون مزاياء مرونة العمل، عندما لا يشجّعون بصراحة على الاختزال التدريجي لعدد العاملين، وذلك باسم الانتاجية .

نفهم، على هذا الأساس، يقول بورديو، أن يشعر جميع الموظّفين الصغار، وخصوصاً من يشغلون الوظائف التي تدعى بالاجتماعية، من قضاة ثانويّين ومساعفين اجتماعيين ومرّبين ومعلّمين واساتذة، إلخ، نقول أن يشعروا بأنهم منسيّون وفي الأوان ذاته مدفوعون إلى العمل، من دون امتلاك الوسائل اللازمة لذلك، على الحدّ من نتائج اللآسماواة التي جعلت منها الدولة فلسفة عملية ومعارضة إنتاجية . وإنّ هذه الحبيبة لتجاذف بأن تنسف من الأساس هذه الوظائف الاجتماعية التي تفترض من ممارستها، كما هو معروف، قدراً من الأيثار والنضالية .

إنّ هذه الفئة من العاملين الاجتماعيين لا يمكنها أن تجهل للماسة الفعلية لهذه الفئة من المواطنين التي تتعامل هي معها يومياً، فئة الأحداث . أحداث يسكنهم الإحساس بأنهم يكتبلهم العوز المالي والاقتنار إلى وسائط النقل ويشدّهم إلى أماكن حاطة ( « عفنة » كما يمترون هم أنفسهم ) ومنذورة للتلوث بجميع معاني الكلمة . إحساس يشغل عليهم كلمنة، نذب أو رضه، ويضع عليهم النفاذ إلى أماكن العمل والتسلية والاستهلاك، إلخ . إحساس ينذرهم، أكثر من ذلك، لأن يعيشوا تجربة الفشل المتكرّر، في المدرسة أولاً، وفي سوق العمل بعد ذلك . وهذا الفشل يحرمهم من كلّ استشراف إيجابي للمستقبل . هي، جميعاً، بعض من علامات تجربة دون – البروليتاري أو البروليتاري المتدني هذا، الذي يدفعه عدم تمكّنه من التحكم بالحاضر بآية صورة من الصور إلى الاستقالة أمام الآتي .

هذه الإشكالات تتفاقم بصورة ماساوية بالنسبة للعوائل المهاجرة للغاربية . جانب من مصادر هذه الاشكالات نابع من الفارق الأساسي بين هذه الأسر وبقية الأسر المهاجرة . إنّ ارتفاع نسبة الانجاب في هذه العوائل (نسبة تقلّ بقدر ما يرتفع مستواها الثقافي والاقتصادي) لا يتلاءم بسهولة والمشروع التربوي الذي يفرضه محيطها الاجتماعي . ثمّ إنّ الهوة تظلّ شاسعة في أسلوب العيش والتطلّعات ورؤية العالم بين آباء قليلي التعلّم إن لم يكونوا غير متعلّمين، وإبناء تلقوا في الصميم نتائج « إقامة » طويلة الأمد في النظام التربوي الفرنسي . نتائج متناقضة إلى أبعد الحدود . نفع كلّ

شيء، تشكّل المدرسة لبناء المهاجرين هؤلاء محلاً لاكتشاف الانتماء الكامل، من وجهة النظر القانونية، إلى المجتمع الفرنسي وإلى ثقافة ديمقراطية يفترض بها أن تمتحّض عن مبادئ كونية، كرفض التمييز العنصري مثلاً. إلا أن هذا للمعطى يجيء ليحدّث منه، أو يلغيه، ما يتحرّضون له على مستوى الواقع من تهيمش واستبعاد. والآباء عاجزون عن أن يردّوا لدى أبنائهم هذا الاحساس بكونهم «زائدين عن العدد»، «مفروضين». مثلما هم عاجزون مادياً عن إشباع حاجاتهم الاستهلاكية والترويحية التي يمتدحها حولهم نظام دعائي كامل يبدأ بغزو عليه البريد كلّ صباح ولا ينتهي بالشاشة الفضائية. ومن جديد، تمارس سياسة الإسكان أثرها في تخليع البيئات القديمة: فإيواء الأسر المهاجرة بمقتضى ما يتوقّر من البيوت متهاودة الأيجار يمنع من التجمّع بحسب أواصر القرابة كما في مدن الصفيح.

كانت الدولة تقدّم مساعدات للبناء أبدلتها منذ سنوات بمساعدات مالية هيّنة للأشخاص («الحلّة الأدنى من العائد»، الذي يمثّل في الواقع ما هو أدنى منه بكثير). وبذا نعود بنا في نظر بورديو إلى عهود الاحسان الديني، عبر تضامنية كاذبة تحوّل الأفراد من مواطنين منتجين إلى شغولين «مستبّدين» كما تدعوهم الدولة ووسائل الاعلام عندما يعاودون احتلال صدارة المشهد السياسي والاجتماعي عبر هذا الحدث الساخن أو ذلك، عملية الشغب هذه أو تلك.

#### مستبعدو الداخل :

في دراسة أخرى من الكتاب نفسه، اشترك في كتابتها بيير بورديو وپاتريك شامباني، يتوقف المؤلفان عند وضعية طلبة المدارس في فرنسا. كان الطلبة قد أقاموا في العام ١٩٩٠ تظاهرات متكرّرة، للمطالبة خصوصاً بزيادة عدد المعلمين. هذه التظاهرات يمكن في نظر المؤلفين أن تدفع إلى تكوين صورة متجانسة، وبالتالي خاطئة، عن المدرسة الفرنسية. وإجمالاً، فلا شيء متجانس هنا، وليس بالممكن أبدأ الكلام عن «مدرسة» واحدة أو عن «المدرسة» وكفى. بل يجب معرفة الفضاء الاجتماعي والطبقي والثقافي الذي تندرج فيه هذه المدرسة أو تلك، فلا شيء أكثر تأثيراً وأهمية في هذه الحالة من «السياق» العام.

يمكن في نظرهما الكلام، مع شيء من التخطيطية والإجمال، عن عاملين دراستيين أو واقعيين تعليميين متقابلين «تقابل الليل والنهار» كما يعبّران. فهناك، من جهة، المدارس التي بُنيت كيفما اتفق وعلى عجل في الضواحي الفقيرة والمحرومة ثقافياً، لاستقبال جمهور من الطلبة متزايد. ولا شيء يجمع هذه المدارس، عموماً، بالنموذج المدرسة كما كان قائماً في فرنسا حتّى الخمسينات. وهناك، من جهة ثانية، المدارس الخاضعة لحماية ورعاية متزايدتين، والندوة لاستقبال أبناء الأسر المرموقة بخاصة (هذا مع أنّنا نتحرّك هنا في فضاء عمومي، بعيداً عن مدارس التعليم الخصوصي). هؤلاء، ما يزال متاحاً لهم متابعة حياة دراسية غير شديدة الاختلاف عن هذه التي حظي بها جيل آبائهم وكذلك جيل أجدادهم.

وعليه، فحتّى إذا كان ممكناً أن يفجّر ما يدعى بـ«عسر المدارس» تظاهرات واسعة تجمع تحت نفس المطالبات جموعاً غفيرة من الطلبة وآباء الطلبة من يتكبّدون جميعاً العسر ذاته، فإن هذا العسر يظلّ يكتسي أشكالاً متعدّدة ويشهد درجات متباينة، وهو لا يشمل الجميع بالشكل ذاته ولا بالقدر ذاته. فالصاعب وظواهر القلق التي يعميشها طلبة مدارس «النبالة» الباريسية تختلف بصورة جذرية عن هذه التي يتكبّدها طلبة مدارس التاهيل التقني في الضواحي الفقيرة.

حتّى نهاية العقد الخمسيني، كانت مؤسسات التعليم المتوسطة والثانوية تشهد استقراراً كبيراً، مفارقاً ومجحفاً

ولا شك، ولكنه يتمتع بفضيلة الوضوح الكبير: فمنذ بلوغ الطلبة عتبة المدرسة المتوسطة، يُصار إلى استبعاد أبناء الأسر المحرومة ثقافياً واقتصادياً. هذا الانتقاء الممارس على أسس اجتماعية وطبقية كان مقبولاً إلى حدٍ واسع من قبل ضحاياهم من الطلبة، ما دام لا يقوم إلا على مزاي «المختارين» أو «المحظيين» ومواهبهم. ويقول المؤلفان إنه لم يكن عسيراً على الطلبة من أبناء الفقراء الذين لم تكن المدرسة رغبة فيهم أن يقتنعوا بأنفسهم بأنهم ليسوا في المدرسة براغبين. كان هذا الحد الفاصل المقام بين الابتدائية والمتوسطة يدعم حدوداً هي الأخرى مرسومة بوضوح بين الفئات الاجتماعية. فهناك من كانوا «مخلوقين» للمدرسة، وهناك من لم يكونوا «محبوبين» لها ولما تتيحه بعد ذلك من وظائف غير يدوية ومواقع قيادية في مجالي المناصب والأعمال. أي أن نوعاً من القدرة ربما كان يميّز الفئات المتواضعة سرعان ما يترجم «الانتقاء الاجتماعي» إلى ضرب من «الانتقاء الطبيعي».

بين التحولات التي طرأت على النظام التربوي منذ الخمسينات، يتمثل التحول الأخطر والأكثر اكتنازاً بالنتائج في انفتاح مشهد التعليم لفئات اجتماعية كانت محرومة منه. حدث هذا مع تحديد سن التعليم الإلزامي حتى سن السادسة عشرة، وتعميم الدخول في المدارس المتوسطة والاعدادية.

واحدة من نتائج هذا السياق، الذي استعجل الكثيرون في نظر المؤلفين فتحتهوا بصدده عن «مقرطة التعليم»، تتمثل في الاكتشاف التدريجي الذي يقوم به المفيدون الجدد من التعليم الدراسي للواقع المحافظ للمدرسة «الميلبرالية». فبعد فترة الوهم والانتشاء والخطبة، يكتشف هؤلاء، أولاً، أنه لا يكفي الوصول إلى المرحلة الاعدادية للنجاح فيها، وثانياً، أنه لا يكفي نيل البكالوريا لبلوغ المواقع الاجتماعية والوظيفية التي كانت البكالوريا تمكّن من اختراقها. وإذا بالمدرسة التي فتحت أبوابها واسعة للجميع تمارس الاستبعاد الخفي لأبناء بعض الفئات (هي نفسها دائماً)، وذلك بالاستناد إلى معايير التقسيم السابقة نفسها، التي بقيت ثابتة وإن صير إلى تنوع مسمياتها وأضيفت عليها رطانة سوسولوجية وتربوية جديدة. فبدل الكلام عن «موهوبين» و«غير موهوبين»، «أذكياء» و«غير أذكياء»، يُصار إلى الكلام عن «عوائق اجتماعية» و«موانع ثقافية» و«نواقص تربوية» وما إلىه. صارت المسؤولية الجماعية عن الفشل محلّ المسؤولية الفردية. وينزع من «التفجع» على الضحية، يتكلم البعض عن الواقع الثقافي لـ«بعض الأستر»، غير المهتد لأزدهار الأبناء، والبعض الآخر عن تقصير الأساتذة، الذين طالما علمتهم الآباء مسؤولين عن فشل أبنائهم الدراسي. وعموماً، يُصار إلى الكلام عن نظام تربوي فاشل يتميز بتجديد طرائق العمل فيه، وهذا كله بما يعفي من النظر إلى استمرار طرائق التقسيم الاجتماعي والانتقاء الطبقي التي ما تزال عاملة في المدرسة.

ينبغي في نظر المؤلفين العمل على إثبات أن التفسير الذي طرأ على بنية المدارس مع دخول «الريالين» الجدد لم يصحبه تغيير في بنيت التوزيع المتفاوت للمنافع المدرسية والمزايا الاجتماعية المرتبطة بها أو الناجمة عنها. لقد بقيت الهوية واسعة بين الفئتين الكبيرتين المشار إليهما في بداية هذا العرض، «نبالة المدن» و«المحرومين المعيقين». بل لقد تدهمت هذه الهوية مع هذه الزيادة الخطيرة المتمثلة في أن سياق الاستبعاد، الذي كان يتموقع في بداية المتوسطة، قد تم مطه في الزمن وإرجاء لحظة اكتشاف نتائجه الأليمة. فصارت المدرسة مأهولة بمستبعدين «بالقوة» في انتظار أن يكونوا كذلك «بالفعل».

إن من الواضح أنه لا يمكن تعميم مزايا التعليم الديمقراطي بحيث تشمل أبناء جميع الفئات من دون دفع ثمن باهظ: رؤية الشهادات وهي تفقد من قيمتها يوماً بعد يوم، وذلك بقدر ما يكثر حاملوها، أي مع تزايد العرض. لكن من الواضح أيضاً أن «المسؤولين» عن انخفاض قيمة الشهادات، أي الوافدين الجدد، هم من يشكلون الضحايا الأولى

لهذا الانخفاض . فابناء الاسر المحرومة ثقافياً يجازفون إلى درجة بعيدة في عدم الظفر، بعد توضيحات عديدة، إلا بشهادة غير كبيرة القيمة في سوق عرض الشهادات وطلبها . وإذا ما فشل الواحد منهم في سياق تعليمه، فهو منذور لاستبعاد أكثر مرارة بكثير . استبعاد مرير، من حيث أنه نال في الظاهر «فرصته» في التعلم، ومن حيث أن المؤسسة التعليمية هي المرشحة أكثر فاكتر لتحديد الهوية الاجتماعية . وهو مرير أيضاً من حيث أن الأماكن في سوق العمل مرصودة أكثر فاكتر لحاملي الشهادات المتزايدين عدداً يوماً بعد يوم . هذا مما يفسر أن الفشل الدراسي صار يُعاش ككارثة حتى في الأوساط التي لم يكن حرمانها للتوارث ليدفعها إلى أن تحض التعليم كبير قيمة . وعلى هذا النحو صارت المدرسة تبدو للطلبة مثلاً لذويهم كمثل خدعة ومنيع لحيية اجتماعية كبيرة : أفق يتراجع بقدر ما يتقدمون نحوه .

أكثر من هذا، فإن تعدد الاختيارات والتوجيهات التعليمية صار، كما يكشف عنه المؤلفان، يساعد في خلق استبعاد «رقيق»، بطيء وغير محسوس . مما يبقى على السياق التعليمي في مكانه، ضمن إطالة عمر الوهم لدى ضحاياه ومستشهديه . قلنا إن الاستبعاد (استبعاد الطلبة غير المؤهلين للمواصلة) كان يتم في لحظة مبكرة، أما اليوم، فهو يتحقق مبكراً أيضاً، لكن لحظة انكشاف الوهم وحصاد الثمار المريرة تأتي متأخرة . فمنذ نهاية المتوسطة، صار الطلبة يوجهون إلى اختيار أحد فروع التعليم، العلمي أو الأدبي أو التقني (هذا ما يفسر وجود طلبة صغير السن أو يافعين بين المتظاهرين) . لكن نتائج هذه الاختيارات تظهر في نهاية السياق . مما يعني أن هؤلاء الطلبة كان محكوماً عليهم بالفشل مع وقف التنفيذ . الذي حصل لهم هو تأجيل الحساب النهائي، وإعداد لحظة تجلي الحقيقة، اللحظة التي يتضح لهم فيها أن الزمن الذي أمضوه في المدرسة كان زمناً ميتاً أو مهدوراً .

لا شك أنه ليس من العسير تقدير الآثار النفسية والعاطفية التي يعود بها هذا المعيش الذي يبدأ بانعدام اليقين حول المستقبل وينتهي بانكشاف الوهم الأكثر مرارة . إنه يرتي، في نظر المؤلفين، نوعاً من «سوء الطوية»، بالمعنى النفسي للتمجير، سوء طوية بإزاء النفس وإزاء الآخر، وخصوصاً بإزاء الواقع المؤسساتي نفسه . فهؤلاء الطلبة، الفاشلون احتمالاً أو «بالقوة»، إنما يتمتعون بجميع «المحظوظ» لحمل صورة عن الذات مجرّحة باستمرار، ومرضوسة . تشويهاً تجدها حتى في أعلى مستويات النجاح، الذي يظل متفاوتاً، بين طلبة المدارس التأهيلية الصغيرة بالقياس إلى من نالوا فرصة تعليم أكثر «علوّاً» .

لكن كبت الحقيقة للوضعية، حقيقة الموقع الفعلي الذي يشغله الطالب في قلب النظام التربوي (ورديقه المختص له : النظام الاجتماعي) لا تنجح باكتمال على الدوام . فلا يتمتع التمويه المؤسسي بكبير وزن أمام المصاعب الناجمة من الكذب على الذات . ولذا ترى إلى هؤلاء المستبدين مع وقف التنفيذ وهم يزاولون في داخلهم بين أعلى أشكال وضوح البصيرة إزاء واقع المدرسة من جهة، والاختيار شبه الحُر في قبول الوهم والمساهمة في اللعبة من جهة ثانية . ولعلهم يفعلون ذلك ليمتحنوا مزيد من الوقت بزمين الحرية والمجانية اللذين توترهما المؤسسة الدراسية . هو نوع من ازدواج الوعي أو ما يدعوه علماء النفس بالإكراه المزدوج، يخضع فيه المرء لوازعين متعادلين في القوة ومتضادين . لكن هذه المرواحة بين إكراهين يظل لها ثمنها الذي يذكر به المؤلفان بقوة . إنه العنف الذي يشهده الواقع الدراسي والتظاهرات الصاخبة التي «نتعم» إيقاع الحياة الدراسية في فرنسا منذ ثلاثة عقود .

إن المدرسة تمارس الاستبعاد اليوم كما بالأمس . الفارق هو أنها باتت تحتفظ في داخلها بمستبدتها رداً من الزمن . تمارس استبعادهم في جميع المراحل، وتمسك بهم عبر الوهم . فيروح «مستبدو الداخل» هؤلاء يتماوجون بين

الانسحار بالوهم والقبول بالعقاب، بين الخوض القلق والتمرد الكبير. يعرفون أن التقسيمات ما تزال قائمة في ما وراء تطابق مفردات « المدرسة » و« التلمية » و« المعلم ». ويعرفون هبوط قيمة الشهادات المتزايدة وانعدام الجدوى في شهادة بكالوريا يحصلون عليها بدون امتياز. فيواصلون سياق تعليم يعلمون أنه مجرد في أحيان كثيرة من كل مستقبل.

### الرؤية الاعلامية :

في دراسة حملت عنوان « الرؤية الاعلامية »، ينطلق باتريك شامباني من بديهية مفادها أن ظواهر العصر والأحداث الاجتماعية لا تتمتع بوجود مرئي إلا عندما تتكلم عنها وسائل الاعلام، أي عندما يتكلم عنها الصحفيون، كما هي مبدئياً. هذا يدفع في نظره إلى ملاحظة أساسية أولى : أن ظواهر العصر لا تنحصر في هذه التي يتحدث عنها الاعلام. وإلى ملاحظة ثانية : أن ظواهر العصر التي تجذب طريقتها إلى ما يُدعى بـ« التغطية » الصحفية والاعلامية لا تنحصر غالباً في الصورة التي تقدمها عنها وسائل الاعلام. يحدث أن يتوهم الاعلاميون ( جميع العاملين في وسائل الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية من صحفيين ومعلقين على الأحداث ومديري نشرات الأنباء ومصوّرين وجميع من يساهمون من بعيد أو قريب في « صناعة الخبر » )، نقول يحدث أن يتوهموا المساهمة في التعريف بظواهر العصر هذه وإدخالها إلى ما يُدعى بـ« الميدان العام ». لكن من الساذج أن نصالح هذا الزعم على علاقته . لا سيما وأن علاقته ومظاهر الشؤم والزيغان فيه كثيرة .

لا تتمتع جميع الأحداث والكوارث وما دعونا بظواهر العصر بالقدرة نفسها على « المرور » عبر الاعلام ولا تسمح جميعاً ( وفي أحيان كثيرة لا يُستح لها بذلك ) بتغطيتها بالدرجة نفسها من « المروئية » أو « الشفافية ». هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فظواهر العصر التي تجذب مسيلها الى التغطية تتعرض بما لا مفر منه إلى عدد من الشبهات والتزييفات ما إن تعمّد بها وسائل الاعلام. ذلك أن هذه الأخيرة لا تكتفي بتسجيلها، بل لا بد أن تمارس عليها عملاً من البناء أو الانشاء يعتمد في درجته ومداه على المصالح الخاصة بهذا القطاع من الأنشطة ( قطاع الاعلام الذي تطلّ له مصالحه الخاصة واستراتيجياته التي يملحها عامل المنافسة التجارية بين مختلف قنواته ) من جهة، وانخراط هذه القناة أو تلك في هذه الأيديولوجية المهيمنة أو تلك من جهة أخرى.

ويرى الباحث أن المقارنة بين ظواهر العصر التي تجذب مسيلها إلى التغطية الاعلامية وهذه التي يتفمدها السكوت تتيح الكلام عن ظواهر عصر أو أشكال أو أحداث « خاصة بالصحفيين » أو مفصلة على مقاس الاعلام. إنها الأحداث التي يصاغ تمثيلها الجماهيري بحيث تثير فضول الصحفيين وتجذبهم بالكلام أو بمناسية للكلام. صحفيون يساهمون بالنتيجة في صناعة الحدث أو إثارة بقدر ما يزعمون الاكتفاء بـ« تغطيته ». من صفات هذه الأحداث المعسرة أنها تقع « خارج المألوف »، هي مأساوية، تثير الانفعال، وتطلّ مربحة تجارياً، أي متناسبة والتحديد الاجتماعي للحدث الاعتبار جديراً باحتلال الصفحة الأولى من المجلد أو إصداره نشرات الأنباء.

إن الصحفيين والإعلاميين، مهما كان اختلاف وتباين طرائقهم في العمل وقنوات إيصالهم لمنتجاتهم الاعلامية، معروف أنهم يسمعون بعضهم البعض، يقرأه ويتابعه. إن جردة يومية أو اسبوعية يقوم بها كل فريق عمل للمتوقر من الأنباء تطلّ ضرورة ليعرف الواحد ما يتحدث عنه الآخرون، فيتمكن بالتالي من ملاحقة الركب وربما من تجاوزه أو التمييز عنه. لكن التشابه في المعالجة يظلّ هو القاعدة الغالبة في هذا المضمار. هذا ما يكتشفه الباحث الذي يراجع،

لاحقاً وعلى البارد،، التغطية الإعلامية التي حظيت بها حرب الخليج مثلاً أو حركة طلبة المدارس أو انتفاضات الحارات الفقيرة. تجد ولا شك بعض المعالجات الناجمة لهذه الأحداث. لكن تلاحظ في الألوان ذاته أنها مرت جميعاً غير ملموحة، بل لقد غرقت في سيل من التناولات الجاهزة شبه المُجمَّع عليها في إعلام متشبَّث بطريقته في «معالجة الحدث».

إن وسائل الإعلام تعاجل على الفور، والحدث ما يزال في البيضة أحياناً، لتقتم عنه غملاً اجتماعياً يروح يفرض نفسه رغم التكنذبات اللاحقة التي يقدّمها أحياناً سياق الحدث نفسه، نتائجه، أو النظرة الملقاة عليه بأناته. ذلك أن هذا التمثّل، مهما كان من بُعده عن الواقع، لا يقوم في الغالب إلا بتدعيم تأويلات عفوية (أي جاهزة) وتقوية الأحكام المسبقة ومضاعفتها. يمكن في هذه الحالة أن تحدث جميع الالتواءات الممكنة: تحويل ظاهرة صغيرة إلى حدث كاسح، أو تهيمش حدث جدير بالاعتبار واختزاله إلى فاصل عديم القيمة وغير ذي بال.

يلتحس الباحث مثلاً انتفاضة طلبة المدارس في ١٩٩٠. كان الأمر يتعلّق في البداية بتظاهرة قام بها ثلاثة آلاف طالب خرجوا يطالبون بزيادة عدد الأساتذة. وبقدّر ما راح التلفزيون يستولي على الظاهرة، بدأ الأمر يتحوّل إلى انتفاضة كبيرة مزعومة. للتلفاز هنا وزنه البالغ. وذلك أولاً بباعث من سهولة نفاذه إلى جميع الأوساط بالقياس إلى الصحافة المكتوبة والتحليل المنمّعة. وثانياً لقوة الصورة وتأثيرها «الدرامي» وتتمتعها بمصدقية مزعومة بالمقارنة مع الخطاب (نعرف مع ذلك أن ثمة ريبورتاجات ملققة وصوراً «ممنّجة»). ثم إن التلفاز يمتدّ حتى الصحف المكتوبة بمادة للكلام، فلا صحيفة تجرؤ على أن تهمل في الغد ظاهرة كان التلفزيون قد خصّها في المشية بدقائق أولى من نشرته. ويرى الباحث أن صانع الأنباء وصحفي الأحداث قد يندفع الواحد منهما بنيتة بريئة إلى تضخيم حدث معين. قد يفكر هنا بالسوابق: فما الذي يمنع تظاهرات أحداث ١٩٩٠ من أن تكون نسخة مكرّرة قد تزيد على الأصل هولاً من تظاهرات ١٩٨٦ بل وحتى من انتفاضة ٦٨ الطلابيّة الشهيرة؟ الذي أثبتته الأحداث هو أن الأمر كان بعيداً عن أن يكون كذلك. وبقدّر ما تزايدت التغطية، راح مسؤولو الحركة، من تلامذة المتوسطة والثانوية، يتخلّصون وفيات (بوزات) النجوم والأبطال، يرفضون الكلام إلا أمام كاميرات التلفزيون، ويقلّدون خطاب النواب، ولم يهدأوا حتى تناولوا طعام الغداء مع رئيس الوزراء وقتلوا له مطالبيهم باليد ووجهاً لوجه. ويحدث أن يختفي مثل هذا الحدث بمثل ما ظهر فيه من سرعة. ولقد صرّح صحافي إذاعي للباحث باله لا يندر أن ينهض مسؤول عن التحرير بعد آثام من تزايد الكلام عن الحدث ويقول: «الأكفى». لقد سمعنا من الشبيبة. ثمة أشياء أخرى جديدة بالكلام عنها». وبالفعل، فلا يندر أن تجود راهنية الأحداث بموضوعات وظواهر كانت قيد الانتظار. ستسارع صحيفة «لوموند» إلى تهدئة الجوّ (بصدّد الحدث السابق الذي صار عتيقاً في ظرف أيام). وستعتمد «ليبيراسيون» إلى التحليل والتأويل اللذين يُنذران، بصورة مقارفة، بنفاد الحدث وه سقوطه، في التاريخ أو وقوعه تحت دُخّة التاريخ.

لكن أسلوب «التغطية» يظلّ يتفاوت بحسب الانتماء الاجتماعي للمجموعة «موضوع» الحدث. فالمجاميع المعدّمة محرومة غالباً من الكلام، وتعدّ غير قادرة على صنع خطابها، فيتعيّن الكلام عنها بمعنّي التعبير، التحدّث بصددها وباسمها. يستحضر الباحث مثلاً أحداث حارة «قول - أو - فلان» الهامشيّة في مدينة ليون الفرنسيّة. الغالبية العظمى من سكّانها هم من المهاجرين وأبناء المهاجرين المغاربيّين. كانت عمليّة تفتيش قامت بها الشرطة في نهاية أيلول / سبتمبر ١٩٩٠ قد دفعت إلى انقلاب دراجة ناريّة ومصرع أحد راكبيها، شاب إيطاليّ الأصل. فتمخض الحدث عن احتجاج صاخب من قبل الشبيبة قاد إلى حرق عدد من السيّارات والمغازات ونهب محتوياتها التي كانت

بدون ذلك ستنفخ بالضرورة وسط النيران. ففزت الصحف والشاشة الفضائية على الفور صور العنف الصارخ، مشاهد استثنائية كما يطالب به منطق الصورة الإعلامية. الذي حدث، ولم ينتبه له أحد سوى الباحث ومجموعة من العاملين من أجل صحافة مغايرة، هو أن وكالة صحفية في المدينة نفسها كانت قد اقترحت قبل قيام الحدث نفسه باتّام، وبكامل العفوية، إجراء تحقيق موسّع عن ظروف العيش في هذه الحارة المصنّفة بين «الحارات الساخنة». ولم تلتق أذنًا صاغية ولا طالبًا لإجراء التحقيق، «فلا شيء» يحدث في مثل هذه الحارة. وفي أيّام الحدث نفسه، وهذا كما يذهب في الاتجاه ذاته، تلقت وكالة لأفلام «الفيديو» في المدينة طلباً من إحدى القنوات التلفزيونية بإجراء تحقيق عن «مُحرقي السيارات والجانحين في الحارة، ومقابلتهم ولو كانوا مقتني الوجوه». لكنّ محرّري الوكالة، وهم مغربيون، قاموا بحرف الطلب عن وجهته الأصلية وقابلوا عاطلين عن العمل وعاملين اجتماعيين للكلام عن المشاكل الحقيقية للحارة. لم يجد التحقيق سبيله إلى البتّ.

الخرومون، يقول الباحث، هم أقلّ الناس قدرة على السيطرة على التمثّل المعطى عنهم. فما بالك بالقدرة على وضع تمثّلهم الذاتي؟ كان مسؤول سياسي قد صرّح إبان أحداث الحارة المذكورة، وكالة ينطق بلسان حال الاعلاميين: «لا يمكن أن يأتي الواحد ويتكلّم على هواه، عن حالته المزاجية مثلاً. يجب أن يتعلّم الانصاع عن نفسه بوضوح». هو، مرة أخرى، معيار الوضوح العقلاني المتخفي على إرادة للهيمنة ونية في التطويع. وطوال أيّام التغطية المشهدة للحدث، راح رجال الشرطة والاعلاميون يقتضون تأويلات بعضها يقارب الصواب وبعضها يجانبه («هفوات افراد الشرطة»، «عطالة الشباب»، «الجنوح والاجرام»، «الشروط السكنية»، إلخ.)، لكن لا أحد ذكر بخطاب «ابطال» الحدث أنفسهم. كانوا متكلماً عنهم أكثر منهم متكلمين. وحتى عندما يُعطى لهم الكلام، تراهم ينطقون بخطاب مستعار ويردون الخطاب الاعلامي المررد بصددهم. ولقد لاحظ الباحث أن بعضهم راح يتحدث عن نفسه بصيغة الغائب: «الشبيبة تريد صالات للاجتماع... صعوبة الاضطلاع بضمير نحن!» أضف أن الصحفيين والاعلاميين، شأنهم شأن رجال القضاء، كانوا يمتنعون نقل ما يحدث بدون التعليق عليه. كلّهم، هم أيضاً، بلا خطاب. حياد تمويه.

طوال أسابيع، صارت الحارة «قبلة» الصحافة وأجهزة الاعلام. كان يجب الكلام عنها بأيّ ثمن. تصوير ولو سيطرة محروقة واحدة. لمنافسة القنوات الأخرى، أو على الأقلّ «لتغطية الكلفة»، كلفة لإرسال صحفيين وكاميرات، كما عبّر رئيس تحرير إحدى القنوات يستنهض مراسليه. ثمّ عاد الصمت إلى هذه الناحية من العالم وغطى من جديد على كلّ شيء.

## نماذج للاقتلاع :

في ثنايا هذا الكتاب الضخم الذي تتوالى بين عناصره المكثّفة الدراسات التحليلية والمقابلات السوسولوجية، نقف في الواقع على العديد من التجارب المخصوصة والمذاهب الفردية والجماعية، مصائر متارجحة بين يأس طاحن وأمل متواتر، بعضها فرنسيّ والآخر مهاجر أو سليل مهاجرين، متفرنس بالجنس أو لا. بين النماذج المهاجرة، نعرض هنا خمس تجارب دالة قابل أصحابها بورديو والمشاركون معه في وضع الكتاب. ولن نخفي على القارئ «نمطية» هذه التجارب، بالمعنى التحليلي للمفردة، أي إمكان العثور في هذا للمعش الاقلاعيّ على العديد مما يقارب هذه الحالات أو يشبهها. فما هي بتجارب معزولة، بل هي دالة على إرث مقامات وأفق جماعيّ. وتوزّعها على أجيال مختلفة

وقطاعات متباينة، فهي ترسم ما يشبه «مروحة» للتناولات الممكنة و«بانوراما» مصغرة لهذا النمط من التجارب. هناك أولاً عباس (جميع الأسماء، كما يؤكد عليه الباحثون، مستعارة)، شيخ من أصل جزائري، حامل متقاعد. خطابه، وإن كان ينهل من الإرث الشائع، يتطوي على حكمة شخصية هي عبارة معاناته وتجاربه. لكن خطابه كله مخترق بلعنة لا تهدأ يصبتها على ما يمكن دعوته، من وجهة نظره هو، بـ«خطيئته الأصلية». «خطيئة أصلية» متفلة في الخطوة الأولى التي قام بها نحو فرنسا، هذا العالم الغريب عليه. يقول إن أباه، الشيخ الورع المتدين، كان نهاه عن الرحيل. وإمام ضغط الفراغ والعطالة في قريته الأصلية، واجهه هو بنيتة الملحمة في الرحيل للعمل في أوروبا. لم يواجهه بها، بل بعث له وفداً من عليّة القوم لنيل موافقته. فناداه أبوه وقال له إنه لا يبارك خطوته، ولا بلعنها، لكنه يطلب منه شيئاً واحداً، ألا يرسل له مما سيكسبه هناك من نقود، «فهو حرام». «حرام»، مجرد أنه سيغنيهما في فرنسا.

ومع أن صاحبتا سيدج عملاً ويسير حياته بشكل معقول، فهو يشعر بفشل كلي. فشل يأتي ليدغم الاحساس به ما يراه من يؤس الآخرين، من جميع الأجيال المهاجرة، حوله. وهو لا يفتأ، ربما تحت وطأة التقلم في العمر، من ترديد كلمة أبيه تلك، عن «المال الحرام». ومع أن أباه لم ينطق بلعنة فهو يفهم الآن كلامه كلعنة. إدانة مبرمة لعقود نهائي. «أنا نفسي لا أصدق»، يقول. كيف وصلنا إلى هذا الحد؟ هل نحن انفسنا، كما كنا في اليوم الأول لوصولنا هنا؟ كيف وقعت لللعنة؟ لم نرَها تصل. هبطت علينا عندما فأت الأوان لمواجهتها. يجب القبول بها كما هي. يجب القبول بنا كما نحن. لا شيء لنقوم به. إلا أن نشكر الله، فهو وحده يعرف ما يفعل. وما نحن إلا دمية بيده...»

النموذج الثاني يتمثل في حسين، عامل تونسي الأصل، ذو مهارات، في سكك الحديد. وعيه النقابي وإيمانه بأن «خيانة التضامن الاجتماعي» إنما هي خيانة للذات، يدفعه إلى القبول بالإشراف على تحسين الحياة في المجتمع السكني الواسع الذي يتقاسم هو العيش فيه مع ما يقرب من مائة أسرة مهاجرة وبعض الفرنسيين. ما يؤكد عليه هو ما يجب القبول به بصراحة والتحديث به بإيمان، لأنه يكشف عن الوجه الآخر لمأساة المهاجر، مأساة يفاقمها هو، أي المهاجر، بنفسه أغلب الأحيان. كانت مقترحاته، هو واللجنة التي تشكلت لإعادة إحياء المجتمع السكني، بسيطة: العناية بشروط الصحة والنظافة العامتين، الإنزال من الصخب، وأن يعود السكان بعضهم البعض ويساعده عند الشدة. وإذا كانت مبادرات طيبة قد حصلت على مستوى التضامن والزيارات المتبادلة، فإن الكثير ما يزال يتعين القيام به على صعيد هدوء الحارة حيث يقوم التجمع السكني، ونظافتها. يرمون، كما يقول هو، بكيس قاذوراتهم من الطابق الثامن مع أن هناك مكاناً مخصصاً لتكدسها. يقضي الصغار حاجتهم في كل مكان. وهناك أبواب السيارات التي تلعلع في الثانية صباحاً: «إنه تجمع لباعة مخدرات صغار». جرب معهم حسين، عبثاً حتى الآن كما يقول، جميع الوسائل للنوعية والحيل الأخلاقية والاقتصادية. قال لهم: «عرفتم صغاراً ورايتكم تولدون. فما بالكُم تُلطخون بالوحل كل شيء وتكسرون كل ما ترون؟». هكذا يتأرجح خطابه بين الإحساس بضرورة مواصلة العمل من أجل مستوى معيشي جماعي أفضل وبين الشعور بعث المحاولة لإنقاذ منقذ يتداعى على ساكنيه.

النموذج الثالث يتمثل في عائشة، شابة مغربية الأصل متخرجة حديثاً في الدراسات الاجتماعية (سوسولوجيا). وهذا ما أمكنها من أن تقدم في الحوار المجري معها وصفاً دقيقاً ومفصلاً لمعاناتها ونظرة تحليلية تلقياها على هذه المعاناة. هي الابنة البكر لاسرتها. ولذا مثلت الابنة النموذجية لأبيها بخاصة، وسنده الرمزي والثقافي الأساسي. فكما يحدث في أغلب الأسر المهاجرة، وجد أبواها فيها وفي إخوتها فرصة لتحقيق مثاليهما الوظيفي والتعويض عن حرمانهما الثقافي. وما إن صارت تفقه القراءة والكتابة بالفرنسية، حتى بدأت تضطلع بدورها (دور «كلاسيكي» لدى الأسر

المهاجرة، والباحثة التي أجرت معها الحوار، فرانسيس موبل - درايفوس، تدعو عائشة بـ «المرسلة» دورها كوسيط ومترجم بين العائلة والعالم المحيط، الفرنسي منه والمهجري. إنها تدون تصريحات الأب للضرائب في كل عام، وترد على استمارات المؤسسة والدولة، وتحترق باسمه بطاقتات تهنئة للأقارب والأصدقاء والمعارف في العيدين، الفطر والأضحى (يسمونه «الكبير»). تتحدث عن أسيات عديدة تمضيها في تدبيح البطاقات، عشرات البطاقات هي مناسبة ليعبر الأب عن وجوده. وجوده عبر ابنته. حتى عندما فكرت العائلة بالرجوع إلى المغرب، أرسلت عائشة إلى البلاد في ما يشبه رحلة استطلاعية. فعادت وأقنعت الجميع بأن لحظة العودة، وظيفياً ومهنياً على الأخص، لم تكن بعد. هذا يعني، مع تقدم العمر وضرورة الاستقرار في مكان ما، أنها لن تحين.

هو إذن تفاهم متبادل يقوم عليه توازن جميع الأطراف. لكن تأتي، إن عاجلاً أو آجلاً، اللحظة المؤذنة بانفصامه بدرجة من الحدة تقل أو تزيد. لحظة خروج الابن أو الابنة إلى العالم ومواجهة للصير الفردي. لحظة حبلى بالتمعبد، تزوج في حالة عائشة (وليسمت الوحيدة في ذلك) بتعقد إضافي: فهي تنوي الاستقرار مع شاب فرنسي تحبه ويحبها. العائلة تتلقى هذا كطعنة في الصميم. خصوصاً الأب: «لقد توقعت هذا من الجميع، إلا منك أنت»، يقول مخاطباً ابنته في مزيج من الادانة والإنجراح.

وهناك أيضاً مثال الاحتكاك المخفق أو المتعثر مع الأسر الفرنسية في حالة الحارات المختلطة للسكان. هي ذي أسرة بن ميلود تواجه مدام مونييه في حرب ما فتئ أوراها يضطرم منذ سنوات. وإذ تحدث مع الباحث (عبد الملك الصيتاد، الذي قام بمحاورة كل من الجهتين على حدة) بأسباب الصراع تجداه وإهية. فما هي إلا ثملات لتناجيج صراع يجد في نفسه وفي عوامل أخرى تنحطه ما يخلقه، فيرتفع كناية عن وفاق غير متحقق. أفراد أسرة بن ميلود المساهمة في الحوار هم الأب (عامل متقاعد) وابنته البكر (بلا عمل، تقيم في شقة مجاورة وتزور ذويها كل يوم) والابن (صبي يافع ما يرح في المدرسة). جارتهم السيدة مونييه تمضي سحابة نهارها في تحرير شكاوى تقدمها للشرطة وللقضاء تهتم فيها جميع أفراد الأسرة بالاخلال بالأمن العام. هناك زيارات البيت اليومية لأبويها، وهذا في نظرها غير طبيعي، ألا تجد فتاة ما تعمل. وهناك زيارات الأقارب، زيارات لا تنتهي، خصوصاً في الأعياد، وما يتبعها من هرج ومرج. وهناك القطط التي تأتي غالباً لـ «تخمش» باب بيتها وتصبخ في السلالم والأدراج. وعلى حين «تكتفي» السيدة بالشكاوى وبما تدعوه الفتاة بالنظرات الساخرة، الماكرة، المحققة، فإن هذه الأخيرة وأخاها قد أشهرا منذ سنوات سلاح السخرية الجمهور والسباب العلني. وهي، أي الفتاة، لديها حججها: «هي لديها كلب، ونحن لا نقول شيئاً، تشكو من القطط، وعلى حد علمي فالقطط لا تنبح». الأب يحاول التهذؤ والفهم: «إنهم (يقصد السيدة مونييه وزوجها الصامت وأمثالهما) معزولون، تجدهم في سن متقدمة ولا أحد يأتي لزيارتهم». وعلى حين يقترح الباحث سبباً للتفاهم على كل من الطرفين، تأتي الإجابتان مبرتين قاطعتين. الفتاة: «لن نرحل. لن نرحل إكراماً ليعنيها. تريد هي أن تصل إلى هذه النتيجة، ولكننا لن نرحل. سنناضل. ضئها وضئ إدارة الإسكان وضئ البلدية وضئ الجميع. سنناضل... ودام مونييه: «العرب يتزايدون هنا يوماً بعد يوم. انظر للتاجر والحواليت، حوانيت الأغذية بخاصة، كلها في أيدي العرب، والحارة تفرغ من سكانها الأصليين يوماً بعد يوم... هو غيظ تراكم وتحول إلى آيديولوجيتين متضادتين وبلاغتين متناحرتين. ولا شك أنه يجد في الإعلام السائد والتمثيلات الجماعية الشائعة ما ينشده ويغذيه. في أسفل هذا السلم الاجتماعي، تجد علناً وصديقه الفرنسي فرانسوا، وكلاهما متناحرج بين إخفاقه في المدرسة وعجزه عن اختراق عالم التسلية والترفيه. فعلياً لا أحد يسمح له بالدخول إلى العلب الليلية، التي تقبل بدخول

المراهقين ممن هم في عمره، وذلك لأنه عربي. صديقه الفرنسي لا يفهم دواعي ذلك، ويدافع عن رفيقه عبثاً. كلاهما من سكان حارة مكتظة ومتداعية تدعى، بمفارقة معهودة، «بستان الورد» La Roserio. علي ابن عامل مغربي مهاجر وصل إلى هنا في نهاية السبعينات، يوم كان علي في سن الثامنة. متأخر في دراسة الفرنسية ويشعر بالرعب من اللحظة التي يطلبه فيها المعلم بالقراءة بصوت مسموع. ولعل في إخفاقه الدراسي هذا ما يفسر في نظر بورديو، الذي حاوره هو وصديقه الفرنسي فرانسوا، ما يفسر سلوك التحدي وشخصية «القبضي» التي تأمها على سبيل التعميـض. أمّا فرانسوا، فإن سلوكه المشاغب دفع إلى طرده من مدرسة الحارة ونقله إلى مدرسة بعيدة يكره الذهاب إليها. كل شيء، يقول بورديو، يجمع الشابين إلا أصلهما العرقي. أصل لم يتطرقا إليه قط. وهذا التضامن الذي يشكل للحظة الحالية نوعاً من طوق الحماية لهما إنما ينبع لا من خطاب أيديولوجي أو تفریط للصداقة قد لا يكونان قادرين عليه، بقدر ما من اشتراكهما في نفس المعاناة «السمة السيفة»، سمعتهما كمشاغبين وعتيقن التي توخدهما في نظر الشرطة والجيران. وهما لا يطالبان في أية لحظة برد الاعتبار إليهما ولا يستجديان الفهم. بيد أن أحدهما يحتر في إحدى اللحظات، بكامل الصحو، عن وعيه لما يتهكّد ذويه من خوف عندما يخرج في المساء، من جرّاء ما يسمعانه في المذاع والتلفاز.

كاظم جهاد

«الحزام» أحمد أبو دهمان، منشورات غاليمار، باريس.

Ahmad Abodahman, "La ceinture", éd. Gallimard, Paris, 2000

آخر آراءه في لغة الكاتب، البسيطة بساطة ممتعة، والمحتملة بالدلالات الرمزية من دون أن تسقط في شبك التأويل، والتي تقدّم عن العالم الذي تصوّره وتستبطنه قراءة عميقة تتوسّل طرق الانثروبولوجيا (التكوين الثقافي الأساسي للكاتب) وتقدّم الامتياز للغة الشعر (ممارسة الكاتب الأولى وأساس موهبته). بما لا شك فيه أن هذه العوامل تقف جميعاً وراء نجاح هذا الكتاب وهي التي تفسّر لغز فرادته.

تقع الرواية في أحد عشر فصلاً يحمل كلّ منها عنواناً مستقلاً، يسبقها استهلال وجيز وتتلوها خاتمة هي الأخرى وجيزة. منذ الاستهلال يعلن الكاتب أن الكتابة هي بالنسبة إليه «اقتسام العالم وإعادة ابتكاره». ويقول إنه يكتب بالفرنسية ليشهد على أن «آخرين يفهمونني، يفهموننا، أكثر مما نفهمنا نحن أنفسنا». فما هي عناصر

طويلاً تساءل البعض وما زالوا يتساءلون عن أسرار النجاح منقطع النظير الذي حظيت به رواية «الحزام» التي وضعها بالفرنسية الكاتب السعودي، للمقيم في فرنسا منذ ما يقرب من ربع قرن، أحمد أبو دهمان، والتي صدرت عن إحدى أكبر دور النشر الفرنسية، إن لم تكن الأكبر: غاليمار. قبل أيام، صدرت الطبعة المسابحة للعمل، بعد سنة واحدة من ظهوره إلى النور. وبعدما وقع الكاتب عقدي الترجمة إلى الإنجليزية والألمانية، هو ذا ينتظر توقيع عقود الترجمة إلى الإسبانية ولغات أخرى. بعضهم رأى سرّ هذا النجاح في الجودة اللافتة للعمل وإتاحته لنا الوقوف، لأول مرة، على وجه آخر للعربية السعودية: عالم القرى والطفولة والفقر والتلاحم الاجتماعيّ حول رموز معدودة وقيم أساسية، قيم الأمة والتأخي والكدح والإيمان الفطري بالكائن والحياة. بضع

هذه الشهادة، المكتوبة في اتجاه الآخر، والتي ترتد إلى العالم الأصلي الذي ولد فيه الكاتب وعنه كتب، ترتد إليه عبر الترجمة ( وعد الكاتب بالقيام بترجمة عمله نفسه إلى العربية عما قريب ) وعبر القراءات النقدية والتناولات الصحفية ؟ في القراءة التالية، نعرض أهم الماور الكيانية والروائية التي يتأسس عليها هذا العمل، وللعناصر الأساسية للقراءة التي يقدّمها عن هذا العالم فيما هو يكتبه .

### القرية / القبيلة :

هناك أولاً القرية، والقبيلة التي تعيش على أرضها والتي يهتمي إليها الكاتب، « خلّية في الجسد الواسع للقبيلة »، جسد يسعى هو إلى الاستقلال عنه، استقلالاً لم يتمكن، بتصرّحه به هو نفسه، من تحقيقه إلا في باريس، عبر المسافة وما فتتحة من أفق مراجعة نقدية وتساؤل بمضّ . هي في نظر أهلها « القبيلة الواحدة النازلة من السماء »، فالقرية واقعة في منطقة جبلية، تشكّل السماء فيها جزءاً من الجبال . هكذا بحيث يبدو المظهر فيها وكأنه « لا يسقط، بل يصعد صعوداً ».

لغريته هذه، كما لجميع قرى العالم، طقوسها وشعائرها . يصف الكاتب هذه الطقوس بأناة وشمرة عالية . هناك أولاً الحنّان . يشرف عليه الحنّان، إذ « الحنّان في رحم الأم » كما يقول أهل القرية . هناك يصوغ الحنّان ابن أخته ويمنحه شاكلة وجود . هو أبوه الثاني، كما تقول للبطل أنه . لإتمام هذه الشمية، يأتي كلّ صبيّ مهياً للحنّان وقد حفظ قصيدة طويلة تطري على أصوله وتعرض شجرة أنسابه من جهتي الأب والأم . يقرأها أثناء الحنّان حاملاً خنجرين طويلين يضرب أحدهما بالآخر عالياً فيما يقرأ قصيدته . كلّ كلمة يتعثر في نطقها وكلّ إمارة على الضعف تدلّ على موته الاجتماعيّ، فلا أحد سيفخر لاحقاً بتزويج ابنته لصبيّ كهذا . والصبيّ الذي يجتاز هذا الاختبار بنجاح يجد مكافأته في التمتع بـ « الصدر » وهو الحق في الاختلاء بإحدى الصبايا

ومعاقبتها من دون أن يتخلّى أيّة منهما عن ثيابه . كلّ ربة أسرة في القرية يحمل مفتاحاً كبيراً هو مفتاح حجرة يخزن فيها مونة تمكنه من إطعام الضيوف المحتملين في كلّ لحظة . ومن أوضاع هذا المفتاح فكّاه فقد رجولته، وهو يدعى هنا « زوجة زوجته » أو « امرأة امرأته » . ويجتمع الرجال في وقت العصر في ساحة القرية الكبيرة، لتبادل الأخبار والكلام . ويحدث في أحد الأيام أن تجتاز القرية، في عزّ اجتماع الرجال، امرأة محزّمة بقطعة قماش ملطّخة بالدم . هو دم طمشتها به، وبهذه الصورة الصارخة، جاءت تكلّبت مزاحم الرجال في أنها كانت حاملاً، هي الأملة . وسرّ هذه القماشة الملطّخة بالدم إنما تكشفه لبطل الرواية اخته، فلمه يؤثر أن يلزم الصمت .

من للعيب في القرية أن تمرّ قرب أحد ولا تلقي التحية . وهذا مما يتعارض مع مشهد الناس في المترو الباريسيّ، لا يحثي بعضهم البعض، مما يدفع البطل إلى مواصلة إلغاء التحية، وقد اعتادها منذ نعومة أظفاره، إلغائها في ما يشبه الهمس .

يستيقظ أهل القرية مع أوّل تابشير الفجر، مما يمنحهم الحقّ في هذه المقولة الجميلة : « نحن من نوقظ الشمس » . ولئن كان هذا يهيب أهلها الانطباع بالولادة مع الشمس كلّ يوم من جديد، فإن لديهم من عناصر التاريخ والأسطورة ما يعزّز لديهم هاجس البدايات هذا . كانت هذه القبيلة هي الوحيدة التي قاومت الغزو التركيّ، فصارت القرى الأخرى تدعوها بـ « الوطن » : قرية واحدة صارت تلمّص البلاد بكاملها وتكون هي الوطن، كالوردة التي تحمل في داخلها البستان بحسب تعبير جلال الدين الرومي . أمّا ولادتها الأسطورية، فيردها أهل القرية إلى غضب الأب المؤسّس، رأى فيه إلى أبنائه الستة وهم يخوضون حرباً مع قبيلة متناولة ويقتلون سبعة رجال في ليلة واحدة . فيأمرهم بالتفرّق في عرض الأرض، كلّاً في وجهة مغايرة . يقيم أحدهم، وكان لديه ابنة جميلة، في جوار مالك أرض القرية الأصليّ . يهجم الملاك بالفتاة . وأبوها يطعم بارض القرية . فيقترح على جاره سباقاً

بالركض مع الفتاة، يعود مجموعته إلى الأب كامل المجال الذي تجتازه الفتاة قبل أن يلحق بها الرجل، بعدما يكون تنازل لها عن بعض المسافة وجعلها تقتحمه قليلاً. تركض الفتاة وتغيب عن بصر والدها ولا يوقفها إلا شركة اعترضت طريقها ونبتت في قدمها. وعلى ما فازت به الفتاة، يؤس الأب القرية. وهذا كله ما يندرج بالطبع في فلسفة القرية، الداعية أبداً إلى العمل والتي تفهم الحياة كمحصلة سباق وتجاوز للذات مستعزتين.

الغرام هو الآخر ولد للمرة الأولى على أرض القرية، بحسب مزاعم أهل القرية وما نقوله أساطيرهم. بعضهم انتحروا وقد أصيب للمرة الأولى بهذا الشعور الجارف. ولحماية البشر والحبش، حولت الشمس الحب إلى قوس قزح وتمحضت عن هذه المروحة من الألوان الجميلة، الغائنة. ولذا فإن البطل نفسه يدعو حبيبته «قوس قزح».

القرية بكاملها مؤسسة أخيراً ضمن بنية تناقدية يحتفظ فيها كل بيت بكيانه المنظم هو عليه - «ثغرة» تسمح له بالانفتاح والتواصل مع البيوت الأخرى. فلكل بيت بابان، واحد من الأمام وثاني ورائي يقود إلى السطح. ويمكن للمرأة أن يجتاز جميع البيوت، من باب ورائي إلى آخر ومن سطح إلى سواء. وغالباً ما يتلصص الشبان في الليل على ما يدور في البيوت، خصوصاً في ليالي الزفاف، يترصدون فرح العناق الأول وصرخة اللذة والألم الأولى.

#### حزام:

«حزام» الذي وهب الرواية عنوانه، هو، إلى جانب الأم، الشخصية الأكثر إثارة ومحورية في هذه الرواية. يأسر هذا الشيخ بطل الرواية الصبي منذ البداية بفلسفته التي هي مزيج من الأقوال المأثورة عن السلف والتعاليم الدينية والتفكير الشخصي الفريد. فهو مثلاً يؤمن بأن المرض ليس سوى كذبة أو وسيلة للتخلص من العمل. العمل هو لديه العلاج الوحيد لكل ضعف أو داء أو تعب.

لا لأحد أن يتبرم من الحياة أو يشكو من ضعفه. وبصورة مفارقة، يرى حزام أن الأمراض لم تات إلى القرية إلا بعد وصول الممرض المصري الذي جاء للعمل في المستوصف الذي أقامته الحكومة فيها. قبل ذلك، كان أغلب أهل القرية يعالجون همومهم وعلاهم بالغناء.

رجل بلا حية هو في نظر حزام إنسان زائف. وهو يمشي حافياً على الدوام حتى لا يفقد صلته بالأرض. ويرى في نحافة الرجل علامة على فحولته، فيطن الرجل يجب أن يكون مستوياً كبطن الذئب. ولئن كان يزدري النساء، فهو يسارع إلى تحية العروس غداة زفافها، وتكون هذه تحيته الأولى والأخيرة. عدا ذلك، يرى في الحقل مكان الرجل الطبيعي، وفي المسجد آخر قلعة للمقاومة في وجه التحديثات غير الضرورية في نظره والمفسدة (المدرسة، المستشفى، إلخ). وفي وصف البطل لزبارة سيقوم بها رجال القرية وإنباؤهم لمستشفى المدينة المجاورة، لفحصهم وتثبيت أحوالهم المدنية، نرى إلى حزام وهو ينهق لدى مرور كل ممرضة باكستانية. كما أنه يحتار الصبيان من فقدان ذكورهم لدى الفحص، فالمؤسسة الطبية لا تقوم في نظره إلا بفعل إقصاء. وهو يلحصر بالفعل ابنه بعد عودة الأخير من مكتب الممرضة ويتنفس الصعداء عندما يتحقق من أنه حافظ على ذكره.

لا يهتلق حزام كلام من لم يُخترن بعد ولا يحملهم على محمل الجد. والكلام عموماً لا يحظى باحترام كبير عنده. ولذا تراه وهو يحشوا فاه بالزبيب والتمر باستمرار. يفعل ذلك ليلزم السكوت. يعتبر نفسه الضامن الأخير لروح القرية، ويريد أن يورث الصبي، بطل الرواية وراويها، معرفته الكاملة بأسرار القرية وحكمة الحياة. مقابل ذلك، يطلب الصبي باجتراح معجزات، وبأن يهرب عن قدرة على التواصل مع الظواهر فوق الطبيعية التي يمكن في نظره تطويعها بالصدق وينوع من الرياضة الداخلية. إنه يسأل الصبي مثلاً أن يلمس أمامه السماء، أن يشير عاصفة بمجرد نظرة منه، وأن يتحول إلى صخرة. ويطلب منه أن يتذكر أول إحساس كان له في لحظة

ولادته. ويحدد حزام فحولة المقابل انطلاقاً من سكّينه ومن علاقته بهذه الأداة. رجل بلا حزام وبلا سكّين ليس سوى طفل أو مزحة. ومثلما ينتشر الحزام في دلالات متعددة على امتداد الرواية، فالسكّين هي الأخرى حيلى بدلالات شتى، حقيقة ومجازية. الله خلق الرجل في نظر حزام على حياة سكّين، مدية قدرة على قطع كل شيء، في كل لحظة. كلماته، نظراته، أفعاله، نومه نفسه، هذا كله ينبني أن يكون بصلابة المدية وسرعة اثرها. وسكّين الرجل، هذه التي يحملها معلقة إلى حزامه، هي وعيه، ضميره. السكّين تصنع الرجل، لا لحيته ولا ذكره. يمقت حزام لا الطبّ وحده، بل كل ما هو كماليّ وإضافيّ وكل ما هو زيادة نافلة في رابه إلى الطبيعة. هكذا تعرض عليه زوجة حانوتيّ للقرية شيئاً من الحناء لابنته، فبرفض اخذه ويقول: «لا ادري كيف يصنع الجمال صنماً. يكون للمرء جميلاً أو لا يكون. لا اجمل من الطبيعة». أخيراً، يؤمن حزام بأن لكل امرئ عدداً من الاتسمات، محدوداً في حياته، وأثنا إذ نبتسم بمناسبة وبلا مناسبة، فإنما نبتّر ابتساماتنا. وباتسمامة الانسان الأخيرة (لكنّ عن يحدس أنها الأخيرة؟) قادرة على تحويل الشجر العقيم إلى شجر مشمر.

هذا كله ينشئ بين حزام والبطل الصبيّ علاقة تمهية وتبنّ ووعود والتزام. فعندما يلقي حزام بسكّين الصبيّ أرضاً بعدما عجز عن أن يحلق بها شعر ساقه، يقول له الصبيّ: «ساكون الشاب الذي تحلم به». ويظلّ هذا الوعد يرافق الرواية حتّى آخرها. سيكون حزام هو الأب الروحيّ للفتى، يتنازع في داخله هذه السلطة مع أبيه الفعليّ، الذي لا يفتقر هو الآخر، كما سنلاحظ، إلى الشحنات الرمزية والدلالات الفكرية التي ستساهم في تأسيس وعي بطل الرواية.

#### الغناء:

من أهم ما تمتاز به هذه القرية، ومن أكثر ما يشكّل

وعى الصغور بطل الرواية، إلى جانب دروس حزام وتعاليم الأم التي ستمرر بها أذناه، لتتزاها، أي القرية، بموقف غنائيّ من الحياة وانخراطها في الغناء في كل مناسبة وأمام كل ما زق. الغناء هو هنا هبة طبيعية لا يكاد يضيف إليها البشر شيئاً خلا الأداء. هو ضرب من الغيظ الوجدانيّ والطبيعة السمحاء التي تنساب من السماء والنجوم والرمال والماء والذوات وتغمر كل شيء. لكل نشاط في القرية غذاءه الخاص. لا أحد يقوم بشيء من دون الغناء. لا شيء يمكن أن ينبت بدونه أو ينمو أو يكتمل. وتري أم البطل أن القرية نفسها كانت في الأصل أغنية، والناس جميعاً قصائد، وكذلك الشجر والنبات والأزهار والصخور والماء. تقول له: «إن أنت أصبحت سمعاً للأشياء سمعتها تغني». ولذا يحسب الصبيّ أن أصوات الأجداد قد امتزجت بالترية كمثل السماد، وأن جميع الثروات الطبيعية آتية من غناء الأسلاف. والشيوخ حزام يحزّ في داخله هذا الاعتقاد، إذ يقول له إن الأسلاف كانوا يخفون حتّى في نومهم. سوى أنهم كانوا في نظره، أي حزام، يخفون لتجسيد العمل فحسب. أمّا الغناء الذي يجد غايته في الطرب وإعلاء نشوة الحياة فقد لا يحبّه حزام، خلافاً لأم البطل - الرواية التي تجد الغناء في كل شيء ولكل شيء. وعلى حين يلحن حزام سكّان الطرف (وهي التسمية التي تطلق في القرية على مجموعة من الأسر للتمشّة وغير المتمتعة بكيان قبليّ واضح ولا بشجرة انساب دقيقة) لاتهم اشاعوا الغناء - الطرب، فإن الأم تعترف بفضلهم وإضافتهم الوجودية لحياة القرية. وهي ما انفكت تردد أنّه بفضلهم صار الناس يحرثون الأرض افضل من ذي قبل. لقد ادخلوا للقرية لا الغناء وحده، بل كذلك الرقص والملابس المزودة والحناء والقهوة والسكر وأدوات العمل والسجاد، وخصوصاً اللقائح، وهذا ما يجزّ بدوره غضب حزام، فقبلهم، كما يقول، لم يكنَ - يعنيّ لأحد أن يفقل باب داره. هكذا تلتقي فيهم وتتضالفر سلسلة من الصفات المزودة وشبه المتضادة، هذا الافتتان والخوف اللذان يثيرهما الاجنبيّ أو الغريب. والبطل

« شاعرة الجبال » .

علقت الأم لإنها الشعر، ودرت أخته على الموسيقى .  
حتى صار الصبي يحسب النجوم كلمات لا تفعل أمه  
سوى أن تقتطفها وتحولها إلى أغان . ولكي تعاقبه أمه  
لكونه ضرب مرة أخته، راحت تغني له طوال ليلة .  
فاجهش بالبكاء واعتذر بالحاف . موقف صادق عليه الأب  
إذ قال له مؤكداً : « احتك أغنية ، كيف يمكن الإساءة إلى  
أغنية ؟ » . ولما راته أمه يكذب للمرة الأولى ، قالت له إن  
للأم عيناً وأذناً وأنوفاً وأيدي في جميع الاتجاهات .  
وهذا ما صادق عليه الأب أيضاً إذ قال للصبي : إنه  
« وحدهن الآتيات يفتحن جميع الأبواب » .

لكنّ تعاليم الأم تمنعني موضوع الغناء لتشمل سائر  
جوانب الحياة : فهي تنصح بعدم ممارسة الحب بكامل  
العرى ، لأن صدر المرأة قادر على إشعال حتى الأرض .  
وعندما يرفض الصبي في البدء تعلم السباحة ، تنصحه  
أمه بالعودة إلى البيت لمساعد أخته في تنظيف الصحون .  
فيقرر أن يتعلم السباحة ليهزل صبيّاً . وأن تكون صبيّاً  
هو أن تتحلّى بالشجاعة . مجردة الشعور بالدوار أو الدوخة  
فقدان للشجاعة . ولا يكون الإنسان إنساناً في نظر الأم  
ما لم يتحلّ بصفات القط الثلاث وصفات الحمار الثلاث .  
صفات القط : إنهاء وجبته من الطعام ومعرفة أعدائه  
واخفاء فضلاته . وصفات الحمار : الشرب ببطء وكفاية ،  
وخمل الحبل ومعرفة الطريق .

هذه التربية العاطفية والوجدانية الكاملة ترافق الصبي ،  
الرجل القادم ، في جميع المراحل . فعندما يبلغ السن التي  
لا تعود تسمح له بمواصلة النوم إلى جانب أمه ، صار هو  
وأخته يؤخران لحظة الذهاب إلى الفراش ويماطلان في النوم ،  
حتى تواصل الكلام معه وليواصل الامتلاء بالدفع  
والشعر . ولدى عودته بعد سنوات من مدرسة المدينة إلى  
القرية ، محملاً بالهدايا ؛ تدعه ينام في فراش أبيه ، وكان  
الآخر غلباً للمعالجة . هناك ينام الشاب وحده ، برفقة  
عصا الأب وسكّينه ، وكانت هذه علامة تكريسه رجلاً .  
كما يهيشه كلّ من حزام والأم للمحذوق وقبول الموت ، موت

مفتون بالفعل بحركة « الطرف » الفائقة ، فهم يسافرون  
باستمرار ، وبلا خوف . يكفي أن يرفعوا راية بيضاء يعلوها  
راس ديك ليخترقوا مضارب القبائل المتناحرة التي لا يقدر  
أبناء مختلف القبائل اجتيازها من دون المجازفة بالموت .  
أبو البطل نفسه أمضى رداً من شبابه يرافق « الطرف » ،  
يسهر معهم ويغني ، حتى لقد لعب بـ « الرعدان » ، أي  
هذا الذي ، بسحر غناؤه وحده ، يحدث الرعدة في أذن  
سامعيه . البطل ، من ناحيته ، يدعو أحد « أمراء الليل »  
- تسمية جميلة . هذه الحركة يدرّكها حزام بكامل  
قوّتها ، وإن كان يشجبها من أجل ذلك . يقول للصبي :  
« نحن نتزوج الحقول ، وإننا متجذرون . وأهل الطرف  
مخلوقون من الريح . فأتى لك أن تتزوج الريح ؟ » .

## الأم :

لأم البطل مكانة محورية في هذا العمل تتجاوز للكانة  
العاطفية التي ترافقها تقليدياً . ورتما كان أوّل وأغنى ما  
تهبه لابنها هو محبة الشعر ، فقد كانت شاعرة بالفطرة ،  
تؤمن بقوة الكلمة وسلطان الغناء . الشعر يمنح في نظرها  
الأشياء لونها الحقيقي . وحده الماء احتفظ بالقوة والطاقة  
الضرورية لمن للحياة ، قوة وطاقة وحدهم الشعراء  
يحدسونها . خصوصاً ماء العينين ، فبِهِ ينعكس ما نحن  
في حقيقةتنا ، في ألوان ثرة متعددة .

كانت أم البطل قد فقدت زوجها الأوّل لأثها « سرقت »  
من دارها حفنة من البزّ أعطتها لجارة محتاجة فعوقبت  
بالبطّاق . وهي وحدها عرفت أن تحوّل أحد « أسراء الليل » ،  
والد بطل الرواية ، إلى رجل حقيقي . تذهب الأم برفقة  
النساء الأخريات إلى أعلى الجبال بحثاً عن الحطب .  
يخرجن في منتصف الليل ليعدن أوّل الفجر للمساهمة  
في أعمال الحرث مع رجالهن . يتناولن طعامهنّ ساكناً .  
ولما لم يكن لدى الأم ما تأكله ، فهي تخضع الحبل الذي به  
تشدّ على رأسها كومة الحطب . ولما كانت تسير في مقدمة  
الصفّ دائماً ، فلم تكتشف النساء حيلتها ولم يعرفن ما  
كانت « تأكل » . ولقد علمتهنّ الغناء ، فصرن يدعونهن

الجماعية.

والآم، أخيراً، هي من تزوج بعلمها، أبا البطل، من زوجة ثانية أكثر فتوة، عندما كبرت هي ولم تعد قادرة على الاضطلاع بشؤون البيت. ولكني تتدع للزوجة الجديدة كامل سلطانها على البيت وحرية فيه، تهجر الأم المنزل الزوجي وتضطلع بكامل الشجاعة بحياة متوحدة، لا سيما وأنّ الأخت وجدت هي الأخرى طريقها إلى الزواج. وأثرية هي الصفحات المختارة التي يصف فيها البطل، العائد من المدينة بعد الدراسة، اكتشافه لعمل الزمن وأثره القاضم للأشياء والذوات. كان يحسب أنه قصيدة. والآن اكتشفت أنها كائن إنساني. لم يعد أمامها سوى حياة عادية، حياة تتشظن على الأمراض والتعب والهجوم الصغيرة والشيوخوخة، حياة عادية. ولما كان الأب مريضاً وغائباً للمعالجة، فإنّ الصبي يستبدن للعائلة من حزام عشرة ربالات، يقول له حزام إن قيمته المعنوية تعادل مائة ريال، ويصادق هو على ذلك، لأن وراء هذه الربالات العشرة عناء أجيال متوالية. بعد ذلك، يعود الصبي إلى المدينة صبية رفاقه، هناك حيث ينتظرهم الفقر والمهانات اليومية والجرع والمدينة الصغيرة التي تعرف الغناء الحسن الخطّ. ولدى عودته، يجد في حقيبته الخدائن الذين كان سرقهما ليهدبهما لأنه: كانت عينها المسلطة عليه من داخله تحبس كل شيء وتغيط بكل شيء.

إلى جانب الأم، هناك أخيراً الأخوات اللاتي يشاركن هن أيضاً في ترسيخ عالم الأنونة العارفة والعميقة هذا. أخوات شقيقات وغير شقيقات يمنع كلاً منهن اسماً شعرياً، فواحدة اسمها «أختي» ذاكرتي، وثانية اسمها «أختي التي أحبها»، وثالثة اسمها «أختي التي تحبني»، إلخ.

الأب:

بالرغم من تواضع المجال المعبود له في الرواية، بالقياس إلى حضور الأم وحزام للتواصل، يشتمع الأب بمكانة فعلية في هذه الرواية. قلنا إنه بدأ حياته بمحنة الغناء والتفنن

القريب الذي فيه ينعكس موتنا نفسه: «كنت أصغر منك عندما توفي أبي»، يقول له حزام. وأنه تروي له حكاية أسرة تعيدنا كذلك إلى قوة الغناء وارتسامه شرطاً للحرية. ففي اليوم الذي فقدت عبد ابناً له، أمره مالكه بالذهاب للعمل حال رجوعه من دفن الابن. فطفق العبد يحمل ويغني، أغنية تترجمها عن الفرنسية لعدم توفّرنا على نصّها الأصلي بالعامية:

«آه يا غرابي!

آه يا غرابي الأسود!

يا ثمرتي التي دفتتها

آه يا ثمرتي

أنت ثمرتي، أنت روعي

آه يا ثمرتي السوداء!

إنني أدفن عيني

آه يا ثمرتي

كان ينبغي أن أدفنتي».

فيبدو على أثر ذلك بينه وبين سيّده هذا الحوار:

«لم يكن لك الحق في الغناء.

— اعرف. لقد قلت لي ذلك. إنني لم أفعل سوى البكاء.

— بل لقد غيّيت. ولقد علمتني ما هي الحرية.

— لكل حرّيته.

— لو تقاسمنا أنا وأنت الحقل والغناء!

— سأكون في هذه الحالة أنا السيّد.

— لكل حرّيته».

وفي موقف آخر، محتل هو الآخر بالدلالات الرمزية، نرى إلى الأم وهي تعالج خفاشاً سقط في الحجرة وتدنه بالزبدة. تقول لابنها إنه يمثل روح أحد الأسلاف. وعندما تدخل أخته تقول له الأم إن خفاشاً آخر يدخل. في هذا التمازج بين المخلوقات وعبر هذه الشاكلة في تهديم السدود بين العوالم، يرى الراوية بقايا معتقدات سابقة للإسلام استطاع أهل القرية، كما في سائر البلاد العربية، إدخالها في ثقافتهم الشعرية وإدراجها ضمن آثار مخيالهم

في السهرات مع أبناء « الطرف » وإله كان يُلقَّب لذلك بـ « الرعدان ». ثم صار يتنقل للأتجار، بعدما استدان مبلغاً صغيراً من جاره له راح يتقاسم معه الأرباح وكان لبيخله يُدعى بـ « الصخرة ». لكن الأب، في محادثاته مع ابنه، بطل الرواية، التي تساهم هي الأخرى في تعزيز تربيته العاطفية والعلمية، يقول له إن راسماله الوحيد كان هو خبراته وصدقاته المكتسبة في التجارة : « صار لي قصر في كل جبل »، يقول له مشيراً إلى معارفه .

يكتسي الأب قدراً من الانسانية كبيراً عبر بعض الصفات والممارسات . فكان لا يقدر على الأكل من دون تلويث ثيابه . كما أنه يقدر مرةً مفتاح حجرة الضيوف، ولا يهدأ بال الصبي حتى يستعيد الأب المفتاح، رمز فحولته . وكان مولعاً بالمطر . يقول لابنه إن لكل مطر نبأته الخاص، وهو يتلقى المطر بكامل مسامات جسمه، عارياً في العراء، ويدعو ابنه إلى أن يفعل مثله . وما كان ليتوقف عن أعمال الري إلا من أجل الصلاة . وفي اليوم الذي يستعيد فيه مفتاح مخزن طعام الضيوف، يصلي ابنه معه، إلى جانبه، « كما لم يصل قبل ذلك أبداً »، بتعبيره هو نفسه .

والأب هو الآخر، بالنسبة إلى الابن، معين للأساطير والحكايات لا ينتضب . يسرد له حكايات عن الجن، الطيِّبين الذين يمتدُّون الشعراء بالالهام والذي يوقظون رجلاً في منتصف الليل ليدلّوه على كنز مخبأ، والحبيشة الذين هم على هيئة أفاعٍ تقتل نفسها إذا لم تملع في القتل . وكان للأب خنجر ثمين يضطرُّ لبيعهِ لشراء ثور، بعدما نفق ثور الأسرة . يرفض جاره، الذي كان يذهب للشجدة في المدينة، اشتراء الخنجر، لمعرفته بأن قيمته لا تُقتر بدراهم وريالات . ثم يشتريه بعد إلحاح، ولكنه يخفيه طاملاً كان الأب على قيد الحياة .

### البطل :

من هذا كله يحتفظ البطل بعناصر مكتوبة أساسية يضيف إليها مكتوباته الشخصية الخاصة . هو مزيج من

غنائية الأم ووعيتها الشعري العالي بالحياة، ومن طابع الحسم لدى حزام وتمجيده لإرادة العمل، ومن محبة التنقل لدى الأب وإيمانه بالقوة التي لا تُموض للمرموز وبعض الأشياء الملازمة للإنسان والتي تنهض كحوامل للوعي وشواهد على الوجود . هذا البطل، الذي نتعرف عليه في البداية طفلاً تغذيه الأم وحزام بالحكايات، ثم صبيّاً يافعاً يغزو المدينة للدراسة، وأخيراً روائياً يحمي خلق عاله الأصلي في مدينة خريبة (باريس) بلغة أجنبية (الفرنسية)، هذا البطل هو قبل أي شيء آخر نظرة . كتب : « كان حزام يعرف أنني اخترق الآخرين بمجرد النظر إليهم ». وهو، إلى ذلك، بوح . ففي قرية يتملأ شعارها ودعاء ابنائها اليومي في المقولة : « اللهم احفظ سري وسر ذوي إلى الأبد »، يجد هو متعة قصوى في الإفشاء بجميع الأسرار التي يودعه إياها الآخرون . وعن عجب، فكلمنا أفشى للآخرين بأسراره، أفشى له الآخرون بدورهم بأسرار عديدة من حياتهم الخاصة . وليتخلص من مخزونه الهائل من الأسرار هذا، يدون ذات يوم جميع أسرار القرية في لائحة طويلة يعلقها على باب دار أهله . نجم عن هذا مشهد سحري حرّز القبيلة وأطلق من عقالها جميع عواطفها للكبوته . لقد خرج جميع أهل القرية من بيوتهم وراحوا يحتفلون باكين . كان ذلك كمثل يوم نشور وانبعاث . شيخ القرية نفسه استقال، فذه قرية بلا أسرار ليست بحاجة إلى شيخ »، على حدّ تعبير الشيخ نفسه .

تتوالى حياة هذا الصبي كسلسلة من الأفعال التأسيسية والمبادرات التشيئية . ففي اليوم الذي يعود فيه لآخواته وأمه من أحد أعراس القرية يعظم علق به شيء من اللحم، احتفظ به تحت حزامه، تحتفل العائلة بفعله هذا الذي جاء ليكرس وصوله عتبة المسؤولية وللرشد . وعندما يعود أبوه ويعلم نبأ العظم – التحفة، يذهب للمناسبة خروفاً . في اليوم التالي، يهديه الأب سكينته الأولى مع حزام من الجلد جميل، ملوّن، أمه، من ناجيتها، تذكره بسلطة الخال وبالانحدار الأمومي

## المدرسة / المدينة:

ترسم للمدرسة (الثانوية) والمدينة، ومن قبلهما للمستوصف والمستشفى، كمؤسسات تقع على طرفي النقيض من «المؤسسة» التي تمثلها القرية أو القبيلة، ومصدر تهديد بالتقوض لن تغلق القرية في تطويعه إلا بالتدريج، وبفضل ابنائها (وينهم البطل) الذين سيشكلون ما يشبه «رزة» أو همزة وصل بين عالمين ومخيالين.

قبل المدرسة الثانوية، كان مستشفى المدينة قد بدأ يجتذب بعض أبناء القرية. كان أحدهم قد عُيِّن مسؤولاً عن أمن المستشفى. فراح آخرون يلتحقون به ويجدون في المستشفى نوعاً من الفندق المجاني يُتاح للبيض المشور على عمل فيه فيما يعود آخرون بخفي حنين.

يلهب الصبية لإكمال الدراسة في المدينة متكافلين متضامنين، حاملين معهم من القرية، في صرر محفوظة بعناية، كميات من الرز والطحين وما يلزمهم لكفاف اليوم. لكنهم لن يطفئوا في اكتشاف ضرورة غزو المدينة بأفعال تنم عن دهاء وجراة متدرجين. يحلبون في السر عزرات أحد الجيران، وينهبون محتويات حاويات كان صاحبه، وكان يعرف ذوهم، قد رفض أن يبيعهم بالذين بعض ما يحتاجونه من مواد غذائية. وهم يهتجون كجسد واحد للمطالبة باسترداد حزام رفيق لهم وسكينته، كان جارهم، صاحب البيت الذي استأجروا غرفاً فيه، قد صادرها منه بغير حق. وشديد الدلالة هو المشهد الذي نرى فيه إلى الصبية، في عملية لتطويع غربتهم في المدينة، وهم يكتبون اسم قريتهم على جدران الغرف ويخرجون إلى الشوارع حاملين سكاكينهم ومتنطقين بأحزمتهم التقليدية. مشهد يعيدنا بدوره إلى مفامرة بطلنا العائرة في قريته، عندما ذهب إلى مدرستها في أحد الأيام بالزي الحديث وشرع، لدى رفع المعلم، بإلقاء التحايا الممهودة إلى الوطن وأعضاء الحكومة والأساتذة ورأى إلى بطناله وهو ينزل تدريجياً حتى يبلغ قدميه. ومن حسن حظّه أن قميصه كان طويلاً بحيث يغطي سابقه، وإن معلمه

للرجولة: «إسمع يا بني»، تقول له. إن خالك يقبع في داخلك. إن شرف العائلة بين يديك. وإذا أصبح الصبي رجلاً، فلأن الحال هو كذلك من قبل».

ويتجلى العشق داخل الصبي وفي سلوكه على هيئة خروج متواصل عن القاعدة. يبالغ الصلاة مثلاً ويُفاقم أفعال العبادة، فيلاحظ ذلك والد المعشوقة نفسه وينصح ذويه بالعناية بأنهم. ثم يروح يتبختر على ظهر حماره أمام المعشوقة وأختها ويعثر به الحمار ويسقط هو، فيشعر بالعار. وهنا أيضاً تأتي أنه لنجدته وتنصحه باستمالة قلب المعشوقة بالغناء. وينصحه حزام برؤية الشمس في الليل، فيسهر ليلي عديدة إلى جانب امرأة عجوز عارفة بجميع أسرار القرية. لا يفلح في رؤية الشمس ليلاً، ولكن المجوز تلتفه جميع الأسرار. هكذا يتزوج جنوته («لست مجنوناً بالفعل، ولكنك مجنون بالغناء»، يقول له حزام). صار التلميذ الأذكي في المدرسة، وباتت القرية تخشى معرفته بأسرارها. ولدى وفاتها، تورثه المجوز المذكورة جميع حقولها، فيقول له حزام: «نلت بالغناء كل ما لم أفلح بنيله بأموالي».

لكن الصبي، الذي كبر ونال شهادة المدرسة الابتدائية، بات عليه أن يغادر القرية «وقوس قزحه»، ليحقق حلم أبيه وأساتذته: أن يصبح صحفياً. ذلك بالنسبة إليه «ضرب من الموت». فرفض وشرب من جميع الآبار واجتاز القرية بكاملها مخمض العينين. وفي كل مرة يعود فيها إلى القرية في إجازة، سجد أمامه اختبأراً آخر وعبة تلقينية جديدة يجتازها. مرة يفقد «قوس قزحه»، التي تزوجت من شاب آخر وتركت للبطل خصلة من شعرها وقلادة عطر. وحزام هو الذي جلس إلى جانبه ليؤاسيه، على صحرة سحباها «صحرة الذاكرة». مرة أخرى، يشارك أباه في ذبح خروف الأضحية، ولما كان الوالد مريضاً وعلى أهية الرحيل للمعالجة، فإن هذه هي المرة الأولى التي تشهد فيها العائلة صعود الابن وتراجع الأب.

هرع لإنجاده فصعد البطلان وامسك به حتى الفروغ من إلقاء التحية أمام العلم.

ويتمثل فعل الغزو الأكبر لفضاء المدينة الاجتماعي بقيام أحد رفاق البطل بإعالة جميع أصحابه بارتياحه نساء التجار وكتابته وسائلهم وإرضائه حاجاتهم جميعاً. كان يعود كل مساء لأصحابه بأشهى أنواع الطعام. بفضلها، تمكن رفاقه من النجاح وعاد هو في نهاية العام الدراسي يحمل ما كانوا يعدونه «فشله» وما كان يورق ضمائرهم بشدة. لكنه كان يعد نفسه هو الراجح، إذ عاد للقرية بمعرفة واسعة في الحياة وبعدد من الهدايا جعلت رفاقه يتلاشون وراءه لدى استقبال القرية الجماعي للمالدين.

ولكن كانت المدينة تشكل مصدر إثراء للقرية، فهي ظلت تمثل من نواح أخرى إمكان فساد للابناء. فالمسؤول عن امن المستشفى يُفرح ذويه وجيرانه ويفجعهم في آن معاً. يُفرحهم إذ يأتهم بملابس قام الأولاد بارتدائها فوق ملابسهم الريفية ( «كنا نرتدي العاصصة فوق القرية» ) كتب الراوية في عبارة تعتبر بصورة بليغة عن تراكب هذين العالمين وتمازجهما. ) ويفجعهم إذ يُمنع في التدخين أمام ذويه ومستقبليه، وكانت هذه في نظرم عادة مستوزدة وهجينة. أفقده هذا جانباً من حظوته كبيراً. كانت القرية حزينة. وعرف أهلها بعد ذلك أن أبا المعني نفسه قد أجش باليكاء.

وعلى العموم، فالموقف من المدرسة، بدءاً بالمدرسة الابتدائية في القرية نفسها، يظل مشوباً بالحذر وبالحية. فالمعلمون حملوا للقرية عادة استخدام القمامة. قبلهم، لم تكن الناس لترمي شيئاً، إلا الرمد. والهم الأباه المدرسة بإحالة أبنائهم جبناء، وفي عبارة أحد المعلمين: «أبنائكم أبناء الحكومة»، لحظ الأباه تنفيراً سلبياً بالغ الخطورة يهدد بإحلال الجسد الرسمي الواسع والمتناثر محل جسد القبيلة المتضام والمخلق على ذاته. ولا أكثر خيانة ونكراناً في نظرم من يغادر القرية بعد بيع ممتلكاته فيها. وما كان ليسرهم أن يروا إلى علم البلاد وهو محل محل راية القبيلة، وإلى النشيد الوطني الصباحي وهو محل محل

صلاة الفجر التي تؤدى في مسجد القرية والتي منها ينسل القروي الى فعل عبادته الآخر المتمثل في الحرث.

بالنسبة إلى الصبي الذي كان بطل الرواية، مثلت المدرسة التحلي عن السكين، تقليم الأظفار، الإمعان في النظافة، الكف عن السير حافياً والامتنال لتعاليم أساتذة أتون من مصر وسوريا والأردن. وخصوصاً الاكتساب التدريجي لحقيقة شخصية داخلية حيثما كانت القبيلة تريد الاحتفاظ به «خلية صغيرة في جسدها الكبير». كانت الكلمات التي بدأ يتعلمها في المدرسة تبدو له «أكبر من الحقول»، كلمات يلمسها ويتصورها، لا يقرأها فحسب. إنه يفتح إلى عالم آخر سوى عالم حزام. لا غرابة، والحالة هذه، أن تتمثل إحدى الكلمات الأثيرة لديه في «العالم». عالم ينال هو والصغار الآخرون فيه الحق بالضحك والبكاء والكلام واللعب؛ يكونون صغاراً لا سكاكين.

في باريس، أعاد البطل خلق قريته لأنه قام، طيلة سنوات، بإعادة اكتشافها. جاء وهو يحمل معه طبائعها وطقوسها. قلنا إنه ظل يحيي جميع الناس في المترو (القطار الجوفي داخل المدن)، وإذ لا يرد عليه أحد، فهو يواصل إلقاء التحية همساً. فرنسا التي يختار هي، بتعبيره، «بلد إيلوار وأراغون وبريفير»: سلالة شعرية يضعها بمقابل شجرة إنسابه التي يسردها في الصفحة الأولى من الرواية والتي تقوده إلى قحطان، السلف البعيد، وأبعد منه. كتب: «في باريس، استطعت أن أرى بلدي وقريتي. هناك، كنت شاعراً فحسب. وباريس مكنتني من أن أكون إنساناً بكامله. وهذا هو لعني الحقيقي للحداثة». والمسافة التي تفصله عن القرية وتجمعه بها في آن معاً، هي التي أتاح له أن يقوم بفعل الكتابة هذا الذي يطلقه هو كإعلان استقلالي: «ما تزال القبيلة تنظر إليّ كخلية صغيرة في جسد واسع، خلية سوداء في نظر البعض، لأنني تزوجت من فرنسية».

لتمد الصبي، والكاتب الذي سيكونه، عن القرية، ولم يبتعد. «أحمل قريتي في داخلي كمثل شعلة لا

لغة الكاتب وأحواله وشخصيات عمله المحرورة، أن نشير إلى بناء الكتاب. والحق، فمع تأكيد الكاتب في العديد من الحوارات المجررة معه بالفرنسية والعربية، ويتواضعه الأنموذجي، على «جهله» بفن الرواية وعلى أنه لم يقرأ إلا «حقة» معدودة من الروايات، إذ هو أتى إلى الأدب من جهة الشعر وإلى الثقافة من ناحية الدراسة التاريخية والأنثروبولوجية، نلاحظ في عمله هذا، وهو الأزل الذي يكتبه سرداً، تمكناً تقنياً عالياً ونوعاً من الحدق أكيداً. فصول الكتاب هي بنات مترصة، يقبض كل منها على نواة أساسية من عالم القرية أولاً والمدنية من بعد، ويرسم الشخص والافكار والعوالم الداخلية والأحلام بنصاعة وكثافة. الكثير من عباراته تنتصب بتشخيص بالغ، ولها نفاذ الحكمة أو للثل السائر. صفحات أخرى يمكن اعتبارها قصائد نثر أو أغاني. هذا كله ربما كان يأتيه من عالم الطفولة الذي كان زاغراً بالحكايات، والحكاية فن تاليف وتقنية بنام وشكلة في تكثيف التجارب وترميز المعيش والحلم. ومؤكّد أن هذا يأتيه من تلك الأم الرائعة التي كانت أمه، والتي كانت، كما تبين لنا في هذه الرواية، شاعرة ورواية استثنائية.

لدهج

تخمد، كتب في مطلع الرواية. ولدى اكتمال العمل، يهتف إلى حزام، وكان في المستشفى، وتعلمه بأنه سيسمي روايته «حزام»، لأن «الحزام يكشف، أما الحجاب فيخفي». يسأله حزام: «الم تبغ قريتك على الأقل؟». فيجيب الكاتب - الراوية: «من ذا الذي يقدر على بيع روحه؟». فيعده حزام بأن يترك له حزامه وسكينته (وهذا ما حصل) ويقرّ أمه أخيراً بعظمة المرأة: «أهدأ لم أكن متفقاً مع أنك التي كانت تنظر إلى القرية كإغنية. لكن قلت لي إن النساء رافقتك طوال الكتابة. انحنى إذن أمامهن ما دمن أنقذن القرية من الضياع».

في محل آخر من الرواية كتب البطل - الراوية: «أنا نفسي تُصَبّ تاريخي»: نصب يحمل، في تكرينه العضوي نفسه، رموز عالمه الأصلي وآثاره. ولعن كان يجهل العام الذي ولد فيه، فهو يتذكر جيداً اليوم الذي أخرج فيه إخصائيه القدم من باطن قدميه بضع أشواك منفرة فيهما كحيوانات متحجرة. تاريخ وما قبل تاريخ. والكتابة هي الاختيار الذي يسمح بمعالجة هذا كله وإعادة تصنيفه في خارطة هي شعريّة بالأساس وأولاً بأول. بقي، في ختام هذا العرض الذي شغنا أن يقف فيه القارئ العربي غير المتوقّر بعد على ترجمة الكتاب على

## أرونداتي روي، ثمن العيش، ١٩٩٩

Arundhti Roy, The Coast of Living, Modern Library Paperback,  
New York, 1999

الحدود بين الطبقات في الهند، وما أنتجه ذلك من موت مدمر وتقطّع أوصال الأسرة الصغيرة التي تجرأت الأم فيها على إقامة علاقة مع واحد من طبقة المنبوذين.

الثيمة الأساسية في «إله الأشياء الصغيرة» إذن تدور حول الإنقسام الطولي الحاد المرور في بنية الحياة الهندية على مدى العصور، وعدم قدرة الحداثة على

منذ روايتها الأولى واليتيمة «إله الأشياء الصغيرة» اهتمت الكاتبة الهندية الشابة أرونداتي روي (٣٩ عاماً) بالقضايا الشائكة في النسيج الاجتماعي المعقد في الهند (انظر تعليقاً لكاتب هذا العرض على تلك الرواية في الكرمل، العدد ٥٤، شتاء ١٩٩٨). وقد بنت روايتها، التي فازت بجائزة اليوكر البريطانية عام ١٩٩٧، على حكاية قطع

رأب هذا الصدع أو تغيير التراتب الاجتماعي في شبه القارة، التي تدعي نخبتها السياسية أنها من بين دول العالم الثالث التي استطاعت أن تقوم بتحديث بنياتها الاقتصادية والثقافية، وتحاول اللحاق بالعالم الأول. لكن أرونداتي روي، ومنذ مساهمتها الأولى في عالم الكتابة، تكشف الجرح العميق الذي تخياه الهند، وتضع يدها على تجاور المتناقضات واجتماع الأضداد : من عصر الفضائيات إلى عدم السماح لطائفة المنبوذين بالزواج من أمة طبقة أخرى من طبقات المجتمع الهندي في زمان تدعي فيه الهند أنها جزء من العالم الحديث، الذي يساري بين أفراده بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي أو الاجتماعي

كتاب أرونداتي الأخير « ثمن العيش » الصادر بالإنجليزية حديثاً ( منشورات مدرن لايبيري بيير باك، نيويورك ) هو بمثابة مانيفستو يركز خطابه على الأفكار الأساسية التي تقيم في فضاء عملها الروائي الأول؛ أي على الكشف عن طبيعة فساد الأفكار والنظام الذي يتحكم بحياة الجماهير الفقيرة في الهند الشاسعة المقسمة والمنقسمة على ذاتها.

ليس « ثمن العيش » رواية، كما يتوقع المرء من كاتبة أحرز كتابها الروائي الأول أرفع جائزة أدبية في العالم الأنجلوساكسوني وأصبحت أرونداتي روي بسببه من أصحاب الملايين، بل هو عمل ينتمي إلى عالم الصحافة مازجاً التحقيق الصحفي بالتأمل الذاتي والمادة الأرضية.

تعتقد روي فصلي كتابها على موضوعي بناء السدود الضخمة في الهند، وإنجاز مشروع تصنيع القنبلة النووية الهندية لمواجهة التهديد النووي

الباكستاني! وهي من خلال تفكيك المنطق الذي يستند إليه الخطاب السياسي الرسمي، في تبرير هذا النوع من المشاريع الخطرة للمدبرة (في نظرها)، تعمل على نزع الغموض والسحر عن أسطورة الهند الحديثة المعاصرة.

يتناول الفصل الأول من « ثمن العيش » عملية بناء السدود الضخمة في الهند، التي بلغ عددها أكثر من ٣٦٠٠ سد، وتسببت بنزوح أكثر من خمسين مليوناً من البشر الذين يسكنون على ضفاف الأنهار التي بنيت السدود على مصباتها أو ضفافها، كما أدت إلى تشريد ملايين من طبقات الهند الفقيرة وحرماتها من مصادر رزقها الرئيسية وتدمير أراضيها وإغراقها لتضطر هذه الملايين الفقيرة، إلى النزوح إلى مناطق بعيدة عن أماكن سكنها التي اعتادت عليها، وليعمل أفرادها من ثم عمال مياومة ينتقلون من مكان إلى مكان إن سمحت لهم الدولة بذلك. إن روي، في سبيل الكشف عن تراجيديا العيش التي تعانها في هذا الكتاب - المانيفستو، تجمع المادة الأرضية التي تستفيد منها في هذا الفصل وتعيد تنظيمها لتصبح ذات معنى بالنسبة للقارئ. وتتكون هذه المادة الأرضية من التقارير الحكومية حول السدود الضخمة وما تصرح به هذه التقارير من أعداد البشر، الذين أجلتهم عمليات بناء السدود والفيضانات التي نشأت عن عمليات تحويل مجرى الأنهار، ومن تقارير البنك الدولي والقروض المقدمة للحكومة الهندية لبناء تلك السدود، وأعداد المهندسين والمستشارين والبيروقراطيين، برواتبهم وحوافزهم الضخمة، الذين وظفهم البنك الدولي؛ لتصل في النهاية إلى بدعة

السدود الحديثة التي تخلص منها العالم الغربي بسبب الأضرار الكبيرة التي تسببها للطبيعة ونظام الري والأمراض التي تنشأ عنها . ولهذا الأسباب قام العالم الغربي بتحويل هذه المشاريع إلى العالم الثالث ليحافظ على عوائد القروض الضخمة، ويمول جيشه من البيروقراطيين والمستشارين الذين سرعان ما يظهرون على المسرح، متكاتفين كلما طالبت دولة من دول العالم الثالث البنك الدولي بإعطائها قرضاً طويلاً الأجل، للمساعدة في تمويل مشروع سد ضخم يجعلها تدخل العصر الحديث من أوسع أبوابه !

الأساسي في كتابة أرونداتي روي عن مشاريع السدود الضخمة في الهند ليس المادة الأرضية المنتقاة، أو كشفها عن الأضرار الفادحة التي تترتب على بناء هذه السدود، بل الجهد الإنساني المكافح ضد إستغلال الناس والتهوين من شأنهم وتشريدهم من أوطانهم دون الشعور بأي قدر من تأنيب الضمير. إن روي تتابع عدداً من العائلات التي شردها بناء السدود وكيف دُفرت حياتها، وتحول أفرادها من مزارعين يملكون أراضي يزرعونها ويعتاشون منها، أو صيادين يعتمدون صيد أسماك المياه الحلوة، إلى عمال مياومة أو شحاذين يمدون أيديهم للناس . وتشير روي إلى أن أعداداً كبيرة ممن شردهم السدود هم من أبناء طبقة المنيوسين في الهند، تلك الطبقة التي كرسَت الكاتبة الهندية الشاتية كتابها الروائي الأول لإنصافها والحديث عن عمق الشرخ الاجتماعي الحاد، الذي يقيم في أساس القارة الهندية بسبب هذا التمييز المتوارث بين الطبقات الاجتماعية .

الفصل الثاني والآخر من كتاب روي يدور حول « القنبلة النووية الهندية » التي صوّرت للجماهير الهندية، لا للتخب السياسية الحاكمة فقط، أنها استردت كرامتها الوطنية بسبب النجاح في صنعها، وأن الهند ( الهندوسية ) قادرة على الإنتصار على عدوتها الإسلامية باكستان . لكن أرونداتي روي تشرح في هذا الفصل، الذي تضع له عنواناً موحياً هو « نهاية الخيال »، أن السلاح النووي سيكون مدمراً لكلا الطرفين إن فكر أي طرف باستعماله، وأن الوهم القائل بأن السلاح النووي ذو طبيعة رادعة لا يأخذ بالحسبان الصدف الطارئة التي تتسبب بالفعل بنشوب حرب نووية مدمرة . ما هو دال في هذا الفصل هو كلام روي عن جهل العامة بما يمكن أن تسببه حرب نووية وسخريتها من كلام النخب السياسي عن سبل الوقاية من الحرب النووية بتناول حبوب السيود، والبقاء في المنازل وعدم الخروج، وتناول مخزون المنزل من الماء والطعام، والكف عن شرب الحليب، وأن يتناول الرضّع الحليب المجفف فقط! وتعد روي هذا الكلام جنوناً مطبقاً لأن الحرب النووية إذا نشبت بالفعل فلن توقر أحداً ولن تنفع معها سبل الوقاية التي تنصح بها الدولة الجماهير، التي اعتقدت أنها عززت هويتها بعد نجاح التجارب النووية التي قامت بها الحكومة الهندية .

تمزج أرونداتي روي، في كتابها الممتع ( ١٢٦ صفحة من القطع الصغير )، بين أسلوب الريبورتاج الصحفي، الذي يقدم مادة أرشيفية تغذيها أصوات الناس والمختصين والمشاركين في التحقيق، والتأمل الذاتي وتذكير القارئ بالكاتب الذي يقف وراء السطور التي تتتابع تحت بصره . بهذا المعنى فإن

تنجح دولة من العالم الثالث في امتلاك السلاح النووي. لكن هذه المشاعر المجرّحة، التي ترك أثرها على الكاتبة الهندية الشابة، سرعان ما تتبدد وتتوارى في خلفية المشهد عندما تكتشف حجم الرعب الذي يمكن أن يسببه انفجار حرب نووية بين دولتين جارتين مثل الهند وباكستان، وكذلك عندما تتبيّن حجم الجهل بالدمار الشامل الذي يهدد الهند قبل باكستان إن نشبت تلك الحرب النووية.

« ثمن العيش » يعيد النظر في أسطورتين إثنيتين من أساطير الحداثة الهندية : السدود الضخمة والسلاح النووي، فالهند، حسب روي، إذ تدخل العصر الحديث من خلال هذا النوع من المشروعات الضخمة تدمر الطبيعة وتشرّد مواطنيها وتهلّد مستقبلهم وتجلسهم في بيت الرعب الذي يغرفاه لبيتلهم إن نشبت في يوم ما حرب نووية لا تبقّي ولا تذر بين الهند وباكستان.

فخري صالح

روي، الكاتبة الحاصلة على جائزة البوكر وصاحبة رواية « إله الأشياء الصغيرة »، حاضرة بقوة في الكتاب؛ فهي موجودة في خلفية الفصل الأول، الذي يحكي عن خرافة التحديث في الهند من خلال إنشاء السدود العملاقة، عبر التركيز على هويّة المهجرّين من منازلهم وأعمالهم وأراضيهم من طبقة الأديفازي ( المنبوذين )، وكذلك من خلال تصوير البيئة التي راقبت الكاتبة من خلالها تحولات الحياة الهندية المعاصرة في زمن التحديث المدمر للطبيعة الهندية. إنها نفسها زاوية النظر التي نثر عليها في « إله الأشياء الصغيرة » سواء من حيث الرسالة التي تشدد عليها الرواية أو من خلال البيئة المرسومة في مقاطعة كيرالا الهندية الجنوبية. أما في الفصل الثاني، الذي يتحدث عن « أسطورة » القبيلة النووية الهندية، فهي موجودة على خلفية رحلتها إلى الولايات المتحدة للترويج لكتابتها « إله الأشياء الصغيرة » حيث تعان في الإعلام الأمريكي النظرة الغربية الإستعمارية والدهشة المتقرّزة من إمكانية أن





(66) 2001

ISSN 1607-7024

AL-KARMEL(Ramallah)